دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الشياطين ١

دار



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثاني عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الشياطين

١

« الشياطين » (Biéssy) : نشرت هذه الرواية أول مرة في مجلة « الرسول الروسي » . فالجزء الأول والثاني نشرا سنة ١٨٧١ ، والجزء الثالث نشر سنة ١٨٧٢ .

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين ؟
الشيطان يجرنا هنا وهناك
ويديرنا الى كل الجهات

ما عددهم ، والى أين يسيرون مسرعين ؟
ماذا تعني أغنيات الحداد هذه التي يرددونها؟
أهم يدفنون أحدا من أهلهم ؟
أم هم يزوجون ساحرة ؟

أ . بوشكين

« وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى فى الجبل ، فتضرعت الشياطين الى يسوع أن تدخل فى الخنازير • فاذن لها • فخرجت من ذلك الانسان ودخلت فى الخنازير • فاندفع القطيع من أعلى الجرف الى البحيرة ، وغرق فيها • فلمـــا رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ فى المدينة وفى القرى • فخرج الناس ليروا ما جرى ، فلما وصلوا الى قرب يسوع وجدوا الانسان الذى كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابسا ثيابه ، مالكا عقله ، جالسا عند قدمى يسوع • وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون • »

(انجيل لوقا ، الاصحاح الثانى ، ٣٢)

الجزء الأول

الفصل الأول

بمثابة مدخل : بضعة تفاصيل عن حياة المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

حين أشرع في سرد قصة الأحداث الأخيرة الغريبة التي وقعت في مدينتنا ـ في هذه المدينة التي لم تتميز بشيء يوما ـ فانني أجدني مضطرا أن أتقهقر قليلا الى وراء ، أي أن أبدأ بذكر بعض التفاصيل عن حياة ذلك الرجل الموهوب المحترم المبجّل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي * . ان هذه التفاصيل لن تكون الا مدخلا الى القصة التي ننوي أن نرويها . أما القصة نفسها فتأتي بعد ذلك .

يجب أن أقول بصراحة ان ستيفان تروفيموفتش قد مثّل بيننا على الدوام دورا خاصا ، دورا « مدنياً » بمعنى من المعاني ، وكان مولعا بهذا الدور أشد الولع ، شغوفاً به أقوى الشغف ، حتى ليخيَّل اليّ أنه ما كان ليستطيع أن يعيش دون أن يمثّله . ليس معنى هذا أنني أشبهه بممثل على مسرح . معاذ الله ! لا سيما وأنني أنا نفسي أحترمه . ولعل الأمر لا يعدو أن يكون عنده أمر عادة ، أو قل أمرَ ميل ثابت نبيل كان يحمله منذ الطفولة على أن يحلم لنفسه ـ متلذذا ـ بوضع مدني جميل . فهكذا كان يصر أشد الاصرار على أن يحتفظ لنفسه بحالة انسان « مضطهَد » أو انسان « منفي » بمعنى من المعاني . ان في هاتين الكلمتين الصغيرتين

جمالا كلاسيكيا قد فتن لبه مرة الى الأبد ، وكان يرفع قدره فى نظر نفسه شيئا بعد شيء ، خلال سنين بلغت من الكثرة أنه نصبه أخيرا على نوع من قاعدة تمثال عالية ترضى غروره كثيرا . فى رواية ساخرة انجليزية يرجع عهدها الى القرن الماضى ، أن رجلا اسمه جوليفر عاد من بلاد الليلوبسيين التى لا يزيد طول البشر فيها على بوصتين ، فكان قد بلغ من التعود على أن يعد نفسه بينهم عملاقا ضخما أنه حتى أثناء سيره فى شوارع لندن كان يصيح على غير ارادة منه ، مهيبا بالمارة والعربات أن تزيح عن طريقه مخافة أن يدوسها ، فهو ما يزال يتخيل نفسه عملاقا وما يزال يتصور الناس أقزاما . وكان الناس يضحكون منه ساخرين ، وكانوا يشتمونه ويسبونه ، وكان الحوذيون الغلاظ يمضون الى حد لسع العملاق بضربات من سياطهم . ولكن هل كان هذا عدلا ؟ أهم يجهلون الى أى حد يمكن أن تمضى العادة بالانسان ؟ الحق أن ستيفان تروفيموفتش كان قد وصل الى هذا الحد تقريبا ، وان يكن فى صورة أكثر براءة وأقل ضررا وأذى ، اذا جاز استعمال هذا التعبير ، لأنه كان رجلا ممتازا ، والحق يقال .

أغلب ظنى أنه كان فى النهاية قد نُسى فى كل مكان ، وأنه غاب عن ذاكرة جميع الناس . ولكننا لا نستطيع أن نقول انه كان رجلا مجهولا تماما فى جميع الأزمان . فمما لا يمكن أن يجحده أحد أنه كان هو أيضا فى وقت من الأوقات أحد نجوم الحياة العامة من أبناء جيلنا الماضى ، وأن عددا من المسرفين فى التعجل قد قرنوا اسمه خلال فترة من الوقت ــ وان تكن فترة قصيرة جدا ــ بأسماء رجال مثل تشاديف* وبيلنسكى وجرانوفسكى وهرتسن الذى كان يخطو أولى خطواته فى الخارج حينذاك . غير أن نشاط ستيفان تروفيموفتش ما كاد يبدأ حتى انتهى ، فى أعقاب « اعصار من الظروف » ان صح التعبير . وقد تبيّن

فيما بعد أنه لم يكن ثمة « اعصار » ولا كان ثمة « ظروف » ، فى هـــذه الحالة التى تعنينا على الأقل . ولم أعلم الا الآن ، منذ بضـــعة أيام ، أن ستيفان ترفيموفتش لم يكن يعيش فى مقاطعتنا منفياً ، كما كان يظن الناس عندنا عامةً ، بل ولا كان مراَقَباً فى يوم من الأيام . لقد دُهشت أكبر الدهشة حين عرفت هذه الحقيقة ، ولكننى عرفتها من مصدر لا يتطـرق الشك الى صدقه . فانظر اذن الى قوة الخيال ما أكبرها ! لقد ظل هـــو نفسه ، طوال حياته ، يعتقد أن هناك أوساطاً لم تنقطع عن التخوف منـه يوما ، وأن جميع خطاه كانت معروفة معدودة ، وأن كل واحد من الحكام الثلاثة الذين تعاقبوا على مقاطعتنا خلال السنين العشرين الأخـــيرة كانوا يحملون عنه منذ وصولهم فكرة خاصة قلقة يوحى بها اليهم من أعلى ، ويوحى بها اليهم منذ تعيينهم قبل كل شىء آخر . فلو حاول أحد حينذاك أن يقنع المحترم جدا ، ستيفان تروفيموفتش ، بالأدلة القاطعة ، أن له أن يطمئن وأن فى وسعه أن لا يخشى شيئاً ، لكان يغضـــبه حتما . على أن ستيفان تروفيموفتش كان من خيرة الناس ذكاء وموهبة ، حتى لنستطيع أن نعدَّه بمعنى من المعانى رجلا من رجال العلم ، وان يكن من ناحيـــة العلم ... لم ينتج شيئا ذا بال ، أو لم ينتج شيئا البتة . ولكن هذا أمر يقع كثيرا لرجال العلم عندنا فى روسيا .

لقد عاد من الخارج ولمع نجمه مدرسا بالجامعة حوالى سنة ١٨٤٠ ؛ ولم يتسع وقته لأكثر من القاء بضع محاضرات . وكانت هذه المحاضرات عن العرب فيما يبدو . واستطاع أيضا أن يناقش رسالة لامعة عن الأهمية الحضارية والتجـارية التى بدأت تحظى بهـــا فيما بين عام ١٤١٣ وعام ١٤٢٨ ، مدينـــة هاناو الألمانية الصــغيرة * ، وكذلك عن الأسباب الخاصة الغامضة التى منعت تلك المدينة من اكتساب تلك الأهمية بعد ذلك . وكان

من شأن تلك الرسالة أن طعنت أنصار السلافية حينذاك ببراعة وحذق ، فأوغرت صدورهم عليه ، وأصبح له من بينهم أعداء كثيرون عتاة . وبعد ذلك ـ وكان قد فقد كرسيَّه في الجامعة ـ نشر (على سبيل الانتقام ان صح التعبير ، ولكي يرى الناس فداحة الخسارة بفقـــده) ـ نشر في مجـلة جديدة تقدمية كانت تترجم ديكنز وتدعو الى جورج صاند ، بداية دراسة عميقة جدا ، كان موضوعها فيما يبدو هو أسباب النبل الخارق الذى يمتاز به فرسان لا أدرى أى عصر من العصور ، أو كان موضوعها شيئا من هذا القبيل . لكنه على كل حال قد برهن في تلك الدراسة على فكرة رفيعـة غاية الرفعة ، نبيلة أقصى النبل . وقد قيل فيما بعد ان تتمة هذه الدراسة قد مُنع نشرها فورا ، بل وان المجلة التقدمية قد لقيت متاعب كثيرة لأنها نشرت نصفها الأول . جائز جدا أن يقع هذا ، فأى شيء كان يستحيـــل حدوثه في ذلك الزمان ؟ ولكن الأرجح ، في الحالة التى تعنينا الآن ، أن هذا لم يحدث ، وأن الكاتب نفسه قد تقاعس عن اتمام دراسته كسلاً . أما دروسه عن العرب فقد أوقفها لأن شخصا لا ندرى من هو (لا شك أنه أحد أعدائه الرجعيين) * قد قبض لا ندرى كيف على رســالة كانت موجهةً الى واحد من الناس وفيها عرض لبعض « الظروف » ، فكان من جراء ذلك أن أحد الأشخاص طلب منه بعض الايضاحات . لا أدرى هذا صحيح . ولكن قيل أيضا ان جمعية كبيرة قد اكتُشفت ببطرسبرج في ذلك الوقت نفسه ، وهى جمعية تناهض الطبيعة وتناهض الدولة ، بلغ عدد أعضائها ثلاث عشرة عضوا ، وأوشكت أن تزعزع البناء ؛ حتى انها كانت تنوى أن تترجم فوريه نفسه . وبمصادفة تشبه العمـد ، أُلقى القبض بموسكو ، في ذلك الوقت نفسه ، على قصيدة كان ستيفان تروفيموفتش قد نظمها قبل ذلك بعشر سنين ، في مدينة برلين ، أيام شـــبابه الأول .

أُلقي القبض عليها بينما كانت تنتقل منسوخة، من يد الى يد، بين اثنين من الهواة وأحد الطلاب . انني أحتفظ بهذه القصيدة في درج منضدتي : أهدانيها ستيفان تروفيموفتش بنفسه منذ سنة واحدة وقد نسخها بخط يده، وزيّنها باهداء منه، وجلّدها بجلد أحمر جميل . ان هذه القصيدة لا تخلو من شعر، بل ولا تخلو من بعض الموهبة . هي غريبة، ولكن كثيرا ما كان الشعراء ينظمون على هذا النحو في ذلك الأوان (أو قل على وجه أدق بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٠) . صعبٌ عليَّ أن أحدثكم عن موضوع القصيدة، لأنني في حقيقة الأمر لا أفهم منها شيئا . انها نوع من الرمز مصبوب في قالب غنائي درامي يذكّر بالجزء الثاني من فاوست . يُرفع الستار عن جوقة من النساء تعقبها جوقة من الرجال ثم جوقة من عناصر الطبيعة لا أدري ما هي، وتأتي أخيرا جوقة أرواح لم تعش بعد ولكنها تشعر برغبة قوية في أن تذوق الوجود . وهذه الجوقات كلها تغني شيئا مبهما شديد الابهام هو في أكثر الأحيان نوع من اللعن لكنه لعن يقال بلهجة لا سبيل الى مغالبة ما تثيره من ضحك؟ وفجأة يتغير المشهد ليحل محله ما يسميه المؤلف « عيد الحياة »، وفيه تشترك الحشرات نفسها بأغنيات . وتظهر سلحفاة، فتنطق بعبارات لاتينية من تراتيل الصلاة؟ ويظهر كذلك، اذا صدقت ذاكرتي، معدن من المعادن، أي شيء لا حياة فيه، فيأخذ ينشد هو أيضا . وهؤلاء جميعا لا يزيدون على أن يغنوا، فاذا اتفق لهم أحيانا أن يتكلموا، فانما هم يتكلمون ليتشاجروا، دون أن يكون ثمة ما قد يبعث على المشاجرة، ولكن بلهجة من أكثر اللهجات أبهة وفخامة بطبيعة الحال . ثم يتغير الديكور مرة أخرى . فالمكان الآن متوحش . وهذا شاب متحضر يسير وحيدا بين الصخور، يقطف الأعشاب وهذه جنية تسأله لماذا يأكل هذه الأعشاب، فيجيبها بقوله انه لشعوره بفرط ما يتدفق فيه من قوى حيوية ينشد النسيان،

وانه يجد ضالته في مص هذه النباتات ، لكن رغبته الأساسية هي أن يفقد عقله بأقصى سرعة (رغبة نافلة) • ويدخل بعد ذلك ، على حصان أسود ، فتى لا سبيل الى وصف جماله ، ووراءه جمهور كبير من الناس ينتمون الى جميع القوميات ! ان هذا الفتى يجسد الموت الذي ترنو اليه جميع الشعوب ! ثم يظهر فجأة ، في الفصل الأخير ، برج بابل ، وقد أخذ رجال أشداء يكملون بناءه وهم ينشدون نشيد الأمل الجديد • فاذا تم البناء حتى القمة رأينا المالك ـ ولنسمه صاحب الاولب ـ يهرب هروبا مزريا • فاذا بالانسانية التي أصبحت منذئذ تعرف ماذا تريد ، تحتل مكانها ، ثم اذا بها تبدأ عصرا جديدا وتكوِّن لنفسها في الوقت ذاته نظرة جديدة الى الكون • تلك هي القصيدة التي عُدَّت حينئذ خطرة • وقد اقترحتُ على ستيفان تروفيموفتش ، في العام الماضي ، أن ينشرها لأنها في أيامنا هذه خالية خلوا مطلقا من كل خطر • فرفض اقتراحي باستياء واضح • ذلك ان القول بأن قصيدته لا تشتمل على شيء خطر ، لم يُرضه ، وهذا هو السبب الذي أعتقد انه جفاني من أجله بعد ذلك طوال شهرين • ولكن حدث في نحو ذلك الوقت نفسه الذي اقترحتُ عليه فيه نشر قصيدته أن نُشرت القصيدة في ديوان شعر ثوري صدر « هناك » ، أي في الخارج ، وذلك على غير علم من ستيفان تروفيموفتش طبعا • فأفزعه هذا النبأ في أول الأمر • فاذا هو يهرع الى الحاكم ، ثم اذا هو يكتب الى بطرسبرج رسالة تبريرية رفيعةً جدا ، قرأها لي مرتين ، لكنه لم يرسلها لأنه لم يعرف الى من يرسلها • الخلاصة انه عاش خلال شهر كامل في حالة مَن يتوجس خيفة من شر يهم أن يحيق به ، لكنني واثق أنه كان يشعر في قرارة نفسه بكثير من الزهو • ولما حصل ستيفان تروفيموفتش على نسخة من الديوان أصبح لا يفارقها الا في الليل مكرهاً

حين يريد أن ينام . وكان يخبئها فى النهار تحت الفراش ولا يسمح لخادمه بأن ترتب سريره . وكان يصطنع هيئة التعالى والكبر ، على توقعه فى كل يوم أن تصل اليه برقية لا أدرى ما هى . ولكن ما من برقية وصلت . وعندئذ صالحنى ، وهذا دليل على طيب قلبه الحنون ، وعلى أنه لا يحمل حقدا ولا يضمر ضغينة .

٢

لست أدعى أنه لم يلق أية متاعب ، ولم تعترضه أية مصاعب . ولكننى اليوم مقتنع اقتناعا تاما بأنه كان فى وسعه أن يثابر على القاء محاضراته عن العرب ما شاء أن يثابر ، مكتفيا بتقديم الايضاحات اللازمة . غير أنه تشدد وأسرف في التشدد ، وتعجل تعجلا كبيرا فعقد عزمه على أن يعتقد اعتقادا جازما بأن حياته الجامعية قد حطمها « اعصار الظروف » الى الأبد . واذا كان علينا أن نذكر الحقيقة كلها فيجب أن نقول ان السبب الذى دفعه الى تغيير مهنته فعلا هو أن فرفارا بتروفنا ستافروجين ، وهى زوجة جنرال وامرأة واسعة الثراء جدا ، قد عرضت عليه فى الماضى أن يتولى تثقيف ابنها الوحيد وأن يشرف على تنشئته الفكرية ، بصفته عالماً من علماء التربية وبصفته صديقا ، (ناهيك عن المكافأة المالية الكبيرة التى سينالها دون أن تجىء هى على ذكرها) ، ثم عادت تجدّد عرضها فى ذلك الحين . لقد قدّمت اليه عرضها أول مرة وهو ما يزال ببرلين ، بعد فقده زوجته الأولى . كانت زوجته تلك فتاة طائشة اللب جامحة الطبع من مقاطعتنا ، تزوجها فى أيام شبابه الأول المندفع . ويظهر أنه لقى مع هذه الانسانة ، الفتانة والحق يقال ، كثيرا من الحزن والعذاب ، لأنه لم يستطع أن يفى بحاجاتها من جهة ، ولأسباب أخرى يتحرج المرء من ذكرها من جهة أخرى . وقد توفيت بباريس بعد أن عاشت السنين الثلاث الأخيرة منفصلةً عنه ، وتركت له طفلاً فى الخامسة من عمره هو « ثمرة الحب الأول الفرح الذى لم تكن قد كدرته سحابة » ، على حد التعبير الذى أفلت يوما أمامى من ستيفان تروفيموفتش

في لحظة حزن . وسرعان ما أُرسل الطفل الى روسيا ، فكفلت تربيته نساء تمت اليه بقرابة بعيدة ، فعاش الطفل في مكان ناء بأعماق الريف . وقد رفض ستيفان تروفيموفتش العرض الذى قدمته فرفارا بتروفنا . وما هي سنة أو بعض سنة اذا بصاحبنا يتزوج مرة أخرى بألمانية من برلين ، وهو زواج لم يكن يبدو أن ثمة ما يدعو اليه أو يقضى به . وهناك أسباب أخرى دفعته الى رفض وظيفة المربى : لقد كان يغريه الصيت الذى يحظى به أستاذ شهير من أساتذة العصر ، وكان لا بد له أن يطير الى ذلك الكرسى الذى طالما رنا اليه بصره ، وأن تجرب هو أيضا جنــاحى النسر اللذين يملكهما . أما الآن وقد احترق الجنــاحان ، فان من الطبيعى أن يتــذكر صاحبنا ذلك العرض الذى تردد فى قبوله من قبل. واختطف الموت زوجته الثانية فجأة ــ بعد زواج لم يدم أكثر من سنة واحدة ــ فترتب كل شيء على الوجه الأكمل . يجب أن أقول بصراحة ان هذا الحل انما يرجع الى ما كانت تحمله فرفارا بتروفنا لصاحبنا من مودة خالصة وصداقة ثمينة ، صداقة كلاسيكية ان صح التعبير . فارتمى ستيفان تروفيموفتش فى أحضان هذه الصداقة ، وتحدد بذلك وضعه مدة تزيد على عشرين عاما . قلت « ارتمى في الأحضان » ولكن أرجو أن يحمي الله القارىء من سوء الظن فما يحمّل قولى ما لا يحتمل . ان كلمة الأحضان هذه يجب أن تُفهم بمعنى أخلاقى تماما . فالصلة التى ربطت بين هذين الشخصين الممتازين قد ظلت على أروع جانب من الرهافة والنعومة .

وهناك سبب آخر دعا ستيفان تروفيموفتش الى قبول منصب المربى . ان الميراث الصغير جدا الذى خلفته زوجته الأولى يقــع على مقــربة من الأطيان الواســعة المجاورة لمدينــة سكفورشنيكى ، التى كانت أسرة ستافروجين تملكها فى مقاطعتنا . هذا الى انه سيستطيع فى خلوة مكتبه ،

حين لا يكون عليه أن ينهض بأعبائه الجامعية الضخمة ، أن ينقطع للعلم وأن يمهر الأدب القومي بدراسات عميقة . على أن هذه الدراسات لم تر النور يوما ، لكن صاحبنا استطاع في مقابل ذلك ، خلال حياته كلها بعدئذ، أي خلال ما يزيد على عشرين عاما أن ينتصب بقامته تجاه الوطن « لوماً مجسدا » على حد تعبير ذلك الشاعر القومي الذى قال :

مثل لوم مجسد
تنتصب قامتك تجاه الوطن
لبراليا مثاليا

يجدر أن نقول ان الفرد الذى يتحدث عنه هذا الشاعر القومي ربما كان من حقه ، اذا شاء ، أن يقف تلك الوقفة خلال حياته كلها ، رغم أنها وقفة مملة مضجرة . أما صاحبنا ستيفان تروفيموفتش فانه لا يعدو أن يكون بالقياس الى أمثال أولئك الناس مقلدا ومحاكيا . لقد كانت الوقفة المنتصبة تتبعه . وما أكثر ما آثر عليها أن « يستلقى على جنبه » . يجب أن نقول مع ذلك ، اذا نحن شئنا الانصاف ، ان اللوم المجسد ظل موجودا رغم الاستلقاء على الجنب ، خاصة وأن مقاطعتنا كانت فى حاجة اليه . ليتكم رأيتموه في النادى حين يلعب الورق ! لقد كان وضعه كله يهتف : هاتوا الورق ! ... صحيح أننى ألعب معكم ... ولكن أية صلة تربطنى بكم ؟ من هو المذنب فى هذا ؟ من الذى هدّم حياتى الجامعية ، وردّنى الى هذا الدرك حتى أصبحت لا أزيد على أن أكون واحدا من حلقة مقامرة ؟ أهلك الله روسيا ! » . وفيما هو يشمخ بأنفه ، تراه يقطع الورق فى حماسة ...

والحق انه كان مفتونا باللعب ، وهذا هو السبب فى كثير من المشاجرات المزعجة التى وقعت بينه وبين فرفارا بتروفنا ، لا سيما فى المدة

الأخيرة • وكان مما يفاقم الأمر أن صاحبنا يخسر في اللعب دائما • على أن لى عودة الى هذا الموضوع • وحسبى الآن أن أذكر أن الرجل كان حساس الوجدان مرهف الضمير (أو قل على الأقل انه كان يتفق له أن يكون كذلك في بعض الأحوال) ومن أجل هذا كان فى كثير من الأحيان حزين النفس • وفى خلال الاعوام العشرين التى قضاها فى صداقة فرفارا بتروفنا ، كان يتفق له دائما ، ثلاث مرات أو أربعة في العام ، أن يصاب بنوبات من « الحزن الحضارى » ، كما أسميناه فيما بيننا ، أى بنوبات من الكآبة لا أكثر ولا أقل ؛ غير أن المحترمة فرفارا بتروفنا كانت تحرص أشد الحرص على استعمال هذه اللفظة • وقد أصبح يصاب بعد ذلك بنوبات سببها « الشمبانيا » ، غير أن فرفارا بتروفنا المرهفة الحس الرقيقة الشعور استطاعت دائما أن تحميه من التردى فى حمأة الميول الخسيسة • والحق أن هذا الرجل كان فى حاجة الى مربية من مربيات الأطفال ، اذ كان يتفق له أحيانا أن يكون غريب الأطوار : فبينما هو مثلا فى ذروة حزنه الرفيع اذا هو يأخذ يضحك على حين غرة ضحكا مبتذلا • وكان فى بعض الساعات يطفق يتحدث عن نفسه بلهجة ساخرة • وفرفارا بتروفنا لا تفزع من شيء فزعها من السخر • انها امرأة تعتنق مبادىء كلاسيكية ، امرأة تحمى العلماء وترعى الأدباء ، ولا تستلهم فى سلوكها غير البواعث العليا والدوافع السامية • ولقد كان تأثير هذه السيدة الكبيرة فى صديقها المسكين خلال عشرين سنة تأثيرا قويا • ويحسن أن نتحدث عنها حديثا خاصا • وهذا ما أنا فاعله الآن •

٣

ثمة صداقات غريبة : رب صديقين يوشك كل منهما أن يلتهم صاحبه في كل لحظة ، ثم هما يقضيان حياتهما كلها دون أن يطيقا الافتراق ، حتى ليستحيل عليهما أن يهجر أحدهما الآخر . فاذا بدا لأحد منهما أن يقطع صلته بالآخر في ساعة نزوة ، كان أول من يسقط مريضا من شدة الحزن، حتى لقد يموت كمدا ولوعة . أعرف أن ستيفان تروفيموفتش قد حدث له غير مرة ، بعد مكاشفات خلوية مع فرفارا بتروفنا ، أن وثب عن أريكته منذ أصبح وحيدا ، وأخذ يضرب الجدار بقبضة يده .

لست أزخرف ... حتى لقد بلغ من شدة الدق على هذا النحو في بعض الاحيان أن أسقط جير الجدار . رب سائل يسألني : كيف استطعت أن تعرف أمرا تفصيليا كهذا الامر ، وهل شهدته بأم عينك ؟ لقد طالما أخذ ستيفان تروفيموفتش ينتحب فوق كتفي مرات كثيرة ، وهـــو يصوّر لي العواطف التي تضطرم في قرارة نفسه أقوى تصوير ! وما أكثر الأمور التي كان يعترف لي بها في تلك اللحظات ! الكم ما كان يحدث دائما على وجه التقريب بعد هـذه النوبات من الانتحاب : كان لا يأتي الغـد الا وستيفان تروفيموفتش مستعد لأن ينتحر معاقبةً لنفسه على عقوقه وانكاره للجميل . كان يرسل في طلبي على عجل ، أو يهـــرع الى بيتي بنفسه ، لا لشيء الا ليخبرني بأن فرفارا بتروفنا « ملاك من ملائكة نبـــل الشرف ورهافة الشعور ورقة العاطفة ، وانه هو نقيض ذلك » . وكان لا يكتفي بأن يسر اليّ أنا بدخيلة نفسه ، بل كان يبعث اليها باعترافاته في رســائل يودعها غاية ما يطيقه من بلاغة . كان يعترف لها مثلا بأنه بالأمس قد قص

على أحد الناس انها لا تحتفظ به الا حبا بالظهور ، وانها تنفس عليه علمه ومواهبه وتغار منها ، وأنها تكرهه ، وانها ان كانت لا تظهر له هذا الكره، فما ذلك الا مخافة أن يتركها فيسيء بذلك الى سمعتها كأديبة ؟ ويضيف الى ذلك أنه يحتقر نفسه ، وأنه قرر أن ينتحر ، وأن ينتظر منها كلمة أخيرة تحدد مصيره ، وهلم جرا ! ... تستطيعون أن تتخيلوا بعد هذا مدى ما كانت تصل اليه الانفجارات العصبية لدى هذا الطفل الذي يفوق في براءته سائر من هم في الخمسين من العمر . لقد قرأت أنا نفسي ، ذات يوم ، رسالةً من تلك الرسائل كتبها على اثر مشاجرة قامت بينه وبين صاحبته لسبب تافه ، وتفاقمت مع ذلك أشد التفاقم . لقد أرعبتني هذه الرسالة ، فرجوته أن لا يبعث بها اليها ، فأجابني بما يشبه الهذيان قائلا : « مستحيل ... هذا أشرف ... هذا واجبي ... لسوف أموت ان لم أعترف لها بكل شيء ، بكل شيء » .

وبعث بالرسالة .

ان الفرق بينه وبين فرفارا بتروفنا هو انها لا يمكن أن تبعث رسالة كهذه الرسالة في يوم من الأيام . والحق ان صاحبنا كان يحب الكتابة كثيرا ، ولقد كان يكتب اليها رسائل حتى حين كانا يقيمان في بيت واحد، وكان يكتب اليها رسالتين في اليوم الواحد حين تستبد به نوبات العصبية . وأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقرأ رسائله باهتمام كبير دائما ، حتى حين يصل اليها منه بريدان . فاذا انتهت من قراءة الرسائل نضّدتها في صندوق خاص بعد تذيّلها بالحواشي وتصنفها . (كانت تنضّدها أيضا في ذاكرتها) ، ثم تدع صاحبها بلا جواب طوال يوم بكامله ، ثم تلقاه بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن ولا حدث أمر من الأمور البتة . وشيئا فشيئا تكون قد بلغت من ترويضه أنه لا يجرؤ هو نفسه أن يذكر ما وقع

بالأمس ، ثم لا يزيد على أن يختلس النظر الى عينيها • لكنها لا تكون قد نسيت شيئا ، بينما هو ينسى في بعض الأحيان كل شيء بسرعة كبيرة ، يشجعه على ذلك ما يلاحظه فيها من فرط الهدوء ، فاذا اتفق أن جاء بعض الاصدقاء في اليوم نفسه رأيته في كثير من الاحيان قد أخذ يضحك ويمزح كتلميذ مرح وهو يفرغ أقداح الشمبانيا في جوفه دفعة واحدة • وما أمرَّ النظرات التي كانت ترشقه بها في مثل تلك اللحظات ، دون أن يلقي اليها بالا !

لكنه حين كان يتذكر فجأة على غير ارادة منه ، بعد أسبوع ، أو بعد شهر ، أو حتى بعد ستة أشهر ، هذه العبارات أو تلك من العبارات التي ضمتها رسالة من رسائله ، أو حين كان يتذكر رسالة بكاملها من تلك الرسائل في أدق تفاصيلها ، كان يحمر وجهه خجلا ، وسرعان مايستحيل ألمه عندئذ الى عذاب شديد ، فاذا هو يصاب بنوبة اسهال حاد • لقد كانت هذه النوبات العجيبة التي تشبه مرض الكوليرين ترجع في بعض الاحوال الى اضطراباته العصبية وتصوِّر صفة غريبة من صفات بنيانه •

والحق ان فرفارا بتروفنا كانت تكرهه في كثير جدا من الاحيان ، ما في ذلك ريب • غير ان هناك شيئا ظل الى النهاية لا يستطيع أن يدركه فيها ، وهو أنها كانت من طول صحبتها له قد انتهت الى اعتباره ابناً لها هي خالقته بل هي مبدعته ان صح التعبير • لقد أصبح جزءا منها ، فاذا احتفظت به وعالته ، فليس يرجع ذلك الى « غيرتها من مواهبه » • وما كان أشد ألمها من مثل هذه الافتراضات ! حتى لقد كانت تشعر نحوه بحب عنيف يمازجه كره في جميع اللحظات ، كما تخالطه غيرة ويخالطه احتقار • لقد سهرت عليه ودللته خلال عشرين عاما كما تسهر الأم على طفلها وتدلله • ولا شك انها أرقت ليالي طويلة حين كانت تُمَسّ سمعته كشاعر

وعالم ومواطن . انها هي التي خلقته ، وهي أول من خلقه . هذا ما كانت تعتقد به . لقـــد كان عندها بمثابة حلم لها . لكنها كانت في مقابل ذلك تطالبه بأمور كثيرة ، حتى لقد كانت تقتضيه في بعض الأحيان أن يكون لها عبداً . وكانت حقودة الى درجة لا نظير لها . واني لأحرص في هـــذه المناسبة على أن أروي هاتين القصتين الصحيحتين :

٤

في ذات يوم ، ابان رواج أولى الشائعات عن تحرير الفلاحين ، بينما أصبحت روسيا كلها في نشوة وفرح على حين فجأة ، وبينما كانت تتهيأ لأن تُبعث بعثاً جديدا ، زار فرفارا بتروفنا بارون من بطرسبرج ، كان ماراً بمدينتنا ، وهو رجل له علاقات رفيعة وله بالحكومة صلات وثيقة . لقد كانت فرفارا بتروفنا تحرص على أمثال هذه الزيارات أشد الحرص ، لأن علاقاتها بالمجتمع الراقي قد كانت منذ وفاة زوجها تهن مزيدا من الوهن يوما بعد يوم ، الى أن انقطعت في النهاية انقطاعا تاما .

قضى البارون عندها ساعة واحتسى الشاي . ولم يكن معهما أحد الا ستفيان تروفيموفتش الذي دعته فرفارا بتروفنا لتعرضه . وكان البارون قد سمع عنه أو تظاهر بأنه سمع عنه ، لكنه لم يكد يخاطبه أثناء الشاي بكلمة . ولا شك أن ستيفان تروفيموفتش كان يحسن التصرف أيما احسان ؛ ولقد كانت له آداب رفيعة . انه على وضاعة محتده قد أتيح له أن ينشأ منذ طفولته في منزل أسرة نبيلة بموسكو ، فهو اذن قد تربى تربية حسنة . وكان لذلك يتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها باريسي . وكان على البارون اذن أن يدرك منذ النظرة الأولى نوع هؤلاء الناس الذى يحيطون بفرفارا بتروفنا حتى في عزلتها بالريف . غير أن شيئا من هذا لم يحدث . فحين أعلن البارون أن الشائعات التى أخذت تروج عن الاصلاح الكبير صحيحة كل الصحة ، لم يستطع ستيفان تروفيموفتش أن يسيطر على نفسه فصاح يقول فجأة : «مرحى !» ، وأرفق الصيحة بحركة تعبر عن حماسته . ولقد أطلق صيحته هذه بصوت معتدل ، حتى ليمكن

أن نقول انها لم تكن تخلو من رشاقة وأناقة ؟ بل ان من الجائز أيضا أن الحمامة كانت محسوبة وأن الحركة قد درست أمام المرآة قبل الشاى بنصف ساعة . ولكن أغلب الظن أن ستيفان تروفيموفتش لم يوفق فيها . لذلك سمح البارون لنفسه بابتسامة خفيفة ، وأسرع يدس مع ذلك جملةً مهذبة مؤدبة يعبر فيها عن أن الانفعال القوى الذى تحسه القلوب الروسية ازاء الحدث الكبير أمر مفهوم جدا ومعقول جدا . ثم لم يلبث أن استأذن بالانصراف ، ولم ينس حين ذهب أن يمد الى ستيفان تروفيموفتش اصبعين . فلما عادت فرفارا بتروفنا الى الصالون لزمت الصمت بضع دقائق متظاهرةً بأنها تبحث عن شيء على المنضدة ، ثم التفتت نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة ودمدمت تقول له من بين أسنانها ، شاحبةَ الوجه متقدة العينين :

ـ لن أغفر لك هذا فى يوم من الأيام !

ولقيته فى الغداة فكأن شيئا لم يحدث ، ثم لم تشر الى هذا الحادث أية اشارة . ولكنها تذكرته بعد ثلاثة عشر عاما فى دقيقة أليمة ، وأخذته عليه ، ممتقعة اللون كما فى المرة الأولى تماما . ان فرفارا بتروفنا لم تقل لصديقها هذه الجملة « لن أغفر لك هذا فى يوم من الأيام » الا مرتين فى حياتها . فالحادث الذى وقع أثناء زيارة البارون كان هو المرة الثانية . أما المرة الأولى فقد وقعت قبل زيارة البارون بمدة طويلة . وهى تبلغ من التميز ومن خطورة الشأن فى حياة ستيفان تروفيموفتش أننى أعزم أمرى على أن أرويها .

كان ذلك فى ربيع سنة ١٨٥٥ ، فى شهر أيار (مايو) ، بُعيدَ أن عُلم فى سكفورشنيكى نبأ موت الليوتنان جنرال ستافروجين ، العجوز المتحلل الطائش الذى توفى من آثار اضطراب فى المعدة أثناء ذهابه الى

بلاد القرم التي عيّن في جيشها العامل • لقد لبست فرفارا بتروفنا ملابس الحداد • ولكن حزنها لا يمكن أن يكون عميقا جدا ، لأنه بسبب فقدان التوافق في الزواج بينها وبين زوجها كانت تعيش منفصلةً عنه انفصالاً تاما منذ أربع سنين ، وتقدم له ما هو في حاجة اليه من نفقة (كان الجنرال ينتمي الى أعلى طبقة نبيلة ، وكانت له علاقات كبيرة ، لكنه كان لا يملك الا خمسمائة نفس ومرتب الوظيفة • أما الثروة كلها ، وكذلك سكفورشنيكي ، فقد كانت لفرفارا بتروفنا ، وهي الابنة الوحيدة لتاجر غني من تجار الخمور) • ومع ذلك فقد هزّها الحادث هزاً قويا ، فانزوت في عزلتها ، ولم يتركها ستيفان تروفيموفتش طبعا •

كان شهر أيار (مايو) في تمام ازدهاره • الأماسي جميلة رائعة • أزهار الكرز البرى قد بدأت تتفتح براعمها • والصديقان يمضيان الى الحديقة كل مساء عند هبوط الليل ، ويظلان جالسين تحت قبة من أغصان الشجر يفضي كل منهما الى صاحبه بعواطفه وأفكاره • انهما يعيشان لحظات شعرية حقا • وكانت فرفارا بتروفنا ، بسبب التغير الذى أصاب حياتها ، تتكلم أكثر مما اعتادت أن تتكلم قبل ذلك • فهي تبدو منجذبة الى قلب صاحبها انجذابا قويا • هكذا انقضت ليال كثيرة • وفجأة خطرت ببال ستيفان تروفيموفتش فكرة غريبة : ترى أليست تطمع فيه هذه المرأة الحزينة التي لا يجد العزاء الى نفسها سبيلا ؟ ألا تنتظر منه أن يخطبها متى انتهت سنة الحداد ؟ فكرة عجيبة • لكن رهافة البنيان النفسي تشجع في المرء أحيانا بعض الميل الى مثل هذه الأفكار العجيبة ، فعلى قدر نمو النفس يكون الاستسلام لجموح الخيال • وقد أخذ الرجل يتعمق دراسة الأمر فوجد أن افتراضه جائز • فجعل يفكر : « صحيح ان الثروة طائلة ، ولكن ••• ! » • الواقع ان فرفارا بتروفنا لم تكن على أى حظ من



فرفارا بتروفنا ستافروجين

جمال : امرأة طويلة القامة ، صفراء الوجه ، بارزة العظام ، يشبه وجهها من فرط طوله أن يكون وجه حصان • وأصبح ستيفان تريموفتش يزداد ترددا • وغزت رأسه الشكوك ، حتى لقد هطلت دموعه مرتين من شدة حيرته (كانت دموعه سريعة الانسكاب) • لكنه في المساء ، أي تحت قبة الشجر ، كان وجهه يعبر ، رغم ارادته ، عن النزوة الى جانب شيء من الكبر والصلف • ان مثل هذا التعبير يظهر ظهورا غير متوقع ، وكلما كان المرء رفيعاً بدا هذا التعبير في وجهه واضحا •

واذا كنا لا نستطيع أن نقطع برأي فيما كان يعتلج في قلب فرفارا بتروفنا فأغلب الظن أن قلبها لم ينبت فيه شيء مما يسوّغ ظنون ستيفان تروفيموفتش • ثم انها ما كان لهـا أن ترضى أن تستبدل باسمها - ستافروجين - اسم ستيفان تروفيموفتش مهما يكن هذا الاسم مجيدا • ولعل الأمر كله لا يعدو أن يكون عندها تسلية صغيرة من تسليات النساء ، وثمرة حاجة لا شعورية ، طبيعية في المرأة في بعض الظروف الخاصة• ومهما يكن من أمر فاني لا أستطيع أن أقطع برأي حاسم • ولقد ظل قلب هذه المرأة مغلقا حتى يومنا هذا • ولكن فلنتابع القصة •

أغلب الظن أن فرفارا بتروفنا لم تلبث أن أدركت معنى هذا التعبير الغريب الذي يظهر في وجه صاحبنا • فلقد أوتيت قوة الحدس وموهبة الملاحظة ، في حين أن ستيفان تروفيموفتش كان في بعض الأحيان ساذجا مسرفا في السذاجة • ومع ذلك ظلت الأمسيات تنقضي على عادتها وظلت الأحاديث بين الصديقين تجرى شـعرية شائقة • وفي ذات مرة ، عند هبوط الليل ، بعد حديث من أكثر الأحاديث امتلاء بالحياة وتضمخا بروح الشعر ، افترق الصاحبان على مودة عند عتبة الجناح الذي يقيم فيه ستيفان تروفيموفتش ، بعد أن تصافحا في حرارة • لقد كان ستيفان تروفيموفتش



بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي

فى مطلع كل صيف ، يترك الدار الواسعة المريحة ، ويستقر فى هـذا البيت الصغير الذى يكاد يثوى فى قلب الحديقة .

دخل الرجل الى بيته ، وتناول سيجارا فى تردد مهموم واجم ، ووقف أمام النافذة قبل أن يشعل السيجار ، وقف متعبا ساكنا ، يحدق بنظره الى الغمامات الصغيرة البيض ، الخفيفة كندف الثلج ، التى تحوم حول القمر الهادىء ... وفيما هو كذلك اذا به يسمع على حين فجأة ضجة صغيرة ، فيرتعش ويلتفت ... كانت فرفارا بتروفنا التى تركها منذ أربع دقائق ، واقفة هنالك أمامه . ان وجهها الشاحب قد ضرب الى زرقة ، وان شفتيها المنقبضتين ترتعشان عند الزاويتين . وظلت المرأة تنظر اليه خلال عشر ثوان نظرةً قاسية ، دون أن تنبس بكلمة ، ثم دمدمت تقول على عجل : « لن أغفر لك هذا فى يوم من الأيام ! » .

حين قص علىّ ستيفان ترفيموفتش هذه القصة بعد عشر سنين ، بصوت خافت ، وقد أغلق الأبواب ، حلف انه بلغ من الانشداه فى تلك اللحظة انه لم يسمع ولا رأى كيف اختفت فرفارا بتروفنا . ولأن فرفارا بتروفنا لم تشر الى هذا الحادث مرة واحدة بعد ذلك ، ولأن كل شىء قد جرى بعدئذ فى مجراه الطبيعى ، فقد ظل صاحبنا طوال حياته يعتقد انه كان فريسةَ وهمٍ من الأوهام التى تسبق المرض عادة ، لا سيما وأنه فى تلك الليلة قد مرض فعلا ، وظل مريضا طوال خمسة عشر يوما ، وهذا ما قطع لقاءهما كل يوم فى المساء تحت قبة الاشجار . ومع ذلك ، رغم رغبته فى الاعتقاد بأن الامر لا يعدو أن يكون وهما ، فقد ظل خلال حياته كلها ، وفى كل يوم من الايام ، ينتظر تتمة هذا الحادث أو ينتظر خاتمة هذه المغامرة ان صح التعبير . كان لا يستطيع أن يصدق أن القصة قد انتهت ! واذا كان الامر كذلك حقا ، فلك أن تتصور النظرات الخاصة التى كان يلقيها على صديقته من حين الى حين .

٥

كانت فرفارا بتروفنا قد بلغت من الاهتمـــام بأمره انهما تخيلت له ملابس ظل يرتديها طوال حياته ، وهى ملابس أنيقة متميزة تشتمل على ما يلي : ردنجوت اســود طويل الجانبين ؛ مزرر حتى العنق تقريبــا ، ولكنه يناسبه الى أبعد حد ؛ قبعة لينة واسعة الحافة (هى فى الصيف قبعة من القش) ؛ ربطة عنق من حرير أبيض ، كبيرة العقدة متموجة الطرفين؛ عصا ذات قبضة من فضة ، هذا الى شعر طويل متهدل حتى الكتفين • ان شعره الكستنائى لم يبيض قليلا الا فى السنين الاخيرة • وكان يحــلق شاربيه ولحيته • ويقال انه كان فى شبابه فتى وسيما الى أبعد حــدود الوسامة • وفى رأيى انه ظل يحتفظ بمظهر مهيب حتى شيخوخته • وهل يُعد المرء شيخا وهو فى الثالثة والخمسين من عمـــره ؟ على أن صاحبنا كان ، من قبيل التزيُّن البطولى ، لا يحاول أن يظهر بمظهر الشباب ، بل يستمد من تقدمه فى السن زهواً أى زهو • وكان بملابسه الغربية وقامته الطويلة النحيلة وشعره المتهدل على كتفيه أشبهَ ببطرك من البطاركة ، أو قل كان أشبه بصورة الشاعر كوكولنيك * كما تراها منقوشة على طبعة مؤلفاته التى ظهرت بين عام ١٣٨٠ وعام ١٨٤٠ •

وكان هذا الشبه يبرز بروزا خاصا حين كان صـــاحبنا يجلس فى الصيف على مقعد بالحديقة ، فى ظل أشجار الليلك المزهرة ، وقد أسـند يديه على عصاه ، والى جانبه كتاب مفتوح ، وغاب فى أحلام شعرية يوحى بها منظر الشمس الغاربة • وعلى ذكر الكتب يجب أن ألفت النظـــر الى الى أن صـــاحبنا قد انتهى بمضى الزمن الى النفور من القراءة • غـير أن

ذلك لم يحدث الا في السنين الاخيرة من حياته • هذا الى انه كان يواظب على قراءة الصـــحف والمجـــلات التي كانت فرفارا بتروفنا تكثر من استحضارها • وكذلك لم ينقطع عن الاهتمام بانتصارات الادب الروسي ، ولكن دون أن يفقد شيئاً من رصانته • وقد شغف بدراسة سياستنا المعاصرة، الداخلية والخارجية ، في وقت من الاوقات • لكنه لم يلبث أن عدل عن مشروعه هذا • وكذلك كان يتفق له حين يمضي الى الحديقة أن يحمـل كتابا من كتب توكفيل * وان كان يضع في جيبه مؤلفـا من مؤلفات بول دوكوك • على أن هذه تفاصيـل لا قيمة لها •

وعلى ذكر صورة كوكولنيك أحب أن أشير مستطردا الى ان هـذه الصورة قد وقعت لأول مرة بين يدي فرفارا بتروفنا حين كانت طالبـــة داخلية في « معهد البنات النبيلات بموسكو » • فما ان رأتها حتى افتتنت بها ، على عادة جميع الفتيات في المدارس الثانوية ، اللواتي يعشـــقن أي شيء ، ويعشقن أساتذتهن في الوقت نفســـه ، وأساتذة الخط والرســم خاصة • على أن هذا ليس أهم ما في الحكاية ، فهـــو شيء لا يكاد يلفت النظر في فتاة صغيرة ، وانما أهم ما في الحكاية أن فرفارا بتروفنا ظلت وهي في الخمسين من عمرها تحتفظ بهذه الصورة بين أعزّ ما تحتفظ به من ذكرياتها الخاصة الحميمة • ولعل هذا هو السبب الوحيد في انهـــا فصّلت لستيفان تروفيموفتش رداء شبيها برداء الشـــاعر كما يُرى في الصورة • على أن هذا أمر لا قيمة له أيضا بطبيعة الحال •

وفي ابان السنين الاولى ، أو قل في خلال الشطر الاول من اقامة صاحبنا عند فرفارا بتروفنا ، كان ما يزال يفكر في تأليف كتاب لا أدري ما هو ، فما من يوم الا وهو يتهيأ لمباشرة عمله جاداً • ولكن في خـــلال الشطر الثاني من اقامته هذه ، هجر المشروع فيما يظهر • وكثيرا ما كنـا

نفاجئه يقول : « يلوح لى دائما أننى سأشرع فى الكتابة ، بعد أن جمعت المواد اللازمة ... ولكننى أنظر فأرى أن لا سبيل الى ذلك ، وأن لا شيء يوافى » .

وكان اذ يقول ذلك يخفض رأسه مرهقا . ولا شك أن هـــــذا الوضع كان ينبغى أن لا يزيده فى نظرنا الا عظمة ومهابة ، فهو شهيد من شهداء العلم . أما هو فكان يرغب فى شيء آخر . لقد أفلت منه غير مرة قوله : « لقد نُسيت ، ولا حاجة لأحد بى بعد الآن . » غير أن هذا الشعور بالأسى العميق القوى انما استبد به استبدادا خاصا حـــوالى عام ١٨٦٠ . وأدركت فرفارا بتروفنا أخيرا أن الأمر فى هذه المرة خطير . هذا الى انها كانت لا تستطيع أن تسلّم بأن صاحبها قد نسيه الناس وأصبحت حيــاته غير ذات جدوى . فمن أجل أن تسلّيه قليلا ، ومن أجل أن تعيــد الى شهرته شيئا من النضارة فى الوقت نفسه ، ذهبت به الى موسكو ، المدينة التى لها فيها علاقات طيبة بعالم العلم والادب . ولكن اتضح لها أن موسكو غير كافية البتة .

انه لعصر عجيب ذلك العصر ! ... ان شيئا جديدا يهمّ أن يولد ، شيئا لا شبه بينه وبين الهدوء القديم ، شيئا غريبا كل الغرابة ، ولكن الناس يستنشقونه فى كل مكان ، حتى فى أراضى سكفورشنيكى . كانت أصداء منه قد وصلت الينا . اننا نعرف الوقائع . لكن الوقائع تجر وراءها عددا كبيرا من الافكار الجديدة . كان هذا ينشر الحيرة والاضـــــطراب فى العقول . وكان يستحيل علينا أن ندرك المعنى الصحيح والدلالة الصادقة لهذه الأفكار . لذلك قامت فى نفس فرفارا بتروفنا، بحكم طبيعتها النسوية، رغبة قوية فى ادراك السر . فأخذت تقـــرأ جميع ما يأتون به اليها من الجرائد والمجـــلات ، والنشرات الاجنبية الممنوعة فى روســـيا ، وحتى

الدعوات الثورية التي أخذت تنتشر حينذاك (كان هذا كله يرسَل اليها) لكن ذلك لم يزد رأسها الا اضطرابا . وشرعت كذلك في كتابة رسائل. الا أن الاشخاص الذين تكتب اليهم لا يجيبون الا قليلا ، وكلما استمرت المراسلة أصبح فهمها أعسر . واتجهت الى ستيفان تروفميوفتش ترجوه أن « يعرض لها هذه الآراء عرضاً كاملا » مرة واحدة . لكنها ظلت غير راضية عن شروحه صراحةً . كان رأي ستيفان تروفيموفتش في الحركة العامة القائمة متعاليا أشد التعالي . كان كل شيء يرتد عنده الى هذا : أنه قد نُسي ، وأن أحداً لا يذكره الآن . وأخيراً ذكره الناس هو أيضاً . ذكروه أول الامر في المجلات الاجنبية التي عدته شهيدا من شهداء المنفى. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في بطرسبرج أيضا ، كنجم كان في الماضي واحدا من طائفة من الكواكب الكبرى . حتى لقد شبهه بعضهم برادشتشيف دون أن يدرك أحد لماذا . وبعد فترة وجيزة أُشيع انه مات، وأعلن أحدهم انه سيكتب نبذة عن حياته وأعماله . فانتعش ستيفان تروفيموفتش مرة واحدة ، واكتسى وجهه على حين فجأة أرفع معاني العظمة التي يعبرّ عنها . واختفى من نفسه كل ما كان يعلن عنه من احتقار لمعاصريه ، واشتعل في قلبه لهيب جديد : انه يفكّر الآن في الانضمام الى الحركة وفي اظهار مدى ما يملكه من قوى . واستردت فرفارا بتروفنا ثقتها وأصبحت غارقة في عالم من المشاغل . لقد قرر الصديقان أن يذهبا الى بطرسبرج فورا ، ليستطلعا الامور ، وليقضيا كل شيء بنفسيهما ، ولينخرطا في الحركة الجديدة انخراطا كاملا اذا أمكن ذلك . وأعلنت أرملة الجنرال ، فيما أعلنته ، انها مستعدة لانشاء مجلة ، ولأن تنذر لهذه المجلة ما تبقى من أيام حياتها . وحين لاحظ ستيفان تروفيموفتش ماوصلت اليه الامور أصبح يصطنع من مظاهر العلو والرفعة أكثر مما كان يصطنع

منها قبل ذلك ، حتى لقد أصبح يقف من فرفارا بتروفنا موقفا يشبه أن يكون موقف من يحميها ويرعاها ، وقد لاحظت هي ذلك وسجلته في ذاكرتها • ثم ان هناك باعثا هاما آخر قد حثها على مباشرة مشروعها ، هو أنها كانت تريد تجديد علاقاتها بالدوائر العليا من أوساط المجتمع • كان لا بد لها ، أن تذكّر المجتمع الراقي بها ما وسعها ذلك ، أو أن تحاول هذا في أقل تقدير •

أما الحجة الرسمية التي تذرعت بها للقيام بهذه الرحلة ، فهي انها تريد رؤية ابنها الوحيد الذي كان أيامئذ ينهي دراساته في ثانوية سان بطرسبرج •

٦

قضى الصديقان في بطرسبرج فصل الشتاء كله تقريبا . وما أتى صوم الفصح في أثناء ذلك الا وكان كل شي قد تبدد كفقاعة صابون . ذهبت الأحــلام ، وأصبح الوضــع المبهم أشــد ابهاما بدلا من أن يتضح . العلاقات بالطبقات العليا من المجتمع لم يمكن أن تنعقد ، اللهم الا في حدود ضيقة كل الضيق وبمساع ذليلة . وقد جُرحت من ذلك كبرياء فرفارا بتروفنا فانخرطت انخراطا قويا في الدعوة الى الافكار الجـديدة ، وراحت تهيء في بيتها أمسيات دعت اليها عددا من الادباء الذين سرعان ما قُدِّمت اليها طائفة كبيرة منهم ، وأصبحوا بعد ذلك يفدون من تلقــاء أنفهسم بلا دعوة ، ويصحب بعضهم بعضا . انها لم تر قبل الآن أدباء من هذا النوع . لقد كانوا جميعا مغرورين الى أبعد حـدود الغرور ، ولكن غرورهم كان يبلغ من الوضوح والظهور أنهم يوشكون أن يعدوه واجباه وكان بعضهم (لا جميعهم) يمضون في هذا الى حـــد المجيء سكارى ، وكأنهم يرون في ذلك فضيلةً خاصة اكتشفوها في الوقت المحدد . ان لهم طريقة عجيبة في الاختيال كالطواويس حين يذكـــرون مواهبهم ، حتى لتستطيع أن تقرأ في وجه كل واحد منهم انه قد اكتشف سرا خطيرا الى أبعد حدود الخطورة . وكانوا يختصمون ويناقشون ويتنافسون . ولئن كان يصعب على المرء أن يعرف ماذا انتجوا في حياتهم الأدبية ، لقد كان بينهم نقاد ، وروائيون ، ومؤلفو مسرحيات ، وكتاب ساخرون ، ومدبجو مقالات . واستطاع ستيفان تروفيموفتش أن ينفذ الى القلب من هذه الحلقة، أي الى النقطة التي تنطلق منها قيادة الحركة ؛ ومن أجل أن يستطيع مقاربة

القادة اضطر الى أن يجتاز عددا لا نهاية له من درجات السلم • على أن هؤلاء القادة قد استقبلوه في مودة وحرارة ، رغم أن أحدا منهم لم يسمع به من قبل ، ولا عرف عنه الا انه « يجسّد الفكرة » • وقد عرف ستيفان تروفيموفتش كيف يداورهم في براعة ، حتى استطاع أن يجتذبهم الى بيت فرفارا بتروفنا مرتين ، رغم عظمتهم الأولمبية • وكان هؤلاء النـــاس رجالاً جاديّن الى أبعد حدود الجد ، وكانوا على جانب عظيم من التهذيب وسلامة السلوك • وكان يبدو أن الآخرين يخشونهم • ولكن كان واضحاً أنهم أناس لا يملكون من الوقت ما يبددونه ســـدى • وقد وفد الى بيت فرفارا بتروفنا كذلك أديبان أو ثلاثة أدباء من ذوي الشـــهرة القديمة ، وكانوا يومئذ في بطرسبرج ، وكان لفرفارا بتروفنا بهم صـــلة من أحلى الصلات يرجع عهدها الى زمن قديم • ولكن ما كان أشـــد دهشتها حين لاحظت أن هؤلاء الادباء المشهورين كانوا ، رغم ما يتصفون به من أصالة ومن مواهب لا سبيل الى انكارها « أهدأ من الماء ، وأكثر تواضـــعا من أعشاب الارض » ، وكان بعضهم يجد أن خير مايفعله هو أن يتشبث بهذه العصبة الجديدة طالبا جودها وكرمها•وقد واتى الحظ ستيفان تروفيموفتش بعض المواتاة في أول الأمر ، فقد تعلقـــوا به ، وأخذوا يظهـــرونه في الاجتماعات الادبية • وحين صعد المنبر أول مرة ، في حفلة أدبية اشترك فيها ، استقبله الجمهور بتصفيق جنوني استمر خمس دقائق طوال • انه بعد عشر ســـنين ، ظـــل يتذكر تلك اللحظـــة وعينـــاه مخضلّتان بالدموع (لا عرفانا بالجميل ، بل من فرط حساسيته الفنية) ، فقال لي (وحدي سراً) : أقسم لك أن أحدا من الحضور لم يكن قد سمع بي في حياته قبل ذلك » •

وهذا اعتراف جدير بأن يلاحَظ • فاذا صح أن صاحبنا قد أدرك

وضعه هذا الادراك الواضح ، فى تلك اللحظة نفسها ، رغم شدة الانفعال التى كان يعـــانيها من فوق المنبر ، فلقـــد كان اذن على جانب من رهافة الذكاء . لكن الواقع انه لم يكن على قدر عظيم من الذكاء المرهف ، فانه بعد تسع سنين ، كان لا يستطيع بعث تلك الذكرى الا ويشعر من ذلك باهانة . لقد أجبروه على أن يوقع اثنتين أو ثلاثاً من عـــرائض الاحتجاج الجماعية (على ماذا كان الاحتجاج ؟ انه هو نفسه لم يكن يدرى) ، فوقّع كل ما شاءوا له أن يوقعه . وقد حُملت فرفارا بتروفنا أيضا على توقـــع عريضة من تلك العرائض احتجاجا على « عمل من الاعمال الشـــائنة » . ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن أكثر هؤلاء « الناس الجدد » رغـــم ترددهم على فرفارا بتروفنا ، كانوا يشعرون أن من واجبهم (لاندرى لماذا) أن ينظروا اليها نظرة احتقار وان لا يكلفوا أنفسهم عنـــاء اخفاء سخرهم منها . وقد ذكر لى ستيفان تروفيموفتش بعد ذلك ، فى ساعات مرارته ، أن فرفارا بتروفنا انما أخذت تغار منه ابتداءً من تلك اللحظة . لقـــد أدركت ، ولا شك ، انها لا تستطيع أن تعقد صلات بهؤلاء الناس . لكنها كانت تستقبلهم فى نهم وشراهة ، يدفعها الى ذلك ما يتصف به أفـــراد جنسها من فرط حب الاطلاع ونفاد الصبر ، بالاضـــــافة الى انها كانت ما تنفك تتوقع حدوث حدثٍ ما . وكانت فرفارا بتروفنا لا تتكلم فى أثناء هذه الاجتماعات الا قليلا ، رغم انها كانت قادرة على أن تتكلم كثيرا لو أرادت . لقد كانت تؤثر أن تصغى الى كلامهم . وكانت الأحاديث تدور على الغاء الرقابة ، وعلى قواعد الاملاء ، وعلى احلال الالفباء اللاتينية محل الأحرف الروسية *وعلى ترحيل فلان أو فلان من الناس، وعلى آخر فضيحة حدثت، وعلى فائدة تقسيم روسيا الى قوميات يضمها اتحاد فدرالى حر*،وعلى الغاء الجيش والبحرية، وعلى اعادة قيام بولونيا حتى نهر دنيبر، وعلى الاصلاح

الزراعى والبيانات الثورية ، وعلى الغاء حق الارث ، وعلى الأسرة والأولاد والكهنة ، وعلى حقوق المرأة ، وعلى بيت كرايفسكلى * وما لم يغفره أحد لكرايفسكى ، الخ . الخ . ولئن ضم هذا الخليط من «الناس الجدد» أفرادا صالحين لقد ضمّ كذلك كثيرا من الرجال الصالحين، بل ومن الرجال اللطاف المحببين ، على ما هناك من صفات خاصة تجعل الامر مختلطا مشتبها . أما « الصالحون » فقد كانوا أكثر استعصاء على الفهم من الطـــالحين الجفـاة الغلاظ ، ولكن المرء لا يعرف أى الفـــــريقين كان يقود الآخر . وحين أُعلن ان فرفارا بتروفنا تفكر فى انشاء مجلة ، هرع اليها عـــدد أكبر ، لكنها لم تلبث أن اتـُهمت بأنها رأسمالية ، وبأنها مستغلة ، وقد قـُذف الاتهام فى وجهها قذفا . ولئن كانت هذه الاتهامات حادة عنيفة ، لقد كانت كذلك مفاجئة . ففى أمسية من الأمسيات التى كانت تنعقد فى بيت فرفارا بتروفنا، تناقش الجنرال العجوز ايفان ايفانوفتش دروزدوف مع شاب شـــهير من الشباب (والجنرال العجوز صـــديق قديم من أصدقاء المرحـــوم الجنرال ستافروجين وأحد رفاقه فى الجيش ، وهو شخصية من أكرم الشخصيات مقاما ــ على طريقته الخاصة ــ يعرفه جميع الناس ، ويتصف بالعناد والحنق، ويأكل كثيرا ، ويخاف من الالحاد خوفا رهيبا) . فما أن بدأت المناقشة بين الجنرال والشاب حتى قال له هذا : « لا بد أن تكون جنرالا حتى تقـــول هذا الكلام » يريد بذلك أن يشير الى انه ما من شتيمة أقذع من وصــف أحد بأنه جنرال ، فما كان من ايفان ايفانوفتش الا أن قال وقد استشاط غيظا : « نعم ، أنا جنرال ، بل أنا ليوتنان جنرال ، وقد خدمت قيصرى ، أما أنت أيها الشاب فلست الا فتى غرا وملحدا » ، وتبعت ذلك جرصـة كبيرة ، وفى الغد أشارت الصحافة الى الحادث ، وشرع بعضهم فى توقيع عريضة جماعية يحتجون فيها على « السلوك الشائن » الذى صـــدر عن

فرفارا بتروفنا اذ رفضت أن تطرد الجنرال من بيتها فورا • ونشرت احدى المجلات المصورة صورة كاريكاتورية ساخرة تمثل فرفارا بتروفنا والجنرال وستيفان تروفيموفتش على انهم ثلاثي رجعي • وقد نشرت الصورة الكاريكاتورية بضعة أبيات لشاعر شعبي نظمها خصيصا لهذا الغرض • وأحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة الى أن كثيرا من الذين وصلوا الى رتبة جنرال قد درجوا على هذه العادة المضحكة ، عادة قولهم « لقد خدمت قيصري » ••• كأن قيصرهم ليس قيصرنا ، نحن رعاياه البسطاء المخلصين، وكأنه قيصرهم الخاص الذي خُلق لهم وحدهم من دون غيرهم •

وأصبح من المستحيل طبعا أن يبقى الصديقان في بطرسبرج، لاسيما وأن ستيفان تروفيموفتش قد مُنى هو أيضا باخفاق حاسم ، ذلك انه لم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام باسم الفن ، فجلب له ذلك مزيدا من السخريات • وأراد في أثناء محاضرة أخيرة ألقاها أن يؤثر في مستمعيه بالضرب على وتر الحقوق المدنية ، آملا أن يهز قلوبهم ، معتمداً على مايجب أن يوقظه « نفيه » في نفوسهم من احترام له ، فأعلن صراحة أن كلمة « الوطن » كلمة باطلة سخيفة ، وأيّد الفكرة القائلة بأن للدين تأثيرا ضارا ، ولكنه قال بصوت عال ولهجة قاطعة ان حذاءين أقل قيمةً بوشكين، أقل كثيراً* • فاذا بصيحات السخر تنهمر عليه من كل جانب في غير رحمة، حتى انفجر باكيا أمام الناس من قبل أن ينزل عن المنبر •

وقد قادته فرفارا بتروفنا يومئذ الى البيت وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة ، فكان يدمدم كالمجنون قائلا « لقد عاملوني كما تعامل طاقية عتيقة من القطن » • وسهرت عليه صديقته طوال الليل ، وهي تسقيه قطرات من الآس ، وتردد على مسامعه حتى مطلع الفجر قولها : « انك

ما تزال مفيدا . ستعود الى الظهور من جديد ، وسيعرف النـــاس قدرك وقيمتك ... في مكان آخر . »

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد جاء الى بيت فرفارا بتروفنا خمسة أدباء ، ثلاثة منهم غرباء لم يسبق لها أن رأتهم يوما، فقالوا لها، وقد تجهمت وجوههم ، انهم قد درسوا مسألة المجلة وانتهوا الى قرار في هذا الصدد . والحق أن فرفارا بتروفنا لم تعهد الى أحـد البتة بدراســـة مسألة المجلة المذكورة ، ولا كلفت أحدا باتخاذ أي قرار بشأنها . واليكم قرارهم الذي انتهوا اليه :

ان عليها ، وهي مؤسسة المجلة ، أن تتنـــازل لزمرتهم عن المجـلة وأموال المجلة حالا ، ثم أن تعود الى سكفورشنيكي وأن لا تنسى أن تأخذ معها ستيفان تروفيموفتش الذي أصبح الآن «عتيقا باليا» . ومن قبيل اللطف في المعاملة وافقوا على الاعتراف لها بحقها في ملكية المجــــلة ، وعلى أن يرسلوا اليها سدس الارباح في كل عام . وأجمل ما في الامر كله أن أربعة من هؤلاء الخمسة على الاقل كانوا لا يسعون الى تحقيـــق غرض خاص أو منفعة معينة ولا يريدون الا خدمة ، القضية المشتركة » .

قال ستيفان تروفيموفتش ، فيما بعد ، وهو يروى القصة : « لقـد سافرنا ونحن فيما يشبه الخبل ... كنت لا أستطيع أن أربط بين فكرتين ولا أزيد على أن أتمتم مرددا مع ضجة القطار ـ ما زلت أذكر هذا ـ :

ليف كامبيك وفييك وفييك*
ليف كامبيك وفييك وفييك

وما لا أدرى أيضا ، حتى وصلنا الى موسكو . وهناك انما ملكت أن أثوب الى رشدى كأن في وسع المرء أن يجد في موسكو شيئا آخر !

وكان يقول لنا أحيانا بلهجة الملهم : آه يا أصدقائي! انكم لاتستطيعون

أن تتخيلوا مدى الألم والحنق اللذين يغزوان نفوسكم حين تعبرون عن فكرة عظيمة قدستموها طوال حياتكم ، فاذا بأفراد جهـــلة يجرونها على أرض الشارع وسط أناس لا يقلون عنهم غباء وحماقة ، ثم اذا أنتم ترونها فجأة في السوق وقد تغيَّرت سحنتها حتى لا تكاد تُعرف ، وتمرغت في الوحل وتشوهت وتكسرت ، وتغيرت أبعادها وفقدت انسجامها ، كلعبــة بين أيدي أطفال .... لا ! لم يكن الامر كذلك في عهدنا ، ولا الى هذا صبونا . لقد أصبحت أنكر كل شيء ولا أعرف شيئا . يجب أن يعــود زماننا فيرد الى الطريق القويمة كل ما يترنح اليوم ويهتز . والا فما عسى يحدث ؟

٧

ما ان عادت فرفارا بتروفنا الى بطرسبرج حتى صرفت صاحبها الى خارج روسيا « ليستجم » ، ولشعورها كذلك بأنهما فى حاجة الى فترة من الانفصال . ولقد سافر ستيفان تروفيموفتش فى حماسة ، وصاح يقول : « لسوف أُبعث هنالك بعثاً جديدا ، لسوف أنقطع هنالك للعلم . . »

لكنه استأنف شكاواه الأبدية منذ الرسائل الاولى التى أرسلها من هناك . كتب الى فرفارا بتروفنا يقول : « قلبى محطَّم . أصبحت لاأستطيع أن أنسى شيئا . كل ما أراه هنا فى برلين يذكّرنى بماضىَّ القديم ، باندفاعاتى الأولى وآلامى الأولى . أين هى ؟ أين هما الآن كلتاهما ؟ أين أنتما يا ملاكى اللتين لم أكن جديرا بكما فى يوم من الأيام ؟ أين هو ابنى ، أين هو ابنى الحبيب ؟ وأين أنا ، أين أنا نفسى ، أين نفسى القديمة، الصلبة كالفولاذ ، الصلدة كالصخر ، اذا كان يستطيع رجل اسمه آندريف ، اذا كان يستطيع مهرِّج أرثوذكسى ذو لحية « أن يحطم وجودى نصفين » ، الخ الخ . أما ابنه فقد رآه مرتين فى حياته لا أكثر ، الأولى حين وُلد ، والثانية فى الآونة الأخيرة ، ببطرسبرج ، حيث كان الفتى يتهيأ لدخول الجامعة . ولقد سبق أن قلت ان الصبى قد نشأته خالات له طوال حياته ، على نفقة فرفارا بتروفنا ، فى مقاطعة « أو . . . » التى تبعد حوالى سبعمائة فرسخ عن سكفورشنيكى . وأما آندريف فهو تاجر بسيط بمدينتنا ، غريب الاطوار ، مولع بالآثار ، علَّم نفسه بنفسه ، وكان يميل الى جمع الآثار الروسية القديمة ، ويحلو له أحيانا أن يناقش

ستيفان تروفيموفتش ، في علم الآثار وخاصة في السياسة . ان هذا التاجر المحترم ، ذا اللحية البيضاء ، والنظارتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة ، كان لا يزال مديناً لستيفان تروفيموفتش بمبلغ أربعمائة روبل ، وذلك ثمن أشجار غابة قطعها من الارض الصغيرة التي يملكها ستيفان . ورغم أن فرفارا بتروفنا قد زودت صديقها بمال كثير حين أرسلته الى برلين ، فقد كان ستيفان تروفيموفتش يأمل أن يسترد هذا الدين قبل سفره ، ربما لنفقاته السرية ، فلما استمهله آندريف شهراً ، كاد يبكي من فرط ألمه . ثم انه كان من حق التاجر أن يطلب هذه المهلة ، فان الدفعات الأولى من المال ، التي أخذها منه ستيفان تروفيموفتش قد سبقت الشراء ستة أشهر ، وذلك في الايام الاولى التي كان ستيفان تروفيموفتش يعاني فيها عسرا . قرأت فرفارا بتروفنا هذه الرسالة الاولى باهتمام واستطلاع ، ووضعت خطاً أحمر تحت قول صاحبها : « أين هما الآن كلتاهما ؟ » ثم أرّخت الرسالة وأودعتها الصندوق . لا شك انه يشير الى امرأتيه الراحلتين . أما الرسالة الثانية فقد كان فيها أغنية أخرى : « انني أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم (دمدمت فرفارا بتروفنا تقول : يكفي احدى عشرة) : أنبش المكتبات، أفتش في النصوص، أدوّن ملاحظات، أقوم بجولات ، أزور الاساتذة . جددت صلاتي بأسرة دونداسوف الرائعة . ما تزال الى الآن فاتنة تلك الناديجدا ـ نيقولايفنا ! انها تبلّغك تحياتها . زوجها الشاب وأبناء أختها الثلاثة يقيمون ببرلين . في المساء أتحدث مع هؤلاء الشباب حتى الفجر . سهرات أثينية * لكنها ليست أثينية الا من ناحية رهافة الذوق وجمال الحديث . كل شيء فيها رفيع الطراز نبيل الأسلوب : موسيقى كثيرة ، ألحان اسبانية ، أحلام في بعث الانسانية كلها ، فكرة الجمال الابدي ، صورة العذراء في كنيسة سكستين ، الضوء المنساب

من خلال الظلمات . لكن الشمس نفسها لا تخلو من بقع ! أواه ياصديقتي يا صديقتي النبيلة الوفية ! انني لك ، وبقلبي معك ، معك وحدك دائما ، في كل بلد من البلاد ، وحتى في « بلاد ماكار وعجولها » التي طالما تحدثنا عنها في بطرسبرج ونحن نرتعش قبل رحيلنا عن تلك المدينة ـ تذكرين ذلك ـ ان ذكرى هذا لتطوف الآن في خيـــالي فترتسم على شـــفتي ابتسامة . انني ما كدت أجتاز الحدود حتى شعرت انني بعدت عن الخطر ... احساس غريب جديد ، شعرت به لاول مرة منذ سنين » ، الخ الخ..

قالت فرفارا بتروفنا وهي تطوي الرسالة وتضعها في الصندوق مـع الرسائل الاخرى :

ـ كلام فارغ ... اذا كانت السهرات الأثينية تستمر حتى الفجـر فانه غير منقطع الى كتبه اثنتي عشرة ساعة في اليوم . هل كان ثملا حين كتب هذا الكلام ؟ وهذه المرأة دونداسوف ، كيف تجـــرؤ أن تبعث اليّ بتحياتها ؟ على كل حال ، فليسرّ عن نفسه ! ... » .

أما قوله « في بلاد ماكار وعجولها » فقد حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يترجم به الى الفرنسية الأمثال والأقوال المأثورة الروسية مشوّهةً رغم أنه كان قادرا على أن يؤولها على نحو أحسن ، لكنه يفعل ذلك تظرفاً، وكان يجد فيه فكاهة جميلة .

على أن سلوى ستيفان تروفيموفتش لم تدم طويلا . فما هي الا أربعة أشهر ، حتى فقد صبره وعاد مسرعا الى سكفورشنيكي . ان رســـائله الأخيرة التي لم تكن الا ذوبانا عاطفيا تجاه صــــديقته الغائبة كانت مبللة بدموع حقة يذرفها حزنا على فراقها . ان هناك بشرا لا يقلون عن الكلاب

الصغيرة تمسكاً بمساكنهم وحنينا اليها . وقد التقى الصديقان فى حماسة وحرارة .

غير أن كل شىء عاد الى مجراه الطبيعى بعد يومين ، بل أصبح أشد املالا . قال لى ستيفان تروفيموفتش بعد خمسة عشر يوما : « ياصديقى، لقد اكتشفت شيئا ... شيئا رهيبا بالنسبة الىّ ... ما أنا الا طفيلى ... طفيلى .. لا .. أكثر .. من .. ذلك ؟ .. »

٨

بعد هذا دخلنا في مرحلة من الركود دامت تسع سنوات ، ولم يحدث خلالها أي تبدل تقريبا . كانت الانفجارات العصبية والدموع السخية تستأنف على كتفي من حين الى حين ، لكنها لا تفسد سعادتنا البتة .

انه ليدهشني أن ستيفان تروفيموفتش لم يسمن في أثناء هذه الفترة. كل ما هنالك أن أنفه احمرّ ، وأن حركاته اكتسبت مزيدا من اللطف والتحضر . وقد تكونت من حوله ، شيئا بعد شيء ، حلقة من الاصدقاء ، حلقة صغيرة والحق يقال . وكنا نعد فرفارا بتروفنا راعيتنا الجليلة ، رغم انها كانت لا تتصل بهذه الحلقة الا قليلا . انها بعد الدرس الذي تلقنته في بطرسبرج ، قد استقرت في مدينتنا نهائيا ، ففي الشتاء تسكن قصرها ، وفي الصيف تمضي الى منزلها الريفي . ولم تحظ طوال حياتها في مجتمعنا الريفي بما حظيت به من احترام ونفوذ في السنين السبع الاخيرة ، الى أن عيّن الحاكم الحالي . ان حاكمنا القديم ، اللطيف ، الوديع ، ايفان أوسيبوفتش الذي لا يُنسى ، كان يمت بقرابة قريبة الى فرفارا بتروفنا التي أحاطته في الماضي بكثير من الرعاية وأغدقت عليه كثيرا من النعم . لقد كانت امرأة الحاكم ترتعد فرقاً متى تصورت انها توشك أن تفقد رضى فرفارا بتروفنا عنها ، وكان الاحترام الذي يشعر به الناس في مجتمعنا الريفي نحو فرفارا بتروفنا يكاد يكون نوعا من العبادة . وواضح أن ستيفان تروفيموفتش كان من ذلك في خير . لقد كان عضوا في النادي وكان يخسر في لعب الورق بوقار وجلال ، واستطاع أن يحظى باعتبار

الناس جميعا ، رغم أن كثيرا من الأفراد كانوا لا يعدونه أكثر من «عالم» في أحسن تقدير . وحين سمحت له فرفارا بتروفنا فيما بعد ، أن يقيم في منزل مستقل ، تمتعنا بمزيد من الحرية ، فكنا نجتمع عنـــده مرتين في الاسبوع ، ونتسلى خاصة حين يغدق علينا الشمبانيا في غير قصــــد ولا اعتدال . وكان الخمر يأتي من دكان ذلك التاجر نفســـه ، آندريف ، وكانت فرفارا بتروفنا هي التي تدفع فاتورة الحساب كل ستة أشـــهر ، وكان يوم الدفع هو يوم المرض ، دائما على وجه التقريب .

ان أقدم أفراد حلقتنا الصغيرة رجل يقال له ليبوتين *، وهو موظف ريفي متقدم في السن قليلا ، يعتنق مبادىء الحرية ، ويعـــده الناس في المدينة ملحدا . وكان قد تزوج للمرة الثانية من فتاة جميلة ذات بائنـــة كبيرة . وكان ، الى ذلك ، أبا لثلاثة بنات بلغن سن الرشد ، وكانت أسرته كلها تعيش سجينة البيت حياة منعزلة ، وتخشاه خشية كبيرة . وكان بخيلا الى أبعد حدود البخل ، فاستطاع بالتوفير من رواتبه ، أن يملك بيتا صغيرا وأن يجمع قدرا من المال . ولأنه كان قليل الانصياع والطاعة ، فقد ظل في الدرجات الدنيا من سلَّم الوظائف. وكان الناس في المدينة لايحترمونه كثيرا ، وكانت أسر الطبقة الراقية لا تستقبله في بيوتها . زد على ذلك أن ليبوتين كان شديد الغيبة والنميمة ، وقد عوقب على ذلك عقابا قاسيا غـير مرة ، عاقبه أولا ضابط من الضباط ، وعاقبه بعد ذلك رجل من أصـــحاب الأملاك هو رب أسرة شريف . لكننا كنا نحب فكاهته اللاذعة وشـــغفه بالمعرفة وتندره المر . أما فرفارا بتروفنا فكانت لا تحبه قط ، ومع ذلك كان يستطيع دائما أن يحصل منها على حسن المعاملة وكرم الوفادة .

وكانت زوجة الجنرال لا تحب كذلك شاتوف* الذى لم يصبح عضوا من أعضاء الحلقة الا في السنة الاخيرة . ان شاتوف هذا طالب قديم طُـرد

من الجامعة على اثر اساءة مدرسية ارتكبها ، وكان فى طفولته تلميذ ستيفان تروفيموفتش . لقد ولد شاتوف قنا من قنان فرفارا بتروفنـا ، لأب كان خادما من خدمها هو المرحـوم بافل فيدوروفتش ، وهو مدين لهـا بنعم كثيرة، لكنها كانت لا تحبه لصلفه وكبريائه وانكاره المعروف، ولا تستطيع أن تغفر له بحال من الأحوال انه لم يأت اليها فور طرده من الجامعـة ، وانه لم يجب عن الرسالة التى بعثت بها اليه عندئذ من أجل أن يأتى اليها، وآثر على ذلك أن يرزح تحت عبء العمل فى تعليم الاطفال عنـد أسرة نكرة من أسر التجار « المثقفين » ، وسافر مع هذه الأسرة الى الخـارج أقرب الى الخادم منه الى المعلّم . لقد كان شاتوف يحترق فى ذلك الوقت شوقا الى زيارة البلاد الاجنبية . وقد صحبت الاطفال أيضـا مربية من المربيات هى آنسة روسية ذات طبع حاد ، دخلت فى خدمة تلك الأسرة قبل السفر بيوم واحد ، ومما أغـرى الأسرة فى تشغيلها أن مطامعهـا متواضعة . وبعد شهرين طردها التاجر بسبب « أفكارها التحـررية » ، فتبعها شاتوف ، وتزوجها بعد قليل بجنيف . وعاش الزوجان معـا ثلاثة أسابيع ثم افترقا افتراق شخصين حرين لا يربطهما شىء ، ولكن أغلب الظن أن الفقر كان أحد أسباب هذا الانفصـال أيضـا . وبعد ذلك ظل شاتوف يطوّف وحيدا خلال مدة طويلة فى أوروبا ، فلا يعـلم الا الله كيف كان يدبّر رزقه . قيل انه كان ينظف الأحذية فى أركان الشوارع وقيل انه عمل شيالا فى أحد المرافىء . وأخيرا ، منذ سنة ، عاد الى المدينة التى ولد فيها معنا ، وأقام عند عمته العجوز التى دفنها بعد ذلك بشـهر واحد . وكانت أخته داشا ، التى نشأتها فرفارا بتروفنا أيضا ، تعيش بالقرب منها ، وتحظى بحبها ، وتتمتع فى بيتها باعتبار واحترام . ولم يكن لشاتوف بأخته الا علاقات ضعيفة جداء وكان شاتوف يبدو فى حلقتنا متجهم

الوجه صموتا . غير أنه ، حين يمس أحد معتقداته ، من حين الى حين ، يندفع في غضب جارف مرضى ، فيفقد سيطرته على لسانه . كان ستيفان تروفيموفتش يقول في بعض الاحيـــان مازحا : « من أراد أن ينـاقش شاتوف ، فعليه أن يوثقه أولا » . وكان ستيفان تروفيموفتش يحبـــه مع ذلك . كان شاتوف قد غيَّر بعض معتقداته الاشتراكية القديمة أثناء اقامته في الخارج تغيرا جذريا ، حتى انزلق الى نقيضها في تطرف شديد . ان شاتوف واحد من أولئك الروس المثاليين الذين متى أشرقت في نفوسهم فكرة قوية كبيرة ، بُهروا بها ، وتسلطت عليهم تسلطا تاما قـد يدوم في بعض الاحيان الى الأبد ، فلا يصلون يوما الى السيطرة على هذه الفـكرة التي أصبحوا يعتنقونها اعتناقا عنيفا . فحياتهم كلها تنقضي بعد ذلك فيمـا يشبه التشنجات الكبرى تحت وطأة تلك الصخرة التي سقطت عليهم ذات يوم فحطمتهم نصف تحطيم .

وكان مظهر شاتوف يناسب معتقداته تماما : فهو أخرق الحركات ، صغير القد ، كث الشعر ، قصير القامة ، عريض الكتفين ، أشقر اللون ، ذو حاجبين أبيضين ثخينين ، وجبين مغضَّن ، وعينين مطرقتين في عناد ، يبدو أن نظرتهما القلقة تخفي وراءها خجلا مستترا . وكان يبقي عـلى رأسه دائما خصلةً عصية من شعر تنتصب قائمة . أما عمره فقد يكون سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاما . وقد قالت فرفارا بتروفنـــا ذات يوم ، بعد أن تفرست فيه : « أصبحت لا أستغرب أن امرأته هجرته » . وكان شاتوف رغم فقره المدقع ، يحاول أن يكون حسن الهندام . وفي هذه المرة أيضا لم يشأ أن يستعين بفرفارا بتروفنا ، بل عاش مما كان يبعث الله به اليه .

لقد اتفق له أن عمل عند بعض التجار . وعُيِّن بعض الوقت موظفا



شاتوف

في محل تجاري ، وأوشك أن يسافر على احدى البواخر التجارية مساعد ممثل لهذا المحل التجاري ، لولا انه مرض قبل السفر بيوم واحد • انه ليصعب على المرء أن يتصور مقدار البؤس الذي يستطيع شاتوف أن يتحمله حتى دون أن يفكر فيه • وحين أبلَّ من مرضه أرسلت اليه فرفارا بتروفنا مائة روبل دون ذكر اسم المرسل ، لكنه عرف الحقيقة مع ذلك ، حتى اذا فكر في الامر ، قرر الاحتفاظ بالمال ومضى الى فرفارا بتروفنا يشكر لهـا صنيعها • وقد استقبلته استقبالا حارا ، لكنه خيب ظنها مرة أخرى • فانه لم يمكث في بيتها الا خمس دقائق ظل خلالها صامتا مطرقا الى الارض وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء ، وفجأة نهض عن مقعده قبل أن تتم حديثها ، بل في أهم لحظة من لحظات هذا الحديث ، فحيَّاها في خـراقة شديدة ، حتى لقد صدم من فرط خراقته منضدة صغيرة ثمينة مرصـعة فانقلبت المنضدة على الارض وتهشمت محدثةً ضجة قوية • وخرج من عندها وهو يوشك أن يكون ميتا من شدة الخجل • وقد أخذ عليه ليبوتين فيما بعد انه لم يرفض المائة روبل في احتقار ، وانه رضي أن يأخذ هـذا المبلغ من هذه الطاغية ، سيدته القديمة • وأفدح من ذلك أنه ذهب اليها يشكرها •

كان شاتوف يقيم في ظاهر المدينة منعزلا منزويا ، ويكره أن يزوره زائر ولو كان الزائر واحداً منـا • وكان يحضر سـهرات سـتيفان تروفيموفتش باطراد ، ويستعير منه جرائد وكتباً •

وكان يشترك في هذه السهرات أيضـا شابٌ من مدينتنا اسـمه فرجنسكي * هو موظف في مؤسسة تجارية ، يشبه شاتوف بعض الشبه ، وان بدا نقيضه من جميع النواحي • ولكنه كان « رب أسرة » • انه شاب في الثلاثين من العمر ، له وجه يثير في نفسك الشعور بالشفقة ، وله طبع

دمث الى أبعد حدود الدماثة وهو على جانب كبير من الثقافة ، لكنها ثقافة من يعلّمون أنفسهم بأنفسهم . وكان فقيرا متزوجا ، وهو يزاول مهنته عائلاً خالته وأخت زوجته . كانت زوجته مأخوذة بالافكار الحديثة كسائر هاته السيدات ، لكن هذه الافكار كانت تكتسي عندها طابعا عامياً ، حتى ليصدق عليها ما قاله ستيفان تروفيموفتش ذات يوم : « فكرة أُلقيت في الشارع » . ان الذخيرة الفكرية لدى هاته النساء مستعارة ، فيكفي أن تروج في الاوساط التقدمية بالعاصمة شائعة من الشائعات حتى تراهنّ مستعدات لطرح كل شيء من النافذة عند أول ايحاء . وكانت السيدة فرجنسكي تزاول في مدينتنا مهنة القابلة . وقد أقامت قبل زواجها زمنا طويلا بطرسبرج . أما فرجنسكي نفسه فهو رجل يمتاز ببراءة نادرة ونقاء غير شائع ، وقلما أتيح لي أن لقيت نفساً تفوق نفسه في الاندفاع النبيل . كان يقول لي وقد أشرقت نظراته : « لن أتخلى يوما ، لن أتخلى يوما عن هذه الآمال المضيئة » . وكان يتكلم بصوت خافت ، في رقة وعذوبة ، حتى ليكاد يتمتم تمتمة ، كأنه يفضي اليك بسر . وكان طويل القامة بعض الشيء ، لكنه شديد النحول ، ضيق المنكبين ، قليل الشعر ، يضرب لون شعره الى حمرة . وكان يقبل في مذلة جميع السخريات التي يتفضل ستيفان تروفيموفتش فيوجهها الى بعض آرائه . لكنه كان مع ذلك يعترض على ستيفان تروفيموفتش اعتراضات قوية جدا تفحمه وتسقط في يده . ومن الواجب أن نذكر مع ذلك أن ستيفان تروفيموفتش الذي يتصرف معنا جميعا تصرف الأب مع أبنائه كان يعامله في مودة ولطف . كان يخاطب فرجنسكي بقوله :

ــ أنت وأمثالك « فقسٌ سابق لأوانه » ، رغم أنك شخصيا مبرأ من ذلك الضيق العقلي الذي رأيته بطرسبرج لدى أولئك التلاميذ . لكن هذا

لا ينفى أنك من ذلك « الفقس السابق لأوانه » • ان شاتوف يتمنى لو يكن من الفقس الذى يتم فى حينه ، لكنه فقس سابق لأوانه هو أيضا •

فيقول له ليبوتين :

ــ وأنا ؟

ــ أنت الوسط تماما ، الوسط الذى يعرف كيف يدبِّر أموره فى جميع الظروف ••• بطريقته الخاصة •

فيغضب ليبوتين •

وقد شاع فى المدينة ــ ويظهر أن الشائعة قائمة على أساس صحيح للأسف ــ ان زوجة فرجنسكى قد أعلنت له « استقالتها » ولما يمض على زواجهما حول كامل ، قائلةً انها تؤثر عليه ليبادكين • وليبادكين هذا ليس من مدينتنا • وقد اتضح بعد ذلك انه من الاشخاص المشبوهين جدا ، حتى انه لم يكن ضابطا متقاعدا كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب كاذبا • كل ما كان يجيده هو أن يعقف شاربيه ويشرب الخمرة ويروى أسخف المغامرات التى يمكن أ نيتصورها الخيال • وكان يرضيه أن يعيش عالة على الآخرين ، فلم يتحرج من أن يقيم فور وصوله عند أسرة فرجنسكى، آكلا شاربا نائما ، ناظرا الى رب الدار آخر الأمر نظرة احتقار • وقد ادعى بعضهم أن فرجنسكى قال لامرأته حين أعلنت له « استقالتها » : « ياعزيزتى ، كنت لا أشعر نحوك الا بالحب ، أما الآن فأنا أحترمك » * ولكن من المشكوك فيه أن يكون فرجنسكى قد نطق حقا بهذه العبارة الرائعة التى تليق بأن تصدر عن رومانى من الرومان القدماء • وقال آخرون : بل انه حين « استقالت » امرأته أجهش باكيا منتحبا • وفى ذات مرة ــ حدث ذلك بعد « الاستقالة » بخمسة عشر يوما ــ مضى الجميع فى



الكابتن لبيادكين

زيارة « عائلية » الى منزل بعض الأصحاب في ضاحية من ضواحي المدينة لاحتساء الشاي ، فكان فرجنسكي يُظهر نوعاً من المرح العنيف ، ويشارك في الرقص ، ثم اذا هو ينقض على العملاق ليادكين فجأة ، وبدون أي تشاجر سابق ، بينما كان هذا يرقص رقصة الكانكان منفردا ، فيمسك شعره بكلتا يديه ، ويثنيه نصفين ، ويأخذ يهزه هزا قويا ، وهو يبكي ويصرخ صرخات حادة ؟ فبلغ العملاق من شدة الخوف أنه لم يدافع عن نفسه ، لا ولا نطق بكلمة واحدة طوال هذا الاشتباك . لكن ليادكين أظهر عند انتهائه كل ما يمكن أن يظهره سيد مهذب من غضب واستياء .

وقضى فرجنسكي الليل كله راكعا عند قدمي امرأته يضرع اليها أن تصفح عنه ، لكنها لم تصفح ، لأنه لم يقبل ، رغم كل شيء ، أن يعتذر الى ليادكين . وقد أخذوا عليه فيما بعد أن عقيدته فاترة وأن ذكاءه ضعيف ، لأنه حين أراد أن يعتذر لامرأة ركع على ركبتيه . وقد اختفى ذلك « الضابط المتقاعد » بعد قليل ، ولم يعد الى مدينتنا الا في المدة الاخيرة تصحبه أخته، ومضى يلاحق عندئذ أهدافا أخرى. لكنني سأعود الى الحديث عنه في فرصة ثانية . لا غرابة اذن في أن « رب الأسرة » المسكين قد احتاج الى صحبتنا ينشد لقلبه عزاء . على انه لم يحدثنا في يوم من الايام عن شؤونه الخاصة . وفي مرة واحدة ، بينما كنا عائدين معا من بيت ستيفان تروفيموفتش ، بدأ يتكلم عن حاله في غموض ، لكنه لم يلبث أن صاح يقول في توهج وقد أمسك بيدي :

ـ ليس لهذا من قيمة ... هي حالة فردية لا أكثر ... لن يضع هذا أي عقبة أمام « القضية المشتركة » لن يضع أي قيمة ؟

وكان نادينا الصغير يستقبل كذلك ضيوفا طارئين ، مثل اليهودي

ليامشين والكابتن كارتوزوف . وفي وقت من الاوقات أخـــذ يجيء الى نادينا رجل طيب عجوز يرغب في التثقف . وفي ذات يوم قاد الينا ليبوتين كاهنا محكوما عليه بالترحيل ، اسمه سلوفزفسكي ، وقـد استقبلناه بعض الوقت من قبيل التمسك بالمبدأ ، ولهذا السبب نفسه كففنا عن استقباله فيما بعد ...

٩

سرت في المدينة ، في وقت من الأوقات ، شائعة تقول ان حلقتنا بؤرة فساد أخلاقي وزندقة والحاد . ثم ان هذه الشائعة قد وجدت لدى سكان المدينة شيئا من التصديق دائماً . والحق أن الامر كله كان لا يتعدى حدود ثرثرة لبرالية ظريفة ، ولا يحمل في طياته أي أذى أو خطر ، على الطريقة الروسية تماما . ان « اللبرالية النبيلة الرفيعة » ، أي اللبرالية التي لا ترمي الى تحقيق أي هدف محدد أو غاية معينة شيء ليس ممكنا الا في روسيا . كان ستيفان تروفيموفتش ، ككل رجل من رجال الفكر ، يحتاج الى سامعين ، وكان يشعر عدا ذلك بأنه يحقق بنشر أفكاره واجبا أسمى . كما أن الشمبانيا أخيرا يطيب للمرء أن يشربها مع صحبة طيبة وأن يبادل أفراد هذه الصحبة أثناء ذلك بعض الملاحظات اللاذعة المعروفة ، عن روسيا وعن « الفكر الروسي » وعن « الاله » عامة، وعن « الاله الروسي » خاصة* ، وأن يكرر للمرة المائة بعض الحكايات الفاضحة التي ذاع نبؤها وانتشر خبرها في كل مكان . وكنا كذلك لا نهمل الحكايات والأقاويل التي تجري في المدينة ، وكنا في بعض الأحيان نصدر في حقها أحكاما تتصف بأرفع الأخلاقية . وكان لكبريات المشكلات الانسانية نصيب من اهتمامنا أيضا : فكنا نتناقش عن مستقبل أوروبا والانسانية ، ونتنبأ بأن فرنسا ما ان يزل عهدها القيصري حتى تسقط الى مستوى أمة من الدرجة الثانية . وكنا مقتنعين بأن ذلك سوف يحدث ببساطة ، وفي أقصر مدة . أما البابا* فكنا قد حددنا له منذ زمن طويل دور أسقف بسيط في ايطاليا الموحدة ، مقتنعين بأن هذه المسألة

التى عمرها أكثر من ألف عام لم يبق لها من قيمة في عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، عصر الصناعة والسكك الحديدية . ولكن ألم يكن هـذا هو موقف « اللبرالية النبيلة الرفيعـة » الروسـية دائما ؟ وكان سـتيفان تروفيموفتش يتكلم أحيانا عن الفن، فيفيض فى الكلام ويجيد الحديث، ولكن كلامه كان يتصف أحيانا بأنه مجرد بعض التجريد . وكان يستحضر فى بعض الاحيان أيضا ، بحنان واحترام ، ولكن مع شىء من الحسد ، ذكرى أصدقاء شبابه الذين كان لهم جميعا شأن فى انماء ثقافتنا . حتى اذا مللنا مللا شديدا وسئما سأما مفرطا قام ليامشين (وهو موظف بمصلحة البريد) الذى يجيد العزف على البيانو اجادة ممتازة ، فأخذ يعزف مقلداً أصـوات الخنزير ، وهمهمات العاصفة ، وأنّات المرأة أثناء المخاض ، وصرخات الطفل الوليد ، الخ . ومن أجل هذا الغرض وحده انما كان يُدعى الى حلقتنا على كل حال . فاذا أسرفنا فى الشراب ـ وكان ذلك يحدث أحيانا ولكن نادرا ـ استسلمنا للفرح والعربدة ، حتى لقد اتفق لنـا فى ذات مساء أن أنشدنا نشيد المارسييز معاً ، بمصاحبة عزف ليامشـين . ولست أدرى على كل حال هل وُفّقنا فى الانشاد كثيرا .

أما اليوم العظيم ، يوم التاسع عشر من شباط (فبراير) فقد احتفلنا به فى حماسة . وياطالما سبق أن أفرغنا الكئوس تكريما له على كل حال. ولكن هذا أمر قديم : ففى ذلك العهد لم يكن شاتوف ولا فرجنسكى قد أصبحا من حلقتنا ، وكان سـتيفان تروفيموفتش ما يزال يقيم فى نفس المنزل الذى تقيم فيه فرفارا بتروفنا . وقبيل حلول ذلك اليوم العظيم كان ستيفان تروفيموفتش قد أخذ يدندن مغنياً ، بصوت خافت ، أبيات الشعر المعروفة جدا ، ولكن على نحو غير صحيح ، وهى أبيات لعل ناظمها سيد قديم لبرالى من مالكى الأطيان :

الفلاحون يتقدمون
حاملين فئوسهم بايديهم
ان أمورا هائلة تتهيأ

أو شيء من هـذا القبيل • فانني لا أتذكر النـص تذكراً دقيقا • وحين سمعت فرفارا بتروفنا صديقها يدندن مغنيا هـــذا الغناء صاحت تقـول : « سخافات ، كل هذا سخافات ! » ، وانصرفت غاضبة • وقال ليبوتين الذى حضر المشهد ، قال استيفان تروفيموفتش بلهجة ساخرة :

ـ لسوف تكون خسارة حقا أن يسبّب الأقنان القدامى، أثناء فرحتهم بعض الازعاج للسادة المالكين •

قال ليبوتين ذلك وهو يرسم بابهامه خطاً حول عنقه •

فأجابه ستيفان تروفيموفتش يقول له ببساطة وطيبة :

ـ يا صديقى ، صدقنى اذا قلت لك ان هذا (وكرر حركة ليبوتين) لن يكون له أى نفع لا للمالكين ، ولا لنا جميعـــا بوجه عام • فرغم أن رءوسنا هى نفسها التى تمنعنا من فهم ما يجرى ، فاننا اذا قُطعت رءوسنا لن نزداد فهماً •

أحب أن ألفت النظر فى هذه المناسبة الى أن عددا منا كانوا يتصورون أن أمورا خارقة ستحدث يوم نشر البيان ، ولا سـيما أمورا من نوع الأمور التى أشار اليها ليبوتين فى كلامه • فما أغرب أن يتصور هؤلاء النـــاس أنفسَهم رجالَ سياسة ، وأن يدعوا أنهم يفهمون الشعب ! وكان ستيفان تروفيموفتش يشارك فى هذه المخاوف فيما يبدو • حتى انه فى عشية ذلك اليوم العظيم تقريبا طلب من فرفارا بتروفنا فجأةً أن ترحّله الى الخارج، وكان يشعر بقلق • ولكن اليوم العظيم حلّ ومضى ، واسترد ستيفـــان تروفيموفتش ابتسامته المتعالية بعد فترة قصيرة من الوقت • وألقى علينـا

فى ذات مرة بضع ملاحظات وتأملات عن طبع الروس عامة ، وطبع الفلاحين خاصة . وختم كلامه بقوله :

ـ نحن أناس متعجلون ، تسرعنا كثيرا مع فلاحينا الطيبين ، جعلناهم « موضة » ، وانصب جزء كبير من أدبنا عليهم كانصبابه على كنز تم اكتشافه حديثا ، وظل متوفرا عليه خلال سنين . كنا نتوّج بأكاليل الغار رءوساً مقمّلة . وماذا أعطانا الفلاح الروسى منذ وُجد ، منذ قرابة ألف سنة ؟ لقد أعطانا « الكامارنسكايا » * ان شاعرا روسيا مرموقا لا يخلو من ذكاء وفكر قد هتف يقول متحمسا حين رأى راشيل* العظيمة أول مرة : «اننى لا أشترى راشيل بفلاح» . ولكننى أنا أذهب أبعد من ذلك فأقول : «اننى لا أبيع راشيل بجميع الفلاحين الروس ! » . لقد آن لنا أن نرى الاشياء كما هى ، وأن لا نمزج قطراننا بعطر « أزهار الامبراطورة » * .

فسرعان ما وافقه ليبوتين على رأيه ، ولكنه لاحظ أنه فى ذلك الزمان ، كان لا بد ، باسم الفكرة ، من التمثيل والتظاهر وتمجيد الموجيك . وأضاف ان سيدات من المجتمع الراقى قد سكبن دموعا غزارا لدى قراءة « أنطون جوريميكا » * حتى ان بعضهن قد كتبن من باريس رسائل الى وكلاء أملاكهن طالبات منهن أن يُعامَل الأقنان فى المستقبل معاملة انسانية الى أبعد حد ممكن .

ومع ذلك حدث بمصادفة تشبه أن تكون عمداً أن أحداثا مؤسفة لم تلبث أن وقعت فى مقاطعتنا ، على مسافة خمسة عشر فرسخا من سكفورشنيكى ، بعد الشائعات التى سرت عن انطون بتروف* فأرسلت الحكومة الى المكان فى لحظة الانفعال الأول فصيلة مسلحة . وسرعان ما استبد الاضطراب بستيفان تروفيموفتش ، وبلغ هذا الاضطراب من القوة أننا خفنا نحن أيضا . فكان ستيفان

تروفيموفتش يصرخ قائلا في نادينا انه كان من الواجب ارسال فصيلة أكبر وأضخم ، واستقدام تعزيزات من المقاطعة المجاورة برقيا • وهرع الى الحاكم يؤكد له أنه لا شأن له في الامر ، وأنه غير ضالع فيه ، ويتوسل اليه أن لا يقحمه في هذه القصة ، كما قد يغريه أن يفعل ذلك بسبب ماضيه • حتى لقد اقترح على الحاكم أن ينقل تصريحه هذا الى من يعنيه الأمر ببطرسبرج • ومن حسن الحظ أن الأحداث انتهت بسرعة ولم يكن لها عواقب • ولكن ستيفان تروفيموفتش قد أدهشني في تلك المناسبة أشد الدهشة •

بعد ذلك بنحو ثلاث سنين أخذ الناس يتحدثون في « الوعي القومي» وفي « الرأ ي العام » ، فكان ستيفان تروفيموفتش يضحك كثيرا من هذا كله ؛ ويقول لنا :

ـ يا أصدقائي لو أن وعينا القومي قد « نشأ » فعلا ، كما تؤكد الصحف في هذه الأيام ، فانه ما يزال على مقاعد المدرسة ، على مقاعد مدرسة ألمانية* ، يقرأ كتابا ألمانيا ويلثلث في تعلم درسه الأبدي باللغة الألمانية أمام معلم ألماني يجعله يركع على ركبتيه عند الحاجة • وأنا من جهتي أؤيد هذا المعلم الالماني ، ولكن الارجح هو أن لا شيء قد حدث ، وأن لا جديد ، وأن كل شيء يسير كما كان يسير من قبل ، أي يسير بتيسير الله • وفي رأيي أن هذا يكفي كل الكفاية روسيا « بلادنا المقدسة روسيا » • ثم ان هذه الأقوال كلها عن الوحدة السلافية والوعي القومي* أقدم من أن تُعدّ جديدة • ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان فكرة « القومية » لم توجَد يوما في بلادنا الا اختراعا من تلفيق سادة عاطلين عن العمل ، من سادة موسكو خاصة• ولست أتكلم طبعا عن عهد الأمير ايجور* الخلاصة أن مصدر هذا كله انما هو فراغنا • وكذلك فان كل ما هو لطيف ومحبَّب عندنا انما مرجعه الى الفراغ ، الى ذلك الفراغ اللذيذ

الذى نعم به المثقفون سادتنا أصحاب النزوات والبدوات ! اننى ما برحت أكرر هذا منذ سنين . اننا لا نعـــرف أن نعيش من عملنا . ما بالهـــم يحدثون جميعا كل هذه الجلبة الآن حول ما يسمونه « الرأى العام » ، وما يزعمون أنه نشأ الآن وكأنه هبط علينا فجأة من السماء ، هكذا ، دفعـة واحدة ! ... ألا تفهمون أن على المرء من أجل الحصـــول على رأى أن يعمل قبل كل شيء ، أن يعمل هو نفسه ، وأنه فى حاجة الى ممارسة ، الى تجربة ؟ لا يستطيع أحد فى يوم من الايام أن يمتلك شيئا دون أن يدفع شيئا . ألا فلنشرع فى العمل فيمكن أن يكون لنا رأى خاص بنا . ولكننا أناس لن نعمل أبدا ، لذلك فان الآخرين هم الذين سيكوّنون لنا رأيا ، وهؤلاء الآخرون هم أوروبا أيضا ودائما ، هم الألمان أيضا ودائما ، الألمان الذين يعلموننا منـــذ قرنين . يُضاف الى ذلك أن روسيا لغز يبلـغ من الضخامة أننا لن نتوصل يوما الى أن نحله وحدنا ، بدون مساعدة الالمان ، وبدون عملهم الدائب . اننى ما برحت ، منذ عشرين عاما ، أقرع الجرس لأوقظ الناس وأهيب بهم الى العمل . لقد ضحيت بحياتى كلها فى سبيل هذا النداء ، وكنت ــ لجنونى ! ... ــ أظن أننى سأفلح . أما الآن فقـد فقدت الايمان والثقة ، ولكننى ما زلت أقرع الجرس ، وسأظل أفعل حتى النهاية الى أن أوارى فى التراب . سأظل أشد الحبل الى أن يدق ناقوس موتى أنا !

وا أسفاه ! كنا لا نزيد على أن نرد على هذه الكلمات بغير الموافقـة والتأييد . كنا نصفق لمعلمنا ، وكنا نصفق له بحرارة شديدة ! ومع ذلك، أيها السادة ، ألا ترون أن هذه الثرثرة الروسـية القديمة ، الذكية هـذا الذكاء ، الفتانة هذه الفتنة ، الليبرالية الى هذه الدرجة ما تزال تترجع فى آذاننا الى اليوم ، وفى كثير من الاحيان ؟

وكان معلمنا يؤمن بالله .

فكان يقول في بعض الاحيان :

ـ لست أدري حقا لماذا اشتُهرت هنا بانني ملحد . انني أومن بالله. ولكن « يجب أن نفرّق » : انني أؤمن بالله ايماني بموجود لا يعي ذاته الا فيّ أنا.ليس في وسعي طبعا أن يكون ايماني كايمان خادمتي ناستاسيا، أو كايمان سيد من السادة يؤمن كيفما اتفق له أن يؤمن ، أو كايمان صاحبنا اللطيف شاتوف . على أن شاتوف يجب أن لا يُحسب، لأن شاتوف يجبر نفسه على الايمان اجبارا ، كما يفعل واحد من أنصار السلافية بموسكو . أما المسيحية ، فانني رغم كل ما أحمله لها من احترام ، أنتمي اليها ، فأنا لست مسيحيا . انني أقرب الى أن أكون وثنيا من الزمان القديم، على طراز جوته العظيم أو الاغريق القدماء . على الأقل لأن المسيحية لم تفهم المرأة، كما بينت ذلك جورج صاند* أروع بيان، في احدى رواياتها العبقرية . أما عن العبادات ، كالصوم والصلاة وما الى ذلك ، فانني لا أفهم لماذا يتدخل الناس فيما لا يعنيهم ؟ مهما يبذل الوشاة هنا من جهود ، فلا أحب أن أصبح يسوعيا . في عام ١٨٤٧ ، حين كان بيلنسكي في الخارج، كتب الى جوجول رسالته الشهيرة التي يؤاخذه فيها على أنه يؤمن بذلك «الاله الذي لا أدري ما هو !»* . اسمعوا ما سأقوله لكم « سراً بيننا : انني لا أستطيع أن أتخيل شيئا أبعث على الضحك من تلك الدقيقة التي قرأ فيها جوجول (جوجول ذلك العهد) تلك العبارة ، و ... بقية الرسالة ! ولكن كفانا مزاحا . وما دمنا رغم كل شيء متفقين على جوهر المسألة ، فسأقول : أولئك رجال ! أولئك كانوا يعرفون كيف يحبون شعبهم ، كانوا يعرفون كيف يتألمون من أجله ، ويضحون بكل شيء في سبيله . ولكنهم كانوا في الوقت نفسه ، يعرفون كيف يقاومونه في بعض

الشئون اذا اقتضى الامر ذلك ، فلا يتملقـــونه ولا يخادعونه • ما كان بيلنسكي ليستطيع أن يبحث عن السلامة فى الصيام عن الطـــعام ، وفى اشعال الشموع !•••

ولكن هنا كان يتدخل شاتوف :

ـ ان أولئك الرجال لم يحبوا الشعب فى يوم من الايام ، ولا تألموا من أجله ولا ضحوا بشيء فى سبيله ، وانما كانوا يتسلون بأخيلتهم •••

بذلك كان يجمجم شـاتوف مكفر الوجه ، مطـــرقا الى الأرض ، مضطربا على كرسيه • فكان ستيفان تروفيموفتش يزأر سائلا :

ـ كانوا لا يحبون شعبهم ؟ هم ؟ آه ••• لشد ما كانوا يحبـــون روسيا !

فيعول شاتوف قائلا بدوره وقد سطعت نظراته وحميت عيناه :

ـ لا ، لا الشعب ولا روسيا • ان المرء لا يســـتطيع أن يحب ما لا يعرف • وأولئك كانوا لا يعرفون عن الشعب الروسى شيئا البتـــة ، ولا يفهمونه اطلاقا • انهم جميعا ، وأنت معهم ، قد مروا بالشعب مرورا دون أن ينظروا اليه ، ولا سيما بيلنسكى • ان رسالته الى جوجول تبرهن على ذلك برهانا كافيا • انه يشبه تماما ذلك « المستطلع » * الذى تُحدثنا عنه حكاية كريلوف ، ذلك « المستطلع » الذى لم يلاحظ الفيل الموجود فى المتحـف ، لأن عينيه كانتـــا منصرفتين انصرافا تاما الى رؤية الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا • ولم يذهب الى أبعد من ذلك • ومع هـذا فلعله كان أذكاكم جميعا • فأنتم لا تجهلون الشعب فحسب ، بل لاتشعرون نحو الشعب الا بأبشع الاحتقار والازدراء ، لأن الشعب الوحيد فى نظركم انما كان هو الشعب الفرنسى ، بل وشعب باريس وحدها ، وكأنما يُخجلكم أن الشعب الروسى لا يشبه الباريسيين • تلك هى الحقيقة صافية خالصة• ومن لم يكن له شعب لم يكن له اله • فاعلموا أن جميع أولئـــك الذين

أصبحوا لا يفهمون شعبهم ، وأصبحوا على غير صلة به ، يفقدون ايمان آبائهم بذلك المقدار نفسه ، ويصبحون ملاحدة أو غير مكترثين بالدين • ان ما أقوله صحيح • انه واقع يسهل البرهان عليه • ذلك هو السبب في أنكم جميعا ، في أننا جميعا الآن ملاحدة أشرار أو أشقياء غير مكترثين بالدين ؟ ذلك هو السبب في أننا لسنا الآن شيئا على الاطلاق • هذا يصدق عليك أنت أيضا يا ستيفان تروفيموفتش • انني لا أستثنيك • بالعكس : لقد قصدتك أنت نفسك ، فاعلم هذا •

كان من عادة شاتوف ، حين يندفع في حديث طويل من هذا النوع، أن يتناول قبعته ، وأن يهرع الى الباب ، مقتنعا بأن كل شيء قد انتهى الآن، وأن علاقات الصداقة بستيفان تروفيموفتش قد انقطعت الى الأبد • ولكن ستيفان تروفيموفتش عرف كيف يستوقفه في الوقت المناسب • فقال له بلهجة طيبة وهو يمد اليه يده :

ــ حسنا يا شاتوف ! ما رأيك في أن نتصالح بعد أن تبادلنا هذه العبارات اللطيفة ؟!•••

وكان شاتوف امرءاً أخرق التصرف شديد الحياء ، لا يحب الاندفاقات العاطفية ؟ وهو خشن المظهر لكن له نفساً رقيقة مرهفة فيما أعتقد • لقد كان يتفق له في كثير من الاحيان أن يفقد حس القصد والاعتدال ، ولكنه كان أول من يتألم من ذلك ويندم عليه • فهاهوذا يرد على كلمات المصالحة التي وجهها اليه ستيفان تروفيموفتش ببضعة ألفاظ مبهمة غير متميزة جمجم بها جمجمة ، ثم أخذ يرقص في مكانه كما يرقص دب ، ثم اذا هو يبتسم ابتسامة خرقاء على حين فجأة ، ويعيد قبعته، ويرجع الى كرسيه مطرقا الى الارض • وجيء عندئذ بخمرة طبعا ، واقترح ستيفان تروفيموفتش أن يشربوا نخباً يناسب الظرف ، كأن يكون نخب ذكرى واحد من أولئك الذين لم نجمعهم في الماضي •

الفصل الثاني

الأمير هاري . عرض زواج

١

ما يزال يوجد في العالم شخص ترتبط به فرفارا بتروفنا ارتباطا لا يقل عن ارتباطها بستيفان تروفيموفتش. ذلك هو ابنها الوحيد نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين . ومن أجل ابنها هذا انما كانت فرفارا بتروفنا قد دعت ستيفان تروفيموفتش الى الاقامة في سكفورشنيكي ؛ ليشرف على تربيته . كان الولد يومئذ في نحو الثامنة من عمره . وكان أبوه الجنرال ستافروجين قد انفصل عن فرفارا بتروفنا من قبل ، فكانت فرفارا بتروفنا وحدها تتولى أمر ابنها وتهتم بشئونه . ويجب أن ننصف ستيفان تروفيموفتش فنقول انه أفلح في اكتساب مودة تلميذه . وسرّه كله في هذا انه كان هو نفسه طفلا . لم أكن قد عرفته في ذلك الحين بعد . وكان في حاجة مطلقة الى أن يكون له بقربه صديق . لذلك لم يتردد في أن يتخذ الصبي نيقولاى ستافروجين صديقا له ، منذ خرج الصبي من مرحلة طفولته الأولى . وكانا يحسان كلاهما أنهما متساويان تساويا تاما .وكثيرا ما اتفق لستيفان تروفيموفتش أن أيقظ في الليل صديقه الصغير ، البالغ من عمره عشر سنين أو احدى عشرة ، لا لشيء الا أن يعبّر له عما يجيش في نفسه من مشاعر المرارة والحسرة ، أو أن

يكشف له عن سر عائلي ما ، دون أن يدرك أن مثل هذا البوح لا محل له • فكان الطفلان يتعانقان ويبكيان • كان الولد يعرف مدى ما تحمله له أمه من حب ، ولكن الأرجح أنه كان لا يحمل لها هذه العواطف نفسها• كانت لا تكلمه الا نادرا • ورغم أنها كانت تدعه حراً ، فلقد كان يؤلمه أن يشعر بنظراتها المتنبهة تلاحقه في كل مكان • ثم انها في كل ما يتعلق بتعليم ابنها وتهذيب نفسه كانت تعتمد على ستيفان تروفيموفتش اعتمادا تاما ، لأنها كانت في ذلك الأوان تثق به ثقة مطلقة •

يجب أن نعتقد أن المربي قد شوش أعصاب تلميذه في آخر الأمر • فحين بلغ الولد السادسة عشره وأُدخل المدرسة الثانوية كان مراهقا شاحب اللون ضعيف الجسم (لسوف يكتسب في المستقبل قوة جسمية خارقة) • ويجب أن نعتقد أيضا أن الصديقين كانا يتعانقان ويبكيان في الليل لا بسبب حوادث عائلية فحسب • لقد استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يمسّ من نفس الصبي أوتارا خفية ، وأن يوقظ فيه الاحساس المتنبيء الغامض بذلك الحزن المقدس الذي متى ذاقته نفس من نفوس الصفوة أصبحت ترفض أن تستبدل به أية لذة من اللذات العادية (بل ان ثمة هواةً يحبون هذا الحزن أكثر مما يحبون الرضى الكامل ، اذا كان للرضى الكامل وجود) • مهما يكن من أمر فقد أحسنوا حين فصلوا الربيب عن مربيه ، ولو في وقت متأخر قليلا •

في السنتين الأوليين من دراسته بالمدرسة الثانوية ، جاء الفتى يقضي عطلته بالمنزل • وفي أثناء اقامة فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش ببطرسبرج ، شهد بعض السهرات الأدبية التي كانت تقيمها أمه ، فكان يقتصر على الاصغاء والملاحظة • كان قليل الكلام لطيفا خجولا على عهدنا به في الماضي • وكان ما يزال يلتزم تجاه ستيفان تروفيموفتش موقف الثقة والمحبة ، ولكن على شيء من التحفظ مع ذلك • كان واضحا أنه يتحاشى

أن يخوض معه في الحديث عن أمور رفيعة ، ويتجنب اثارة ذكرى الماضي . حتى اذا أنهى دراسته اختار المهنة العسكرية تلبية لرغبة أمه ، وسرعان ما دخل ألمع كتيبة من كتائب فرسان الحرس . لكنه لم يجيء لزيارة أمه في زيه العسكري ، وأصبحت رسائله اليها قليلة نادرة . وكانت فرفارا بتروفنا ترسل اليه المال بسخاء ، ليعيش في بحبوحة ، رغم أن عائدات أملاكها قد بلغت من الهبوط بعد الغاء الرق أنها أصبحت لا تقبض حتى نصف المبالغ التي كانت تقبضها من قبل . وانما ينبغي أن نذكر أنها بفضل اقتصادها وتوفيرها كانت قد ادخرت رأس مال كبير . وكانت تتابع بكثير من الاهتمام والشغف ما كان يحققه ابنها في المجتمع الراقي ببطرسبرج من نجاح تلو نجاح . فان الضابط الشاب ، الغني ، الملىء بالآمال والوعود ، قد استطاع أن ينجح نجاحا باهرا ، حيث أخفقت هي . فعقد صلات كانت هي قد انقطعت حتى عن أن تحلم بمثلها ، وأصبح يُستقبل بترحيب شديد حيثما يذهب . ومع ذلك ، سرعان ما أخذت تصل الى مسامع فرفارا بتروفنا شائعات غريبة كل الغرابة : لقد أخذ الشاب يلهو لهوا مسعورا على حين فجأة . ليس معنى ذلك أنه يقامر ويسكر وانما هو فيما يقال يقوم بأعمال عنيفة ويرتكب أفعالا وحشية : فمرة يدوس أناساً بحصانه ، ومرة يهين سيدةً من المجتمع الراقي كانت له بها علاقة ، يهينها على مرأى ومسمع من الناس . ان هذه الحادثة الاخيرة تتصف بخسة ودناءة خاصة . وقيل أيضا انه يسلك سلوك امرىء يهوى مشاجرة الناس ، ويسعى الى الاقتتال معهم ، ويتلذذ باهانتهم . ان هذه الانباء تغرق فرفارا بتروفنا في قلق شديد وغم بالغ . وقد أكد لها ستيفان تروفيموفتش مع ذلك أن هذه الأمور ليست الا اندفاعات عارمة لطبيعة غنية المواهب جدا ، وأن البحر سيهدأ حتما ، وأن هذا كله ، على وجه العموم ، انما يذكّر بشباب الامير

هاري* الذى كان ، كما يصوّره لنا شكسبير، يندفع اندفاعات مفرطة شتى فى صحبة فالستاف وبوانس ومسز كوكلى . ففى هـذه المرة لم تصرخ فرفارا بتروفنا قائلةً لصديقها : « سخافات ، هذه كلها سخافات ! » ، على عادتها فى الآونة الأخيرة ، وانما أخذت أقواله مأخذ الجد ، وطلبت منه شروحا فيها مزيد من التفاصيل ، وتولّت بنفسها قراءة القصـة الخالدة بأكبر انتباه وأعظم اهتمام . ولكن شكسبير لم يدخل الهدوء والطمأنينة الى قلبها ؛ وكان من رأيها أن التشابه ليس قويا الى الحد الذى زعمه ستيفان تروفيموفتش . وانتظرت جوابا على الرسائل التى أرسـلتها مستفسرة مستطلعة ، انتظرت جوابا وهى على أحرّ من الجمر . ولم تتأخر الأجوبة كثيرا . وعُلم أن الأمير هارى قد أُجرى مبارزتين كان فيهما كلتيهما هو المخطىء كل الخطأ . ففي الاولى قتل خصمه ، وفى الثانية جُرح خصمه جرحا بليغا . ومثل الشاب سـتافروجين فى أعقاب ذلك أمام المحكمـة العسكرية ، فحكم عليه بتجريده من رتبته ، وأُرسل جنديا بسيطا الى كتيبة مدفعية ، بعد أن رأف به القضاة رأفة كبيرة وتسامحوا معه تسـامحا خارقا .

واستطاع سنة ١٨٦٣* أن يتميز وأن يلمع ، فنال وساما ، ورُقّى الى رتبة صف ضابط ، ثم لم تنقض الا فترة قصيرة جدا ، حتى ردّت اليه رتبته وعاد ضابطا . ان فرفارا بتروفنا ، فى أثناء تلك المـدة ، قد كتبت ما يقرب من مائة رسالة تتوسل فيها لابنها وتتضرع من أجله . حتى انها فى تلك الظروف الاستثنائية قد عمدت الى مساع فيها مذلة .

ما ان ردّت الى الشاب رتبته فعاد ضابطا حتى قدم استقالته . ولكنه لم يرجع الى سكفورشنيكى ، حتى لقد انقطع عن الكتابة الى أمه انقطاعا تاما . وعُلم أخيرا بطرق ملتوية أنه عاد الى بطرسبرج ، ولكنه أصـبح



نیقولای ستافروجین

لا يرتاد المجتمع الذى كان يختلف اليه من قبل . حتى لكأنه كان يختفي فيما يبدو . وسرعان ما اكتشف انه يعيش بين أناس عجيبـــة أنواعهم ، أناس هم سقط الرعاع وحثالة البشر بمدينة بطرسبرج ، أناس هم خليط من فقراء أشقياء ، وموظفين بؤساء ، وعسكريين محــــالين على التقاعد ، يتعاطون الاستجداء ويدمنون الخمرة . ويظهر أنه كان يتردد الى أسرهم الشقية ، ويقضى أيامه ولياليه فى أكواخ مظلمة ، وفى أماكن مشـــبوهة لا يدرى الا الله ما هى ، ولا يعتنى بنفسه أى اعتناء ، وكأنه يجد لذة فى هذا النوع من المعيشة . وكان لا يطلب من أمه مالاً . ان له أرضا صغيرة ورثها عن أبيه ، فلا بد أن هذه الارض كانت تدر عليه بعض المال مهمـا يكن ضئيلا ، فهى مؤجَّرة فيما يقال لألمانى أصله من ساكس .

واستطاعت فرفارا بتروفنا أخيرا ، بالتوسلات والتضرعات ، أن تحمله على العودة اليها ، فظهر الأمير هارى فى مدينتنا . وحينذاك انما استطعت أن أراه أول مرة ، لأننى لم أكن قد لقيته قبل ذلك قط .

انه شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الى أقصى حدود الجمال ، قد خطف منظره بصرى منذ اللحظة الاولى والحق يقال . لقد كنت أتوقع أن أرى فتى رث الأسـمال ، قذر الهيئة ، تفوح منه رائحـــة الخمرة ، ويعبر وجهه عن التبذل والفجور فاذا أنا أرى سيدا من أرفع من لقيت فى حياتى من السادة حسن هندام وأناقة ملبس ومهابة مظهــر ولطافة وضع ورقة آداب ، فهو بهذا كله ينتمى الى أرقى بيئة . ولم أكن الشخص الوحيد الذى دهش من ذلك ، وانما كانت الدهشة عامة شاملة فى مدينتنا التى كانت مطلعة على سيرة السيد ستافروجين كلها اطلاعا يبلغ من كثرة التفاصيل أن المرء يتساءل عن مصدرها ولا يفهم من أين أتت . وأغرب ما فى الأمر أن نصف هذه المعلومات على الأقل قد ثبتت صحته .

سرعان ما جُنت سيداتنا جميعا بضيفنا الجديد ، وانقسمن طائفتين : فأما الطائفة الأولى فهي تعبده عبادة ، وأما الطائفة الثانية فهي تكرهه كرها قاتلاً . ولكنهن جميعا قد جُنَّ جنونهن . ان عدداً منهن كن يشعرن بانجذاب خاص قوي نحوه ، لأنهن يتصورن أن نفسه تنطوي حتماً على سر حاسم من الأسرار العجيبة . وكان يحلو لبعضهن أن يرين فيه قاتلاً وقد اتفق أن كان مثقفاً ، حتى انه يملك معارف واسعة . صحيح أنه لم يكن في حاجة الى أشياء كثيرة حتى يبهرنا . ولكنه كان في الواقع قادرا على أن يتحدث في أخطر القضايا وأهم المسائل التي كانت تلهب العقول والنفوس في ذلك الأوان ، وأن يتحدث عنها في كثير من سداد الرأي وسلامة الحس ، وذلك أمر يستحق أكبر التقدير . هناك أمر عجيب : ان جميع الناس ، منذ اليوم الأول تقريبا ، قد رأوا أنه شاب عاقل جدا . انه لا يكثر من الكلام ، وهو أنيق الهندام بغير تكلف ، وهو متواضع تواضعا مدهشا ، وهو في الوقت نفسه أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه من أي واحد بيننا . كان المتأنقون المتطرفون ينظرون اليه نظرة غيرة وحسد ، ويمحون أمامه امحاءً كاملاً . وقد كان وجهه مما خطف بصري أيضا : ان شعره أسود ، أسود سواداً يوشك أن يكون مفرطاً ؛ وان عينيه واضحتان مسرفتان في الوضوح والهدوء ؛ وان وجهه الناعم أبيض مسرف في النقاء والتورد ؛ أضف الى ذلك أسنانا كأنها اللؤلؤ وشفتين كأنهما من مرجان . الخلاصة : رجل جميل جدا ، لكن فيه مع ذلك شيئاً منفّراً . كان يُقال ان وجهه يشبه قناعا . أما ما كان يذكر عن قوته الجسمية الخارقة ، فهو من الأمور المذهلة ! وكانت قامته أطول من قامة وسط .

ان فرفارا بتروفنا تتأمله بزهو وفخر ، ولكنهما زهو وفخر يخالطهما شيء من قلق . عاش بيننا قرابة ستة أشهر ، حياة خالية ، وادعة ، أقرب الى

الجهامة ؟ يرتاد المجتمع اذا اقتضى الامر ذلك ، ويراعي قواعد آدابنا الريفية مراعاة دقيقة صارمة . وكان الحاكم ، وهو يمت الى أبيه بقرابة بعيدة ، يستقبله استقبال صديق حميم . ولكن ما ان انقضت بضعة أشهر حتى كشف الحيوان الكاسر عن مخالبه .

يجب أن أشير هنا ، عابرا ، الى أن حاكم مقاطعتنا ، وهو ذلك الطيب العزيز ايفان أوسيبوفتش ، كان أشبه بامرأة عانس ، ولكنه من أسرة ممتازة ، وله علاقات رفيعة . وذلك ما يفسر بقاءه في منصبه تلك المدة الطويلة كلها رغم الاهمال الذى كان يعالج به شئون الادارة . انه كريم مضياف ، يصلح لأن يكون ماريشال الطبقة النبيلة في الزمان القديم أكثر مما يصلح لأن يكون حاكم مقاطعة في عهد يبلغ من الاضطراب ما بلغه ذلك العهد . كان يقال عندنا ان الذى يحكم المقاطعة ليس هو الحاكم ، بل فرفارا بتروفنا . تلكم مزاحة شريرة ، ولكنها في الوقت نفسه ظالمة غير عادلة . ألا ما كان أكثر الفكاهات التى كان الناس يطلقونها عن هذا الموضوع متندرين!... والحق أنالواقع كان نقيض ذلك تماما : ان فرفارا بتروفنا ، في خلال هذه السنين الأخيرة ، قد انسحبت ، عامدةً ، منجميع الشئون التى تهم الناس (رغم الاحترام العظيم الذى لم ينقطع المجتمع كله عن محضها اياه) ، وحبست نفسها حبسا تاما في الحدود التى رسمتها لنشاطها بارادتها . لقد تنازلت عن الأهداف العليا والغايات السامية التى كانت ترمي اليها من قبل ، وانصرفت الى ادارة أملاكها فجأة ، فما انقضت سنتان أو ثلاث سنين حتى كانت أراضيها تغل لها نفس ما كانت تغله تقريبا في عهد القنانة . لقد تركت تطلعاتها القديمة (الأسفار الى بطرسبرج ، انشاء مجلة ، الخ) ، وأخذت تجمع المال وتكنزه ، وأصبحت بخيلة . حتى ستيفان تروفيموفتش ، أُبعد وأُذن له بأن يكتري شقة في منزل آخر

(وذلك أمر سعى الى الحصول عليه متذرعا بحجج شتى) . وشيئا فشيئا ، أخذ ستيفان تروفيموفتش يصفها بأنها امرأة عامية ، أو يسميها مازحا باسم « الصديقة العامية » . ولكنه لم يسمح لنفسه طبعا بمثل هذه الأمازيح الا مع كثير من الاحترام ، وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة زمنا طويلا .

وكنا ندرك نحن أبناء بيئته التى تحيط به ـ وكان ستيفان تروفيموفتش أكثرنا احساسا بهذا ـ أن نيقولاى فسيفولودوفتش تتركز فيه كل آمال أمه ، وأنه أصبح محلاً جميع تطلعاتها . ان تعلقها الشديد به يرجع عهده الى فترة النجاحات التى حققها فى المجتمع البطرسبرجى ، فلمـــا علمت بانحدار الفتى لم يزدها ذلك الا تعلقا به . ومع ذلك كان واضحا أن فرفارا بتروفنا تخاف ابنها وتتصرف أمامه تصرف عبد تقريبا . كان المرء يلاحظ أنها تخشى من جانبه شيئا ما ، شيئا غامضا غريبا سريا لا تدركه هى نفسها . وكثيرا ما كانت تلقى على نيقولاى نظرات خاطفة ، لكنها نافذة ، كأنهـــا تحاول سبر غوره لتعرف كيف تتصرف ... وها هو ذا الأيّل الأشـــقر يُظهر مخالبه .

٢

فجأة ، بدون سبب ظاهر ، أباح أميرنا لنفسه أن يرتكب في حق عدة أشخاص وقاحات لا يصدقها العقل : ان الشيء الخاص الذى تتميز به هذه الوقاحات هي أنها وقاحات لا يتصورها الخيال حقا ، فهي لا تشبه الاستفزازات التي تجرى عادة ، ولا تمت اليها بصلة من الصلات . أصبح الشاب يرتكب في آن واحد أعمالا صبيانية وأفعالا دنيئة دون أي باعث أو دافع ، لا يدرى الا الشيطان لماذا ! من ذلك أن واحدا من عمداء نادينا اسمه بافل بافلوفتش جاجانوف ، وهو رجل مسن يجمع الناس على اعتباره، كان قد اعتاد هذه العادة البريئة وهي أن يقول في كل مناسبة بثقة واضحة: « لا ، لن أسمح لأحد بأن يجرني من طرف أنفي ! » ففي ذات يوم ، ما كاد يقول هذه الجملة في نادينا بعد مناقشة من المناقشات أمام جمع من الناس يكادون ينتمون كلهم الى الارستقراطية المحلية ، حتى قام نيقولاى فسيفولودوفتش الذى كان منتحيا في ركن من الاركان ، والذى لم يكن قد اشترك في المناقشة ، فاذا هو يقترب فجأة من بافل بافلوفتش ، فيمسك طرف أنفه بأصبعيه امساكا قويا ويجره فيحمله على أن يمشى وراءه خطوتين أو ثلاث خطوات في الصالة . ان الشاب لا يمكن أن يكون حاملا أية عداوة للسيد جاجانوف . وكان يمكن أن يُظن أن عمله هذا عمل صبياني لا أكثر ، عمل لا يغتفر طبعا ، لولا أنهم أكَّدوا فيما بعد أن نيقولاى فسيفولودوفتش ، في لحظة قيامه بهذه « العملية » كان حالم الهيئة شارد الفكر « كأنما هو فقد عقله » . ولكن هذا الامر التفصيلي لم يتذكره أحد ولم يفكر فيه أحد الا بعد ذلك بمدة طويلة . أما في تلك اللحظة نفسها

فان الحاضرين لم يحفظوا الا وضع نيقولاى فسيفولودوفتش بعد وقوع الحادث فورا ، حين أدرك ما فعله ادراكا تاما ، فرأوا أنه لم يضطرب أى اضطراب ، بل ابتسم مرحا ، في خبث ، « دون أى ندم » . وأحاط الناس به وأخذوا يصرخون جميعا . فكان نيقولاى فسيفولودوفتش يلتفت يمنةً ويسرة دون أن يقول شيئا ، وكان يبدو عليه أنه يتأمل هؤلاء الناس الذين يصرخون مستغربا . وأخيرا ، شرد فكره من جديد (أو هذا ما حُكى فيما بعد ، على الأقل) ، وقطب حاجبيه ، واتجه نحو بافل بافلوفتش بخطى ثابتة وتمتم يقول له وهو ظاهر التململ :

ـ سوف تعذرنى حتما ... اننى لا أدرى حقا لماذا شبَّت في نفسى هذه الرغبة فجأة ... لقد كان ذلك سخفا منى ...

قال ذلك بلهجة فيها اهمال واضح ، فكان ذلك بمثابة اهانة جديدة ، وازداد اللغط . فهزّ نيقولاى فسيفولودوفتش منكبيه وانصرف .

ذلك كله كان غباءً تاما ، وكان خسةً مقصودة متعمدة محسوبة (فيما بدا من أول نظرة) وكان اذن اهانة أراد الشاب أن يوجهها الى مجتمعنا كله . على هذا النحو انما فهم جميع الناس الحادثة . فقرروا مجمعين أن يبدأوا أولا بشطب اسم السيد ستافروجين على الفور من قائمة أعضاء نادينا . ثم اتفقوا على أن يرفعوا شكوى باسم النادى الى الحاكم راجين منه أن يستعمل سلطاته الادارية (دون أن ينتظر مثول القضية أمام المحاكم) فيردَّ الى الصواب هذا المجنون الخطر ، هذا « المشاجر » الهائج، ويصون بذلك شرفاء الناس من أى « عدوان غاشم يفسد عليهم صفو حياتهم » ، واتفقوا على أن يضيفوا الى ذلك قولهم ، بسذاجة زائفة ، انهم يأملون أن « يوجد قانونٌ ما يعاقب حتى السيد ستافروجين » ، وانما اختاروا هذه العبارة ليخزوا الحاكم بالالماح الى فرفارا بتروفنا . ولكن

شاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون الحاكم غائبا عن المدينة في تلك الآونة : كان قد ذهب الى قرية مجاورة ليمسك فوق جرن المعمودية ابن أرملة لطيفة كان زوجها قد مات عنها منذ مدة قصيرة وتركها في وضع شائن . فبانتظار عودته التي يعرفون أنها قريبة كرّموا الضحية أكبر التكريم واحتفوا بها أشد الاحتفاء ، فجاءت المدينة كلها تزور الرجل المحترم بافل بافلوفتش ، وتشد على يديه ، وتعانقه وتقبله . حتى لقد اقترح بعضهم أن تقام له مأدبة يشارك في دفع نفقاتها مكتتبون ، ثم لم يعدلوا عن هذه الفكرة الا بالحاحٍ منه أن يعدلوا عنها ؟ ولعلهم أدركوا أخيرا من جهة أخرى أن المسكين ، مهما يكن من أمر ، قد جُرَّ من أنفه ، فلا محل لأن تقام له حفلة باهرة .

كيف حدث هذا مع ذلك ؟ كيف أمكن أن يحدث أمر كهذا الامر ؟ ان أعجب ما في القضية أن أحدا من مدينتنا كلها لم ينسب هذا الفعل الهمجي الى الجنون . فيجب أن نعتقد اذن أنهم كانوا ميّالين الى أن يعدوا أمثال هذه الأفعال طبيعية من جانب نيقولاي فسيفولودوفتش . أما أنا فانني الى هذا اليوم أشعر بعجزي عن تفسير الواقعة رغم أن حادثة أخرى قد وقعت بعد قليل فبدا أنها توضح كل شيء ، وهدّأت جميع النفوس . وأضيفُ الى هذا انني حين اتفق لي بعد ذلك بأربع سنين أن أسأل نيقولاي فسيفولودوفتش ، محاذرا ، عن حادثة النادي ، قد سمعت منه هذا الجواب وهو يقطب حاجبيه : « نعم ، لم تكن صحتي جيدة حينذاك » . ولكن لا نستبقن الأمور .

ومما خطف انتباهي أيضا أن كرهاً اجماعيا قد انصب فجأة على « المجنون » ، على « المشاجر » . لقد كانوا يصرون على أن يعدوا فعلته تحديا مقصودا متعمدا ، واهانةً رشق بها المجتمع كله هادئا دون أن يتأثر .

حقا ان هذا الانسان لم يظفر بأن يحمل أحدا على أن ينظـــر اليه نظرة حسنة . بالعكس : ان جميع الناس قاموا عليه وناصبوه العداء . وما هـو السبب أخيرا ؟ انه قبل ذلك الحادث لم يكن قد شاجر أحدا قط ، ولا كان أحد منا قد تلقى منه أية اهانة ، وكان يبدو دائما مهذَّبا تهـذيب سيد من السادة الذين نرى صورهم في مجلات « الموضة » اذا أوتي أحد من هؤلاء السادة أن ينطق . انني أفترض أنهم كانوا يكرهونه لزهـوه وكبريائه . حتى سيداتنا اللواتي عبدنه عبادةً في البداية أصبحن الآن أكثر من الرجال سخطا عليه وزعيقا ضدَّه .

وكانت فرفارا بتروفنا مضطربة أشد الاضطراب . وقـــد اعترفت لستيفان تروفيموفتش فيما بعد أنها قد أوجست ذلك كله منذ زمن طويل ، وأنها خلال الاشهر الستة الاخيرة كانت في كل يوم تتوقع حدوث شيء ما، شيء « من هذا النوع » بعينه . هذا اعتراف له شأنه من جانب أم .

حدثت الأم نفسها قائلةً وهي ترتعش : « لقد بدأ الأمر .....» وفي غداة وقوع الحادث حاولت أن تناقش ابنها بلباقة ولكن بثبـــات . ورغم ما كانت تتصف به من عزيمة ، فلقد كانت المرأة المسكينة ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها . لم تكن قد نامت طوال الليل ، ولما طلع الصباح جاءت تستشير ستيفان تروفيموفتش ، حتى لقد بكت عنده ، هي التي لم يسبق لها أن بكت أمام أحد في يوم من الأيام . تمنت لو يقول لها نيقولاى أي شيء ، تمنت لو يقدم لها أي شرح . ولكن نيقولاى ، الذي ظل على عهدنا به أدباً وتهذيبا واحتراما في معاملته ، أن أخذ يصغي اليها في البداية جادَّ الهيئة عابس الوجه ، ثم اذا هو ينهض على حين فجأة ، فيقبل يدها ، ويخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفي ذلك المساء نفسه انفجـــرت فضيحة جديدة بما يشبه العمد ، وهي فضيحة ان تكن أقل خطـــورة من

سالفتها ، فانها فضيحة خارقة كالأولى سواء بسواء ، جعلت الاستياء العارم يبلغ ذروته ويصل الى تمامه •

ان صديقنا ليبوتين هو الذى تناولته الفضيحة فى هذه المرة • لقد جاء الى نيقولاى فسيفولودوفتش ، بعد الحديث الذى جرى بين الشاب وأمه فورا ، ورجاه ملحا أن يشرّفه بحضور السهرة التى يقيمها فى ذلك المساء نفسه بمناسبة عيد ميلاد زوجته • ان فرفارا بتروفنا كانت قد نظرت، مرتاعةً مشمئزة ، الى العلاقات المبتذلة التى يعقدها ابنها مع بعض الناس ، ولكنها كانت لا تجرؤ أن تفاتحه فى هذا الأمر وأن تحدثه فيه • كان الشاب قد تعرّف بأشخاص حقيرين من مجتمعنا ، بل هبط الى ما دون ذلك أيضا ••• تلك كانت ميوله وأذواقه • غير أنه لم يكن قد ذهب الى بيت ليبوتين حتى ذلك الحين ، رغم أنه لقيه مرارا • وأدرك فسيفولودوفتش أن ليبوتين انما يدعوه بسبب الفضيحة التى أثارها حادث النادى ، وهى فضيحة لا بد أن ليبوتين قد سُرّ بها سروراً عظيماً وافتتن بها افتتانا ، من حيث هو رجل لبرالى ، لاعتقاده بأن هذه المعاملة هى التى يجب أن يُعامل بها عمداء النادى ، وبأن الشاب قد أحسن التصرف • انفجر نيقولاى فسيفولودوفتش ضاحكا ، ووعد بحضور الحفلة •

كان بيت ليبوتين يضم جمهورا غفيرا ؛ ولئن لم يكن الحضور من علية القوم ، فقد كان جو الحفلة زاخراً بالحياة والنشاط • ان ليبوتين ، المغرور الحسود ، لا يستقبل الا مرتين فى السنة ، ولكنه حين يستقبل يعرف كيف يرتب الأمور وكيف يجيد تدبيرها• ان ستيفان تروفيموفتش، وهو أعلى المدعوين مقاما ، لم يستطع أن يحضر الحفلة لأنه كان مريضا • وقُدِّم الشاى • وكانت المقبّلات كثيرة ، والخمرة وافرة • وكانت قد حُجزت ثلاث موائد للمقامرين • وبانتظار موعد العشاء أخذ الشباب

يرقصون على أنغام البيانو • وجاء نيقـــولاى فسيفولودوفتش الى زوجـة ليبوتين يدعوها الى الرقص ، وهي امرأة صـــغيرة بارعة الجمال شـديدة الخوف من هذا الشاب ؛ فبعد أن رقص معها رقصتين أو ثلاثا على أنغـام الفالس جلس الى جانبها وأخذ يروى لها حكايات سلَّتها كثـيرا • واذ لاحظ مدي جمالها أثناء ضحكها ، أمسك بقامتها على حين فجأة ، وأطبق بفمه كله على شفتيها فقبَّلها قبلتين أو ثلاثا على مرأى من جميع الناس • فما كان من المسكينة الا أن أغمي عليها من شدة ما أصابهـــا من روع • فتناول نيقولاى فسيفولودوفتش قبعته واقترب من الزوج خَجِلاً أشـــد الخجل ، وسط الانفعال العام الذى أثارته في الجمهـــور فعلتُه ، فتأمله لحظةً ، ثم فقد سيطرته على نفسه فتمتم قائلاً له بسرعة : « لا تزعل ! » • وخرج •

أسرع ليبوتين يجرى وراءه الى حجرة المدخل ، وساعده فى ارتداء معطفه ، وصحبه الى أسفل السلّم وهو يشيِّعه بتحيات كثيرة •

غير أن هذه الحكاية البريئة نســـبيا قد كانت لها فى الغداة تتمـة مسلّية رفعت قدر ليبوتين منذ ذلك الحين رفعاً عرف كيف يستفيد منه •

ففي الساعة العاشرة من الصباح جاءت آجافيا خادمة ليبوتين ، وهى فتاة لبيبة فى نحو الثلاثين من العمر ، حمراء الوجه ، جاءت الى عند السيدة ستافروجين موفـــدةً من مولاها الذى حمّلهـــا رسالة الى نيقـــولاى فسيفولودوفتش يجب أن « تبلغه اياها شخصيا » • وكان الشاب يشـــعر بصداع ، لكنه استقبل الفتاة بحضور فرفارا بتروفنا التى اتفق أن كانت هناك •

ـ لقد أمرنى سرجي فاسيلفتش (هذا هو اسم ليبوتين) أن أنقـل اليك أولاً تحياته ، وأن أستفسر بعد ذلك عن صـــحتك ، وأن أسألك

كيف نمت في الليلة البارحة وكيف حالك الآن بعد الذى جرى أمس •

كذلك قالت الفتاة • فابتسم نيقـــولاى فسيفولودوفتش ، وأجابهـا قائلا :

ـ سلـِّمى على مولاك واشكريه • وقولى له على لسانى يا آجافيا انه أذكى رجل فى المدينة •

فاستأنفت آجافيا كلامها بمزيد من الانطلاق قائلة :

ـ وقد أمرنى مولاى أن أرد على كلامك هذا بأنه يعرف ذلك دون أن تقوله أنت ، وانه يتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء •

ـ هه ! هه ! ولكن كيف أمكنه أن يعرف ما قد أقوله لك ؟

ـ لا أدرى كيف ؟ لكننى بعد أن خرجت وعبرت الشارع سمعتـه يركض ورائى دون قبعـة ، ويصرخ قائلاً لى : « اذا اتفـــق أن أجابك يا آجافيا : « قولى لمولاك انه ليس فى المدينة كلها رجل أذكى منه » ، فلا يفوتنْك أن تجيبيه قائلة : « نحن نعرف هذا دون أن تقوله ، وتتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء ••• » •

٣

وتمت مفاتحة الحاكم بالأمر أخيراً • فما ان عاد صاحبنا العزيز ايفان أوسيبوفتش ، حتى أُطلع على شكوى أعضاء النادي • وكان بديهيا أن من الواجب فعل شيء ما ، غير ان ايفان أوسيبوفتش الرقيق شعر بحرج كبير وارتباك شديد • ان هذا الشيخ المضياف ، الرقيق الحديث ، كان هو أيضا يخاف من قريبه الشاب بعض الخوف ، فيما يبدو • ومع ذلك قـــرر أن يدفعه الى الاعتذار للنادي وللمهان ، شريطة أن يكون شكل الاعتـــذار مناسبا ، بل وأن يكون الاعتذار مكتـــوبا اذا اقتضى الامر ذلك • ثم قـد يحضه بعدئذ بلطف ورقة على السـفر ، على القيام برحلة ، الى ايطاليا مثلاً ، لا غناء ثقافته ، أو الى أي بلد آخر في الخارج •

وفي الصالة التي استقبل فيها نيقـولاي فسـيفولودوفتش (وكان نيقولاي في العادة يتجول حراً طليقا في المنزل كله بصفته من الأقرباء) ، كان هناك موظف شاب مؤدب جدا هو محل ثقة الحـاكم ، اسمه أليوشا تلياتنيكوف ؛ انه جالس أمام منضدة في أحد الأركان يفض رسائل • وفي الغرفة المجاورة ، عند نافذة قريبة من الباب ، كان كولونيل ضخم الجسم قوي البنية ، هو صديق لايفان أوسيبوفتش ورفيق قديم من رفاقه ، يقرأ جريدة « الصوت » * دون أن يلتفت أي التفات طبعا الى ما كان يجري في الصالة ، حتى أنه كان مديراً ظهره الى الباب •

أخذ ايفان أوسيبوفتش يتـكلم بصـوت خافت • حتى اذا قارب الموضوع قليلاً ارتبك بعض الارتباك وأخذ يلف ويدور في كلامه • ان وجه نيقولاي خال من البشاشة ، لا يرى فيه المرء أثراً لعاطفة عائلية •

وكان نيقولاى جالسا ، شاحب اللون ، خافض العينين ، يصـــغى ويقطب حاجبيه كأنه يقاوم ألماً حاداً .

قال له الحاكم فيما قال :

ـ ان قلبك طيب نبيل يا نيقولاى ، وانك رجل مثقف ، وقد ترددت على أرقى البيئات الاجتماعية ؛ وحتى هنـــا كان سلوكك الى الآن سلوكا يستحق أن يُضرب به المثل ، فكنت فرحةً لأمك التى نقـــدرها جميعا ونحمل لها أكبر الاعزاز ... ولكن ها أنت ذا الآن تطلع علينا بســـلوك يحير العقل ويشكل خطــــرا على الناس كافة . اننى أكلمك كصـــديق لأسرتكم ، وكقريب يحبـــك حباً صادقا خالصا ، فما ينبغى أن تســوءك أقوالى . قل لى : ما الذى دفعك الى ارتكاب أفعال تبلغ هـــذا المبلغ مـــن الهمجية ، وتخالف الأصول والآداب الاجتماعية الى هذا الحد ؟ مامعنى هذا الشذوذ الذى يحمل المرء على أن يفترض أن بك هذيانا .

كان نيقولاى يصغى الى كلام الحاكم وقد لاح فى وجهه الضـــجر والتململ فى آن واحد . ثم اذا بشىء فيه مكر وسخر يسطع فى نظرته على حين فجأة . قال للحاكم مظلم الهيئة :

ـ طيب ... سأقول لك ما الذى يدفعنى ...

ثم مال على ايفان أوسيبوفتش بعد أن ألقى نظرة حـــذر . فارتأى أليوشا تلياتنيكوف ، الموظف المؤدب ، أن يبتعد نحو النافذة بضع خطوات أخرى . وكان الكولونيل يتنحنح من وراء جـــريدته . ووثق الحـــاكم المسكين واطمأن ، فأسرع يقرِّب من فم نيقولاى أذنه . لقد كان على أحر من الجمر شوقا الى سماع كلام نيقولاى. وعندئذ انما حدث شىء لايصدق خيال المرء أن يحدث ، ولكنه ذو دلالة واضحة بليغة . لقد أحس الشيخ فجأة أن نيقولاى ، بدلاً من أن يفضى اليه بسرٍ هام ، قد قبض بأســنانه

على الجزء الأعلى من أذنه وأخـذ يعضه عضا قـويا . ارتجف ايفـان أوسيبوفتش ، وانقطع تنفسه ، ثم قال في أنين بصوت مشوه :

ـ كفى مزاحا يا نيقولاى !

ان أليوشا والكولونيل لا يفهمان حتى الآن ماذا يجرى . كان يبدو لهما من المكان الذى هما فيه أن الرجلين يتحدثان بصوت خافت . غير أن ما كان يلوح في وجه الشيخ من ألم شديد قد أقلقهما . لذلك نظر كل منهما الى صاحبه محملقا ، متسائلا هل يجب أن يتدخل وفقا لما تم الاتفاق عليه ، أم يجب أن ينتظر قليلا . ولعـل نيقـولاى قد لاحظ ترددهما فهاهو ذا يعض بمزيد من القوة . وعاد الشـيخ المسـكين يئن قائلا من جديد :

ـ نيقولاى .. نيقولاى .. كفى مزاحا !

فلو انقضت دقيقة أخرى لمات الشيخ المسكين من الخوف حتما . ولكن جلاده رأف به وعفا عنه فأرخى أذنه . ولبث الحاكم تحت وطأة الذعر دقيقة كاملة لا يتحرك ، ثم اعتراه ما يشبه أن يكون نوبة صرع . وبعد نصف ساعة كان نيقولاى قد اعتقل ، واقتيد الى هيئة الحرس، ووضع في زنزانة تحت مراقبة حارس . ان هذا الاجراء قوى شـديد ، ولكن حاكمنا الرقيق كان قد بلغ من شدة الغضب أنه قرر أن يتحمل تبعة هذا الاجراء أمام فرفارا بتروفنا . وما كان أشد دهشة الناس جميعا حين أسرعت فرفارا غاضبة تطلب ايضاحات من ايفان أوسبوفتش ، فما كان من الحاكم الا أن رفض استقبالها ! وقد صعقت فرفارا بتروفنا من شدة الدهشة ، ولم تصدق عينيها ، لكنها اضطرت أن ترجع الى البيت حتى دون أن تنزل من مركبتها .

واتضح أخيرا كل شىء . ففى الساعة الثانية من الصباح أخذ السجين

الذى بدا الى ذلك الحين هادئا حتى لقد نام ، أخذ يُجن جنونه على حين فجأة : فهو يضرب الباب بقبضة يده ضربات مسعورة ، وهو يخلع قضبان الباب الحديدى بقوة فوق قوة البشر ، وهو يحطم الزجاج فتصاب يداه بجراح . فلما أسرع ضابط الحرس مع رجاله ففتحوا باب الزنزانة ليقبضوا على السجين ويوثقوه ، وجدوه يعانى نوبة حمى حارة شديدة . فنقلوه الى أمه . واتضح عندئذ كل شيء . ان الأطباء الثلاثة بمدينتنا قد أجمع رأيهم على أن المريض ربما كان قبل انفجار النوبة بثلاثة أيام فى حالة قريبة من الهذيان ، فهو واعٍ وهو قادر على أن يتصرف بحيلة ومكر ، ولكنه كان منذ ذلك الوقت لا يسيطر على عقله ولا على ارادته ، كما تدل على هذا الوقائع . وهكذا اذن يكون ليبوتين أول من أدرك الحقيقة . وقد ارتبك ايفان أوسيبوفتش ، الرقيق العاطفة ، المرهف الشعور ، فأصبح حائرا لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يقول . ان من الأمور الغريبة أنه هو أيضا كان يرى أن نيقولاى فسيفولودوفتش لا يتورع عن ارتكاب أشد الاعمال طيشا وجنونا ولو ملك عقله كاملا . وخجل أعضاء النادى أيضا . وأظهروا دهشتهم من أنهم لم ينتبهوا الى ما كان ينبغى لهم أن ينتبهوا اليه ، وأنهم لم يفطنوا الى ذلك التفسير الوحيد الذى يمكن أن يعلل تلك الأفعال الشاذة . ولئن أظهر بعضهم شيئا من شك وريب ، فانهم سرعان ما انقادوا للاقتناع بأن ذلك هو التفسير .

لزم نيقولاى سريره مدة شهرين . وقد جيء له من موسكو بطبيب شهير يشارك فى فحصه . وتوافدت المدينة كلها على فرفارا بتروفنا تحييها وتعرب لها عن احترامها، فغفرت للجميع وسامحتهم . حتى اذا جاء الربيع، وأبل نيقولاى ابلالاً تاماً ، ورضى دون أى اعتراض أن يسافر الى ايطاليا كما طلبت منه أمه ذلك ، اقترحت عليه أمه أيضا بأن يقوم ببعض زيارات

الوداع ، وأن ينتهز فرصة هذه الزيارات فيعتذر لمن أساء اليهم • فوافق الشاب على ذلك راضيا • وعلم فى النادى أن نيقولاى قد أجرى مع بافل بافلوفتش جاجانوف حديثا لبقاً الى أبعد حدود اللبـــاقة أرضى جاجانوف ارضاء تاماً • وكان نيقولاى أثناء جولة الزيارات هذه ، يبدو عليه كثير من الجد ، بل ويبدو عليه أيضا شيء من الحزن • ويظهر أنه قد استُقبل فى كل مكان بأكبر المودة وأحرّ العاطفة • ومع ذلك كان الناس ـ لا يدرى المرء لماذا ـ يلوح عليهم شيء من الضيق والانزعاج ويلوح عليهـــم أنهم سعداء برحيله • أما ايفان أوسيبوفتش فقد ذرف بعض العبرات أثناء وداعه، ولكنه لم يعزم أمره على أن يقبّله • يجب أن نذكر أن عددا منا قـــد ظلوا ، رغم كل شيء ، مقتنعين بأن هذا « الشقى » انما ضحك على الناس، وأن حكاية المرض هذه ليست واضحة •

وقد ذهب ستافروجين الى ليبوتين أيضا • وسأله :

ـ قل لى : كيف استطعت أن تتنبأ سلفا بما سأقوله عن ذكائك فكلفت آجافيا بأن تجيبنى ؟

فأجابه ليبوتين ضاحكا :

ـ الامر بسيط جدا • أنا أيضا أعدك رجلا ذكيا ، فكنت أعـــرف جوابك سلفا •

ـ تلك مع ذلك مصادفة عجيبة • ولكن اسمح لى : أكنت اذن تعدنى رجلا ذكيا لا مجنونا حين أرسلت الىّ آجافيا ؟

ـ نعم ، كنت أعدك من أذكى الناس وأعقلهم • ومع ذلك تظاهرتُ بالاعتقاد بأنك لم تكن تملك عقلا كاملا • وأنت نفسك ، من جهة أخرى ، قد فهمت فكرتى فورا فبعثت الىّ مع آجافيا بشهادة ذكاء •

تمتم نيقولاى فسيفولودوفتش يقول مقطبا حاجبيه :

ـ مع ذلك أنت مخطىء قليلا فى هذه النقطة ... فلقد كنتُ مريضا ... حقاً !

ثم صاح يقول :

ـ أتُراك تظن أننى يمكن أن أهجم على الناس هذا الهجوم وأنا فى حالة سليمة ؟

فصعَّر ليبوتين جسمه ولم يعرف بماذا يجيب . واصفرّ نيقولاى فسيفولودوفتش قليلا . أو هذا على الأقل ما لاح لصاحبنا ليبوتين .

وأردف ستافروجين يقول :

ـ طريقة تفكيرك مضحكة على كل حال . أنا أُدرك طبعا أنك انما أرسلت الى آجافيا لتهيننى .

ـ لم يكن فى امكانى أن أدعوك الى مبارزة .

ـ آ ... نعم ... لقد سمعت عنك أن المبارزة ليست أقوى مافيك !

قال ليبوتين وهو يصعِّر جسمه كثيرا من جديد :

ـ ما حاجتنا الى تقليد الفرنسيين ؟

فسأله ستافروجين :

ـ أأنت من أنصار العادات القومية ؟

فغطس ليبوتين فى مقعده مزيدا من الغطس .

ورأى نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين فى مكان بارز على المائدة كتابا من تأليف كونسيدران * فجأة ، فهتف يقول :

ـ هاه ! ماذا أرى ؟ أتُراك من أتباع مذهب فورييه ؟ لمَ لا ، على كل حال !

ثم أضاف يقول ضاحكا وهو ينقر الكتاب بأصبعه :

ـ ولكن أليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية ؟

فأجاب ليبوتين محتجا قائلا بشىء من الغضب :

ـ لا ، ليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية ، بل هو ترجمة عن اللغة الشاملة ، المشتركة بين جميع البشر ؛ هو ترجمة عن لغة الجمهورية الاجتماعية الشاملة والانسجام الانساني الكامل . ذلك هو هذا !

أجاب الشاب قائلاً وهو ما يزال يضحك :

ـ غريب ! ولكن هذه اللغة لا وجود لها .

يتفق أحيانا أن يخطف انتباهَ المرء شيءٌ تفصيلي تافه لا قيمة له يبقى في الذاكرة بعد ذلك زمنا طويلا . هناك أمور كثيرة أخرى يمكن أن أقولها عن السيد ستافروجين . ولكنني أحرص الآن على أن أذكر ، ولو لطرافة الواقعة ، أن بين جميع الانطباعات التي خلّفتها في نفسه اقامته بمدينتنا كانت هي صورة هذا الموظف الريفي الصغير هي التي انحرفت في فكره أعمق من أية صورة أخرى. نعم صورة هذا الموظف الريفي الصغير، هذا الانسان التافه ، هذا المخلوق الذي يكاد يكون دنيئاً، هذا الطاغية في بيته ، هذا الغيور القاسي البخيل ، هذا المرابي الذي يقفل بالمفتاح على بقايا وجبات الطعام، وأعقاب الشموع، والذي كان في الوقت نفسه رسولاً يدعو الى ما لا أدري من « انسجام اجتماعي شامل ، وينتشي وجداً أمام اللوحة الرائعة التي ترتسم في خياله عن تعاونيات فوريه في المستقبل ، مؤمنا بأنها ستتحقق قريبا في روسيا ، في مقاطعتنا ، كايمانه بوجوده ؛ وذلك في هذه المدينة التي اشترى لنفسه فيها بالتوفير والحرمان « منزلا » وتزوج امرأة ثانية ذات بائنة كبيرة ، هذه المدينة التي ربما كان لا يوجد فيما حولها ولو على مسافة مائة فرسخ فرد واحد يشبه حتى من ناحية المظهر عضوا مقبلا في تلك « الجمهورية الاجتماعية الشاملة » ، ولا ليبوتين نفسه .

« لايعلم الا الله كيف خُلق هؤلاء الناس ! » . كذلك كان يقول ستافروجين لنفسه مدهوشا اذ يتذكر أحيانا ذلك النصير الغريب من أنصار فوريه .

٤

دامت رحلة أميرنا أكثر من ثلاث سنين ، حتى لقد كاد الناس أن ينسوه تقريبا في مدينتنا • ومع ذلك كنا نعرف من ستيفان تروفيموفتش أنه طاف أوروبا كلها ، بل وأنه زار مصر والقدس ، وأنه بعد ذلك مضى حتى جزيرة ايسلندة في بعثة علمية ألحق نفسه بها • وقد قيل أيضا انه خلال فصل من فصول الشتاء تابع محاضرات جامعة ألمانية •

وكان لا يكتب لأمه الا قليلاً ، مرةً كل ستة أشهر ، أو أقل من ذلك أيضاً • لكن فرفارا بتروفنا كان لا يبدو عليها أنها تضيق بذلك أو تتألم منه • لقد ارتضت هذا النوع من العلاقات التى قامت بينهما دون تذمر أو تململ • ولكن لا شك طبعا في أنها خلال هذه السنين الثلاث لم تنقطع يوما واحدا عن أن تفكر في ابنها نيقولاى ، وعن أن تحلم بعودته ، حزينةً قلقة • على أنها كانت لا تبوح لأحد بما يعتلج في نفسها من مخاوف وما يراود خيالها من أحلام ؛ حتى لقد ابتعدت بعض الابتعاد عن ستيفان تروفيموفتش • ولا شك في أنها كانت تبنى بعض المشاريع ، وكان يبدو أنها تزداد بخلاً ، ولذلك أصبحت تظهر مزيدا من التبرم بالخسارات التى كان يمنى بها ستيفان تروفيموفتش في القمار •

وفي شهر نيسان من ذلك العام تلقت أخيراً رسالةً من باريس بعثتها اليها صديقة طفولتها براسكوفيا ايفانوفنا دروزدوف ، وهي أرملة جنرال• لقد كتبت هذه المرأة التى غابت عن عينى فرفارا بتروفنا غيابا تاما منذ نحو ثمانى سنين ، كتبت تقول لها ان نيقولاى فسيفولودوفتش قد أصبح يتردد على منزلها كثيراً ، وأن بينه وبين ليزا (ابنتها الوحيدة) صداقة كبيرة ، حتى

انه ينتوى أن يصحبهم هذا الصيف الى سويسرا ، الى فرنيه مونترو ، مع أنه يُستقبل استقبال الابن فى أسرة الكونت ك ... (شخصية عظيمة الشأن جداً فى بطرسبرج) الذى يقيم الآن باريس .

ان الرسالة قصيرة تكشف عن غايتها كشفاً واضحاً ، رغم اقتصارها على الوقائع دون سواها . لم تفكر فرفارا بتروفنا مدة طويلة ؟ وسرعان ما اتخذت قرارها ، فما كاد ينتصف شهر نيسان (ابريل) حتى سافرت الى باريس فسويسرا مصطحبة ربيبتها داشا (أخت شاتوف) . ورجعت في شهر تموز (يوليه) ، لكنها رجعت وحيدة ، تاركةً داشا عند آل دروزدوف . وقالت فرفارا بتروفنا ان هاتين السيدتين ستأتيان الينا فى آخر شهر آب (أغسطس) .

وكان لآل دروزدوف أرض فى مقاطعتنا هم أيضاً . لكن ضرورات وظيفة الجنرال ايفان ايفانوفتش (الصديق القديم من أصدقاء فرفارا بتروفنا ، ورفيق زوجها فى السلاح) كانت قد منعته دائماً من أن يعيش فى أرضه الرائعة . فلما مات الجنرال فى السنة الماضية ، سافرت أرملته الحزينة الى الخارج مع ابنتها متنويةً ، فيما كانت تنتويه من أمور أخرى أيضاً ، أن تصيب حظاً من العلاج بالعنب فى فرنيه مونترو . وكانت تعتزم أن تقيم فى مقاطعتنا اقامة نهائية متى عادت الى روسيا . وكانت براسكوفيا ايفانوفنا تملك أيضا فى المدينة منزلاً كبيراً لم يُسكن منذ زمن طويل فنوافذه ظلت مغلقة دائماً.ان آل دروزدوف أغنياء.انبراسكوفيا ايفانوفنا ، كرفيقتها فى المدرسة فرفارا بتروفنا ، هى بنت تاجر كبير من تجار الخمور فى النظام القديم . وقد حملت الى زوجها مهراً كبيراً هى أيضاء وضابط سلاح الفرسان توشين الذى تزوجته زواجا أول كان يملك هو نفسه ثروة لا بأس بها . وكان لا يخلو كذلك من مواهب . وحين مات ترك لابنته

الوحيدة ليزا ، التي كان عمرها عندئذ سبع سنين ، ترك لها ثروة ضخمة. والآن وقد بلغت ليزافتا نيقولايفنا من العمر قرابة اثنين وعشرين عاما ، يمكن أن تُقدَّر ثروتها الشخصية بمائتي ألف روبل ، ناهيك عن المال الذي سترثه من أمها ، لأن أمها لم تنجب من زوجها الثاني .

ان فرفارا بتروفنا تبدو راضية جدا عن رحلتها . ففي رأيها أنها ، هي وبراسكوفيا ايفانوفنا ، قد انتهتا الى اتفاق . فما ان عادت ، حتى قصّت كل شيء على ستيفان تروفيموفتش ، وأفاضت في الكلام والبوح ، وذلك أمر كانت قد كفت عنه منذ زمن طويل .

صاح ستيفان تروفيموفتش قائلا وهو يصفق بأصابعه :

- مرحى ! عظيم !

كان مسروراً أعظم السرور ، مفتتنا أشد الافتتان ، لا سيما وأنه أثناء غياب صديقته قد عاش حياة حزينة جدا .

وكانت فرفارا بتروفنا ، حين سافرت ، قد ودعته وداعا فاترا ، وحاذرت أن تبلغ هذا « النمام » مشاريعها ، خشية ثرثراته طبعا . يُضاف الى ذلك أنها كانت غاضبة منه حانقة عليه حين علمت أنه خسر في اللعب بالورق مبلغا ضخما . ولكنها حتى قبل أن تغادر سويسرا قد أحست أن من واجبها أن تعوّض صديقها المهجور الذي كانت تعامله منذ مدة طويلة بكثير من الشدة والصرامة . وكان سفرها المفاجيء السري قد أثّر تأثيراً بالغا عميقا في قلب ستيفان تروفيموفتش الوجل ، لا سيما وأنه اتفق أن كان في تلك الآونة يعاني من مصاعب أخرى كثيرة . لقد كان عليه أن يواجه التزاما ماليا قديما كبيرا ما كان له أن يستطيع سداده بدون مساعدة فرفارا بتروفنا . زد على ذلك أن حاكمنا الطيب ، ايفان أوسيبوفتش ، قد ترك منصبه في شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها ، اذ اضطر الى

الاستقالة في ظروف مؤسفة . وقد تم استقرار الحاكم الجديد ، آندره أنطونوفتش فون لمبكه كمبله أثناء غياب فرفارا بتروفنا . وكان من شأن هذا أن بدّل وضع فرفارا بتروفنا في بيئتنا الريفية تبديلاً محســـوسا جدا ، وسرعان ما بدّل وضع ستيفان تروفيموفتش تبعاً لذلك ، وهذا ما استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يقتنع به من ملاحظة علامات مزعجة لكنها ذات بال . لذلك أخذ يراوده الخوف أثناء غياب فرفارا بتروفنا . ثم انه قد علم من مصدر مطلع أن عددا من سيداتنا قد قررن أن لا يرين فرفارا بتروفنا بعد الآن . وكان لا يُنتظر أن تصل امرأة الحاكم الجديد الا في مطلع الخريف ، ولكن كان يقال انها ان كانت متعجرفة جدا ، فهي ارستقراطية حقيقة على الأقل ، تختلف عن صاحبتنا « المسكينة فرفارا بتروفنا » اختلافا كبيرا . لا أدري كيف كان جميع الناس يعلمون ، بكثير من التفصيل ، أن السيدة فون لمبكه وفرفارا بتروفنا كانتا قد التقتا في المجتمع سابقا ، وانهما افترقتا متعاديتين ، حتى ان ذكر اسم زوجة الحاكم كان يكفي وحده لأن يزعج فرفارا بتروفنا . وها هي ذي فرفارا بتروفنا تصل ، فاذا بهيئتهـــا المنتصرة ، واذا بالاهمال الذى أظهرته حين علمت بعداوة هاته السيدات ، واذا بالازدراء الذى بان عليها حين عرفت الشائعات التى هزت مجتمعنا ، اذا بهذا كله ينعش شجاعة ستيفان تروفيموفتش ويرد اليه صفاء مزاجه . وأراد أن يكسب حظوة صديقته فأخذ يصف لها وصول الحاكم الجديد وصفا ساخرا .

قال وهو يمط كلماته متغنجاً :

ـ لا شك أنك تعلمين ، « يا صديقتى العظيمة » (بالفرنسية) ، كيف يكون حاكمٌ روسى على وجه العموم ، وكيف يكون حاكمٌ روسى حديث التعين على وجه الخصوص ، ولكننى أشك فى أن تكونى قد أتيح لك أن تعرفى بالتجربة ما هى « نشوة الحكم » !

ـ نشوة الحكم ؟ ما نشوة الحكم هذه ؟

ـ اسمعى ••• « انت تعلمين أن الناس فى بلادنا ••• الخلاصة••» (بالفرنسية) •• اذا وُضع أحدهم وراء شباك قطع التذاكر فى محطة من محطات القطار ، وكلّف بأن يبيع أية تذاكر ، لا يلبث التافه أن يعتقد أن من حقه أن يصطنع وضع جوبيتر « اظهارا لسلطته » (بالفرنسية) اذا جئت تشترين منه تذكرة سفر ، فكأنه يقول : « انتظرى قليلاً ••سوف ترين ما لى عليك من سلطة » • هذا نوع من نشوة الحكم ••• «الخلاصة» (بالفرنسية) ••• لقد قرأت أن خادم احدى كنائسنا فى الخارج ••• « ولكنه أمر عجيب جدا » (بالفرنسية) قد طرد ••• نعم طرد طرداً••• من الكنيسة ••• أسرةً مرموقة جدا ••• « سيدات فاتنات » (بالفرنسية) قبل ابتداء صلاة العيد الكبير ••• تعرفين ••• تلك الأناشيد ، وسفر أيوب ••• طرد الأسرة بحجة وحيدة هى أن « الأجانب الذين يتسكعون فى الكنائس الروسية يحدثون فيها فوضى ، وما عليهم على كل حال الا أن يأتوا فى غير أوقات الصلاة ••• » ذلك ما قاله ، حتى ان احدى السيدات قد أغمى عليها • ان خادم الكنيسة هذا قد أصابته أيضا « سكرة حكم » ، « وأظهر سلطته » (بالفرنسية) •

ـ أوجز اذا استطعت يا ستيفان تروفيموفتش •

ـ ان السيد فون لمبكه يزور الآن مقاطعته • بكلمة واحدة : ان هذا السيد آندره أنطونوفتش هو ألمانى روسى ، أرثوذكسى الديانة ، لا أنكر أنه رجل جميل جدا ، فى نحو الاربعين من عمره •••

ـ من قال لك انه رجل جميل جدا ؟ ان له عينين كعينى كبش •

ـ نعم ، كعينى كبش ، ولكننى أوافق سيداتنا على رأيهن •••

ـ لننتقل الى موضوع آخر يا ستيفان تروفيموفتش ، أرجوك .
بالمناسبة : أأنت تضع ربطة عنق حمراء منذ مدة طويلة ؟

ـ اليوم ... فقط ...

ـ هل تريض ؟ هل تمشي كل يوم مسافة الفراسخ الستة التي أمرك بها الطبيب ؟

ـ لا دائما ....

ـ قدَّرتُ هذا . خمَّنته وأنا بسويسرا .

قالت له ذلك صائحة غاضبة . وأردفت :

ـ طيب...لن تمشي بعد اليوم ستة فراسخ بل عشرة. انك لم تشخ فحسب ، بل هرمت هرماً شديدا . لقد دُهشت حين رأيتك منذ قليل ، رغم ربطة عنقك الحمراء . ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك : ربطة عنق حمراء ؟ طيب ... أكمل حديثك عن فون لمبكه اذا كان عندك شيء تقوله حقا ، ولكن اختم قصتك ، أرجوك . انني متعَبة .

ـ « الخلاصة » (بالفرنسية) أنا انما أردت أن أقول انه واحد من حكامنا أولئك الذين يبدأون في الأربعين من العمر . يعيشون قبل ذلك حياة بائسة خاملة ؛ ثم اذا هم يصبحون على حين فجأة شخصيات مرموقة ، بفضل زواج لم يكن في الحسبان ، أو بأية وسيلة أخرى لم يكونوا يأملونها ... لقد سافر الآن ... ولكن يجب أن أقول لك انهم أسرعوا يدسون في أذنه أنني أفسد الشبيبة وأنشر الالحاد ... لقد استطلع وسأل فوراً .

ـ ولكن هل هذا صحيح ؟

ـ لقد اتخذت احتياطاتي . وحين نقلوا اليه أنك كنت أنت «تحكمين المقاطعة » ، أباح لنفسه أن يقول : « لن تجري الأمور على ذلك النحو بعد الآن » .

ـ هل قال هذا حقا ؟

ـ نعم ، قال « لن تجرى الأمور على ذلك النحو بعد الآن » ، وقد قال ذلك « بتلك العجرفة » (بالفرنسية) ... أما زوجته جوليا ميخائيلوفنا فسوف نشرف برؤيتها هنا في آخر شهر آب (أغسطس) . سوف تصل رأساً من بطرسبرج .

ـ خطأ . سوف تصل من الخارج . لقد التقينا هناك .

ـ « حقاً ؟ » (بالفرنسية) .

ـ في باريس ، وفي سويسرا . انها قريبة آل دروزدوف .

ـ يالها من مصادفة خارقة ! ويقال انها طموحة ، وان لها علاقات قادرة ...

ـ سخافات ! ليس لها الا علاقات صغيرة لا تُذكر . لقد ظلت حتى الخامسة والأربعين من العمر عانساً لا تملك قرشاً . ثم اصطادت هذا السيد فون لمبكه ، وهي تريد الآن أن تصنع منه شخصية مرموقة طبعاً كلاهما دساس صاحب مكائد .

ـ ويظهر أنها أكبر منها بسنتين ؟

ـ بل بخمس سنين . كانت أمها في موسكو تكنس عتبة منزلي بحافات ثوبها . كانت تستجدى أن أدعوها الى حفلات الرقص التى كنت أقيمها في أيام فسيفولود نيقولايفتش * . وكانت ابنتها هذه تقضى ليالى بكاملها قابعةً في ركن من الأركان دون مراقص ، مزدانةَ الجبين بقرص فيروزى اللون ، حتى اذا دقت الساعة الثالثة من الصباح أخذتني بها شفقة فأرسلت اليها أول مراقص . كان عمرها حينذاك خمسة وعشرين عاما ، ولكن أهلها كانوا ما يزالون يلبسونها فستانا قصيرا كفتاة صغيرة ، حتى أصبح المرء يستحى أن يستقبلهم .

ـ انى لأكاد أراه ، ذلك القرص الذى كانت تزين به جبينها •

ـ أقول لك اننى ما ان وصلت حتى وجدت نفسى فى وسط مكيدة • لقد أطلعتك منذ لحظة على رسالة السيدة دروزدوف • هل يمكن أن يكون ثمة ما هو أوضح من هذا ؟ ماذا اكتشفت ؟ ان دروزدوف الحمقاء هذه ـ ولقد كانت حمقاء دائما ـ قد نظرت الىّ كأنمـــا لتسألنى لماذا جئت • فتصور دهشتى ! لقد نظرت فرأيت لبكه تلك تدور حولنا ، ومعها ذلك الشاب ، ابن أخت الشيخ دروزدوف • لقد اتضح لى عندئذ كل شىء • أدركت الموقف فى طرفة عين طبعا ، ولم تلبث براسكوفيا أن انحازت الى جانبى من جديد • ولكن ما قولك فى هذه المكيدة ؟

ـ التى انتصرت عليها مع ذلك ! أوه ، انك لبسمارك ! *

ـ دون أن أكون بسمارك ، أستطيع أن أميّز الزيف والحمـــاقة اللذين أصادفهما فى طريقى • ان لبكه هى الزيف ، وان براسكوفيا هى الحماقة • قلّ أن رأيت فى حياتى امرأة تفوقها رخاوة ؛ وهى عدا ذلك متورمة الساقين ، وهى فوق كل شىء طيبة • فهل ثمة أغبى من انســـان أحمق طيب ؟

أجاب ستيفان تروفيموفتش :

ـ الأحمق الشرير أغبى يا « صديقتى العزيزة » (بالفرنسية) •

ـ قد تكون على حق • لا شك أنك تتذكر ليزا ، هه ؟

ـ « طفلة فاتنة » (بالفرنسية) •

ـ ما هى الآن بطفلة ؛ هى الآن امرأة ، بل امرأة قوية الشخصية • انها حارة الطبع كريمة النفس • ان ما يعجبنى فيها هو أنها تقاوم أمها ، تلك الحمقاء السريعة التصديق • لقد قامت بينهما مشكلة كبيرة ، بسبب ابن الأخت ذاك •

ـ ها ... فعلاً ... انه لا يمت بأية قرابة الى ليزافتا نيقولايفنا . أيكون طامعا فيها ؟

ـ اسمع ! هو ضابط شاب ، قليل الكلام، بل ومتواضع.انني أحرص دائما على أن أكون منصفة . أظن أنه هو نفسه ضد هذه المكيدة ، وأنه لم يكن يطمع في شيء . ان السيدة لبكة هي التي تدبر الحيلة كلها . لقد كان يحمل لنيقولاى تقديرا عظيما . ان كل شيء متوقف على ليزا . وحين تركتهم كانت على صلات ممتازة بنيقولاى الذى وعدنى بأن يجيء الينا حتما في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) . واذن فان زوجة لبكة وحدها تدبر الحيلة ، أما براسكوفيا فهى عمياء لا أكثر . ألم تصرّح لى بأن الشبهات التى تراودنى ليست الا هواجس خيالية ؟ لقد أجبتها رأساً بأنها امرأة حمقاء . وأنا مستعدة لان أكرر قولى هذا الى أن ألفظ آخر أنفاسى. ولولا أن نيقولاى قد رجانى أن لا ألح الآن ، لما كنت تركتهم قبل أن أزيح القناع عن وجه تلك المرأة المنافقة المرائية . انها بواسطة نيقولاى تحاول أن تظفر بالحظوة لدى الكونت ك ... ! انها تريد استعداء الابن على أمه . ولكن ليزا الى جانبنا . أما براسكوفيا فقد اتفقت معها أخيرا . أنت تعلم أن كارمازينوف قريبها ، أليس كذلك ؟

ـ كيف ؟ قريب السيدة فون لبكة ؟

ـ نعم ، قريبها ، ولكنها قرابة بعيدة .

ـ كارمازينوف ، الكاتب ؟ *

ـ نعم ، الكاتب . لماذا يدهشك هذا ؟ انه يعد نفسه رجلاً عظيما . انه منتفخ غرورا . سيصلان معا . وهى تحدث الآن من أجله جلبةً كبيرة في الخارج . انها تنوى أن تنظّم هنا شيئا ما ، تنوى أن تنظم اجتماعات أدبية لا أدرى ما هى ! سيجىء شهرا واحدا. انه يريد أن يبيع آخر قطعة

من الارض يملكها هنا . أوشكت أن ألقاه في سويسرا ، ولم أكن أحرص على ذلك البتة . آمل على كل حال أن يتنازل فيتعرفني أنا على الأقل . كان في الماضي يكتب الي ، وكان يزورني في البيت . أحب أن تعتني بملابسك اعتناء أكبر ياستيفان تروفيموفتش . انك تزداد اهمالاً لمظهرك يوما بعد يوم ... آه ... ما أشد ما تعذبني ! ماذا تقرأ الآن ؟

ـ أنا الآن ... أنا الآن ...

ـ أعرف . مازلت على عهدى بك : الاصدقاء ، جلسات الشراب ، النادى ، اللعب بالورق ، وتلك السمعة ، سمعة الالحاد ! ان هذه التسمية لا تعجبني يا ستيفان تروفيموفتش . لا أحب أن تُعدّ ملحداً . لا ، لاأحب هذا ، ولا سيما الآن . وفي الماضي أيضا كان ذلك لا يعجبني ؛ فما هو في آخر الامر الا ثرثرة . يجب علي أن أقول هذا أخيرا .

ـ « ولكن ، يا عزيزتي ... » (بالفرنسية) .

ـ اسمع يا ستيفان تروفيموفتش : في كل ما يتعلق بالمعارف العلمية، ما أنا الا جاهلة بالقياس اليك . ومع ذلك ، فانني عند عودتي الى هنا ، فكرت فيك كثيرا وانتهيت الى اقتناع .

ـ ما هو هذا الاقتناع ؟

ـ هو أننا ، أنت وأنا ، لسنا أذكى الناس في هذا العالم . هناك من هم أذكى منا .

ـ هذا كلام صحيح . وهناك اذن من يرون رؤية أصدق ، ويترتب على هذا أن من الممكن أن نخطىء . أهــذا ما تريدين قوله ؟ « ولـكن يا صديقتي الطيبة » (بالفرنسية) ، لنفرض انني مخطىء . انني مع ذلك أملك حرية الاعتقاد ، وذلك حق عام مقدس . ان من حقي أن لا أكون متعصبا للدين وأن لا أكون متظاهرا بالتقوى اذا كان هذا لا يرضيني .

ولكنى أتعرض طبعا فى هذه الحالة للبغضاء يحملها لى عدد من الناس الى الأبد • « ثم ان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول » (بالفرنسية) ••• ولما كنت أوافق على هذا الرأى كل الموافقة •••

ـ ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ـ قلت : « ان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول » ، ولما كنت •••

ـ ليس هذا القول قولك أنت حتماً • لا شك أنك اقتبسته •••

ـ هو قول للفيلسوف باسكال •

ـ قدَّرت فعلا ••• أنه ليس قولك أنت • لماذا لا تعبِّر عن فكرك أبدا بهذه الطريقة ، بطريقة فيها هـــذه القوة وهذا الايجـاز ، بدلا من الاطالة دائما ؟ هـــذا أفضل كثيرا مما كنت تقوله منذ قليـل عن نشوة الحكم •

ـ « والله ••• يا عزيزتى ••• » (بالفرنسية) ••• لماذا ؟ أولاً ، ربما لأننى لست باسكال ، على كل حال ، « ثم » (بالفرنسية) ثانيا ، لأننا معشر الروس لا نجيد التعبير عن شيء بلغتنا ••• أو أننا لم نصل الى هذا حتى الآن على الأقل •••

ـ همْ ••• قد لا يكون هذا صحيحا كل الصحة • مهما يكن من أمر ، فانه ينبغى لك أن تدوِّن هـــذه التعابير على الأقل ، وأن تحفظهـا لتستعملها فى المناسبات • آه ••• ستيفان تروفيموفتش ، كنت أتهيأ لأن أكلمك بجد ، بجد كبير •••

ـ « صديقتى العزيزة ، صديقتى العزيزة ! » (بالفرنسية) •

ـ الآن وأنا أرى جميع هؤلاء الذين أسماؤهم لمبكه ، وكارمازينوف ••• آه ! يا الهى ! ما أشد اهمالك لنفسك ! انك لتعذبنى تعذيبا كبـــيرا ياستيفان تروفيموفتش ! ••• أود أن يحترمك هؤلاء الناس ، لأنهم جميعا

لا يساوون خنصرك • فانظر الى سكوكك أنت ! ما الذى سوف يرونه ؟ ما عسانى أريهم فيك ؟ انك بدلا من أن تكون قدوة للآخرين ، وبدلا من أن تلتزم وضعا نبيلا ، تحيط نفسك بجمع غفير من أوغاد ، وتكتسب عادات سيئة ، وتهمل نفسك ، وتصبح مدمنا على الخمرة والقمار ، ولا تقرأ الا بول دوكوك ، وتضيع وقتك فى ثرثرات • هل يجوز أن تعقد صلة صداقة برجل وبش كصاحبك ليبوتين الذى لا تفارقه ولا يفارقك ؟

ـ لماذا تقولين اننى لا أفارقه ولا يفارقنى ؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش محتجا فى خجل ووجل •

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها بلهجة قاسية قاطعة ، فسألته :

ـ أين هو الآن ؟

ـ انه ••• انه يحترمك الى أبعد حدود الاحترام ، وقد سافر الى ـ •••• لك ، لاستلام الميراث الذى آل اليه من أمه •

ـ يخيّل الىّ أنه لا يفعل شيئا غير أن يرث • وشاتوف ؟ أما يزال على حاله ؟

ـ « سريع الاهتياج ، لكنه طيب القلب » (بالفرنسية) •

ـ اننى لا أطيق احتمال صاحبك شاتوف هـــذا • انه شرير ، وانه ممتلىء غرورا بنفسه •

ـ كيف حال داريا بافلوفنا ؟

ـ تقصد داشا ؟ ما هذه الفكرة الغريبة التى واتتك ؟

كذلك سألته فرفارا بتروفنا ، وهى تنظر اليه متعجبة مســـتطلعة • وتابعت كلامها فقالت :

ـ هي بخير . لقد تركتها عند آل دروزدوف... سمعتُ حديثا عن ابنك حين كنت في سويسرا ، بشرٍ لا بخير .

ـ « أوه ، هذه حكاية سخيفة جدا . كنت أنتظر وصولك ياصديقتي الطيبة لأقص عليك ... » (بالفرنسية) .

ـ كفى ياستيفان تروفيموفتش ، دعني وشأني هادئة البال . انني متعبة مرهقة . سوف يتسع وقتنا للكلام على مهل كما نشاء ، ولا سيما عن أمور مزعجة. انك حين تضحك ترشق من فمك رذاذا غزيرا من اللعاب. هذا وحده دليل شيخوخة وهرم . ثم انك الآن تضحك ضحكا غريبا جدا. ما أسوأ هذه العادات التي تأصلت فيك ! ان كارمازينوف لن يأتي اليك ! والناس يعبثون الآن بكل شيء ويبتهجون لكل شيء ... لقد كشفت الآن عن نفسك كلها . هيَّا ، كفى كفى ! أنا متعبة . هلاَّ أشفقت على كائن انساني آخر الامر !

« أشفق ستيفان تروفيموفتش على كائن انساني » آخر الامر. ولكنه انصرف مضطربا أشد الاضطراب .

٥

كان صاحبنا قد اعتاد كثيرا من العادات السيئة فعلا ، ولا سيما في هذه الآونة الاخيرة. واضح أنه أصبح قليل الاكتراث ، وأنه أخذ يهمل مظهره مزيدا من الاهمال يوما بعد يوم • وهو الآن يشرب أكثر مما كان يشرب، وقد صار سخيّ الدموع يذرفها بسهولة ، وصارت أعصابه تثور في كل مناسبة • واكتسب وجهه سرعة في الحركة غريبة ، حتى انه ينتقل فورا من التعبير عن أعظم الأبهة والفخامة الى التعبـــير عن أتفه الهزل المسف المضحك ، بل والى التعبير عن أبلغ الحماقة البلهاء • وقد غدا عاجزا عــن احتمال العزلة والوحدة ، فلا بد له دائما من أحد يجيء اليه فيسلّيه • وكان ينبغي أن تنتقل اليه النمائم والأقاويل ، وأن تروى له الحكايات التي تشيع في المدينة ، وكان يطالب دائما بجديد • فاذا لم يأت اليه أحـــد ، طفق يطوف من غرفة الى غرفة حزينا ، واقترب من النافذة في كل لحظة، وتنهد وزفر ، وحرّك شفتيه حالم الهيئة شارد اللب ، ثم اذا هـــو يكاد يبكي • وأصبحت تساوره هواجس ومخاوف مستمرة ، فهو في كل وقت يخشى وقوع حادث غير منتظر ، وهو دائم الجفول والتخوف كثير الاهتمام بما يراه في النوم من أحلام •

قضى ستيفان تروفيموفتش النهار والليـــل حزينا مكتئبا ، ثم بعث يستدعيني • فلما جئت اليه وجدته مضطربا أشد الاضطراب ، وأخـــذ يتحدث طويلا ، ولكن حديثه مشوش مبهم • ان فرفارا بتروفنا تعرف منذ مدة طويلة أنه لا يخفي عني شيئا • وبدا لي في النهاية أن ثمة شيئا يقلقه

ويبث في نفسه الاضطراب ، وأنه ربما كان هو نفسه لا يدرك هذا الشيء ادراكا واضحا ، ولا يعيه وعيا كاملا . وقد جـــرت العادة ، حين نكون وحيدين فيفرغ من الافضاء الى بهمـــومه وآلامه ، أن نؤتى على الفـــور بزجاجة خمرة تسرى عنا قليلا . ولكن الخمرة في هـــذه المرة لم تكن موجودة ، وكان واضحا أنه يكبح رغبته في طلب شيء منها .

انه لا يفتأ يكرر شاكيا كطفل :

ـ ما الذي يغضبها دائما ؟ « ان رجال العبقرية والتقدم في روســيا كانوا وما يزالون وسيظلون الى الأبد » (بالفرنسية) مقامرين وسكّيرين ... وأنا لست مقامرا ولا سكيرا الى هذا الحد ... انها تأخذ عليَّ أنني لا أكتب شيئا ... يالها من فكرة غريبة ! ... لماذا أظل مضطجعا ؟ هي تقول لي : « عليك أن تكون قدوة ، وأن تقف أمام الجميع صورةً مجسدة للوم والرفض » . فقل لي ـ وليكن الكلام سراً بيننا ـ ما عسى يفعل رجل يجب أن يكون صورة مجسدة للوم والرفض ، الا أن يبقى مضطجعا ؟ كيف لا تفهم هي هذا ؟

وأدركت أخيرا سبب هذا القلق الخاص الذي كان يعذبه في ذلك اليوم . انه في أثناء تلك السهرة قد اقترب من المرآة مرارا ليتأمل وجهه طويلا . وفي النهاية التفت نحوى وقال في كرب شديد :

ـ « يا عزيزى » (بالفرنسية) لقد سقطت ...

الواقع أنه كان حتى ذلك الحين ، حتى ذلك اليوم ، محتفظا باعتقاد جازم لا يتزعزع ، رغم « وجهات النظر الجـــديدة » ورغـــم « الافكار الجديدة » التي انتهت اليها فرفارا بتروفنا ، بأنه ما يزال يحظى من صديقته

باعتبار عظيم من حيث هو رجل وسيم جميل ، لا من حيث رجل منفي أو عالم شهير فحسب . ان هذا الاعتقاد المبهج المطمئن كان قد تأصل فيه وترسخ منذ عشرين عاما ، ولعله كان هو الاعتقاد الذي يصعب عليه أن يتنازل عنه أكثر مما يصعب عليه أن يتنازل عن أي اعتقاد آخر . ترى ، هل وافاه في ذلك المساء احساس يتنبأ بالمحنة الرهيبة التي كان يهيئها له مستقبل قريب ؟

٦

الآن أصل من قصتى الى الجزء الذى هو بدايتها حقا ، وهو جـــزء مضحك بعض الشيء .

فى آخر شهر آب (أغسطس) ، وصلت السيدتان دروزدوف أخيرا الى مدينتنا . فكان لوصولهما الذى أعقبه بعد برهة وجيزة وصول قريبتهما امرأة الحاكم التى طالما انتظر وصولها ، كان له دوى كبير . سأعود فيما بعد الى هذه الاحداث الطريفة جدا . أما الآن فأذكر فقط أن براسكوفيا ايفانوفنا التى انتظرتها فرفارا بتروفنا بصبر فارغ قد حملت الى فرفارا نبأ غريبا مشوشاً : هو أن نيقولاى ترك آل دروزدوف منذ شهر تموز (يوليه) وأنه وقد التقى على نهر الراين بالكونت ك وأسرته قد تبعهم الى بطرسبرج (ملاحظة : ان للكونت ك ثلاث بنات للزواج) .

قالت براسكوفيا ايفانوفنا :

ـ ولم أستطع أن أستخرج من ليزافتا شيئا بسبب كبريائهـــا وسوء مزاجها ، لكننى رأيت بعينىّ أن شيئا ما قد جـــرى بينها وبين نيقولاى فسيفولودوفتش . لا أدرى ما هو هذا الشيء ، ولكن يخيّل الىّ ياصديقتى العزيزة أن عليك أن تسألى عن هذا الامر صاحبتك داريا بافلوفنا . فى رأيى أن ليزا قد أحست بأنها أهينت . انى ليسرنى أعظم السرور أن أرد اليك أثيرتك أخيرا ، وأن أضعها بين يديك : فهأناذا أتخلص منها .

هذه الكلمات المليئة بالمرارة والضغن قد نطقتها براسكوفيا ايفانوفنا بكثير من الغيظ والحنق . كان واضحا أن « المرأة الرخوة » قد حضّرت هذه الكلمات منذ مدة طويلة متلذذةً بتأثيرها سلفا . لكن فرفارا بتروفنا

ليست امرأة يمكن التأثير فيها بجمل عاطفية وألغاز . فلم تلبث أن تكلمت بلهجة قاسية تطلب ايضاحات دقيقة كاملة ، فخففضت براسكوفيا ايفانوفنا نبرة صوتها ، وانتهت أخيرا الى الافضاء بمشاعرها والبوح بعواطفها بوحا حميما ، حتى لقد بكت أثناء ذلك . ان هذه السيدة تشبه ستيفان تروفيموفتش ، فهي سريعة الاهتياج لكنها عاطفية تشعر دائما بالحاجة الى « صداقة صادقة مخلصة » ، وكان كل تأذيها من ابنتها ليزافتا نيقولايفنا أنها « لم تشأ أن تكون صديقة » لأمها .

لم يخرج من جميع افضاءاتها وايضاحاتها الا شيء واحد جلي ، هو أنه قد حدث خلاف فعلا بين ليزا ونيقولاي . أما ما هو هذا الخلاف ، فان براسكوفيا ايفانوفنا لم تستطع أن تدركه حق ادراكه وأن تفهمه حق فهمه . وأما الاتهامات التي ألقتها على داريا بافلوفنا فانها انتهت لا الى العدول عنها فحسب ، بل ألحّت كذلك على فرفارا بتروفنا أن لا تكترث أي اكتراث بتلك الأقوال التي خرجت من فمها في لحظة « غيظ » . الخلاصة أن كلامها كله كان قليل الوضوح ، بل كان فيه ما يشوش ويحيّر . هي ترى أن الخلاف ناشيء عن أن ليزا لها « طبع ساخر نزق شرس » . ومن جهة أخرى فان نيقولاي فسيفولودوفتش ، لم يستطع لشدة كبريائه أن يحتمل تلك السخريات ، فاصطنع لهجة ساخرة هو أيضا ، رغم الحب الشديد الذي يحمله لها . وأضافت براسكوفيا ايفانوفنا تقول : « وبعد قليل ، تعرفنا بشاب هو ابن أخي صاحبك « الأستاذ » فيما أظن وهو يحمل نفس اسمه على كل حال ... » .

صححت فرفارا بتروفنا كلام صديقتها قائلة :

ــ بل هو ابنه لا ابن أخيه .

ان براسكوفيا ايفانوفنا لم تستطع في يوم من الأيام أن تحفظ اسم

ستيفان تروفيموفتش ، فكانت تسميه دائما باسم « الاستاذ » . قالت تسأل :

ـ هو ابنه ؟ طيب . لا فرق . هو شاب كسائر الناس ، شديد الحيوية منطلق السلوك ، ولكن ليس له شيء يميزه عن غيره على وجه الاجمال . ان ليزا هي المذنبة في هـــذه المرة : فمن أجـــل أن تثير غيرة نيقــولاي فسيفولودوفتش لاطفت هذا الشاب . انني لا ألومها كثيرا ، فهـــذا شيء طبيعي في فتاة ، بل هو شيء محبب . ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش ، بدلا من أن يغار ، عقد بينه وبين الشاب صداقة ، ظاهرا بمظهر من لا يكترث أو من لا يلاحظ شيئا . فاستعر حنق ليزا من ذلك طبعا . وما لبث الشاب أن سافر (كان مستعجلا ، لا أدري لماذا) ، وأخذت ليزا تناكد نيقــولاي فسيفولودوفتش في كل مناسبة . حتى اذا لاحظت أن نيقولاي يتحــدث مع داشا أحيانا ازداد أوار غيظها . يا لها من حياة ! ان الاطباء يحظــرون عليّ أن تثور أعصابي . ثم ان تلك البحيرة التي طالما كالوا لها المديح قد قد أخذت تزعجني أخيرا : أوجاع أســـنان ، وآلام روماتيزم ، ذلك كل ما جنيته منها . يظهر أن هذا من خصائص بحيرة جنيـــف . انها تهيء لأوجاع الاسنان . وها هو ذا نيقولاي فسيفولودوفتش يتلقى رسالةً من الكونتيسة . فسرعان ما أعد عدته للسفر ، ثم بارحنا في ذلك اليوم نفسه. على أنهما افترقا صديقين . حتى ان ليزا أظهرت ، وهي تصـــــحبه الى المحطة ، كثيرا من المرح فكانت تضحك طول الوقت . لكن ذلك لم يكن الا تمثيلاً . فما ان سافر حتى أصبحت حالمة شاردة الفكر ، وكفّت عن الاتيان على ذكره تماما ، بل لقد منعتني من أن أمسّ هذا الموضوع . واني لأنصحك ، أنت أيضا ، يا عزيزتي فرفارا بتروفنا ، بأن لا تتعرضي لهــذه المسألة مع ليزا ، والا فيمكن أن تفسدي كل شيء . أما اذا التزمت الصمت فانها ستكون البادئة بالحديث معك في الامر ، فتستطيعين عندئذ أن تعلمي

ما لا تعلمين • في رأيي أنهما سوف يتصالحان ، على شرط أن يصل نيقولاى فسيفولودوفتش بأقصى سرعة ، كما وعد •

ـ سأكتب اليه فورا • اذا كان كل شيء قد جرى كما تصفين ، فلا يعدو الامر أن يكون شقاقا طارئا ليس بذي بال • تلك كلها سخافات ! ثم انني أعرف داريا جيدا • سخافات !

ـ فيما يتعلق بداشا اعترف أنني أخطأت • لم تجر بينهما الا أحاديث تافهة مبتذلة ، وكانا يتكلمان دائما بصوت عال • لكن تلك المشكلات كلها كانت قد أثارت أعصابي • ثم انني قد رأيت أن ليزا عادت تعاملها بمودة وصداقة ، كما كانت تفعل من قبل •

في ذلك اليوم نفسه كتبت فرفارا بتروفنا الى نيقولاى فسيفولودوفتش ضارعةً اليه أن يرجع قبل الموعد الذى حدّده لرجوعه ولو بشهر واحد• وكان هناك شيء ما يزال مع ذلك غير واضح لها في تلك الحكاية • فكّرت في الأمر طول السهرة والليل • ان رأى براسكوفيا ايفانوفنا يبدو لها بسيطا مسرفا في البساطة ، عاطفيا مسرفا في العاطفية • قالت تحدث نفسها: « ان براسكوفيا تميل دائما الى العاطفيات ، حتى منذ كانت في المدرسة الداخلية • ليس نيقولاى بالرجل الذى تهزمه سخريات طفلة • فاذا كان قد حدث شقاق بينهما فعلا ، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر غير هذا تماما • ومهما يكن من أمر ، فان ذلك الضابط هو هنا ، اصطحبنه معهن وأقام في منزلهن بصفته قريبا • ثم ان براسكوفيا قد كفت عن مهاجمة داريا بسرعة : لا شك أنها كتمت في نفسها أشياء لم ترد أن تقولها لي•••»

ما ان طلع الصباح حتى كانت فرفارا بتروفنا قد وضعت خطة يجب أن تتيح لها أن تحلّ واحدةً ، على الأقل ، من المسائل التي أوقعتها في تلك الحيرة كلها وتلك البلبلة كلها ؛ وهي خطة غريبة ، غير منتظرة ولا

متوقعة . ترى ما الذى كان فى قرارة قلبها حين تصورت هذه الخطة ؟ ذلك أمر يصعب على المرء أن يعرفه ، ولست أتحمل عبء توضيح التناقضات التى تشتمل عليها تلك الخطة . اننى ، بصفتى قاصاً ، أقتصر على عرض الوقائع كما حدثت ، بأكبر صدق ممكن وأكبر دقة ممكنة ، فاذا لاح أنها غير معقولة فليس الذنب فى ذلك ذنبى . يجب أن أشهد مرة أخرى مع ذلك أن شكوك فرفارا بتروفنا فيما يتعلق بداشا كانت قد تبددت تبددا تاما فى الصباح . والحق أنها لم تأخذها مأخذ الجد فى وقت من الأوقات ، لأنها كانت عظيمة الثقة بربيبتها . ثم انها كان يستحيل عليها أن تصدق أن ابنها نيقولاى يمكن أن يعشق ... داريا . وفى الصباح ، بينما كانت داريا تسكب الشاى ، تأملتها فرفارا بتروفنا طويلا بانتباه شديد ، فقالت لنفسها ربما للمرة العشرين منذ البارحة ، قالت لنفسها بثقة واطمئنان : « تلك كلها سخافات ! » .

كل ماهنالك أنها لاحظت أن داشا تبدو متعبة قليلا ، وأنها تبدو كذلك أكثر صمتا وأكثر برودة مما كانت من قبل . وبعد الشاى جلستا تطرزان ، على عادتهما . فطلبت فرفارا بتروفنا من داريا أن تحدثها عن رحلتها فى الخارج ، عن الطبيعة ، والمدن ، والسكان ، وعاداتهم ، والفنون ، والصناعة ، وعن كل ما لاحظته . ولم تلق عليها سؤالا واحدا عن آل دروزدوف وعن الحياة التى عاشتها مع هاته السيدات . وكانت داشا جالسة أمام منضدة صغيرة للشغل ، تتحدث بصوتها المتساوى ، الرتيب ، الضعيف ، الذى يجرى على وتيرة واحدة ، فاذا بالسيدة تقاطعها فجأة بعد نصف ساعة من كلامها سائلة اياها :

ـ داريا ، أليس لديك أى شىء خاص تريدين أن تفضى به الى ؟

فأجابت الفتاة بعد لحظة تفكير وهى ترفع نحو فرفارا بتروفنا عينيها الواضحتين :

ـ لا ، لا شيء البتة !

ـ لا في فكرك ، ولا في قلبك ، ولا في ضميرك ؟ •

فكررت داشا تقول بصوت أجش ، ولكن بنوع من تصميم متجهم :

ـ لا شيء •

ـ كنت أقدِّر هذا • اعلمي يا داريا أنني لن يراودني أي شك فيك أبدا • والآن ، كوني هادئة وأصغي اليَّ • اجلسي على هذا الكرسي أمامي • أريد أن أراك كلك • نعم ••• هكذا ••• اسمعي • هل تريدين أن تتزوجي ؟

فألقت عليها داشا نظرةً طويلة مستفهمة ، ولكنها نظرة ليس فيها استغراب كبير • قالت فرفارا بتروفنا :

ـ انتظري • اسكتي • هناك فرق في السن ، بل فرق كبير جدا • لكنك أعلم الناس بأن هذا أمر لا قيمة له • أنت عاقلة • وما ينبغي أن يكون في حياتك خطأ • ثم انه رجل جميل على كل حال • الخلاصة : انه ستيفان تروفيموفتش الذي كنت دائما تقدرينه حق قدره • ما رأيك ؟

ألقت داشا نظرة فيها مزيد من الاستفهام • وبدت عليها الدهشة في هذه المرة ، حتى لقد احمر وجهها •

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ انتظري • اسكتي • لا تستعجلي • رغم أنك تملكين بعض المال ـ لأنني خصصتك في وصيتي بمبلغ ـ فما عسى تصيرين اليه بعد موتي ، ولو ملكت ذلك المال ؟ سوف تُخدعين فيُسرق مالك ، فاذا أنت تضيعين • أما اذا تزوجت فانك تصبحين زوجة رجل معروف • وانظري الى الجانب الآخر من الموقف : لقد كفلت له حياته ، ولكن ما الذي سيحدث له اذا أنا توفيت ؟ أما اذا كنت أنت معه ، فانني أكون واثقة مطمئنة • انتظري • لم

أنته من كلامى : انه خفيف ، متقلب ، أنانى ، ولعله قاس ، وان له عادات عامية مبتذلة ، ولكن يجب عليك أن تقدريه ، ولو لهذا السبب الوحيد : أن هناك من هم أسوأ منه . انك لا تتصورين طبعا أننى أريد التخلص منك وتسليمك لوغد من الأوغاد ، هه ؟ لكنك ستقدرينه خاصة لأننى أطلب منك ذلك . هل تسمعيننى ؟ مابالك تعندين ؟

كذلك قالت بلهجة حانقة .

وكانت داشا صامتة تصغى الى كلامها . وأردفت فرفارا بتروفنا تقول :

ـ انتظرى أيضا . انه يشبه امرأة عجوزا . ولكن هذا أفضل لك . انه يثير الشفقة فى النفس . انه غير جدير حتى بأن تحبه امرأة . لكنه يستحق أن يُحَب لأنه أعزل من كل سلاح ، ويجب عليك أن تحبيه لأنه أعزل من كل سلاح . هل تفهميننى ؟ أليس ما أقوله صحيحا ؟ هل تفهميننى ؟

هزت داشا رأسها بحركة تعنى الموافقة على كلام محدثتها . فقالت فرفارا بتروفنا تصيح بصوت حاد حدة غريبة :

ـ كنت واثقة بهذا . لم أكن أتوقع منك شيئا آخر . سوف يحبك ، لأنه يجب عليه أن يحبك ؛ سوف يجب عليه أن يحبك ، سوف يجب عليه أن يعبدك عبادة ؛ بل انه سيهيم بحبك دون أن تتدخل فكرة الواجب . اننى أعرفه حق معرفته . ثم اننى سأكون موجودة . لا تقلقى . سأكون موجودة دائما . سوف يتشكى منك ، وسوف يغتابك ويشى بك ، وسوف يبوح بأسراره لأول قادم ؛ سوف يئن ويتوجع بغير انقطاع ، وسوف يبعث اليك برسائل من غرفة الى أخرى ، رسالتين فى يوم واحد ، ولكنه لن يستطيع أن يعيش بدونك ، وذلك هو الشىء الأساسى . توصلى الى جعله

طبعاً . فاذا لم تتوصلى الى ذلك كنت حمقاء لا أكثر .. سوف يزعم لك أنه سيشنق نفسه ، سوف يهددك ، ولكن لا تصـــدقى شيئا من هـــذه الدعاوى . ما هذا كله الا هذر وثرثرة ! لا تصدقى ما يقول . ومع ذلك عليك أن تكونى مفتّحة العينين دائما : فقد يشنق نفسه . يمكن أن يتوقع المرء كل شىء من أمثال هـــذا الانسان . انهم يشنقون أنفسهم لا لأنهـم أقوياء ، بل لأنهم ضـعفاء مسرفون فى الضـــعف . لذلك ينبغى لك أن لا تستفزيه الى آخر الحدود أبدا . تلك أولى القواعد التى يجب على المرأة أن تراعيها فى معاملة زوجها . تذكرى أيضا أنه شاعر . اسمعى يا داشا ! ما من سعادة أعظم من السعادة التى يشعر بها الانسان حين يضحى بنفسه. ثم انك ستسعدينني سعادة كبيرة ، وهذا هو الشىء الأساسى . لا تتخيلى أن حماقة" قد أفلتت من لسانى الآن : اننى أعى ما أقـــول ، وأدركه حق ادراكه . أنا أنانية ، فكونى أنت أيضا أنانية . لكننى لا أجبرك البتة . كل شىء رهن بارادتك . افعلى ما يستقر عليه رأيك . فماذا ؟ مابالك تصمتين؟ تكلمى !

قالت داشا بصوت ثابت :

ـ اذا كان لا بد حتماً من أن أتزوج ، فأنا موافقة يا فرفارا بتروفنا . يستوى عندى ...

سألتها فرفارا بتروفنا بلهجة قاسية وهى تلقى عليها نظرة فاحصة :

ـ اذا كان لا بد حتماً ؟ الى ماذا تلمحين ؟

صمتت داريا وهى تغرز ابرتها فى نسيجها الذى تطرزه .

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ أنت ذكية ، ولكن أفلتت منك الآن جملة سخيفة . صحيح اننى أحرص حرصا مطلقا على تزويجك ، ولكن هـذا لا يرجع الى ضرورة ،

وانما هو فكرة وافتتى • ولن أزوّجك الا ستيفان تروفيموفتش • فلولا أن هناك ستيفان تروفيموفتش لما خطر ببالى أن أزوجك أحداً ، رغم أنك بلغت العشرين من العمر • هيه ، ما رأيك ؟

ـ سأفعل ما تشائين يا فرفارا بتروفنا •

ـ اذن توافقين • انتظرى • اسكتى • لا تستعجلى • لم أنته بعد : لقد خصصتك فى وصيتى بخمسة عشر ألف روبل ، لكننى سأعطيك هذا المبلغ منذ الآن ، بعد الزفاف فورا • سوف تعطينه من هذا المبلغ ثمانية آلاف روبل • لا ، لن تعطيه هو ، بل تعطيننى أنا • انه مدين بثمانية آلاف روبل سوف أتولى سدادها عنه • ولكن يجب أن يعلم أننى أسددّها من أموالك أنت • واحتفظى بالآلاف السبعة التى ستبقى لك • لا تعطيه منها شيئا البتة • ولا يخطر ببالك يوما أن تسددى عنه ديناً ، فلو فعلت ذلك ولو مرةّ واحدة لتقاطرت عليك المضايقات من كل جهة • على كل حال، سوف أكون موجودة • وسوف أكفل نفقات معيشتك ، ألفاً ومائتى روبل فى السنة ، بل ألفا وخمسمائة روبل ، عدا النفقات الطارئة الخارقة ، وسأكفل المسكن والطعام ، كما أفعل له الآن • ولكن ستدفعين أنت أجر الخادمة • سأدفع المعاش السنوى مرةّ واحدة ، أضعه بين يديك أنت • ولكن كونى طيبة : أعطيه شيئاً من حين الى حين ، واسمحى له أن يستقبل أصدقاءه مرةّ فى الاسبوع • فاذا جاءوا أكثر من ذلك ، فاطرديهم • سأكون موجودة على كل حال • واذا مت فان المعاش السنوى سيظل يُدفع لك الى أن يموت ، هل تفهمين ؟ الى أن يموت « هو » • ذلك أن هذا المعاش ليس لك ، بل له • أما أنت فبالاضافة الى السبعة آلاف روبل التى ستأخذينها الآن والتى ستحافظين عليها اذا لم تكونى حمقاء ، سوف أخصك فى وصيتى بثمانية آلاف روبل • ولكن لا تنتظرى منى شيئا آخر • اعلمى هذا • هل توافقين ؟ هلاّ أجبتنى أخيراً ؟

ـ لقد أجبتك يا فرفارا بتروفنا •

ـ تذكرى أنك حرة تماما ، تفعلين ما تشائين •

ـ ولكن اسمحي لى يا فرفارا بتروفنا : هل سبق أن كلمك ستيفان تروفيموفتش فى هذا الموضوع ؟

ـ لا ، لم يقل لى شيئاً ، حتى انه لا يعلم شيئاً ، ولكن انتظرى قليلاً • سوف يتكلم •

ونهضت فرفارا بتروفنا فجأة ، ووضعت على كتفيها شالها الاسود • فاحمر وجه داشا من جديد وهى تتابعها بنظرة مستفهمة • والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ربيبتها فجأة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط الغضب ، وانقضت عليها انقضاض الصقر تقول صائحة :

ـ أنت حمقاء ! حمقاء وعقوق ! ما هى الفكرة التى خطرت ببالك ؟ أتتصورين أننى يمكن أن أعرّضك لمهانة مهما تصغر ؟ الا انه هو الذى سيزحف على ركبتيه زحفا طالبا يدك • يجب أن تعلمى اننى لا أرضى قط أن تُهانى • أم تُراك تتخيلين أنه سيتزوجك فى سبيل الثمانية آلاف روبل ، وأننى سأركض اليه الآن لأبيعه اياك ؟ حمقاء ! حمقاء ! أنتن جميعا حمقاوات عاقّات ! ناولينى مظلتى !

وأسرعت الى عند ستيفان تروفيموفتش سيراً على قدميها ، سالكةً الأرصفة الرطبة والجسور الخشبية المبتلة •

٧

صدقت فرفارا بتروفنا : ما كان لها أن تطيق أن تُهان داريا أية اهانة ، وهي في هذه اللحظة خاصةً تعد نفسها المحسنة اليها المنعمة عليها. لذلك ثار في نفسها أنقى استياء وأنبل استياء حين لاحظت ، أثناء وضعها شالها على كتفيها ، نظرة قلق وريبة لدى الفتاة. ان فرفارا بتروفنا قد أحبت داشا دائما أصدق الحب، ومن أجل هذا انما وصفتها لها براسكوفيا ايفانوفنا حين حدثتها عنها بأنك «أثيرتها». كانت فرفارا بتروفنا قد استقر رأيها استقرارا حاسما على أن طبع داريا لا يشبه في شيء طبع أخيها (ايفان شاتوف) ، وعلى « أنها فتاة هادئة رقيقة عذبة قادرة على التضحية مخلصة ، متواضعة الى أقصى حدود التواضع ، عاقلة حصيفة الرأي ، زاخرة النفس بالشكر والامتنان خاصةً » . وقد جاء سلوك داشا حتى الآن مصدقا لما استقر عليه رأي فرفارا بتروفنا. لقد قالت فرفارا بتروفنا مرةً حين كانت الفتاة في الثانية عشرة من عمرها: «لن يكون في حياة هذه الفتاة أخطاء». واذ كانت هذه السيدة تتشبث تشبثاً عنيدا جارفا بكل مشروع أو كل حلم أو كل رأي يفتنها فقد قررت على الفور أن تربي داشا كأنها ابنتها . فسرعان ما خصتها برأس مال ، واستقدمت لها مربية هي مس كريجز التي ظلت في البيت الى أن بلغت الفتاة السنة السادسة عشرة من عمرها . ثم صُرفت الانجليزية مشكورةً في ذات يوم على حين فجأة ، لا يدري أحد لماذا ! وأخذت فرفارا بتروفنا تكلّف باعطاء دروس لربيتها أساتذة من أساتذة المدارس الثانوية كان بينهم فرنسي أصيل . وهذا أيضا صُرف بغتةً بما يشبه الطرد . وقامت باعطاء دروس للفتاة في العزف على البيانو

أرملة فقيرة تنتمي الى أسرة نبيلة ، وتقيم بمدينتنا اقامة عابرة • غير أن الاستاذ الرئيسي الذى علّم الفتاة انما هو ستيفان تروفيموفتش • والحق أنه هو الذى كان أول من اكتشف داشا • فكان يُعنى بتعليم الفتاة حتى قبل أن تنتبه اليها فرفارا بتروفنا أى انتباه • أعود فأقول : ان الأطفال كانوا يحبون ستيفان تروفيموفتش حباً خاصاً • وقد عملت معه ليزافتا نيقولايفنا توشين منذ سنتها الثانية حتى سنتها الحادية عشرة (وكانت الدروس بالمجان طبعا ، فما كان له بحال من الاحوال أن يقبل أن يتقاضى من السيدة دروزدوف أية مكافأة) • كان هو نفسه يعبد تلك الطفلة الفاتنة ويروى لها تاريخ الانسانية فى صورة قصص ، ويحكى لها كيف نشأ الكون وتطورت الارض • وكانت دروسه عن الانسان البدائى والشعوب المتوحشة تخلب الألباب أكثر من الحكايات العربية نفسها • فكانت ليزا تفرح بأقاصيصه أشد الفرح • ولكنها متى خلت الى نفسها فى البيت شرعت تقلده تقليدا مضحكا الى أبعد حدود الاضحاك • وقد فاجأها ستيفان تروفيموفتش على هذه الحال فى ذات مرة على حين بغتة ، فما كان منها الا أن ارتمت بين ذراعيه باكية • وقد أخذ يبكى هو أيضا ، ولكنه بكى حناناً وحباً • فلما سافرت ليزا لم يبق له من تلميذ الا داشا ، حتى اذا عُهد بتعليمها الى أساتذة من المدارس الثانوية قطع هو دروسه ، ثم انتهى اهتمامه بعد ذلك بالفتاة انتهاءً تاما • وانقضت السنون فاذا هو يلاحظ فجأة فى ذات يوم - بينما كان على المائدة عند فرفارا بتروفنا - ما تتمتع به الصبية من فتنة وقد بلغت سن السابعة عشرة • فأخذ يكلمها ، ورضى كل الرضى عن أجوبتها ، واقترح عليها أخيرا أن يعطيها دروسا مفصلة فى تاريخ الادب الروسى ؛ فشكرت له فرفارا بتروفنا هذه الفكرة• أما داشا فقد سُرّت أعظم السرور وافتتنت افتتانا • وأعد ستيفان

تروفيموفتش دروسه بعناية خاصة جدا ، وكان درسه الذى وقفه على أقدم عهد من العهود شائقا الى أبعد الحدود • ولكن حين أبلغ ستيفان تلميذته فى نهاية الدرس أنه سيتناول فى المرة القادمة «حملة ايجور» * ، نهضت فرفارا بتروفنا فجأة وأعلنت أن هذا الدرس هو الأخير • فصعَّر ستيفان تروفيموفتش وجهه ، لكنه لزم الصمت • واحمرت داشا احمرارا شديدا • ووقفت الأمور عند ذلك الحد • لقد حدثت هذه القصة منذ ثلاث سنين تماما •

كان ستيفان تروفيموفتش المسكين وحيدا ، وكان لا يتوقع شيئا • انه غارق فى أحلام كئيبة ، ينظر من النافذة بين الفينة والفينة عسى أن يجيئه زائر • ولكن ما من أحد يأتى • وكان يتساقط على الأرض فى الخارج رذاذ مطر ، وقد أخذ الاحساس بالبرد يبدأ ، فكان ينبغى اشعال المدفأة • تنهد ستيفان تروفيموفتش • وانه لكذلك اذا هو يرى أمامه ما بثّ الرعب فى نفسه : انها فرفارا بتروفنا قد جاءته فى مثل هذا الجو الماطر البارد ، سائرةً على القدمين أيضاً ! ••• بلغ ستيفان تروفيموفتش من الدهشة أنه نسى أن يبادر الى تغيير ملبسه ، فاستقبلها كما هو ، بصديريته المعتادة ، الوردية اللون ، المبطنة بالقطن •

هتف يقول بصوت ضعيف وهو يتقدم للقائها :

ـ « صديقتى الطيبة ! ••• » (بالفرنسية) •

ـ أنت وحيد ، يسعدنى هذا • اننى أكره أصدقاءك • ما أكثر ما تدخّن ! رباه ! ما أفسد هذا الهواء ! لم تشرب الشاى حتى الآن والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة • انك تسعد بالفوضى ولا تجد لذة الا فى القذارة • ما قطع الأوراق الممزقة هذه التى تفرش أرض الغرفة ؟ ناستاسيا ، ناستاسيا ! ماذا تفعل خادمتك ناستاسيا ؟ افتحى النوافذ ،

يا عزيزتي ، والأبواب والطاقات ، افتحي كل شيء الى آخر مداه ! وبانتظار أن تفعلي ذلك سننتقل الى الصالون . لقد جئت لعمل . هلاّ كنست قليلاً ولو مرةً واحدة في حياتك يا عزيزتي !

صرخت ناستاسيا تقول بصوت شاكٍ غاضب في آن واحد :

ـ سيدي يوسّخ طوال الوقت !

وظيفتك أن تكنسي ، ولو خمس عشرة مرةً في اليوم اذا لزم الأمر .

ثم أضافت تخاطب ستيفان تروفيموفتش وهي تدخل الى الصالون :

ـ ما أبشع صالونك . أغلق الباب جيدا فقد تتجسّس ناستاسيا علينا . يجب تغيير ورق الجدران هذا حتماً . لقد بعثت اليك بعاملٍ مختص مع عيّنات ، فلماذا لم تختر شيئاً ؟ اجلس ، وأصغ الى كلامي . اجلس ، أرجوك ! الى أين أنت ذاهب ؟ الى أين تمضي ؟

فصاح ستيفان تروفيموفتش يجيبها من الغرفة المجاورة :

ـ سوف ... سوف أرجع حالاً .

وسرعان ما عاد بعد أن غير ملبسه وقال :

ـ هأناذا رجعت .

قالت وهي تفحصه ساخرة :

ـ آ ... غيّرت ملبسك ! حقاً ان هذا الرداء يناسب طبيعة حديثنا أكثر . اجلس ، تفضل اجلس .

وكان ستيفان تروفيموفتش قد ارتدى فوق صدرته ردنجوتا .

شرحت له فرفارا بتروفنا القضية كلها دفعةً واحدة ، بلهجة قاطعة مقنعة . فأشارت الى الثمانية آلاف روبل التي كان في حاجة مستعجلة اليها، وفصّلت القول في مسألة المهر أيضا . فكان ستيفان تروفيموفتش يحملق

بعينيه ويرتعش في داخله . كان يسمع ما تقوله سمعاً جيدا ، ولكنه لا يفهمه فهماً واضحاً . وأراد أن يتكلم لكن صوته اختنق في حلقه . انه لا يعرف الا شيئا واحدا ، هو أن كل شيء سوف يتم على نحو ما تقول فرفارا بتروفنا ، وأن الجدال والرفض جهد ضائع ، وأنه سيتزوج لا محالة .

قال أخيرا :

ـ « ولكن يا صديقتي الطيبة » (بالفرنسية) أللمرة الثالثة وفي سني ... ثم مع طفلة كهذه الطفلة ؟ « انها طفلة » (بالفرنسية) .

ـ طفلة في العشرين من عمرها ولله الحمد . لا تعجل بنظرك على هذا النحو . ما أنت فوق مسرح . أنت ذكي جدا وأنت عالم ، لكنك لا تفهم من شئون الحياة شيئاً . انك في حاجة الى خادمة تكون بقربك على الدوام . ماعسى تصير اليه بعد موتي ؟ انها هي التي ستكون خادمتك، وانها لخادمة ممتازة . هي فتاة متواضعة ، ثابتة ، عاقلة . ثم انني سوف أكون موجودة . لن أموت فورا . انها تحب أن تعيش حياة أسرة ، وانها في رقتها كملاك . لقد وافتني هذه الفكرة الموفقة وأنا في سويسرا ! هل تفهم عني حين أقول لك انها في رقتها كملاك ؟

بهذا صاحت فرفارا بتروفنا غاضبةً على حين فجأة . وتابعت كلامها تقول :

ـ ان بيتك تسوده القذارة والوساخة ، فستأتيك هي بالترتيب والنظافة فاذا بمنزلك يلمع كمرآة ... هيه ! أتراك تتخيل أنني سأضرع اليك أن تقبل كنزاً كهذا الكنز وأنا أنحني لك اجلالاً ، وأعدِّد لك جميع المزايا والفوائد ، وأفعل كما تفعل خاطبة ؟ ألا انك أنت الذي يجب أن تتوسل اليَّ راكعا على ركبتيك ! يالك من رجل طائش جبان !

ـ لكننى عجوز ...

ـ ان سنك ثلاثة وخمسون عاما . ما ثلاثة وخمسون عاما ؟ ليست الخمسون نهاية الحياة بل وسطها . وانك رجل جميل . أنت نفسك تعرف هذا . وتعرف أيضا أنها تقدرك حق قدرك . ما عسى تصير هى اليه بعد موتى ؟ لعلها تكون معك هادئة البال ، وسوف أكون أنا هادئة البال قريرة العين . ان لك مركزا ، واسما ، وقلبا محباً . سوف تستمر على قبض المعاش الذى أرى أن من واجبى أن أقدمه اليك . قد تكون أنت منقذها ؛ نعم ، سوف تكون منقذها . وعلى كل حال ، سوف يكون هذا شرفاً لها . سوف تتولى تهذيب طبعها ، واغناء قلبها ، وتوجيه عقلها وفكرها . ما أكثر الذين يهلكون فى هذا الزمان لأن أحدا لم يحسن توجيههم ! والى ذلك الحين تكون قد فرغت من تأليف كتابك ، وتذيع شهرتك ويتحدث عنك الناس من جديد .

تمتم ستيفان تروفيموفتش وقد أثَّر فيه هذا المديح الذى تزجيه له فرفار بتروفنا :

ـ نعم ، لقد فكرت فعلا فى الشروع فى تأليف كتابى « أقاصيص من تاريخ اسبانيا » * .

ـ أرأيت ؟ لقد جاء الامر فى حينه .

ـ ولكن ... ما قولها هى ؟ هل كلمتها ؟

ـ لا يقلقنك هذا الامر . ولا تسرف فى الفضول . سوف يكون عليك طبعا أن تطلب منها بل وأن تضرع اليها أن توليك هذا الشرف . هل فهمت ؟ ولكن لا تقلق . سأكون موجودة . ثم انك تحبها ...

شعر ستيفان تروفيموفتش بدوار . أخذت الجدران تهتز حوله .

ان فكرة رهيبة قد ساورت فكره واستولت عليه فهو لا يستطيع السيطرة عليها والتحكم فيها .

قال بصوت مرتجف :

ـ « صديقتي العظيمة » (بالفرنسية) ... انني ... انني ... ما كنت لأتخيّل أن تقرري أن تزوجيني أخرى ... أن تزوجيني امرأة أخرى ...

فأجابته فرفارا بتروفنا قائلة بصوت مسموع :

ـ ما أنت بفتاة ياستيفان تروفيموفتش . الناس لا يزوّجون الا الفتيات . أما أنت فانك تزوج نفسك بنفسك .

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يثبت عليها نظرة زائغة :

ـ « نعم ، استعملت كلمةً بدلاً من كلمة أخرى ... ولكن ... سيان عندي ... » (بالفرنسية) .

قالت له باحتقار :

ـ أرى فعلاً أن الأمرين عندك سيّان .

ثم صاحت تقول مستنجدةً على حين فجأة :

ـ رباه ! لقد أغمي عليه ! ناستاسيا ، ناستاسيا ! هاتي ماءً !

لكنه لم يكن في حاجة الى ماء . فقد عاد اليه وعيه . وتناولت فرفارا بتروفنا مظلتها ، وقالت :

ـ أرى أن ليس هذا أوان التحدث اليك في كل هذا ...

ـ نعم ، نعم ، انني عاجز عن ...

ـ لكنك ستكون في الغد قد ارتحت وفكرت . ابق في البيت . واذا حدث شيء فأبلغني ولو في الليل . ولكن لا تبعث اليّ برسائل ، فالرسائل

لن أقرأها . غدا ، في مثل هذه الساعة تماما ، سأجيء لأحصل على جوابك النهائي الذي أرجـــو أن يكون مُرضيا . وافعـــل ما يجب حتى نكون وحيدين ، وليكن البيت نظيفا . انظر ، انظر الى هـــذه الوساخة كلها ! ناستاسيا ، ناستاسيا !

وجاءته في الغد ، فوافق طبعا . كان يستحيل عليه أن لا يوافق . لقد كان ثمة ظرف خاص جدا .

٨

ان الارض التى كانت تسمى عندنا أملاك ستيفان تروفيموفتش (وهى تجاور سكفورشنيكى وتقدَّر بنحو خمسين « نفساً » كما كان يُقال فى الماضى) كانت فى الواقع ملكاً لزوجته الأولى ، وصارت اذن ملكاً لابنهما بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى . أما ستيفان تروفيموفتش فقد أدارها من حيث هو وصى على الابن ، حتى اذا بلغ الابن رشده أناب عنه أباه فى ادارتها بتوكيل رسمى . وكان هذا الاجراء مفيدا للشاب فهو يتلقى من أبيه ألف روبل فى السنة عن أرض أصبحت منذ تحرير الفلاحين لا تغل الا خمسمائة روبل (وربما أقل من ذلك أيضا) . أما كيف تم اتفــاق كهذا الاتفاق ، فذلك أمر لا يعلمــه الا الله ! على أن هــذه الألف من الروبلات انما كانت ترسلها فرفارا بتروفنا فى كل سنة ، دون أن يشارك ستيفان تروفيموفتش فى دفع كوبك واحد . لقد كان يحتفظ بايرادات الارض ، حتى لقد انتهى به الامر الى تخريبها تماما : فقد أكراها لرجل من رجال الصناعة وباع أخشاب غابتها جزءا بعد جزء ، دون أن تعلم بذلك فرفارا بتروفنا ؛ وكانت أخشابها هذه هى التى تشكل قيمتها الاساسية . وكان فى وسعه أن يجنى ثمن هذه الاخشاب ثمانية آلاف روبل ، ولكنــه لم يحصل فى الواقع الا على خمســة آلاف . غير أنه كان يتفق له أن يخسر فى النادى مبالغ تبلغ من الضخامة أنه يخشى أن يستعين فى سدادها الى فرفارا بتروفنا . فلما علمت فرفارا بتروفنا بالامر أخيرا ، صرفت بأسنانها من شدة الغضب . وهذا هو بطرس ستيفانوفتش يبلغ أباه أنه سيصل الى مدينتنــا ليتولى بنفسه بيع أرضه ، ويكلف أباه بأن يجد له مشتريا فى أقرب وقت

ممكن . واذ أن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل كريم منزه عن المنفعة فقد شعر طبعا بحرج كبير وارتباك شديد تجاه « هذا الابن الغالى » (بالفرنسية) (لقد رآه آخر مرة قبل تسع سنوات ببطرسبرج ، حين كان الشاب مايزال طالبا) . كانت الارض فى البداية يمكن أن يقدّر ثمنها بثلاثة عشر ألف روبل أو بأربعة عشر ألف . أما الآن فيصعب ايجاد مشترٍ لها بخمسة آلاف . صحيح أن ستيفان تروفيموفتش كان يملك كل الحق فى بيع الغابة بحكم التوكيل الرسمى . كما أنه اذا أدخل فى حسابه أن مبلغ الألف روبل الذى كان يُدفع لابنه كلّ سنة فى موعده كان مبلغا ضخما يفوق ما يستحقه الابن ، فان فى امكانه أن يعدّ نفسه برىء الذمة تجاه ابنه . ولكن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل الطبع عالى النفس . لذلك خطرت بباله فكرة بدت له جميلة جدا ، وهى أن يضع على المائدة أمام ابنه أكبر مبلغ يمكن أن يأمل المرء أن تباع به الارض ، أى خمسة عشر ألف روبل ؟ ثم دون أن يشير أية اشارة الى المبالغ المرسلة حتى ذلك الحين ، يضم « هذا الابن الغالى » (بالفرنسية) الى صدره ضماً قوياً ، دامع العينين ، وينهى بذلك كل حساب . حتى لقد شرع فى وصف المشهد لفرفارا بتروفنا ، ولكن بشىء من الحذر وبعبارات فيها تلميح جعلها تستشف منها أن عملاً كهذا العمل سوف يضفى طابعا خاصا على الصداقة التى تربطهما و « الفكرة » التى تجمع بينهما ، وسوف يظهر الترفع عن المنفعة وعظمة النفس لدى « الآباء » ، ولدى الجيل القديم عامة بالقياس الى ما تتصف به الشبيبة المولعة بالاشتراكية من خفة وطيش . وقد قال لها أشياء أخرى كثيرة أيضا ، ولكن فرفارا بتروفنا أهملت الحديث وأشاحت عنه ؛ ومع ذلك أعلنت له أخيرا بخشونة أنها مستعدة لأن تشترى الارض وأنها ستدفع ثمنها الحد الأقصى الذى تستحقه ، أى سبعة الاف روبل أو

ثمانية آلاف (والواقع أن من الممكن شراؤها بأربعـــة آلاف) ، أما عن الثمانية آلاف التي أضاعها ببيع الأخشاب فانها لم تنبس بكلمة واحدة .

حدث ذلك قبـــل مشروع الزواج بشـــهر . وقد ذُهل ستيفان تروفيموفتش من جواب صديقته وبقي مضطربا اضطرابا شديدا . لقـــد كان من الممكن في الماضي أن يأمل أن لا يجيء الفتى (حين أقول «يؤمل» فانني أستعمل كلمة يمكن أن يستعملها غريب ، لأن ستيفان تروفيموفتش من حيث هو أب ، ما كان له الا أن يرفض تصور مثل هذا الأمل مستاءً). ولقد كانت الشائعات التي تصل الينا عن بتروشكا* عجيبة. انه بعد أن أنهى دراسته (منذ ست سنين) ، عاش ببطرسبرج حياة فراغ . ثم علمنا فجأةً أنه شارك في نشر نداء ثوري وأن القضاء أخذ يلاحقه فورا . ثم عرفنـا أنه قد أقام في الخارج ، في سويسرا ، بجنيف ، فأدركنا أنه هرب .

كان ســتيفان تروفيموفتش يقــول لنا في ذلك الوقت متحيراً أشـد التحير :

ـ انني لمستغرب حقا . ان بتروشا « دماغ فقير » (بالفرنسية) . صحيح أنه طيب ، وشهم ، وحسَّاس جداء وما كان أسعدني فيبطرسبرج حين كنت أقارنه بغيره من الشباب . ولكنه « دماغ فقير جدا مع ذلك ! » (بالفرنسية) . الحق أن مرد هذا كله الى ذلك النقص في النضج ، الى الى تلك العاطفية نفسها . ان الشيء الذي يخلب ألبابهم في الاشتراكية انما هو جانبها العاطفي ، المثالي ، وليس واقعيتها . ان الشيء الذي يفتنهم فيهـا هو نوع من الروح الشعرية ، نوع من الروح الدينية ان صح التعبـــير ، وهم لا يعرفونها الا سماعا . ولكن انظروا الى المأزق الذي يضعني فيه . ان لي هنا أعداء ، و « هناك » لي أعداء أكثر . ولسوف ينسبون أخطـــاء

الى التأثير السيء الذى يحدثه أبوه فيه . رباه ! أبتروشا يصبح زعيما ؟ فى أى زمان نعيش ؟

ولكن بتروشا لم يلبث أن أرسل عنوانه بسويسرا ، حتى لا ينقطع ارسال معاشه اليه : انه اذن لم يهاجر تماما . وهاهو ذا الآن يعـــود الى بلاده ، بعد اقامة أربع سنين فى الخارج ، ويبلغنا أنه واصل قريبا . اذن ليس هناك أى اتهام موجه اليه . حتى لكأن ثمة أحدا يهتم به ويحميه . انه يكتب الآن من جنوب روسيا ، حيث ذهب لشأن هام جدا لكنه خاص . هذا كله حسن . ولكن من أين يؤتى بالسبعة آلاف أو الثمانية آلاف روبل لاكمال المبلغ الذى كان ستيفان تروفيموفتش يريد أن يقدمه لابنه ؟ ان شيئاً ما يلقى فى نفس استيفان تروفيموفتش أن بتروشا الحساس ســـوف يدافع عن مصالحه دفاعا قويا وسوف يطالب بالمبلغ مطالبةً عنيفة . قال لى ستيفان تروفيموفتش يوما : « لقد لاحظت أن جميع هـــؤلاء الاشتراكيين المسعورين وهـــؤلاء الشـــيوعيين هم فى الوقت نفسه أناس بخلاء ، وأن نفوسهم نفوس رجال يحبون الكسب والربح ، نفوس مالكين ، فعلى قدر ما يُظهرون من التمسك بالاشتراكية يكونون نهمين شرهين . ما مصدر هذا ؟ أيكون نتيجةً لعاطفيتهم أيضا ؟ » . لا أدرى هل هذه الملاحظـــة صادقة أم هى غير صـــادقة لكننى أعرف أن بتروشكا كان قد علم ببيــع أخشاب الغابة وعلم بأشياء أخرى أيضا . وكان ستيفان تروفيموفتش يعلم أن ابنه عالم بالحال . ولقد اتفق لى أن قرأت رسائل بتروشا الى أبيــه . كان لا يكتب اليه الا نادرا ، مرة فى السنة ، أو أقلَّ من ذلك أيضا . ولكنه فى الآونة الأخيرة ، بعد أن أبلغ عن وصوله ، بعث رسالتين متتاليتين، كانتا قصيرتين جافتين على عهدنا به ، وكانتا لا تشتملان الا على تعليمات . وكان الأب والابن يتخاطبان بصيغة المفـــرد دون كلفة ، منـــذ أن كانا

بطرسبرج ، وذلك جرياً على « الموضة » ، فكانت رسائل بتروشا أشبه بالمكاتيب التي كان السادة في الزمان القديم يبعثونها الى أقنانهم المكلفين بادارة أموالهم .

هاهي ذي الثمانية آلاف روبل التي يجب أن تذلل كل مصاعب ستيفان تروفيموفتش وأن تحل كل مشكلاته ، ها هي ذي تهبط عليه من السماء فجأة بفضل العرض الذى قدمته فرفارا بتروفنا ؛ حتى ان فرفارا بتروفنا قد أفهمته بوضوح أن المبلغ لن يهبط من السماء الا على هذا الشرط . وقد قبل ستيفان تروفيموفتش عرضها طبعا .

وقد أرسل يستدعيني بعد انصراف صديقته فورا ، وحرص على ايصاد بابه دون سائر أصدقائه طوال النهار . وبكى أمامى قليلاً بطبيعة الحال ، وأفاض في الكلام وأجاد ، مرتبكاً مع ذلك من حين الى حين ، وألقى نكته قائمة على الجناس مصادفة ، فسُرَّ بها سرورا عظيما ، ثم وافته نوبة مغص خفيفة . الخلاصة أن كل شيء جرى وفقاً للقواعد والأصول . وفي النهاية ، استل من أحد الأدراج صورة زوجته الألمانية الحبيبة التي توفيت منذ عشرين عاما ، وأخذ يخاطبها بلهجة شاكية : « هل ستغفرين لي ؟ » . كان يبدو على وجه العموم ضائعا كل الضياع . ومن أجل أن نسرِّي عن نفسينا شربنا زجاجة خمرة ، ثم لم يلبث أن نام نوما عميقاً . وفي صباح الغد ، عقد ربطة عنقه عقداً فنياً ، وعُني بهندامه عناية كبيرة ، متوقفاً أمام المرآة مرارا ومرارا . وقد عطَّر منديله ، عطَّره خفيةً ، ولكنه ما ان رأى فرفارا بتروفنا من النافذة حتى أسرع يأخذ منديلاً آخر ، وأخفى المنديل الاول تحت الوسادة .

قالت فرفارا بتروفنا محبذةً حين أعلن لها موافقته :

عظيم . انك بهذا تتخذ قرارا نبيلا . ذلك من جهة أولى. ومن جهة ثانية تسمع صوت العقل الذى قلما تكترث به حين يتصل الامر بشئونك الشخصية .

ثم أضافت تقول وهى تنظر الى عقدة ربطة عنقه البيضاء :

ـ على كل حال ، لا داعى الى السرعة . احفظ السر الآن ، وسوف أصمت أنا أيضا فلا أقول شيئا . فى القريب يحين عيد ميلادك ، فأصطحبها معى . سوف تقيم حفلة شاى فى المساء . ولكن أرجوك . لا خمر ولا مقبّلات . على اننى سأتولى تدبير هذا كله بنفسى . ادعُ أصدقاءك . سنشترك أنا وأنت فى اختيار من سندعوهم . وقبل الحفلة بيوم تُجرى حديثا بينك وبينها اذا لزم الأمر . وفى أثناء السهرة نلمح أنا وأنت الى الزواج تلميحا دون أن نعلنه اعلانا رسميا . وبعد ذلك ، بعد خمسة عشر يوما ، نحتفل بالزفاف احتفالا متواضعا الى أبعد حد ممكن ... فاذا انتهى الاحتفال كان فى امكانكما أن تسافرا معاً الى مكان ما ، الى موسكو مثلاً . وقد أصحبكما ... وانما الشىء الأساسى الآن هو أن لا تقول لأحد شيئاً .

دهش ستيفان تروفيموفتش . وحاول أن يبيّن لصديقه أنه لا يمكنه أن يتصرف على هذا النحو ، فلا بدله من حديث مع خطيبته ، ولكن فرفارا بتروفنا غضبت فجأة وقاطعته غاضبة تقول :

ـ ما حاجتك الى التحدث معها ؟ أولاً ، من الممكن أن لا يتم الأمر ...

فدمدم الخطيب يقول مذهولاً :

ـ كيف هذا ؟

ـ نعم ، سوف أرى • على أن كل شيء سيتم على نحو ما قلت لك • لا تقلق • سوف أهيء داشا • لا حاجة بك الى التدخل في هذا • سيُقال وسيُفعل كل ما يجب أن يُقال وأن يُفعل • ليس هذا شأنك • لماذا تهتم بهذا الأمر ؟ ما عسى يكون دورك فيه ؟ لا تجيء اليّ ولا تكتب • تظاهر بأنك لا تعرف شيئا ، أرجوك • وسأصمت أنا أيضا •

هكذا رفضت فرفارا بتروفنا أن تفصح عما بنفسها ، وخرجت مضطربة اضطرابا واضحا• لكأن موافقة ستيفان تروفيموفتش بهذه السرعة الكبيرة قد شدهتها • وا أسفاه ! لقد كان ستيفان تروفيموفتش لا يعرف الوضع الذي هو فيه ، وما يزال لا يميز بعض جوانب المسألة • بالعكس : لقد لاحظتُ لديه نبرة جديدة فيها استعلاء واستخفاف • انه يصطنع التكبر • لقد هتف يقول لي ذات مرة وقد وقف أمامي رافعا ذراعيه الى السماء :

ـ يعجبني هذا • هل سمعت ؟ سوف تفعل ما من شأنه أن يجعلني أرفض في آخر الأمر • ان من الممكن أن ينفد صبري أنا أيضا ••• فأقول لا • « ابق في بيتك ، ليس هذا شأنك » • ولكن لماذا يجب أن أتزوج حتما ؟ ألأن هواها شاء ذلك لا أكثر ؟ ولكنني رجل جاد ، ويمكنني أن أرفض الخضوع لنزوات سخيفة تقوم في نفس امرأة شاذة ! ان عليّ واجبات نحو ابني ••• و ••• نحو نفسي • انني أضحي • ألا تفهم هي هذا ؟ لعلني انما وافقت لضجري من الحياة ولأن الأمور عندي سواء • لكنها ستثير حنقي في النهاية الى حيث لا تستوى عندي الأمور ، فأغضب وأرفض • « ثم ان المسألة مضحكة ••• » (بالفرنسية) ما عسى يقولون في النادي ؟ ما عسى يقول ••• ليبوتين ؟ « من الممكن أن لا يتم الأمر »•• ما رأيك • هذا ما ينقص •• ذلك •• ذلك •• أراني عاجزاً عن الشور

عن الكلمة المناسبة .. « انني كرجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، انني أشبه برجل مثل باندیجیه * (بالفرنسية) ... انني رجل حُصر عند حائط ! ...

وفي الوقت نفسه ، من خلال جميع هذه الشكاوى ، كان يلوح نوع من غرور يتصف بالنزوة وقلة الاكتراث. وشربنا في المساء زجاجة خمرة أخرى .

الفصل الثالث

خطايا الغير

١

انقضت ثمانية أيام ، واتسعت القضية مزيدا من الاتساع . يجب أن أذكر عابراً أننى عرفت فى أثناء هذا الأسبوع التعس لحظات أليمة جدا . لقد كان علىّ ، بصفتى نجياً حميماً لستيفان تروفيموفتش، أن أقضى كل وقتى تقريبا بقرب هذا الخطيب الشقى الحزين . ورغم أننا لم نرَ أحداً طوال ذلك الأسبوع الذى قضيناه فى وحدة تامة وعزلة كاملة ، فان الشىء الذى يعذّبه أكثر من أى شىء آخر هو الشعور بالخزى والعار حتى تجاهى أنا ، حتى انه كلما صارحنى مزيدا من المصارحة أصبح يحقد علىّ بسبب ذلك مزيدا من الحقد . وكان من فرط وجله يتخيل أن المدينة كلها على علم بالموقف ، فكان يخشى أن يظهر لا لأعضاء النادى فحسب ، بل لأصدقائه الحميمين أيضا . لذلك كان لا يخرج ليقوم بنزهته الصحية الا فى المساء حين يخيم الظلام حالكا .

انقضت ثمانية أيام وهو ما يزال يجهل أهو خطيب أم لا . لقد ظل الموقف غامضا رغم كل ما فعل . لم يستطع أن يرى خطيبته ، حتى لقد كان يتساءل : هل يجب عليه أن يعدها خطيبته فعلاً ؟ هل يجب عليه أن يأخذ أقوال فرفارا بتروفنا مأخذ الجد ؟ ان فرفارا بتروفنا مصرة على

أن لا تستقبله ، لا يدرى أحد لماذا ! وقد أجابت على احدى الرسائل الأولى التى بعثها اليها (وقد كتب اليها عددا كبيرا من الرسائل) أجابت ترجوه أن يجنبها زياراته ورسائله الى حين ، لأنها مشغولة جدا ، وتقول له ان هناك أشياء هامة كثيرة تريد أن تنقلها اليه ، لكنها تنتظر للقيام بهذا دقيقة من فراغ ، وانها متى « حان الحين » (بالفرنسية) ستبلغه الموعد الذى تستطيع أن تستقبله فيه ؛ أما الرسائل فانها تنبهه الى أنها سوف تردها اليه دون أن تفضّها ، لأنها تعدها « عبثاً صبيانياً محضاً » . لقد قرأت أنا هذه البطاقة : فهو الذى أطلعنى عليها .

ومع ذلك ، كانت هذه الفظاعات كلها وكانت حالة الشك والبلبلة التى هو فيها ، كان ذلك كله لا يُعد شيئا مذكورا بالقياس الى الهمّ الأكبر الذى كان يعذبه عذابا رهيبا بلا رحمة ولا هوادة . فبسبب ذلك الهمّ الفظيع انما نحل جسمه وتبطت عزيمته وخارت قواه ، ومن ذلك الهم انما كان يأتى شعوره بالخزى والعار . لكنه كان لا يريد أن يبوح لى به مهما يكن أمر ، ويؤثر أن يكذب وأن يراوغ كصبى صغير اذا دعا الداعى . ومع ذلك كان يستدعينى كل يوم ، عاجزا عن البقاء ساعتين دون أن يرانى ، محتاجا الى حضورى كاحتياجه الى الهواء أو الماء .

وكان هذا التصرف يؤذى شعورى بعض الايذاء . وكنت قد اكتشفت سرّه الكبير منذ مدة طويلة طبعا ، ونفذت الى دخيلة نفس ستيفان تروفيموفتش . كنت مقتنعا أعمق الاقتناع حينذاك أن ازاحة النقاب عن ذلك السر ، عن ذلك الهمّ الرئيسى الذى يعذب صاحبنا ، ليس يشرفه ، وكنت ، وأنا فى عنفوان شبابى فى ذلك الوقت ، أستاء من عامية عواطفه وبشاعة شكوكه وشبهاته . ولعلنى كنت لحماستى ، وربما لتعبى من دور النجى ذاك الذى كنت أقوم به ، أبالغ فى اتهامه وأغلو فى ادانته .

حتى لقد قسوت فدفعته الى أن يعترف لى بكل شيء ؟ وأدركت مع ذلك أن هناك أشياء يصعب الاعتراف بها • وكان هو أيضا قد نفذ الى دخيلتى ، أى أنه أدرك أننى نفذت الى دخيلته واننى مستاء منه ناقم عليـــه ، وكان حانقا من أننى ناقم عليه واننى نفذت الى دخيلته • لعل غيظى كان أحمق مسكينا ، ولكن خلوة شخصين تسيء الى الصداقة الحقيقية أحيانا وتنالهـا بأذى • ولقد كان يدرك بعض جوانب وضعه ادراكا واضحا ، وكان يحكم عليها بكثير من رهافة الفكر حين لا يكون الامر أمر النقطة التى يرى أنه مضطر أن يبقيها سراً لا يبوح به •

كان يقول لى فى بعض الاحيان متكلما عن فرفارا بتروفنا :

ـ آه ••• لشد ما تغيرت ! لقد كانت تبدو فى محادثاتنا شخصا آخر تماماً ! ••• تصور أنها كانت تجيد الحديث حينـــذاك ! هل يمكن أن يصد ق أحد أنها كانت لها أفكار ، أفكار شخصية ؟ لقد تغير الآن كـل شيء • انها تقول ان ذلك كله لم يكن الا ثرثرة أصبحت اليوم بالية • انها تحتقر الماضى • ما هى الآن الا تاجرة ، الا مديرة أعمال • لقـــد قست نفسها ••• وهى لا تنفك تغضب وتسخط بغير انقطاع •••

سألته :

ـ ولكن ما الذى يغضبها ويسخطها الآن ما دمت قد قبلت مطالبها ؟

فألقى علىّ نظرة ماكرة وقال :

ـ « يا صديقى العزيز » (بالفرنسية) ، لو لم أقبل مطالبها لزعلت زعلاً شديدا ، شد •• يدا ! أقلّ شدة مع ذلك منه الآن وقد قبلت •

وارتاح ستيفان تروفيموفتش لهذه الكلمة الموفقة التى اهتدى اليها، وشعر بتحسن فى حالته النفسية ، وأفرغنا فى المساء زجاجة خمرة أخرى• لكن مزاجه الحسن لم يدم طويلا ، فما جاء الغد حتى كان صاحبنا أشــد تجهماً وانهيارا مما كان فى أى وقت مضى •

والشيء الذي كان يضايقني أكثر مما يضايقني أي شيء آخر مع ذلك هو أنه لم يعزم أمره على ما كان يجب أن يعزم أمره عليه ، وهو أن يمضي يزور السيدة دروزدوف وابنتها اللتين وصلتا منذ مدة قصيرة وكانتا ترغبان من تلقاء نفسيهما ، كما قيل لنا ، في رؤية ستيفان تروفيموفتش . انهما لا تبرحان تسألان عن أخباره ، فكان هذا يفاقم عذابه . انه يتكلم دائما عن ليزافتا نيقولايفنا بحماسة تدهشني وتثير في نفسي الاستغراب . صحيح أنه كان لا يزال يرى فيها الطفلة التي طالما أحبها كل الحب . ولكنه كان يتصور أيضا ــ لا أدري لماذا ــ أنه سيجد في قربها سكينةً لنفسه وراحةً من تباريح عذابه ، بل وأنها سوف تساعده في تبديد شكوكه وحل مشكلاته . كان يتوقع أن يجد في ليزافتا نيقولايفنا انسانة خارقة . ورغم ذلك لم يستطع أن يعزم أمره على زيارتها ، مع أنه ينتوي أن يفعل ذلك كل يوم . وكنت من جهتي أرغب أشد الرغبة في أن أقدَّم اليها وأن أُزكَّى عندها ، وكنت لا أستطيع أن أعوّل في ذلك الا على ستيفان تروفيموفتش . كنت أراها أحيانا كثيرة ، في الشارع طبعا ، حين كانت تتنزه على الحصان مرتدياً ملابس الفرسان (كانت تمتطي صهوة جواد رائع) ، في صحبة ضابط شاب جميل يقال انه قريبها ، فهو ابن أخت الجنرال دروزدوف . كانت هذه اللقاءات تملأ نفسي باحساس خارق . ولكن عماوتي لم تدم زمنا طويلا ، فسرعان ما أدركت بنفسي مدى ما يشتمل عليه حلمي من خيال . على أن هذا الحلم قد هزني هزاً عميقا مهما تكن مدته قصيرة . فمن الممكن أن يدرك القاريء مدى ما كنت أشعر به من حنق على صديقي حين أراه يصر على حبس نفسه في البيت لايخرج منه أبدا .

ان جميع أعضاء حلقتنا الصغيرة قد أُبلغوا منذ البداية أن ستيفان تروفيموفتش لن يستطيع أن يستقبل أحدا ، وأنه يرجوهم أن لايزعجوه.

وقد أصرّ رغم نصائحي على أن يضفي على هذا الابلاغ شكلا رسميا • فطفت على جميع الأصدقاء تنفيذا لطلبه ، شارحا لكل واحد منهم أن فرفارا بتروفنا قد كلفت شيخنا (فكذلك كنا نلقب ستيفان تروفيموفتش فيما بيننا) بعمل مستعجل جدا هو أن يرتب مراسلات لها قديمة تمتد على عــدة سنين • لذلك أوصد باب بيته دون جميع الناس الا أنا الذى أقوم بمساعدته فى هذا العمل • وكان ليبوتين هو الشخص الوحيد الذى لم يتسع وقتى لابلاغه • فكنت أرجىء زيارتى له من يوم الى يوم ، لأننى كنت أخشى أن أذهب اليه فى حقيقة الامر • كنت أعرف سلفا أنه لن يصدّق كلمة واحدة مما سوف أذكره له من ايضـــاحات وشروح ، وأنه لن يلبث أن يتصور أن هذه الايضاحات والشروح تخفى سراً من الأسرار • فمـا ان أخرج من عنده حتى يمضى يســتطلع ويستعلم ويملأ المدينـة بالنمائم والأقاويل والشائعات • وفيما كنت أحدث نفسى بهذا الكلام ذات مرة ، اذا أنا ألقاه فى الشارع مصادفةً • فأدركت أن أصدقاءنا الذين أبلغتهم الأمر كانوا قد أطلعوه عليه • شىء غريب : انه لم يظهـــر أى رغبة فى الاطلاع ، بل ولا سألنى عن ستيفان تروفيموفتش ، ولكن حين أخـــذت أعتذر له عن تأخرى فى ابلاغه ، قاطعنى وغيّر مجرى الحديث فورا • الحق أن هناك أشياء كثيرة كان يريد أن يقصّها علىّ ؛ كان يبدو مهتاجا اهتياجا شديدا ، وقد سرّه أعظم السرور أن عثر على مستمع • أطلعنى فى البداية على أخبار المدينة ، فحدثنى عن وصول امرأة الحاكم ، وعـن « مشاريعه الجديدة » ثم قال لى انه تشكل فى النادى حزب معارضة ، وأن الناس فى كل مكان أصبحوا لا يتحدثون الا عن الافكار الجديدة التى تسوء بعض الفئات كثيرا من جهة أخرى ، وهلم جرا ••• ظل يتحـدث طوال ربع ساعة ، وبلغ من الاجادة والبراعة فى الحديث أننى لم أستطع

أن أعزم أمري على مقاطعته . لقد كنت أكرهه . ولكن يجب أن أعترف أنه يملك موهبة حمل الآخرين على الاصغاء اليه ، ولا سيما حين يطلق العنان لغضبه . في رأيي أن هذا الرجل جاسوس بطبيعته ، بفطرته . انه مطلع دائما على آخر الأنباء ، وعلى جميع أسرار مدينتنا ، وعلى الحكايات الفاضحة خاصة . وكان الناس يُدهشون حين يرون مدى اهتمامه بأمور لا تعنيه في شيء . لقد خيِّل الىّ دائما ان السمة الاساسية في طبعه هي الحسد . فلما رويت لستيفان تروفيموفتش في المساء أنني لقيت ليبوتين ، ولما قصصت عليه الحديث الذي جرى بيننا اضطرب اضطرابا شديدا دُهشت له ، وألقى عليه سؤالا غريبا . قال : « أيعلم ليبوتين أم لا ؟ » فحاولت أن أبيِّن له أن من المستحيل أن يعلم ليبوتين بالامر ، وأن أحدا لا يمكن أن يكون قد حدثه عن مشروع فرفارا بتروفنا . ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يصدق . وختم كلامه قائلا على نحو غير متوقع :

ـ قد لا تصدقني ، ولكنني مقتنع بأنه ليس مطلعا على « وضعنا » بجميع تفاصيله فحسب ، بل هو يعرف أكثر من ذلك أيضا ، يعرف أشياء لا نعرفها بعد نحن ، لا أنا ولا أنت ، وربما لن نعرفها في يوم من الايام ، أو نعلم بها حين يكون الأوان قد فات ، وحين تكون الجسور قد قُطعت .

لم أقل كلمة واحدة . رغم أن هذه الكلمات كانت زاخرة بالدلالة. وخلال الأيام الخمسة التي أعقبت ذلك لم يشر أية اشارة الى لوشين . وكنت أرى رؤية واضحة أن ستيفان تروفيموفتش نادم كل الندم على أنه انجرف في الكلام فكشف لي عن شكوكه وشبهاته .

٢

في ذات صباح من الأصباح ، حوالى الساعة الحادية عشرة (كان ذلك بعد قبول ستيفان تروفيموفتش عرض فرفارا بتروفنا بسبعة أيام أو ثمانية) ، بينما كنت على عادتي مسرعا الى بيت صديقي المسكين ، وقعت لي حادثة صغيرة .

لقد لقيت كارمازينوف ، « الكاتب الكبير » ، كما كان يلقبه ليبوتين. كنت قد قرأت كارمازينوف منذ طفولتي . ان الجيل الماضي ، وحتى الجيل الحاضر ، يعرفان رواياته وقصصه معرفة جيدة . أما أنا فكنت أجد فيها لذتي . لقد كانت فرحة طفولتي ومراهقتي . ثم فترت حماستي بعض الفتور بعد ذلك . ان الروايات المشتملة على رأي ، التي أخذ ينشرها ، تعجبني أقل مما كانت تعجبني كتبه الاولى الزاخرة بالصدق والشعر . أما كتبه الاخيرة فقد أصبحت لا تهز في نفسي شيئا البتة .

أستطيع أن أقول بوجه عام ـ مع أنني لا أجرؤ أن أفصح عن رأيي في موضوع حرج الى هذه الدرجة ـ ان جميع هؤلاء الكتاب الذين هم كتاب من الطبقة الثانية والذين يُعدون أثناء حياتهم عباقرة تقريبا ، يغيبون فجأة دون أن يتركوا أثراً في الذاكرة حين يموتون . لا هذا فحسب ، بل انهم كثيرا ما يرون أنفسهم مهجورين منسيين حتى أثناء حياتهم ، متى جاء جيل جديد فحلّ محلّ الجيل الذي صنع نجاحهم . وهذا يحدث في بلادنا على نحو مفاجىء عجيب : فكأن الامر أمر تغير في ديكور المسرح. ولكن الامور لا تجرى هذا المجرى بالنسبة الى كتاب مثل بوشكين أو جوجول أو موليير أو فولتير ، أو سائر أولئك الرجال العظماء الذين

ينطقون أقوالا جديدة أصيلة . ويجب أن نقول من جهة أخرى ان كتاب الطبقة الثانية يسفون فى أواخر أيامهم المجيدة اسفافا يدعو الى الرثاء لهم والاشفاق عليهم ، ويموتون وهم ما يزالون أحياء . وكثيرا ما يحدث لكاتب ظل الناس ينسبون اليه أفكارا عميقة منذ مدة طويلة ، وظلوا يعتقدون أنه سيؤثر فى المجتمع تأثيرا قويا ، أقول : كثيرا ما يتفق لمثل هذا الكاتب أن ينكشف أمره عن فقر وفراغ يبلغان من القوة أن أحداً لا يأسف بعد ذلك على أنه نضب بتلك السرعة الكبيرة . غير أن هؤلاء الشيوخ الشائبين لا يلاحظون ذلك ، ويغضبون . ان غرورهم ، ولا سيما فى أواخر أيام حياتهم الادبية ، يبلغ فى بعض الاحيان أبعادا تدعو الى أشد الدهشة والاستغراب . فهم يعدون أنفسهم آلهة على الأقل !

كان يُروى عن كارمازينوف أنه يحرص على علاقاته بأصحاب المراكز العالية وبالمجتمع الارستقراطى حرصا أشد من حرصه على سلامة روحه . يقال انه يستقبلك فاتحا ذراعيه ويمدحك ويتملقك ويفتنك بلطفه وطيبته اذا كان فى حاجة اليك أو اذا كان أحد قد أوصاه بك خيرا . ولكنه ما ان يلق أول أمير أو أول كونتيسة أو أول شخص يخشى رأيه فيه ، حتى يرى أن من أقدس واجباته أن يظهر لك أعمق احتقار ، وأن يبعدك على الفور كابعاد قشة أو ذبابة قبل أن يتسع وقتك للابتعاد من تلقاء نفسك . انه يتصور جاداً كل الجد أن ذلك برهان على أعظم الامتياز والرقى . وهو رغم قوة ارادته ورغم قدرته على السيطرة على نفسه ورغم اختلاطه بالناس ومعرفته بالبشر ، يبلغ من استعار الغرور وحب الظهور فى نفسه أنه يستحيل عليه أن يخفى سرعة تأذيه ككاتب ، حتى فى البيئات التى لا تهتم بالادب . فاذا اتفق مصادفة أن أظهر له أحد شيئا من قلة الاكتراث ، فان غيظه يبلغ من الشدة أنه يحتفظ بذكرى ذلك الى الأبد ويبحث عن فرصة للانتقام .

كنت قد قرأت له ، منذ عام ، مقالةً في احدى المجلات ؛ انها مقالة تشتمل على ادعاء وسذاجة في آن واحد ، فهو يصطنع فيها مظهر الشاعر ومظهر عالم النفس معاً . كان يصف في هذه المقالة غرق باخرة قرب الساحل الانجليزي . لقد شهد بنفسه جهود رجال الانقاذ وموت عدد كبير من ركاب الباخرة غرقاً في الأمواج . ولكن تلك المقالة ، وهي مقالة طويلة فيها كثير من الاسهاب والافاضة ، لم يكن لكتابتها من هدف الا حمل الناس على الاعجاب بكاتبها ، فكأن كل سطر من سطورها يقول لهم : « انظروا اليّ . اليكم ما شعرت به في تلك اللحظات . مالكم ولذلك البحر الهائج وتلك الصخور وذلك المركب المحطم ؟ ألم ترسم لكم ريشتي لوحةً رائعة ؟ ما بالكم تنظرون الى تلك المرأة الغريق التي تضم بذراعيها طفلاً ميتاً ؟ أحرى بكم أن تعجبوا بي أنا ، أنا الذي لم أستطع احتمال رؤية ذلك المشهد فأشحت عنه . هأناذا أدير له ظهري وقد استبد الرعب والهول بنفسي ، فلا أقوى على القاء نظرة الى وراء ، وأغمض عيني ... أليس هذا كله شائقاً ؟ » * . حين عبّرت عن انطباعي هذا لستيفان تروفيموفتش وافقني على رأيي .

لما انتشرت في المدينة شائعة وصول كارمازينوف قريبا ، شعرت طبعا بأقوى الرغبة في أن ألقاه وأن أتعرف به اذا أمكن ذلك . وكنت أعلم أنني أستطيع التوصل الى ذلك بفضل ستيفان تروفيموفتش ، لأنهما كانا في الماضي صديقين . وهأناذا أراني أمامه فجأةً في مفرق طرق ، فسرعان ما أتعرفه : كانوا قد دلوني عليه قبل ثلاثة أيام بينما كان ماراً في عربة مع زوجة حاكمنا .

انه شيخ يتكلف العظمة (على أن عمره لا يزيد على خمسين سنة)، زاهي المحيّا ، تحف بوجهه عقفات شعر شائبة تخرج من تحت قبعة عالية

وتلتف حول أذنيه الصغيرتين المتوردتين . ان هـــذا الوجه الذى عنى صاحبه بحلاقته لم يكن على جانب كبير من الجمال بشـــفتيه الطويلتين الرقيقتين اللتين تنمان عن الحيلة والمكر ، وبأنفه البدين وعينيه الصغيرتين النافذتين الذكيتين . وكانت ملابسه تبدو مهترئة . انه يرتدى نوعا مـــن معطف خاص ربما كان يرتديه الناس فى هذا الفصل بسويسرا بشمالى ايطاليا . ولكن جميع ملحقات زينته الصغيرة ، كأزرار الأكمام ، أو الياقة المضافة ، أو النظارة المعلقة بشريط أسود ، كل ذلك كان كما يكون لدى أناس يعنون بحسن هندامهم أشد العناية . انى لعلى يقين من أنه ينتعـل فى الصيف جزمتين رقيقتين زاهٍ لونهما مع أزرار من عروق اللؤلؤ على جانبيهما .

حين صادفته كان واقفا فى ركن شارع ينظر فيما حوله بانتباه . فلما لاحظ أننى أتأمله بكثير من الاهتمام ، سألنى بصوت مترقق متكلف لكنه مع ذلك حاد كالصراخ :

ـ من فضلك ، ما أقصر طريق للذهاب الى « شارع الأبقار » ؟

فهتفت أجيبه فجأة وقد انفعلت انفعالاً قوياً :

ـ « شارع الأبقار » ؟ انه قريب جدا من هنا . أسلك هذا الشــارع مستقيما حتى الشارع الثانى على اليسار .

ـ أشكرك كثيرا .

لعن الله تلك الدقيقة ! أعتقد حقاً أننى كنت وجـلاً ، واننى كنت أتأمله كالمتعبد . وسرعان ما لاحظ هو ذلك ، وأدرك طبعا اننى عرفتــه ، وأننى أعلم من هو ، وأننى قرأت كتبه ، وأننى أحترمه منـــذ طفولتى ، واننى أشعر أمامه بوجل شديد ، واننى أتأمله بحب يبلغ العبادة . فابتسم، وحيانى بحركة من رأسه ، وسلك الشارع الذى دللته عليه .

لا أدرى لماذا عدت أدراجي لأتبعه • لا أدرى لماذا سرت الى جانبه قرابة عشر خطوات • وها هو ذا يسألني بصوت حاد :

ـ هل في وسعك أن تدلني على أقرب محطة للعربات ؟

ياله من صوت مزعج !

ـ محطة عربات ؟ ان أقرب محطة للعربات توجد ••• قرب الكاتدرائية ••• والعربات موفورة دائماً في الميدان •

قلت له ذلك وأوشكت أن أسرع لآتيه بعربة • أظن أن هذا ما كان ينتظره مني • ولكنني ثبت الى صوابي في تلك اللحظة نفسها فلم أتحرك• لكنه لاحظ حركتي التي لم أكد أهم بها ، وظل ينظر الىّ مبتسما ابتسامته السيئة تلك • وعندئذ انما حدث شيء لن أنساه ماحييت •

لقد سقطت منه ، على حين فجأة ، حقيبة صغيرة كان يحملها بيده اليسرى • والحق أنها لم تكن حقيبة بمعنى الكلمة ، فهي أقرب الى أن تكون علبة أو قل محفظة من نوع المحافظ التي كانت تحملها السيدات في الزمان القديم • على انني لا أدرى ماذا كانت تلك الحقيبة على وجه الدقة• ولكنني أعرف أنني أسرعت أهم أن أرفعها له عن الارض فيما يبدو •

انني على ثقة تامة بأنني لم أرفعها ، ولكن لا يمكن للمرء أن لايدرك معنى الحركة التي قمت بها ؟ لقد استحال علىّ أن أخفي معنى هذه الحركة • فاحمر وجهي كأبله • وسرعان ما استمد ذلك الرجل الماكر من هذه الظروف كل ما كان يمكن أن يستمده منها • قال لي برقة حين رأى أنني لن أنحني على الارض لأرفع الحقيقة بنفسي :

ـ لا تزعج نفسك • سأرفعها أنا •

ولكن رفع الحقيبة كمن سبقني الى ذلك سبقاً ، وحياني مرةً أخرى باشارة من رأسه ، وتابع طريقه وقد تركني مسحوقا • الخلاصة : لكأنني

رفعت له حقيبته فعلاً . ولبثت خمس دقائق أعد نفسي مجللاً بالخـزى والعار الى الأبد . لكنني حين وصلت الى قرب بيت ستيفان تروفيموفتش انفجرت ضاحكا . لقد بدا لى هذا اللقاء ، على حين فجأة ، باعثا على أكبر الضحك ، فسرعان ما قررت أن أتخذ منه موضوع تسلية لصاحبنا ، فأقصَّ عليه المشهد كله مقلدا تفاصيله ، مسريا به عنه .

٣

ما كان أشد دهشتي حين رأيت ستيفان تروفيموفتش في هذه المـرة متغيرا كل التغير . صحيح أنه ما ان رآني حتى أسرع الىّ بنوع من النهم ، وأخذ يصغي الىّ . ولكنه كان زائغ النظرة شـــارد الفـكر بحيث كان واضحاً أنه لم يفهم ما كنت أقوله له . ومع ذلك فما كدت أنطق باســـم كارمازينوف حتى غضب فجأة ، وصرخ يقول حانقا :

ـ لا تكلمني عنه ، لاتنطق اسمه . خذ . انظر . اقرأ هذا .

قال ذلك وهو يفتح درجاً ويلقي على المائدة ثلاث قطع من ورق هي ثلاث رسائل من فرفارا بتروفنا كتبتها على عجل بالقلم الرصاص كيفما اتفق . فأما الأولى فهي من أمس الأول ، وأما الثانية فقد وصلت أمس ، وأما الثالثة فقد جيء بها قبل وصولي بساعة . والرسائل الثلاث كلها تتكلم عن كارمازينوف . انها خالية من أية قيمة أو شأن ، وهي تكشف عن القلق السخيف الطموح الذي تعانيه فرفارا بتروفنا خائفةً أن لا يزورها كارمازينوف . واليكم نص الرسالة الاولى (ولعل رسائل أخرى كانت قد سبقتها) .

« اذا تنازل أخيرا فزارك اليوم ، فلا تقل عني كلمـــة واحـــدة ، أرجوك . لا تشر الىّ أية اشارة . لا تأت على ذكـــرى . لا تذكّـــره بوجودي . »

« فرفارا ستافروجين »

وتقول رسالة الأمس ما يلي :

« اذا صحّ عزمه أخيراً على أن يزورك هذا الصباح ، فالأكرم في

رأيي أن لا تستقبله . تلك هي وجهة نظري . لا أدري ما رأيك أنت ».
« فرفارا ستافروجين »

وهذا نص الرسالة الأخيرة :

« آنا واثقة بأن بيتك مليء بالغبار والتراب الآن ، وأن دخان التبغ يجعل الهواء فاسدا يستحيل استنشاقه . سوف أرسل اليك ماريا وفوما . فيُرتّب كل شيء بعد نصف ساعة . لا تزعجهما ؛ اذهب الى المطبخ الى أن ينهيا عملهما . أبعث اليك بسجادة من بخارى ، وباناءين من الخزف الصيني . انني أنتوي اهداء هذه الاشياء اليك منذ مدة طويلة . وأبعث اليك غدا ذلك لوحة تينييه * (الى وقت محدود) . أما الاناءان ففي وسعك أن تضعهما على النافذة ، وأما لوحة تينييه فعلّقها على يمين صورة جوته . فهناك تبرز ، لأن الضوء في هذا المكان يكون ساطعا على الدوام في الصباح. فاذا جاءك أخيرا فأحسن استقباله وأكرم وفادته وعامله بتهذيب مرهف ، ولكن حاول أن لا تتكلم الا في أمور تافهة ، في موضوع علمي مثلاً ؛ وتصرف تصرفاً عادياً فكأنكما لم تفترقا الا أمس . لا تقل كلمة واحدة عني . قد أجيء اليك لحظةً في هذا المساء . »

«فرفارا ستافروجين»

« حاشية : اذا لم يجيء اليوم ، فلن يجيء أبدا . »

أذهلتني قراءة هذه الرسائل : لم أستطع أن أفهم كيف يصير في حالة كهذه الحالة لأمور تافهة هذه التفاهة كلها . ولكن حين رفعت اليه نظرةً مستفهمة ، لاحظت أنه انتهز فرصة انشغالي بالقراءة فأبدل ربطة عنقه العادية البيضاء بربطة حمراء . وكانت قبعته وعصاه موضوعتين على المائدة . وكانت يداه ترتجفان ، وكان وجهه شديد الشحوب والاصفرار.

صاح يقول خارجا عن طوره ، ردا على نظرة الدهشة التي رآها في عيني :

ـ لا يهمني قلقها هـــذا كله البتة ! « انني لا أعبأ به اطـــلاقا » (بالفرنسية) . تتجاسر أن تضطرب من أجل كارمازينوف بينما لا ترد على رسائلي أنا . هذه رسالة أعادتها الىَّ دون أن تفضَّها . اليك الرسالة، هي على المائدة ، تحت هذا الكتاب ، تحت كتاب «الرجل الذي يضحك».* ليس يعنيني أن تتعذب من أجل نيقو .. لنكا . » أنا لا أبالي هذا كله ، وأطالب بحريتي ! ليذهب كارمازينوف الى الشيطان ! لتـــذهب لمبكه الى الشيطان ! » (بالفرنسية) . لقد خبأت اناءيها في حجـــرة المدخـــل ، ودسست لوحة تينيه في الصندوق ، وطالبت بأن تستقبلني فورا . هـــل سمعت ؟ طالبت باستقبالي مطالبة . أرسلت اليها مع ناستاسيا ورقة صـــغيرة على عادتها هي ، وكتبت بالقلم الرصاص ، ولم أضع الورقة في ظرف . وأنا الآن أنتظر . أريد أن تعلن داريا بافلوفنا رغبتها بلسانهـا هي ، أمام السماء ، أو بحضورك على الأقل . « سوف تدعمني أنت ، صديقا وشاهدا، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) . لا أريد أن أشـعر بخجـــل ، لا أريد أكاذيب ، لا أريد أسرارا . لن أقبل أسرارا في هذه القضـية ! يجب أن يُعترف لي بكل شيء ، بصراحة ، ببساطة ، بنبل ... وعندئذ ... عندئذ قد أ دهش الجيل كله بشهامتي ، بعظمة نفسي ! ... أأنا جروٌ ياسيد ؟

بهذا السؤال ختم كلامه وهو يرشقني بنظرة تهديد ، كأنني أنا الذي أعده جرواً .

ألححت عليه أن يشرب قليلاً من الماء . انني لم أره في مثل هـــذه الحـالة قبل ذلك قط . كان وهو يتكلم يركض من طرف من الغرفة الى طرفها الآخر . ولكنه تسمـَّر أمامي فجأة على وضع فيه غطرسة ، وقال وهو يشقلني من القدمين الى الرأس :

ـ هل تظـــن حقا ، هل تستطيع أن تفترض انني ، أنا ســتيفان

تروفيموفتش ، لن أملك من القوة النفسية ما يمكنني من أن أحمل كيسي، كيس التسول ، وأن أضعه على كتفي ، وأن أعبر الباب ، منصرفا الى الأبد، اذا كان الشرف ومبدأ الحرية العظيم هما اللذان يقتضيان ذلك ؟ ليست هذه أول مرة يحدث فيها لستيفان فرخوفنسكي أن يقـاوم الطغيان بعزة النفس ، ولو كان هذا الطغيان طغيان امرأة لا احساس لها ، أي أشـد أنواع الطغيان والاستبداد اهانةً وقسوة على وجه هذه الارض . أظن أيها السيد أنك سمحت لنفسك منذ برهة أن تبتسم ! آه ... انك لا تصدق أنني قادر على أن أجد في نفسي قدرا كافيا من القوة الروحية لأمضي أنهي أيامي لدى تاجر من التجار معلما لأولاده ، أو أهلك جوعا تحت سـياج من الأسيجة . أجبني ، أجبني فورا : أأنت تصدق هذا أم لا تصدقه ؟

لزمت الصمت . حتى لقد تظاهرت بالتردد كأنني أخشى أن أجرح شعوره بجواب بالنفي مع عجزي عن أن أعزم أمري على أن أجيبه بنعم . لقد كان في وضعه الحانق الساخط شيء يؤذي كرامتي ، لا من الناحيـة الشخصية ، لا ، لا ... لكنني سأشرح شعوري فيما بعد .

اصفر وجهه . ثم قال بلهجة الصقيع تلك التي تسبق في العـادة انفجارا رهيبا :

ــ لعلك تعبت مني يا « ج ... ف » (ذلك هو اسمي) ، فأصبحت تريد أن لا تأتي اليّ .

فنهضت فجأة وقد انتابني ذعر شديد . ولكن في تلك اللحظة نفسها دخلت ناستاسيا ، ومدّت الى ستيفان تروفيموفتش ، دون أن تقول كلمـة واحدة ، مدت اليه ورقة هي رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص . فألقى على الرسالة نظرة ، ورشقها اليّ من فوق المائدة : كانت الورقة لا تضم الا هذه الكلمات بخط فرفارا بتروفنا : « ابق في البيت » .

تناول ستيفان تروفيموفتش عصاه وقبعته دون أن ينطق بحـرف ، وخرج من الغرفة مسرعاً ، فتبعته آلياً . ودوت في الدهليز على حين فجأة أصـوات وضجات . فتوقف ستيفان تروفيموفتش كأن صاعقـة قد نزلت عليه . وقال هامسا وهو يمسك ذراعي :

ـ هذا ليبوتين . لقد هلكت .

وفي تلك اللحظة نفسها دخل ليبوتين الغرفة .

٤

أما كيف يمكن أن « تهلكه » زيارة ليبوتين ، فهـــذا ما أجهله . والحق انني لم أقم وزناً كبيراً لهـــــذه العبارة التي نسبتها الى اضطراب أعصابه . غير أن رعبه كان غريبا ، فآليت على نفسي أن ألاحظه عن كثب .

ان مجرد مظهر ليبوتين ، حين دخل ، كان يدل دلالة واضحة على أن من حقه في هذه المرة أن يلج المنزل رغم جميع الاوامر . وكان في صحبته سيد لا أعرفه ، لعله وصل الى مدينتنا منذ مدة قصيرة .

رد ليبوتين على النظرة المبهوتة التي رآها في ستيفان تروفيموفتش بأن صاح على الفور قائلاً :

ـ جئتك بزائر ، بزائر فذ . أبحت لنفسي أن أعكّر عليك صـــفو عزلتك . السيد كيريلوف ، مهندس مدني مرموق . وهو يعرف ابنـــك خاصةً ، ابنك المحترم جدا بطرس ستيفانوفتش . انه يعرفه معرفة حميمة وهو مكلف بابلاغك رسالةً منه . لقد وصل منذ قليل .

قال الزائر يخاطب ليبوتين بلهجة جافة :

ـ أما فيما يتعلق بالرسالة فأنت الذي أضفت هذا . ليس هنـاك أية رسالة . لكنني أعرف فرخوفنسكي فعلاً . لقد تركته في مقاطعة س ... منذ عشرة أيام .

مدّ اليه ستيفان تروفيموفتش يده آلياً ، وأومأ الى مقعد يسـألـه أن يجلس عليه . ثم نظر اليّ ، ونظر الى ليبوتين ؛ وكأنما ثاب الى رشــــده فجاة ، فاذا هو يسارع الى الجلوس هو أيضا ، دون أن يلاحظ أنه مايزال حاملا عصاه وقبعته بيده .

ـ ها ... كنت تتأهب للخروج ! ولكن قيل لى أن صحتك متوعكة من فرط العمل .

ـ نعم ، انني مريض قليلاً . وكنت أريد أن أخرج للنزهة ... انني ...

وانقطع ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة ، وأسرع يرمى عصاه وقبعته ، واحمر وجهه .

وكنت أرقب الزائر في أثناء ذلك . انه شاب في نحـــو السابعـــة والعشرين من العمر ، حسن الهندام ، أسمر ، نحيل ، ممشوق . وجهه شاحب أغبر ، وعيناه سوداوان كابيتان . وهو حالم الهيئة ذاهل ؛ كلامه موجز مقطّع ؛ لا يهمه كثيرا أن يلتزم قواعد النحو ، فهو يبدل ترتيب الكلمات في الجملة تبديلاً غريبا . ومتى كان عليه أن ينطق بجمـــلة طويلة بعض الطول ، رأيته يرتبك .

لاحظ ليبوتين ، بوضوح كامل ، الاضطراب الشديد الذى اعترى ستيفان تروفيموفتش ، وكان واضحا أنه سُرَّ به سرورا عظيما ، واغتبط له اغتباطا كبيرا . وقد جلس على كرسى من قش جره الى وسط الغرفة تقريبا ليكون على مسافة واحدة من صاحب البيت والزائر . وكان هـذان قد جلسا على ديوانين يقابل أحدهما الآخر . ان عينيـه النافذتين الثاقبتين تتحركان الى جميع الجهات تفتشان كل ركن من الاركان بفضول شديد.

قال ستيفان تروفيموفتش بجهد شاق :

ـ منذ زمن طويل ... لم أرَ بتروشا ... هل لقيته فى الخارج ؟

ـ هنا وفى الخارج .

تدخل ليبوتين فى الكلام فقال :

ـ ان الكسى نيلتش يعود الآن من الخارج بعد غياب دام أربع سنين.

لقد سافر من أجل أن يعمِّق اختصاصه الهندسي ، وهو يعود آملاً ـ وهذا أمل في محلِّه ـ أن يشارك في بناء الجسر الذي ننوي بناءه لسكتنا الحديدية . وقد عرف آل دروزدوف ، ولا سيما ليزافتا نيقولايفنا ، بواسطة بطرس ستيفانوفتش .

كان المهندس جالسا ، متجهم الهيئة ، يصغي بنوع من الضيق والتبرم والتململ . كان يبدو عليه أنه غاضب من شيء ما .

ـ وهو يعرف أيضا نيقولاي فسيفولودوفتش .

قال ستيفان تروفيموفتش سائلاً :

ـ حقاً ؟

ـ نعم ، أعرفه أيضا .

ـ منذ زمن طويل ... طويل جدا ... لم أرَ بتروشا ... وفي اعتقادي انني لا أستحق كثيرا اسم الأب ... « وهذه هي الكلمة » (بالفرنسية) ... على أي حال تركته ؟

أجاب كيريلوف متململاً وهو يرغب رغبةً واضحة في انهاء الحديث :

ـ سوف يجيء بنفسه قريبا .

ان كيريلوف زعلان حتما .

ـ آ ... سيجيء قريبا ! آه ... أخيرا .. انني منذ مدة طويلة جداً لم أرَ بتروشا .

كذلك كرر ستيفان تروفيموفتش عاجزاً عن الخروج من هذه الجملة . ثم أضاف يقول :

ـ انني أنتظر ابني المسكين .. الذي أشعر نحوه .. نعم ... أشعر نحوه بأنني آثم في حقه كثيرا . أقصد ... حين تركته ببطرسبرج ،

كنت ... الخلاصة : كنت أعده تافهاً لا قيمة له البتة ... « شيء من هذا القبيل » (بالفرنسية) • كان طفلاً عصبيا جدا ، حساسا ، خوّافا • كان قبل أن ينام يصلي ساجدا أمام الأيقونة ، ويرسم اشــارة الصــليب على وسادته ، مخافة أن يموت في الليل • « أذكر هذا » (بالفرنسية) • لم يكن يملك أي احساس بالجمال ، بالروعة ؛ لم تكن نفسه تضم أية بذرة لفكرة عظيمة ما ... « كان كأبله صغير » (بالفرنسية) • ولكن يخيــّل الىّ أنني أرتبك وأخلط ... معذرة ... لقد فاجأتموني في اللحظة التي ...

سأله المهندس مهتماً على حين فجأة :

ـ كان يرسم اشارة الصليب على وسادته حقا ؟

ـ نعم •

ـ أردت أن أستعلم • أكمل •

نظر ستيفان تروفيموفتش الى ليبوتين سائلا • ثم قال :

ـ أشكر لك زيارتك كثيرا ، ولكنني في هذه اللحظة لست في حالة يمكنني فيها أن ... ولكن هل تأذن لي بمعرفة عنوانك ؟

ـ شارع ابيفانيا ، عمارة فيلبيوف •

قلت على غير ارادة مني :

ـ آ ... وهناك أيضا يسكن شاتوف •

فهتف ليبوتين يقول :

ـ تماما• في العمارة نفسها• شاتوف يشغل الطابق الصغير الاوسط• أما السيد كيريلوف فقد أقام تحت ، عند الكابتن ليبادكين • انه يعــــرف شاتوف أيضا ، ويعرف زوجته • عرفها في الخارج عن كثب •

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل منقادا لعاطفته :



كريلوف

ـ كيف ! (بالفرنسية) ... اذن أنت تعرف شيئا عن ذلك الزواج التعيس الذى وقع فيه « هذا الصديق المسكين » (بالفرنسية) ! انك أول واحد بين أصحابنا يعرف هذه المرأة شخصيا ، فلو ...

فقال المهندس جازما قاطعا وقد احمر احمرارا شديدا :

ـ ما هذه السخافة يا ليبوتين ؟ لماذا تضخّم دائما مايقـال لك ؟ أنا لا أعرف زوجة شاتوف أبدا ؟ لم أرها الا مرة واحدة ، وقد رأيتها من بعدٍ لا من قرب . أما شاتوف فأعرفه . لماذا توشّي الكلام دائماً ؟

واضطرب على ديوانه ، وتناول قبعته ، ثم ردّها الى مكانها ؛ حتى اذا عاد يجلس أخذ يحدّق الى ستيفان تروفيموفتش بنوع من التحـدى يسطع فى عينيه السـوداوين اللتين اشـتعلتا فجأة . لم أسـتطع أن أفهم سبب حنقه .

أجاب ستيفان تروفيموفتش يقول بلهجة ذات دلالة :

ـ معذرةً . لعل الامر حساس جدا ...

ـ بتاتا . ولكن هذا مخجل حقا ! اننى لم أتجه بكلامى اليك حين قلت « ما هذه السخافة » ؟ وانما توجهت بكلامى الى ليبوتين . لماذا يبالـغ دائما ؟ اذا كنتَ ظننت أنك كنت المقصود بصيحتى ، فمعذرة ! اننى أعرف شاتوف ، ولكننى لا أعرف زوجته البتة ... البتة ! ...

ـ فهمت ، فهمت . ولئن ألححت ، فلأننى أحب كثيرا صديقنـا ، « صديقنا النزق » (بالفرنسية) ، وقد اهتممت دائما ب ... فى رأيى أن هذا الرجل قد غيَّر ، بشىء من المباغتة والمفاجأة ، أفكاره السابقة التى قد تكون فتية كثيرا ولكنها مع ذلك صادقة صحيحة . وهو ينطق الآن بأقوال شاذة عن « روسيا المقدسة » (بالفرنسية) ... أقوال تبلغ من الغرابة اننى أصبحت منذ مدة طويلة لا أعزو هذا التغير فى بنية جسمه ـ هـذا هـو التعبير الذى لا تعبير سواه ـ الى الأزمة التى طرأت على حياته العائلية ، أو

قل الأزمة التى أصابت زواجه التعيس . أنا الذى أعرف بلدى روسيا كما أعرف أصابع يدى ، والذى وهبت للشعب الروسى حياتى كلها ، أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يعرف الشعب الروسى ، وأنه عدا ذلك ...

قال المهندس مقاطعا وهو يتحرك على ديوانه من جديد :

ـ أنا أيضا لا أعرف الشعب الروسى ... ليس فى وقتى متسع لدراسته ...

فلم يحر ستيفان تروفيموفتش جوابا ، وانقطعت سلسلة حديثه .

قال ليوتين مقاطعا :

ـ بلى ! انه يدرسه ، أؤكد لك أنه يدرس الشعب الروسى . حتى انه يهيىء مقالة شائقة جداً عن تزايد عدد الانتحارات فى روسيا ، وبوجه عام ، عن الاسباب التى تسهّل أو تقلل عدد الانتحارات . وقد وصل الى نتائج باهرة .

احتد كيريلوف ، وهمهم يقول غاضبا :

ـ ليس من حقك أن تقول هذا . أنا لا أهيىء مقالة ، ولا تخطر ببالى سخافة من هذه السخافات .وانما أنا حدثتك فى هذا الموضوع عرضاً . ليس الأمر أمر مقالة ... أنا لا أنشر شيئا .. ليس من حقك أن تقول هذا الكلام .

سُرَّ ليوتين سرورا كبيرا واضحا كل الوضوح ، وقال :

ـ معذرة . لعلنى أخطأت حين أسميت عملك الأدبى مقالة . انه يكتفى بجمع ملاحظات ، ولا يمس جوهر المسألة ، أعنى جانبها الأخلاقى ان صح التعبير . حتى انه ينكر الاخلاق انكارا تاما ، وهو من أنصار المبدأ الجديد القائل بالتدمير الشامل فى سبيل تحقيق الانتصار الكامل

للأفكار السليمة . انه يطالب بقطع أكثر من مائة مليون رأس لاقامة النظام الصحيح في أوروبا ، وهو في هذا يتجاوز ما طُلب في مؤتمر السلام الذي عُقد أخيراً * . ان ألكسي نيلتش قد مضى في هذا المضمار الى أبعد مما مضى اليه أي انسان آخر .

كان المهندس يصغي وهو يبتسم ابتسامة صفراء فيها احتقار . ولزمنا الصمت جميعا خلال لحظات .

واستأنف كيريلوف كلامه أخيراً ، فقال بشيء من الرصانة :

ـ هذا كله غباء يا ليبوتين . اذا كنتُ قد رويت لك بعض الأمور عرضاً فاستوليت عليها ، فأنت حر تفعل ما تشاء . ولكن ليس من حقك أن ... لأنني لا أقول لأحد شيئاً في يوم من الأيام . انني أحتقر الكلام ... اذا كان للمرء اقتناعات ، فالأمر يكون واضحا . حماقةٌ ما فعلت ... أنا لا أناقش في مسائل هي عندي محلولة . انني أكره المناقشة ، ولا أجادل أبداً .

لم يستطع ستيفان تروفيموفتش الا أن يقول له :

ـ ولعلك تحسن بهذا صنعا .

تابع المهندس كلامه يقول بنوع من الحمى :

ـ انني أعتذر أمامك ، ولكنني لا أحقد على أحد هنا . أنا لم ألق الا قليلا من الناس . خلال أربع سنين لم أتكلم ، لم أتكلم الا قليلاً جداً . كنت أحاول أن لا أقابل أحدا ... نعم ... خلال أربع سنين . لست سريع التأذي ، لكن عدم تحرجه يزعجني .

وختم كلامه فجأة وهو يلقي علينا جميعا نظرة واثقة ، قائلا :

ـ اذا كنت لا أعرض عليكم أفكاري وآرائي ، فليس ذلك خوفا

من أن تشوا بي الى الحكومة ، أبدا . لا يذهبنّ بكم الظن الى شيء من هذا ، أرجوكم .

لم يجبه أحد منا عن هذه الكلمات . واكتفينا بأن تبادلنا نظرة سريعة . ليبوتين نفسه نسي أن يضحك ساخرا .

قال ستيفان تروفيموفتش بلهجة ثابتة وهو ينهض عن ديوانه :

ـ أنا آسف جدا أيها السادة ، ولكنني أشعر بأنني مريض . معذرة.

فهتف السيد كيريلوف يقول وهو يتناول قبعته :

ـ آ ... معنى هذا أن علينا أن ننصرف . أحسنتَ اذ قلت لي هذا. فأنا كثير النسيان .

قال ذلك ونهض فاقترب من ستيفان تروفيموفتش ومدّ اليه يده بحركة طلقة . وأضاف يقول :

ـ يؤسفني أنك مريض ، وأنني جئتك وأنت على هذه الحال ...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يصافحه هاشاً باشاً ، على مهل بدون تعجل :

ـ أتمنى لك كل النجاح عندنا . انني أفهم أن تنظر الينا ، نحن الروس الحقيقيين ، بشيء من الدهشة ، بعد أن عشت في الخارج مدة طويلة كما تقول ، معتزلاً الناس ، دون أن تفكر في روسيا . ومن الطبيعي جدا أن نحس نحن تجاهك هذا الاحساس نفسه . « ولكن ذلك سينقضي» (بالفرنسية) . ليس هناك الا شيء واحد يضايقني : انك تريد أن تساهم في بناء جسرنا ، وتعلن في الوقت نفسه انك من أنصار التدمير الشامل . فلن يعهدوا اليك ببناء جسرنا .

صاح كيريلوف يقول مشدوهاً :

ـ ماذا ؟ ماذا قلت ؟

وانفجر يطلق ضحكة مرحة صريحة على حين فجأة . لقد اتخذ وجهه تعبيرا طفوليا رأيته مناسبا له أروع مناسبة . وكان ليبوتين يفرك يديه مفتتنا بمزاحة ستيفان تروفيموفتش . أما أنا فلم أنقطع عن التساؤل لماذا خاف ستيفان تروفيموفتش من ليبوتين ذلك الخوف كله ، ولماذا صاح يقول حين رآه : « لقد هلكت » .

٥

كنا واقفين جميعا على عتبة الباب • انها اللحظة التي يتبادل فيها الزائرون والمزورون كلمات سريعة فيها كل الملاطفة والتودد قبل أن يفترقوا مسرورين •

وفجأة قال ليبوتين ، باهمال ، وهو يهم أن يخرج :

ـ اذا كان اليومَ متجهماً فلأنه تشاجر مع الكابتن ليبادكين بسبب أخت الكابتن • ان الكابتن ليبادكين يجلد بالسوط (ناجايكا) * كل يوم ، مساءً وصباحاً ، أخته الفاتنة المجنونة • حتى لقد قرر ألكسى نيلتش أن ينتقل الى جناح بقرب المنزل كى لا يشهد مناظر التعذيب هذه • هيّا ! الى اللقاء !

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل كأنما تلقى هو نفسه جلدةَ سوط •

ـ أخته ؟ مجنونة ؟ يجلدها بسوط ؟ أى أخت ؟ أى ليبادكين ؟

وعاد الرعب يستولى عليه من جديد •

قال ليبوتين :

ـ ليبادكين ؟ كابتن محال على التقاعد • وكان فى الماضى يقول انه كابتن مساعد •••

ـ ما شأنى ورتبته ؟ من هى أخته هذه ؟ يا الهى ! ••• أتقول ليبادكين ؟ ولكن لقد كان عندنا هنا فى الماضى رجل يقال له ليبادكين ، أليس كذلك ؟

ـ هو ذاته . هو « صاحبنا » ليبادكين نفسه . هل تتذكر ، عند فرجنسكي ؟

ـ ولكن ليبادكين ذاك قد سرّب أوراقا نقدية مزوّرة ، أليس كذلك ؟

ـ رجع . رجع مُنذ ثلاثة أسابيع ، في ظروف خاصة جدا .

ـ ولكنه وغد حقير .

ـ وهل مستحيل أن يوجد في مدينتنا وغد ؟

قال ليبوتين ذلك مبتسماً ، وكانت عيناه الصغيرتان الماكرتان كأنما تجسّان ستيفان تروفيموفتش .

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله ، يارب ! فيما يتعلق بالأوغاد أنا متفق معك كل الاتفاق ، متفق معك أنت . ولكن ماذا بعد ؟ ماذا بعد ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ لأن من المحقق أنك لم تتكلم عن ليبادكين بدون نية مبيتة ؟

ـ أوه ! ذلك كله لا قيمة له ! ... أغلب الظن أن هذا الكابتن لم يتركنا بسبب الأوراق النقدية المزوّرة ، وانما ليقبض على أخته التي يقال انها كانت مختبئةً في مكان ما . وقد اقتادها الآن الى هنا . هذه هي القصة كلها . مالي أراك مرتاعا هذا الارتياع كله يا ستيفان تروفيموفتش ؟ على كل حال ، أنا لا أزيد الآن على أن أكرر ثرثراته وهو سكران . انه يحفظ لسانه حين لا يشرب . هو انسان شرس ، وفاسد الذوق جدا ، رغم انه يصطنع مظهر عسكري راق . أما أخته فهي مجنونة ، وهي فوق هذا عرجاء . يظهر أن أحداً قد أغواها ، وأن السيد ليبادكين يتقاضى من الرجل الذي أغواها مبلغا من المال بانتظام منذ عدة سنين ، تعويضا عن الاساءة التي أُلحقت بشرفه العائلي . ذلك هو ، على كل حال ، ما يستخرجه المرء من ثرثرته . ولكنني أعتقد أن هذا الكلام كله ليس الا أقاويل سكير . فهو

لا يزيد على أن يتباهى . ان الشئون التي من هذا النوع لا تكلف مبالغ باهظة الى هذا الحد . ولكن لاشك في أن معه مالاً : فمنذ ستة أسابيع كان حافي القدمين ، والآن أرى في يديه بعيني أوراقاً نقدية من فئة المائة روبل . ان الأخت تصاب كل يوم تقريبا بنوبات لا أدرى ما هي . فهي تطلق صرخات حادة ، فيقوم لها فيجلدها بالسوط تأديبا ، وهو يقول : يجب أن تُعلَّم النساء الاحترام . انني لا أفهم حقاً كيف يحتمل شاتوف هذا الامر ، فيبقى مقيما في هذا المنزل . لقد ضاق ألكسى نيلتش ذرعا بعد اقامته ثلاثة أيام فحسب ، فانتقل الى الجناح المجاور هرباً من الضجة . هو يعرفهم منذ كان ببطرسبرج .

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل المهندس :

ـ هل صحيح هذا كله ؟

فجمجم كيريلوف يقول غاضبا غضبا شديدا :

ـ أنت تثرثر كثيرا جدا يا ليبوتين .

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أصبح عاجزا عن السيطرة على نفسه :

ـ دائما أسرار وألغاز ! ما هذه الأسرار والألغاز كلها التي تنبجس من حولنا !

قطب المهندس حاجبيه ، واحمر وجهه ، ورفع منكبيه ، واتجه نحو الباب .

قال ليبوتين مضيفا :

ـ حتى ان ليبوتين انتزع من بين يديه السوط ، ثم حطمه ورماه من النافذة . لقد تشاجرا تشاجرا قويا في هذه المناسبة .

قال ليبوتين وهو يستدير فجأة :

ـ لماذا تروى هذه الأمور كلها يا ليبوتين ؟ ما حاجتـك الى ذلك ؟ لمـــاذا ؟

ـ ولماذا أكتم بالتواضع الهزات النبيلة التى قامت فى نفسه ؟ أقصـد تواضعك أنت ، لا تواضعى أنا .

ـ ما أغبى هذا كله ! وما أقل جدواه وفائدته ! ان ليبادكين غبى ، وحقير ، ولا حيلة لنا فى الامر ... بل انه ضار ! لماذا تهذر هذا الهــــذر كله ؟ أنا ذاهب .

هتف ليبوتين يقول وهو يبتسم ابتسامة ساذجة :

ـ آه ... خسارة ! كنت أريد أن أسلـّيك ياستيفان تروفيموفتش، بأن أقص عليك حكاية أخرى صغيرة . حتى لقد كان هذا هدف زيارتى. ولكن أغلب الظن أنك سمعتها . فالى المرة القـــادمة : ان ألكسى نيلتش مستعجل جدا . الى اللقاء . تلك القصة الصغيرة تتعلق بفرفارا بتروفنا . لقد سلـّتنى كثيراً أمس . استدعتنى خصيصاً . شىء يفطّس من الضحك! الى اللقاء .

ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يشأ عندئذ أن يدعه . فأمسك كتفيه، وأداره ، وأعاده الى الغرفة ، وأجلسه على كرسى . حتى لقد خاف ليبوتين قليلاً .

بدأ ليبوتين يتكلم فقال وهو يلقى على ستيفان تروفيموفتش نظـــرة محاذرة :

ـ لقد استدعتنى ذات يوم ، وسألتنى أن « أُسرّ اليها » برأيى فى نيقولاى فسيفولودوفتش : أهـــو سليم العقل أم لا ؟ أليس هـــذا مثيراً للدهشة ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول :

ـ أنت مجنون !

ثم اذا هو ينفجر قائلاً :

ـ أنت تعلم جيداً يا ليبوتين أنك لم تجيء الا لتقص عليّ قصة دنيئة من هذا النوع ••• أو أسوأ من ذلك •••

سرعان ما تذكرت الشبهات القائمة في ذهن ستيفان تروفيموفتش ، وهي أن ليبوتين يعرف من أمرنا أكثر مما نعرف ، بل ويعرف أمورا لن نعرفها نحن في يوم من الايام •

جمجم ليبوتين يقول مصطنعا الرعب :

ـ رحماك يا ستيفان تروفيموفتش • ما هذا الذى تقول ؟

ـ كفى ! قل كل شيء • أرجوك ملحاً ياسيد كيريلوف أن تعـود فتشهد حديثنـا • أرجوك ! اجلس • والآن ابدأ يا ليبـوتين ، هيّـا ، وبلا تمهيد !

ـ لو كنت أعلم أن الامر سيفجؤك الى هذا الحـد ، لما قلت شيئا • لكنني كنت أتخيل أن فرفارا بتروفنا لا بد أن تكون قد أطلعتك على كل شيء •

ـ أنت تعلم تماما أن لا شيء من هذا البتة • هيا ابدأ !

ـ ولكن اجلس أنت أيضا ، أرجوك • لو بقيت أنا جالسا وبقيت أنت تجرى في الغرفة ثائر الاعصاب ، فسوف أرتبك •••

سيطر ستيفان تروفيموفتش على نفسه وجلس برصانة على مقعد • وأطرق المهندس الى الارض عابس الوجه . وكان ليبوتين ينظر اليهمـا كليهما بتلذذ كبير •

ـ كيف أتكلم الآن ؟ انني أشعر باضطراب شديد ••

٦

ـ أمس الاول زارني خادم من عند فرفارا بتروفنا وقال لى : « ان مولاتى تطلب منك تجىء اليها غدا فى الظهر » تخيل هذا ! تركت جميع مشاغلى ؛ وفي الظهر كنت أقرع بابها . أُدخلت الى الصالون . وظهرت هى بعد دقيقة ، فأجلستنى ، وجلست قبالتى . لم أصدّق عينىّ . أنت تعلم كيف كانت تعاملنى دائما . قالت لى : « انك تتــذكر أن نيقولاى فسيفولودوفتش قد ارتكب ، منذ أربع سنين ، بضعة أعمال غريبة أدهشت جميع الناس ، الى اليوم الذى اتضح فيه كل شىء . ان أحد تلك الاعمال قد تناولك أنت شخصيا . وما ان أبلّ نيقولاى فسيفولودوفتش من مرضه حتى ذهب يزورك تلبيةً لرغبتى . وانى لأعلم من جهة أخرى أن أحاديث كثيرة كانت قد جرت بينكما من قبل . فقل لى اذن بصراحة ، بصدق كامل ، ماذا كان ... (هنا اضطربتْ قليلا) ... ماذا كان رأيك عنـدئذ فى نيقولاى فسيفولودوفتش ؟ ... ماذا قام فى ذهنك عندئذ عنه ؟ ... وما رأيك فيه الآن ؟ ... » .

هنا اضطربتْ اضطراباً كاملاً ، حتى لقد بلغت من الاضطراب أنها صمتت دقيقة كاملة واحمرت ، وانتابنى أنا من ذلك رعب . ثم استأنفت كلامها فقالت بلهجة لا أصفها بأنها مؤثرة (فهــذا الوصف لا يناسبها) وانما أصفها بأنها ذات دلالة . قالت :

« أريد أن تفهم عنى جيدا ، وأن لا يقوم بيننا أى سوء تفاهم . لقد استدعيتك لأننى أعدك رجلاً حصيف الرأى ذكيـــا قادرا على أن ترى الأمور كما هى . وانك لتدرك أيضا أن أمّاً هى التى تتوجه اليك وتعتمد

عليك (انظر الى هذه الملاطفات والمجاملات !). ان نيقولاى فسيفولودفتش قد قاسى أثناء حيـــاته من بعض المصائب ، وعـــرفت حياته أنواعا من الاضطرابات . فمن الجائز أن يكون هذا قد أثر في حالته النفسية . أنا لا أتحدث عن جنون طبعا . فالامر لا يمكن أن يكون جنونا (قالت ذلك بقوة وكبرياء) . ولكن لعل فيه شيئا من الشذوذ في الآراء والتفرد في الافكار ، لعل له ميلاً غريبا الى مواجهة الامور من زاوية خاصـــة والى رؤية الأشياء رؤية فريدة . (هذه هي أقوال فرفارا بتروفنا بألفاظها ، ولم يسعني الا أن أُدهش ياستيفان تروفيموفتش من وضوح شروحها !) .

وقد لاحظت فيه أنا نفسي اضطرابا مستمرا وميولا غريبة . ولكنني أمه ، أما أنت فغريب عنه . لذلك أتوسل اليك (نعم ، هذا بعينه هو ما قالته : « أتوسل اليك ») أن تقول لي الحقيقة كلهـــا دون أي تكلف . واذا وعدتني عدا ذلك بأن لا تنسى أن حديثي اليك سر ما ينبغي أن تبوح به لأحد ، كان في وسعك أن تكون على يقين من أنني سأكون مستعدة لأن أبرهن لك على امتناني وشكري متى سنحت المناسبة » . فما رأيك ؟

قال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً :

ـ اني قد بلغت من الاندهاش انني لا أصدقك .

قال ليبوتين وكأنه لم يسمع جملة ستيفان تروفيموفتش :

ـ لا ، ولكن لاحظ مدى الانفعال الذي لا بد أنه كان يهز نفســها ومدى التعلق الذي لا بد أنه كان يعذبها حتى تتنازل فترضى أن توجــه سؤالا كهذا السؤال الى رجل مثلي ، وتتواضع فتقبل أن تطلب السر مني أنا . ما معنى هذا ؟ أتراها تلقت أنباء جديدة عن نيقولاى فسيفولودفتش ؟

ـ لا أدرى ... لا أنباء ... انني لم أرها منذ بضعة أيام .

نطق ستيفان تروفيموفتش بذلك ثم جمجم يقول ، وكان واضحا أنه أصبح في تلك اللحظة عاجزا عن ترتيب أفكاره :

ـ ولكنني ألفت نظرك يا ليبوتين ... نعم ... ألفت نظرك الى أنها أفضت اليك بهذا سراً من الأسرار ، ثم هأنت ذا تقصه علينا جميعا ...

ـ نعم ، أفضت اليّ سراً من الأسرار ! ولكن ألا فليُنزل عليّ الله صاعقةً في هذه اللحظة نفسها اذا كنت قد ... أما ما قلته الآن هنا فلا قيمة له . لقد قلته بيننا ، وليس ألكسى نيلتش غريبا .

ـ لا أشاركك رأيك . ان بيننا ثلاثة سيحفظون السر حتما ، لكنني أخشى الرابع وهو أنت . انني لا أثق بك أية ثقة .

قال ليبوتين :

ـ ما هذا الذي تقول ؟ انني أحرص من أي واحد آخر على كتمان السر ، لأنني وُعدت بأن أكافأ الى الأبد . ولكنني في هذه المناسبة أريد أن أشير لك الى واقعة شائقة الى أبعد حد ، شائقة من الناحية السيكولوجية . في مساء أمس، أنا تحت تأثير الحديث الذي جرى بيني وبين فرفارا بتروفنا (تستطيع بسهولة أن تتصور الانطباع الذي خلّفه ذلك الحديث في نفسي) سبرت غور ألكسى نيلتش على نحو خفي قائلا له : انك قد عرفت نيقولاى فسيفولودوفتش في الخارج وفي بطرسبرج . فما رأيك في ذكائه وفي قدراته ؟ فأجابني ألكسى نيلتش بايجاز : هو رجل مرهف الذكاء سديد الرأى . فسألته : ألم تلاحظ فيه مع ذلك شيئا من ميلٍ غريب شاذ في أفكاره ، ألم تلاحظ فيه نوعا من تفكير خاص ، أو قل على الجملة ضربا من جنون ؟ أى كررت السؤال التي كانت فرفارا بتروفنا قد ألقته عليّ . فتصور ! لقد شرد ذهن ألكسى نيلتش لحظة ، وقطب حاجبيه كما يقطبهما الآن تماما ، ثم قال : نعم ، لقد بدا لى غريب الاطوار أحيانا . فكر : اذا

بدت بعض الاشياء غريبة عجيبة حتى لألكسى نيلتش ، فما عسى أن يكون الامر في الواقع ؟

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل كيريلوف :

ـ أهذا صحيح ؟

فأجاب ألكسى نيلتش فجأة رافعا رأسه وقد سطعت عيناه :

ـ أفضّل أن لا أتكلم في هذا . ليس لك حق يا ليبوتين . لايجوز لك أن تذكر هذه الحادثة . انني لم أعبر عن رأيي كله أبدا . لقد عرفتُ نيقولاى فسيفولودوفتش في بطرسبرج ، ولكن منذ زمن بعيد ، ورغم أنني التقيت به الآن من جديد ، فانني لا أعرفه الا قليلاً جدا . وان كلامك كله يشبه أن يكون نمائم .

رفع ليبوتين ذراعيه الى السماء كأنما يستشهدها على براءته التي طعن فيها صاحبه ، وقال :

ـ أنا نمام ؟ ولماذا لا أكون جاسوسا كذلك ؟ سهلٌ عليك أن تنتقد الآخرين يا ألكسى نيلتش بعد أن سحبت يدك من الامر ، وتنصلت ! لعلك لن تصدق ما سأقوله لك الآن ياستيفان تروفيموفتش ، ولكن اسمعه : ان الكابتن لبيادكين ـ وأنت تعلم أنه غبي مثل ... لا أجرؤ أن أنطق بالكلمة ولكنك تعرف المثل الروسى* ـ أقول ان الكابتن لبيادكين ، رغم أنه يُجل ذكاء نيقولاى فسيفولودوفتش ، يرى أن هذا الشاب قد اعتدى عليه وأساء اليه . وهو يقول : « هذا الرجل يذهلنى : انه افعوان بارع كل البراعة » (هذه ألفاظه نفسها) . وهأنا ذا أسأله (وكنت ما أزال تحت تأثير لقائى مع فرفارا بتروفنا ، بعد حديثى مع نيقـــولاى نيلتش) : « ما رأيك في صاحبك الذى تصفه بأنه أفعوان بارع كل البراعة ، أليس مجنوناً ؟ » ، فكأننى بهذا السؤال قد لسعته بسوط ، فاذا هو يثب قائلا : « نعم ، نعم ،

ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر ... » أن يؤثر في ماذا ؟ انه لم يكمل جملته • ثم غرق في نوع من أحلام كئيبة مظلمة حتى أن سكره تبدد أخيرا • كنا في الحانة ، عند فيليبوف • وبعد نصف ساعة ، ضرب المائدة بقبضة يده فجأة وهتف يقول : « نعم ، جائز جدا أنه مجنون . ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر ... » . وصمت مرةً أخرى فلم يكمل جملته • لست لست أنقل اليك طبعا الا الشيء الأساسي من الحديث الذي جرى بيننا • ولكن الامر واضح وضوحا تاما : اسأل من شئت من الناس يجبك هذا الجواب نفسه ، حتى أولئك الذين لم يسبق أن خطرت لهم هذه الفكرة على بال : « نعم ، هو مجنون • انه ذكي جدا ، ولكن من الجائز أيضا أن يكون مجنونا • » .

كان ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن يفكر في شيء ما تفكيراً عميقا •

ـ وكيف علم ليادكين ؟

ـ عن هذا اسأل ألكسي نيلتش الذي وصفني منذ هنيهة بأنني جاسوس • أنا جاسوس ، ولكنني لا أعرف شيئاً ، أما ألكسي نيلتش فانه يعرف كل شيء ويسكت •

أجاب المهندس قائلاً بتلك اللهجة الغاضبة نفسها :

ـ لا أعرف شيئاً ، أو لا أعرف شيئاً ذا بال • انك تُسكر ليادكين لتحمله على أن يثرثر • وقد جئتَ بي أنا الى هنا لأتكلم فأنت اذن جاسوس .

ـ أنا لم أسقه بعد ، ثم انه هو وأسراره كلها لا يساويان في رأيي ثمن الشراب • لا أدرى ما قيمة هذه الأسرار عندك ، أما عندي أنا فليس لها أية قيمة • بالعكس : انه هو الذي يبدد المال الآن ، بعد أن كان منذ

اثنى عشر يومايتضرع الىّ أن أعطيه خمسين كوبكاً . انه هو الذى يسقينى الآن شمبانيا . ولكنك تلهمنى فكرة طيبة : سوف أُسكره اذا احتاج الأمر، من أجل أن أعرف الحقيقة . ومن الجائز جدا أن أكتشف حينذاك ... جميع أسرارك الصغيرة .

كذلك أجاب ليبوتين فجأة بلهجة شرسة .

كان ستيفان تروفيموفتش يتأمل الخصمين متحيراً كل التحير . انهما يفضحان نفسيهما ؟ وأكثر من ذلك انهما لا يحاولان حتى اخفاء ذلك . وسرعان ما خطر ببالى أن ليبوتين انما جاء بكيريلوف هذا لا لشىء الا أن يستدرجه الى حديث مع شخص ثالث فيحمله بذلك على الكلام ، وتلك كانت طريقته المفضَّلة .

وتابع ليبوتين كلامه فى حنق :

ـ ان ألكسى نيلتش يعرف نيقولاى فسيفولودفتش كل المعرفة ، لكنه يخفى ذلك . أما الكابتن ليبادكين فاننى أجيب عن سؤالك بأنه عـــرف نيقولاى فسيفولودوفتش ببطرسبرج ، قبلنا جميعا بمدة طويلة ، منذ خمس سنين أو ست ، أثناء تلك الفترة الغامضة من حياة نيقولاى ، ان جاز هـذا التعبير ، أى حين كان نيقولاى لا يخطر بباله أن يشرفنا بزيارته. يجب أن نعتقد أن أميرنا كان فى ذلك الحين يحيط نفسه بأناس عجيبين . وفى ذلك الحين ، فيما أظن ، انما انعقدت الصلة بينه وبين ألكسى نيلتش .

ـ حذار يا ليبوتين . اننى أنبِّهك الى أن نيقولاى فسيفولودوفتش قادم الى هنا بنفسه قريبا ، وهو رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه .

ـ ما شأنى أنا ؟ اننى أول من يصيح قائلا فى كل مكان انه من أرهف الناس ذكاء وأكثرهم ثقافة ، حتى لقد طمأنت فرفارا بتروفنا تماما من هذه الناحية ، وأضفت أقـــول لها : « لكننى لا أستطيع أن أجيب بشىء عـــن

طبعه » ؟ وليبادكين يرى هذا الرأي نفسه . لقد قال لي : « ان طبعه هـو ما عانيت منه وكنت ضحيته . » . آه ياستيفان تروفيموفتش ! سهلٌ عليك أن تتهمني بأنني نمام وجاسوس بعد أن استخرجت مني كل شيء بكثير من الاستطلاع والفضول . لقد استطاعت فرفارا بتروفنا أن تضع اصبعها على النقطة الحساسة فقالت : « انني أتوجه اليك لأن الأمر يهمك شخصياً » نعم ، أعتقد أن الأمر يهمني ! لا داعي الى البحث عن بواعث أخـرى ، ما دام قد أهانني اهانةً شخصية اضطررت أن أبلعها أمام المجتمع كله . يبدو لي اذن انني كنت أهتم فلأسباب هامة جدا ، لا حباً بالنميمة والتقول . هو اليوم يصافحك ، ثم اذا به في الغد ، اذا استبدت به النزوة، يشكر لك حسن ضيافتك وكرمك بأن يصفعك على وجهك أمام مجتمع محترم . وما ذلك كله الا لأنه يشعر بسأم وضجر ولا يعرف ماذا يفعل بقواه . على أن الامر الاساسي عند أمثال هؤلاء الناس انما هـو النساء . انهم فراش ، انهم ديكة ، يطير أحدهم من واحدة الى أخـرى بأجنحة صغيرة كأجنحة عشاق الأساطير القـديمة . سهل عليـك ياسـتيفان تروفيموفتش ، وأنت عازب قاسي القلب ، أن تدافع عن « معاليـه » وأن تصفني بأنني نمام . ولكن اذا تزوجت امرأة شابة وجميلة ـ وذلك أمر قد يحدث طبعا ، لأنك ماتزال رجلاً جميلاً ـ فمن الجائز أن توصد بابك بمزلاج في وجه أميرنا ، وأن تقيم حول بيتك أسوارا . سأقول لك بصراحة : ان هذه الآنسة ليبادكين التي تُجلد بالسـوط ، لو لم تكن مجنونة وعرجاء لاعتقدت أنها كانت ضحية أهواء أميرنا وأن هـذه هي الاهانة التي أُلحقت « بالشرف العائلي » لليبادكين ، على حد تعبير الكابتن نفسه. صحيح أن الذوق المرهف لدى «معاليه» يتعارض مع هذا الافتراض ولكن ... هه .. ما أظن أن هذ اما يمكن يصدٌ ! ان جميع الثمـار تطيب له متى كان مهيأ النفس لاقتطافها . أنت تقول انني أذيع نمائم كاذبة.

فاعلم اذن أن المدينة كلها لا حديث لها الآن الا فى هذا الموضوع • وأنا أكتفى بأن أسمع وأؤيد • أظن أن التأييد غير محظور !

ـ المدينة كلها تتحدث فى الموضوع ؟ فى أى موضوع ؟

ـ الأصح أن الكابتن ليبادكين هو الذى يعلن ذلك جهارا نهارا حين يسكر • ولكن الأمرين واحد • فأى ذنب أرتكب أنا ؟ أنا لا أتكلم فى الموضوع الا بين أصدقاء • ألسنا هنا أصدقاء على كل حال ؟

قال ليبوتين ذلك وهو ينظر الينا ببراءة . وتابع كلامه يقول :

ـ اليك الأمر : يظهر أن « معاليه » قد استودع بسويسرا آنسةً محترمة هى يتيمة يشرفنى اننى أعرفها ، استودعها ثلاثمائة روبل طالباً منها أن توصلها الى الكابتن ليبادكين • ثم عرف ليبادكين بعد فترة من الوقت ، عرف من شخص محترم هو أيضا ، جدير بالثقة اذن (ولن أسمِّى هذا الشخص) أن المبلغ الذى أُرسل اليه ليس ثلاثمائة روبل بل ألف روبل • وهاهو ذا ليبادكين يمضى يصرخ فى كل مكان أن الفتاة التى اؤتمنت على المال لتوصله اليه قد سرقت منه سبعمائة روبل ، بل ها هو ذا يريد أن يشكو الفتاة الى الشرطة • وقد هدَّدها بذلك على كل حال ، وأثار فضيحة فى المدينة كلها •

صاح المهندس قائلاً وهو ينهض على حين فجأة :

ـ هذه دناءة منك ، هذه دناءة !

ـ ولكنك أنت ذلك الشخص المحترم الجدير بالثقة الذى أبلغ ليبادكين ، نقلاً عن نيقولاى فسيفولودوفتش أن المبلغ ألف روبل لا ثلاثمائة . ان الكابتن هو الذى قال ذلك فى حالة سكر •

ـ هذا خطأ فى الفهم ••• خطأ مؤسف محزن •• لقد وقع خطأ ،

فنشأ عن ذلك الخطأ أن ... على كل حال ، لا قيمة لهذا كله . وتلك دناءة منك ! ...

ـ أريد أن أصدّق أن هذا كله لا قيمة له فعلاً ، وأنا حزين لتلك الشائعات كلها (ولك أن تقول عن كلامي ما تشاء) ، أولاً لأن فتاة محترمة قد أُقحمت في هذه القضية ، وثانياً لأن هذه الفتاة مقتنعة بأن بينها وبين نيقولاي فسيفولودفتش صلة حميمة . ان « معاليه » لن يتورع طبعا عن الاساءة الى سمعة فتاة نبيلة ، أو عن تلطيخ شرف زوجة رجل آخر ، كما حدث لي أنا ؟ واذا وقع على رجل ذي نفس سمحة كريمة ، فسيرتب أمره بحيث يجعل هذا الرجل يغطي باسمه المحترم خطايا غيره . ذلك بعينه هو ما حدث لي . انني أتكلم عن نفسي ...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض عن مقعده شاحبا كل الشحوب :

ـ حذار يا ليبوتين !

وصرخ المهندس يقول مضطربا :

ـ لا تصدّقه ، لا تصدقه ! ان أحداً قد أخطأ ، وليس ليبادكين الا سكيراً ! سوف يتضح كل شيء ... ولكنني لا أقدر الآن ... هذه دناءة ... كفى ! كفى ! ...

وأسرع يخرج من الغرفة .

فهتف ليبوتين يقول مدهوشاً :

ـ هيه ! ماذا تفعل ؟ انتظرني ! سأصحبك !

واندفع يركض وراء ألكسي نيلتش .

٧

لبث ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن لحظةً ، ثم نظر الىَّ ، ولكن دون أن يراني ان صح التعبير ، ثم تناول قبعته وعصاه وخرج من الغـرفة صامتا . فتبعته كما تبعته منذ برهة . حتى اذا صار عند باب المدخل لاحظ وجودي فقال :

ـ آ .. نعـم .. تسـتطيع أن تكون شـاهدا ... على « ما حدث ستصحبني ، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) .

ـ كيف يا ستيفان تروفيموفتش ؟ أتذهب الى هنـاك ؟ هلاَّ فكرت فيما قد ينجم عن ذلك ؟

فتوقف عندئذ ، وجمجم مبتسماً ابتسامةً زائغة تثير الشفقة ، ابتسامة خزي وعار ، وكمد ويأس ، ولكن فيها مع ذلك نوعاً من حماسة غريبـة فيما تراءى لي . قال :

ـ لا أستطيع أن أتزوج لأغطي « خطايا الغير » ...

كنت أتوقع هذه الكلمات . ها هو ذا يفصح لي أخيراً ، بعد اسبوع من التصعيرات والتلميحات ، ها هو ذا يكشف لي عن فكرته الخفية التي أخرجتني عن طوري ، فهتف أقول له :

ـ كيف يمكن أن تراودك فكرة تبلغ هذا المبلغ من القذارة ... وتبلغ هذا المبلغ من الخسة ، أن تراودك أنت يا ســتيفان فرخوفنسكي ، أنت الذي تملك كل ما تملكه من ذكاء واضح وقلب طيب ! ولقد راودتك هذه الفكرة حتى قبل زيارة ليبوتين ! فكيف يحدث هذا ؟ كيف ؟

نظر الىَّ دون أن ينطق بكلمة وتابع ســـيره . ولكننى لم أشأ أن أتركه . كنت أريد أن أشهد أمام فرفارا بتروفنا بما جرى . ولقد كان يمكن أن أغفر له ، بسبب ضعفه الذى يشبه ضعف النساء ، لو أن الفكرة التى ساورته قد جاءته من كلام ليبوتين ، ولكن كان واضحا الآن أنه فكر فى الأمر قبل زيارة ليبوتين بكثير ، وأن ليبـــوتين لم يزد على أن ثبَّت شكوكه وصبَّ على النار زيتاً . انه لم يتردد عن الاشتباه فى الفتاة منـــذ اليوم الاول ، ولم ينسب القرارات المستبدة التى اتخذتها فرفارا بتروفنـا الا الى رغبتها فى أن تغطى خطايا ابنها الحبيب نيقولاى بزواج محترم يتم بأقصى سرعة . وتمنيت لو يُعاقَب على هذه الفكرة .

بعد نحو مائة خطوة هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وهو يتوقف على حين فجأة :

ـ اللهم يا كريم يا رحيم ! أين لى من يهدىء قلبى ويدخل السكينة الى نفسى ؟

قلت له وأنا أديره الى وراء .

ـ لنرجع الى البيت ، وسأشرح لك كل شىء .

وهنا رنَّ فى مسمعنا صوت كالموسيقى ، صـــوت فتىٌّ مرحٌ ندى طرى يقول :

ـ انه هو ! ستيفان تروفيموفتش ؟ ألست هو ؟

لم نكن قد لاحظنا فتاةً على صهوة جواد قد توقفت بقربنا . انهـــا ليزافتا نيقولايفنا مع صاحبها الوفى .

ونادت تقول فى فرح :

ـ تعال ، تعال ، أسرع ! عرفته رغم اننى لم أره منـــذ اثنتى عشرة سنة ؛ وهو ... ألم تعرفنى حقاً ؟

تناول ستيفان تروفيموفتش اليد التى مدتها اليه الفتاة ، وقبّلهـــا باحترام . ونظر الى الفتاة كالمتعبد ، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة .

قالت :

ـ نعم ، عرفنى ، وهو سعيد . انه مسرور برؤيتى أعظـــم السرور يا مافريكى نيقولايفتش . أتكون هنا منذ خمسة عشر يوما ولا تزورنا ؟ كيف هذا ؟ كانت عمتى تؤكد لى أنك مريض ، وأنه ما يجب ازعاجك . لكننى كنت أعلم أنها تكذب . وكنت أتميز غيظا ، وأشتمك ، ولكننى كنت أحرص حرصا مطلقا على أن تكون أنت البــــادىء ، على أن تخطو أنت الخطوة الأولى . لذلك لم أرسل أحدا فى طلبك .

ثم قالت وهى تنحنى من على سرجها وتتأمله متفرسة :

ـ رباه ! انه لم يتغير البتة . حتى ليكاد يكون ذلك مضحكا . ولكن غضونا كثيرة توجد مع ذلك حول عينيه وعلى خديه ؟ كما أن شعره قـــد ابيض ... غير أن عينيه ما تزالان على عهدى بهما . وأنا ، هل تغيرت ؟ قل لى : هل تغيرت ؟ ولكن ما لى أراك صامتا لا تتكلم ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت كسّره الفرح :

ـ أنت ... لقد هتفت منذ لحظة قائلاً : « أين لى من يهدىء قلبى ويدخل السكينة الى نفسى ؟ ... » ثم اذا أنا أسمع صوتك ... اننى أعد هذا معجزة ، « وبدأت أؤمن » (بالفرنسية) .

ـ « بالله ؟ بالله العلى القدير الرحيم ؟ » (بالفرنسية) . أرأيت كيف اننى ما زلت أحفظ دروسك على ظهــر القلب . ليتـــك تعلم يا مافريكى نيقولايفتش كم كان يغرس فى نفسى الايمان « بالله العلى القدير الرحيم ! » (بالفرنسية) هل تتذكر أقاصيصك عن كريســـتوف كولومب واكتشاف أمريكا ، وكيف صرخوا جميعا يقولون : « أرض ! أرض ! » ؟ تقــول

خادمتي أليونا فرولوفنا انني حلمت في الليلة التالية ، فكنت أتكلم أثناء النوم بصوت عال صارخة « أرض ! أرض ! » . وهل تذكر كيف كنت تقص عليَّ قصة هاملت ؟ ثم كنت تشرح لي أيضا كيف كانوا ينقلون المهاجرين التعساء من أوروبا الى أمريكا . وكان كلامك غير صحيح . عرفتُ ذلك فيما بعد . ما كان أحلى كذبه يا مافريكي نيقولايفتش ! كان كذبه أحسن من الحقيقة ! ما بالك تتأمل في مافريكي نيقولايفتش هذا التأمل ؟ هذا أحسن انسان وأوفى انسان على وجه الارض ، ويجب عليك حتماً أن تحبه بقدر ماتحبني . « انه يفعل كل ما أريد » (بالفرنسية) . ولكن هأنت اذن شقي من جديد ياستيفان تروفيموفتش ما دمتُ قد سمعتك تصيح في الشارع : من لي بمن يهدىء قلبي ويدخل السكينة الى نفسي ؟ أأنت شقي ؟ قل !

ـ أنا الآن سعيد ...

ـ عمتي هي التي تعذبك ... هذه العمة السيئة ، الظالمة ، العزيزة مع ذلك ! هل تذكر كيف ارتميت بين ذراعي في الحديقة ، وكيف واسيتك فيما كنت تبكي ؟ لا تتحرج أمام مافريكي نيقولايفتش ! انه يعرف كل شيء عنك ، كل شيء تماما ، منذ مدة طويلة . في وسعك أن تبكي على كتفه ما اشتهى قلبك البكاء ، فيبقى واقفا لك في مكانه لا يتحرك ...ارفع قبعتك قليلا ، بل وانزعها تماما لحظة ، وقرِّب رأسك ، وتطاول على رءوس الأصابع ، لأقبِّل جبينك كما قبَّلتك في آخر مرة يوم افترقنا . انظر الى هذه الآنسة التي تنظر الينا معجبةً من النافذة ! هيَّا ! اقترب ! أيضا ! رباه ! ما أكثر ما ابيض شعره !

ومالت من على سرجها فقبَّلت جبينه .

ـ والآن ، عُد الى البيت ! أنا أعرف أين تقيم ، وسآتي اليك فوراً ،

بعد دقيقة . سأكون البادئة بزيارتك أيها العنيد ، ثم يكون عليك بعد ذلك أن تأتي الينا فتقضي عندنا نهارا بكامله . هيا ! استعد لاستقبالي !

ومضت تجري بحصانها في صحبة فارسها جرياً سريعاً . وعدنا الى البيت .

جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان ، وطفق يبكي . وهتف يقول :

ـ « يا رب ! يارب ! هذه أخيراً دقيقة من سعادة ! » (بالفرنسية) .

وبعد دقيقتين وصلت بارة بوعدها ، يصحبها مافريكي نيقولايفتش أيضا .

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض لاستقبالها :

ـ « أنت والسعادة تصلان في آن واحد » (بالفرنسية) .

قالت :

ـ هذه باقة أزهار لك ، أتيتك بها من عند مدام شوفاليه . ان عندها أزهارا طرية طوال الشتاء لأيام الأعياد وحفلات الميلاد . وهذا مافريكي نيقولايفتش . تعارفا ، أرجوكما ! خطر ببالي أن آتيك بقرص جاتوه بدلاً من باقة الأزهار ، ولكن مافريكي نيقولايفتش يؤكد أن هـــذا ليس من « الموضة » في روسيا .

ان مافريكي نيقولايفتش ، وهو كابتن في المدفعية ، يجب أن يكون في نحو الثالثة والثلاثين من العمر . انه رجل فارع القـــامة وسيم مهيب يوحي بالاحترام ، في وجهه رصانة تكاد تبدو في النظرة الأولى قسوة . غير أن المرء سرعان ما يلاحظ ، حين يعرفه ، أنه طيب القلب الى أقصى حد ، وأنه رقيق الشعور كل الرقة . وهو قليل الكلام ، يبدو مسيطرا على نفسه ، ولا يحاول أن يلتمس صداقة أحد . وقد قيل عنه فيما بعـــد انه

ليس على جانب كبير من الذكاء ، ولكن هذا القول ليس صحيحا كل الصحة .

لن أحاول أن أصف جمال ليزافتا نيقولايفنا التي كانت المدينة كلها قد أخذت تتكلم عن جمالها ، رغم احتجاج بعض سيداتنا وبعض آنساتنا . ان بعضهن يكرهن ليزافتا نيقولايفنا منذ الآن ، ويأخذن عليها كبرياءها قبل كل شيء : ان آل دروزدوف لمّا يزوروا أحداً بعدُ ، تقريبا ؛ فكان الناس في المدينة مستائين من ذلك ، رغم أن هذا التأخر ليس له من سبب غير سوء صحة براسكوفيا ايفانوفنا . وكنَّ يكرهنها أيضا لأنها قريبة زوجة الحاكم ؛ وكنَّ يكرهنها أخيراً لأنها تقوم بنزهة على الحصان في كل يوم . لم يكن أحد عندنا يرتدي لباس الأمازون بعد ، فكان طبيعيا أن يغتاظ مجتمعنا حين يرى ليزافتا نيقولايفنا تتنزه على الحصان ، رغم أنها لم تقم بزيارات بعد . وكان معروفا مع ذلك أن هذه النزهات انما نصحها بها الاطباء ، ولكن الناس كانوا يستغلون هذا لابداء ملاحظات لاذعة عن صحتها . والحق أن صحتها لم تكن جيدة ، حتى ان المرء يرى فيها منذ أول نظرة اليها نوعا من الاضطراب المرضي المستمر المتصل . وا حزناه ! لقد كانت الصغيرة المسكينة تقاسي كثيرا ، وقد اتضح كل شيء فيما بعد . الآن ، حين استحضر ذكريات الماضي ، لن أقول انها جميلة جمالا رائعا كما بدت لي حينذاك . ولعلها لم تكن جميلة البتة . انها طويلة ، نحيلة ، ولكنها مرنة قوية ، وهي تخطف البصر بما في خطوط وجهها من قلة الاتساق . عيناها تعلوان نحو الصدغين مواربتين . وهي الى ذلك هزيلة الجسم نائتة الوجنتين ، شاحبة اللون . غير أن في هذا الوجه كذلك شيئا يخلب اللب ويأسر القلب ؛ وثمة قوة عجيبة تنبع من عينيها الكحلاوين ، الحارتين . اذا رآها المرء قال لنفسه انها قد اعتادت النصر حتما . فهي متكبرة ، حتى انها في بعض الاحيان متغطرسة . لا أدري هل كان في

وسعها أن تكون طيبة ، لكنني أعلم أنها كانت تريد ذلك كثيرا ، وكانت تبذل جهودا هائلة للتوصل اليه • لا شك أنها زاخرة بتطلعات كريمة وعزمات نبيلة ، لكنها تحاول أن تهتدي الى توازنها دون أن تظفر بذلك ، وكان كل شيء فيها مضطربا مشوشا • لعلها كانت تسرف في القسوة على نفسها ، ولكنها لا تجد القوة التي تمكنها من تحقيق هذه المطالب •

جلست على الديوان ، وأجالت بصرها في الغرفة . ثم قالت :

ـ لماذا أحس دائما بالحزن في مثل هذه اللحظات ؟ اشرح لي هذا وأنت العالم ! لقد تخيلت دائما انني سأسعد سعادة جنونية حين أراك ثانيةً فأتذكر كل شيء ، ثم هأناذا أحس أنني لست سعيدة البتة • واني مع ذلك لأحبك • رباه ! لقد علّق صورتي على الحائط • اعطني هذه الصورة ! انني أتذكر ! كيف لا ؟

انها صورة ليزا وهي في الثانية عشرة من عمرها ؛ هي صورةٌ رائعة صغيرة مرسومة بالألوان المائية ، أرسلها آل دروزدوف الى ستيفان تروفيموفتش من بطرسبرج • ومنذ ذلك الحين لم تبارح الصورة حائط غرفته •

ـ هل ممكنٌ انني كنت جميلة هذا الجمال كله في طفولتي ؟ أهذا وجهي حقاً ؟

قالت ذلك ونهضت حاملةً الصورة بيدها ، ونظرت الى نفسها في مرآة • ثم هتفت تقول وهي تمد الصورة الى ستيفان تروفيموفتش :

ـ خذها . أسرع • ولا تعلقها الآن • علقها فيما بعد • لا أريد أن أراها •

وعادت تجلس على الديوان . ثم تابعت كلامها تقول :

ـ حياة تمضي ، وأخرى تبدأ ، ثم تمضي الثانية لتحل محلّها ثالثة

... وهكذا دواليك الى غير نهاية . النهايات كلها تشبه أن تكون مقطوعة بمقص . هذا كلام معاد مكرر أقوله لك . ولكن ما أصدق ما يعبِّر عنه !

ونظرت اليَّ مبتسمة . وكانت قد رشقتني قبل ذلك بنظرات خاطفة مرارا . ولكن ستيفان تروفيموفتش كان قد نسي ، من شدة انفعاله ، وعده بأن يقدمني اليها .

قالت :

ـ ولماذا تعلق صورتي تحت هذه الخناجر ؟ ولماذا عندك هذه الخناجر والسيوف كلها ؟

لا أدري لماذا كان ستيفان تروفيموفتش قد علَّق على الحائط خنجرين متصالبين عليهما سيف شركسي ، فعلاً . وحين ألقت الفتاة هذا السؤال اتجهت اليَّ بنظرة مباشرة حتى كدت أجيبها ، ولكنني أمسكت . وانتبه ستيفان تروفيموفتش الى الموقف أخيرا ، فقدمني اليها .

قالت :

ـ أعرف ، أعرف .. أنا سعيدة بمعرفتك . ماما أيضا سمعت كثيرا عنك . تعرَّف الى مافريكي نيقولايفتش . انه رجل ممتاز . لقد قامت في ذهني فكرة مضحكة عنك : أنت نجيُّ ستيفان تروفيموفتش ومستودع أسراره ، أليس كذلك ؟

احمر وجهي . فاستدركت تقول :

ـ أوه ! سامحني ، أرجوك . ليست هذه الكلمة هي التي كنت أريد أن أستعملها . لا أقصد : مضحكة ، بل ... (واحمرت واضطربت).. على كل حال ، هل يضيرك أن تكون رجلاً شهماً ؟ هيَّا يا مافريكي نيقولايفتش ! لقد آن لنا أن ننصرف . بعد نصف ساعة يا ستيفان تروفيموفتش يجب أن تكون عندنا . يا الهي ! ما أكثر الأشياء التي

ستتحدث فيها ! سأكون أنا نجيتك ومستودع أسرارك الآن ، وستحكي لي كل شيء . هل فهمت ؟ « كل شيء » (بالفرنسية) .

فما أن سمع ستيفان تروفيموفتش هذا الكلام حتى قام بحركة تقهقر على الفور . قالت :

ـ أوه ! ان مافريكي نيقــولايفتش يعلم كل شيء ، فلا تتحــرج أمامه !

ـ ماذا يعلم ؟

فصاحت تقول مذهولة :

ـ ولكن ماذا بك ؟ آ ... حقّاً اذن انهم يجعلون من الأمر سراً ! كنت لا أريد أن أصدّق . وهم يخفون داشا أيضا . لقد منعتني عمتي من الدخول على داشا منذ قليل ، بحجة أن داشا تعاني من صداع .

ـ ولكن ... ولكن كيف عرفت ؟

ـ كما عرف جميع الناس ! ... ليس هذا بالامر الصعب !

ـ ولكن هل جميع الناس ... ؟

ـ كيف لا ؟ ماما عرفته من ألبونا فرولوفنا ، خادمتي . لقد هرعت خادمتك ناستاسيا تحكي لها كل شيء . أنت الذي حكيت لناستاسيا ، أليس كذلك ؟ ان ناستاسيا تؤكد أنك أنت الذي قلت لها ...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

ـ أنا ... أنا ... قلت لها ذات يوم .. ولكنني لمحت تلميحــا لا أكثر ... كنت ثائر الأعصاب جدا وكنت مريضا ، ثم ...

أخذت الفتاة تضحك .

ـ ثم ان نجيّك لم يكن عندك ، فوجدتَ أمامك ناستاسيا ، فحكيت لها ، وهي تعرف جميع نمّامات المــدينة . ولكن أي ضير في أن يعــلم

الناس ؟ بل ان من الأفضل أن يعلموا • لا تتأخر عن الحضور الينا • اننا نتعشى في ساعة مبكّرة •

ثم أضافت تسأله وهي تعود الى الجلوس :

ـ ها •• نعم •• نسيت • قل لي : ما شاتوف ؟

ـ شاتوف ؟ هو أخو داريا بافلوفنا •••

فقاطعته تقول :

ـ أعرف أنه أخوها • حقا انك تفقد الانسان صبره ! أنا أريد أن أعرف أي رجل هو ؟

ـ « رجل سريع الغضب هو أحسن شرس في الناس كافة » (بالفرنسية) •

ـ نعم سمعت أنه غريب الأطوار قليلاً • يظهر أنه يعرف ثلاث لغات منها الانجليزية ، ويستطيع أن يتولى القيام بأعمال أدبية • وأنا عندي عمل كثير أريد أن أعهد اليه به : انني في حاجة الى معاون بمعنى من المعاني ، في حاجة اليه بأقصى سرعة ممكنة • هل تقدّر أنه يقبل ؟ لقد نُصحت به •••

ـ آ ••• طبعا ••• حتما ! « وانت بهذا تسدين صنيعا حسنا » (بالفرنسية) •

ـ ليس الأمر أمر « صنيع حسن » • انني أبحث عن أحد يعاونني •

قلت :

ـ انني أعرف شاتوف معرفة جيدة ، فان شئت ذهبت اليه في هذا اليوم نفسه •

ـ قل له أن يجيئني غدا ، في الظهر . عظيم ! أشكرك . مافريكي نيقولايفتش ، أأنت مستعد ؟

وانصرفا . وأسرعت أمضي الى شاتوف على الفور طبعا .

قال لي ستيفان تروفيموفتش وهو يدركني على درجات المدخل :

ـ « ياصديقي » (بالفرنسية) ... تعال الي حتماً في نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ، حين أرجع . آه ... أنا مذنب كثيرا في حقك ! ... وفي حق جميع الناس ، نعم ، في حق الناس كافة .

٨

لم يكن شاتوف في البيت ، وحين رجعت بعد ساعتين ، لم يكن قد عاد ، ورجعت مرةً ثالثة في نحو الساعة الثامنة آملا أن أترك له رسالة اذا وجدت أنه ما يزال غائبا ، وفي هذه المرة لم أجده أيضا ، وكان مسكنه مقفلاً بالمفتاح ، ان شاتوف يعيش وحيداً ، بلا خادم ، خطر ببالي أن أقرع باب بيت الكابتن ليبادكين ، لأسأل عن شاتوف ، ولكن كل شيء في الطابق الأدنى كان مغلقا كذلك ، وما من ضجة تُسمع من خلال الباب ، ولا من ضوء يتسرب من أي مكان ، لكأن المنزل خال ، واذ تذكرت ما رواه لنا ليبوتين ، شعرتُ بشيء من حب الاستطلاع والفضول ، وقررت أخيرا أن أعود غدا في ساعة مبكرة ، ولم تكن تراودني أوهام عن الأثر الذي يمكن أن تحدثه رسالتي : ان شاتوف ، العنيد الخجول ، قادر على أن لا يوليها أي انتباه ، وأن لا يكترث بها البتة ،

وفيما كنت أجتاز بوابة العمارة لاعناً اخفاقي ، اذا بي أرى نفسي أمام كيريلوف ، كان عائداً الى بيته ، وقد عرفني قبل أن أعرفه ، وجوابا عن أسئلته ، ذكرتُ له سبب مجيئي ، وقلت انني أود لو أترك لشاتوف رسالة ، فقال لي :

ـ تعال معي ، سأدبِّر الأمر كله ،

تذكرت أن كيريلوف ، كما قال ليبوتين ، كان قد انتقل من مسكنه في هذا الصباح الى جناح من خشب يقع في فناء المنزل ، لقد كانت تسكن في هذا الجناح ، وهو أوسع مما يحتاج اليه ، امرأة عجوز صماء تقوم على خدمة البيت ، أظن أن هذه العجوز قريبةٌ للمالك ، قد عهد اليها

بحراسة العمارة ومضى يقيم بمنزل جديد ليفتح فيه مطعما • ان غـــرف الجناح نظيفة ، ولكن ورق جدرانها بدا لى وسخاً • وكانت الغرفة التى دخلناها تضم أثاثاً متنوعا يحس من يراه أنه اشتُرى من دكان لبيع الأثاث العتيق : فهناك مائدتان من موائد اللعب ، ومنضدة من خشب الحـــور ، ومائدة كبيرة من خشب أبيض لو وُضعت فى كوخ أو فى مطبخ لكانت فى مكانها ، وكراسى وكنبة ذات مسند من قش وعليها وسائد من جلد • ولمحت فى ركن من الأركان أيقونة قديمة كانت المرأة العجـــوز قـــد أشعلت أمامها قبل دخـــولنا سراجا صغيرا • وعلى جدارين من الغـرفة علـِّقت صورتان كبيرتان مرسومتان بالزيت ، لكن ألوانها قد بهتت على مرّ السنين : فأما الأولى فهى صـــورة للامبراطور نيقـــولا الأول ، يدل مظهرها على أن تاريخها يرجع الى بداية حكمه ؟ وأما الثانية فهى تمثـــل لا أدرى أى أسقف •

أشعل كيريلوف شمعةً ، وأخرج من حقيبته التى لم يكن قد فضَّها بعد ، أخرج ظـــرفاً وعوداً من شمع الأختام وختماً من كـــريستال • وقال لى :

ـ اختم رسالتك بالشمع ، واكتب عليها الاسم •

فاعترضت قائلاً ان ذلك لا داعى اليه ، ولكنه أصرّ • فلما انتهيت من عملى ، تناولت قبعتى لأخرج ، فقال لى :

ـ كنت أظن أنك قد تحتسى شيئا من الشاى • فهل تريد ؟ لقـــــد اشتريت شاياً •

فلم أرفض • ولم تلبث العجوز أن جاءت بالشاى، أى بابريق ضخم ممتلىء ماءً غالياً ، وابريق صغير فيه شاى قوى جدا ، وفنجانين كبيرين من خزف مطلى عليه رسوم غليظة ، وخبزٍ أبيض قُطـِّع قطعاً ووضـــــع فى صحن عميق •

قال :

ـ أحب الشاى ، ليلاً ، كثيراً ، أمشى وأشرب شاياً ، حتى الفجر. فى الخارج ، ليس مناسبا أن يشرب المرء شايا فى الليل .

ـ ألا تنام الا فى الفجر ؟

ـ دائما . منذ زمن طويل ، آكل قليلاً ، لا شىء الا الشاى . ليبوتين ماكر ، لكنه نافد الصبر ،

أدهشنى أنه يريد الكلام ، وقررت أن أستغل الفرصة ،

قلت :

ـ فى هذا الصباح ، حدث سوء تفاهم مؤلم ،

فقطب حاجبيه . ثم قال :

ـ سخافات ، سفاسف . ما هـــذا كله الا سفاسف ، لأن ليبـــوتين سكير ، أنا لم أقل شيئاً لليبوتين ، أوضـــحت له أن ذلك كله ليس له أية قيمة . لكنه اخترع لا يدرى الا الله ماذا ... ان ليبوتين ذو خيال واسع، فهو يبنى من الحبة قبة ، أمس ، كنت أثق به ..

قلت ضاحكا :

ـ واليوم تثق بى أنا ،

ـ ولكنك مطلع على كل شىء منذ هذا الصباح ، ان ليبوتين ضعيف ، أو هو نافد الصبر ... أو خطر ... أ وحسود ...

فجأتنى هذه الكلمة الاخيرة ، قلت :

ـ لقد ذكرت من العيوب عـــددا كبيرا بحيث لا بد أن يصـــدق أحدها عليه ،

ـ أو تصدق كلها دفعة واحدة ،

ـ نعم ، ربما كان هذا صحيحا كذلك • ان ليبوتين خليط مشوش • هل كذب اليوم حين أكّد أنك تؤلف كتابا ؟

ـ لماذا يكون هذا كذبا ؟

بذلك أجابني وهو يعبس من جديد ويخفض عينيه .

فاعتذرت له مؤكدا أنني لم أشأ أن استدرجه الى الكلام . فاحمر وجهه • وقال :

ـ لقد صدق • انني أكتب • ولكن ليس لهذا من قيمة •

وصمتنا دقيقة • ثم اذا هو يبتسم تلك الابتسامة الطفولية نفسها التي سبق أن لاحظتها فيه •

ـ فيما يتعلق بالروس ، تلك حكاية أخذها من الكتب . انه هو الذي حدثني في هذا الموضوع • ولكنه قد أساء الفهم على كل حال . أما أنا فانني أبحث فقط في الاسباب التي تجعل الناس لا يجرؤون أن يقتلوا أنفسهم . وليس لهذا من قيمة •

ـ لا يجرؤون ؟ ما هذا الذي تقول ؟ هل الانتحارات قليلة الى هذا الحد من القلة ؟

ـ نعم ، قليلة جدا •

ـ أهذا رأيك ؟

لم يُجب ، بل نهض وأخذ يمشي في الغرفة طولاً وعرضا ، شارد الذهن • سألته :

ـ وما الذي يمنع الناس من قتل أنفسهم في رأيك ؟

فنظر اليّ ذاهلاً ، كأنه يحاول أن يتذكر ما كنا نتكلم فيه • ثم أجاب بقوله :

ـ لا أدري بعدُ على وجه اليقين• غير ان هناك وهمين شائعين يمنعاننا

من ذلك .. شيئين لا ثالث لهما ، أحدهما صغير جداً ، والثانى كبير جداً. ولكن الصغير كبير أيضاً .

ـ فما هو الصغير ؟

ـ الألم .

ـ الألم ؟ أهو هام الى هذا الحد .. فى مثل هذه الحالة ؟

ـ نعم ، هام جدا . هناك فئتان من الناس : الذين ينتحرون بسبب عذاب كبير ، أو ينتحرون غضباً ، أو يكونون مجانين ، أو ينتحرون لأى سبب آخر .. وهؤلاء ينتحرون فجأة . وهم لا يخطر الألم بالهم كثيرا . ففى دقيقة واحدة ينتهى كل شىء . أما الذين يفكرون ، فهؤلاء يحسبون حساب الألم كثيرا .

ـ هل هناك أناس ينتحرون وهم يفكرون ؟

ـ كثيرون . ولولا الأوهام الشائعة ، لكانوا أكثر ، ولكان عددهم كبيرا جدا ، ولكانوا كل الناس .

ـ كل الناس ؟ حقا ؟

لم يجب بكلمة .

ـ ولكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم ؟

قال وهو يقف أمامى :

ـ تخيل صخرة فى حجم عمارة كبيرة . وتخيَّل أنها بارزة فوق الطريق وأنك تحتها . هل تحس بألم اذا هى سقطت على رأسك ؟

ـ صخرة فى حجم عمارة ؟ سوف أخاف طبعا .

ـ لا أتكلم عن خوفك ، ولكن هل يمكن أن تشعر بألم اذا هى سقطت على رأسك ؟

ـ صخرة كالجبل ، وزنها مليون طن ؟ لن أحس بشىء طبعا .

ـ ومع ذلك فانك اذا وُجدت فى هذا الموقف ستظل تخاف من أن

يصيبك ألم ، ما بقيت تحت الصخرة • وأكبر العـــلماء ، وأعظم دهاقنة العلم ، سيخافون جميعا ، جميعا ، سيخافون خوفا كبيرا من أن يتألموا . هم يعلمون أنهم لن يتألموا ، ولكنهم سيخافون من أن يتألموا .

ـ وما هو السبب الثانى ؟ السبب الاكبر ؟

ـ الحياة الآخرة ؟

ـ أى العقاب ؟

ـ العقاب ليس له شأن كبير • بل الحياة الآخرة • الحياة الآخـــرة فقط .

ـ أليس هناك ملحدون لا يؤمنون بالحياة الآخرة ؟

لزم الصمت . قلت :

ـ لعلك تقضى فى الأمر على أساس شعورك أنت ؟

أجاب وقد احمر وجهه :

ـ كل انسان لا يستطيع أن يحكم فى الامر الا على أساس شعوره • سوف تكون الحرية كاملة متى استوى عند الانسان أن يعيش وأن يموت• تلك غاية كل شىء •

ـ هدف ؟ ولكن من الممكن اذن أن أحدا لا يرغب فى أن يعيش ؟

ـ نعم •

كذلك أجاب بلهجة قاطعة • قلت :

ـ ان الانســـان يخـاف الموت لأنه يحب الحيـاة • هكذا أفهم أنا الأمور . ذلك ما أرادته الطبيعة •

صاح يقول وقد التمعت عيناه :

ـ هذا جبن • وتلك هى الخدعة . الحياة ألم . الحيـــاة رعب • الانسان شقى • كل شىء الآن ليس الا عذاباً ورعباً • الانسان يحب الآن الحياة لأنه يحب العذاب والرعب • ذلك ما حصل • الحياة ثمنها العذاب

والرعب . تلك هي الخدعة . اليوم ليس الانسان انساناً بعد . سيجيء انسان جديد ، سعيد فخور . الانسان الذي سيستوى عنده أن يعيش وأن يموت ، سيكون هو الانسان الجديد . الانسان الذي سينتصر على الألم والرعب ، سيكون هو نفسه الاله . أما الاله الآخر فلن يكون اه وجود بعد ذلك .

ـ فهذا الاله موجود اذن في رأيك ؟

ـ ليس موجودا ، ولكنه موجود . ان الصخرة ليس فيها الم ، ولكن الألم هو في الخوف من الصخرة . الاله هو عذاب الخوف من الموت . فالانسان الذي سينتصر على الألم والخوف ، سيكون هو نفسه الله . وسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة . عندئذ سوف يظهر الانسان الجديد . سيكون كل شيء جديدا ... وسوف يقسمون التاريخ عندئذ الى عهدين : عهد يمتد من الغوريللا الى انعدام الاله ، وعهد يمتد من انعدام الله ...

ـ الى الغوريللا ؟

ـ الى التحول الجسمي الذي يطرأ على الانسان والارض . سيصبح الانسان الهاً ، وسيتبدل جسمه . والكون سيتحول ، والأعمال ستتحول، والعواطف والأفكار . ألا تعتقد أن الانسان يتبدل عندئذ جسمه ؟

اذا استوى عند الانسان أن يحيا وأن يموت ، فسوف ينتحر جميع الناس ، وربما كان هذا هو التبدل ...

ـ ما لهذا من قيمة . سوف يُنحر الكذب . ان الذي يريد الوصول الى الحرية القصوى ، فعليه أن يملك الشجاعة اللازمة للانتحار . والذي يملك الشجاعة اللازمة للانتحار ، فسوف ينفذ الى سر الخدعة . ليس ثمة حرية أعلى . كل شيء يثوى هنا ، وليس وراء هذا شيء . من يجرؤ أن ينتحر فهو هو الله . كل انسان يستطيع الآن أن يجعل أن لا يكون ثمة اله،

وأن لا يكون ثمة شيء • ولكن أحداً لم يفعـــل ذلك في يوم من الأيام حتى الآن .

ـ غير أن ملايين الناس قد انتحروا مع ذلك •

ـ ولكن لأسباب أخرى دائما • انتحروا دائما برعب • لم ينتحروا أبدا لهذا السبب • لم ينتحروا أبدا لينحروا الرعب • ان الذى ســـيقتل نفسه من أجل أن يقتل الرعب فقط ، سيكون في تلك اللحظة نفسها الهاً•

قلت :

ـ ولكن قد لا يملك الوقت اللازم لهذا •

فأجاب برفق وكبرياء هادئة ، وبما يشبه أن يكون احتقارا :

ـ لا ضير !

وأضاف بعد لحظة :

ـ يؤسفنى أن يبدو عليك أنك تضحك .

ـ وأنا يدهشنى أن أراك الآن هادئا هذا الهـــدوء ، بينما كنت في الصباح غاضبا حانقا •

قال وهو يبتسم :

ـ هذا الصـــباح ؟ كان هذا الصـــباح مضحكاً جداً • أنا لا أحب أن أتشاجر •

ـ ثم أضاف في أسى ّ وكآبة :

ـ ولا أضحك أبدا •

ـ نعم ، ليست لياليك مرحة •

ونهضت وتناولت قبعتى لأنصرف •

فسألنى وهو يبتسم ابتسامة فيها شيء من دهشة :

ـ أهذا ما تراه ؟ لماذا ذلك ؟ ••• لا ••• لا أدرى ••

وأمسك عن الكلام مضطربا متحيرا على حين فجأة • ثم أضاف :

ـ لا أدرى كيف تجرى أحوال الآخرين ، وأشعر أننى لا أستطيع أن أكون كسائر الناس • جميع الناس يفكرون فى شىء ، ثم ينتقلون فورا الى التفكير فى شىء آخر • أما أنا فلا أستطيع أن أفكر فى غير هذا • أنا أفكر فى شىء واحد طوال حياتى • طوال حياتى عذبتنى فكرة الله •

بهذا ختم كلامه فجأة باندفاعة صدق غريب •

ـ اسمح لى أن أسألك : لماذا لا تتكلم اللغة الروسية سليمة ؟ أتراك نسيتها أثناء غيابك فى الخارج خمس سنين ؟

ـ هل لغتى غير سليمة ؟ لا أدرى ! لا ، لم أنس أثناء غيابى فى الخارج ! هكذا كنت أتكلم طول حياتى !••• يستوى عندى !

ـ سؤال آخر قد يكون أكثر احراجا : اننى أصدقك حين تقول انك لا تحب أن ترى الناس ، وانك لا تكلمهم الا قليلا • فلماذا كلمتنى أنا فى هذا المساء مختارا راضيا ؟

ـ أنت ؟ فى هذا الصباح ، كان وضعك حسنا جدا ، وانك ••• ما لهذا من قيمة على كل حال • انك تشبه أخى كثيرا ، كثيرا جدا ، تشبهه شبهاً خارقاً • لقد مات منذ سبع سنين • هو أخى الأكبر • نعم • تشبهه كثيراً •

ـ لا بد أن تأثيره فى تفكيرك كان كبيرا •

ـ لا ، كان يتكلم قليلا • كان لا يقول شيئا • سأوصل رسالتك الى شاتوف •

وشيّعنى حتى الباب الكبير ، وهو يحمل فانوسا ، وذلك ليغلق الباب • قلت لنفسى جازماً « انه مجنون • هذا واضح لا ريب فيه ! » •

وهذا لقاء آخر يفاجئنى لحظةَ خروجى •

٩

ما ان اجتزت الباب حتى أمسكتني يدٌ قوية من صــــدري . وزأر صوت يسأل :

ـ من هنا ؟ أصديق أم عدو ! هيَّا اعترف !

فصرخ صوت حاد عرفت فيه صوت ليبوتين ، صرخ يقول :

ـ هو من أصحابنا . انه السيد « ج ... م » ، شاب تثقف ثقـــافة كلاسيكية ، واستُقبل في أرقى مجتمع .

ـ آ ... هذا ما يعجبني ... اذن تثقف ثقـــافة كلاسيكية .. أنا الكابتن المتقاعد اجناس لبيادكين ، في خدمة الناس جميعا والاصدقاء ... اذا كانوا أوفياء ... اذا كانوا أوفياء ، هؤلاء الأوغاد !

كان الكابتن لبيادكين ، وهو رجل طويل القامة بدين الجسم سمين ، أجعد الشعر ، أحمر الوجه ، كان قد بلغ غاية السكر ، حتى انه لا يكاد يستطيع الوقوف ، ولا يكاد يستطيع النطق الا في كثير من الغباء . وقـــد سبق أن أتيحت لي فرصة رؤيته من بعيد .

وحين التفت الكابتن فلمح كيريلوف الذى كان لا يزال واقفا هناك وبيده الفانوس ، أعول يقول من جديد :

ـ آ ... وهذا هو الآخر ...

ورفع قبضة يده على المهندس ، لكنه لم يلبث أن أنزلها قائلا :

ـ انني أعفو عنك ، لأنك عالم . اجناس لبيادكين ، أثقف رجـــل بين ...

في صدر اجناس
توقد الحب ، تحطم القلب
وكان يتطوع الذراع ، من حرب سيباستوبول
فعاد يبكي ذراعه

ودمدم يقول لي وهو يقرّب مني وجهه المتورد من السكر : « أنا لم أكن في سيباستوبول * ، لا قُطعت ذراعي • ولكن ما أجملها أشعاراً !

وتدخل ليبوتين يقول له :

ـ لا يتسع وقته ، لا يتسع وقته • انه عائد الى بيته • سيقص غدا كل شيء على ليزافتا نيقولايفنا :

فصاح السكران من جديد قائلاً :

ـ ليزافتا •••

ثم قال لي :

ـ اسمع • لا تتحرك . هذه أبيات أخرى من الشعر :

تعدو على حصانها كنجمة
بين صويحباتها الفارسات
ومن على فرسها الجميل
تبعث لي البسمة تلو البسمة
فتاتي الفاتنة النبيلة

وتابع كلامه :

ـ عنوان القصيدة « الى الفارسة النجمة ! » . أليس هـذا نشيدا جميلاً ؟ هو نشيد جميل ، الا أن تكون أنت حماراً . ان هؤلاء الأغبياء لا يفهمون شيئا .

ثم صاح يقول وهو يتمسك بمعطفي رغم جميع ما أبذل من جهود لأفلت منه :

ـ قف ! قل لهـا انني فارس الشرف ، أما داشـا ••• أما تلك « الداشا » فسوف أمسكها بين اصبعين ••• ما هذه الا عبدة ، وما ينبغي أن تسمح لنفسها بأن ...

قال هذه الكلمات وسقط ، لأنني استطعت أن أنتزع نفسي من بين يديه • وهربت يتبعني ليبوتين •

ـ سوف يُنهضه ألكسي نيلتش • هل تدرى ماذا علمت منه الآن ؟

كذلك قال بصوت لاهث • وتابع كلامه :

ـ هل سمعت تلك الأبيات من الشعر ؟ فاعلم أنه قد وضعها في ظرف وأنه سيرسلها غدا موقعةً باسمه الى ليزافتا نيقولايفنا ؟ ما رأيك ؟

ـ أراهن أنك أنت الذى دفعته الى هذا •

ـ سوف تخسر الرهان • انه مولّه حبا بها . وهل تعلم ؟ لقد بدأ حبه هذا بكره . كان في البداية يكرهها كرها شديدا بسبب نزهاتها على الحصان ، حتى لقد أوشك أن يشتمها في الشارع. بل انه قد أهانها أمس الأول بينما كانت مارّة • من حسن الحظ أنها لم تسمعه • وها هو ذا اليوم يرسل اليها أشعارا • هل تعلم أنه يريد أن يجازف بنفسه فيعرض عليها قلبه ويده ؟ فعلا ! فعلا !

صرخت أقول غاضبا :

ـ عجيب أمرك يا ليبوتين ! انك تدور دائما حول أوباش من هذا النوع ، فتحرضهم وتوجههم •

ـ انك تبالغ يا سيد « ج ••• ف » ؟ أليس قلبك هو الذى يرتجف خوفاً من تصور وجود منافسٍ لك ؟ هه ؟

هتفت أقول وأنا أتوقف فجأة :

ـ ماذا ؟

ـ طيب . مادام الأمر كذلك ، فانني سأعاقبك فلا أحكي لك بعد اليوم شيئاً . ومع ذلك ، لو عرفت ما قد أقصه عليك ، لاحترقت شوقاً الى سماعه ! اعلم مؤقتاً أن هذا الغبي ليس الآن مجرد كابتن محال على التقاعد بل قد أصبح من مالكي الأطيان ، بل ومن كبارهم ، لأن نيقولاي فسيفولودوفتش باعه أرضه منذ قليل ، وهي تقدَّر في الحساب القديم بمائتي نفس . لست أكذب . شهد الله أنني صادق . لقد عرفت هذه الحقيقة من مصدر موثوق تماما . والآن حاول أن تدبِّر أمرك بنفسك : لن أقول بعد اليوم شيئاً . الى اللقاء .

١٠

كان ستيفان تروفيموفتش ينتظرنى وقد نفد صبره على نحـــو يكاد يكون هستريا ً • كان قد رجع الى البيت منذ ساعة • فوجـــدته فى حالة غريبة حتى اننى ظللت ، مدة خمس دقائق على الأقل ، أظن أنه سكران• مسكين ! ان زيارته لآل دروزدوف قد أجهزت عليه •

ـ « يا صـــديقى » (بالفرنســية) ••• ماذا أقول لك ؟ لقد فقــدت ترابط أفكارى تماما ••• ليزا ..• ما زلت أحب وأقدر هذه الملاك كمــا كنت أحبها وأقدرها فى الماضى ؟ نعم ، كما كنت أحبها وأقدرها فى الماضى• ولكن يخيـّل الىّ أنهم كانوا لا ينتظروننى الا ليعلموا منى شيئاً ما ، أى ـ ببساطة ـ ليستدرجونى الى الكلام ، ثم ••• بارك الله فيك ! ••• مـع السلامة ! نعم ، هذه حقيقة الأمر !

صحت أقول نافد الصبر :

ـ كيف لا تستحى ؟

ـ يا صديقى ، أنا الآن وحيد تماما • « الخلاصة •• أمر مضحك » (بالفرنسية) • تصوّر : هناك أيضا كل شىء محشوّ أسرارا ! سرعان ما أخذن يمطرننى بوابل من الأسئلة عن حكايات الأنوف والآذان تلك ، وكذلك عن أحداث سرية وقعت ببطرسبرج • ذلك أنهن فى الواقع ، لم يسمعن الا الآن عن الحوادث التى أثارها هنا نيقولاى منذ أربع سنين • قلن يسألننى : « كنت أنت حاضراً ، فرأيت كل شىء ، فهـــل صحيح أنه مجنون ؟ » • من أين جاءتهن هذه الفكرة ؟ حقاً اننى لا أفهم • لمـــاذا تصرّ براسكوفيا هذه ، لماذا تصر هذا الاصرار كله على أن يكون نيقولاى

مجنونا ؟ انها تحرص على ذلك ، تحرص عليه حرصا مطلقا . وهـذا المافريكي ... ما اسـمه ؟ ... نعم ... مافريكي نيقـولايفتش .. « انه رجل شهم على كل حال » (بالفرنسـية) ... أيكون هـذا من مصلحته ؟ ... ولكنها هي التي كانت البادئة في الكتابة من باريس الى « هذه الصديقة المسكينة » (بالفرنسية) . الخلاصة : ان براسكوفيـا ، كما تسميها « الصديقة المسكينة » ، هي نمـوذج غريب من البشر ، انهـا انها كوروبوتشكا* الخالدة التي صوّرها جوجول ، ولكنها كوروبوتشكا شريرة ، كوروبوتشكا مشاجرة مقاتلة قد تضخمت تضخما كبيرا .

ـ هي اذن صندوق حقيقي ؟ أهي مضخّمة الى هذا الحد فعلاً ؟

ـ طيب ... لنسلم بأنها أصغر من كوروبوتشكا أيضا . ما قيمـة هذا ! ولكن لا تقاطعني . ان رأسي يدور . الصلات بينهن سيئة جدا ، باستثناء ليزا : فهذه ما تزال تكرر : « عمتي ، عمتي ... » . ولكن ليزا ماكرة ، وان وراء ذلك لسراً خفياً . أسرار ! أما مع العجوز فالشـقاق قائم . هذه « العمة » المسكينة تسوم الجميع سوء العذاب حقاً ... ثم هناك امرأة الحاكم أيضا ، والمجتمع المحـلى الذى لا يبـدى قدراً كبيراً من الاحترام ، وهناك « قلة أدب » كارمازينوف ؛ وهناك عدا ذلك أيضـا ، تلك الآراء عن جنون نيقولاي ، وهناك هـذا الـ « ليبوتين » ... « أمر لا أفهمه » (بالفرنسية) ... و ... ويقال انها تضع كمّادات خل على رأسها . ثم هناك نحن ، أنا وأنت ، وشكاياتنا ورسائلنا . أواه ! ما أكثر ما عذبتها ! وفي فترة كهذه الفترة ! « انني عقوق » (بالفرنسية) . تصوّر: لقد عدت الى البيت فوجدت رسالةً منها ، اقرأها ، اقرأ ! آه ... ما كان أقل سماحتي وكرمي تجاهها !

مدّ اليّ الرسالة التي وصلته من فرفارا بتروفنـا . يظهر أن فرفارا

بتروفنا قد أحزنها أن قالت له : « ابق في بيتك » . فهاهي ذي تبعث اليه برسالة مهذبة رقيقة ، وان تكن موجزة وقاطعة : انها تطلب من ستيفان تروفيموفتش أن يجيئها غداة غد ، يوم الاحد ، ظهـــراً ، وتنصحه بأن يصطحب أحد أصدقائه (وقد ذكرت اسمي بين قوسين) ؛ وتعد بأن تدعو من جهتها شاتوف بصفته أخا داريا بافلوفنا . « سوف يمكنك أن تحصـــل منها على جواب قطعي . هل يكفيك هذا ؟ أهذا هو الاجراء الشكلي الذي كنت تحرص عليه ذلك الحرص كله ؟ » .

ـ لاحظ هذه الجملة الغاضـــبة التي ترد في نهاية رســـالتها عن « الاجراء الشكلي » . مسكينة ، مسكينة ، صديقة عمـــــرى كله ! انني أعترف بأن القرار المباغت الذي يحدد مصيرى قد سحقني سحقا ان صـــح التعبير ... كنت ما أزال أحتفظ ببعض الأمل . أعترف لك بذلك . أما الآن فقد انتهى كل شيء . أنا أعلم أن قد انتهى كل شيء . «شيء فظيع !» (بالفرنسية) . آه ... ليت يوم الاحد هـــــذا لا يحين أبدا ، ليت في الامكان أن تجرى الأمور كما كانت تجرى في الماضي : تظل أنت تجيء الى هنا ، وأظل أنا ...

ـ ان الدناءات التي يرويها ليبوتين والنمائم الكاذبة التي يلفقها هي ما أدخل الاضطراب والبلبلة في نفسك .

ـ يا صديقي ، لقد وضعت اصبعك الآن ، اصبعك الصـــديقة ، على نقطة أخرى موجعة أليمة . ان الأصابع الصديقة هي على وجه العمـــوم قاسية لا ترحم ، بل قد تنقصها اللبـــاقة والكياسة في بعض الاحيـــان . سامحني . ولكن تصور أنني كنت قد نسيت هذا كله تقريبا ، كنت قـد نسيت كل هذه الدناءات . أو قل انني لم أنسها ، ولكنني لغبـــاوتي كنت أحاول طوال مدة بقائي عند ليزا أن أكون سعيدا ، وكنت أقنع نفسي بأنني

سعيد . والآن ... آه ... الآن أفكر في تلك المـــرأة التى بلغت ذلك المبلغ كله من الكرم والتسامح والصبر تجاه عيوبى الكريهة ! الحق أنها ليست على قدر كبير من الصبر . ولكن هل يجوز لى أن أشكى من ذلك أنا السيء الطبع ؟ أنا الذى أُشبه الطفل بكثرة النزوات وشدة الأنانيـــة ولكن دون أن أملك ما يملك الطفل من براءة ! انها تعنى بأمرى وتسهر على شئونى منذ عشرين عاما كخادمة ، هذه « العمة المسكينة » (بالفرنسية) كما تطلق عليها ليزا هذا اللقب بكثير من الخفة والرشاقة ... وها هو ذا الطفل ، بعد عشرين عاما ، يريد أن يتزوج . انه يطالب بتزويجه . انه يكتب الرسالة تلو الرسالة ، بينما هي ترش رأسها بالخل ... وها هو ذا يبلغ هدفه : ففي يوم الأحد سأكون رجلاً متزوجاً . ما كان أغنانى عن الالحاح ؟ لماذا كتبت تلك الرسائل كلها ؟ نعم ، نسيت أن أقول لك : ان ليزا تحب داريا ايفانوفنا حب العبادة . أو هذا ما تقوله على الأقل . هى تقول عنها : « هذه ملاك (بالفرنسية) ولكنها ملاك منطوٍ على نفسه » . لقد نصحتانى كلتاهما ، حتى براسكوفيا نصحتنى ... لا ، لم تنصحنى براسكوفيا .. آه ! ما أكثر ما فى نفس الـ «كوروبوتشكا» من سم ! على كل حال ، اذا شئنا الدقة ، وجب أن نقول ان ليزا لم تنصحنى أيضـــا ، وانما قالت لى : « ما حاجتك الى الزواج ؟ ان لديك متعاً عقلية كافية ! » ، وضحكت . لقـد غفـرتُ لها هذا الضحك ، لأن قلبها هى ليس هـادئا كذلك . قالتا لى : ليس في وسعك مع ذلك أن تســتغنى عن امرأة . ان سن الأمراض والعجز قد اقتربت ، فســوف تُعنى بأمرك وتسهر عـلى علاجك . هذا ما يحسن أن يُقال . يميناً اننى منـــذ اجتمعنا هنا نحن الاثنين ، لم أنقطع عن أن أحدث نفسى بأن العناية الالهية هى التى ترسلها الىّ فى مغرب حياتى العاصفة ، وأنها ستسهر على العناية بى كما يقال...

وسوف تنفعنى فى مسكنى على كل حال . انظر الى هذه الفوضى ! ما من شيء فى مكانه ! لقد أمرت فى هذا الصباح بترتيب الغرفة . فانظر الى هذا الكتاب الملقى على الارض ! لطالما استاءت « صديقتى المسكينة » (بالفرنسية) من الوساخة فى بيتى ... وا أسفاه ! بعد الآن لن يدوّى صوتها هنا ! « عشرون عاما » (بالفرنسية) . و ... هنّ أيضا قد تلقّين ، فيما أعتقد ، رسائل لم يوقّعها مرسلوها . تخيل هذا ! يؤكد الناس أن نيقولاى قد باع ليبادكين أرضه . « هذا انسان شاذ عجيب ! » (بالفرنسية) . ثم ما ليبادكين ؟ ان ليزا تصغى ، وتصغى ! آه ... ما أكثر ما تصغى ! لقد غفرت لها ضحكها . رأيتُ بأى وجه كانت تصغى . ومافريكى ذاك ... لست أتمنى الآن أن أكون فى مكانه .. « هو رجل طيب على كل حال » (بالفرنسية) ، لكنه خجول قليلا . مهما يكن من أمر ، فليباركه الله...

وصمت . انه الآن متعب مرهق حائر ؛ وظل جالسا فى مكانه خافض الرأس مطرقاً بعينيه الكليلتين الى الأرض . فانتهزت فرصة صمته لأقص عليه زيارتى لعمارة فيليبوف موجزاً ، وعبّرت له باقتضاب وبخشونة عن رأيى فى أن أخت ليبادكين (التى لم أرها على كل حال) من الجائز أن تكون سقطت ضحيةً بين يدى نيقولاى على نحو من الأنحاء فى فترة عجيبة خفية من فترات حياته ، كما قال ليبوتين ، وان من الممكن جدا أن يكون ليبادكين يتلقى مالاً من نيقولاى لهذا السبب . ولا شيء غير هذا . أما الشائعات المنتشرة عن داريا بافلوفنا ، فما هى الا أقاويل كاذبة ، ونمائم لفقها هذا الوغد الدنيء ليبوتين ، فذلك ما يؤكده ألكسى نيلتش بحماسة وحرارة ، ولا داعى الى تكذيبه البتة .

كان ستيفان تروفيموفتش يصغى الىّ ذاهل الهيئة ، كأن أقوالى لا تمت اليه بصلة من الصلات ، وليس له بها علاقة. وذكرت أيضا حديثى

مع كيريلوف ، وأضفت قائلاً ان كيريلوف ربما كان مجنونا . فقـــال ستيفان تروفيموفتش برخاوة ، كأنما على مضض :

ـ ليس مجنونا ، ولكنه من أولئك الناس الذين لهم آراء محدودة. « يتصورون الطبيعة والمجتمع الانسانى على غير ما خلقهما الله ، وعلى غير ما هما فى الواقع » (بالفرنسية). ان بعض الناس يمدحونهم ويتملقونهم. ولكن ستيفان فرخوفنسكى لن يفعل ذلك ! لقـــد رأيتهم ببطرسبرج فى الماضى ، مع هذه « الصديقة العزيزة » (بالفرنسية) (آه ... لشد ما كنت جارحا فى معاملتها !) ، فلم تخفنى شتائمهم ، لا ولا مدائحهم . وسيبقى الامر على هذا النحو دائما . ولكن دعنا من هذا ولنتكلم فى شىء آخر... أظن أننى ارتكبت حماقات فظيعة : تصـــوَّر اننى بعثت أمس رسالةً الى داريا بافلوفنا . انى لألعن نفسى الآن لأننى بعثت اليها تلك الرسالة .

ـ ماذا قلت فى تلك الرسالة ؟

ـ صدّق يا عزيزى أن نيتى كانت من أكرم النيات . أبلغتها اننى كتبت رسالةً الى نيقولاى قبل خمسة أيام ، بنيةٍ نبيلة كل النبل كذلك .

صحت قائلا فى غضب :

ـ الآن فهمت . كيف يجوز لك أن تقرن بين اسميهما هكذا ؟

ـ لا تحطمنى تحطيما يا عـــزيزى ، لا تصرخ فى وجهى هـــذا الصراخ . اننى بدون ذلك مهشَّم منذ الآن كما يُهشَّم ... صرصور ! ثم انى أعتقد أن تصرفى كان نبيلا كل النبل . لنتصور أن شيئا بينهما قد حدث فعلا .. فى سويسرا .. بل وأنه لم يكن ثمة الا بداية .. أفلا يكون من واجبى أن أسأل قلبيهما قبل كل شىء .. وذلك حتى لا أتعرض لسدّ الطريق أمامهما اذا .. لقد كانت نيتى نبيلة .

ـ يا الهى ! ما أغبى هذا التصرف !

أسرع ستيفان تروفيموفتش يوافقني قائلاً :

ـ نعم ، هو تصرف غبي . لم تقل كلمةً أصدق من هذه الكلمة . « كان تصرفي غبيـــا ، ولكن ما العمل ؟ لقـــد فعلت وانتهى الامر ! » (بالفرنسية) . سأتزوج رغم كل شيء ، ولو كان عليَّ أن أغطّي « خطايا الغير » . ما كانت حاجتي الى الكتابة ؟ أليس كذلك ؟

ـ أتعود أيضا الى هذه الفكرة ؟

ـ أوه ! لن يخيفني صراخك . ان أمامك الآن ستيفان فرخوفنسكي آخر . ان ســـتيفان فرخوفنسكي الذي كنت تعرفه قـد دُفن . « انتهى الأمر » (بالفرنسية) . ولماذا تصرخ ؟ لا لسبب سوى أن الذي سيتزوج وسيزدان رأســه بقرنين ليس أنت . هل ســاءك هذا الكلام من جديد ؟ يا صديقي المسكين ، انك لا تعرف المرأة . أما أنا فلم أفعل شيئا غـــير دراسة المرأة . « اذا أردت أن تنتصر على العـــالم بكامله ، فانتصر على نفسك». ذلك هو الشيء الوحيد الذي أحسن قوله شاتوف «أخو زوجتي» وهو رومانسي آخر من نوعك » . يسرني أن أستمد منه هذه القـــاعدة الحكيمة . فهأناذا مستعد لأن أنتصر على نفسي فأتزوج . فما الذي سأصل اليه بدلا من أن أغزو العالم ؟ يا عزيزي ، ان الزواج موت روحي لكل نفس مستقلة ذات كبرياء . الزواج سوف يحللني ويفسدني ، ســـوف يحرمني من القدرة والطاقة ، سوف يحرمني من الهمـــة اللازمة لتحقيق مهمتي . سيكون لنا أولاد . وأكثر من ذلك أن هؤلاء الاولاد قد لايكونون مني أنا . ماذا أقول ؟ بل انهم لن يكونوا مني حتما . ان الرجل الحكيم لا يخشى أن ينظر الى الحقيقة مواجهةً . لقد نصحني ليبوتين بأن أبني سدوداً لأحمي نفسي من نيقولاي . ان ليبوتين رجل أحمق . فالمـــرأة قادرة على أن تخادع حتى عين الله التي ترى كل شيء . حين خـــلق الله

المرأة فقد كان يعرف حتما ما ينبغي له أن يتوقعه . ولكنني على يقين من أن المرأة قد تدخلت هي نفسها في خلقها ، فأجبرت الله على أن يخلقهـــا كما هي الآن ... بكل صفاتها وخصائصها . والا فمن ذا الذي يقبل أن يهيء لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة ؟ أنا أعلم أن ناستاســـيا ستغضبها مني هذه الآراء الجريئة ... ولكن « انتهى الامر » (بالفرنسية).

ما كان لستيفان تروفيموفتش أن يكون ستيفان تروفيموفتش نفسه لو أنه استطاع أن يقاوم اغراء هذا النوع من الأمازيح والألاعيب اللفظية التي كانت شائعة شيوعا كبيرا بين أحرار التفكير في زمانه . غير أن ذلك لم يدم مدة طويلة . فقد اكتفى من تلك الأمازيح والألاعيب اللفظية بما قال ، ثم اذا هو يصرخ قائلاً وقد بلغ ذروة الكرب في هذه المرة :

ـ آه ... ليت يوم الاحد لا يحين أبدا . لماذا يستحيل أن يوجد أسبوعٌ بغير يوم أحد ، ولو مرةً واحـــدة ، « اذا كان ثمة معجزة » ؟ (بالفرنسية) . لن يصعب على العناية الالهية مع ذلك أن تلغي من التقويم يومَ أحدٍ لتبرهن على قوتها للملاحدة ، و « لينتهي الأمر » ! آه ... لكم أحببتها ! عشرون عاما ! خـــلال عشرين عاما ! ولم تفهمني في يوم من الأيام !

سألته مدهوشاً :

ـ ولكن عمَّن تتكلم الآن ؟ أنا أيضا أصبحت لا أفهم عنك .

ـ « عشرون عاما » (بالفرنسية) . ولم تفهمني مرةً واحدة ! آه .. ذلك قاس . أهي تتصور حقا أنني أتزوج عن خوف ، حتى لا أكون في عوز وفاقة ؟ آه ... هذا عار ! عمتاه ! عمتاه ! أنا من أجـــلك انما ... ألا فلتعلم هذه العمة أنها المرأة الوحيدة التي أحببتها حب العبادة طـــوال حياتي ! عشرون عاما ! يجب أن تعلم ذلك ، والا فلن يتم شيء ، وســوف

يكون عليهم أن يستعملوا القوة ليجرونى فيضعوا رأسى تحت «مايسمونه» (بالفرنسية) اكليل الزواج .

تلك أول مرة أسمع فيها هذا الاعتراف ، وأسمعه بألفاظ فيها كل هذه القـوة القاطعة . لا أكتمكم اننى قد استبدت بى رغبـةٌ فى الضحك لا تقاوَم ولا تغالَب . لكننى أخطأت .

هتف يقول فجأة وهو يضم يديه احداهما الى الاخرى كمن فجأته فكرة جديدة :

ـ لم يبق لى الآن أحد غيره ! هو أملى الوحيد . وحده يستطيع بعد اليوم أن ينقذنى ، ابنى الصغير المسكين ! ولكن ... آه ... لماذا تأخر ؟ آه ،يابنى ! حبيبتى بتروشكا ! ... رغم اننى لا أستحق أن أسمى أباً بل نمراً ، فاننى ... « اتركنى يا صديقى » (بالفرنسية) . سوف أضطجع قليلا لأستجمع أفكارى . أنا مكدود جدا ، جدا ! ... ومن جهة أخرى يخيَّل الىَّ أن قد آن لك أنت أيضا أن تمضى الى النوم . أترى ؟ لقـــد انتصف الليل ...

الفصل الرابع

العرجاء

١

لم يكن شاتوف عنيدا في هذه المرة : لقد لبى الرجاء الذي أعربت له عنه في رسالتي ، فجاء في ظهر الغد الى عند ليزافتا نيقولايفنا . وصلنا في وقت واحد تقريبا . هذه زيارتي الأولى للسيدة دروزدوف وابنتها . كانت ليزافتا نيقولايفنا وابنتها ومافريكي نيقولايفتش جالسين في الصالون الكبير يتناقشون . كانت السيدة دروزدوف قد طلبت من ابنتها أن تعزف لها على البيانو لا أدري أي لحن من ألحان الفالس . ولكن حين أخذت ليزايفنا تعزف أعلنت الأم أن هذا اللحن ليس هو اللحن المطلوب . ولبساطته وسذاجته ، تحيّز مافريكي نيقولايفتش للفتاة ، فأكد أن اللحن الذي عزفته هو بعينه الفالس الذي طلبته الأم . فاغتاظت براسكوفيا ايفانوفنا ، وأخذت تبكي من شدة الغضب : كانت ساقاها متورمتين ، وهي منذ بضعة أيام كثيرة النزوات والأخيلة ، سريعة الى المشاجرة ، تختصم مع الجميع وان تكن ليزا تخيفها دائما .

سُرّوا برؤيتنا سروراً عظيماً . واحمرت ليزا غبطة وابتهاجا ، وابتهاجا ، وقالت لي « شكرا » (من أجل شاتوف طبعا) ومضت نحوه تنظر اليه مستطلعة .

وقف شاتوف على العتبة وقد بدا عليه الارتباك ، وظهرت فى هيئته الخراقة . وشكرت له ليزا مجيئه ، وقادته الى قرب أمها .

ـ هو السيد شاتوف الذى حدثتك عنه . وهذا هو السيد «ج..ف» الصديق الحميم لستيفان تروفيموفتش ، وصديقى أنا أيضا . لقد تعرف مافريكى نيقولايفتش اليه أمس .

ـ أيهما أستاذ ؟

ـ ما من أحد منهما أستاذ يا ماما .

ـ بلى . أنت نفسك قلت لى ان أستاذا سيأتى الينا اليوم .

ثم أضافت تقول وهى تشير الى شاتوف مشمئزة الهيئة :

ـ لا شك أن الاستاذ هو هذا .

ـ لم أقل لك أبدا ان أستاذا سيأتى الينا اليوم . ان السيد «ج..ف» موظف ، والسيد شاتوف طالب سابق .

ـ طالب أو أستاذ ... المهم أنه من الجامعة . انك لا تسعين الا للمجادلة والمناقشة . ان الذى رأيناه فى سويسرا كان له شارب ولحية صغيرة .

قالت ليزا :

ـ ان ابن ستيفان تروفيموفتش هو الذى تسميه ماما دائما باسم الاستاذ .

ثم اقتادت شاتوف الى الطرف الآخر من الصالون حيث جلسا على كنبة .

ودمدمت تقول لشاتوف وهى ما تزال تتفرس فيه مستطلعةً ، وتنظر خاصة الى شعره المتناثر خصلاً :

ـ حين تتورم ساقاها تصبح دائما على هذه الحال ، انها مريضة .

سألتني العجوز التي تركتني لها ليزا بغير رحمة أو رأفة :

ـ أأنت عسكري ؟

ـ لا ، انني أعمل في ...

فتدخلت ليزا على الفور قائلةً :

ـ ان السيد « ج ... ف » صديق حميم لستيفان تروفيموفتش .

ـ أأنت تعمل في خدمة ستيفان تروفيموفتش . هو أيضا أستاذ . أليس كذلك ؟

صاحت ليزا تقول غاضبة :

ـ أوه ! ماما ! انك لا تحلمين ليلا ولا نهارا الا بأساتذة !

ـ يكفيني الذين أراهم وأنا يقظى في النهار . انك لا تفكرين الا في معارضة أمك . هل كنتَ هنا ، منذ أربع سنين ، أثناء اقامة نيقولاي فسيفولودوفتش ؟

فأجبت بأنني كنت هنا فعلاً .

ـ هل كان معك رجل انجليزي .

ـ لا ، لم يكن ثمة رجل انجليزي .

أخذت ليزا تضحك . فقالت الأم :

ـ هيه ! أرأيت أنه لم يكن ثمة رجل انجليزي . لم يكن ذلك اذن الا كذباً . ان فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش يكذبان . هم جميعا يكذبون على كل حال .

ـ ان عمتي وستيفان تروفيموفتش قد وجدا شيئا من التشابه بين نيقولاي فسيفولودوفتش والأمير هاري في مسرحية هنري الرابع التي

ألفهـا شكسـبير . وها هي ذي ماما تقـول الآن ان حكاية وجـود ذلك الانجليزى كذب .

اذا لم يوجد هارى هنا ، فمعنى ذلك أنه لم يكن ثمة رجل انجليزى، وأن نيقولاى فسيفولودوفتش كان وحده يؤلف مهازل .

وجدت ليزا أن من الضرورى أن تشرح لشاتوف فقالت له :

ـ أؤكد لك أن ماما تفعل هذا عامدةً . انها تعرف من هو شكسبير. وقد قرأت لها بنفسى الفصل الأول من مسرحية عطيـــل . ولكنها الآن مريضة جدا . ماما ! اسمعى . دقّت الساعة الثانية عشرة . هـــذا وقت تجرعك الدواء .

ودخلت الخادمة تعلن :

ـ وصل الطبيب .

فنهضت السيدة العجوز ، وجعلت تنادى كلبها : «زيميركا ، زيميركا، أنت على الأقل ستأتى معى ! » .

ولكن زيميركا ، وهو كلب هرم خبيث ، رفض أن يطيع ، واندس تحت الكنبة حيث كانت ليزا جالسة .

قالت السيدة تخاطب الكلب :

ـ ألا تريد أن تأتى ؟ طيب ! لست فى حاجة اليك .

ثم التفتت الىَّ وقالت :

ـ الى اللقاء أيها السيد . اننى لا أعرف اسمك ولا اسم أبيك .

ـ أنطون لافرنتيفتش ...

ـ لا قيمة لهذا عندى . ان ما يدخل من احدى الأذنين يخرج من الأخرى . لا ترافقنى يا مافريكى نيقولايفتش . أنا لم أناد الا زيميركا .

الحمد لله على اننى ما زلت أستطيع أن أمشى وحيدة ، وغدا سوف أمضى أتنزه •

وخرجت ساخطة أشد السخط •

قالت ليزا وهى تبتسم لمافريكى نيقولايفتش ابتسامة فيها كثير من الصداقة ، حتى لقد أشرق وجه الشاب سرورا بنظرة الفتاة اليه :

ـ يا أنطون لافرنتيفتش ، تحدث قليلا مع مافريكى نيقولايفتش ، بانتظار أن نفرغ نحن من حديثنا • أؤكد لكما أنكما كليكما ستجنيان خيرا من مزيد من التعارف بينكما •

لم يبق لى من حيلة : بقيت أتحدث مع الضابط •

٢

ما كان أشد دهشتي حين تأكدت من أن الفرض الذى استدعت الفتاة من أجله شاتوف انما يتعلق بالادب فعلا ! كنت قد تخيلت ، لا أدرى لماذا ، أنها كانت تهدف الى غاية أخرى حين استدعته . فحين لاحظنا أنا ومافكريكى نيقولايفتش أنهما يتكلمان بصوت عال ، ولا يخطر ببالهما أن يتخاطبا فى السر ، أخذنا نصغى اليهما ، وسرعان ما اتجها هما الينا يسألاننا النصح فى أمر المشروع الذى تعرضه ليزافتا نيقولايفنا : كانت ليزافتا نيقولايفنا قد تخيلت اصدار كتاب ترى أنه مفيد جدا ، لكنها فى حاجة الى معاون لافتقارها الى الخبرة . وقد أدهشتنى اللهجة الجادة التى أخذت تشرح بها خطتها لشاتوف . فقلت لنفسى : « هذه فتاة متطورة . لم تذهب اقامتها بسويسرا هدرا » . وكان شاتوف يصغى اليها بانتباه ، مطرقاً الى الارض ، ليس يدهشه فيما يبدو أن يرى فتاة من المجتمع الراقى ، فتاة لاهيةً غير مكترثة ، تهتم بأمور يلوح للمرء فى الوهلة الاولى أنها لاتناسبها كثيرا .

اليكم المشروع الأدبى * الذى تفكر فيه ليزا : ان عددا كبيراً من المجلات والجرائد يُطبع بروسيا ، فى الاقاليم وفى العواصم على السواء ؛ وهذه المجلات والجرائد تطلع قراءها على جميع الاحداث بانتظام ؛ وتمضى السنة وتتكوم الجرائد فى الخزائن ، أو تُرمى ، أو تُمزّق ، أو تصنع منها أكياس ، أو تستخدم فى تغليف أشياء شتى . ان بعض الاحداث التى روتها المجلات والجرائد يكون قد أثار اهتمام الناس اثارة شديدة، فاحتفظ الناس بذكراه ، لكن السنين تمر فينسونه . وان كثيرا من الأفراد يحبون

بعد ذلك أن يتذكروا تلك الأحداث ، ولكن ما أصعب العمل في البحث بين تلك الأكوام من الأوراق عن أمر معين في موضوع حادثة خاصة وقعت لا ندري أين ولا ندري متى ! ... فاذا استطعنا أن نكثّف في كتاب واحد جميع الوقائع التي حدثت خلال سنة كاملة ، مرتّبين اياها على الأيام والأشهر وفقاً لخطة موضوعة وفكرة موجّهة ، مضيفين اليها فهرساً ودليلا أبجديا ، فان كتابا من هذا النوع سوف يصوّر السمات الاساسية للحياة الروسية خلال السنة المنصرمة ، ومع ذلك لا تكون هذه المعلومات قد اشتملت الا على جزء يسير من الوقائع .

ـ بهذا تُحلّين محلّ الجرائد والمجلات الكثيرة عددا من الكتب الضخمة ! ذلك كل شيء .

لكن ليزافتا نيقولايفنا ، رغم أنها لا تجيد التعبير عن أفكارها ، دافعت عن مشروعها بحرارة على علمها بالمصاعب التي ستعترض تنفيذ هذا المشروع . قالت : ليس الامر الا أمر كتاب واحد في مجلد واحد ، ولن يكون ضخما ضخامة كبيرة . وهنا اضطررنا أن نجعله أسمك ، فان من الواجب أن يكون واضحا على كل حال : ان كل شيء متوقف على الخطة المرسومة ، وعلى طريقة عرض الوقائع . لن نستطيع طبعا أن نجمع وننشر كل الوقائع . فالقرارات والمراسيم التي تصدرها الحكومة ، والقوانين والأنظمة المتعلقة بالادارات المحلية ، هذه كلها هامة جدا ، ولكن لا يمكن أن يكون لها مكان في الكتاب الذي أريد اصداره . يجب علينا أن نقصر اختيارنا على أحداث تميّز الحياة الروحية للشعب الروسي وتميّز شخصيته ، في هذه المرحلة بعينها خاصةً . لا شيء يجب اهماله : الطرائف ، الحرائق ، التبرعات العامة ، الاعمال البطولية والاجرامية ، الخطب ، الفيضانات ، الخ ، وربما بعض قرارات الحكومة ، على شرط أن

لا نختار الا الأحداث التي تصوّر العصر ، نجمعهـــا على نيةٍ محددة ، ونُخضعها لفكرة موجّهة.فهذه الفكرة الموجهة ستلقي نورا على المجموع، وتجعل منها كلاً مترابطا . ثم ان هذا الكتاب ، عدا قيمته الوثائقية ، يجب أن يستهوي محبي القراءات الخفيفة أيضا . ســوف يكون نوعا من لوحة كاملة تصوّر الحياة الروحية والاخلاقية في داخل روسيا خلال عام . « يجب أن يشتريه جميع الناس . يجب أن يوجد هذا الكتاب على كــل مائدة . انني أدرك أن كل شيء متوقف على المخطط ، ومن أجل ذلك انما أتوجه اليك وأستعين بك . . » . كذلك قالت ليزا بحـــرارة . ورغم أن شروحها كانت غامضة وناقصة فقد بدأ شاتوف يفهم . فقال مدمدما وهــو ما يزال خافض الرأس :

ـ سيكون للكتاب اذن اتجاه وميل . سيتم اختيار الوقائع والاحداث على أساس ميلٍ معين .

ـ لا ، أبدا . يجب أن لا ننظر الى الامور من خلال رأي معين . لا داعي الى اتباع اتجاه محدّد . سيكون اتجاهنا الوحيد هـــو عـــدم التحيز .

قال شاتوف وهو ينصب جسمه قليلاً :

ـ ولكن اتباع اتجاه معيّن ليس بالأمر السيء الى هذا الحد . وانه لمن المستحيل على كل حال أن يستغني المرء عن ميل معيّن استغناءً تاماً ما دام يختار . ان اختيار الوقائع نفسه سيشير للقراء الى الطريقـــة التي يجب عليهم أن يفهموها بها . ليست فكرتك رديئة .

قالت ليزا سعيدةً كل السعادة :

ـ أتعتقد اذن أن مثل هذا الكتاب ممكن ؟

ـ يجب أن أدرس المسألة وأن أفكر فيها. هذا عمل ضخم. يستحيل

على المرء أن يرى جميع جوانبه فورا . اننا تعوزنا الخبرة . وحتى بعد اصدار المجلد الاول ، لن نكون قد علمنا أشياء كثيرة ولن تكون خبرتنا قد اكتملت . ربما بعد عدة تجارب من هذا النوع .. ولكن الفكرة شائقة هامة ، وهي نافعة مفيدة .

ورفع عينيه أخيراً ، فكانتا تلمعان ، وكان مفتونا .

وسألها أخيرا بلهجة فيها خجل وحنان معا :

ـ أأنت ابتكرت هذه الفكرة وحدك من تلقاء نفسك ؟

أجابت ليزا مبتسمة تقول :

ـ ليس ابتكار الفكرة أمراً صعبا . وانما الصعب وضع المخطط . ان أمورا كثيرة تفوتني . أنا لست ذكية جدا ، ولكنني لا ألاحق الا ما أراه رؤية واضحة .

ـ تقولين « لا ألاحق » ؟

ـ لا شك أنني استعملت كلمةً بدلاً من كلمة ؟ أليس كذلك ؟

هكذا أسرعت تسأله ليزا بحرارة . فأجابها بقوله :

ـ لا . الكلمة مناسبة . لم أشأ أن أقول شيئا .

ـ حين كنت ماأزال في الخارج ، أقنعت نفسي بأنني أستطيع أنا أيضا أن أكون نافعة . انني أملك مالاً ، ولا أصنع به شيئاً . فلماذا لا أكون قادرة على أن أساهم أنا أيضا في العمل العام ؟ على أن الفكرة قد جاءتني من تلقاء نفسها . لم أبحث عنها ، لم أسع اليها . لكنني سعدت باكتشافها . ومع ذلك سرعان ما رأيت أنني لا أستطيع الاستغناء عن معاون لأنني لا أجيد القيام بعمل وحدي . طبعا سيكون هذا المعاون شريكا في اصدار الكتاب . اننا نقتسم اصدار الكتاب : فمنك المخطط والعمل ، ومني الفكرة الأولى والمال . ألا تعتقد أن ربح الكتاب سيغطي نفقاته ؟

ـ اذا أحسنا الاهتداء الى مخطط جيد فسوف يباع الكتاب .

ـ لاحظ أنني لا أفعل هذا بغية الحصول على فوائد . ولكنني أتمنى أن يروج الكتاب رواجا كبيرا ، وأن يعود علينا ببعض الربح .

ـ وأنا ما شأني في الامر ؟

ـ أنت المعاون الذي أدعوه الى مشاركتي في اصدار الكتاب بمناصفة . أنت تضع المخطط .

ـ كيف عرفت انني قادر على تخيل هذا المخطط .

ـ حُدِّثت عنك . وهنا سمعت ... انني أعرف أنك ذكي جداً ، و ... أنك تعمل ، وأنك تفكر كثيرا . كلمني عنك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي في سويسرا ...

كذلك أسرعت تضيف هذه الجملة الاخيرة. وتابعت كلامها تقول :

ـ انه رجل ذكي جدا ، أليس كذلك ؟

شملها شاتوف بنظرة عجلى ، وسرعان ما عاد يخفض عينيه .

قالت ليزا :

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش ، هو أيضا ، حدثني عنك كثيرا .

فاحمر وجه شاتوف فجأة .

قالت ليزا وهي تتناول من على الكرسي حزمة من الجرائد كانت قد أعدتها ووضعتها هناك :

ـ اليك الجرائد على كل حال . لقد حاولت أن أتخيَّر من بين الوقائع بعضها ، فأشرت اليه ووضعت له أرقاما ... سوف ترى .

تناول شاتوف حزمة الجرائد .

ـ خذها معك ، وادرسها في بيتك . أين تسكن ؟

ـ عمارة فيليبوف ، شارع ايبيفانيا ؟

ـ اعرف . وهنالك أيضا انما يسكن ، فيما أظن ، رجل يسمى ليادكين .

كذلك قالت ليزا متعجلة .

لبث شاتوف جالسا ، خافض العينين ، ممسكا حزمة الجرائد بيده ، صامتا لا يجيب خلال دقيقة كاملة . ثم قال بصوت منخفض انخفاضا غريبا حتى ليكاد يكون تمتمة :

ـ الأفضل أن تختارى لمثل هذه الأمور شخصا آخر . أنا لن أنفعك .

فاحمرت ليزا احمرارا شديدا ، ثم هتفت تقول :

ـ أى أمور تقصد ؟ يا مافريكى نيقولايفتش ، جئنى من فضلك بالرسالة التى وصلت منذ مدة قصيرة .

وتبعت الضابط الى المائدة .

قالت مضطربةً أشد الاضطراب وهى تلتفت نحوى فجأة وتفض الرسالة :

ـ انظر ! هل رأيت فى حياتك شيئا كهذا ؟ اقرأ الرسالة بصوت عالٍ ، أرجوك . اننى فى حاجة الى أن يسمعها السيد شاتوف أيضا .

فقرأت الرسالة التالية مندهشا أشد الاندهاش :

الى الآنسة توشين الكاملة اعظم الكمال ،
الى المحترمة جدا ليزافتا نيقولايفنا !

آه ما اروعها
ليزافتا توشين ،
حين تعلو مع قريبها
على صهوة جوادها الكريم

فتلاعب الريح ضفائر شعرها .
او حين تسجد في الكنيسة
فيتخضب وجهها بجمرة حلوة .
عندئذ اتطلع الى افراح الزواج المشروعة
واتابع آثارها باليا ..

« نظمها جاهل اثناء مناقشة »

« سيدتي ،

« أكثر من أي انسان آخر ، يؤسفني ويحزنني أنني لم أفقد ذراعا في سياستوبول ، لأنني لم أكن في سياستوبول يوما من الايام ، وانما قضيت مدة الحرب أعمل في مصلحة التموين الخسيسة ، وذلك ما أعده صغارا . أنت الهة من آلهة الأساطير القديمة ، أما أنا فلست شيئاً ، ولكنني أحس سلفاً باللانهاية . اعتبري هذا قصيدة ، فما هو أكثر من ذلك . وما الشعر في النهاية الا حماقة ، لكنه يسوّغ ما لو قيل نثراً لعُدّ وقاحة . هل يمكن أن تغضب الشمس من دويبة الماء اذا خاطبتها الدويبة بقصيدة من قرارة قطرة الماء التي يكتشف فيها المكرسكوب عددا كبيرا من هذه الدويبات ؟ حتى نادي حماية الحيوانات * الكبيرة الذي أنشىء ببطرسبرج، في المجتمع الراقي ، رغم ما يشعر به من عطف على كلب أو حصان ، وهو عطف في محله ، انما يحتقر دويبة الماء الرقيقة ولا يشير اليها أية اشارة ، لأنها غاية في الصغر . أنا أيضا في غاية الصغر . وفكرة الزواج يمكن أن تبدو سخيفة مضحكة . لكنني سأملك بعد قليل أرضاً تُقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس * ، وذلك بواسطة رجل كاره للبشر لا بد أنك تحتقرينه . ان في امكاني أن أطلعك على أشياء كثيرة ، بل انني مستعد لأن أواجه احتمال النفي الى سيبريا ، لأنني استند الى وثائق . لا تحتقري ما أعرضه عليك . اعتبري رسالة دويبة الماء شعرا » .

هتفت أقول مستاءً :

ـ هذه الرسالة قد كتبها وغد حقير سكّير . انني أعرفه .

قالت ليزا متدفقةً في كلامها وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :

ـ تلقيتها أمس . فسرعان ما أدركت أنها صادرة عن معتـــوه ! لم أُظهر عليها ماما حتى الآن ، حتى لا تضطرب مزيداً من الاضطراب . ولكن اذا تمادى ، فانني لا أدري ماذا أفعل . ان مافريكى نيقـــولايفتش يريد أن يمضي اليه فيؤدبه ويرده الى الصواب .

ثم قالت لشاتوف :

ـ لما كنت أعدُّك معاوني ، وما دمت تقطن في نفس العمارة ، فقد أردت أن أسألك عما ينبغي أن أتوقع منه .

فدمدم شاتوف يقول كمن يتكلم على مضض :

ـ سكير ودنيء !

ـ أهو غبي الى هذا الحد ؟

ـ لا يكون غبيا اذا لم يشرب فيسكر .

قلت ضاحكا :

ـ أعرف جنرالا كان ينظم أشعارا كهذه تماما .

وانبرى مافريكى نيقولايفتش الصموت دائما فقال على حين فجأة :

ـ هذه الرسالة وحدها تدل على أنه يبيِّت فكرة .

سألت ليزا :

ـ سمعت أنه يعيش مع أخته ، أهذا صحيح ؟

ـ نعم .

ـ يظهر أنه يضطهدها ويسومها سوء العذاب . أهذا صحيح ؟

مرة أخرى رفع شاتوف عينيه نحو ليزا ، وقطب حاجبيه ، وتقدم خطوة نحو الباب وهو يدمدم قائلا :

ـ ذلك لا يعنيني !

صاحت ليزا تقول مضطربة كل الاضطراب :

ـ انتظر ! الى أين تذهب ؟ ما يزال علينا أن نتفق على أمور كثيرة !

ـ على ماذا يجب أن نتفق ؟ سأُبلغك غدا ...

ـ لم نتحدث حتى الآن عن الشيء الأساسي ، عن المطبعة . صدّق أن مشروعي ليس مزاحاً . انني أريد أن أعمل فيه جادةً .

كذلك ألحت ليزا وهي تضطرب مزيدا من الاضطراب . وتابعت كلامها تقول :

ـ اذا قررنا اصدار هذا الكتاب ، فأين سنطبعه ؟ ذلك أهم شيء . لن نمضي نقيم بموسكو خصيصا لهذا الغرض . ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نعتمد على المطبعة الموجودة هنا لانجاز عمل من هذا النوع . لذلك قررت منذ مدة طويلة أن تكون لي مطبعة خاصة بي ، تُسجَّل باسمك طبعا . أنا أعلم أن ماما لن تسمح لي بامتلاك المطبعة الا على شرط أن تُسجَّل باسمك ...

سألها شاتوف مربدَّ الوجه :

ـ كيف عرفت أن في وسعي أن أتولى أمر مطبعة ؟

ـ ان بطرس ستيفانوفتش هو الذى حدثني عنك في سويسرا ، فأكد لي أنك قادر على ادارة مطبعة ، لمعرفتك بالمهنة . حتى لقد أراد أن يحمّلني رسالةً اليك ، لكنني نسيت .

تغير وجه شاتوف لدى سماع هذه الكلمات (أتذكر هذا الآن) . ولبث صامتا لحظة ، ثم فتح الباب فجأة وخرج .

زعلت ليزا .

وسألتنى :

ـ هل يتصرف دائما على هذا النحو ؟

وبينما كنت أرفع كتفيّ جوابا على سؤالها ، اذا هو يعـــود بغتةً ، فيتوجه نحو المائدة رأساً ، فيضع عليها حزمة الجرائد التى كان قد حملها، وقال :

ـ لن أتعاون معك . لا يتسع وقتى ...

فهتفت ليزا تقول بصوت متألم متضرع :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ يبدو عليك أنك زعلان !

فظهر عليه أن نبرة صوتها قد فجأته ، فتأملها ملياً بضـــع لحظات ، كأنه يريد أن ينفذ الى قرارة نفسها . ثم قال بصوت خافت :

ـ ليس هذا مهماً . لا أريد .

وخرج جازماً فى هذه المرة .

بدا لى فى تلك اللحظة أن ليزا قد تشوشت تشوشا كبيرا تجـــاوز الحدود المعقولة .

وقال مافريكى نيقولايفتش :

ـ انه غريب الأطوار حقا .

٣

« غريب الأطوار » فعلاً . ولكن الامر كله ليس واضحا ، ولا بد أن له دلالة خبيثة . رفضت ، بيني وبين نفسي ، أن آخـــذ مشروع نشر الكتاب مأخذ الجد . ثم ان هناك تلك الرسالة الحمقاء التي يعرض فيهـا كاتبها ، وذلك أمر واضح كل الوضوح ، أن يشي بشخص ما بالاستناد الى وثائق . ولم ينطق أحد بكلمة حول هذا الموضوع ، وجعلوا يتكلمون في شيء آخر . وهناك أخيرا حكاية المطبعة ، وانصرف شاتوف على حين فجأة مدفوعا الى ذلك بكلمات معينة قالتها ليزا بهذا الصدد . ذلك كله حملني على التفكير في أن أمرا أجهله كان قد حدث قبل وصولي ، وأن وجودي اذن كان زائدا ، وان ذلك كله لا يعنيني على كل حال . ثم لقد آن أوان الانصراف . وما يجوز أن تمتد زيارة أولى وقتاً أطول . فاقتربت من ليزا نيقولايفنا لأودعها .

كانت كأنها نسيت وجودي ، وهي ما تزال واقفة أمام المائدة ، غارقة في أفكارها ، خافضة الرأس ، محدّقة بعينها الى السجادة .

دمدمت تقول بصوتها الذي ما يزال ودوداً :

ـ آه ... أتنصرف أيضا . انقل تحيتي الى ستيفان تروفيمـــوفتش وقل له أن يجيئني في أقرب وقت ممكن . يا مافريكي نيقولايفتش ، ان أنطون لافرونتيفتش ذاهب . اعذر ماما ، فانهـــا لا تســـتطيع أن تجيء لتودعك .

وخرجت . فلما وصلت الى أدنى السلم أدركني خادم وقال لي :

ـ السيدة ترجوك أن تعود .

ـ أهي السيدة أم ليزافتا نيقولايفنا ؟

ـ ليزافتا نيقولايفنا .

فلما رجعت وجدت ليزا لا في الصالون الكبير بل في صالة الاستقبال المجاورة . وكان الباب الذي يفصل هذه الصالة عن الصالون الذي بقي فيه مافريكي نيقولايفتش مغلقاً .

ابتسمت لي ليزا وهي مصطبغة الوجه بصفرة شديدة . كانت واقفة في وسط الغرفة على وضع متردد ، وكان واضحا أنها تعاني صراعا داخليا عنيفا . وفجأةً تناولت يدي دون أن تقول كلمة واحدة ، وقادتني نحو النافذة . ودمدمت تقول لي وهي تصوِّب الىَّ نظرةً حارة آمرة نافذة الصبر ، لا تقبل أي اعتراض :

ـ أريد أن أراها حالاً . أريد أن أراها بعينيَّ ، وأرجوك أن تساعدني في هذا ؟

سألتها مرتاعا :

ـ من هي التي تريدين أن تريها يا ليزافتا نيقولايفنا ؟

ـ أخت ليادكين ، تلك العرجاء ... أصحيح أنها تعرج ؟

ذُهلت وشُدهت ، وأسرعت أجيبها بصوت خافت أيضا :

ـ لم أرها في حياتي ، ولكن قيل لي انها عرجاء ، قيل لي هذا أمس .

ـ يجب أن أراها حتما . هل يمكن أن يتم هذا اللقاء اليوم ؟ هل تستطيع أن تدبِّر ذلك ؟

وشعرت نحوها بشفقة على حين فجأة . قلت :

ـ مستحيل . حتى انني لا أعرف كيف أحتال على الامر . سأرى شاتوف ...

ـ اذا لم تتوصل الى تدبير هذا اللقاء حتى الغـــد ، فسأذهب أنا الى عندها ، سأذهب وحدى ، لأن مافريكى نيقولايفتش يرفض أن يصحبنى . أملى الوحيد فيك أنت . لا أستطيع أن أعتمد على أحد غيرك . لقد كلمتُ شاتوف بكثير من الحماقة والغباوة منذ قليل . اننى على يقين من أنك رجل شريف كل الشرف ، وأنك ربما كنت مخلصا لى . دبِّر لى هـــذا اللقاء، أرجوك !

أحسست فجأة برغبة قوية كل القوة فى مساعدتها . فقلت لها بعد لحظة من تأمل :

ـ اليك ما سوف أفعله : سأذهب بنفسى ، وسأظفر برؤيتها حتما ، حتما ؛ لك علىّ عهد الشرف لأظفرنّ بذلك . ولكن اســـمحى لى بأن أكاشف فى الامر شاتوف .

ـ قل له ان هذه رغبتى ، واننى أصبحت لا أطيق الانتظار ولكن قل له أيضا اننى لم أخدعه منذ قليل . فلعله انصرف لأنه صريح جدا ، ولأنه تخيَّل أننى أردت أن أخدعه . لا ، لم أكذب . اننى عازمة فعلاً عـلى اصدار ذلك الكتاب وعلى انشاء مطبعة .

قلت ملحاً بحرارة :

ـ نعم ، انه صريح وشريف .

ـ ولكن اذا لم يتم الامر غدا فسوف أذهب اليها بنفسى مهما يحدث من أمر ، سوف أذهب اليها ولو عرف بذلك جميع الناس .

قلت وقد استرددت هدوئى :

ـ لن أستطيع أن أجيئك غدا قبل الساعة الثالثة .

قالت وهى تبتسم :

ـ طيب . انتظرك في الساعة الثالثة . لم يخطىء ظني اذن بالأمس حين حزرت أنك مخلص لي .

وشدت على يدي بسرعة ، وجرت تدرك مافريكي نيقولايفتش .

خرجت مرهقاً بثقل الوعد الذي قطعته على نفسي . لم أفهم ماحدث. رأيت امرأة قد بلغت ذروة الكمد والحزن ، ولا تخشى أن تعرّض نفسها لسوء باعتمادها على رجل لا تكاد تعرفه . ان ابتسامتها الملاطفة ، في لحظة تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، واعترافها هي ذاتها بأنها لاحظت عواطفي ، ذلك كله قد هزّ قلبي هزةً قوية . ولكنني لم أشعر نحوها الا بالشفقة . وأصبحت أسرارها في نظري مقدسةً ان صح التعبير ، فلو أراد أحد أن يفضي بها اليّ الآن لسددت أذنيّ رافضاً سماعها فيما أعتقد . وكنت مع ذلك أوجس شيئا ما ... لكنني لا أدري حقاً كيف عسى أتصرف لأفي بوعدي . بل هناك ما هو أكثر من ذلك : كنت لا أعرف على وجه الدقة ما هو المطلوب مني . ان على أن أهيء لقاءً ، ولكن أي لقاء ؟ وكيف أتصرف من أجل أن أجمعهما ؟ كان أملي كله في شاتوف . ولكنني كنت على ثقة مقدما بأنه لن يساعدني البتة . ومع ذلك هرعت اليه .

٤

لم أجده بالبيت الا فى نحو الساعة الثامنة من المساء . وما كان أشد دهشتى حين رأيت عنده ناساً ، هم ألكسى نيلتش وسيد لا أكاد أعرفه ، رجل يقال له شيجالوف ، هو أخو زوجة فرجنسكى .

ان شيجالوف هذا قد وفد الى مدينتنا منذ قرابة شـــهرين ، اذا لم يخطىء تقديرى . لا أدرى من أى بلد جاء . كان يقال انه نشر مقالاً فى مجلة تقدمية ببطرسبرج . وقد قام فرجنسكى بتعريف أحدنا بالآخر فى الشارع ذات يوم. لم أرَ فى حياتى وجهاً كوجه هذا الرجل عبوساً وتجهماً بل وحداداً . لكأنه يتوقع دمار العالم وخراب الكون لا فى وقت قريب أو بعيد ، وفقاً لنبوءات يمكن أن تتحقق ويمكن أن لا تتحقق ، بل فى وقت محدد معين ، بعد غدٍ مثلا ، فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من المساء . لم نكد نتبادل كلمتين فى ذلك اللقاء الأول ، وانما اكتفينا بأن نتصافح كما يتصافحان شريكان فى مؤامرة . وقد لفتت نظرى فيه خاصةً أذناه الضخمتان ضخامةً غير عادية ، الطويلتان العريضتان الســميكتان ، المتباعدتان عن رأسه تباعدا غريبا . وكانت حركاته بطيئةً خرقاء . اذا كان ليبوتين يتخيَّل أننا قد نتوصل يوما الى انشاء تعاونية على طريقة فوريـــه فى مقاطعتنا ، فان شيجالوف كان يحدد لك اليوم والساعة اللذين سيتحقق فيهما قيام هذه التعاونية . لقد أحدث شيجالوف فى نفسى احساسا يشتمل على شؤم . وفاجأنى أن ألقاه عند شاتوف ، لاسيما وأن شاتوف كان لايحب الزيارات كثيرا .

لقد سمعتهم يتناقشون هم الثلاثة مناقشة حامية جدا منـــذ أن كنت

أصمد السلّم . كان يبدو أنهم يتشـــاجرون . ولكن ما ان دخلت حتى صمتوا . كانوا يشتجرون وهم واقفـــون ، ولكنهم حين رأوني عادوا يجلسون ، فكان عليّ أن أجلس أنا أيضا . وران على الغرفة صمت أبله امتد ثلاث دقائق كاملة . وتظاهر شيجالوف بأنه لا يعرفني رغم أنه قـــد تعرفني فعلا ؟ تظاهر بذلك لا بدافع عداوة ، بل بدون أي سبب حتما . أما ألكسي نيلتش فقد حياني وحييته من بعيد صـــامتين ، دون أن نتصافح ، لا أدري لماذا ! أخذ شيجالوف يرمقني بنظرة قاسية ، مستاءة ، مقتنعا بأنني سأنهض وأنصرف . وقام شاتوف أخيرا ، وقام بعده الآخران . وخـــرجا دون أن يودّعا . ولكن شيجالوف قال عند العتبة لشـــاتوف الذي كان يشيّعهما الى الباب :

ـ تذكّر أن عليك حسابا لنا ستؤديه .

ـ أنا لا أبالي بهذا كله ، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد .

قال شاتوف ذلك وأغلق الباب وراءهما ، وأحكم شدّ مزلاجه . ثم قال وهو ينظر اليّ ويبتسم ابتسامة تشبه أن تكون كشرة :

ـ يا للمعتوهين ! ...

كان يبدو غاضبا ، وأدهشني منه أن يكون هو البادىء بالكلام . لقد عوّدني ، حين كنت أجيء اليه (وذلك نادر جـدا) أن أراه يجلس في ركن من الاركان عابسا ، وأن يجيب عن أسئلتي على مضض ، ثم لا ينتعش ويتحمس الا بعد وقت ، فاذا هو يتحدث عندئذ راضيا مسرورا . ولكنـــه حين يشيّعك مودّعاً ويفتح الباب ، يسترد هيئة من ظفر أخيراً بالتخلص من عدو شخصي .

قلت :



شيجالوف

ـ لقد تناولت الشاى عند ألكسى نيليتش . أعتقد أن الالحاد قد جعله مجنونا .

فدمدم شاتوف يقول وهو يضع شمعة جديدة محل شمعة ذائبة :

ـ ان الالحاد الروسى لم يتجاوز فى يوم من الايام حدود التلاعب اللفظى .

ـ لا ، لا يبدو لى أن كيريلوف واحد من الذين يتلاعبون بالالفاظ. انه عاجز حتى عن التعبير البسيط . فأنّى له أن يقدر على أمازيح قوامها التلاعب بالالفاظ .

قال بهدوء :

ـ هؤلاء رجال من كرتون . تفكيرهم مستعبد . ذلك مصدر كل شىء .

وجلس على كرسى فى ركن ، باسطاً يديه فوق ركبتيه .

ثم قال بعد لحظة صمت :

ثم ان فى ذلك كله كرهاً وبغضاً . ألا انهم ليصبحون تعساء تعاسةً رهيبة لو قُيِّض لروسيا أن تتبدل فجأة وفقاً لما تقتضيه آراؤهم ، فاذا هى تصبح بلداً غنيا مزدهرا يرفرف عليه الرخاء دفعةً واحدة . ذلك أنهم ، اذا تحقق ذلك ، لا يبقى ثمة من يكرهونه ويبغضونه ، لا يبقى ثمة من يبصقون عليه ، لا يبقى ثمة من يسخرون منه ويستهزئون به . ان مردّ ذلك كله الى كره وبغض يشعرون بهما نحو روسيا ، كره وبغض حيوانيين ان صح التعبير ، يملآن شعاب نفوسهم ويشيعان فى خلايا أجسامهم ... ليس الامر عندهم أمر اخفاء دموعهم وراء ابتسامة* .

وختم كلامه بقوله صائحاً فى حنق شديد :

ـ ما من جملة أكذب من هذه الجملة قيلت فى يوم من الايام !

قلت :

ـ الله يعلم ما هذا الذى تقول !

وأخذت أضحك .

قال شاتوف مبتسماً هو أيضا :

ـ أما أنت فلست الا « لبرالياً معتدلاً » .

ثم استأنف كلامه يقول :

ـ أظن أننى قد أفلتت منى كلمة سخيفة حين تكلمت عن « تفكيرهم المستعبد » لعلك ستقول لى : « أنت ابن عبد خادم ، أما أنا فلم أكن خادماً فى يوم من الايام » .

ـ ما خطر ببالى أن أقول كلاما كهذا الكلام فى لحظة من اللحظات ... ما هذا الذى تقول ؟!...

ـ لا تعتذر . لست خائفا منك . أنا لم أكن فى الماضى الا ابن خادم ولكننى اليوم خادم أنا أيضا ، مثلك تماما . ان اللبرالى الروسى خادم قبل كل شىء ، خادم يبحث عن أحذية يلمّعها .

ـ أية أحذية ؟ ما معنى هذا المجاز ؟

ـ مجاز ؟ ... أرى أنك تضحك ... لقد صدق ستيفان تروفيموفتش حين قال اننى مهشم تحت صخرة ، ولكن لا الى حد الموت، واننى أحاول عبثاً أن أنهض . ان تشبيهه هذا صحيح .

قلت ضاحكا :

ـ ستيفان تروفيموفتش يقول انك لا همّ لك الا الألمان . لقد أخذنا منهم شيئاً على كل حال .

ـ نعم ، أخذنا خمسين كوبكا ، ولكننا أعطيناهم مائة روبل من أموالنا .

ولبثنا صامتين دقيقة كاملة .

ـ في أمريكا انما نشأ عنده هذا .

ـ من هو ؟ ماذا نشأ عنده ؟

ـ كيريلوف . لقد قضينا معا في أمريكا أربعة أشهر ، راقدين جنباً الى جنب في كوخ حقير .

ـ ماذا ؟ كنتما في أمريكا ؟ لم تذكر لي ذلك في يوم من الايام .

ـ ما الداعي الى ذكره ؟ منذ سنتين ، جازفنا بآخر ما نملك من قروش ، فسافرنا ثلاثة أشخاص الى الولايات المتحدة على سفينة مهاجرين* « لنتذوق حياة العامل الامريكي ، ولندرك بتجربة شخصية خاصة بنا حالةَ انسانٍ يوجد في ظروف اجتماعية شاقة قاسية » . تلك كانت الغاية من رحلتنا .

صحت أقول وأنا أضحك :

ـ يا سلام ! علام السفر الى أمريكا لمعاناة تلك التجربة الشخصية ؟ كان الأفضل لكم أن تذهبوا الى ريفنا في فترة الحصاد .

ـ دخلنا هنالك عمّالاً لدى مستثمر . كان مجموع عدد الروس عنده ستة ، منهم الطالب ، ومنهم مالك الأطيان جاء من أراضيه ، بل ومنهم الضابط ، وكانت غاية الجميع هي تلك الغاية السامية نفسها . عملنا ، وعرقنا ، وتعبنا حتى كدنا نفطس ، وأخيرا انصرفنا أنا وكيريلوف مكدودين متعبين وقد عيل صبرنا وأصبحنا لا نستطيع احتمال المزيد . وقد خدعنا صاحب العمل حين دفع لنا أجرنا : فبدلا من أن ينقدنا الثلاثين دولارا المتفق عليها ، أعطاني أنا ثمانية ، وأعطى كيريلوف خمسة عشر . وقد حدث لنا أيضا أن ضُربنا غير مرة . هكذا أصبحنا بدون عمل ، أنا وكيريلوف ، فلبثنا راقدين في كوخ حقير جنباً الى جنب . كان هو يجتر أفكاره ، وكنت أنا أجتر أفكاري .

ـ هل يُعقل أن يكون صاحب العمـل قد ضربكما ؟ في أمريكا ؟ انني أتخيل الحنق الذي كان يستعر عندئذ في قلبيكما ، وأتخيـل كيف كنتما تلعنانه .

ـ لا ، أبداً ! بالعكس : لقد اتفق رأينا أنا وكيريلوف فورا على أننا « معشر الروس لسنا الا أطفالاً صغارا بالقياس الى الأمريكان ، وان على المرء أن يكون قد وُلد بأمريكا أو عاش فيها زمناً طويلاً حتى يرقى الى مستوى الأمريكان . » . بل أقول لك أكثر من ذلك : حين كان يؤخذ منا دولار كامل ثمناً لشيء لا يساوي قرشا ، كنا ندفع الدولار راضـين ، بل وكنا ندفعه مسرورين مفتونين . كان كل شيء يفتننا : تحضير الأرواح، قانون لنتش *، المسدسات ، المشردون. وفي ذات يوم ، أثناء سفر ، دسَّ أحدهم يده في جيبي ، فاستل منه فرشاة شعري ، وأخذ يصفف شعره. فلم نزد أنا وكيريلوف على أن تبادلنا نظرة : واستقر رأينا على أن الرجل قد أحسن صنعاً ، وأن هذا قد أعجبنا كثيراً .

قلت :

ـ الشيء الغريب أن مثل هذه الأفكار تنتقل عندنا من نطاق النظرية الى حيز العمل .

عاد شاتوف يكرر :

ـ قلت لك : أناس من كرتون !

ـ ومع ذلك... أن يقطع المرء المحيط على سفينة مهاجرين ، مسافراً الى بلد مجهول لا لشيء الا أن « يعاني بتجربة شخصية » ، الخ ، فان في ذلك لشيئا عظيما كريماً بالفعل ! ... ولكن كيف خرجتم بعد ذلك من المأزق ؟

ـ كتبت الى صديق لي بأوروبا فأرسل اليَّ مائة روبل .

كان شاتوف ، وهو يتكلم ، محدقاً الى الأرض في عناد ، على عادته حتى حين يتحمس • ومع ذلك رفع رأسه في تلك اللحظة قائلاً :

ـ هل تريد أن تعرف اسم ذلك الصديق ؟

ـ ما اسمه ؟

ـ نيقولاى ستافروجين •

ونهض بغتة ، واتجه نحو منضـــدة الكتابة المصـــنوعة من خشب الزيزفون ، وبدا عليه أنه يبحث عن شيء ما • كان يُقال في المدينة ـ دون الدخول في تفاصيل واسعة ـ ان امرأة شاتوف قد كانت لها قبل ســنتين علاقة بنيقولاى ستافروجين في باريس • فهذه العلاقة انما قامت اذن أثناء الفترة التى أقامها شاتوف بأمريكا ، وبعد أن تركت المرأة زوجها بجنيف على كل حال • قلت لنفسي : « اذا كان الامر صحيحا ، فما الذى دفعه الى ذكر اسم ستافروجين ، والى الافاضة في سرد هذه القصة ؟ » •

قال وهو يلتف نحوى من جديد :

ـ وحتى الآن لم أردَّ اليه دينه •

ونظر اليَّ محدقاً ، ثم مضى يجلس ثانية في ركنــه ، وسألنى على حين بغتة بصوت قد تغير تغيراً كاملاً :

ـ انت انما جئت لأمر من الأمور حتماً ، فما الذى تريده ؟ فشرعت أقصُّ عليه القصة كلها فورا ، على حسب تسلســـل الوقائع في الزمان ، وأضفت الى ذلك قولى اننى وقد هدأ الانفعال الاول قد أصبحتُ أشـــد ارتباكا وحيرة : فأنا أدرك أن الامر يهم ليزافتا نيقولايفنا كثيرا ، وأنا عازم على مساعدتها عزما أكيدا ، ولكن البلية هى أننى لا أعرف كيف أتدبر المسألة ، بل ولا أعى ما وعدتها به وعياً تاماً • وأكدت له أخيراً أن ليزافتا نيقولايفنا لم تشأ أن تخدعه ، بل وأن فكرة الخديعة لم تخطر لها ببـــال

قط ، وأن كل ما فى الامر أن قد وقع سوء تفاهم ، وأنها آسفة أشـــد الأسف لانصرافك الباغت .

كان يصغى الىّ بانتباه .

قال :

ـ ربما كنت قد ارتكبت غلطة بالفعل ، على عادتى ... واذا كانت لم تفهم سبب انصرافى فلعل فى هذا خيراً لها ...

ونهض ، واقترب من الباب ، وفتحه ، وأخذ يصغى الى ما قد يسمعه من أصوات فى السلم .

ثم سألنى :

ـ أأنت حريص على رؤية تلك الانسانة بنفسك ؟

فهتفت أجيبه مسرورا مفتونا :

ـ نعم ، ولكن كيف يمكن تدبير الأمر ؟

ـ مسألة بسيطة . فلنذهب اليها معاً مادامت وحيدة . حين يعـــود ، فسيضربها اذا علم أننا جئنا اليها . اننى كثيرا ما ألقاها خفيةً . وفى هــذا الصباح كلمت ليادكين لأنه عاد يضربها .

ـ ماهذا الذى تقوله ؟

ـ نعم ، وشددته من شعره . وقـــد أراد أن يرتمى علىّ ، لكنه خاف ، فوقفنا عند ذلك الحد . أخشى اذا رجع ثملاً ، أن يتذكر ماوقع فيأخذ يضربها انتقاما .

وأسرعنا ننزل .

٥

كان باب بيت ليادكين مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح ، فدخلنا بغير مانع. ان المسكن يتألف من غرفتين صغيرتين حقيرتين قد اسودّت حيطانهما بالدخان ، وبليت أوراق جدرانهما حتى لترى الورق المتسخ البالى يتدلّى مزّقاً بالفعل . فى هذا المكان انما كان فيليبوف قد أقام حانته خلال سنين قبل أن ينقلها الى منزله الجديد . فلما انتقل أقفل جميع الغرف الا غرفتين اثنتين هما اللتان يسكنهما الآن ليادكين وأخته . ان الأثاث يتألف من مقعد عتيق فقد مسنديه ، ودكك وموائد من خشب أبيض ؛ وفى الغرفة الثانية مع ذلك سرير يغطيه غطاء من قطن ، فعلى ذلك السرير انما تنام الآنسة ليادكين . أما الكابتن فانه حين يرجع الى البيت فى المساء يسقط على الأرض كتلةً واحدة دون أن يخلع ثيابه فى أكثر الأحيان .

كل شيء هنا قذر رطب تغشيه نفايات. فى وسط الغرفة ترقد خرقة كبيرة مبللة ، والى جانبها فردة حذاء مهترئة منتنة تسبح فى تلك البركة نفسها من الماء . واضح أنه ما من أحد يُعنى هنا بنظافة المسكن ؛ والمدفأة لا تُشعل فى يوم من الأيام ، وطبخ الطعام غير معروف البتة ؛ حتى ان بيت ليادكين ـ فيما قال شاتوف ـ لا يضم سماوراً للشاى .

حين وصل الكابتن الى مدينتنا كان فى حالة عوز شديد وبؤس رهيب ، فكان فى الآونة الأولى يقرع الأبواب مستجدياً هنا وهناك . ولكنه ما ان أخذ يتلقى مالاً حتى أخذ يشرب ، وفقد صوابه تماماً ، ولم يفكر فى مسكنه طبعاً .

ان الآنسة ليادكين التى حرصتُ على رؤيتها كل ذلك الحرص ،

هي الآن جالســـة على دكة أمام مائدة في ركن من الغرفة الثانية • انهـا هادئة ساكنة صامتة • لم توجه الينا الكلام حين دخلنـــا ، بل انها لم تقم بحركة واحدة • قال لي شاتوف ان باب المسكن لا يُقفل بالمفتاح في يوم من الأيام ، حتى انه ظل في احدى الليالي مفتوحاً على سعته كلهـــا طول الوقت •

استطعت بفضل نورِ كابٍ تنشره شمعةٌ نحيلة مغروسةٌ في شمعدان من حديد ، أن أرى الآنسة ليبادكين • انها نحيلة نحولاً مرضياً ؛ ولعلها في الثلاثين من عمرها • وهي ترتدي فســـتاناً عتيقاً من نسيج قطني قاتم اللون ، يكشف عن رقبتها الطويلة • شعرها الأسمر القليل مفتول عنـد قفا الرأس كبةً لا يزيد حجمها على حجم قبضة يد طفل في السنة الثانية من عمره •

نظرتْ الينا مرحةَ الهيئة • وكان أمامها على المـــائدة ، الى جانب الشمعدان ، مرآة صغيرة من المرايا التي يرى المرء مثيلاتها عند القرويين ، ومجموعة قديمة من ورق اللعب ، وكراسة أغانٍ مهترئة ، ورغيف صغير من خبز أبيض كانت قد عضت منه لقمةً أو لقمتين •

كان واضحاً أن الآنسة ليبادكين تستعمل المساحيق وتصبغ شـفتيها وتكحّل حاجبيها الدقيقين الطويلين القاتمين • وكانت ثلاثة أخاديد طويلة تغضّن جبينها الضيق العالي تغضيناً واضحاً رغم طلائه بالبياض • وكنت أعلم أنها تعرج ، لكنها في هذه المرة لم تنهض أثناء وجودنا • ولعل هـذا الوجه الذي أصبح الآن ناحلاً هزيلاً قد كان في أيام صباه الأول حلواً جميلاً • وما تزال عيناها الشهباوان العذبتان اللطيفتان محتفظتين بجمالهما • ان نظرتهما الوادعة ، التي تكاد تكون فرحة ، تشتمل على تعبير صـــادق حالم • وقد فاجأني هذا الفرح الهادىء الذي يشعُ أيضا من ابتسامتها ،

بعد كل ما عرفته عن قسوة أخيها في معاملتها وعن ضربات السوط التي كان يهوى بها عليها . ولم أشعر تجاهها بما يشعر به المرء حين يلقى أمثال هذه المخلوقات التعيسة من اشمئزاز أليم وجل ، وانما شعرت في الوهلة الأولى باحساس غريب ، يكاد يكون سرورا بالنظر اليها ، وهذا الاحساس قد حلَّت محله الشفقة بعد ذلك ، ولم يحلَّ محلَّه الاشمئزاز قط .

قال لي شاتوف وهو يومىء اليها من الباب :

ـ أترى ؟ انها تظل جالسةً هذه الجلسة أياما بكاملها ، وحيدة ، لا تتحرك ؛ فاما أن تسحب ورقا من مجموعة أوراق اللعب التي أمامها ، واما أن تنظر الى وجهها في المرآة . ان أخاها لا يأتيها حتى بطعام . والمرأة العجوز التي تخدم كيريلوف هي التي تحمل اليها بعض الغذاء بين الحين والحين من باب الشفقة والرحمة والاحسان . انني لا أفهم كيف يتركها هكذا وحيدة مع شمعة .

قالت الآنسة ليبادكين بصوت ودود :

ـ يومك سعيد يا شاتوشكا * .

فقال لها شاتوف :

ـ لقد جئت بزائر يا ماريا تيموفئفنا !

ـ مرحبا بالزائر . بمن جئتني ؟ يخيَّل اليَّ أنني لا أعرفه .

ونظرت اليَّ طويلاً في ضوء الشمعة ، ثم التفتت نحو شاتوف ، ولم تنظر اليَّ بعد ذلك البتة ، ولا اكترثت بي أي اكتراث ، فكأنني غير موجود .

سألتْ شاتوف ضاحكةً ، كاشفةً عن صفين من الأسنان كأنها حبات اللؤلؤ جمالاً :

ـ لا شك أنك سئمت التجول وحيدا في غرفتك طولاً وعرضا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ولقد أردت كذلك أن أسلّم عليك •

قال شاتوف ذلك وقرّب دكة من المائدة وأجلسني الى جانبه •

قالت الآنسة ليبادكين :

ـ انني ليسرني الحديث كثيرا في جميع الاحيان • ولكنك تضحكني ياشاتوشكا • لكأنك راهب حقاً • منذ متى لم تصفف شعرك ؟ اقترب مني، سأصفّف لك شعرك •

قالت ذلك وهي تستل من جيبها مشطاً صغيراً • وأضافت :

ـ أنا واثقة بأنك لم تمشط شعرك منذ أن مشطته لك آخر مرة •

أجابها شاتوف ضاحكا :

ـ ليس عندي مشط •

ـ حقاً ؟ اذن سأعطيك مشطي • لا هذا ، بل مشطا آخر • ذكّرني•

وأخذت تصفّف شعره وقد لاح في وجهها كل الجد والاهتمام ، حتى لقد فرقته من جانب، وتقهقرت قليلا الى وراء لتنعم النظر اليه وتحسن الحكم عليه • ثم أعادت المشط الى جيبها • وقالت لشاتوف :

ـ هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك يا شاتوشكا ؟ انك قد تكون رجلاً عاقلاً ولكنك تشعر بضجر • انني أنظر اليكم جميعا فلا يسعني الا أن أُدهش : كيف يمكن أن يشعر الناس بالضجر • وليس الحزن هو الضجر • أما أنا فانني مرحة •

ـ حتى حين يكون أخوك هنا ؟

ـ أتقصد ليبادكين ؟ انه خادمي • ويستوي عندي وجوده وغيابه • انني أصرخ قائلةً له : « ليبادكين ، جئني بماء ! » ـ « ليبادكين ، ائتني بحذاءيَّ ! » فيأتيني بهما • ولا أملك في بعض الاحيان أن أنهى نفسي عن الضحك ، رغم أن ذلك من جانبي شر •

قال لي شاتوف ، بصوت عالٍ أيضا وبدون تحرج :

ـ هذا ما يحدث فعلاً . انها تعامله كما يُعامل خادم ، ولقد سمعتها بأذنيَّ تصرخ قائلةً له : « ليبادكين ، جئني بماء ! » . وكانت تضحك . الفرق الوحيد هو أنه لا يجيئها بماء بل يضربها . ومع ذلك فهي لا تخاف منه البتة . وهي تُصاب بنوبات عصبية ، كل يوم تقريبا ؛ نوباتٍ تشوش ذاكرتها ، فاذا هي تنسى ما حدث منذ قليل ، وتخلط بين الأيام وتخلط بين الساعات . هل تظن أنها تتذكر الآن كيف دخلنا عليها ؟ لعلها تتذكر، ولكنها منذ الآن قد رتبت جميع الأمور على طريقتها الخاصة ، ولا شك في أنها تحسبنا أشخاصا آخرين ، رغم أنها تذكر أنني « شاتوشكا » . ولا يدهشنَّك أنني أكلمك بصوت عالٍ : انها تنقطع فورا عن الاصغاء الى من لا يخاطبونها مباشرة ، وتندفع عندئذ في أحلامها اندفاعا مستميتا . نعم ، تندفع . هذه هي الكلمة . وتظل في مكانها مسترسلةً في أحلامها ثماني ساعات كاملة دون أن تتحرك . هل ترى هذا الرغيف الصغير من الخبز الابيض : لعلها لم تأكل منه الا لقمة واحدة منذ الصباح ، ولعلها لن تنهيه الا في الغد . ها هي ذي الآن قد أخذت تسحب من أوراق اللعب ...

ـ نعم يا شاتوشكا ، انني أسحب من أوراق اللعب طوال الوقت ، ولكن أوراق اللعب لا تنبئني بأي خير ...

كذلك تدخلت فجأةً ماريا تيموفئفنا التي التقطت كلمتي « أوراق اللعب » عرضاً . ولعلها أيضا قد سمعت كلاما عن الخبز ، فهاهي ذي تمد يدها الى الرغيف ، فتتناوله دون أن تنظر فيه ، وظلت ممسكة به في يدها بضع لحظات ، ثم انصرفت بانتباهها الى الحديث فأعادته الى مكانه على المائدة بحركة آلية دون أن تذوقه . قالت :

ـ أوراق اللعب تقول لى شيئاً واحدا على الدوام : سفرة ، رجل شرير ، خيانة ، مرض مميت ، رسالة لا أدرى ممن ، نبأ غير متوقع . تلك كلها أكاذيب فيما أظن . ما رأيك أنت يا شاتوشكا ؟ اذا كان البشر يكذبون فلماذا لا تكذب أوراق اللعب أيضا ؟

قالت ذلك ، وخلطت أوراق اللعب . ثم تابعت كلامها :

ـ ذلك ما كنت أقوله للأم براسكوفيا ، وهى امرأة محترمة كانت تأتينى للسحب من أوراق اللعب فى حجرتى مختبئةً عن الأم الرئيسة . على أنها لم تكن الوحيدة فى هذا . فهنّ هناك جميعا يتنهدن ، ويهززن رءوسهن ، ويناقشن . وكنت أنا أضحك وأقول لها : « من أين تريدين أن تصلك رسالة أيتها الأم براسكوفيا ، أنت التى لم تتلقى رسالة واحدة منذ اثنتى عشرة سنة ؟ » . كان صهرها وابنتها قد سافرا الى تركيا ، ولم يصل عنهما أى نبأ منذ اثنى عشر عاما . وفى مساء الغد ، كنت أنا أتناول الشاى عند الأم الرئيسة (وهى من أسرة أمراء) ، وكان هناك سيدة أخرى ، سيدة مفرطة فى الخيال كثيرا ؛ وكان هناك راهب صغير من جبل آثوس ، وهو فى رأيى رجل طيب عبيط . فهل تتصور يا شاتوشكا ، أن ذلك الراهب الصغير كان قد حمل من تركيا ، فى ذلك الصباح نفسه ، الى الأم براسكوفيا ، رسالةً من ابنتها ؟ نعم ، هذا ماحدث ! صَدَقَ اذن ورق اللعب : لقد تنبأ بنبأ غير متوقع . كنا هنالك نشرب الشاى حين قال راهب جبل آثوس للأم الرئيسة : « لا شك أن ديرك مبارك أيتها الأم الرئيسة المقدسة ، لانه يضم بين جدرانه كنزاً ثمينا جدا . سألته الرئيسة : « أى كنز ؟ » فأجابها الراهب : « الأم ليزافتا المباركة » . والأم ليزافتا هذه كانت تعيش فى قفص بالجدار طوله سبع أقدام وعلوه خمس ... وهى هناك وراء القضبان الحديدية منذ ستة عشر عاما ، لا ترتدى فى الشتاء ولا فى

الصيف الا قميصا من القنب كانت تخزه أحيانا بابر من القش . وهي صامتة دائماً . وهي لم تمشط شعرها ولا غسلت نفسها مرةً واحدة منذ ستة عشر عاما . كانوا في الشتاء يعطونها جلد خروف . وفي كل يوم يمدون اليها من خلال القضبان كسرة خبز وجرة ماء . وكان الحجاج يتأملونها متنهدين متعجبين ، ويضعون لها قرشا في طاسة . أجابت الأم الرئيسة : « ياله من كنز ! » (لقد غضبت الأم الرئيسة ، لأنها كانت تكره ليزافتا) . وأضافت قولها : « ان ليزافتا لم تحبس نفسها الا بدافع الشر . ما ذلك منها الا عناد وتظاهر! » . لم يعجبني هذا الكلام ، لأنني كنت أفكر في أن أحبس نفسي أنا أيضا . قلت : « في رأيي أن الله والطبيعة وأحد ....». فصاحوا جميعا يقولون : « اسمعوا الى هذا الكلام العجيب ! ... » . وأخذت الرئيسة تضحك ، وقالت للسيدة ما لا أدرى بصوت خافت ، ثم نادتني اليها وكلمتني بلطف . أما السيدة فقد أعطتني شريطا وردي اللون . هل تريد أن أريك الشريط ؟ وطفق الراهب يعظني بخطبة طويلة ، فكان رقيقا كل الرقة ، متواضعا كل التواضع ، ولا شك أنه كان ذكيا جدا ، فلبثت أصغي اليه طول الوقت . وسألني : « هل فهمت ؟ » فأجبته قائلة : « لم أفهم شيئاً . ودعني وشأني » . ومنذ ذلك الحين تركوني وشأني يا شاتوشكا . وفي ذلك الأوان تقريبا كانت هناك امرأة عجوز قد اعتكفت في ديرنا مكفِّرة عن نبوءات زعمتها ، فهمست تسألني وهي تخرج من الكنيسة : « وأم الرب ، ما هي في رأيك ؟ » . فأجبتها : ان أم الرب هي أمل النوع الانساني . فقالت : « نعم ، هذه هي الحقيقة . ان أم الرب هي أمنا جميعا ، هي الارض المخضلة ، وهذه الحقيقة تشتمل على فرح عظيم للنوع الانساني . وكل عذاب أرضي ، كل دمعة أرضية هي لنا فرح . وحين تبلل الأرض بدموعك الى مسافة قدم في التراب ، فلن يكون شيء بعدئذ الا فرحا لك ، ولن تعرف الألم بعدئذ

في يوم من الايام . كذلك قالت النبوءة » . حفظ قلبي هذا الكلام . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت اذا صليت وسجدت أقبّل الارض ، أقبّلها وأبكي. واليك ما سأقوله لك يا شاتوشكا : ليس في هذه الدموع أي بأس ؛ حتى اذا كنت لا تتألم فانها تتساقط من عينيك فرحاً ، فرحاً فقط . تتساقط من تلقاء نفسها . الحق أقول لك . كنت أذهب أحيانا الى ضفاف البحيرة : كان ديرنا في جهة ، وفي الجهة الاخرى كان ينتصب جبلنـــا المدبَّب . كذلك كانوا يصفونه . كنت أصعد ذلك الجبل ، وأتوجه نحو المشرق ، وأنكب على الارض ، فأظل أبكي وأبكي وأبكي ، فاذا أنا لا أتذكر بعد ذلك شيئا البتة ، ولا أعرف شيئا البتـــة . ثم أنهض ، وألتفت الى وراء ، فأرى الشمس وهي تغرب كبيرة رائعة مجيدة . هل تحب أن تنظـــر الى الشمس ياشاتوشكا ؟ انه لمنظر جميل جدا ، وحزين جدا ! ... ثم ألتفت مرة أخرى نحو المشرق ، فأرى ظل جبلنا يركض على البحيرة سريعـــا كسهم ، ضيقا طويلا ، الى أن يبلغ الجزيرة التي توجـــد في البحيرة ؛ فتشطره هذه الجزيرة الحجرية شطرين اثنين . فما ان تشطره الجزيرة شطرين حتى تغيب الشمس وينطفيء كل شيء . فأشعر عندئذ بأنني حزينة كل الحزن ، واذا بالذاكرة تعود اليَّ على حين فجأة ، فأخاف من الظلمـــة يا شاتوشكا . غير أن ما كنت أبكيه خاصةً ، انما هو ابني ...

سألها شاتوف وهو يلكزني بكوعه قليلا بعد أن لم ينقطع عن الاصغاء اليها بانتباه :

ــ ولكن هل كان لك ولد حقاً ؟

ــ كيف لا ؟ لقد كان صغيرا جدا ، وكان بلون الورد ، وكانت له أصابع صغيرة . وحسرتي كلها ناشئة عن أنني لا أستطيع أن أتذكر أكان صبيا أم كان بنتاً . فتارة يبدو لي أنه كان صبيا ، وتارة يبـــدو لي أنه كان

بنتاً • وأنا ما ان ولدته حتى لففته بالدانتيللا والباتيسته التى عقدتها بأشرطة وردية اللون ، وغطيته بالأزهار • ثم صليت لله وحملته وسرت به في الغابة دون تعميد • وكنت خائفة من الغابة ، وكنت أرتعش رعباً • وكنت أبكي خاصةً لأنني ولدته دون أن أعرف زوجي •

سألها شاتوف محاذرا :

ـ ربما كان لك زوج ، أليس كذلك ؟

ـ انك تضحكني بتفكيرك يا شاتوشكا • جائز أنه كان لى زوج • ولكن ما فائدتى من هذا اذا كنت كمن لم يكن لهـا زوج فى يوم من الأيام ؟

ثم أردفت تقول وهى تبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ هذه أحجية • هلاّ حزرت !

ـ الى أين أخذت ابنك ؟

ـ الى الغدير •

لكزنى شاتوف بكوعه من جديد • ثم سألها :

ـ فماذا اذا لم يولد لك ولد يوما ، وكان هذا كله هذيانا لا أكثر ، هه ؟

قالت بلهجة تنم عن ذهول وتفكير ، ولكن ليس فيهـا دهشة واستغراب :

ـ انك تلقى علىّ سؤالا صعبا • حقا ان من الجائز أن لا أكون قد ولدت ولداً فى يوم من الايام • وأظن على كل حال أنك لا تلقى هـذا السؤال الا من باب حب الاطلاع • مهما يكن من أمر ، فلن أكف عن البكاء عليه • أترانى رأيت حلماً ؟

والتمعت دموع سخية في عينيها . ثم هتفت تسأل شاتوف فجأة وهي تضع يديها على كتفيه وتتأمله مشفقة عليه رحيمة به :

ـ شاتوشكا ، شاتوشكا ؟ هل صحيح أن زوجتك تركتك ؟ لا تزعل! أنا أيضا أحمل في قلبي حملاً ثقيلا . هل تعلم يا شاتوشكا انني رأيت في منامي حلماً ؟ رأيته يعود الىَّ ، ويومىء لى ، ويناديني بقوله : « قطتي الصغيرة ، قطتي الصغيرة ، تعـــالى بسرعة ! » . وقد فتنني قوله « قطتي الصغيرة » أكثر من أى شىء آخر . قلت في نفسى : انه يحبني .

دمدم شاتوف يقول :

ـ قد يرجع في يوم من الايام .

ـ لا ياشاتوشكا ، لم يكن ذلك الا حلما . انه لن يأتى أبدا . أنت أنت تعرف الأغنية :

ما بى حاجة الى قصر*
حسبى هذه الحجرة
لاحيا وانقذ روحى ،
وادعو الله لك .

آه ياشاتوشكا ، يا عزيزى شاتوشكا ، لماذا لا تسألنى أبدا ؟

ـ أعرف أنك لن تقولى شيئا . لذلك لا أسألك .

قالت بحماسة وقوة :

ـ نعم ، لن أقول شيئا . لن أقول شيئا ولو هددونى بقطع عنقى ، لن أقول شيئاً ولو هددونى باحراق جســـمى . ومهما أذق من ألوان العذاب والألم ، فسأظل صامتةً ، فما يعرفون من الامر شيئاً !

قال شاتوف وهو يخفض صوته مزيدا من الخفض ، ويحنى رأسه مزيدا من الحنى :

ـ أرأيت ؟ ان لكل امرىء أسراره •

ـ ولكن لو ألححت في السؤال ، فقد أقول لك •

وكررت تقول بحمياً :

ـ نعم، قد أقول لك• لماذا لا تسألني أن أقول لك؟ ألحح ياشاتوشكا، اضرع الي ، فقد أقول لك • اعمل ما من شـــأنه أن يجعلني أوافق على الكلام ••• شاتوشكا ••• شاتوشكا ! •

لكن شاتوشكا ظل صامتاً • ومضت دقيقة دون أن ينطق أحد بكلمة• وكانت دموع بطيئة تجري على خـــدّي العرجاء المبرّجين بالمساحيـق والأصباغ • وكانت يداها ما تزالان متكئتين على كتفي شاتوف ، غير أنهـا قد انقطعت عن النظر اليه •

قال شاتوف :

ـ فيم يهمني هـــذا كله على كل حال • ثم ان الالحاح قد يكون اثماً •

وقام فجأة • وقال لي :

ـ هيّا انهض •

وسحب الدكة التي كنا جالسين عليها حتى ردّها الى حيث كانت ، قائلاً :

ـ حين يعود ، يجب أن لا تراوده شبهة فيعتقد أننا كنا هنا • وقد آن لنا نحن أن ننصرف •

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة :

ـ آ ••• تقصـــد خادمي • أأنت خائف منـــه ؟ طيب ••• وداعاً يا صـــديقي الطيبين • ولكن اسمعا ما سأقوله لكما • منـذ قليل ، حضر الرجل الذي يقال له نيليتش ، حضر مع فيليبوف ، مالك البيت ، الذي له

لحية كبيرة حمراء ، وذلك في اللحظة التي هجم فيها عليَّ خادمي . فما كان من مالك البيت الا أن قبض عليه وأخـذ يجـره في الغـرفة ، فكان الآخر يصرخ قائلاً : « أنا لا ذنب لي . أنا أتألم من ذنب غيري » . فهل تصدق ؟ لقد طفقنا جميعا نضحك حتى لنكاد نتدحـــرج على الارض من شدة الضحك .

ـ ماريا تيموفيئفنا ! ليس الاحمر الملتحي هو الذي انتزعه وأبعـــده عنك وجرّه من شعره منذ قليل . فانما أنا الذي فعلت ذلك . أما مالك البيت ، فقد جاء الى هنا أمس الاول ليلغط ويصخب . أرى أنك تخلطين بين الامور .

ـ انتظر قليلاً . نعم . لقد خلطت بين الأمور ... ربما كنت أنت، فعلاً ... فيم المناقشة على كل حال ؟

ثم قالت ضاحكة :

ـ ما الفرق عنده بين أن تجره أنت من شعره وبين أن يجـــره الآخر ؟

قال شاتوف فجأة وهو يدفعني :

ـ لننصرف . لقد صرّ باب مدخل العمارة . ســوف يضربها اذا وجدنا هنا .

وفعلاً ، ما ان صرنا في أعلى السلّم حتى سمعنا صراخ سكران ، وعاصفةً من الشتائم .

أدخلني شاتوف غرفته ، وأقفل بابها بالمفتاح .

ـ يجب أن تلبث هنا قليلاً ، اذا أردت أن تتحاشى جرسة . هـــل تسمعه يصرخ كصراخ خنزير يُذبح . لعله تعثر بالعتبة . هـذه القصة تتكرر كل مرة .

ولكن الجرسة حدثت رغم احتياطاتنا .

٦

وقف شاتوف قرب الباب يصغى الى ما يجرى فى السلّم . وانه لكذلك اذا هو يقفز متراجعاً الى وراء ، ويدمدم قائلاً فى حنق :

ـ ها هو ذا يصل . قد لا نتخلص منه الآن الا فى منتصف الليل .

وأخذت طرقات قوية تهوى بها على الباب قبضة شـــديدة . وزأر الكابتن يقول :

ـ شاتوف ! شاتوف ! افتح الباب ! شاتوف ، صديقى !

انما جئت لأتمنى لك يوما سعيدا (*)
ولأقول لك ان الشمس قد طلعت
وان الغابات ترتعش ملتهبة
تحت اشعتها الحارة

واريد ان اقول لك ايضا انني يقظان ...
وانني أتمنى ان ياخذك الشيطان ...
نعم يقظان ، يقظان يقظان
تحت الاغصان ...

كما لو كنت تحت السياط ، هأ هأ ...

كل طائر ظمآن
ظمآن ! ... وانا حيران
لا ادرى اى شراب احتسى ...

على كل حال ؛ لعن الله هذا الفضـــول الغبى ! يا شـــاتوف ، هل تعرف مدى ما فى الحياة من جمال ؟

قال لي شاتوف هامسا :

ـ لا تجب !

ـ أقول لك افتح ! هل تدرك أن في العالم شيئاً أسمى من ضربات قبضة اليد ؟ ان في حياة الانسانية لحظات نبيلة . شاتوف ، أنا أغفر لك ! ... شاتوف ، لتذهب المنشورات الى الجحيم ! ... هه !

وساد صمت سُمع صوت لبيادكين بعده يعول فجأة وقد عاد يخبط الباب بقبضة يده :

ـ هل تدري ، يا حمـــار ، انني مولّه حباً ؟ لقـــد اشتريت رداء فراك . انظر اليه . فراك الحب . خمسة عشر روبلاً . ان غرام كابتن يكلف غالياً .

قال شاتوف :

ـ اذهب الى الجحيم .

ـ عبد ! عبد ذليل ! وأختك أيضا ما هي الا جارية ... ما هي الا لصـ ... لصة ! ...

ـ وأنت ، أنت قد بعت أختك !

ـ أنت كاذب . أنا أتألم ظلماً ، أنا أتألم نيابةً عن غيري ، ويكفي أن أقول كلمة واحدة حتى ... هل تدرك من هي ؟

ـ هيه ، من هي ؟

كذلك سأله شاتوف وهو يقترب من الباب .

ـ أأنت قادر على أن تفهم هذا ؟

ـ قل أولاً ، ثم أفهم أنا بعد ذلك .

ـ لا أخاف أن أقول . أنا لا أخاف أبدا أن أتكلم أمام الناس ...

قال شاتوف ساخراً ضاحكا وهو يشير لي أن أصغي :

ـ لا بل انك لن تجرؤ حتما .

ـ أتقول انني لا أجرؤ ؟

وساد صمت دام نصف دقيقة في أقل تقدير .

وأخيراً صاح الكابتن يقول وهو يتراجع نافخاً كفوهة سماور ، متعثراً على كل درجة من درجات السلم :

ـ سافل !

قال شاتوف :

ـ انه ماكر جدا ، ولن يفضح نفسه رغم أنه سكران .

سألته :

ـ ما معنى هذا كله ؟

فهزّ شاتوف منكبيه ، وفتح الباب ، وأخذ يصيخ بسمعه الى جهة السلّم . ولبث يصغي مدة طويلة ، حتى لقد هبط بضع درجات . وأخيراً عاد .

ـ لا يُسمع شيء . انه لم يضربها . لا بد أنه نام كتلةً واحدة . آن لك أن تنصرف .

ـ اسمع يا شاتوف ! ما الذي يجب أستخلصه من هذا كله ؟

فأجاب شاتوف بلهجة مكدودة مشمئزة :

ـ استخلص ما شئت .

وجلس الى مكتبه .

انصرفت . ان فكرة غير معقولة تستولي على فكري مزيدا من الاستيلاء شيئاً بعد شيء . وفكرت في الغد قلقاً خائفاً .

٧

ذلك « الغد » ، أعني يوم الأحد الذى سيتقرر فيه مصير ستيفان تروفيموفتش قرارا محتوما لا رادّ له ، هو من أهم الأيام التي يجب أن تسجلها قصتى . انه يوم مفاجآت أتاح لنا أن نحل بعض الألغاز ، ولكنه ألقى علينا ألغازاً جديدة ؟ انه يوم قدّم لنا ايضاحات تثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه زاد البلبلة العامة وفاقم الاضطراب الشامل ...

يذكر القارىء أنه كان يجب عليّ في الصباح ، تلبيةً لطلب فرفارا بتروفنا ، أن أصحب ستيفان تروفيموفتش في زيارته لصديقته ، وأن أكون في الساعة الثالثة بعد الظهر عند ليزافتا نيقولايفنا لأقول لها ... لا أدرى ماذا ، ولأساعدها لا أدرى كيف !

ولكن الأمور جرت مجرى ما كان لأحد أن يتنبأ به . الخلاصة أن ذلك اليوم كان حافلاً بالمصادفات الخارقة والاحداث العجيبة .

ولأبدأ من البداية : حين ذهبنا أنا وستيفان تروفيموفتش الى فرفارا بتروفنا في الظهر تماما ، كما طلبت منا ذلك ، لم نجدها في بيتها : انها لم تكن قد رجعت من الصلاة بعد . كان صديقي المسكين في حالة نفسية خاصة من شأنها أن تجعل غيابها هذا ينزل عليه نزول الصاعقة ، فاذا هو يضطرب أشد الاضطراب ، ويتهاوى على مقعد في الصالون .. وقد جئته بكأس من الماء ، ولكنه رفض تناول الكأس باباء ، رغم أنه كان شديد شحوب الوجه ، وكانت يداه ترتعشان . يجب أن أشير ، عابرا ، الى أن ثيابه كانت في هذه المرة أنيقة الى أبعد حدود الأناقة : قميص من الباتيستة البيضاء المطرزة (يكاد يكون قميص حفلة رقص) ، ورباط عنق أبيض ،

وقبعة جديدة من الكستور ، وقفازان جديدان بلون العاج ، وشيء من العطر الى ذلك كله .

وما كدنا نستقر في مكاننا حتى جاء الخادم يُدخل علينا شاتوف . كان واضحا أنه هو أيضـــا قد تلقى دعوة رسمية . وقـــد همّ ستيفان تروفيموفتش أن ينهض ليصافحه ، ولكن شاتوف بعد أن تفرس فينا ملياً، مضى يجلس في أحد الأركان حتى دون أن يحيينا بانحناءة من رأسه . فرشقني ستيفان تروفيموفتش مرة أخرى بنظرة مروّعة .

انقضت بضع دقائق على هذه الحال في صمت كامل . وأخـــذ ستيفان تروفيموفتش يكلمني بصوت خافت ، لكنني لم أستطع أن أفهم من كلامه شيئاً ... وكان على كل حال قد بلغ من الاضطراب أنه لم يتمكن من اتمام الكلام فصمت . وعاد الخادم وأخذ يرتب المائدة ، لكنني أظـن أنه انما عاد ليرى ماذا كنا نفعل .

سأله شاتوف بصوت قوي :

ـ ألكسي ايجورتش ، هل خرجت داريا بافلوفنا معها ؟

فأجاب الخادم يقول بلهجة فخمة وهو يشد على كل كلمة من كلماته:

ـ ان فرفارا بتروفنا قد مضت بالعربة الى الكاتدرائية وحدها . أما داريا بافلوفنا فقد بقيت في غرفتها ، لأنها مريضة قليلاً .

رشقني صاحبي المسكين مرةً أخرى بنظرة قلقة ، حتى اضطررت أن أشيح وجهي عنه . وفجأةً سمعنا أصوات جرى عـــربة قرب بوابة المدخل ، ثم قامت في المنزل ضجة أدركنا منها أن فرفارا بتروفنا قد عادت. فنهضنا نحن الثلاثة بسرعة ، غير أن مفاجأة جديدة كانت تنتظـــرنا : ان ربة الدار لم تكن عائدة وحدها ، وانما كان يرافقها عدد من الاشـــخاص كما تدل على ذلك أصوات وقع الأقدام على الارض . ذلك كله كان أمرا

عجيبا ، لأنها هي التي حددت بنفسها ساعة لقائنا . وكانت الخطوات مسرعة ، فكأن القادمين يركضون ركضاً . لا يمكن أن تكون فرفارا بتروفنا هي القادمة ... وفجأةً رأينا فرفارا بتروفنا تقتحم الصالون اقتحاماً ان صح التعبير ، وهي تلهث لهاثاً شديداً ، وقد استبد بها انفعال خارق . وكانت تتبعها ، على مسافة منها ، ليزافتا نيقولايفنا التي تتقدم في سيرها هادئة ، وتمسك بيدها ماريا تيموفيئفنا ليبادكين . لو قد رأيت هذا المشهد في حلم أثناء النوم ، لما صدّقته لحظة واحدة .

ومن أجل أن أوضّح هذا الظهور المثير للدهشة يجب أن أعود قليلاً الى وراء ، وأن أروى المغامرة الخارقة التي وقعت لفرفارا بتروفنا عند خروجها من الكنيسة .

في ذلك اليوم ، كانت المدينة كلها تقريبا - أعني المجتمع الراقي - قد ذهبت الى الكاتدرائية . فقد عُلم أن امرأة الحاكم ستحضر الصلاة في ذلك اليوم ، لأول مرة منذ وصولها الى مدينتنا . وينبغي أن أذكر في هذه المناسبة أن الشائعات التي جرت في المدينة كانت تنسب الى امرأة الحاكم أنها لا تؤمن بالدين ، وأنها تتبنى الآراء الجديدة . وكانت سيداتنا جميعا من جهة أخرى تعلم أن امرأة الحاكم سترتدي أجمل ملابسها وأنها ستظهر في أبهى حلة وأعظم أناقة . لذلك لبسن جميعا في هذه المرة أفخر الثياب ، وعُنين بهندامهن وزينتهن أشد العناية . فرفارا بتروفنا وحدها كانت ترتدي ملابس سوداء ، على عهدنا بها منذ أربع سنين . وقد مضت تحتل مكانها المألوف المعتاد في الصف الاول ، على اليسار ؛ وجاء خادم مرافق حسن الهندام فوضع أمامها وسادةً من المخمل للسجود . الخلاصة أن كل الأمور جرت كما تجري في العادة . ومع ذلك لوحظ أنها كانت طوال القداس تصلي بحرارة خارقة . وقد أُكّد فيما بعد ،

حين تم تذكّر جميع التفاصيل ، أن عينيها كانت ملأى بالدموع • حتى اذا انتهت الصلاة أخذ أسقفنا ، الأب بولس ، يلقى موعظة فخمة • ودامت خطبته في هذه المرة مدة طويلة •

ولم يكن قد أنهى خطبته حين نزلت سيدةٌ من عربة قرب الكاتدرائية • انها عربة من عربات الأجرة القديمة التي يقال لها درويكي، والتي لا تستطيع النساء أن يجلسن فيها الا على جانب ، متشبثات بحزام الحوذي ، مهتزات في كل لحظة اهتزاز عشبة في مهب الريح • ان المرء ما يزال يرى عددا من عربات الدرويكي هذه في مدينتنا • واذ كانت مركبات كثيرة وأعداد غفيرة من الدرك مرابطة أمام الباب ، فقد وقفت العربة في ركن من الميدان • وحين نزلت السيدة من العربة ووضعت قدميها على الارض مدّت الى الحوذي أربعة كوبكات من فضة • فلما رأته يصعّر وجهه قالت له :

ـ المبلغ قليل يا فانيا * ، أليس كذلك ؟

ثم أضافت تقول شاكية :

ـ هذا كل ما أملك •

فقال لها الحوذي وهو يرفع منكبيه ويتأملها تأملَ من يقول لها : « انه لاثم أن يؤلمك الانسان » :

ـ طيب •• طيب •• عليك بركة الله ! ••

ثم دس كيسه الجلدى تحت ثوبه ، وانصرف تشيّعه مزحات الحوذيين الذين كانوا هناك • وشقت المرأة طريقا لها نحو أبواب الكنيسة بين العربات والخدم المرافقين الذين ينتظرون خروج أسيادهم ، شقت طريقها مشيَّعة هي أيضا بالأمازيح ، مثيرةً بمرورها فضول الجميع • والحق أن الظهور المفاجيء لامرأة من هذا النوع في الشارع وسط

الجمهور كان فيه غرابة تثير الدهشة • كانت نحيلة نحولا مرضيا ، وكانت تعرج • وكانت مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ ، وكانت عارية العنق ، لا ترتدي خمارا ولا معطفا ، ولا يسترها من الملابس الا ثوب عتيق قاتم اللون ، مع أن ذلك اليوم من شهر ايلول (سبتمبر) كان باردا رغم الشمس ، وكانت رياحه شديدة • ولم يكن على رأسها قبعة • وفي شعرها المعقوف عند القفا كبة صغيرة ، قد غُرست وردة من ورق ، كالتي تزيّن بها تماثيل الشمع التي تمثّل الكروبيين في عيد الشعانين • وكنت قد لاحظت بالأمس عند ماريا تيموفيئفنا ، تحت الايقونات ، واحدا من تلك التماثيل المتوّجة بالورود • وأغرب ما في الأمر أن السيدة رغم أنها كانت خافضة العينين تواضعا ، فانها لم تنقطع عن التبسم تبسماً مرحا ماكرا • ولو أنها تأخرت قليلا لكان من الجائز أن لا يُسمح لها بالدخول ، ولكنها استطاعت أن تلج الكاتدرائية وأفلحت في أن تتسلل الى الامام شيئاً بعد شيء دون أن يشعر بها أحد •

ورغم أن الأب بولس واصل القاء خطبته ، وأن الجمهور الذي كان يملأ الكنيسة كان يصغي اليه بانتباه وتركيز وصمت ، فان عددا من الاشخاص قد ألقوا على المرأة المجهولة نظرات استطلاعٍ مختلسة مدهوشة • وجثت المرأة على ركبتيها وسجدت حتى لامس وجهها المخضبُ الارض • ولبثت على هذا الوضع مدة طويلة تبكي بكاءً غزيرا فيما يظهر • ولكنها حين نهضت ، عادت الى حالها الاولى بسرعة ، واستردت مرحها • وجالت ببصرها على وجوه المحيطين بها وعلى جدران الكاتدرائية ، مسرورة سرورا واضحا ، متفرسةً بانتباه خاص في بعض تلك السيدات ، رافعةً جسمها على رءوس أصابع قدميها في بعض الأحيان لترى رؤية أوضح ؛ وفي مرة أو مرتين انطلقت منها ضحكة صغيرة غريبة

حادة . وانتهت الخطبة فى أثناء ذلك ، وقدّم الأسقف الصليب للمصلين فتقدمت منه زوجة الحاكم أول المتقدمين ، لكنها توقفت حين أصبحت على مسافة خطوتين ، مُظهرةً بذلك أنها تريد أن تتنـــازل عن المكانة الاولى لفرفارا بتروفنا التى كانت من جهتها قد مشت نحو الصليب قُدُماً لاتلوى على شيء ، كأن ليس أمامها أحد . وكان واضحا أن هذا الاحترام الشديد من جانب زوجة الحاكم كان يخفى وراءه نية السخرية . فهذا ما فهمـه الجميع ، وهذا ما فهمته فرفارا بتروفنـا مثل سائر النـاس حتماً ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ أحداً ، فقبّلت الصليب بوقار ثابت ومهابة رصينة، ثم اتجهت بعد ذلك رأســاً نحو باب الكنيســة لتخــرج . وكان خادمها المرافق يفسح لها ممراً أمامها ، رغــم أن جميع الناس كانوا يتقهقرون سلفاً من أجل أن تستطيع المرور فى سهولة ويسر . ولكن جمعاً من الناس قد سدُّوا طريقها لحظةً عند باب الخروج ، تحت سقيفة المدخل . فتوقفت فاذا بانسانة عجيبة هى المرأة المزدانة بوردة الورق تشق طريقا بين الجمهور على حين فجأة ، وتجثو على ركبتيها أمام فرفارا بتروفنا . فنظرت اليهـــا فرفارا بتروفنا التى يصعب أن تضطرب ، ولا سيما على مرأى من الناس ، نظرت اليها بهيئة وقورة رصينة مهيبة .

أسارع فأذكر هنا ، بأكبر ايجاز ممكن ، أن فرفارا بتروفنا ان تكن قد أصبحت فى هذه السنين الأخيرة حريصة بل وبخيلة قليلاً ، فلقد كان يتفق لها فى بعض الأحيان أن تكون مبسوطة الكف ، ولا سيما فى أعمال البر والاحسان . لقد كانت عضوةً فى جمعيةٍ للبر والاحسان بالعاصمة . وفى ابان المجاعة الكبرى الأخيرة * ، أرسلت الى اللجنة المركزية لاغاثة الجياع خمسمائة روبل ، وذلك أمر تحدث عنه الناس كثيرا فى مدينتنا . كما أنها فى الآونة الأخيرة ، حتى قبل تعيين الحاكم الجديد ، قد فكرت

في مشروع تأسيس لجنة من السيدات تتولى مساعدة الحوامل الفقيرات بالمدينة والأقاليم . ولقد كان يؤخذ عليها كثيراً أنها شديدة الطموح ، ولكن الحماسة التي اشتهرت بها فرفارا بتروفنا ، وكذلك دأبها وصبرها ومثابرتها قد أوشكت أن تذلل جميع المصاعب وأن تتغلب على جميع العوائق . وكادت اللجنة أن تتشكل ، حتى أن المشروع قد اتسع مزيدا من الاتساع في نفس صاحبته الزاخرة بالحماسة ، فكانت تحلم بأن يشمل روسيا كلها . ولكن تغير الحاكم أنهى جميع هذه المشروعات : فان زوجة الحاكم الجديد ، قد أبدت في أوساط المجتمع الراقي ملاحظات لاذعة فيما يظهر ؛ والأنكى من ذلك أن تلك الملاحظات كانت صائبة سديدة ، اذ وضعت تشكيل لجنة من هذا النوع بأنه مشروع غير عملي ، وسرعان ما نقل الناس هذه الملاحظات لفرفارا بتروفنا موسَّعةً مضخَّمة . ان الله وحده يعرف قرارة القلوب ، ولكنني أظن أن فرفارا بتروفنا قد سرَّها أن تقف تحت سقيفة مدخل الكاتدرائية ، فهي تعلم أن امرأة الحاكم التي تتبعها جميع السيدات ستمر فورا فقالت لنفسها : « ألا فلتر بعينيها انني لا أعبأ بما قد تقوله عن بري واحساني اللذين تزعم أنهما لا غناء فيهما وأنهما يشتملان على طموح كبير . وهذا درس لكم جميعا ! » .

نظرت فرفارا بتروفنا بانتباه الى المرأة الراكعة أمامها وسألتها :

ــ ماذا يا عزيزتي ؟ ماذا تريدين ؟

فتأملتها المرأة الراكعة بنظرة فيها اضطراب وخشية وعبادة في آن واحد ، ثم أخذت تضحك فجأة ضحكتها الصغيرة الحادة تلك نفسها .

ألحت فرفارا بتروفنا سائلةً وهي تجيل من حولها نظرة صارمة مستفهمة :

ــ ماذا تريد ؟ من هي ؟

فلم يجبها أحد .

ـ أأنت بائسة ؟ هل أنت في حاجة الى مساعدة ؟

ـ في حاجة ... لقد جئت ...

كذلك دمدمت « المسكينة » بصوت يقطّعه الانفعال . وتابعت تقول:

ـ لقد جئت لأقبّل يدك .

وأخذت تضحك . وبنظرة ساذجة بريئة ، بنظرة من نظرات الاطفال الذين يلاطفونك لينالوا حظوتك ، همّت أن تتناول يد فرفارا بتروفنا ، لكنها وقد اعتراها ما يشبه الخوف تقهقرت فجأة الى وراء .

قالت فرفارا بتروفنا وهي تبتسم ابتسامة شفقة :

ـ ألم تجيئي الا من أجل هذا ؟

ولكنها سرعان ما استلت من محفظة نقودها ورقة بعشرة روبلات ومدّتها الى المرأة المجهولة . فتناولت المرأة المجهولة الورقة . كان يبدو على فرفارا بتروفنا اهتمامٌ شديد بالمرأة الشابة ، وكان واضحا أنها لاتعدها متسولة عادية .

قال صوت في الجمهور :

ـ هل رأيت ؟ لقد أعطتها عشرة روبلات !

تمتمت « المسكينة » تقول وهي تشد بأصابع يدها اليسرى على طرف ورقة العشرة روبلات التي كانت تهزها الريح :

ـ يدك ، أرجوك !

فقطبت فرفارا بتروفنا حاجبيها قليلاً ، ومدت يدها بوقار ورصانة بل وبما يشبه القسوة في قسمات وجهها . فقبّلت المرأة المجهولة اليد باحترام واجلال . وسطع في نظرتها الملأى بالعرفان نوعٌ من نشوة .

وفي تلك اللحظة نفسها انما ظهرت زوجة الحاكم تحت باب الكاتدرائية ، تتبعها جمهرة من السيدات وكبار الموظفين • فاضطرت أن تتوقف• وفعل الآخرون مثلما فعلت •

ـ أترتجفين ؟ هل تشعرين ببرد ؟

كذلك سألت فرفارا بتروفنا فجأة ، ثم نضت عنها معطفها الذى تناوله الخادم المرافق طائراً ، ونزعت عن كتفيها شالاً أسود غالى الثمن ، وتولت بنفسها خلعه على العنق العارى ، عنق المرأة المجهولة التى ما تزال راكعة •

ـ انهضى ، انهضى ، أرجوك !

نهضت المرأة الشابة •

ـ أين تعيشين ؟ هل يُعقل أن لا يعرف أحد أين تعيش ؟

وأجالت فرفارا بتروفنا بصرها على من حولها مرة أخرى نافدة الصبر • ولكن الوجوه التى رأتها الآن غير الوجوه التى رأتها منذ قليل : انها محاطة الآن باشخاص تعرفهم ، وأناس من المجتمع الراقى كانوا يرقبون المشهد ، فبعضهم يرقبه باستغراب قاس ، وبعضهم يرقبه باستطلاع خبيث وفضول ماكر ، ويأمل أن تقع فضيحة وجرسة ؛ حتى أن بعضهم قد أخذ يضحك ساخرا منذ ذلك الحين •

وأخيرا وُجد رجل شهم يجيب عن سؤال فرفارا بتروفنا ؛ قال واحد من تجارنا المعتبرين ، واسمه آندرييف •

ـ أظن أن اسمها لبيادكين •

كان الرجل ذا نظارتين ، وكان أبيض اللحية ، وكان يرتدى ثيابا على الطراز الروسى ، وله قبعة اسطوانية كان يمسكها فى تلك اللحظة بيده •

وأضاف يقول :

ـ انها تسكن في عمارة فيليبوف ، شارع ايبيفانيا .

ـ ليادكين ؟ في عمارة فيليبوف ... سمعت عن شيء من هذا فعلاً ... شكرا يا نيكون سيموتتش . ولكن من هو ليادكين هذا !

ـ رجل يسمى نفسه كابتن . هو امرؤ مريب ! أغلب الظن أن هذه المرأة أخته .

وأضاف آندريف يقول خافضا صوته ، ناظرا الى فرفارا بتروفنا بهيئة ذات دلالة :

ـ لعلها خادعت رقابته وخرجت .

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ فهمت . شكرا يا نيكون سيميونتش .

ثم قالت تسأل المرأة المسكينة :

ـ أأنت السيدة ليادكين يا عزيزتي ؟

ـ لا ، لست السيدة ليادكين .

ـ اذن أخوك هو ليادكين ؟

ـ نعم ، أخي هو ليادكين .

ـ اليك ما سأفعله يا عزيزتي : سوف آخذك الى بيتي ، ومن هناك يوصلونك الى مسكنك . هل تريدين أن تجيئي معي ؟

ـ نعم نعم ، أريد أريد !

كذلك هتفت الآنسة ليادكين وهي تضم يديها احداهما الى الاخرى ضارعة .

وفجأة دوّى صوت ليزافتا نيقولايفنا يقول :

ـ عمتي ، عمتي ، خذيني معك !

كانت ليزافتا نيقولايفنا قد جاءت الى القداس مع زوجة الحـــاكم ، بينما كانت براسكوفيا ايفانوفنا تقوم ، تنفيذا لأمر الطبيب ، بنزهة في العربة مصطحبة مافكريكي نيقولايفتش لتتسلى . تركت ليزا امرأة الحاكم بغتةً وهرعت نحو فرفارا بتروفنا .

بدأت فرفارا بتروفنا تكلمهـــا فقالت وهي تصطنع غاية الأبهـــة والجلال :

ـ انك لتعلمين يا عزيزتي انني يسعدني دائما أن أراك ... ولكن ما عسى أمك قائلة ...

ولكن فرفارا بتروفنا توقفت عن الكلام مضطربة أشد الاضـــطراب حين لاحظت ما تعانيه ليزا من بلبلة وتشوش وقلق . قالت ليزا ملحةً وهي تقبل فرفارا بتروفنا :

ـ عمتي ، عمتي ، يجب أن أذهب معك حتما .

وهنا تدخلت امرأة الحـــاكم فقالت باللغة الفرنســـية في دهشة ملحوظة :

ـ ولكن ماذا دهاك يا ليزا ؟ (بالفرنسية) .

ـ معذرةً يا ابنة العم العزيزة ، انني ذاهبة مع عمتي .

كذلك قالت ليزا لابنة العم العزيزة المندهشة اندهاشا أليما ، وهي تقبلها على عجل . وأضافت :

ـ وقولي لماما أيضا أن تدركني فورا في بيت عمتي . وهي عازمة على ذلك عزما أكيدا على كل حال . ذكرت لي هذا هي نفســـها منذ برهة ، لكنني نسيت آن أبلغك . ســـامحيني . لا تزعلي « يا جوليـــا » يا ابنة العم العزيزة » (بالفرنسية) ... عمتي أنا مستعدة !

كذلك قالت ليزا متدفقة فى كلامها . ثم دمدمت تقول هامسةً فى أذنفرفارا بتروفنا وقد استبد بها حزن شديد :

ـ اذا لم تأخذينى معك ، فلأركضنَّ وراء عربتك صائحة !

من حسن الحظ أيضا أن أحدا لم يسمع ما قالت . وقد تقهقرت فرفارا بتروفنا خطوةً الى وراء ، وألقت نظرة ثابتة نافذة قوية على الفتاة التى طاش صوابها . وكان من شأن هذه النظرة أن قررت كل شىء : لقد عزمت فرفارا بتروفنا على أن تصطحب ليزا .

وأفلت من لسانها قولها :

ـ يجب أن نضع حداً لهذا كله . طيب . سآخذك معى راضيةً مسرورة يا ليزا ، على شرط أن توافق جوليا ميخائيلوفنا طبعا .

وقد أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الاخيرة وهى تلتفت نحو امرأة الحاكم بهيئة صريحة وفورة .

فتمتت جوليا ميخائيلوفنا تقول وقد أصبحت متوددة لطيفة على حين فجأة :

ـ آ ... طبعا ، حتما ، لا أريد أن أحرمها من هذه المسرة ؛ لاسيما وأننى أنا نفسى ... اننى أعرف الرأس الصغير الخيالى المستبد الذى تحملها فوق كتفيها .

قالت امرأة الحاكم ذلك وابتسمت ابتسامة عذبة .

فأجابت فرفارا بتروفنا وهى تحييها تحيةً فيها تودد وجلال :

ـ أشكرك كثيرا .

وتابعت جوليا ميخائيلوفنا كلامها تقول مفتتنةً حتى لقد احمر وجهها سرورا وانفعالا :

ـ ومما يزيد مسرتي أن ما يحض ليزا على مصاحبتك هو أنها أولاً تريد أن تسعد بلقائك وانها ثانيا مدفوعة بعاطفة رائعة كل الروعة ، سامية كل السمو ان صح التعبير ، وهي عاطفة الشفقة ... و ... عند مدخل الكنيسة ...

قالت جوليا ميخائيلوفنا ذلك ونظرت الى « المرأة المسكينة » .

فأجابت فرفارا بتروفنا مؤيدةً كلام جوليا ميخائيلوفنا بكرم وسخاء :

ـ هذه أقوال تشرّف قائلها ...

فانبرت جوليا ميخائيلوفنا تمد اليها يدها بحماسة ، فسرّ فرفارا بتروفنا أن تمس تلك اليد بأصابعها . وكان الأثر العام رائعا ، فالوجوه تشرق بهجةً ؛ وكان بعضهم يبتسمون ، لكن ابتسامتهم كاذبة تصطنع الرقة والعذوبة اصطناعا .

الخلاصة أن المدينة كلها قد أدركت ادراكا واضحا أن جوليا ميخائيلوفنا ليست هي التي ازدرت فرفارا بتروفنا حتى الآن ، مهملةً زيارتها ؛ وأن الحقيقة هي نقيض ذلك ، ففرفارا بتروفنا هي التي « جفت جوليا ميخائيلوفنا ، فلولا ذلك لهرعت جوليا ميخائيلوفنا الى السيدة ستافروجين سيراً على الأقدام اذا وثقت فقط بأنها ستستقبلها » . وسرعان ما علت مكانة فرفارا بتروفنا علواً كبيراً ، وازدادت مهابتها وسطوتها .

قالت فرفارا بتروفنا وهي تشير للآنسة ليبادكين الى العربة التي وقفت في تلك اللحظة أمام الكاتدرائية :

ـ اركبي يا عزيزتي .

فهرعت المسكينة نحو المركبة فرحةً ، وساعدها الخادم المرافق على الركوب .

هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد بدا عليها الذعر واصفر وجهها اصفرارا شديدا :

ـ ماذا ؟ أتعرجين ؟

(وقد لوحظ ارتباعها ، غير أن أحدا لم يفهم سببه) .

وانطلقت المركبة . ان منزل فرفارا بتروفنا قريب جدا من الكاتدرائية . وقد روت لى ليزا فيما بعد أن الآنسة ليادكين ، خلال الدقائق الثلاث التى استغرقها قطع الطريق ، كانت تضحك ضحكها الهستري بغير توقف ، بينما لبثت فرفارا بتروفنا ساكنة جامدة « كالغارقة فى نوم مغناطيسى » على حد تعبير ليزا .

الفصل الخامس

الأفعوان البارع

١

شدت فرفارا بتروفنا حبل جرس صغير وتهاوت على كرسى قربَ النافذة . وقالت لماريا تيموفيئفنا وهى تشير لها الى كرسى فى وسط الغرفة بقرب مائدة كبيرة مستديرة :

ـ اجلسى هنا يا عزيزتى . ياستيفان تروفيموفتش ، ما معنى هذا ؟ انظر الى هذه المرأة ! نعم ، انظر اليها ، ما معنى هذا ؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول متلعثما :

ـ أنا ... أنا ...

ولكن خادما دخل فى تلك اللحظة .

ـ هات فنجان قهوة ، فوراً ، بأقصى سرعة ، ولا تفكوا الحبل .

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية بصوت محتضر :

ـ « ولكن ، يا صديقتى العظيمة العزيزة ، ما أشد هذا القلق ! (بالفرنسية) .

فصاحت ماريا تيموفيئفنا تقول وهى تصفق يديها وتتهيأ مفتونةً لشهود حديث باللغة الفرنسية :

ـ آ ... تتكلمون بالفرنسية ! تتكلمون بالفرنسية !

فتأملتها فرفارا بتروفنا بما يشبه الرعب .

ولزمنا الصمت ننتظر ما سيحدث . لم يرفع شاتوف رأسه . أما ستيفان تروفيموفتش فكان يبدو منقلب النفس رأساً على عقب كأنه يشعر أنه هو المذنب في هذا كله ، وأن الخطأ خطؤه . وكانت قطرات من عرق تتلألأ على صدغيه .

ألقيت نظرة على ليزا . كانت جالسةً في ركن الى جانب شاتوف تقريبا . وكانت تنقّل نظرتها الفاحصة المتفرسة من فرفارا بتروفنا الى العرجاء ، ومن العرجاء الى فرفارا بتروفنا . وكانت ابتسامة تقلّص شفتيها، لكنها ابتسامة خبيثة . لاحظت ذلك فرفارا بتروفنا . وكانت ماريا تيموفيئفنا أثناء ذلك تبدو مفتونة : انها تنظر بمسرة واضحة ودون أي ارتباك الى صالون فرفارا بتروفنا الجميل ، وأثاثه الفاخر ، وسجاده النفيس ، ولوحاته المعلقة بالجدران ، ونقوشه التي تزين السقف ، والتمثال البرونزي الذي يمثل المصلوب منتصباً في ركن من الأركان ، والمصباح الخزفي ، ودفاتر الصور ، والبيلوهات الموضوعة على المائدة .

وهتفت تقول فجأة :

ـ كيف ؟ أأنت أيضا هنا يا شاتوشكا ! تصور أنني رأيتك منذ مدة ولكنني قلت لنفسي : لا ، ليس هو ، أنّى له أن يكون هنا ؟

وضحكت في فرح .

قالت فرفارا بتروفنا تسأل شاتوف وهي تلفتت اليه بقوة :

ـ أتعرف هذه المرأة ؟

فجمجم شاتوف يقول وهو يتحرك مضطربا على مقعده :

ـ نعم ، أعرفها .

ـ ماذا تعرف عنها ؟ أسرع فى الاجابة قليلا ، أرجوك •
ـ ماذا أقول لك ؟

قال شاتوف ذلك وابتسم ابتسامة غامضة لا تتناسب كثيرا مع الموقف• وتابع كلامه فقال :

ـ انك لترين بنفسك •••
ـ ماذا أرى ؟ ولكن هلاّ قلت شيئاً •••
ـ انها تقيم فى نفس العمارة التى أقيم فيها ••• مع أخيها ••• الضابط •••
ـ وماذا أيضا ؟

تردد شاتوف • ثم دمدم يقول متلعثما :

ـ لا حاجة الى الكلام •

وعاد الى صمته الكامل وقد احمر وجهه احمرارا شديدا من الجهد الذى بذله • قالت فرفارا بتروفنا مستاءةً :

ـ طبعا لا يمكن أن يتوقع المرء منك غير هذا •

لقد كانت ترى رؤية واضحة أننا جميعا نعلم شيئا ما ، لكننا نوجس خوفا ونحاول أن نتحاشى أسئلتها ، أى أن ثمة سراً •••

ودخل الخادم وقدّم اليها ، على صينية صغيرة من فضة، فنجان القهوة الذى كانت قد أمرت به ، ولكنها أومأت اليه فاتجه نحو ماريا تيموفيئفنا •

قالت فرفارا بتروفنا لماريا تيموفيئفنا :

ـ منذ قليل كنت تشعرين ببرد يا عزيزتى ، فاشربى هذه القهوة سرعة ، فتدفئى •

فقالت ماريا تيموفيئفنا وهى تتناول القهوة ، قالت بالفرنسية :

ـ « شكرا » (بالفرنسية) •

وانفجرت تضحك فجأة ، اذ تصورت انها قالت للخـــادم «شكرا» بالفرنسية . لكنها ، وقد التقت نظرتها بنظرة قاسية تسطع في عيني فرفارا بتروفنا ، خافت ووضعت الفنجان على المائدة .

ثم تمتمت تقول بشيء من المرح :

ـ أتراك زعلت يا عمتي ؟

فاذا بفرفارا بتروفنا تصيح مستهجنة :

ـ ماذا ؟

واذا هي ترتعش وتقوم عن كرسيها متابعة كلامها فتقول :

ـ أنا لست عمتك ؟ ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

ودُهشت ماريا تيموفيئفنا من هذا الغضب المفاجيء ، فتقهقرت الى وراء ، وأخذت ترتعش كأن بها حمى . وقالت متلعثمة وهي تنظـــر الى فرفارا بتروفنا محملقة :

ـ كنت ... كنت أظن أن عليّ أن أناديك هكذا . فهكذا تناديك ليـــزا .

ـ ما هذا الذي تقولينه أيضا ؟ من هي ليزا هذه التي تتحدثين عنها ؟

فأشارت ماريا تيموفيئفنا الى ليزا باصبعها قائلة :

ـ هي هذه الآنسة ؟

ـ كيف ؟ أتسمينها ليزا أيضا ؟

ـ أنت نفسك سميتها هكذا منذ قليل .

كذلك قالت ماريا تيموفيئفنا متجرئة قليلاً ، وتابعت كلامها تقـــول ضاحكة كأنها تفكر في شيء آخر :

ـ رأيت في منامي آنسة جميلة شبيهة بها كل الشبه .

فكَّرت فرفارا بتروفنا لحظةً ، وهدأت قليلاً ، حتى لقد تبسمت تبسماً خفيفا حين سمعت كلمات ماريا تيموفيئفنا الاخيرة . فحين لاحظت ماريا هذه الابتسامة ، نهضت واقتربت منها خجلةً وجلة وهي تعــــرج . وقالت وهي تنزع عن كتفيها الشال الاسود الذى كانت فرفارا بتروفنا قد لفعتها به :

ـ خذيه ، نسيت أن أرده اليك ، اغفرى لى قلة أدبى .

ـ بل ردّيه الى كتفيك فورا ، واحتفظي به لنفسك . هيَّا اجلسى ، واشربى قهوتك ؛ ورجائى اليك يا عزيزتى أن لا تخافى منى . هــــدئى روعك . لقد بدأت أفهمك .

سمع ستيفان تروفيموفتش لنفسه أن يتدخل فقال يخاطب فرفارا بتروفنا بالفرنسية :

ـ « صديقتى العزيزة » ...

فما كان من فرفارا بتروفنا الا أن قالت متململة :

ـ آه ... ستيفان تروفيموفتش ، ان الموقف معقد تعقيدا كافيا دون أن تزيده بكلامك أنت تعقيداً .. شُدَّ حبل هذا الجرس الموجود بقربك، أرجوك .

وساد صمت .

كانت تجيل علينا جميعا نظـــــرة حانقة مرتابة . ودخلت آجاشا ، خادمتها الأثيرة . فقالت لها فرفارا بتروفنا :

ـ هاتى لى الشال ذا المربعات ، الذى اشتريته من جنيف . ماذا تعمل داريا بافلوفنا ؟

ـ انها متوعكة الصحة يا سيدتى .

ـ اصعدى اليها واطلبى منها أن تجىء • وأضيفى الى ذلك أننى أرجوها ملحةً أن تجىء ولو كانت مريضة •

وفى تلك اللحظة نفسها سمعنا أصوات وقع أقدام غير مألوفة ، فما هى الا هنيهة حتى ظهرت فى عتبة الباب ، على حين فجأة ، براسكوفيا ايفانوفنا لاهثة الأنفاس زائغة الهيئة ، يسندها مافريكى نيقولايفتش •

صرخت براسكوفيا ايفانوفنا تقول بصوت حاد ، معبِّرة بهذا الصراخ ، على عادة الأشخاص الضعاف المهتاجين ، عن كل الغضب الذى كان قد تراكم فيها :

ـ آه ••• رباه ! لقد نفد صبرى ! ليزا ، أنت مجنونة ! انظرى كيف تعاملين أمك ! يا فرفارا بتروفنا ، لقد جئت لآخذ ابنتى •

فألقت عليها فرفارا بتروفنا نظرة من تحت ، وأنهضت جسمها قليلا، وقالت وهى تحاول بجهد كبير أن تخفى امتعاضها :

ـ نهارك سعيد يا براسكوفيا ايفانوفنا • اجلسى ، أرجوك • كنت أعلم أنك لا بد آتية •

٢

ليس في هذا الاستقبال شيء كان يمكن أن لا تتوقعه براسكوفيا ايفانوفنا . ان فرفارا بتروفنا تعامل رفيقة مدرستها هذه معاملة تشتمل دائما على استبداد وطغيان يختفيان تحت ستار الصداقة ، بل لقد كانت تعاملها بما يشبه أن يكون ازدراء . غير أن ذلك اليوم كان يبدو استثناء من القاعدة مع ذلك .

لقد سبق أن ذكرت عرضا أن القطيعة بين السيدتين أصبحت شبه تامة منذ بضعة أيام . ومع ذلك فان أسباب هذه القطيعة كانت ما تزال سراً خفيا في نظر فرفارا بتروفنا ، فكان ذلك يؤلم فرفارا بتروفنا ايلاما خاصاه غير أن الشيء الرئيسي هو أن براسكوفيا ايفانوفنا تتخذ الآن ازاءها وضعا فيه تعالٍ عجيب وغطرسة . وكان طبيعيا أن يصيب هذا فرفارا بتروفنا بجراح بليغة عميقة . زد على ذلك أن شائعات غريبة كانت قد أخذت تصل الى مسامعها ، وهي شائعات غامضة جدا ، كانت تحنقها لهذا السبب الى أبعد حدود الحنق . ان من طبيعة فرفارا بتروفنا أنها مستقيمة ذات كبرياء ، بل وأنها تميل الى النزال والقتال . وهي لا تكره شيئا كما تكره الاتهامات الملتوية والغمزات الخفية ، وتؤثر على ذلك أن تكون الحرب سافرة صريحة . ومهما يكن من أمر ، فان هاتين السيدتين لم تلتقيا منذ خمسة أيام ، أي منذ آخر زيارة قامت بها فرفارا بتروفنا لهذه « السيدة دروزدوف » ، وهي زيارة عادت منها فرفارا بتروفنا مضطربة أشد الاضطراب ، حانقة أكبر الحنق . وفي وسعي أن أقول غير خائف من الخطأ أن براسكوفيا ايفانوفنا حين دخلت الآن كانت مقتنعة بأن فرفارا

بتروفنا لا بد أن تخاف منها : كان ذلك واضحاً في تعبير وجهها • ولكن فرفارا بتروفنا ما ان يحملها باعث من البواعث على افتراض أن من الممكن أن تُظن مُذلّة حتى يركبها عفريت العجب ويستولى عليها شيطان المجرفة •

وكانت براسكوفيا ايفانوفنا ، ككثير من الاشخاص الضعاف الذين يتحملون سوء المعاملة مدة طويلة دون أي احتجاج ، تعمد الى الهجوم العنيف متى أتيحت لها فرصة الهجوم العنيف • هذا الى أنها مريضة ، وقد جعلها المرض أكثر اهتياجا وأشد تأذياً بطبيعة الحال • ويجب أن أضيف الى ذلك أخيراً أن وجودنا نحن في الصالون لا يمكن أن يحرج هاتين الصديقتين اذا وجب أن تنشب بينهما مشاجرة : فهما تعدّاننا جزءاً من الأسرة ، وتعداننا كذلك أدنى مستوى وأهون شأنا • وقد خطرت ببالي هذه الفكرة وأنا أشعر بغير قليل من القلق • وحين سمع ستيفان تروفيموفتش صوت براسكوفيا ايفانوفنا الحاد الصارخ ، ولم يكن قد جلس منذ وصول فرفارا بتروفنا ، تهاوى على كرسيه خائر القوى ، وحاول أن يقع بصره على نظرتي وقد بدا في وجهه كمد شديد • وتحرك شاتوف مضطربا على كرسيه ، وجمجم ينطق بضع كلمات من بين أسنانه • فخيّل اليّ أنه يهمّ أن ينهض وينصرف • وهمّت ليزا أيضا أن تنهض ، ولكنها سرعان ما عادت تجلس حتى دون أن تولى صرخات أمها ما توجبه الظروف من انتباه واهتمام • ولم يكن ذلك ثمرة من ثمرات « عناد رأسها » قط ، وانما كان نتيجة فكرة استولت على نفسها استيلاء كاملاً ، واستغرقت نفسها استغراقا واضحا • انها تنظر الى أمام كالذاهلة ، حتى لقد انقطعت عن الاهتمام بماريا تيموفيئفنا •

٣

هتفت براسكوفيا ايفانوفنا تقـــول وهي تستقر بمعـــاونة مافريكي نيقولايفتش على مقعد قرب المائدة :

ـ آه ... أخيرا أجلس !

ثم أضافت تقول بصوت محطَّم :

ـ لولا آلام شديدة في ساقيَّ لما جلست عندك يا عزيزتي .

فرفعت فرفارا بتروفنا رأسها قليلا ، وضغطت بأصابع يدها اليمنى على صدغها الذي كان واضحا أنها تحس بأوجاع فيه ، وقالت :

ـ لماذا يا براسكوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا عساك ترفضين الجلوس عندي ؟ لقد كان المرحوم زوجك يحمل لي دائما أكبر الصداقة ؟ ويا طالما لعبنا معاء أنا وأنت ، لعبةَ العروسة ، أيام كنا صبيتين صغيرتين في المدرسة الداخلية!

حركت براسكوفيا ايفانوفنا يدها باشارة تململ وقالت :

ـ هذا ما كنت أتوقعـــه . كلما انتويت أن تأخذي عليَّ المآخـذ ، استحضرت ذكرياتنا في المدرسة الداخلية . هذا أسلوبك وهذه خطتك . في رأيي أن ما تقولينه هنا ليس الا جملاً منمَّقة . اعلمي انني أكرهها وأحتقرها ، هذه المدرسة الداخلية التي تجيئين على ذكرها !

ـ يبدو لي أنك معتكرة المزاج . كيف حال ساقيك ؟ ها ... اليك القهوة .. اشربيها .. أرجوك .. وكفِّي عن الغضب !

ـ انك تعاملينني كما يُعامَل طفل صغير . لا أريد قهوتك .

قالت براسكوفيا ايفانوفنا ذلك ، وأبعدت باشارة حانقة ساخطة الخادم

الذي جاء يقدم لها فنجاناً من القهوة) وما من أحد شرب قهـــوة الا أنا ومافريكي نيقولايفتش • وقد أخذ ستيفان تروفيموفتش فنجانا ، ولكنـــه تركه على المائدة دون أن يرشف منه رشفة واحدة • أما ماريا تيموفيئفنا فقد ودّت لو تأخذ فنجانا ثانيا حتى لقد مدّت يدها الى الصينية ، لكنهـــا فكرت في الأمر فأسرعت ترفض بوقار ، راضيةً عن حركتها هـــذه رضى واضحا •

ابتسمت فرفارا بتروفنا ابتسامة مقهورة ، وقالت :

ـ لا بد أنك تخيلت شيئاً من الأشياء يا عزيزتي براسكوفيا ايفانوفنا، وأنك انما دخلت الى هنا ممتلئةً بما ذهب اليه خيالك • لقد عشت دائماً في وسط أخيلتك وأوهامك • انك تغضبين اذا أنا جئت على ذكر مدرستنا الداخلية ، ولكن هل تتذكرين أنك حين عـــدت من اجازة الصيف قد زعمت لتلميذات الصف كله أن الضابط في سلاح الفرسان ، شابكيلين ، قد خطبك من أهلك ؟ ان السيدة ليفيور قد أقنعتك فورا بأنك تكذبين ، والحق أنك لم تكذبي ، وانما أنت تخيلت هذه القصة تخيـــلا من باب التسلية • فقولي لنا : ماذا هناك الآن ؟ ماذا تخيلت أيضا ؟ ممَّ أنت مستاءة !

ـ وأنت أيضا وقعت في غرام القس الذي كان يعلّمنا الدين• ذلك أنت ، ما دمت حقودة الى هذا الحد • هأ هأ هأ ! •••

وانطلقت تضحك ضحكة مُرةً تحولت الى نوبة سعال شديد •

قالت فرفارا بتروفنا وهي تلقي عليها نظرة زاخرة بالبغض :

ـ آ ••• اذن لم تنسي حكاية القس •••

وانكفأ لون وجهها حتى صار ضاربا الى خضرة • فاذا براســكوفيا ايفانوفنا تنهض فجأة متجهمة الوجه وتقول :

ـ لست الآن في حالة نفسية تساعدني على الضحك يا عزيزتي •

لماذا أقحمت ابنتي في فضائحك على مرأى ومسمع من المدينة كلها ؟ من أجل أن أعرف هذا انما جئت •

فما ان سمعت فرفارا بتروفنا هذا الكلام حتى صاحت تقول بلهجة التهديد :

ـ فضائحي ؟

فاذا بليزافتا نيقولايفنا تتدخل فتقول مخاطبةً أمَّها :

ـ أنا أيضا أطلب منك أن تلتزمي الاعتدال والقصد يا أماه •

ـ ماذا تقولين ؟

كذلك سألت الأم وهي تستعد لأن تنفجر صائحة منتحبة ، لكنها وقد رأت ما يسطع في عيني ابنتها من نظرات ملتهبة مستعرة ، أمسكت على حين فجأة :

قالت ليزا وقد احمرت احمرارا شديدا :

ـ كيف يمكنك أن تتحدثي عن فضائح يا ماما ؟ لقد جئت بمحض ارادتي ، واستأذنت جوليا ميخائيلوفنا ، لأنني أردت أن أعرف قصة هذه المسكينة وأن أساعدها •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا تكرر جملة ابنتها وهي تضحك ضحكة خبيثة :

ـ « قصة هذه المسكينة ! » ما شأنك أنت وهذه القصص يا عزيزتي ؟

والتفتت نحو فرفارا بتروفنا ساخطة سخطا شديدا ، وقالت لها :

ـ يا عزيزتي ! لقد ضقنا ذرعاً بطغيانك واستبدادك ! يقال هنا ، خطأ أو صوابا ، انك تسيِّرين المدينة كلها باشارة من أصبعك أو غمزة

من عينك ، ولكن آن الأوان لأن ينتهي هذا كله • لن يحدث شيء من هذا بعد اليوم !

كانت فرفارا بتروفنا منتصبة الجذع كسهم يهمّ أن ينطلق من القوس • وألقت على براسكوفيا ايفانوفنا نظرة ثابتة طويلة قاسية ، ثم قالت لها أخيرا بهدوء مخيف :

ـ احمدى الله يا براسكوفيا على أنه ليس هنا الا أصدقاء • لقد نطقت بأقوال كثيرة لا داعى اليها •

ـ أنا لا أخشى رأى الناس • ولكنك أنت التى ترتعشين خوفا من الناس ، تحت ستار من الكبرياء الباطلة والزهو الكاذب • فاذا كان هؤلاء أصدقاء ، فذلك من حسن حظك •

ـ أتُراك أصبحت أكثر ذكاء فى خلال هذه الايام الثمانية ؟

ـ لا ، ليس الامر هذا • كل ما هنالك أن الحقيقة قد تكشفت ساطعة باهرة فى هذا الاسبوع •

ـ أية حقيقة ؟ اسمعى يا براسكوفيا ايفانوفنا ، لا تحنقينى ، اشرحى ما بنفسك فورا • اننى أطلب منك هذا جادةً : ما هى تلك الحقيقة ؟ ماذا قصدت من ذلك الكلام ؟

ـ الحقيقة هى هذه ! انها موجودة أمامك !

كذلك هتفت براسكوفيا ايفانوفنا، مشيرةً باصبعها الى ماريا تيموفيئفنا عازمةً ذلك العزم المستميت الذى لا يحفل بالعواقب ، راغبةً فى أمر واحد لا ثانى له ، هو أن تضرب ضربة قوية • وكانت ماريا تيموفيئفنا تتفرس فيها باهتمام يسلّيها ، فلما رأت اصبع الزائرة تمتد نحوها مشيرةً اليها ، انطلقت ضحكة فرحة ، وطفقت تتقلقل على كرسيها مرحة•

هتفت فرفارا بتروفنا تقول :

ـ يا يسوع المسيح ، لقد أصبحوا جميعا مجانين !

واصفر وجهها اصفرارا شديدا ، وتهالكت في مقعدها ، حتى لقد بلغت من الأصفرار أننا خفنـا خوفا كبيرا ، وكان ستيفان تروفيموفتش أول من هرع نحوها ، واقتربت أنا منها ، ونهضت ليزا أيضا ، ولكنهـا سرعان ما توقفت ، على أن براسكوفيا ايفانوفنـا كانت أشد ارتياعا على الاطلاق ، فقد انطلقت من صدرها صرخة ، ونهضت من مكانها في مشقة وعناء ، وقالت بصوت دامع له أنين :

ـ فرفارا بتروفنا ، عزيزتي الغالية ، اغفرى لى حماقتي وشرى ، ولكن هاتوا لها قليلاً من الماء ،

ـ لا تثني يا براسكوفيا ايفانوفنا ، أرجوك ! وابتعدوا أيها السادة ، رحماكم ! لست في حاجة الى ماء يا براسكوفيا ايفانوفنا !

أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة بصـوت ثابت وان يكن أجش ، وكانت شفتاها قد ذهب عنهما لونهما تماماً ،

استأنفت براسكوفيا ايفانوفنا كلامها فقالت وقد هدأت قليلا :

ـ فرفارا بتروفنا ، صديقتي ، لقد أفلتت مني كلمات حمقاء حقا ، لكنني قد أخرجتني عن طوري رسائل غير مذيلة بأسماء مرسليها ، قصفني بها أوغاد لا أدرى من هم ، كان عليهم أن يرسـلوها اليك أنت ، فهي تتناولك ، أما أن يرسلوها الىّ فهـذا ما أحنقني ؟ ان لى بنتاً يا فـرفارا بتروفنا ، وأنا مسئولة عنها ،

كان فرفارا بتروفنا تصغى اليها بانتباه محملقةً ، وفي تلك اللحظة فُتح باب صغير بغير ضجة ، ودخلت داريا بافلوفنا الغرفة ، ولكنها سرعان

ما توقفت ونظرت الينا جميعا وقد فجأها مارأت في وجوهنا من اضطراب. جائز أنها لم تلاحظ في الوهلة الأولى ماريا تيموفيئفنا التي لم ينبهها أحد الى حضورها . وكان ستيفان تروفيموفتش أول من رأى دخـــول داريا الصامت . فقام بحركة من يده ، واحمر وجهـــه ، وقال معلنا لا يدري أحد لمـاذا : « داريا بافلوفنا » ، فاذا بالأنظار جميعها تتجه الى الفتاة دفعة واحدة .

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول :

ـ ماذا ؟ أهذه هي داريا بافلوفنا ؟ ان أختك لا تشبهك ياشاتوشكا. كيف يجوز لخادمي أن يصف فتاة جميلة هذا الجمال بأنها عبدة ، وأن يلقبها داشكا ؟

وفي أثناء ذلك كانت داريا بافلوفنا قد اقتربت من فرفارا بتروفنا . لكنها وقد أدهشتها صيحة ماريا تيموفيئفنا التفتت فجأة ، وتوقفت ، وألقت على العرجاء نظرة ثابتة طويلة .

قالت فرفارا بتروفنا بهدوء فيه تهديد :

ـ اجلسي . اقتربي مزيدا من الاقتراب . نعم هكذا . تستطيعين أن ترى هذه المرأة وأنت جالسة . هل تعرفينها ؟

أجابت داشا بصوت رقيق عذب :

ـ لم أرها قبل اليوم .

ثم أضافت بعد لحظة صمت :

ـ لا بد انها الأخت العرجاء لرجل يسمى ليبادكين .

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي في ذروة الافتتان :

ـ أنا أيضا يا عزيزتي أراك اليوم أول مرة ، رغم شوقي الى معرفتك منذ مدة طويلة ، لأن كل حركة من حركاتك تدل على تربية ممتازة . أما عن خادمي وشتائمه ، فهل يُعقل أن تسرق منه مالاً فتاةٌ لها ما لك من روعة الفتنة وحسن النشأة والتربية ؟ ذلك أنك فاتنة ، نعم فاتنة . أنا أقول لك ذلك .

بهذا ختمت العرجاء كلامها بحماسة وهي تحرك يديها أمام داريا بافلوفنا .

قالت فرفارا بتروفنا لداريا تسألها بوقار وكبرياء :

ـ هل تفهمين شيئاً من هذا الكلام كله ؟

ـ نعم ، أفهم كل شيء .

ـ فما حكاية المال المسروق ؟

ـ لعلها تقصد المال الذي تكفلت في سويسرا ، تلبيةً لطلب نيقولاي فسيفولودوفتش ، أن أحمله الى السيد ليبادكين ، أخيها .

ساد صمت .

ـ هل نيقولاي فسيفولودوفتش هو الذي كلفك بحمل ذلك المال ؟

ـ كان يرغب كثيرا في ايصال مبلغ ثلاثمائة روبل الى السيد ليبادكين. واذ كان لا يعرف عنوانه ، وكان كل ما يعرفه أنه سيجيء الى هنا ، فقد عهد اليَّ بالمبلغ لأسلّمه ليبادكين عند وصوله الى مدينتنا .

ـ وما ذلك المال المفقود ؟ ماذا تعني تلك الكلمات التي قالتها هذه المرأة منذ برهة ؟

ـ لا أدري . ولكن بلغتني شائعة تقول ان السيد ليبادكين أخذ يزعم

في كل مكان أنني لم أوصل اليه المبلغ كاملاً ؟ ولم أفهم معنى أقواله • لقد أُعطيت ثلاثمائة روبل ، فأرسلتها اليه •

كانت داريا بافلوفنا قد استردت هدوءها كاملا • ويجب أن أقول من جهة أخرى انه كان صعبا على وجه العموم أن تباغَت هذه الفتاة وأن تُحمل على الاضطراب مهما تكن العاطفة التي تعتمل في قرارة نفسها • لقد أجابت عن جميع الأسئلة بدقة ووضوح ، دون تعجل ، بصوت رقيق متساوٍ ، من غير أن يبقى أي أثر من انفعالها الأول ، وبدون أي ارتباك يمكن أن يحمل أحداً على أن يظن فيها الاحساس بارتكاب ذنب •

ولم تحوّل فرفارا بتروفنا بصرها لحظـــة واحدة عنها أثناء هـــذا الاستجواب • وها هي ذي تفكر لحظةً ثم تعلن بلهجة جازمة ، موجهةً كلامها الينا جميعا رغم أنها لم تنظر الا الى داشا :

ـ ما دام نيقولاى فسيفولودوفتش لم يستعن بى أنا ، وانما رأى من الخير أن يعهد اليك أنت بهذه المهمة ، فلا شك أن هناك أسباباً تدعوه الى ذلك • وعندى أنني لا يجوز لى أن أبحث عن هـــذه الأسباب ما دامت تُخفى عني • ولكن ثقى أن مجرد اشتراكك في هذه المسألة يطمئنني عن تلك الأسباب ، يا داريا • ولكنك يا بنيتي ، لجهلك بالنـــاس ، ورغم كل طهارة نياتك ، يمكن أن تقومى بعمل يعوزه التبصر بالعواقب ، ولقد قمت بهذا العمل فعلاً اذ اتصلت بوغد دنيء • والشائعات التى أذاعها في الناس تبرهن لك على ذلك برهانا واضحا • لكنني سأسأل عنه ، وما دام واجب الدفاع عنك يقع على عاتقى أنا ، فسوف أعرف كيف أحميـــك • والآن يجب أن نضع حداً لهذا كله •

تدخلت ماريا تيموفيئفنا فقالت بحماسة وحرارة وهى تتحرك عـلى كرسيّها :

ـ أفضل شيء نفعله حين يأتي هو أن نرسله الى المطبخ ، فيلعب هناك بالورق مع الخدم بينما نشرب نحن هنا قهوتنا . في وسعنا على كل حال أن نرسل اليه فنجانا ، ولكنني أكرهه كرهاً عميقا .

بهذا ختمت ماريا تيموفيئفنا كلامها وهي تهز رأسها بحركة ذات دلالة .

ردّدت فرفارا بتروفنا بعد أن أصغت الى ماريا تيموفيئفنا بانتباه :

ـ نعم ، يجب أن ننتهي من هذا كله ! ستيفان تروفيموفتش ، اقرع الجرس ، من فضلك .

قرع ستيفان تروفيموفتش الجرس ، ثم اذا هو يتقدم فجأة وقــد احمر وجهه احمرارا شديدا ، ودمدم يقول متلعثما متأتئا ، بنــوع من الحمى :

ـ لو أنني ... لو كنت ... لو قد سمعت هذه القصة الدنيئة ، بل هذه الوشاية الكاذبة ... لاستأت استياء شديدا ف ... « الخلاصة هي أنه رجل ضائع يشبه أن يكون سجينا هاربا ... » (بالفرنسية) .

وأمسك ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة . لقد نظرَت اليــه فرفارا بتروفنا مغضّنةً جفنيها . ودخل ألكسي ايجورتش ، بأبهــة على عادته . فقالت فرفارا بتروفنا :

ـ فلتُهيأ العربة . وأنت يا ألكسي ايجورتش استعدّ لايصال الآنسة لبيادكين الى بيتها . ستدلك هي على المكان الذي تسكنه .

ـ ان السيد لبيادكين ينتظرها منذ بعض الوقت تحت . وقــد ألحّ عليّ كثيراً أن أبلغ عن حضوره .

فتدخل مافريكي نيقـــولايفتش الذى كان حتى ذلك الحين يلتزم صمتاً كاملاً لا يتزعزع ، تدخل يقول منتبهاً الى سوء دخول ليادكين :

ـ مستحيل . اسمحي لى أن أقول لك يا فرفارا بتروفنا ان هـــذا الشخص ليس بمن يمكن استقباله فى مجتمع . هذا ... هذا انسان غير معقول يافرفارا بتروفنا .

قالت فرفارا بتروفنا تأمر ألكسى ايجورتش :

ـ فلينتظر .

فسرعان ما خرج ألكسى ايجورتش .

تمتم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية :

ـ « هذا رجل منحط . حتى اننى أعتقد أنه سجين هارب أو رجل من هذا القبيل » (بالفرنسية) .

ولكنه احمر وأمسك عن الكلام من جديد .

قالت براسكوفيا ايفانوفنا بلهجة مشمئزة وهى تنهض عن مقعدها :

ـ ليزا ، آن لنا أن ننصرف .

كان يبدو عليها أنها نادمة على أن وصفت نفسها بالحماقة أثناء انفعالها منذ برهة . لقد استردت هيئة التعالى والاحتقار أثناء استجواب داريا . غير أن الشيء الذى خطف انتباهي أكثر من كل ما عداه هو ما كان يعبّر عنه وجه ليزافتا نيقولايفنا : انها منذ دخول داريا بافلوفنا قد سطع فى عينيها لهيب كره واضح وازدراء صارخ يعلن عن نفسه سافراً .

قالت فرفارا بتروفنا بذلك الهدوء الشديد نفسه :

ـ انتظرى دقيقة ، من فضلك يا براسكوفيا ايفانوفنا . اجلسى . اننى

أريد أن أقول كل شيء ، وأنت تشعرين بآلام في ساقيك ، فاجلسي ، أرجوك . نعم ، هكذا ، شكرا . منذ قليل ، استبد بي الانفعال فاندفعت فأفلتت من لساني كلمات حانقة . فمعذرة . لقد تصرفت تصرفاً أحمق ، وأنا أول من يعترف بذلك ، لأنني أحب العدل والانصاف في كل شيء . ولا بد أنك كنت أنت خارجة عن طورك حتماً ، منذ برهة ، حين ألمعت الى رسائل بعثها مرسلوها دون أن يذكروا أسماءهم . ان كل رسالة من هذا النوع لا تستحق الا الاحتقار ، لمجرد أنها غير مذيلة بتوقيع صاحبها . فاذا كنت لا ترين هذا الرأي ، فهذا من سوء حظك ؛ ومهما يكن من أمر فانني لو كنت في مكانك لما التفت الى هذه الدناءات ، ولأبيت أن أوسِّخ بها نفسي . ولكن ما دمت قد بدأت ، فانني مضطرة أن أذكر لك أنني أنا أيضا قد تلقيت منذ ستة أيام رسالة فظة مضحكة لا تحمل اسم مرسلها . لا أدري من هو ذلك الوغد الحقير الذي ينبئني في تلك الرسالة أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد أصبح مجنونا ، وأن عليَّ أن أحذر امرأة عرجاء « ستلعب في حياتي دورا خطيرا » . هذا هو التعبير الذي استعمله كاتب الرسالة أتذكره الآن كلمة كلمة . فلما فكَّرت ، وكنت أعرف أن نيقولاي فسيفولودوفتش له أعداء كثيرون ، استدعيت شخصا من هنا هو واحد من أعدائه المتسترين المتخفين الحاقدين الحقيرين ، فلم تنقض على حديثي معه لحظة حتى أدركت من هو كاتب تلك الرسالة . فاذا كنت ، « بسببي أنا » ، تطارَدين أو تُقصفين، على حد تعبيرك ، برسائل غفلٍ من أسماء مرسليها ، فانني ليؤسفني طبعا أن أكون أنا سبب ذلك ، رغم براءتي . ذلك كل ما أردت أن أقوله لك شارحة معتذرة . انني أرى بوضوح أنك متعبة مرهقة وأنك مضطربة أشد الاضطراب . ولكنني من جهة أخرى عازمة عزماً قاطعا على « ادخال » ذلك الرجل المشبوه المريب

الذي استعمل مافريكي نيقولايفتش في حقه ألفاظا غير مناسبة ، اذ قال انه لا يمكن استقباله . ان ليزا خاصةً لن يكون لها شأن هنـــا . تعالي اليَّ يا ليزا ، يا بنيتي ، لأقبِّلك مرة أخرى .

اجتازت ليزا الغرفة ، ووقفت أمام فرفارا بتروفنا صامتة . فقبَّلتهـا هذه ، وأمسكت يديها ، وردَّتها قليلاً الى وراء لتراها رؤية أكمـــل ، وتأملتها بعاطفة وانفعال . ثم رسمت على الفتاة اشارة الصليب ، وقبَّلتها من جديد .

ـ هيا ، مع السلامة يا ليزا (وأوشكت أن تخالط صوتها دموع) . اعلمي انني لن أكف عن حبك يوما ، مهما يخبيء لك القدر . كان الله معك . انني أبارك ارادته دائما ...

وأرادت فرفارا بتروفنا أن تضيف شيئا آخر ، لكنها ثابت الى نفسها وأمسكت عن الكلام . وسارت ليزا راجعة الى مكانها وهي ما تزال صامتةً وكأنها في حلم ، فلما وصلت الى أمام أمها توقفت فجأة وقالت لها بصوت رقيق لكنه يشف عن ارادة صلبة وعزم من حديد :

ـ لن أنصرف يا ماما ، سأبقى الآن عند عمتي .

فقالت براسكوفيا ايفانوفنا في أنين وهي تضم يديهـــا احداهما الى الأخرى بحركة خوف وقلق :

ـ ما هذا أيضا يا رب ؟

لكن ليزا لم تجبها . حتى لقد بدا عليها أنها لم تســـمعها . وعادت تجلس في ركنها وهي ما تزال تائهة النظرة في الفراغ .

وأشرق في وجه فرفارا بتروفنا تعبير عن العجب والانتصار . وقالت تخاطب مافريكي نيقولايفتش :

ـ مافريكي نيقولايفتش ، أريد أن أسألك خدمةً هامة : أرجوك أن تذهب الى تحت فتلقي نظرةً على ذلك الرجل ، فان رأيت أن هناك أي امكان « لادخاله » ، فجيء به الى هنا .

فأطاع مافريكي نيقولايفتش وخرج . وما هي الا دقيقة حتى رجع مع السيد لبيادكين .

٤

سبق أن تكلمت عن مظهر هذا الشخص : رجل طويل القامة ضخم الجسم ، فى نحو الاربعين من العمر ، مجعد الشعر ، أحمر الوجه متورمه ، ترتجف خداه الرخوتان عند كل حركة من رأسه ؛ وعيناه الصغيرتان المحتقنتان لا تخلوان من معنى الدهاء والمكر . وله شاربان ولحيتان فى العارضين . وتبرز تفاحة آدم فى عنقه سمينةً بشعة المنظر . والشيء الذى خطف انتباهى فيه أكثر من كل ما عداه هو أنه كان فى هذه المرة يرتدى رداء « فراك » ، وقميصا نظيفا . « ان هناك أناساً يكاد يكون القميص النظيف فى نظرهم خروجاً على اللياقة والحشمة » ، كذلك أجاب ليبوتين ذات مرة ، حين لامه ستيفان تروفيموفتش على اهماله هندامه . وكان للكابتن كذلك قفازان أسودان ، يحمل أحدهما بيده اليمنى ، بينما الثانى الذى لم يفلح فى أن يعقد زره ، يشد يسراه الضخمة شداً قويا دون أن يغطيها تغطية كاملة مع ذلك ، وبهذه اليد اليسرى كان يمسك قبعة مدوّرة جديدة كل الجدة ، لامعة . اذن فلقد كان « فراك الحب » الذى تحدث عنه الكابتن الى شاتوف أمس موجودا بالفعل . وهذا اللباس كله ، أى الفراك والقميص النظيف ، انما حصل عليهما الكابتن تنفيذا لنصيحة ليبوتين (كما عرفت ذلك فيما بعد) لأغراض خفية. ومما لا شك فيه أيضا أنه جاء الى منزل فرفارا بتروفنا (راكبا عربة أجرة) بتحريض ومساعدة أحد الناس . فهذه الفكرة ما كان لها أن تخطر بباله قط ؛ وما كان له بمفرده أن يعزم أمره وأن ينفق ثلاثة أرباع الساعة فى العناية بزينته وهندامه ، حتى ولو افترضنا أنه علم فورا بالمشهد الذى حدث تحت مدخل

الكاتدرائية • ولم يكن الكابتن سكران ، لكنه كان متبلدا متبلهاً ، كما يحدث ذلك لأناس صحوا فجأة من سكر دام عدة أيام دون انقطاع • فلو هززته من كتفيه هزاً خفيفاً ، مرةً أو مرتين ، لعاد يهوى الى حالة السكر فوراً •

دخل الكابتن الى الصالون شبه راكض ، لكنه تعثر بالسجادة منذ صار في العتبة • فأخذت ماريا تيموفيئفنا تتلوى ضحكا • فألقى عليها نظرة وحشية كاسرة ، واتجه نحو فرفارا بتروفنا بخطى سريعة •

قال بصوت رنان :

ـ جئت يا سيدتي !

فقالت فرفارا بتروفنا وهي تنتصب بجذعها في مقعدها :

ـ يا سيد ، تفضل فاجلس هناك على ذلك الكرسي • ان في وسعك أن تسمعنا صوتك من هناك ، وأنا يناسبني أن أنظر اليك من هنا •

فتوقف الكابتن فورا وهو ينظر الى أمام ، أبلهَ الهيئة • ولكنه استدار مع ذلك ، وجلس على الكرسي الذي حددته له فرفارا بتروفنا قرب الباب تماماً • ان تعبير وجهه يكشف عن فقدان الثقة بنفسه فقداناً كاملاً ، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن نوع من الوقاحة ونوع من الغيظ المكظوم • كان خائفاً خوفاً رهيبا • ذلك واضح كل الوضوح • ولكنه كان يعاني من جرح في كرامته ، فمن السهل على المرء أن يتنبأ أن كرامته الجريحة يمكن عند الاقتضاء أن تدفعه الى الاقدام على اهانة أحد الناس رغم جبنه • كان واضحا أنه يخشى أن يتحرك ، لشعوره بخراقته • انكم تعلمون أن أكبر عذاب يشعر به أشخاص من هذا النوع حين يدخلون الى المجتمع الراقي بمصادفة تشبه أن تكون معجزة ، انما مصدره انهم لا يعرفون ماذا

يصنعون بأيديهم ، وأنهم لا ينفكون يفكرون في هذا الامر . لبث الكابتن جالساً على كرسيه كالمتجمد ، حاملا قبعته وقفازيه بيـــده ، مثبتاً نظرته البلهاء على وجه فرفارا بتروفنا القاسي . لعله كان يود أن يرى ماذا يجرى حوله ، ولكنه لم يجرؤ أن يعزم أمره على ذلك . ولعل ماريا تيموفيئفنـا قد رأت أن وضع الكابتن مضحك جدا ، فاذا هي تطلق ضاحكة من جديد. ولكن الكابتن لم يتحرك . وتركته فرفارا بتروفنا التى لا ترحم ، تركتـه على هذه الحال برهة طويلة ، دقيقةً كاملة ، تحت نظرتها الفاحصـة ، وقالت له أخيرا بلهجة وقورة ذات دلالة :

ـ قبل كل شيء ، أريد أن أعرف اسمك منك أنت .

فصاح الكابتن يقول :

ـ الكابتن ليبادكين ، لقد جئت يا سيدتى ...

وتحرك على كرسيه مضطربا .

قاطعته فرفارا بتروفنا تقول :

ـ اسمح لى . هذه الانسانة المسكينة التى همَّنى أمرها كثيرا ، أهى أختك حقا ؟

ـ نعم يا سيدتى ، هى أختى ، وقد هربت من حراستى ، فهى فى حالة ...

وأمسك عن اتمام جملته ، واحمر وجهه احمرارا شديدا .

ثم جمجم يقول متلعثما :

ـ لا تسيئى فهمى ياسيدتى ، فأنا لا يخطر ببالى أن ألطخ ســـمعة أختى ... فحين أقول انها فى حالة ... لا أقصـد أنها فى حالة .. فى حالة تسىء الى السمعة ... انها فى هذه الآونة الاخيرة ...

وانقطع عن الكلام فجأة .

قالت فرفارا بتروفنا وهى ترفع رأسها مزيدا من الرفع :

ـ ياسيد ...

ـ اليك ما أريد أن أقوله ...

ولطم جبينه باصبعه . وساد صمت .

ـ سألته فرفارا بتروفنا بصوت بطيء :

ـ أهى مصابة بهذا منذ مدة طويلة ؟

ـ سيدتى ، لقد جئت لأشكر لك ما أظهرته نحوها تحت مدخل الكنيسة ، من كرم ، من كرم روسى ، أخوى ...

ـ أخوى ؟

ـ لا ، لا أقصد ذلك ... وانما أقصد أننى أنا أخوها ياسيدتى .

ثم استأنف كلامه يقول متعجلاً وقد احمر احمراراً شديداً من جديد :

ـ صدقى يا سيدتى اننى لست قليل الأدب الى الحد الذى يمكن أن يظهر علىّ من الوهلة الأولى فى صالونك . اننا ، أنا وأختى ، لا نُعدُّ شيئاً ياسيدتى بالقياس الى ما نرى هنا من صنوف الروعة . يضاف الى ذلك أن لنا أعداء ، أن هناك وشاة يتقولون علينا كاذبين . أما عن السمعة ياسيدتى فان لبيادكين يمكنه أن يعتز ... وان له كبرياءه ... و ... و ... ولقد جئت لأزجى لك الشكر ... اليك المال ياسيدتى !

وفيما كان يقول هذا الكلام أخرج محفظة نقوده واستل منها حزمة أوراق مالية وأخذ يعدها بأصابعه المرتجفة نافد الصبر حانقاً . كان واضحا أنه يريد أن يشرح شيئاً ما بأقصى سرعة ممكنة ، والحق أن الناظر اليه

كان يشعر بضرورة ذلك • لكن لبيادكين ، وقد أدرك فى أغلب الظن أن وضعه فى تلك اللحظة جعله مضحكا ، أضاع صوابه تماما ، فكانت الأوراق ترفض أن تُعدّ ، وكانت أصابعه لا تطاوعه ، وزاده خزياً أن ورقة بثلاثة روبلات انسلت من محفظته وسقطت على السجادة •

ـ اليك عشرين روبلا يا سيدتى !

كذلك هتف وهو ينهض على حين فجأة ، حاملاً حزمة الأوراق بيده ، والعرق يتصبب منه خجلاً واضطرابا • وفى تلك اللحظة لمح الورقة التى كانت قد سقطت على الارض ، فطأطأ ليتناولها ، لكنه شعر بخزى من هذه الحركة لا أدرى لماذا ، فقال وهو يجرى يده باشارة ازدراء :

ـ بل أتركها لخدمك يا سيدتى ، للخادم الذى سيشيلها من الأرض حتى يتذكر أختى •

فسرعان ما قالت فرفارا بتروفنا محتجةً وهى تشعر فى الوقت نفسه بشىء من الرعب :

ـ لا يمكننى أن أرضى بهذا •

عندئذ طأطأ الكابتن من جديد ، فتناول الورقة النقدية ، واحمر وجهه احمرارا شديدا جدا ، وسار بضع خطوات نحو فرفارا بتروفنا ومدّ اليها المال الذى عدّه قائلاً :

ـ ففى هذه الحالة اذن •••

صرخت فرفارا بتروفنا تقول مرتاعة فى هذه المرة ·

ـ ما هذا ؟

حتى لقد تقهقرت قليلاً فى كرسيها • وهرعنا نتقدم اليها أنا ومافريكى نيقولايفتش وستيفان تروفيموفتش •

صات الكابتن يقول وهو يلتفت يمنةً ويسرة :

ـ هدئوا روعكم ، هدئوا روعكم ، ما أنا بمجنون ، أقسم لكم انني لست مجنونا .

ـ بلى ياسيد . أنت قد فقدت عقلك .

ـ سيدتي ، ليس الامر ما تفترضـــين . ما أنا طبعا الا حلقة تافهة لا قيمة لها . آه ... سيدتي !... غنيٌ مسكنك ، وفقير مسكن « ماريا المجهولة » ، أختي التي وُلدت باسم لبيادكين ، ولكننا سنسميها مؤقتاً باسم « ماريا المجهولة » ، مؤقتا ياسيدتي ، مؤقتاً فقط ، لأن الله نفسه لا يرضى أن يستمر الأمر على هذه الحال . سيدتي ، لقد أعطيتها عشرة روبلات ، فقبلتها ، ولكنها لم تقبلها الا لأنك « أنت » التي أعطيتها اياها . هل تسمعين يا سيدتي ؟ ان « ماريا المجهولة » ما كان لها أن تقبل مالاً من أحـــد في هذا العالم ، ولو فعلت ذلك لاهتز من العار في قبره جدُّها ، الضـــابط أركان حـــرب ، الذي قُتـــل في القـــوقاز على مرأى من بارمولوف . ايرمولوف * . أما منك أنت يا سيدتي ، منك أنت ، فانها تقبل كل شيء . لكنها بيدٍ تقبل ، وبيدٍ أخرى تقدم هذه العشرين روبلاً تبرعا لاحدى لجان البر والاحسان التي تشرّفينها بعضويتك في العاصمة ... لقد أعلنت أنت نفسك في « جريدة موسكو » أن عندك هنا سجلاً للتبرعات ، وأن أي انسان يستطيع أن يتبرع .

وتوقف الكابتن عن الكلام . كان يزفر زفيراً مسموعا كأنه قام بعمل مجهد . لعل هذا الحديث الطويل كله عن لجنة البر والاحسان انما كان مهيأً من قبـــل . حتى ان من الممكن أن يكون قد كتبـــه ليبوتين . وكان الكابتن يتصبب عرقه بمزيد من الغزارة : ان قطرات العـــرق تسيل على صدغيه سيلانا بالفعل . وكانت فرفارا بتروفنا تتأمله بانتباه .

قالت بلهجة جافة :

ـ ما يزال السجل موجودا تحت ، عند بواب منزلى • فهناك انمـــا تستطيع أن تسجل تبرعك اذا شئت • أرجـــوك اذن أن ترتب أوراقك النقدية وأن لا تلوّح بها أمامى • يؤسفنى كثيرا يا سيد أننى أخطأت الظن فى أختك فأعطيتها صدقة ، بينما هى غنية هذا الغنى كله • ليس هناك الا شىء واحد لا أفهمه : لماذا لن تقبل فى يوم من الأيام أن تأخذ شيئا من أحد غيرى • لقد بلغت من الالحاح على هذه النقطة اننى أريد أن تشرح لى ما بنفسك •

أجاب الكابتن يقول :

ـ سيدتى ، هذا سر سأحمله معى الى القبر •

فسألته فرفارا بتروفنا بصوت أقل ثقة فى هذه المرة :

ـ لـماذا ؟

ـ سيدتى ! سيدتى !

وصمت مظلّم الوجه ، وخفض عينيه ، ووضع يده اليمنى على قلبه• فكانت فرفارا بتروفنا تنتظر دون أن تحوّل عنه نظرها •

صاح يقول :

ـ سيدتى ، هل تسمحين لى بأن ألقى عليك سؤالاً ، سؤالا لا أكثر، ولكن بصراحة ، بصراحة تامة ، صراحة روسية ، من أعماق القلب ؟

ـ قل ما تريد •

ـ هل تألمت فى هذه الحياة يا سيدتى ؟

ـ هـــذا يعنى أنك تألمت أو ما تزال تـــألم بســبب ذنب اقتـرفه غيرك •

ـ سيدتى ، سيدتى !

ونهض مرة أخرى بحركة مباغتة ، ربما دون أن يشـــعر بذلك ، ولطم صدره . وأضاف يقول :

ـ هنا ، فى هذا القلب ، تراكمت أشياء كثيرة سيُدهش منها الاله نفسه حين سينكشف كل شىء فى يوم الحساب .

ـ همْ ... انك تستعمل تعابير قوية .

ـ سيدتى ، ربما كنت أتكلم بلهجة تشتمل على اسراف فى الغضب والحنق .

ـ لا تهتم . سأعرف كيف أوقفك عن الكلام حين يجب أن أوقفك عنـــه .

ـ هل يمكننى أن ألقى عليك سؤالاً آخر يا سيدتى ؟

ـ افعل !

ـ هل يمكن أن يتعذب المرء لا لسبب غير نبل نفسه ؟

ـ لا أدرى . لم ألق على نفسى هذا السؤال يوما !

فهتف الكابتن يقول بلهجة فيها سخرية وتأثر :

ـ لا تدرين ! ولم تلقى على نفسك هذا السؤال يوما ! طيب ، فاذا كان الامر كذلك ،

فاصمت يا قلبى اليائس *

قال ذلك ولطم صدره بقوة وعنف .

كان يسير فى الغرفة طولاً وعرضا . ان السمة المميزة لهؤلاء الناس هى انهم عاجزون عجزاً مطلقا عن اخفاء رغباتهم ، وان بهم حاجةً لاتقاوم

الى التعبير عنها فورا بكل ما فيها من بشاعة . فاذا وجدوا فى مجتمع غير مجتمعهم شعروا فى أول الامر بضيق وحرج ، ولكنهم ما ان يُسمح لهم بتثبيت أقدامهم حتى يصبحوا وقحين .

كان الكابتن قد أخذ يندفع . انه يسير بخطى كبيرة ، محركا ذراعيه ، وقد أصبح لا يصغى الى الأسئلة التى تُلقى عليه ، ويتكلم من تلقاء نفسه بتدفق يبلغ من القوة فى بعض الاحيان أن لسانه يعصيه ، فاذا هو يترك الجملة قبل أن ينهيها ويشرع فى جملة أخرى . يجب أن تذكر أيضا أنه ربما كان قد شرب كأسا فى ذلك الصباح . أضف الى ذلك وجود ليزافتا نيقولايفنا . انه لم ينظر الى جهتها مرة واحدة ، ولكن لاشك أن وجود الفتاة كان قد أدار رأسه . على أن هذا ليس الا افتراضا منى . ومهما يكن من أمر ، فلا شك أن فرفارا بتروفنا كانت تملك من الاسباب ما يجعلها تتغلب على تقززها ، وتصغى الى انسان كهذا الانسان . وكانت براسكوفيا ايفانوفنا ، من جهتها ، ترتعش خوفا ، رغم أنها كانت لا تفهم كثيرا ما هو الامر الذى يدور عليه الكلام ، فيما يبدو لى . أما ستيفان تروفيموفتش فكان يرتجف هو أيضا ، ولكن لأنه ، على عكسها ، كان مؤهباً لأن يدرك أشياء كثيرة مسرفة فى الكثرة . وكان مافريكى نيقولايفتش يلتزم وضع امرىء مستعد لأن يتدخل من أجل أن يحمى الجميع . وكانت ليزا شاحبة الوجه جدا ، لا تحوّل عينيها المحملقتين عن الكابتن لحظة واحدة . وظل شاتوف جالسا على وضعه نفسه لم يغيره . وأغرب ما فى الامر أن ماريا تيموفيئفنا لم تنقطع عن الضحك فحسب ، بل أصبحت كذلك حزينة حزنا رهيبا . كانت واضعة كوعيها على المائدة ، تتابع بنظرتها الحالمة الأسيانة أخاها الذى كان يتدفق فى الكلام . وكانت داريا بافلوفنا الشخص الوحيد الذى بدا لى هادئاً كل الهدوء .

قالت فرفارا بتروفنا وقد أخذ صبرها ينفد :

ـ ما هذه الرموز كلها الا سخافات ! انك لم تجب عن سؤالى « لماذا ؟ » . وأنا أصرُّ على أن أنال جوابا .

ـ لم أجب عن سؤالك « لماذا » ؟ تنتظرين جوابا عن سؤالك « لماذا » ؟

كذلك رد د الكابتن كلامها غامزاً بطرفه . وتابع كلامه يقول :

ـ ان هذه الكلمة الصغيرة « لماذا » ، منتشرة فى الكون كله منذ أول يوم وُجدت فيه الخليقة يا سيدتى ، والطبيعة كلها تصيح فى كل لحظة سائلةً خالقها « لماذا ؟ » . والناس ينتظرون الجواب منذ سبعة آلاف سنة. فهل على الكابتن ليبادكين وحده أن يتحمل التبعة نيابةً عن جميع البشر. أهذا عدل وانصاف يا سيدتى ؟

هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد أخذ غضبها يزداد :

ـ هذه كلها سخافات لا شأن لها بالسؤال . هذه كلها رموز . ثم انك تسمح لنفسك بأن تتكلم لغةً متنفخةً كثيرا ، وذلك أمر أعدُّه أنا وقاحة .

استأنف الكابتن كلامه دون أن يصغى اليها فقال :

ـ سيدتى ، وددت لو يكون اسمى « ارنست » ، ولكن هأناذا أسمَّى بهذا الاسم الغليظ ، اسم « اجناس » . فلماذا ، فى رأيك ؟ وددت لو أكون الأمير مونتبارد ، ولكننى لست الا ليبادكين ، المشتق اسمه من كلمة « البجعة » ، فلماذا ؟ أنا شاعر يا سيدتى ، شاعر فى أعماق روحى ، وكان يمكن أن أقبض مالاً من ناشر شعرى ؟ ومع ذلك فاننى مضطر أن أعيش فى اسطبل ، فلماذا ؟ لماذا يا سيدتى ؟ سيدتى ، ليست روسيا فى رأيى الا ألعوبة فى يد الطبيعة ، لا أكثر !

ـ ألا تستطيع حقا أن تعبِّر عما فى نفسك تعبيرا أدق وأوضح ؟

ـ أستطيع أن أنشـــدك مقطوعة شعرية عنـــوانها « الخنفسة » ، يا سيدتى .

ـ هيه ! ...

ـ سيدتى ، لم أصبح مجنونا بعد ، سأصبح مجنـــونا فى المستقبل ، سأصبح مجنونا ليس فى ذلك ريب ، لكننى لم أصبح كذلك حتى الآن . سيدتى ، ان واحدا من أصدقائى ، وهو رجل محـ .. ـ .. ر .. م جدا ، قد كتب حـكاية من حكايات كريلوف ، عنوانهـا « الخنفســة » ، فهـل تسمحين لى بأن أتلوها عليك ؟

ـ تريد أن تنشدنا قصيدة من قصائد كريلوف عن الحيوانات ؟

ـ لا ، ليست هى حكاية من حكايات كريلوف ياسيدتى ، بل هى حكاية من نظمى ، من نظمى أنا . صدِّقى يا سيدتى ـ ولا يســـوءنْك هذا ـ اننى لست عديم الثقافة ولا منحط العقل الى الحـــد الذى يجعلنى أجهل أن روسيا تملك شاعراً كبيراً نظـــم حكايات عن الحيوانات هـــو كريلوف الذى شاد له وزير التعليم العام نصباً تذكارياً فى حديقة الصيف حتى يلعب الأطفال حوله * . انك ياسيدتى تسألينني «لماذا» . والجواب عن هذا السؤال مدوَّن فى هذه القصيدة بأحرف من نار .

ـ اقرأ القصيدة !

أخذ الكابتن يتلو القصيدة :

كانت خنفسة تعيش وادعة فى هذا العالم ،
هى خنفسة منذ ولدت .
فيوما سقطت فى كاس
ملء بذباب يموت

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ ما هذا الكلام يا رب !

فأسرع الكابتن يشرح لها محركاً ذراعيه ، حانقاً متململاً كأى مؤلف قوطع فى الموضع المؤثر من كلامه :

ـ معنى هذا أن الذباب حين يسقط صيفاً فى كأس فانه يهلك . أن أغبى الأغبياء يدرك ذلك . لا تقاطعينى ، لا تقاطعينى ، سترين ...

قال ذلك وهو ما يزال يحرك ذراعيه . وتابع ينشد القصيدة :

احتلت الخنفسة مكانا صغيرا
لكن الذباب ثار مناديا جوبيتر :
كاسنا ملأى كثيرا .
ولكن بينما كان الذباب يحتج
مر هناك نيكيفور
الشيخ المحترم جدا ...

هنا اضطررت أن أتوقف عن النظم ، ولكن لا ضير ، فسوف أقص عليك القصة نثراً .

كذلك قال الكابتن متوقفاً ، وتابع يسرد القصة فقال :

ـ تناول نيكيفور الكأس ؛ ورغم احتجاجات الذبابات ، رمى الجمع كله في سلة الزبالة ، الذبابات والخنفسة على حد سواء ، وذلك أمر كان ينبغى أن يُفعل منذ مدة طويلة . ولكن لاحظى يا سيدتى ، لاحظى أن الخنفسة لا تشكى ولا تتذمر . هذا هو جوابى عن سؤالك « لماذا؟ » : الخنفسة لا تشكى ولا تتذمر .

بهذا صاح الكابتن منتصرا . ثم أسرع يضيف قوله :

ـ وان نيكيفور يمثل الطبيعة .

وعاد يسير في الغرفة راضياً مسروراً .

اغتاظت فرفارا بتروفنا واستبد بها حنق شديد . وقالت تسأله :

ـ اسمح لي أن أسألك : ما قصة ذلك المال الذي كان يجب أن تتلقاه من ابني نيقولاي فسيفولودوفتش ، ثم لم يصلك كاملاً ؟ لقد تجرأت فاتهمت شخصا ينتمي الى أسرتي .

فزأر الكابتن يقول وهو يرفع يده بحركة من يمثل دورا في مأساة :

ـ وشاية !

ـ لا ليس هذا وشاية !

ـ سيدتي ، رب ظروف تجبر المرء على أن يتحمل تلطخ سمعة أسرته بالعار ، مؤثراً ذلك على أن يجهر بالحقيقة . ان ليادكين لن يقول كلمة واحدة ، زيادةً على ما قال ، يا سيدتي .

كان ليادكين كمن عمي بصره من النشوة . كان يحس بخطورة شأنه . كان واضحا أنه يحسب كل شيء مباحاً له . انه يريد أن يهين أحداً ما ، انه يريد أن يرتكب سفالة ما ، ليظهر للجميع قوته وسطوته .

قالت فرفارا بتروفنا تخاطب ستيفان تروفيموفتش :

ـ اقرع الجرس ، من فضلك يا ستيفان تروفيموفتش ، أرجوك .

قال ليادكين وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويغمز بعينه :

ـ ان ليادكين ماكر يا سيدتي . انه ماكر . لكنه هو أيضا فيه ضعف . انه هو أيضا له هوى . وهذا الهوى هو ... هو الزجاجة المعتقة التي يشربها الفرسان والتي تغنى بها دافيدوف* . فحين تكون هذه الزجاجة في يده ياسيدتي ، يمكنه أن يبعث رسالةً من شعر ، رسالة رائعة ، لكنه سرعان ما يتمنى أن يدفع جميع دموع مآقيه ثمناً لاسترداد

هذه الرسالة ، لأنها تدمّر شعوره بالجمال • لكن العصفور يكون قد طار فلا سبيل الى اللحاق به • فمن الممكن ياسيدتى أن يكون ليبادكين ، فى هذه الحالة ، قد تكلم عن فتاة محترمة ، منقادا لاستياء نبيل نشب فى نفسه ثورةً على الظلم ، فاستفاد الوشاة النمامون من ذلك • لكن ليبادكين ماكر ياسيدتى • عبثاً يتربص به ذئب كاسر لا ينفك يصب له شرابا ، متوقّعاً أن يكشف عن نفسه أخيرا : ان ليبادكين لن يتكلم • وفى قرارة الزجاجة لن يجد الذئب الا مكر ليبادكين بدلا من أن يعثر على السر الذى ينتظر أن يعثر عليه • ولكن كفى ! أوه ! كفى ياسيدتى ! ان منزلك الرائع كان يمكن أن يكون ملكاً لأنبل الكائنات ، ولكن الخنفسة لا تتذمر ولا تحتج• لاحظى هذا ، لاحظيه جيدا ! ان الخنفسة لا تشكى ! فاعترفى بعظمة نفسها !

فى تلك اللحظة سُمع صوت جرس تحت ، ثم لم نلبث أن رأينا دخول ألكسى ايجورتش الذى كان قد تأخر عن الظهور استجابة لنداء ستيفان تروفيموفتش • وكان الخادم العجوز المهيب يبدو منفعلاً انفعالاً غريبا •

واذ ألقت عليه فرفارا بتروفنا نظرة سائلة مستفهمة ، قال :

ـ وصل نيقولاى فسيفولودوفتش •

اننى ما أزال أتذكر حالة فرفارا بتروفنا فى تلك اللحظة : لقد شحب لونها شحوبا شديدا ، والتمعت عيناها ، ثم انتصبت فى مقعدها وقد بانت فى هيئتها قوة العزيمة • أما نحن فقد ذهلنا جميعا • ان وصول نيقولاى فسيفولودوفتش على حين بغتةً ، بينما كان لا يُنتظر وصوله قبل شهر آخر ، قد فجأنا لا بمباغتته فحسب ، بل أيضا بكونه قد تمَّ فى هذه

الدقيقة • وظل الكابتن نفسه متجمدا فى وسط الغرفة ، فاغر الفم ، مثبتا نظرته البلهاء على الباب •

وهذه أصوات خطى صغيرة متعجلة تدوّى فى الغرفة المجاورة : ان شخصا يصل راكضا • وداهم هذا الشخص الصـــالون ، ولكنه لم يكن نيقولاى فسيفولودوفتش ، بل كان شابا لا نعرفه •



ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

٥

أتوقف هنا لحظة لأرسم بعض ملامح هذه الشخصية التى ظهرت على حين فجأة .

انه شاب فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، أطـــول قليلا من متوسط طول الرجال ، شعره أشقر قليل لكنه طويل ، له شاربان مشعثان ولحية ضئيلة ، لائق الهندام ، حتى انه يرتدى ثيـاباً على الموضــة ، ولكن بغير أناقة . يبدو من النظرة الأولى أخرق ، محدَّب الظهر قليلاً ، غـير أنه فى حقيقة الامر ليس محــدب الظهر ، وانما هو يقف منطلقا بغـير تكلف . يمكن أن يعد شاذاً بعض الشذوذ ، لكن جميع الناس قد وجدوا بعد ذلك أنه حسن الآداب عاقل اللسان .

لا يمكن أن يقال انه دميم ، ومع ذلك لا يرضى وجهه أحداً . ان رأسه المسطَّح فى الجانبين ، المتطاول الى خلف ، يُظهر وجهه مستدقاً كثيراً . وجبينه عال ضيق . وقسماته صغيرة . وعيناه حادتان . وأنفــه صغير مدبَّب . وشفتاه طويلتان رقيقتان .

اذا رأيت تعبير وجهه حسبته ضعيفا مريضــا . وليس الامر كذلك بتاتاً . ان خديه تغضّـنهما تحت الوجنتين غضون جافة تضفى عليه مظهـــر رجل خرج من مرض خطير ، ومع ذلك كان صحيح البنية قوى الجسم ، حتى انه لم يمرض فى يوم من الايام .

خطواته وحركاته سريعة دائماً ، ومع ذلك فهــو لا يتعجل شيئاً . لا شىء فيما يبدو يمكن أن يربكه ويشوشه . فمهما تكن الظروف ومهما

يكن المكان ، يظل شبيهاً نفسه على الدوام • وهو راض عن ذاته ، لكنه لا يشعر بذلك •

انه يتكلم متدفقاً بغزارة ، ولكنه يتكلم بثقة كبيرة ، دون أن يبحث عن الألفاظ • أفكاره واضحة رغم سرعته ، واضحةٌ دقيقة محدَّدة ، وقد خطفت هذه الصفة انتباه مستمعيه • نطقة بيِّن جليٌ ، كلماته تتساقط كحبات كبيرة متساوية ، قد أحسن اختيارها دائما وهيأها سلفاً لجميع المناسبات • ذلك يعجبك في البداية ، لكنك تشعر بعدئذ بانزعاج ، ولا سيما من ذلك النطق المسرف في الوضوح ، ومن ذلك التدفق الغزير السريع المطرد على وتيرة واحدة • حتى ليخيَّل اليك في النهاية أن هـــذا الرجل لا بد أن لسانه له شكل خاص جدا ، فهو طويل طولاً خارقا ، نحيل نحولاً هائلا ، مزوَّد برأس ذى أهداب ، أحمرُ قاني الحمرة ، متحركٌ أبدا •

ذلكم هو الشاب الذى سقط فى وسط الصالون سقوط الصاعقة • ويخيَّل الى الآن أنه كان قد بدأ الكلام وهو فى الحجرة المجاورة ، فلما دخل علينا كان فى منتصف جملة يقولها • وسرعان ما انغرس أمام فرفارا بتروفنا ، وقال لها مسرعاً :

ـ تخيلي يا فرفارا بتروفنا : لقد دخلت وأنا أتصور أن أجده • كان ينبغي أن يكون هنا منذ ربع ساعة • لقد وصل منذ ساعة ونصف • كنا معا عند كيريلوف • وانصرف منذ نصف ساعة ليأتي الى هنا رأسا ، وطلب مني أن أجيء أنا أيضا بعد ربع ساعة •

سألته فرفارا بتروفنا :

ـ ولكن من هو ؟ من هو الذى طلب لك أن تجيء الى هنا ؟

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ! كيف ؟ ألا تعرفين ، بعدُ ، أنه وصل؟

لا بد أن حقائبه قد أصبحت هنا مع ذلك منذ مدة ! لماذا لم ينبئـوك ؟ أأنا الذي أحمل اليك هذا الخبر ؟ من الممكن أن يُرسَل أحدٌ ليجيء به . على كل حال ، سيصل بين لحظة وأخرى ، وأظن أنه سيُسرُّ كثيراً بهذا الاجتماع الذي يطابق رغباته ، كما يطابق ـ فيما أعلم ـ بعض مشاريعه . (قال ذلك ونظر حواليه وتفرس في الكابتن ليبادكين بانتباه خاص) . آ ... ليزافتا نيقولايفنا ! ما أسعدني بأن ألقاك منذ وصولي ! انني مسرور حقاً بمصافحة يدك (قال ذلك راكضاً نحو ليزا ليتناول يدها التي مدتهـا اليه ليزا مبتسمةً في مرح) . وهأنا ذا أرى أن المحترمة جدا ، براسكوفيا ايفانوفنا ، لم تنس ، هي أيضا ، صاحبها « الأستاذ » ، ولا هي غاضبة منه الآن كما كانت غاضبة منه بسويسرا ! كيف حال ساقيـك يا براسكوفيا ايفانوفنا ؟ هل كان الأطباء السويسريون على حق حين وصفوا لك هـواء بلادك ؟ ... كيف ؟ تقولين انك تستعملين كمادات ؟ لا بد أن هذا يفيدك كثيراً . ولكن لشد ما أسفت يا فرفارا بتروفنا (هنا التفت نحو ربة المنزل من جديد) لشد ما أسفت لأنني لم أستطع أن أراك في الخارج وأن أقدم اليك احتراماتي بنفسي ! لا سيما وأن هناك أشياء كثيرة كان ينبغي أن أنقلها اليك ... صـحيح أنني أبلغت أبي العجوز ، ولكنني أعتقـد أنه ، على عادته ...

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد عاد من ذهوله وشدهه فجأة :

ـ بتروشا !

وضمَّ يديه ووثب نحو ابنه . وتابع يقول :

ـ « بطرس ، ابني » (بالفرنسية) ! هل تصدق أنني لم أتعرفك ؟

واحتضنه بذراعيه ، وسالت على خديه دموع .

جمجم بتروشا يقول وهو يحاول أن يتخلص من عناق أبيه :

ـ هيًّا ! لا تضطرب ! لا تضطرب ! كفى ! أرجوك !

ـ أنا أذنبت دائماً فى حقك ، دائما ، دائما !

ـ كفى ! سنتكلم عن هذا فيما بعد . كنت أعلم أنك ستردد هـذه الحكاية ... كفى ! عليك بمزيد من الوقار ، أرجوك !

ـ ولكننى لم أرك منذ عشر سنين .

ـ هذا أدعى الى أن لا تسترسل فى الكلام ...

ـ ابنى !

ـ نعم ، أنت تحبنى ، صدّقتك ... ولكن انزع يديك . ألا ترى أنك تزعج الآخرين ؟ آ ... هذا نيقولاى فسيفولودوفتش ! هيًّا ... هدىء نفسك ، أرجوك ! ...

كان نيقولاى فسيفولودوفتش قد وصل فعلا بصمت ، فتلبث على عتبة الصالون لحظةً ، وراح يتأملنا جميعا بنظرة هادئة .

وكما حدث لى قبل ذلك بأربع سنين ، حين رأيته أول مرة ، خطف منظره اهتمامى فورا . لم أكن قد نسيت محياه . غير أن هنالك وجوها لاتراها مرةً أخرى الا وتكتشف لك فيها سمة جديدة لم تكن قد لاحظتها قبل ذلك ، رغم أنك تعرف هذه الوجوه منذ زمن طويل . لم يكن يبدو عليه أنه تغير خلال تلك السنين الأربع : مايزال أنيقاً كما كان، رصيناً كما كان ؛ ما تزال مشيته وحركاته موسومة بالوقار ، وما يزال على غضـــارة شبابه نفسها تقريبا ؛ ما تزال ابتسامته الخفيفة ودوداً فاترة على عهدك بها، وما تزال تنم عن تلك الثقة ذاتها التى كانت تنم عنها . ما تزال نظرته على ما عرفت فيها من قسوة ، وتفكير ، وشىء من ذهول . الخلاصة : كان فى امكانى أن أعتقد أننا لم نفترق الا بالأمس . غير أن هناك أمرا فجأنى مع ذلك : كان المرء يراه فى الماضى جميلا ، ولكن وجهه كان فى تلك الايام

« أشبه بقناع » في الواقع ، على حد تعبير بعض سيداتنا، أما الآن فهو جميل جمالا كاملا ، جمالا لا سبيل الى الجدال فيه . لا شك أن أحداً لا يستطيع أن يقول الآن ان وجهه يشبه قناعا . أيكون مرد ذلك الى أنه شحب قليلاً ونحل قليلاً ؟ أم أن فكراً جديدا قد أصبح يضيء نظرته ؟

صاحت فرفارا بتروفنا تقول وقد انتصبت في مقعدها دون أن تبارحه، وأوقفت ابنها باشارة آمرة صارمة :

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ! نيقولاى فسيفولودوفتش ! قف !

ولكن لكي نفسر السؤال الرهيب الذي أعقب هذه الاشارة وهذه الصيحة ، وهو سؤال ما كان لى أن أتخيل أن تلقيه فرفارا بتروفنا ، أرجو من القارىء أن يتذكر طبع هذه السيدة ، وأن يتذكر مدى ما تتصف به من اندفاع في بعض الظروف . انها رغم قوة نفسها ورغم ما تملكه من حس عملي واضح ، قد اتفق لها في بعض لحظات حياتها أن انقادت لعنف مزاجها انقيادا تاما ، ولم تعرف كيف تكبح جماح نفسها وكيف تقف عند حد . ويجب أن نُدخل في حسابنا أيضا أن هذه الدقيقة التي كنا فيها يمكن أن تكون واحدة من تلك اللحظات الحرجة الدقيقة التي يتركز فيها ، كتركز الأشعة بواسطة عدسة ، كلُّ الماضي وكل الحاضر وربما كل المستقبل من حياة بكاملها . وينبغي أن أشير عابراً كذلك الى تلك الرسالة الخالية من اسم كاتبها ، التي تحدثت عنها فرفارا بتروفنا منذ برهة الى براسكوفيا ايفانوفنا ، كاتمةً العنصر الأساسي من مضمونها فيما يبدو لى . فلعل تلك الرسالة أن تكون هي السبب الحقيقي الذي دفع فرفارا بتروفنا الى القاء ذلك السؤال بغتةً على ابنها .

قالت تسأله مفصّلةً كل كلمة من كلماتها بصوت قوى مثقل بالتهديدات :



نیقولای ستافروجین

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ، أرجوك أن تقول لى فورا ، دون أن تترك مكانك ، هل صحيح أن هذه العرجاء ـ انظر اليها ، هذه هى !... هل صحيح أن هذه العرجاء هى زوجتك الشرعية ؟

اننى أتذكر تلك اللحظة تذكراً واضحا مسرفا فى الوضوح . ان نيقولاى فسيفولودوفتش لم ترفّ عيناه ، وحدّق الى أمه بنظرة ثابتة . لم يظهر على وجهه شيء . وأخيرا ابتسم ابتسامة متسامحة ، واتجه نحو أمه بخطى هادئة دون أن يقول كلمة واحدة ، فتناول يدها وحملها الى شفتيه باحترام ، ولثمها . ولقد كانت سيطرته على أمه ما تزال تبلغ من القوة أنها فى هذه المرة أيضا لم تجرؤ أن تسحب يدها ، واكتفت بأن راحت تنظر اليه سائلة مستفهمة ، ولكن وضعها كله كان يقول ان هذا الشك اذا لم يقطعه اليقين فى لحظة ، فلن تستطيع له احتمالاً .

ولكن ابنها صمت . وبعد أن لثم يد أمه أجال بصره علينا مرة أخرى ، وتقدم نحو ماريا تيموفيئفنا بتلك الخطى الهادئة نفسها . انه لمن الصعب جداً وصف وجه الناس فى بعض اللحظات . فمما أتذكره مثلاً أن ماريا تيموفيئفنا قد نهضت تستقبله وهى ترتعش خوفا ، وضمت يديها احداهما الى الاخرى كأنما لتضرع اليه . وأتذكر فى الوقت نفسه الافتتان الذى سطع فى نظرتها ، وهو افتتان مجنون شوّهها تشويهاً بمعنى من المعانى ، افتتان ربما كان أقوى من أن يحتمله كائن انسانى . لعل صراعا قد نشب فى نفسها بين عاطفتين ، الخوف والافتتان . لكننى أذكر أننى أسرعت اقترب منها (ولم أكن بعيدا عنها) : اذ تراءى لى أنها ستسقط مغشيا عليها .

قال لها بصوت مؤثر رخيم ، وكان فى عينيه التماع حنان رائع :

ـ يجب أن لا تبقى هنا .

كان واقفا أمامها على وضع يفيض احتراما ، وكانت كل حركة من حركاته تنم عمّا يحمل لها من اعتبار صادق .

قالت المسكينة مثأثئةً بصوت متقطع :

ـ هل يمكنني .. هنا .. الآن .. أن أركع أمامك ؟

فأجابها يقول :

ـ لا ... مستحيل .

وابتسم ابتسامة بلغت من الروعة أن انطلقت من صدر العرجاء ضحكةٌ صغيرة فرحة .

وأضاف يقول بذلك الصوت المؤثر الرخيم المقنع نفسه ، أضاف يقول بجدٍ كمن يخاطب طفلاً :

ـ تذكرى أنك فتاة ، وأننى مهما أكن لك صديقا مخلصا ، فلست بالنسبة اليك الا رجلا أجنبيا ، فما أنا زوجك ، ولا أبوك ، ولا خطيبك. هاتى يدك ولننصرف . سأشيعك الى العربة ، وان شئت أوصلتك الى بيتك .

أصغت اليه بانتباه ، وأحنت رأسها شاردة الفكر حالمة الهيئة .

وقالت أخيرا وهى تتنهد وتمد اليه يدها :

ـ لننصرف !

غير أن مصيبة صغيرة قد وقعت فى تلك اللحظة . لعل الفتاة قد قامت بحركة خطأ ، فاستندت الى ساقها المريضة . المهم أنها سقطت الى جانب على مقعد . فلولا أن كان ذلك المقعد هناك ، لتدحرجت على الأرض . وقد سندها نيقولاى فسيفولودوفتش ، ووضع ذراعه تحت ذراعها ، ثم أمسكها بقوة ، وقادها نحو الباب بكثير من العناية والاحتياط.

كان واضحا أنها خجلت من سقوطها ، لأن وجهها احمر ، وظهـر عليها الاضطراب . مهما يكن من أمر فقد تبعته خافضةً عينيها ، صامتةً لاتقول شيئاً ، عارجةً عرجاً قوياً حتى لكأنها معلقـــة بذراعه . وهكذا غابا عن أعيننا . وقد رأيت ليزا التى نهضت عن كرســـيها فجأةً لحظةً ســـارا ليخرجا ، رأيتها تتابعها بنظرة ثابتة الى أن اجتازا عتبة الباب . حتى اذا غابا عادت تجلس صـــامتةً ، غير أن وجههـــا كان قـد تقبض تقبض الاشمئزاز ، كأنما هى قد لمست حية أو ما أشبه الحية من الزواحف .

ولقد لبثنا جميعـــا ، طوال المدة التى استغرقها هـــذا المشهد ، كالخُرْس صمتاً من فرط الذهول . فلو طارت فى الغرفة ذبابة لسُمع صوت طيرانها . ولكن ما ان خـــرجت ماريا تيموفيئفنا مع نيقـــولاى فسيفولودوفتش حتى أخذ الجميع يتكلمون معا فى آن واحد .

٦

والحق أن الكلام لم يكن كلاما بقدر ما كان صيحات تعجب . لقد نسيت قليلاً كيف تسلسلت الأحداث ، لأن ذلك كله كان مضطربا مشوشاً . صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية لا أدرى ماذا ، ضاماً يديه احداهما الى الأخرى . ولكن فرفارا بتروفنا كانت تملأ رأسها هموم أخرى . حتى مافريكى نيقولايفتش نطق ببضع كلمات بصوت لاهث . ولكن أكثر الحضور اضطرابا وتحركا انما كان بطرس ستيفانوفتش. كان يحرّك يديه باشارات عريضة محاولاً أن يقنع فرفارا بتروفنا . ولم أستطع أن أدرك مدار حديثه الا بعد برهة طويلة . وكان يلتفت أيضا نحو براسكوفيا ايفانوفنا ونحو ليزا ، حتى لقد خاطب والده أثناء حركته واضطرابه ببضع كلمات . الخلاصة : كان يسعى هنا وهناك متخبطا أكبر التخبط . وها هي ذي فرفارا بتروفنا تنهض من مقعدها وقد احمرت احمرارا شديدا ، وتصرخ سائلةً براسكوفيا ايفانوفنا : « هل سمعت ؟ هل سمعت ماذا قال ؟ » . لكن براسكوفيا ايفانوفنا كانت قد نفد صبرها وخارت عزيمتها فلم تزد على أن دمدمت ببضع كلمات وهى تحرك يدها باشارة تململ . لقد كان للمسكينة هموم خاصة بها : فهى تلتفت نحو ابنتها فى كل لحظة ، وتنظر اليها مرتاعة . ومع ذلك لا يخطر ببالها أن تنهض وتنصرف قبل أن تومىء لها ابنتها باشارة الانصراف . أما الكابتن فكان يتمنى لو يفر دون أن يراه أحد ، لاحظتُ ذلك واضحا . انه منذ وصول نيقولاى فسيفولودوفتش يبدو فريسة رعب شديد وذعر هائل . لكن بطرس ستيفانوفتش قد أمسكه من ذراعه ومنعه من الهروب .

كان بطرس ستيفانوفتش ما ينفك يكرر على مسامع فرفارا بتروفنا محاولاً اقناعها :

ـ لا بد من هذا ، لا غنى عن هذا .

كان واقفا أمامهـــا ، وكانت هي قد عادت فجلست في مقعـدها ، وراحت تصغى اليــه فى شراهــة ونهم . أتذكر هذا . لقد بلغ غـاياته وتمكن من جذب انتباهها .

ـ هذا لا بد منه ، هذا لا غنى له . انك لترين بنفسك يا فـرفارا بتروفنا أن في الأمر سوء فهم . ان الموقف يبدو غريبا ، لكنه في الواقع واضح وضوح ماء الصخر ، بسيط بساطة تحية الصباح . انني أعلم حق العلم أن أحداً لم يكلفني بأن أقصَّ هذه القصة ، وأنني قد أبدو مضحكا حين أقوم بهذه المبادرة من تلقاء نفسى . ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش لا يولى هذه القضية أى اهتمام ، ذلك من جهة أولى ، ومن جهة أخرى هناك حالات يصعب فيها على صاحب الشأن نفسه أن يشرح سـلوكه . فلا بد أن يتـولى عنــه ذلك شخص ثالث يســتطيع أن يعـرض بعض الوقائع الحرجة بسهولة أكبر . صدِّقى يا فرفارا بتروفنا أننا لا نستطيع أن نأخذ على نيقولاى فسيفولودوفتش أنه لم يجب عن سؤالك بشروح وافية . ومع ذلك فان هذه القضية لا تكاد تستحق أن يتكلم المرء عنها . انني أعرفها منذ كنت ببطرسبرج.وهي تشرِّف نيقولاى فسيفولودوفتش اذا كان لابد من استعمال هذه الكلمة الغامضة : « الشرف ... »

سألته فرفارا بتروفنا :

ـ هل تقصد أنك كنت شاهدا على حادث هو السبب فى سوء الفهم ذاك ؟

ـ بل كنت شاهداً وفاعلاً فى آن واحد .

بهذا أسرع بطرس ستيفانوفتش يصحح سؤال فرفارا بتروفنا •

ـ اذا كنت تعاهدنى على أن قصتك لن تخدش عواطف نيقولاى فسيفولودوفتش الذى لم يكتم عنى شيئاً فى يوم من الأيام ••• واذا كنت على يقين من أنك اذ تفعل ذلك تسرُّه •••

ـ لا شك عندى فى هذا ، وذلك بعينه هو السبب فى اننى يسعدنى أن أقدم لك هذه الشروح • اننى مقتنع بأنه يمكن أن يصرَّ هو نفسه على أن أتكلم •

ان الحاح هذا السيد الذى هبط من السماء على أن يروى لنا شئون غيره كان أمرا غريبا لا يطابق العادات المألوفة • ولكنه قد اصطاد فرفارا بتروفنا بصنارته اذ لمس منها موضعا حساساً على نحو خاص • ولقد كنت فى ذلك الحين ، أجهل طبع هذا الشخص ، وأجهل مراميه •

قالت فرفارا بتروفنا بلهجة رصينة متحفظة ، وقد ضايقها تسامحها قليلاً :

ـ اننى أصغى اليك •

ـ ليست القصة طويلة • حتى انها ليست حكاية • ولكن رب كاتب من كتاب الروايات لا يجد شيئاً يفعله خيرا من أن يلفق منها رواية ، فهى حالة شائقة • انى على ثقة بأن براسكوفيا ايفانوفنا وليزافتا نيقولايفنا ستصغيان الىَّ باهتمام ، لأن فى هذه القضية أشياء كثيرة ان لم تكن خارقة فهى على الأقل عجيبة • منذ خمس سنين عرف نيقولاى فسيفولودوفتش هذا السيد ببطرسبرج ، نعم هذا السيد لبيادكين الذى يقف فاغر الفم ، والذى يتمنى فى هذه اللحظة أن يكون بعيدا اذا لم يخطىء ظنى• معذرة يافرفارا بتروفنا • على اننى لا أنصحك بالهروب يا عزيزى السيد الموظف المحال على التقاعد من مصلحة التموين (هأنت ذا ترى اننى

أعرفك جيدا) . انا ، أنا ونيقــولاى فسيفولودوفتش ، على علم كامل بجميع أفعالك هنا ، وهى أفعال ستُحاسب عليها حسابا عسيراً ، لا تنسَ هذا . مرةً أخرى أستغفرك يا فرفارا بتروفنا . فى ذلك الأوان كان نيقولاى فسيفولودوفتش يطلق على هذا الشخص اســـم فالستاف ، أى يعدُّه انسانا مضحكا جدا يسخر منه جميع الناس ويســـتهزئون به ولا يحتج هو على ذلك شريطة أن يجنى منه بعض المال (كذلك اعتقد بطرس ستيفانوفتش أن من واجبه أن يشرح) . وفى ذلك الأوان كان نيقولاى فسيفولودوفتش يعيش فى بطرسبرج حياة « ساخرة » ان صح التعبير . اننى لا أجد كلمةً غير هذه الكلمة لوصف الحياة التى كان يعيشــها فى ذلك الأوان ، فهو انسان لا يستسلم لليأس وهو من جهة أخرى يحتقر أن يشغل نفسه بأى شيء . اننى لا أتكلم عن ذلك العهد فقط يا فــرفارا بتروفنا . وكان لليبادكين هذا أخت ، هى تلك نفسها التى كانت هنا منذ هنيهة . والاخ والأخت لم يكن لهما ركن يأويان اليه ، فكانا يســكنان تارةً عند هــؤلاء وتارة عند أولئــك . كان ، هو ، يظل يطوّف ببزته الرسمية تحت أروقة الدكاكين ويستوقف المارة ، أحسن المارة طبعاً ، ثم يمضى بكل ما يتصدقون به عليه الى الخمارة . أما الأخت فكانت تعيش كما تعيش عصافير السماء . كانت تساعد الفقراء فيطعمونها . اغفروا لى أننى أصف لكم هـــذه الحياة التى كان نيقولاى فســـيفولودوفتش قد استحلاها من باب « التفرد والشذوذ » . اننى لا أتكلم الا عن تلك الفترة يا فرفارا بتروفنا . أما تعبير « الشذوذ والتفرد » هذا فهو من عنده : انه تعبيره هو . لقد كان لا يخفى عنى أشياء كثيرة . والآنسة ليبادكين التى أتيح لها كثيرا أن تراه فى ذلك الأوان قـــد خطف بصرها وفتن لبَّها مظهره . لقد كان بمثابة قطعة من الماس تتلألأ على صفحة حياتها الوسخة



ماريا لبيادكين (العرجاء)

المقززة . ولكن وصف العواطف ليس هو ما أبرع فيه وأجلّى فيه ، لذلك أصرف النظر عن هذا الأمر . ومع ذلك فقد وُجد أناس خبثاء أشرار أخذوا يسخرون منها ، فجعلها ذلك حزينة كل الحزن . كانوا يستهزئون بها ويضحكون عليها بغير انقطـــاع ، ولكنها كانت في أول الأمر لا تلاحظ ذلك ولا تدركه . انها منذ ذلك الحين لم تكن مالكة عقلها كاملاً ، ولكن اختلال عقلها لم يكن قد بلغ الحد الذى بلغه الآن. وعلينا أن نفترض أنها ، بفضل عناية ورعاية محسنة ما ، قد نُشّئت في في طفولتها تنشئة مكّنتها من الالمام بشيء من ثقافة . كان نيقـــولاى فسيفولودوفتش لا يوليها أى اهتمام في يوم من الايام ، وكان يقضى وقته في لعب « الويست » بورق عتيق متسخ على ربع كوبك للنقطة الواحـدة مع أشخاص من صغار الموظفين . لكنه ، في ذات مرة ، وقد ســــخرا أحدهم من المسكينة ، أمسك الرجلَ من تلابيبه دون أى شرح ورماه من النافذة من الطابق الاول . ولم يكن ذلك منه تعبيرا عن غضب فروسى أثارته فيه رؤية الفتاة البريئة مهانة . فقد جرى المشهد كله بين ضحكات الحضور وصيحاتهم ، حتى ان نيقولاى فسيفولودوفتش ضحك أكثر مما ضحك الآخرون . وحين تبيّن أن الحادث لم يسفر عن عواقب أليمة ، تمّت المصالحة حـول زجاجة من الخمرة . ولكن « البريئة المهـانة » لم تنس ما فعله الفارس من أجلها . وكان طبيعيا أن ينتهى هذا بتشويش ملكاتها العقلية تشويشا حاسما . أكرر أننى لا أجيد وصف العواطف . ولكن كل شيء هنـــا كان يتم في نطاق خيالهـــا . وكان نيقـــولاى فسيفولودوفتش ما ينفك يزيد هذا الخيال اضطراما بما يشـبه التعمد . فبدلاً من أن يضحك على الآنسة ليادكين كما يفعل الآخرون ، أخـذ يعاملها باحترام ، مثيرا بذلك دهشة الجميع . حتى أن كيريلوف الذى

شهد ذلك (وهو شخص على جانب كبير من الأصالة والصراحة الخارقة يا فرفارا بتروفنا ، وقد ترينه لأنه الآن هنا) أقول ان كيريلوف هـــذا ، الذي لا يتكلم أبدا ، قد غضب مرةً وقال لنيقـــولاى فسيفولودوفتش ـ أتذكر هذا جيدا ـ انه يرتكب خطأ كبيرا اذ يعامل الآنسة ليبادكين كما نعامَل مركيزة ، لأن ذلك يفقدها عقلها تماما . يجب أن أقول لك ان نيقولاى فسيفولودوفتش كان يقدر كيريلوف . فهل تعرفين بماذا أجابه ؟ لقد أجابه بقوله : « أتظن يا سيد كيريلوف انني أسخر منها ؟ انك اذن لواهم : انني أحترمها فعلاً ، لأنها خير منا جميعا » . وقد قال ذلك بلهجة جادة . ومع ذلك فانه خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي عرفهـــا خلالها لم يقل لها كلمة واحدة عدا « يومك سعيد » و « الى اللقـاء » . وانى لأذكر بوضوح كامل أنها انتهت من ذلك الى أن عدّته خطيبهـــا تقريبا ، ولكنه خطيب لا يجرؤ أن يختطفها لأن له أعداء كثيرين ، ولأنه يخشى أن تجيئه متاعب من جهة أسرته ، أو شيء من هــــذا القبيل . ما أكثر ما كنا نضـــحك من ذلك ! وفي النهاية حين غادر نيقـــولاى فسيفولودوفتش مدينــة بطرسـبرج ليجيء الى هنــا ، اتخذ تدابيره من أجل أن يكفل للفتاة المسكينة معاشا سنويا ، معاشا كبـــيرا فيما أعتقد ، يساوى نحو ثلاثمائة روبل ان لم يكن أكثر . لنفرض أن ذلك لم يكن منه الا نزوة عارضة ، الا بدوة جامحة ، كما يمكن أن يحدث هـــذا لرجل سئم الحياة قبل الأوان . بل فلنفـــرض أن كيريلوف كان على حق ، وأن الامر لا يعدو أن يكون تجربةً يقوم بها امرؤ قليل المروءة يريد أن يرى الى أين يمكن المضيّ بامرأة شوهاء نصف مجنونة . لقد قال له كيريلوف : « انك تعمدت أن تختار أبشع مخلوقة ، أن تختـــار امرأة عرجاء يسخر منها الناس ويسيئون معاملتها ، وهى الى ذلك تموت

بك حباً مضحكا ؟ وأخذت تدير لها رأسها عامدا قاصدا لا لشيء الا أن ترى ما عسى ينتج من ذلك » . ولكن هل ينبغي أن نعدّ رجلاً من الرجال مسئولاً عن جميع الأفكار المجنونة التي يمكن أن تساور ذهن امرأة لم يبادلها هذا الرجل جملتين . لاحظوا أنه لم يبادلها جملتين حقاء هناك يا فرفارا بتروفنا أشياء لا يعجز المرء عن أن يقول فيها كلاما معقولا فحسب ، بل يعجز كذلك حتى عن محاولة معالجتها معالجة جادة. لنفرض أن ذلك كان « تفرداً وشذوذاً » من جانب نيقولاى فسيفولودوفتش . ان هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه القصة . فانظرى ماذا جعلوا منها ! انني على علم ، الى حدٍ ما ، بما يجرى هنا يا فرفارا بتروفنا .

هنا قطع القاصُ حديثه فجأة ، وهمّ أن يلتفت نحو ليبادكين ، لكن فرفارا بتروفنا أوقفته . لقد كانت فرفارا بتروفنا تعاني انفعالات قوية شديدة .

سألته :

ـ هل أنهيت كلامك ؟

ـ لا ، ما أنهيته . فلكي أخرج القضية الى النور يجب عليّ أيضاً أن ألقي عدداً من الأسئلة على هذا السيد ، اذا أذنت لي بذلك . فسوف ترين حقيقة الأمر يا فرفارا بتروفنا .

ـ كفى . أرجىء هذا الى ما بعد . توقف عن الكلام لحظة ، أرجوك . آه ... لكم أحسنت صنعاً اذ تركت لك أن تتكلم !

استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه يقول بحرارة :

ـ ولاحظي يا فرفارا بتروفنا أنه كان يستحيل استحالةً مطلقةً على نيقولاى فسيفولودوفتش أن يذكر لك جميع هذه الايضاحات جوابا عن سؤالك الذي لعله كان يشتمل على اسراف في الجزم والقطع .

ـ آ ... نعم ... كان يشـــتمل على اسراف كثير في الجـــزم والقطع !

ـ أفلم يكن من حقي أن أقول ان ثمة ظروفا يكون فيها تقـــديم الايضـاحات اللازمة أسهل على شخص آخـر منه على صاحب الشـأن نفسه ؟

ـ نعم ، نعم ... ولكن هناك نقطة أخطأت فيها وما تزال تخطىء. انني ألاحظ ذلك آسفة .

ـ حقا ؟ ما هو الخطأ الذي وقعت فيه ؟

ـ اسمع ... ولكن اجلس أولاً يا بطرس ستيفانوفتش .

ـ لك ما تشائين ... اعترف بأنني منهوك القوى . شكرا .

وسرعان ما قرّب مقعدا فجلس عليه بحيث يكون بين فرفارا بتروفنا بتروفنا من جهة وبراسكوفيا ايفانوفنا من جهة أخرى ، مع بقائه قبـــالة الكابتن ليبادكين حتى لا يحوّل عنه بصره .

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ لقد أخطأت حين عددت ذلك « تفرداً وشذوذاً » .

ـ أوه ... اذا لم يكن خطئي الا هذا ...

فقاطعته فرفارا بتروفنا تقول :

ـ لا ، لا ، لا ، انتظر قليلا ...

وكان واضحا أنها تتأهب للاسترسال في حديث طويل جـــداً ، مؤثر جدا . فما ان لاحظ بطرس ستيفانوفتش ذلك حتى أصـــبح كله آذانا مصغية .

قالت فرفارا بتروفنا :

ـ لا ، لم يكن ذلك تفرداً وشذوذاً ، بل كان شيئا أرفع كثيرا من ذلك ، كان شيئا مقــدسا ان صح التعبير ، أؤكد لك . ان نيقــولاى فسيفولودوفتش رجل ذو كبرياء ، جرحته الحياة فى سن مبكرة ، فانتهى من ذلك الى أن ينظر اليها نظرة « سخرية » ، على حد تعبيرك الموفق فى شرحك الممتاز . انه الامير هارى كما أحسن ستيفان تروفيموفتش خلع هذا اللقب الرائع عليه ، وكان يمكن أن يكون هذا اللقب صادقا لولا أن هذا الرجل يشبه هاملت أكثر مما يشبه الامير هارى ، فى رأيى أنا على الأقل .

تدخل ستيفان تروفيموفتش قائلا بلهجة نافذة :

ـ « وانك لعلى حق » (بالفرنسية) .

ـ أشكرك يا ستيفان تروفيموفتش ، أشكرك شكرا خاصا على هذه الثقة التى لا تتزعزع ، هذه الثقة بنيقولا ، وبعظمة نفسه ، وعظمة قدره. لقد أحييتَ فى نفسى هذه الثقة حين فقدت أنا الشجاعة .

ـ « عزيزتى ، عزيزتى ... »

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش وهو يتقدم نحو فرفارا بتروفنـا ، ولكنه سرعان ما توقف اذ قدّر أن مقاطعتها ربما كانت خطرة .

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت بصوت كأنه الغناء :

ـ لو وُجد بقرب نيقولاى انسان عطوف مثل هوراسيو * ، العظيم جدا فى تواضعه ومذلته ـ وهذا تعبير آخر من تعابيرك الجميلة يا ستيفان تروفيموفتش ـ فلربمـا كان منذ زمن طويل قد أُنقـذ « من شـيطان السخرية الحزين المشئوم » الذى لم ينقطع عن تعذيبه (وتعبير «شيطان السخرية » هو من اكتشافاتك أيضا يا ستيفان تروفيموفتش) . ولـكن

نيقولاى لم يوجد الى جانبه شخص مثل هوراسيو فى يوم من الايام ، ولا انسانة مثل أوفيليا . انه لم يكن له أحد الا أمه . ولكن ما عسى تستطيع أن تفعله أم وحدها ، وفى ظروف كتلك الظروف ؟ الآن بدأت أفهم يا بطرس ستيفانوفتش كيف أمكن شخصا مثل نيقولاى أن يعيش فى مثل تلك الفيطان التي وصفتها لنا منذ برهة . انني أتصور بوضوح كامل باهر « سخرية » تلك الحياة (ما كان أصدق تعبيرك هذا !) ، وأتصور الظمأ المحرق ، الناشيء عما يحمله فى نفسه من تناقضات ، وأتصور الصفحة الكالحة الحزينة من تلك اللوحة التى يبرز عليها نيقولاى بروز قطعة من الماس على حد تشبيهك يا بطرس ستيفانوفتش ؟ وأتصوره يلقى فى هذه البيئة تلك المخلوقة المثقلة بالاهانات ، تلك الشوهاء نصف المجنونة ، التى لعلها تزخر مع ذلك بأنبل العواطف !...

ـ همْ ... لنسلِّم بهذا ...

ـ أفتستغرب بعد هذا أن لا يسخر منها كما يسخر سائر الناس ؟ ... آه من الرجال ! انكم لا تفهمون لماذا يدافع عنها ويحيطها باحترام « كما لو كانت مركيزة » (ان كيريلوف هذا لا بد أنه يعرف البشر معرفة رائعة ، رغم أنه لم يفهم نيقولاى !) . ان الشر كله قد نشأ عن هذا التضاد ، ان شئت . فلو أن المسكينة قد وُجدت فى بيئة مختلفة ، فلعلها ما كانت لتسترسل فى أحلام مجنونة الى ذلك الحد ! لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأمور الا امرأة . نعم المرأة وحدها قادرة على أن تفهم هذه الأمور يا بطرس ستيفانوفتش ! ومما يؤسف له كثيرا أنك لست امرأة ، وأنك لا تستطيع أن تصبح امرأة خلال لحظة من الزمان ، من أجل أن تفهم ...

ـ تريدين أن تقولى على وجه الاجمال ان المرء كلما ساءت حاله

كان أشد توقاً الى شيء آخر . انني أفهم يا فرفارا بتروفنا ، أفهم . مثل ذلك كمثل الدين : فكلما كانت حياة الانسان شاقة أليمـــة ، وكلما كان الشعب مضطهدا بائسا ، كان أكثر استرسالا في أحـــلام المكافآت التي سيلقاها في الجنة . فاذا جاء بالاضافة الى هذا مائة ألف كاهن يتدخلون في الأمر ويضرمون نار هذه الاحـــلام مزيدا من الاضرام ، ويزيدون عليها أفكارا وتأملات ، فعندئذ ... انني أفهمـــك يا فرفارا بتروفنا ، اطمئني ...

ـ ليس هذا هو الامر تماما . ولكن قل لي يا بطرس ستيفانوفتش : هل كان يجب على نيقولاي ، من أجـل أن يهدىء نار الاحـــلام التي استرسلت فيها تلك العضوية المسكينة (لم أستطع أن أفهم لماذا استعملت فرفارا بتروفنا كلمة « العضوية ») هل كان يجب عليه أن يسخر منهـا أيضا ، وأن يعاملها كما كان يعاملها أولئك الموظفون الصغار ؟ هل يُعقل حقاً أن ترفض أنت قبول ذلك العطف العميق وتلك الرحمة البالغة وذلك الارتعاش النبيل في جسم نيقولاي كله ، حين أجاب كيريلوف بقسوة : « انني لا أسخر منها » ؟ ألا ما كان أعظمه وأقدسه من جواب ! ...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية :

ـ « رائع » (بالفرنسية) .

ـ ولاحظْ أنه ليس غنيا الى الحد الذي تفترضه . ليس هو الغني بل أنا الغنية . ولقد كان في ذلك الأوان لا يطلب مني شيئاً .

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من نفاد الصبر :

ـ أفهم ، أفهم هذا كله يا فرفارا بتروفنا .

ـ انه أنا تماما . انني أتعرف نفسي في نيقولاي . أتعرف عهـــد الصبا ، وتلك الاندفاعات العنيفة ، وتلك الانفجارات ... واذا أتيح لنـا

أن نتعارف مزيدا من التعارف يا بطرس ستيفانوفتش ـ وذلك ما أتمناه من جهتي صادقة ، لا سيما وانني مدينة لك بأشياء كثيرة ـ فلعلك ستفهم عندئذ ...

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مقطّعة :

ـ ثقي انني أنا أيضا من جهتي ...

ـ ستفهم عندئذ تلك الاندفاعة التي تجرك بمماوتك السمحة الكريمة نحو انسان لا يستحقك ، انسان غير جدير بك من أية ناحية ، انسان لا يفهمك ولا ينى يسومك سوء العذاب ، والتي تجعل من هذا الانسان في نظرك ، بالقياس الى جميع الناس وعلى خلاف رأى جميع الناس ، تجسدا للمثل الأعلى الذى تصبو اليه نفسك، وتهفو اليه أحلامك، ففيه تتركز جميع آمالك ، فاذا أنت تحبه وتعبده دون أن تدرى لماذا ، وربما كنت لا تحبه ولا تعبده الا لأنه غير جدير بذلك ... ليتك تعلم كم تألمت أنا يا بطرس ستيفانوفتش !

حاول ستيفان تروفيموفتش ، وكان قلق الهيئة ، أن يقع بصره على بصرى ، ولكنني أشحت وجهى فى الوقت المناسب .

ـ وحتى فى الآونة الأخيرة ، نعم ، فى الآونة الأخيرة الأخيرة ... آه ... ما أكبر ذنبى فى حق نيقولاى ! ... انك لا تستطيع أن تتصور كم عذبونى جميعا ، جميعا ... الأعداء والأوغاد والاصدقاء . حتى ان الأصدقاء عذبونى أكثر من الأعداء . حين تلقيت آخر رسالة خالية من اسم كاتبها ، لعلك لا تصدقنى يا بطرس ستيفانوفتش ، ولكن الحقيقة هى اننى لم أجرؤ أن أعامل بالاحتقار جميع تلك الدناءات ... آه ... لن أغفر لنفسى هذا الضعف ما حييت ، لن أغفره لنفسى ماحييت ...

قال بطرس ستيفانوفتش وقد انتعش فجأة :

ـ سمعت عن تلك الرسائل الخالية من أسماء كاتبيها • ولسوف أكتشفهم ••• اطمئنى •••

ـ لا تستطيع أن تتخيل المكائد التى حاكوها حولنا هنا • حتى صاحبتنا المسكينة براسكوفيا ايفانوفنا قد عانت منها أيضا • وماذا كان هدفهم من تعذيبها هى ؟

وأضافت فرفارا بتروفنا تقول مخاطبة براسكوفيا ايفانوفنا منفعلة انفعالا لا يخلو مع ذلك من بعض الارتياح الساخر :

ـ لعلنى أذنبت اليوم فى حقك يا عزيزتى براسكوفيا ايفانوفنا •

فجمجمت براسكوفيا ايفانوفنا تقول كأنما على أسف :

ـ لندع هذا الآن • فى رأيى أن الأفضل أن ننتهى من هذه المسألة كلها • لقد أسرفنا فى الحديث عنها •

قالت براسكوفيا ايفانوفنا ذلك وعادت ترشق ليزافتا نيقولايفنا بنظرة وجلى • ولكن ليزافتا نيقولايفنا كانت تنظر الى بطرس ستيفانوفتش •

وهتفت فرفارا بتروفنا تقول :

ـ أما تلك المخلوقة المسكينة ، تلك المجنونة التى فقدت كل شىء ولم تحتفظ الا بقلبها ، فاننى أنتوى الآن أن أحتضنها • ذلك واجبى وسأقوم به • هى منذ الآن فى حمايتى •

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول من جديد :

ـ وسيكون هذا من جهتك خيرا عظيما بمعنى من المعانى • معذرة، اننى لم أتمه من كلامى منذ قليل ؟ وعن هذه « الحماية » انما كنت أنتوى أن أحدثك • تصورى أن هذا السيد ، هذا السيد ليبادكين الذى ترينه، ما ان سافر نيقوى فسيفولودوفتش (اننى أستأنف سرد القصة من حيث وقفت) حتى تصور أن من حقه أن يتصرف فى معاش أخته كاملا • وقد

تصرف فيه فعلا بحيث لم تر منه قرشا . لا أدرى على وجه الدقة . كيف رتّب نيقولاى فسيفولودوفتش الأمور فى البداية ، ولكنه بعد ذلك بسنة ، وقد عرف بما حدث ، اضطر أن يتخذ اجراءات أخرى . أعـود فأقول اننى غير مطلع على التفاصيل ، وسيروى لك هو هـذه التفاصيل . كل ما أعلمه هو أن الانسانة التى همَّه أمرها قد وُضـعت فى دير بعيد ، مريح جداً على كل حال ، ولكن تحت رقابة حنون . هل تفهمين عنى ؟ فهل تتصورين ما تخيله السيد ليبادكين ؟ لقد جهد بجميـع الوسائل أن يكتشف أين خُبىء مصدر وارداته ، أعنى أين خبئت أخته . حتى اذا توصل الى معرفة ذلك ـ منذ مدة غير طويلة ـ اسـتردها من الدير ، مستندا الى حقوق له عليها ، وجاء بها الى هنا رأسا . وهو هنا لا يطعمها ، وهو هنا يضربها ، ويضربها بجميع الأساليب . فلما تلقى مبلغا كبيرا من المال من نيقولاى فسيفولودوفتش أخذ يدمن على الشراب ، وأخذ يسىء الى المحسن اليه ، وأخذ يطارده بمطالب جنونية ، ويهدده بمقاضاته أمام المحاكم اذا لم يوضع المعاش بين يديه رأسا . فهو يرى اذن أن الهبة التى وهبها له نيقولاى فسيفولودوفتش بمحض ارادته ، انما هى ضريبة واجبة الدفع . هل تتخيلين هذا ؟ يا سيد ليبادكين ، هل « كل » ما قلته أنا الآن صحيح ؟

ما ان سمع الكابتن هذا السـؤال ، وكان حتى ذلك الحين يقف صامتا خافض العينين ، حتى تقدم خطوتين الى أمام ، واصطبغ وجهه بحمرة شديدة ، وقال بصوت متقطع :

ـ لقد عاملتنى بقسوة يا بطرس ستيفانوفتش !

ـ بقسوة ؟ ما معنى هذا ؟ ولكن اسمح لى . لنرجىء مسألة القسوة هذه الى بعد . أما الآن فاننى لا أطلب منك الا أن تجيبنى عن سـؤالى

الأول : هل « كل » ما قلته أنا الآن صحيح ، أم هو غير صحيح ؟ اذا كنت ترى أنه كذب فلا شيء يمنعك من أن تعلن ذلك في هذه اللحظة نفسها.

بدأ الكابتن يغمغم متلعثما فيقول :

ـ أنا ... انك تعلم أنت نفسك ... يا بطرس ستيفانوفتش ...

ولكنه أمسك عن الكلام فجأة ..

يجب أن نقول ان بطرس ستيفانوفتش كان جالسا في مقعد ، واضعاً ساقاً على ساق ، بينما كان الكابتن لبيادكين واقفا أمامه ، على وضع الاحترام والتعظيم .

وكان يبدو أن ترددات الكابتن تزعج بطرس ستيفانوفتش كثيرا ، فاذا بالغضب يقبّض قسمات وجهه فجأة . وها هو ذا يسأله قائلا وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة :

ـ هل تريد أن تصرّح بشيء حقا ؟ اذا كنت تريد ، فهلمّ افعل . اننا ننتظر .

ـ انك تعلم أنت نفسك يا بطرس ستيفانوفتش انني لا أستطيع أن أقول شيئاً .

ـ لا ، لا أعلم . حتى ان هذه هي المرة الاولى التي أسمع فيها كلاما عن مانع من هذا النوع . لماذا لا تستطيع أن تقول شيئاً ؟

ظل الكابتن صامتا خافض العينين .

وقال أخيرا بلهجة جازمة :

ـ اسمح لي أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش .

ـ لا أسمح لك بالانصراف قبل أن تجيب عن سؤالي الأول : هل «كل» ما قلته أنا الآن صحيح ؟

أجاب الكابتن بصوت أجش ، وهو يرفع عينيه نحو جلاده :

ـ نعم •

وكان جبينه مغطى بالعرق •

ـ «كل» شيء صحيح ؟

ـ نعم ، كل شيء •

ـ أليس لديك أي شيء تضيفه ؟ أليس هناك أي شيء تصححه ؟ اذا كنت ترى أننا ظلمناك فقل ذلك • احتجَّ • عبِّر جهارا عن كل استيائك •

ـ لا ، ليس عندي شيء أضيفه •

ـ هل هدَّدت نيقولاي فسيفولودوفتش في الآونة الأخيرة ؟

ـ كان ذلك ••• كان ذلك من تأثير الخمرة يابطرس ستيفانوفتش•

ورفع الكابتن رأسه ، وأضاف يقول ناسيا نفسه من جديد :

ـ بطرس ستيفانوفتش ، اذ أخذ شرفُ الأسرة والعار الذي يجلل المرء ظلماً ، اذا أخذنا يصرخان بين الناس ، فهل يكون المرء آثماً مذنباً ؟

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يرشقه بنظرة حادة :

ـ ألست الآن سكران يا سيد ليبادكين ؟

ـ أنا •• لا •• لست سكران •• لم أشرب شيئا •

ـ اذن فما معنى هذه العبارات التي تتكلم عن شرف الأسرة والعار الذي يجلل المرء ظلما ؟

ـ أنا لا ألمح الى أي انسان • أنا لم أشأ أن أسيء الى أحد • أنا لم أقصد الا نفسي •••

كذلك تمتم الكابتن وهو ينهار من جديد •

ـ يخيّل الىّ أنك تضايقت من التعابير التي استعملتُها في الكلام عنك وعن سلوكك . انك سريع التأذي شديد الحساسية يا سيد ليبادكين. ولكن انتظر قليلا . انني لم أبدأ الكلام عن سلوكك بالمعنى الحق للكلمة . سأتكلم عنه بعد قليل . نعم ، من الجائز أن أبدأ الكلام عن سلوكك ، ولكنني لم أقل شيئاً على وجه الاجمال حتى الآن .

ارتعش ليبادكين ، ونظر الى بطرس ستيفانوفتش منقلب الهيئة .

ـ بطرس ستيفانوفتش ، الآن فقط انما استيقظ !

همْ ... وهل أنا الذي أيقظتك ؟

ـ نعم يا بطرس ستيفانوفتش ... ولقد نمت خلال أربع سنين تحت سماء مشحونة بالصاعقة . هل يمكنني أخيرا أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش ؟

ـ نعم ، اللهم الا أن يكون رأى فرفارا بتروفنا أن ...

لكن فرفارا بتروفنا أسرعت تحرك يدها باشارة النفي .

فسلّم الكابتن ، وخطا خطوتين ، وتوقف ، ووضع يده على قلبه ، وأراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يقله ، وهُرع نحو الباب ، فاذا هو يجد نفسه امام نيقولاى فسيفولودوفتش . فتنحى له هذا ليفسح له مجال المرور . فصغَّر الكابتن جسمه تصغيرا شديدا ، ولبث واقفا كالمتجمد ، محدقا الى الشاب بعينين ساكنتين ، كأرنب أمام أفعوان ضخم . انتظر نيقولاى فسيفولودوفتش لحظة ، ثم أبعده بحركة خفيفة من يده ، ودخل الصالون .

٧

كان مرحاً وهادئاً كل الهدوء . لعل شيئاً ممتعاً جدا كان قد حدث له ولم يدر في خلدنا نحن . مهما يكن من أمر ، فلقد كان يبدو مرتاحا كل الارتياح ، راضيا أشد الرضى .

قالت فرفارا بتروفنا تسأله نافدة الصبر :

ـ هل ستغفر لي يا نيقولاي ؟

ونهضت تلقاه بحركة نشيطة .

لكن نيقولاي انفجر ضاحكا . وهتف يقول ببساطة وطيبة :

ـ قدّرت هذا . توقعته . ولقد كنت أقول لنفسي وأنا في العربة : كان ينبغي لي أن أروي لهم قصة قصيرة ، فليس حسنا أنني انصرفت على ذلك النحـو ... ولكنني حين تذكرت أن بطرس ستيفانوفتش قد بقي عندكم ، لم أهتم بعد ذلك .

وكان وهو يتكلم يتفحص وجوهنا بسرعة .

هتفت فرفارا بتروفنا تقول بحماسة :

ـ لقد قصّ علينا بطرس ستيفانوفتش قصة بطرسبرجية قديمة عن فترة من حياة شاب جامح الخيال عجيب الطبع طائش النزوات ، لكنه يظل نبيل العواطف ذا مشاعر فروسية ...

ـ فروسية ؟ هل وصلتم الى هذا الحد ؟ على كل حال ، أنا أشكر للسيد بطرس ستيفانوفتش تعجله وتسرعه هذه المرة .

قال ذلك وبادل بطرس نظرة سريعة ، ثم تابع كلامه يقول :

ـ يجب أن تعلمي يا ماما أن بطرس ستيفانوفتش يصالح دائما بين جميع الناس : ذلك دوره ، ذلك مرضه ، ذلك جنونه ، وأنا أنصحك به نصحاً خاصا في هذا المجال . اني أتخيل ما لا بد أن يكون قد رواه لكم وقصه عليكم مسهباً مطنباً ! ذلك أنه يسهب ويطنب حين يروى أمراً من الأمور . ان رأسه أرشيف زاخر . لاحظى أنه ، بصفته واقعيا، لايستطيع أن يكذب ، وأن الحقيقة أغلى عنده من النجاح ... باستثناء بعض الحالات الخاصة طبعا ، ففي تلك الحالات الخاصة يكون النجاح عنده أثمن من الحقيقة .

كان نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يقول هذا الكلام لا ينفك ينظر حواليه . وتابع حديثه يقول :

ـ فهأنت ذى ترين بوضوح يا ماما أنك لست أنت التى يجب تستغفريني ، وأن التبعة تقع على عاتقى أنا اذا كان قد ارتكب عمل جنونى ما . وهذا يدل في آخر حساب على انني مجنون فعلا ... يجب عليَّ حقا أن أؤيد السمعة التى شاعت عنى هنا ...

قال ذلك وقبَّل أمه برقة وحنان . ثم أضاف يقول بصوت ترن فيه نغمة جديدة ، قاسية ، خشنة :

ـ على كل حال ، انتهت القضية الآن . لقد رُويت القصة ، فأصبح لا يمكننا أن نعود اليها .

وقد سمعت فرفارا بتروفنا تلك النغمة الجديدة في صوت ابنها ، لكن حماستها لم تهبط . بالعكس .

قالت :

ـ ما كنت أنتظر وصولك قبل شهر آخر .

ـ سأشرح لك كل شيء يا ماما طبعا . أما الآن ...

واتجه نحو براسكوفيا ايفانوفنا .

لكن براسكوفيا ايفانوفنا لم تكد تلفت رأسها نحو نيقولاى فسيفولودوفتش . ومع ذلك كان ظهوره قبل نصف ساعة قد صعقها صعقا كاملا . غير أن هناك أسبابا أخرى لاضطرابها الآن . ففى اللحظة التى وجد فيها الكابتن نفسه أمام نيقولاى فسيفولودوفتش وجهاً لوجه ، كانت ليزا قد أخذت تضحك ، ضحكا بدأ صامتا ثم ما انفك يشتد شيئاً بعد شىء ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة . ان التضاد بين هذا المرح وبين تجهم وجهها منذ حين كان تضادا يخطف البصر ويفجأ الانتباه . وبينما كان نيقولاى فسيفولودوفتش يتحدث مع فرفارا بتروفنا ، أهابت ليزا مرتين بصاحبها مافريكى نيقولايفتش أن يدنو منها كأنها تريد أن تقول له شيئاً بصوت خافت . ولكن ما يكاد مافريكى نيقولايفتش يميل نحوها حتى تنطلق فى ضحك صاخب مجلجل ، حتى ليمكن أن يظن أنها انما تضحك من المسكين مافريكى نيقولايفتش . وكان واضحا من جهة أخرى أنها تبذل جهودا فى سبيل أن تخنق ضحكها ، وما تنفك تحمل منديلها الى شفتيها .

وحيّاها نيقولاى فسيفولودوفتش بهيئة بريئة صريحة . فأسرعت تجيبه متعجلة :

ـ اغفر لى . أرجوك . انك ... انك قد رأيت مافريكى نيقولايفتش ولا شك . آه ... انه ليس مباحا للمرء أن يكون طويلاً هذا الطول كله يا مافريكى نيقولايفتش !

وطفقت تضحك . ولقد كان مافريكى نيقولايفتش طويل القامة فعلاً ، لكن طوله ليس مفرطا البتة .

ودمدمت تقول وهى تحاول أن تسيطر على نفسها :

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

كانت تبدو خجلى مشوشة ، لكن عينيها تسطعان •

أجابها نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينظر اليها باتباه :

ـ منذ ساعتين تقريبا •

يجب أن أذكر أن وضعه كان يتسم بأقصى التهذيب والتحفظ ، ولكن اذا غضضنا النظر عن هذا التهذيب ، وجب أن نلاحظ أن وجهه كان يعبِّر عن عدم الاكتراث بل وعن عدم الشعور •

ـ أين ستسكن ؟

ـ هنا •

وكانت فرفارا بتروفنا هي أيضا تنظر الى ليزا باتباه ، غير أن فكرة قد راودتها بغتةً • فسألت ابنها :

ـ فأين كنت اذن يا نيقولاى ؟ أين قضيت هاتين الساعتين ؟ ان القطار يصل في الساعة العاشرة •

ـ أولا أوصلت بطرس ستيفانوفتش الى عند كيريلوف • كنت قد التقيت به في ماتفايفو (على مسافة ثلاث محطات من هنا) ، فترافقنا في عربة واحدة من القطار •

تدخل بطرس ستيفانوفتش فورا يقول :

ـ كنت أنتظر في ماتفايفو منذ الفجر • كانت العربات الاخيرة من القطار قد خرجت عن السكة الحديدية ليلا ، ولولا قليل لتكسرت سيقاننا •

هتفت ليزا صائحة :

ـ لتكسرت سيقانكم ؟ ماما ، ماما ، ألم نكن نريد أن نذهب نحن الى ماتفايفو فى الاسبوع الاخير ؟ لو ذهبنا لتكسرت سيقاننا ! ...

قالت براسكوفيا ايفانوفنا وهى ترسم اشارة الصليب :

ـ يا لطيف !

ـ ماما ، ماما ، ماما العزيزة ! لا ترتاعى اذا تكسَّرت ساقاى . قد يحدث لى هذا بسهولة ، مادمت تقولين أنت نفسك اننى أعدو بحصانى عدواً سريعا كمجنونة . يامافريكى نيقولايفتش ، هل ستظل تصحبنى حين تتكسر ساقاى ؟

وعادت تضحك من جديد . ثم تابعت كلامها تقول :

ـ اذا حدث لى هذا ، فلن أسمح لأحد غيرك أن يصحبنى ، ثق بذلك . لنتصور أن ساقا واحدة من ساقىَّ كُسرت .. هيَّا ، كن لطيفاً، قل لى انك ستعد ذلك سعادة .

قال مافريكى نيقولايفتش بهيئة جادة :

ـ يا لها من سعادة أن تُكسر ساق المرء !

ـ فى مقابل ذلك ، ستقودنى دائما ، أنت وحدك ، ولا أحد سواك !

ـ حتى فى هذه الحالة ستظلين أنت التى تقودينني يا ليزافتا نيقولايفنا .

هتفت ليزا تقول مرتاعة :

ـ يا الهى ! أراد أن يلعب بالألفاظ ! مافريكى نيقولايفتش ، اننى أحظر عليك أن تندفع فى هذا الطريق . ما أشد أنانيتك ! ومع ذلك فأنا مقتنعة ، وهذا يشرِّفك ، بأنك تذم نفسك عامدا . بالعكس : حين أفقد أنا

احدى ساقىّ فلن تكف أنت عن أن تؤكد لى أننى أصبحت بذلك أحلى وألذ . ولست أجد ثمة الا صعوبة واحدة هى أنك مسرف فى الطول ، وأنا حين سأفقد احدى ساقىّ سأكون قصيرة جـــــدا . فكيف يمكنك والحال هذه أن تقودنى من ذراعى ؟ ستكون صحبتنا مضحكة .

قالت ذلك وهزّتها ضحكة عصبية . لقد كانت مزحاتها وتلميحاتها باهتة ، ولكن كان واضحا أنها لا يخطر ببالها أن تحدث فيمن يسمعونها أثرا كبيرا .

همس بطرس ستيفانوفتش يقول لى :

ـ هذه نوبة عصبية . الىّ بكأس ماء . بسرعة .

ولقد صدق تقديره . فما هى الا دقيقة واحـــــدة حتى اضطرب الجميع . وجىء بالماء . وشـدت ليزا أمها الى حضنها ، وغمـرت وجهها بالقبل ، وطفقت تبكى على كتفها ، ثم ارتدت الى وراء وتأملتها من أمام ، وعادت تضحك . وأخذت براسكوفيا ايفانوفنا تبكى قليلا هى أيضـــا . وأسرعت فرفارا بتروفنا تقتـادهما كلتيهما الى شقتها الخاصـة من البـاب الصغير الذى دخلت منه داريا بافلوفنا . ولكن غيابهن لم يدم طويلاً ، فقد عدن الينا بعد بضع دقائق ...

أحاول أن أستحضر الآن جميع تفاصيل نهاية ذلك الصباح الذى لا يُنسى . فأذكر أننا حين صرنا وحدنا بغير سيدات (الا داريا بافلوفنـا التى لم تترك مكانها) ، طاف نيقولاى فسيفولودوفتش على جمعنا ، وصافح كل واحد منا ، باستثناء شاتوف الذى ظل جالســـــا فى ركنه يطرق الى الارض مزيدا من الاطراق شيئاً بعد شىء . وشرع ستيفان تروفيموفتش فى حديث فكه جدا مع نيقولاى فسيفولودوفتش ، ولكن نيقولاى أسرع يتركه ليتجه نحو داريا بافلوفنا . لكنه ما ان صار فى منتصف الطـــريق

حتى استوقفه بطرس ستيفانوفتش ، وجرّه نحو النافذة بالقوة تقريبا ، وأخذ يكلمه بصوت خافت . لعل الحديث كان يدور على شيء هام جدا، اذا صدق ما عبّر عنه وجه بطرس ستيفانوفتش وعبّرت عنه حركاته واشاراته . وكان نيقولاى فسيفولودوفتش يصغى اليه ذاهل الهيئة عديم الشعور ، مبتسما ابتسامة مصنوعة . ثم حرك يده باشارة تململ ، وظهر عليه أنه يريد التخلص من محدّثه . حتى اذا عادت السيدات ابتعد عن النافذة . جلست ليزا فى مكانها من جديد ، وأصرّت فرفارا بتروفنا على البقاء نحو عشر دقائق قبل الخروج ، لأن الهواء فى الخارج أقوى من أن تحتمله أعصابها المريضة . وكانت فرفارا بتروفنا تسمى حول الفتاة بمداراة ظاهرة ورعاية واضحة ، ثم جلست الى جانبها . وسرعان ما هُرع بطرس ستيفانوفتش قرب فرفارا بتروفنا وجعل يحدثها حديثاً زاخرا بالحرارة . وعندئذ انما اتجه نيقولاى فسيفولودوفتش أخيرا نحو داريا بافلوفنا بخطى هادئة ، فلما رأته داريا يقترب منها اضطربت فى كرسيها ثم نهضت وقد استولى عليها ارتباك واضح واشتعل خداها احمرارا .

قال وقد طاف بوجهه تعبير غريب :

ـ أظن أن فى الامكان تهنئتك ... أم أن الأوان لم يحن بعد ؟

فأجابته داشا ببضع كلمات لم أستطع أن أميّزها .

وتابع نيقولاى كلامه فقال وهو يرفع صوته :

ـ اغفرى لى قلة تكتمى . ولكننى قد أُبلغت بالأمر صراحة . هل تعلمين ذلك ؟

قالت :

ـ نعم أعلم .

قال ضاحكا :

ـ أرجو مع ذلك أن لا تفسد عليك تهنئاتي شيئاً ، واذا كان ستيفان تروفيموفتش ...

فقاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً على حين فجأة :

ـ لماذا هذه التهنئات ؟ بأي شيء يهنئك يا داريا بافلوفنا ؟ هه ... أتراها تهنئات بخطبتك ؟ ان حمرة وجهك تدل على انني حزرت . وفعلاً ، بماذا عسى يهنيء المرء آنساتنا الجميلات الفاضلات ان لم يهنئهن بالخطبة؟ طيب ... اقبلي اذن تهنئاتي أنا أيضاً ، اذا كنت قد حزرت ، وادفعي الرهان : تذكرى أنك راهنتني حين كنت في سويسرا على أنك لن تتزوجي أبدا .. آ .. نعم .. بمناسبة سويسرا ... ماذا خطر ببالي ؟ أوه ... هأناذا كدت أنسى الامر مع أنه أحد أسباب رحلتي ...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك والتفت نحو أبيه بحركة سريعة وقال يسأله :

ـ وأنت ، متى تسافر الى سويسرا ؟

ـ أنا ... الى سويسرا ؟

كذلك صاح ستيفان تروفيموفتش مدهوشا مرتبكا .
فقال له ابنه :

ـ كيف ؟ ألا تسافر ؟ ولكنك تتزوج ... ألم تكتب لي ذلك ؟

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول :

ـ بطرس ! ...

ـ ماذا ؟ ماذا تريد من بطرس ؟ لقد جئت خصيصا لأعلن لك أنني لا أعارض هذا الزواج ، مادمت حريصا ذلك الحرص كله على أن تعرف رأيي بأقصى سرعة ممكنة . واذا كان يجب «انقاذك» (كذلك تابع كلامه

متعجلاً) كما كتبت الىَّ ذلك متوسلاً أن أسـارع لاغاثتك ونجدتك ، فانني فى خدمتك . هل صحيح أنه سيتزوج يا فرفارا بتروفنا ؟ (كذلك سأل فرفارا بتروفنا وهو يلتفت اليها بسرعة) . أرجو أن لا أكون قليل الكتمان فاشياً للأسرار . لقد كتب يقول لى هو نفسه ان المدينة كلها على علم بالامر ، وان الناس يهنئونه من كل حدب وصـوب ، حتى انه من أجل أن يتحاشى التهنئات أصبح لا يخرج من البيت الا فى الليل . ان رسالته فى جيبى . ولكن هل تصدقين يا فرفارا بتروفنا ؟ اننى من جهتى لم أفهم من الامر شيئاً . قل لى نقطة واحـدة يا ستيفان تروفيموفتش : أيجب علىَّ أن أهنئك أم أن « أنقذك » ؟ لن تصدقى يا فرفارا بتروفنا ! فهو تارةً يبدو مفتونا ، ثم اذا هو بعد سطرين يهـوى الى قاع الكمد واليأس . فى البداية يأخذ يستغفرنى . صحيح أنهم جميعا هكذا ... ومع ذلك يجب أن أقول هذه الحقيقة : انه طوال حياته ـ تصورى ! ـ لم يرنى الا مرتين ، وبالمصادفة ! وها هو ذا يرانى الآن مرةً ثالثة عشية زواجه . انه يخاف أن يقصِّر فيما لا أدرى من واجبات تقع على عاتقه ، فيضرع الىَّ من على بعـد ألف فرسخ أن لا أزعل وأن أمنَّ عليـه بموافقتى . لا تنزعج ياستيفان تروفيموفتش ، أرجوك . انك تنتمى الى عصرك ، وان لى فكراً واسعا ، فلست أحكم عليك ، حتى ان هذا يشرفك، الخ . ولكن الامر الأساسى هو اننى لا أفهم جوهر القضية : انك تلمِّح فى رسالتك الى ما لا أدرى من « خطايا وآثام ارتكبت فى سـويسرا » . لقد كتبت الىَّ تقول : « سوف أتزوج بسبب خطايا أو من أجل خطـايا غيرى » ... لا أتذكر العبارة تماما . المهم أن هناك كلاما عن خطايا » . انه يقول : « ان الفتاة جوهرة ، لؤلؤة » ، وانه « لا يسـتحقها » طبعا . ذلك هو أسلوب جيله . ولكنه بسبب ما لا أدرى من آثام أو ظـروف

مضطر أن « يضع على رأسه اكليل الزواج وأن يسافر الى سويسرا »... فهلمّ « اترك كل شيء وأسرع الى انقاذى » . هل تفهمون شيئاً من هذا كله ؟ ولكن ... ولكنني أرى وأنا أنظر الى ما تعبِّر عنه وجوهكم (قال ذلك وكان ينظر الى من حوله مبتسما ابتسامة بريئة ، والرسالة فى يده) ... اننى على عادتى قد ارتكبت غلطة ... بسبب صراحتى الحمقاء أو بسبب تسرعى كما يقول نيقولاى فسيفولودوفتش . لقد كنت أحسب أننا هنا بين أصدقاء ، أقصد بين أصدقائك ياستيفان تروفيموفتش ، بين أصدقائك ... ذلك أننى أنا غريب عنكم ... وانى لأرى ... انى لأرى أنكم تعرفون شيئاً ، وأننى لا أعرف أنا هذا الشيء ...

وظل ينظر حواليه .

سألته فرفارا بتروفنا وهى تتقدم نحوه :

ـ هل كتب اليك ستيفان تروفيموفتش بالنص أنه يتزوج ليغطى خطايا غيره ، خطايا ارتكبت فى سويسرا » ، وان عليك أن « تنقذه » ؟

كان وجه فرفارا بتروفنا أصفر ، وكان وجهها متشوها ، وكانت شفتاها تختلجان .

قال بطرس ستيفانوفتش بسرعة ما تنفك تشتد ، متظاهرا بأنه قد تنبَّه الى خطورة الموقف :

ـ أقصد ... اذا كان هناك شيء لم أفهمه حق فهمه ، فالذنب ذنبه هو طبعا . لماذا يكتب بهذه الطريقة ؟ اليك الرسالة . ان رسائله طويلة طولاً لا ينتهى يا فرفارا بتروفنا ، وهو لا يكل من الكتابة ولا ينقطع عنها . اننى منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أتلقى منه الرسالة تلو الرسالة ، وأعترف بأننى كان يتفق لى أحيانا أن لا أقرأها حتى نهايتها . اغفر لى هذا الاعتراف ياستيفان تروفيموفتش ، ولكن يجب أن تسلِّم لى بأن هذه

الرسائل رغم أنها موجّهة الىّ انما أنت كتبتها للأجيال المقبلة ، بحيث لا بد أن تستوى عندك الأمور ... هيّا ، هيا ، لا تزعل ، لا داعى الىأن يكون بيننا حرج . ولكن تلك الرسالة يا فرفارا بتروفنا ، تلك الرسالة انما قرأتها الى آخرها . فهذه « الخطايا » ، « خطايا الغير » هذه ، لا شك أنها خطايانا الصغيرة نحن ، وهى خطايا صغيرة جدا . أراهن على ذلك . لكننا بنينا منها قصة كاملة أتاحت لنا أن نستغيث بأنبل العواطف ، بل ان هذا بعينه هو الذى حضنا على بنائها ، على بناء تلك القصة . ذلك أن هناك فى حساباتنا شيئاً لا يستقيم ، شيئاً غير سليم . يجب أن نعترف بذلك . اننا نحب ورق اللعب كثيرا ، كما تعلمين ... ولكن هذا الكلام زائد لا محل له ، نعم زائد لا محل له ، معذرة ، اننى ثرثار مكثار ، ولكننى أحلف لك أنه أخافنى يا فرفارا بتروفنا ، واننى تأهبت « لانقاذه » . حتى لقد شعرت فى النهاية بأننى مذنب . ولكن أأنا أضع له السكين على العنق ؟ أأنا دائن لا يرحم ؟ وهو يتكلم فى رسالته أيضا عن مهر ما . ولكن ... عجيب ! ... هل ستتزوج حقا ياستيفان تروفيموفتش ؟ جائز أيضا أن لا يكون هذا كله الا جملاً منمقة . وذلك من طبيعته أيضا ... آه ... فرفارا بتروفنا ، أنا واثق بأنك ترين فىّ الآن رأياً سيئاً ، بسبب طريقتى فى الكلام بخاصة ...

فقالت فرفارا بتروفنا بلهجة حانقة :

ـ بالعكس ، بالعكس ، اننى أرى أنك انما تتكلم لأن صبرك قد نفد ، ولا شك أن هناك أسبابا تدعوك الى الكلام .

كانت فرفارا بتروفنا قد أصغت بفرح خبيث الى الثرثرة «الساذجة» التى استرسل فيها بطرس ستيفانوفتش الذى كان واضحا أنه يمثل دوراً (أما ما هو ذلك الدور ، فاننى لم أكن قد عرفته بعد ، ولكن كان واضحا أنه يمثّل ، تمثيلاً فيه كثير من المبالغة) .

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت :

ـ بالعكس ، اننى ممتنة كثيرا لأنك تكلمت . فلولاك لما عرفت شيئاً . لقد تفتحت عيناى لأول مرة منذ عشرين سنة . يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، لقد قلت منذ برهة انك قد أُبلغت أنت أيضا نبأ عن الزواج صراحة . فهل كتب اليه ستيفان تروفيموفتش بهذا الاسلوب نفسه ؟

ـ تلقيت منه رسالة بريئة .. و .. و .. هى ... رسالة نبيلة جداً .

ـ أرى أنك تتردد ، وأنك تتخير تعابيرك . هذا كافٍ .

والتفت فرفارا بتروفنا نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة وقد أخذت عيناها تقدح شررا ، وقالت له :

ـ ياستيفان تروفيموفتش ، اننى أسألك خدمة كبيرة جدا . أرجو أن تتركنا حالاً ، وأن لا تضع قدميك فى عتبة هذا الباب يوما بعد الآن .

أرجو من القارىء أن يتذكر « حميَّاها » الأخيرة التى لم تكن قد تبددت بعد . ويجب أن نقول أيضا ان ستيفان تروفيموفتش كان مذنبا بالفعل . غير أن الشىء الذى أذهلنى أكثر من كل ما عداه هو وقار وضعه ورصانة موقفه سواء تجاه ما كشف عنه بتروشا الذى لم يحاول حتى أن يقاطعه ، أو اتجاه « اللعنة » التى صبتها عليه فرفارا بتروفنا . من أين أتى بقوه النفس هذه ؟ لكننى أدركت أنه قد جُرح جرحا بالغا عميقا منذ اللحظة الاولى التى استقبل فيها بتروشا ، ولا سيما من طريقة بتروشا فى التخلص من عناقه . كان الألم فى قلبه هذه المرة عميقا « حقيقيا » ، فى نظره هو على الأقل ؛ غير أن ذلك الألم قد انضاف اليه ألم آخر : هو شعوره بأنه تصرف تصرفا فيه جبن وحقارة . لقد اعترف لى بذلك فيما

بعد بصراحة تامة . والألم « الحقيقي » ، المؤكد ، يمكن أن يبث الشجاعة في أكثر الناس خفة وطيشا ، ولو الى حين . بل أكثر من ذلك أن الألم الحقيقي يمكن أن يهب ذكاءً لغبي ، الى حين طبعا . تلك واحـــدة من مميزات الألم . فاذا صدق هذا ففي وسعكم أن تتخيلوا التبـــدلات التي لا بد أنها حدثت في نفس انسان مثل ستيفان تروفيموفتش . ان التبـدل يكون عندئذ تحولاً كاملاً ، لكنه مؤقت بطبيعة الحال .

انحنى ستيفان تروفيموفتش أمام فرفارا بتروفنا بوقار دون أن ينطق بكلمة واحدة ، (وهل كان يمكنه أن يفعل غير هذا على كل حال ؟) ، واتجه نحو الباب ، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه من التوقف أمام داريا بافلوفنا . ويظهر أن داريا بافلوفنا كانت تتوقع ذلك ، فها هي ذي ترتاع أشد الارتياع ، وتقول له مادةً اليه يدها كأنها تريد الاسراع في تحذيره :

ـ أرجوك يا ستيفان تروفيموفتش ، لا تقل شيئاً (وكان وجههـــا يعبِّر عن الألم) ... كن على ثقة بأنني ما زلت أضمر لك نفس الاحترام ... وانني أقدرك كما كنت أقدرك من قبل ... واحتفظ برأيٍ حسنٍ فيَّ ياستيفان تروفيموفتش ، فانني أحرص على هذا كثيرا .

فانحنى ستيفان تروفيموفتش يحييها تحيةً عميقة .

قالت فرفارا بتروفنا تختم الحديث بلهجة فيها أبهة :

ـ أنت حرة يا داشا . انك تعلمين أن اتخاذ القرار في هذا الامر هو من شأنك أنت . لقد كنت دائما حرة ، وما تزالين حرة ، وستبقين الى الأبد حرة .

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يلطم جبينه :

ـ أف ... الآن فهمت كل شيء . ما أسوأ وضعي اذن ! معـــذرةً يا داريا بافلوفنا . أرجو أن تغفري لي ...

وأضاف يقول وهو يلتفت نحو أبيه ستيفان تروفيموفتش :

ـ انظر الى أى وضع دفعتنى ، وعلى أى فعل حملتنى !

قال ستيفان تروفيموفتش بألم كبير :

ـ بطرس ، فى امكانك أن تكلمنى بغير هذه الطـريقة . ألا ترى معى هذا الرأى يا صديقى ؟

قال بطرس وهو يحرك ذراعيه :

ـ لا تصرخ ، أرجوك . صدّق أن مردّ ذلك الى أعصابك الهرمة المريضة ، وليس يجديك الصراخ شـيئا . كان عليك أن تدرك اننى سأتكلم فى هذا الموضوع فورا ، فلماذا لم تنبهنى ؟ لماذا لم تحذّرنى ؟

فألقى عليه ستيفان تروفيموفتش نظرة حادة نافذة ، وقال له :

ـ بطرس ، هل يُعقل ، وأنت المطلع هذا الاطلاع كله على مايجرى هنا ، أن لا تكون قد علمت شيئاً ولا سمعت شيئاً عن هذه القضية ؟

ـ انظروا الى هؤلاء البشر ! لست اذن ابنه فحسب ، بل أنا أيضـا ابنه السيء الخبيث ! هل تسمعين ما يقوله يا فرفارا بتروفنا ؟

وأخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد معا . ولكن فى تلك اللحظة انما حدث حادث لا شك فى أن أحدا لا يمكن أن يكون قد توقعه .

٨

يجب أن أقول قبل كل شي ان ليزافتا نيقولايفنا قد بدا عليها منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق أن اضطرابها عاد اليها واستبد بها . فهي تبادل أمها ومافريكي نيقولايفتش كلمات سريعة بصوت خافت . ان وجهها ينم عن قلق وحزم في آن واحد . وها هي ذى أخيرا تنهض متعجلة الانصراف ، وتومىء باشارة تدل على نفاد الصبر ، لأمها التي هب مافريكي نيقولايفتش يساعدها على ترك مقعدها . ولكن كان مقررا أن لا تنصرفا قبل أن تريا كل شيء حتى النهاية .

ان شاتوف الذي كان قد نُسي نسيانا تاما في ركنه (قرب ليزافتا نيقولايفنا جداً) ، والذي لعله كان هو نفسه لا يعرف لماذا بقي هناك ولماذا لا ينصرف ، قد نهض على حين فجأة ، فاجتاز الغرفة كلها بخطى بطيئة لكنها ثابتة ، واتجه نحو نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينظر اليه وجها لوجه .

رآه نيقولاى ستيفانوفتش يدنو منه من بعيد فابتسم ابتسامة خفيفة . ولكن حين وصل شاتوف الى قربه كفّ عن الابتسام .

حتى اذا وقف شاتوف أمامه وهو ما يزال صامتا دون أن يحوّل عنه عينيه ، أدرك الجميع أن شيئاً يحدث ، وصمتوا ، حتى بطرس ستيانوفتش .

وتوقفت ليزا وأمها في وسط الصالون جامدتين . وانقضت على هذه الحال بضع ثوان . وها هي ذى الدهشة المزدرية التي يعبر عنها وجه نيقولاى فسيفولودوفتش يحل محلها غضب ، وها هو ذا يقطب حاجبيه ، ثم فجأة ...

ثم فجأةً يرفع شاتوف يده الطويلة الثقيلة ويهوى بهـــا على وجه نيقولاى فسيفولودوفتش بكل ما أوتى من قوة ، فيترنح ستافروجين من قوة الضربة .

ولقد هوى شاتوف بضربته على نحو خاص ، لا كما يصفع أحــد أحدا على وجهه (اذا جاز استعمال هذا التعبير) : أى لم يضربه براحة اليد بل باليد مقبوضة مشدودة . وكانت يده ضخمة ثقيلة قوية العظـــام مغطاة بشعر أحمر وبقع حمراء . فلو سقطت هـــذه الضربة على الأنف لهشمته حتما ، لكن شاتوف أنزل ضربته على الخد ، وانزلقت الضربة على الطرف الأيسر من الشفتين وعلى الأســـنان العليا فسرعان ما نزف الفم دماً .

دوّت صرخة أطلقتها فرفارا بتروفنا ، اذا لم يخطىء ظنى . لست أتذكر على وجه الدقة ، اذ لم يلبث الصمت أن ساد الجوَّ من جديد : لقد أصبحنا كالمتجمدين من الدهشة . والمشهد كله لم يدم الا نحو عشر ثوان على كل حال .

غير أن أشياء كثيرة جدا قد حدثت خلال هذه الثوانى .

يجب أن أذكّر القارىء بأن نيقولاى فسيفولودوفتش له طبيعة من تلك الطبائع التى لا تعرف الخوف . انه قادر ، فى مبارزة مثلاً ، على أن يواجه رصاص خصمه بهدوء كامل ليسدد اليه بعد ذلك فيقتله بهـــدوء وحشى ضارٍ . ولو صفعه أحد فما أظن أنه يطلب المعتدى الى المبارزة ، وانما يقتله على الفور . نعم ان له طبيعة من تلك الطبـــائع التى ترتكب القتل مدركةً فعلتها ، لا منقادةً لعماوة الغضب . بل اننى لأعتقد أنه لم يعرف فى حياته اندفاعات الحنق الشديد تلك التى تحرمنا من امكان أى تفكير أو تأمل . ففى نوبات السخط التى كانت تستولى عليه أحيانا كان

يستطيع دائماً أن يبقى مسيطرا على ارادته ، وكان يدرك اذن أنه حين يقتل رجلاً في غير مبارزة فهو لا يستطيع أ ن يفلت من عقوبة السجن • غير أن هذه الفكرة ما كان لها بأية حال من الاحوال أن تمنعه من قتل الرجل الذى يكون قد أهانه ، بغير أى تردد •

لقد درست طبع نيقولاى فسيفولودوفتش فى هذه الآونة الأخيرة كثيرا ؛ فأصبحت بفضل تضافر ظروف خاصة أعرف عنه وقائع كثيرة فى هذه الساعة التى أكتب فيها عنه • اننى أشبهه ببعض شخصيات الزمان الماضى التى ما تزال ذكراها الأسطورية باقية بيننا حتى الآن • يُحكى مثلاً أن الديسمبرى « ا ••• ن » * كان طوال حياته يبحث عن الخطر ، وأنه كان يتلذذ بهذا الاحساس الذى أصبح لديه احتياجا حقيقيا • فحين كان شابا كان يقتتل فى مبارزة لكلمة نعم أو كلمة لا • وفى سيبيريا كان يصطاد الدب بغير سلاح الا سكينا ، وكان يتسلى بأن يطارد فى الغابات السجناء الهاربين الذين يجب أن نصفهم ـ عابرين ـ بأنهم أشد خطرا على الحياة من الدببة • مما لا شك فيه أن أولئك الأشخاص الأسطوريين كانوا يعرفون الخوف ، بل ولعلهم كانوا يحسونه بقوة خاصة ، والا لعاشوا حياة أكثر مسالمة وهدوءا وموادعة ، ولما قلبوا الاحساس بالخطر الى حاجة طبيعية فيهم • وواضح أن الشيء الذى كان يثير حماستهم وحميّاهم انما هو الانتصار على ذلك الخوف • ان فرحهم بالظفر والاحساس بقوتهم ليس لهما حدود • ذلكم ما كان يفتنهم ويخلب ألبابهم • ان « ل ••• ن » ذاك نفسه ، قد عرف الجوع قبل نفيه الى سيبيريا ، وعرف الحاجة الى جنى خبزه بعرق جبينه ، لا لشيء الا لأنه رفض الخضوع للمطالب التى كان يريد أبوه الغنى أن يفرضها عليه وكان هو يعدها ظالمة غير عادلة • كان اذن قد تصور كفاح الحياة فى صور شتى ، وكان قد عرف قوة مقاومته وقوة شكيمته لا فى صيد الدب وفى المبارزات فحسب •

لكن ذلك كله كان يجرى فى زمان بعيد جدا ؟ والطبيعة العصبية ، المعذبة المختلفة ، التى يتصف بها رجال اليوم ، لا تشعر حتى بالحاجة الى هذه الاحساسات البسيطة القوية التى كان يبحث عنها ويسعى اليها الرجال المتحركون الفعـــالو نالذين عرفهم الزمان القــــديم . لعل نيقولاى فسيفولودوفتش أن ينظر الى « ا ... ن » ذاك نظرة متعالية ، بل لعــله يعده رجلاً متفخا وديكاً مشاكساً يحب القتال ، لكنه لا يقول هذا الا بينه وبين نفسه دون أن يعلن هذا الحكم جهارا . ان نيقولاى فسيفولودوفتش قد يقتل خصما فى مبارزة ، وقد يجابه دباً عند الحاجة ، وقد يقاتل قاطع طريق اذا تعرض له ، وهو يحقق فى هـــذا كله انتصارات لا تقل عن انتصارات « ا ... ن » ، ويبرهن على شجاعة لا تقل عن شجاعة «ا...ن» ولكن دون أن يجنى من ذلك أية لذة ، وانما يقوم بهذه الاعمال كلهـــا برخاوة وتوان وكسل بل وضجر ، كمن يمتثل لضرورة مزعجة لا بد منها . ومع ذلك فقد كان نيقولاى فسيفولودوفتش أشد قسوة وأعمق شراً من « ا...ن» . لكن شره فاتر بارد هادىء ؟ بل هو شر «عاقل» ان صح التعبير ، وهو اذن شر أدعى الى الاشمئزاز وأبعث على الشعور بالهول من أى شر آخر . أكرر مرة أخرى : لقد عددته حينذاك ، وما زلت أعـــده الآن (بعد أن انتهى كل شىء على وجه الاجمال) رجلا قادرا ، اذا هـــو تلقى صفعةً أو اهانة مماثلة ، أن يقتل المعتدى عليــــه فى الحال دون أن يطلبه الى مبارزة .

ومع ذلك فقد تصرف عندئذ تصرفاً مختلفاً كل الاختلاف ، جمَّدنا من الدهشة جميعا .

فما ان نصب قامته بعد أن انحنى انحناء مخجلاً بتأثير الضربة ، ما ان انقطع صوت اللكمة الفظيعة الرهيبة ـ ان صح التعبير ـ عن الترجع فى

آذاننا ، حتى أمسك نيقولاى فسيفولودوفتش صاحبنا شاتوف من كتفيه بيديه . ولكنه سرعان ما عاد يسحب يديه فى نفس اللحظة تقريبا ، ويضعهما وراء ظهره . كان صامتا ينظر الى شاتوف وقد شحب لونه حتى صارت صفرته أشبه ببياض . ولكن ما أعجب ما لاحظناه : لكأن نظرته أخذت تنطفىء حدتها شيئاً بعد شىء ، فما انقضت عشر ثوان حتى كانت عيناه باردتين ، هادئتين . لست أكذب . اننى متأكد مما أقول . كل ماهنالك أن لون وجهه أصبح شاحبا شحوبا رهيبا . اننى أجهل ما حدث فى نفسه طبعا : فأنا لم أر منه الا الظاهر . يخيَّل الىَّ أنه اذا أوتى انسانٌ أن يقبض على قضيب من حديد محمرٍ من النار وأن يظل ممسكا به ليمتحن قدرته على الاحتمال ، واذا تمكن هذا الانسان أن يحقق النصر بعد أن قاوم الألم الرهيب خلال عشر ثوان ، فان ما يعانيه يكون شبيها بما تحمله نيقولاى فسيفولودوفتش أثناء تلك الثوانى العشر .

وكان شاتوف أول من خفض بصره . وكان واضحا انه انما خفض بصره لأنه اضطر الى ذلك اضطرارا . ثم استدار بهدوء ، واتجه نحو الباب ، ولكن بخطوة مختلفة عن خطوته التى سار بها من قبل . انصرف بغير جلبة ، مقوَّس الظهر ، داساً رأسه فى كتفيه ، كأنه يفكر تفكيرا عميقا . حتى اننى أعتقد أنه دمدم يقول بضع كلمات . كان يتقدم محاذرا، محاولاً أن لا يصدم شيئا ، وأن لا يقلب شيئا . حتى اذا وصل الى الباب شقَّه شقاً صغيرا بحيث اضطر أن يخرج مواربا حتى يستطيع أن ينسل منه . وفيما كان يخرج لاحظت كثة الشعر التى كانت منفوشة على جمجمته ، لاحظتها خاصة .

وعندئذ دوَّت صرخة رهيبة سبقت جميع الصرخات . رأيت ليزافتا نيقولايفنا تمسك أمها من كتفها ، وتمسك مافريكى نيقولايفتش من ذراعه

وتبذل جهودا كبيرة عنيفة لتجرهما وراءها الى خارج الغرفة ، ولكنها أطلقت من صدرها صرخة قوية على حين فجأة ، وسقطت على الارض مستلقية مغشيا عليها . يبدو لى اننى ما أزال أسمع اصطدام قفا رأسها بالسجادة .

الجزء الثاني

الفصل الأول

الليل

١

انقضى أسبوع . الآن وقد انتهى كل شيء ، في الساعة التي أكتب فيها هذه القصة، أصبحنا نعرف الحقيقة . أما في ذلك الحين فقد كنا نجهلها . لذلك كانت أشياء كثيرة تبدو لنا عجيبة جدا . في الآونة الأولى لزمنا البيت أنا وستيفان تروفيموفتش ، مكتفين بملاحظة الأحداث من بعد ، بشيء من الخشية . ومع ذلك كنت أخرج من حين الى حين ، وأتصل الى صديقي كما كنت أفعل في الماضي ، ما أستطيع أن أصل الى جمعه من معلومات ما كان له أن يستغني عنها .

من نافل القول أن أذكر أن أغرب الشائعات قد سرت في المدينة بشأن الصفعة ، واغماء ليزا ، والأحداث الاخرى التي وقعت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى ، يوم الأحد . وقد أدهشنا ذلك كثيرا : فكيف أمكن أن تُعرف هذه الوقائع بمثل تلك السرعة ، حتى في أيسر تفاصيلها ؟ لا أحد من الذين شهدوا تلك الاحداث يمكن أن يجني فائدة من اشاعتها واذاعتها بين الناس فيما يبدو . أما الخدم فانهم لم يروا شيئاً . ليبادكين وحده كان

يمكن أن يتكلم ، لا عن خبث وشر (فقد كان مرتاعا ، والارتياع يقتل الكره) بل تلذذاً بالثرثرة فحسب . ولكن ليبادكين وأخته كانا قد اختفيا منذ الغد دون أن يتركا أثرا يدل على المكان الذى رحلا اليه : لقد تركا منزل فيليبوف ولا يعرف أحد أين هما . لقد حاولت أن أسأل شاتوف عن ماريا تيموفيئفنا ، لكن شاتوف كان قد سجن نفسه فى بيته . وأظن أنه لم يخرج من مسكنه مرة واحدة خلال ذلك الاسبوع ، متنازلاً عن كل مشاغله بالمدينة . وهو على كل حال لم يشأ أن يستقبلنى . لقد صعدت الى بيته يوم الثلاثاء ، وقرعت بابه ، فلما لم أحصل على جواب ، واذ تأكدت أنه موجود فى البيت ، قرعت الباب مرةً أخرى . فسمعت عندئذ صوتَ حركةٍ هى حركة من يثب عن سريره الى الارض ؛ وها هو ذا يقترب من الباب بخطى ثقيلة ويصرخ : « شاتوف ليس بالبيت » . فلم يبق عليَّ الا أن أمضى .

وقد انتهينا أنا وستيفان تروفيموفتش أخيرا الى التسليم بأن مروِّج الشائعات التى كانت تسرى فى المدينة (وذلك افتراض روَّعنا ما فيه من جرأة وتهور ، ولكن كلاً منا شجَّع صاحبه على قبوله) لا يمكن أن يكون أحدا غير بطرس ستيفانوفتش . ومع ذلك فقد أكَّد بطرس ستيفانوفتش لأبيه بعد مدة قصيرة أنه مدهوش جداً من أن الحكاية كلَّها قد انتقلت من فم الى فم على الفور فى المدينة كلها ، وخاصةً فى النادى ، وأن الحاكم وامرأته يعرفانها بكل تفاصيلها . ولكن الأغرب من ذلك اننى علمت حين لقيت ليبوتين مساء يوم الاثنين أنه كان منذ ذلك الحين على علم كامل بكل ما جرى . فمعنى هذا أنه كان من أوائل من اطلعوا على الامر .

ان كثيرا من السيدات (وبينهن سيدات من أبرز أعضاء المجتمع الراقى) قد حيَّرهن أشدَّ الحيرة أمرُ تلك « العرجاء اللغز » . كذلك

كنَّ يلقبنها . حتى ان بعضهن قد تمنين أن يعرفنها . معنى ذلك أن الذين أسرعوا يخفون لبيادكين وأخته قد فعلوا ما يجب فعله في الوقت المناسب جدا . على أن اغماء ليزافتا نيقولايفنا هو الذي كان يشغل الأذهان خاصة. ألم يكن هذا الحادث يخص جوليا ميخائيلوفنا ، امرأة الحاكم ، وقريبة الفتاة وحاميتها ؟ ما أكثر ما قالوا ! ثم ان هـــذه الثرثرات كان يسهِّلها ويشجِّعها ما يحيط بشخوص الدرامة من سر : لقد بقي المنزلان مغلقين. كان يقال على وجه التأكيد ان ليزافتا نيقولايفنا مصابة بحمى حارة ، ومثل هذا كان يُقال عن نيقولاى فسيفولودوفتش ، بالاضافة الى اختراع تفاصيل أخرى كثيرة منفِّرة ، منها أن أسنانه تكسرت ، وأن وجهه تشوه ، وهلم جراً . وكانوا يرددون ، تحت طابع السر ، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد ، فليس ستافروجين رجلاً يمكن أن يغفر اهانةً كهـــذه الاهانة ، وأنه سيقتل شاتوف حتما ، ولكن بطريقة خفية سرية ، كما يحـــدث في أعمال الثأر المعروفة في جزيرة كورسيكا . وكانت هـــذه الفكرة تخلب الألباب . ولكن أكثر شباننا الأنيقين كانوا يصغون الى هذه الأقاويل بازدراء خالٍ من الاهتمام والاكتراث ، وذلك أمر كانوا يصطنعونه اصطناعا بطبيعة الحال . وعلى وجه العموم ، فان العداوة القديمة التي حملها مجتمعنا في الماضي لنيقولاى فسيفولودوفتش قد ظهرت الآن من جـــديد عنيفةً كل العنف ، قويةً كل القوة ؛ فحتى الأفراد الجادون قد أخذوا يتهمـــونه ، دون أن يعرفوا لماذا على وجه الدقة . كان النـــاس يتهامســـون بأنه لطخ شرف ليزافتـــا نيقولايفنا بالعـــار ، وأن هناك مغـــامرة قد وقعت بينهما في سويسرا . صحيح أن الحكماء من الأفراد كانوا يتحفظون ، ولكنهـــم كانوا يصغون الى هؤلاء الثرثارين متلذذين . وقد راجت شائعات أخرى أيضا . غير أن الشائعات الاخرى كان الناس لا يرددونهـــا الا في خلوة وعلى حذر . ولست أذكر هذه الشائعات الا لأنبه القارىء ، حتى أهيئـــه

للاطلاع على الاحداث التى أعقبت ذلك كله . كان بعضهم يؤكدون وهم يصطنعون هيئة الجد والوقار (الله وحده يعلم من أين استمدوا هـــذه الأنباء !) أن نيقولاى فسيفولودوفتش مكلّف بمهمة خاصة ، وأنه بواسطة الكونت ك ... قد أصبح على صلة بشخصيات هامة جدا فى بطرسبرج ، بل وأنه يشغل منصبا عاليا . فكان الأفراد الجادون المتحفظون يبتسمون حين يسمعون هذه الاحاديث ، مشيرين بحق الى أن رجلاً يثير فضائح ويتلقى صفعة منذ بداية اقامته عندنا ، لا يشـــبه موظفـــا كبيرا فى شىء ، فكان الآخرون يجيبونهم قائلين ان ستافروجين لا يشـــغل مركزا رسميا ، بل منصبا سريا بمعنى من المعانى ، وان مهمته تقتضى منه والحالة هـــذه أن لا يشبه موظفا من الموظفين الا أقل شبه ممكن . وقد أحدثت هذه الملاحظة أثراً ما : كان الناس لا يجهلون أن زمزتوف* مقاطعتنا كان قد لفت انتباه العاصمة مرارا وتكرارا . على أن هذه الشائعات لم تستمر . بل تبددت منذ عاد نيقولاى فسيفولودوفتش الى الظهور بيننا . لكننى أحرص على أن أذكر أن هذه الأقاويل كلها إنما يرجع أصلها الى بضع جمل كارهة مبغضة ، لكنها غير صريحة جدا ، قذفها ذات يوم فى النـــادى آرتيمى بافلوفتش جاجانوف ، الكابتن المتقاعد من ضباط الحرس . ان جاجانوف هـــذا ، قد وصل من بطرسبرج منذ مدة قصيرة ، وهو من كبار ملاكى الاطيـــان بمقاطعتنا ، كما أنه رجل من رجال المجتمع الراقى ؛ انه ابن المرحوم بافل بافلوفتش جاجانوف الذى كان نيقولاى فسيفولودوفتش قد عامله منذ أربع سنين تلك المعاملة الفظة الغليظة ، كما رويت ذلك فى بداية قصتى .

عرفت المدينة كلها أن جوليا ميخائيلوفنا قد ذهبت الى منزل فرفارا بتروفنا ، فأرسلت اليها فرفارا من يبلغها أنها لا تستطيع استقبالها لتوعك صحتها . وقد عُلم أيضا أن جوليا ميخائيلوفنا قد بعثت بعد ذلك بيـــومين

رسولا يسأل عن أبناء السيدة ستافروجين ، وأنها كانت من جهة أخــرى تأخذ على عاتقها عبء « الدفاع » عنها . ويجب أن نفهم كلمة « الدفاع » هذه بأرفع معانيها طبعا ، أى بأغمض معانيها . لقد استقبلت بعبوس وفتور التلميحات الأولى التى أسرع الناس يسوقونها لها عن أحداث يوم الاحد . لذلك أصبح لا يجرؤ أحد أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك بحضورها . وانتهى الناس الى أن يسلّموا بأن جوليا ميخائيلوفنا ليست على علم بالقصة كلها فحسب ، بل وأنها تعــرف معنــاها الخفى وسرها المكتوم وتعرف أصغر تفاصيلها ، بل هى مشاركة" فيها بعض المشاركة . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد أخذت تتمتع بيننا منذ ذلك الحين بذلك النفوذ الذى تتوق اليه ، وكانت ترى نفسها منـــذ ذلك الحين « محاطة" » كثيرا . ان قسما كبيرا من المجتمع قد أصبح يعترف لها بذكاء عملى وكياسة وحسن تصرف ... وسنرجع الى الكلام عن هـــذا فيما بعد . والى حمايتها ورعايتها انما يرجع أكبر الفضل فيما حققه بطرس ستيفانوفتش من نجاح سريع ، وهو نجاح أدهش ســـتيفان تروفيموفتش ادهاشا قويا .

جائز أننا ، أنا وستيفان تروفيموفتش ، قد ضخمنا فى خيالنــا ذلك النجاح . مهما يكن من أمر ، فان بطرس ستيفانوفتش قد تعرف على جميع الناس فى الأيام الاربعة الاولى التى أعقبت وصوله . كان قد وصـــل الى مدينتنا يوم الاحد ، فلما جاء يوم الثلاثاء رأيته يمر راكبا العربة الفخمــة التى يملكها آرتيمى بافلوفتش جاجانوف ، وهو رجل متعجرف مزهـــو بنفسه حاد الطبع شرس مغرور ، رغم ما يصطنعه من آداب راقية ، فهو اذن امرؤ ليس التفاهم معه بالأمر الســـهل . وكذلك استُقبل بطرس ستيفانوفتش عند الحاكم وامرأته استقبالا حسنا جـــدا ، حتى انه سرعان

ما أصبح من أصدقائهما الحميمين ، وسرعان ما أصبح الولد المدلل فى منزلهما ، ان صح التعبير . لقد أصبح يتغذى كل يوم تقريبا عند جوليا ميخائيلوفنا ، التى سبق أن عرفها فى سويسرا على كل حال .

ومع ذلك فان الدور الذى يلعبه فى ذلك المنزل كان يبدو دورا غريبا . فلقد كان هذا الشاب يوصف فى الماضى بأنه ثورى . لا أدرى أهذا صحيح أم لا ، ولكن كان يُقال على وجه التأكيد انه فى الخارج قد اشترك فى عدة مؤتمرات وساهم فى اصدار بعض النشرات الهدّامة ، « حتى ليمكن البرهان على ذلك بالرجوع الى صحف ذلك الزمان » ، كما قال لى ذلك ، فى غيظ وحنق ، أليوشا تلياتيكوف الذى هو اليوم - وا أسفاه ! - موظف صغير محال على التقاعد ، لكنه كان قبل ذلك أثير الحاكم السابق . ومع ذلك فهناك واقع قائم : هو أن هذا الثورى السابق لم يلق عند عودته الى البلاد أية عقبة . حتى لقد استُقبل فيها استقبالا يشتمل على كثير من اللطف والمودة . ألا يمكن أن نستخلص من ذلك أن الشائعات التى راجت فى حقه كانت باطلة ؟ لقد همس ليبوتين فى أذنى يوما أن بطرس ستيفانوفتش قد أدلى باعترافات كاملة ، فيما يقال ، ونال عفواً بعد أن وشى بأسماء شتى ؛ واذ كفّر بذلك عن ذنوبه وعد بأن يستمر على السير فى الطريق القويم . وقد نقلت هذه الجملة المسموعة الى ستيفان تروفيموفتش ، فاذا هو يصبح شارد الذهن ، مع أنه كان فى تلك الآونة عاجزا عن استجماع أفكاره . وقد عُلم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش كان مزوّدا عند وصوله الينا برسائل توصية وتزكية ، ممهورة بأسماء محترمة ذات شأن كبير ؛ وأن احدى هذه الرسائل كانت موجّهة الى جوليا ميخائيلوفنا من عرّابتها ، وهى سيدة عجوز يُعد زوجها من أعلى شخصيات العاصمة مقاماً واسماهم منزلة . لقد كتبت هذه السيدة الى جوليا ميخائيلوفنا أن الكونت ك ... ، وقد تعرف الى بطرس ستيفانوفتش

بواسطة ستافروجين ، قد استقبله بترحيب ، وأنه يعدّه « شاباً مليئاً بالسجايا الممتازة رغم أخطائه السابقة » . وكانت جوليا ميخائيلوفنا تحرص حرصا عظيما على العلاقات النادرة التى عقدتها مع أصحاب الشأن الرفيع بجهود كثيرة . لذلك سرّتها رسالة السيدة العجوز سرورا كبيرا . ومع ذلك كان موقفها من بطرس ستيفانوفتش يبدو لنا على جانب كبير من الغرابة . ألم تكن تسمح له بأن يعامل زوجها معاملة خالية من الكلفة ، وذلك أمر كان فون لمبكه يشكو منه مرّ الشكوى ؟... على اننى سأعود الى هذه النقطة فيما بعد . ويجب أن أضيف أيضا ، من باب الذكرى ، أن كارمازينوف الشهير قد رحّب أكبر الترحيب ، هو أيضا ، ببطرس ستيفانوفتش ، ودعاه أن يزوره . ان هذه الحفاوة من جانب رجل يتصف بما يتصف به كارمازينوف من زهو وغرور قد جرح ستيفان تروفيموفتش أكثر مما جرحه أى شيء آخر . ولكننى فسّرت هذا الأمر لنفسى بسهولة: لقد تودد كارمازينوف الى هذا الرجل الذى يدين بالمذهب العدمى ، لما له من صلات بالشبيبة الثورية فى العاصمتين . لقد كان هذا الكاتب الشهير يخاف من هذه الشبيبة خوفاً مرضياً ، ويتخيل من جهله أنها قابضة بأيديها على مستقبل روسيا . لذلك كان يتملقها فى كثير من الهوان والصغار ، لا سيما وأنها كانت لا تحفل به ولا توليه أى اهتمام .

٢

جاء بطرس ستيفانوفتش الى أبيه مرتين . ومما أسفت له آسفا كبيرا أنه جاء اليه أثناء غيابى عنه . فأما المرة الاولى فبعد لقائهما عند فرفارا بتروفنا بأربعة أيام ، ولم يكن لزيارته هذه من هدف الا تصفية الحسابات المتعلقة بأرض بطرس ستيفانوفتش . وقد انتهت هذه القضية بغير ضجة أو جلبة : تكفلت فرفارا بتروفنا بكل شيء . دفعت المال للشاب ، لكنها تملكت الارض طبعا ، واكتفت بأن أبلغت ستيفان تروفيموفتش أن المسألة قد سُوِّيت تسوية نهائية . لقد حمل اليه خادمها الذى تثق به ، وهو ألكسى ايجوروفتش ، حمل اليه ورقة عليه أن يمهرها بتوقيعه ، فوقّعها ستيفان تروفيموفتش صامتا ، بوقار شديد . يجب أن أقول بصدد الوقار أو الرصانة أو الكرامة اننى أصبحت لا أتعرف صاحبى القديم ستيفان تروفيموفتش : ان وضعه الآن يختلف عن وضعه السابق اختلافا كبيرا . لقد أصبح شديد الصمت ؛ وهو منذ يوم الاحد لم يكتب الى فرفارا بتروفنا رسالةً واحدة ، وذلك أمر لو حدث فى الماضى لعددته معجزةً من المعجزات . غير أن الشيء الذى أدهشنى أكثر من كل ما عداه ، انما هو هدوءه . كان ستيفان تروفيموفتش قد اتخذ قرارا حاسما وثبت عليه ثباتا عنيدا . وهذا هو مصدر هدوئه . انه الآن يضمر فكرة ، وينتظر الاحداث . على أنه قد شعر فى البداية بأنه مريض . ففى يوم الاثنين اعترته نوبة اسهال يشبه أن يكون اسهال الكوليرا . ويجب أن أقول أيضا انه ظل لا يستطيع الاستغناء عن الانباء التى كنت أنقلها اليه . ولكنه ما ان أترك الوقائع وأواجه جوهر المسألة وأجازف فأتصور بعض الافتراضات ، حتى يومىء مهيبا بى أن أسكت .

ومع ذلك فان اللقاءين اللذين تمَّا بينه وبين ابنه قد تركا فيه أثرا أليما موجعا ، لكنهما لم يثنياه عن عزمه . فما يكاد بطـرس ستيفانوفتش يتركه حتى يستلقى على ديوانه ملفعاً رأسه بمنشفة مبلولة بالخل ، محتفظا مع ذلك بوضع هادىء وقور كريم .

وكان مع هذا يسمح لى أن أتكلم فى بعض الاحيان . حتى لقد كان يبدو لى عندئذ أن القرار السرى الذى عقد عليه عزمه قد أخذ يضعف ، وأن أفكارا أخرى أخذت تفتنه وتغويه . وكان هـذا التردد لا يدوم الا لحظة ، ولكننى أحرص على الاشارة اليه . أظن أنه كان فى تلك اللحظات يشتهى أن يخرج من عزلته وأن يتحدى وأن يخوض معركة أخيرة .

أفلت من لسانه فى مســاء يوم الخميس ، بعد زيارة بطـــرس ستيفانوفتش الثانية :

ـ يا عزيزى ، اننى أستطيع أن أبدِّدهم جميعا ! ...

كان متمددا على ديوانه ، ملفعا رأسه بمنشفة ، ولم يكن قد وجَّه الىَّ كلمة واحدة طوال النهار . وتابع يقول :

ـ « ابنى ، ابنى العزيز » ، وهلم جراً ... أوافق على أن جميع هذه التعابير سخيفة غبية تليق بطباخة . أعترف بهذا أنا نفسى الآن . اننى لم أعطه شرابا ولا طعاما . ولم يكن الا طفلا رضيعا حين شحنته من برلين بالبريد الى ولاية ف ... وهكذا ! اننى أسلِّم بذلك . لقد قال لى : « أنت لم تُعن بها ولم تهتم بأمرى ، وشحنتنى بالبريد كما تُشحن صرة ؟ وزدت على ذلك فنهبتنى هنا » . صرخت أقول له : « ولكننى أيها الشقى ، رغم اننى شحنتك بالبريد ، لم ينقطع قلبى عن أن ينـزف دمـاً من الألم لك والحسرة عليك ! » . فضحك !... لكننى أسلِّم ، أسلِّم ... نعم ... بالبريد شحنته .

بهذا ختم كلامه كمن يهذي •

وعاد يتكلم بعد خمس دقائق فقال :

ـ « دعنا » (بالفرنسية) • انني لا أفهم تورجنيف • ان بازاروف* في روايته شخصية وهمية لم توجد في يوم من الايام • ألم يكونوا أول من نبذوه معلنين أنه يشبه شيئاً ؟ ان بازاروف هذا خليط غير مفهوم من نوزدريوف* ومن بايرون • « هذه هي الكلمة ! » (بالفرنسية) • انظر اليهم كيف يتدحرجون على الارض مطلقين زعقات فرح ، ككلاب صغيرة في الشمس ! انهم سعداء • انهم ينتصرون • ما شأنهم وبايرون ؟ ويالها من تفاهة لا مذاق لها فوق ذلك ! وياله من غرور عامي سريع الاهتياج! ويا لها من حطة تزخر بها حاجة المرء هذه الى « احداث ضجة كبيرة حول اسمه » (بالفرنسية) دون أن يلاحظ أن « اسمه » (بالفرنسية) ••• رباه ! يا لها من رسوم كاريكاتورية ! لقد صرخت أقول له : « هل يُعقل أن تطمع ، وأنت ما أنت ، في أن تقدم نفسك للناس بديلا للمسيح ؟ » • « فضحك • انه يضحك كثيراً • « انه يسرف في الضحك » (بالفرنسية) ان له ابتسامة غريبة • لم تكن أمه تبتسم تلك الابتسامة • « انه يضحك دائما » (بالفرنسية) •

وساد الصمت من جديد •

ثم عاد يتكلم فقال :

ـ انهم ماكرون • لقد تواطؤوا يوم الاحد •

فهتفت أقول متلقفا الكرة بوثبة :

ـ حتما ! لا شك في ذلك ! لقد كانوا على اتفاق وتواطؤ • لقد نسجوا مسرحيتهم نسجاً ثم أساءوا تمثيلها جدا •

ـ لا أقصد هذا . هل تعلم أنهم تعمدوا أن لا يجيدوا تمثيلها بغية أن يراها أولئك الذين يجب أن يروها ؟ هل تفهم ؟

ـ لا ، لا أفهم !

ـ « أفضل . دعنا . » (بالفرنسية) .

ـ فلماذا ناقشته يا ستيفان تروفيموفتش ؟

ـ « أردت أن أغيّر عقيدتي » (بالفرنسية) . اضحك مني ! « لسوف تسمع هذه العمة أشياء كثيرة جميلة ! » (بالفرنسية) . آه ياصديقي، هل تصدّق انني شعرت منذ قليل بأنني وطني ؟ على كل حال، لقد كنت أحس دائما أنني روسي ! ... ان الروسي الحقيقي هو أنت ، هو أنا . « ان ههنا شيئا فيه عماوة ، شيئا مريبا » (بالفرنسية) .

ـ قطعا .

ـ يا صديقي ، ان الحقيقة الصادقة تكون دائما غير قابلة لأن تصدّق . هل تعلم ذلك ؟ فان شئت أن تجعل الحقيقة قابلة لان تصدق فيجب عليك أن تضيف اليها شيئا من كذب حتما . وذلك ما فعله الناس دائما . ربما كان في ذلك كله شيء لا نفهمه . ما رأيك ؟ ألا يمكن أن يكون في زعقات الانتصار هذه شيء لا نفهمه ؟ أتمنى أن يكون الامر كذلك . نعم أتمنى كثيرا .

لم أجبه . ولزم الصمت مدةً طويلة .

ثم دمدم يقول كأن به حمى :

ـ يقال ان المسئول هو الفكر الفرنسي . كذبٌ ذلك . لقد كنا دائما هكذا . لماذا نتجنى على الفكر الفرنسي ؟ انه كسلنا الروسي وحده ، انه عجزنا المهين المشين عن أن نخلق فكرة ، انها طفيليتنا الكريهة المنفِّرة !

« هؤلاء كسالى لا أكثر » (بالفرنسية) . لا شأن للفكر الفرنسي بهـذا . آه ... يجب أن يُبادَ الروس لتحقيق خير الانسانية لأنهم طفيليات ضارة . ليس هذا ما كنا نصبو اليه نحن ، لا ليس هذا البتة ! انني لا أفهم شيئا على الاطلاق . أصبحت لا أفهم . قلت له : هل تعلم أنك اذا جعلت القول الفصل للمقصلة ، وبهذه الحماسة كلها أيضا ، فلا يكون ذلك الا لأن قطع الرقاب أسهل شيء ، ولأنه لا شيء أصعب من أن يكون للمرء أفكار ... « أنتم كسالى ! رايتكم خرق بالية ، شعاركم عجز ... » (بالفرنسية) . تلك العربات ... أو ماذا يقولون ؟ ... « جريان العربات التي تنقل الخبز الضروري للانسانية » أنفع من مادونا كنيسة سكستين ... « سخافة من هذا النوع » (بالفرنسية) . صرخت أقول له : ألا تفهم ، ألا تفهم ان الانسان لا يحتاج الى السعادة فحسب ، بل يحتاج كذلك الى الشقاء ، ويحتاج الى الشقاء كاحتياجه الى السعادة سواء بسواء ؟ « فضحك » (بالفرنسية) . وقال : « أنت راقد هنا على ديوان من مخمل تتلذذ بقول كلام منمَّق » (حتى لقد استعمل تعابير أشد فظاظة)... لاحظ أيضا هذا التخاطب بصيغة المفرد بين أب وابنه . لقد كان يمكن التسامح في هذا لو كان ثمة وفاق ، ولكن كيف يمكن التسامح فيه والامر أمر شجار ؟ ...

لزمنا الصمت لحظة .

ثم قال لي وهو ينتصب على حين بغتة :

ـ هل تعلم يا عزيزي أن هذا الامر سينتهي حتما بطريقة أو بأخرى ؟

ـ لا شك في ذلك !

ـ « انك لا تفهم . دعنا » (بالفرنسية) . العادة أن لاينتهي شيء في

هذا العالم . ولكن في هذه الحـــالة سيكون ثمة نهاية ، هـــــذا مؤكد ، مؤكد قطعا .

ونهض ، ومشى في الغرفة بضع خطوات مضطربا أشد الاضطراب ، ثم عاد الى قرب الديوان فتهالك عليه مهدود القوى منهكا .

في صباح يوم السبت ذهب بطرس ستيفانوفتش الى مكان في المقاطعة لا أدرى أين يقع . ثم لم يعد الا يوم الاثنين التالى . ان ليبوتين هو الذى أنبأني بذلك . وروى لى أيضا أن ليبادكين وأخته قد أقاما في مكان ما على الضفة الاخرى بضاحية مصانع الفخار . وأضاف يقول : أنا الذى توليت نقلهما الى هناك . وترك هذا الموضوع بعد ذلك فأبلغنى أن ليزافتا نيقولايفنا ستتزوج مافريكى نيقولايفتش : ليس الامر رسميا بعد ، ولكن الخطوبة حدثت وتمّ الامر . وقد قابلت الآنسة في الغداة راكبةً حصانها ، يصحبها مافريكى نيقولايفتش . هذه أول مرة تخرج فيها بعد مرضها . التمعت عيناها حين رأتنى ، وابتسمت لى ، وأومأت الىّ برأسها محييةً تحيةً ودية لطيفة . نقلت هذا كله الى ستيفان تروفيموفتش ، فلم يكترث بالأنباء المتعلقة بليبادكين وأخته أى اكتراث ولم ينتبه اليها أى انتباه .

والآن وقد وصفت الوضع المضطرب المشوش الذى تخبطنا فيه خلال ذلك الاسبوع ، حين كنا لا نعرف بعدُ شيئاً ، استأنف سرد قصتى عالماً بحقائقها ، فأعرض الاحداث كما تبدو لنا اليوم ، بعد أن اتضح كل شيء ، وبعد أن عرفنا أخيرا بواطن الامور . سأبدأ باليوم الثامن الذى تلا ذلك الأحد المحتوم ، أى بمساء يوم الاثنين ، لأن ذلك المساء هو في الواقع بداية « القصة الجديدة » .

٣

هى الساعة السابعة من المساء • ان نيقولاى فسيفولودوفتش معتزل فى حجرة مكتبه ، الحجرة الأثيرة عنده • هى حجرة عالية السقف ، تغطى أرضَها سجادة ، ويزينها أثاث ثقيل قليلاً ، قديم الطراز • انه جالس على ديوان ، مرتدٍ ثيابه كأنما ليخرج ، ولكن لا شىء فى وضعه يدل على أن فى نيته أن يغادر الغرفة • وعلى المائدة الموجودة أمامه ، مصباحٌ يتوجه طربوش يُسقط النور الى تحت• أما أركان الغرفة الواسعة وجدرانها فهى غارقة فى الظل • كانت نظرة الشاب مركزة مهمومة • وكان وجهه الذى نحل قليلاً ينم عن تعب • وكانت خده متورمة بالفعل ، لكن الناس قد بالغوا حين زعموا أن شاتوف كسر له أحد أسنانه : ان السن لم تزد على أن تخلعت قليلاً ، ثم ثبتت وعادت اليها صلابتها • وكذلك الشفة العليا التى شقتها لكمة قبضة اليد ، فقد كانت تبدو ملتئمة التئاما كاملاً • أما التورم المتقرح فقد استمر أسبوعا كاملا ، لأن المريض رفض أن يعوده الطبيب الذى كان يمكن أن يفصد القرحة ، وآثر أن ينتظر انفتاحها من تلقاء ذاتها • وكان لا يكاد يقبل أن تزوره أمه مرةً فى اليوم الا بكثير من العناد، على شرط أن لا تطول زيارتها أكثر من بضع دقائق ، عند هبوط المساء قبل اشعال المصباح • ورفض أيضا أن يستقبل بطرس ستيفانوفتش الذى جاء مع ذلك الى فرفارا بتروفنا مرتين أو ثلاث مرات قبل سفره الى الريف• وحين عاد بطرس ستيفانوفتش من سفرته قام بزيارات كثيرة ، وتمشى عند جوليا ميخائيلوفنا ، وذهب فى المساء الى فرفارا بتروفنا التى كانت تنتظره نافذة الصبر : لقد رُفع الحظر أخيراً ، وأصبح نيقولاى فسيفولودوفتش يستقبل الزائرين •

تولت فرفارا بتروفنا بنفسها اصطحاب الزائر الى باب حجرة مكتب ابنها . لقد كانت تحرص على لقائهما حرصا شديدا ، واستقطعت بطرس ستيفانوفتش عهدا على نفسه أن يمرَّ بها حين خروجه من عند نيقولاى فسيفولودوفتش ليقصَّ عليها ما جرى بينهما . نقرت الباب فى خجل ووجل ، واذ لم تسمع جوابا سمحت لنفسها بأن تشق الباب شقاً خفيفا ، وقالت تسأل ابنها بصوت خافت وهى تحاول أن تتبين تعبير وجهه وراء المصباح :

ـ نيقولاى ، هل يمكننى أن أُدخل عليك بطرس ستيفانوفتش ؟

فهتف بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلا فى مرح :

ـ طبعا ، طبعا ...

وفتح الباب ودخل .

ان النقرات الخفيفة على الباب لم تكن قد لفتت انتباه نيقولاى فسيفولودوفتش . وهو لم يسمع الا السؤال الذى ألقته عليه أمه فرفارا بتروفنا . ولكن بطرس ستيفانوفتش دخل قبل أن يتاح لصاحبنا نيقولاى أن يجيب عن ذلك السؤال . وكان فى تلك اللحظة يمسك رسالةً أنهى قراءتها منذ هنيهة ، فأغرقته فى تأملات عميقة . فلما سمع كلمات بطرس ستيفانوفتش ارتعش ، وأسرع يخبىء الرسالة تحت مكبس أوراق ، ولكنه لم يفلح فى اخفائها تماما ، فان طرفا من الرسالة ظل ظاهرا مرئيا مع ظرفها .

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول مسرعا بسذاجة مدهشة :

ـ لقد تعمدت أن أصرخ بصوت عالٍ هذا العلو كله لأهب لك فرصة الاستعداد والتهيؤ .

وهرع نحو المائدة ونظر فى طرف الرسالة بانتباه .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش بهدوء دون أن يتحرك من مكانه :

ـ وقد اتسع وقتك طبعا لأن ترى أننى أخفيت رسالة تحت مكبس الأوراق •

فصاح الزائر يقول :

ـ رسالة ؟ ما شأنى أنا بالرسالة ؟

ثم أضاف يقول خافضا صوته ملتفتا نحو الباب الذى كانت فـــرفارا بتروفنا قد أغلقته :

ـ ولكن ••• ولكن الشىء الرئيسى •••

فقاطعه نيقولاى فسيفولودوفتش يقول له مطمئنا فى برود :

ـ انها لا تتنصت وراء الأبواب أبدا •

ـ هبها تتصنت ••• ليس لى أى اعتراض على هذا •••

كذلك أسرع يجيب بطرس ستيفانوفتش فى مرح ، وهو يجلس على مقعد • ثم أضاف يقول :

على اننى هـُرعت اليك فى هذه المرة لأكلمك على انفراد ••• أخيرا أراك ! ولكن قل لى قبل كل شىء : كيف حالك الآن ؟ حسنة جدا فيما أرى • ولعلك تخرج غدا ، هه ؟

ـ ربما •

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مضحكة وهو يحرك يديه

ـ هدّئهم أخيرا وخلصنى ! ليتك تعرف كل ما اضطررت أن أقوله لهم ! على أنك تعرف •••

وانفجر ضاحكا •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش :

ـ لا ، لا أعرف شيئا كثـــيرا • لكنني علمت من أمي أنك سعيت وتحركت كثيرا •••

فأجاب بطرس ستيفانوفتش محتجا بقوة كأنما ليدفع عن نفسه اتهاما رهيبا :

ـ لا ، أنا لم أذكر أي شيء معيّن واضح • لقد تكلمت عن امرأة شاتوف ، أعني عن الشائعات التي راجت عن علاقاتكما بباريس ، وذلك أمر يمكن أن يفسر الحادث الذي وقع يوم الاحد ••• ألست غاضبا ؟

ـ أنا واثق بأنك أرهقت نفسك •

ـ ذلك ما كنت أخشاه • ولكن ماذا تعني هذه الجملة : « أرهقت نفسك كثيرا » ؟ هذا لوم وتقريع • على كل حال فأنت تمضي الى الموضوع رأساً • ان ما كنت أخشاه وأنا آتٍ الى هنــــا ، هو أن ترفض المضي الى الموضوع مباشرة •

أجاب نيقولاى فسيفولودوفتش بشيء من السخط :

ـ لا يخطر ببالي قط أن أمضي الى الموضوع رأساً •

ولكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة خفيفة •

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يهز ذراعيه :

ـ لست أقصد هذا ، لست أقصد هذا البتة • لا يخطىء ظنك !

وكان يتكلم بسرعة ما تنفك تزداد ويبدو كأنه سعيد جدا بحنـــق محدّثه ؛ وتابع كلامه :

ـ لن أضايقك بقضيتنا « نحن » ، خاصةً في ظرفك الراهن • وانما أنا هُرعت اليك لأكلمك عن حادث يوم الاحد ، وبالقدر الضروري فقط، ذلك أنه يستحيل ترك الأمور على هذه الحال • لقد جئت لأقدم اليـــك

ايضاحات صريحة . لست أنت المحتاج الى هذه الايضاحات بل أنا المحتاج اليها . أقول هذا ارضاء لك ، ولكنه هو الحقيقة على كل حال . لقد جئت لأكون بعد اليوم صادقا معك كل الصدق ، صريحا كل الصراحة .

- هل يعني هذا أنك لم تكن صريحا من قبل ؟

- تعرف ذلك أنت نفسك . كم مرة مكرت بك ! ... لكنني أراك تبتسم ، وهذا يسعدني كثيرا ، لأنه يتيح لي ذريعة للايضاح . لقد تعمدت أن أستعمل كلمة « المكر » لأغضبك : كيف أبحت لنفسي أن أظن أن في امكاني أن أمكر معك ! ان هذا يهب لي على الفور امكان تقديم ايضاح . انظر كم أصبحت صادقا ! هل تريد أن تصغي الي ؟

رغم ما كان واضحا من أن الزائر يريد اثارة حنق ستافروجين بوقاحته وبسذاجاته المصنوعة المهيأة المحضرة ، فان وجه نيقولاي فسيفولودوفتش ظل هادئا هدوء الاحتقار والازدراء بل والسخرية . ولكنه حين سمع الكلمات الاخيرة من أقوال بطرس ستيفانوفتش ظهر عليه شيء من حب الاطلاع بل وشيء من القلق .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك مزيدا من التحرك :

- اصغ اذن الي . حين وصلت الى هنا ، أقصد حين وصلت الى هذه المدينة ، منذ نحو عشرة أيام ، كنت قد عزمت أمري طبعا على أن أمثل دور شخصية ما . ولعله كان من الأفضل أن لا أمثل أي دور ، وأن أكون أنا نفسي ، ألا ترى هذا الرأي ؟ لا شيء يساوي وجهك الخاص لأن أحداً لا يصدقه . اعترف لك بأنني كنت أنوي أن أمثل دور الأهبل ، لأن تمثيل دور الأهبل أسهل على المرء من اظهار وجهه الخاص . ولكن لما كان الهبل مبالغة سرعان ما تثير حب الاطلاع ، فقد قررت أخيرا أن أظهر بوجهي الخاص . فماذا أنا على وجه الاجمال ؟ أنا شخص عادي

لست بالغبي ولا بالذكي ، ولا أملك موهبة من المواهب ، أي رجل من القمر كما يقول عقلاء الناس هنا ، أليس هذا صحيحا ؟

أجاب ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ربما !

ـ آ ... هأنت ذا توافقني على رأيي ! انني سعيد بذلك سعادة عظيمة . كنت أعلم سلفاً أنك تفكر هذا التفكير وترى هذا الرأي ... لا تقلق ، لا تقلق ، لست زعلان . ولئن قلت هذا الكلام في حق نفسي ، فانني لم أفعل ذلك لأحملك على الانكار والاحتجاج ولتقول لي : « بل أنت رجل ذو موهبة ، وأنت رجل ذكي » . آ ... هأنت ذا تبتسم من جديد ! ... هأنا ذا أُضبط مرةً أخرى ! ... انك لم يخطر ببالك أن تقول لي « بل أنت ذكي » . انني أقبل هذا ، أقبله . « دعنا » (بالفرنسية) ، على حد تعبير أبي . واني لأضيف الى هذا مستطرداً بين قوسين : « لا يسوءنْك هذري . وفي هذه المناسبة ، اليك مثالاً ممتازا : انني أُكثر من الكلام دائما ، ورغم اكثاري هذا لا أصل الى قول ما أريد قوله . ولماذا استعمل كلمات كثيرة ثم لا أصل الى أهدافي ؟ لأنني لا أجيد الكلام . ان الذين يجيدون الكلام يتكلمون بايجاز . ذلك يبرهن على انني لست بذي موهبة، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن لما كان فقدان الموهبة عندي هبةً طبيعية فلماذا يكون عليَّ أن لا أستعملها ؟ ان الأفضل أن أستعملها . وذلك بعينه هو ما أفعله . صحيح انني اذ وصلت الى هنا كنت قد قررت في أول الامر أن أصمت . ولكن الصمت يحتاج الى موهبة كبيرة . فذلك اذن لا يناسبني . ثم ان الصمت خطر على كل حال . لهذا قررت أن الأفضل أن أتكلم ، ولكن أن أتكلم بحماقة ، أي أن أتكلم كثيرا ، كثيرا ، وأن أُراكمَ جميع أدلتي وبراهيني وحججي بأقصى سرعة ممكنة فاذا أنا في آخر الامر أخلط الحابل بالنابل بغية أن يتركني محدثي دون أن يصغي

الى النهاية ، رافعا منكبيه من الحيرة ، أو حتى باصقا على الارض من الغضب . وهكذا تكون أولاً قد توصلت الى اقناعه بصدقك ، وتكون ثانيا قد أمللته منك ، وتكون ثالثا قد أعجزته عن فهمك . جميع المزايا فى آن واحد . فمن ذا الذى يستطيع بعد هذا أن يظن فيك اخفاء أهداف سرية وأغراض خبيثة ؟ لسوف يشعر كل انسان بأنه أُهين شخصيا اذا قيل له ان لى نيات خفية ومرامى مستسرة . زد على ذلك اننى أضحكهم من حين الى حين ،وذلك أمر له قيمة ثمينة . فاذا لاحظوا بذلك أن الرجل الخطر الذى كان يصدر فى الخارج لا أدرى أىّ نشرات ثورية ، هو أغبى منهم ، غفروا له كل شىء ، لهذا السبب وحده . أليس ذلك صحيحا ؟ أقدّر من ابتسامتك أنك توافقنى على رأيى .

ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش لم يكن يبتسم البتة ، بل كان على نقيض ذلك متجهم الوجه لا يخلو من تململ ونفاد صبر .

ـ هيه ؟ ماذا ؟ أتقول « هذا لا يهم » !

كذلك استأنف بطرس ستيفانوفتش سائلاً بحرارة ، مع أن نيقولاى فسيفولودوفتش لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة . وتابع بطرس ستيفانوفتش يقول :

ـ أؤكد لك ، نعم أؤكد لك أننى لا أقول هذا كله بغية تعريضك للاساءة الى سمعتك بمصاحبتى . ولكن هل تعلم أنك اليوم شديد الاهتياج الى حد رهيب ؟ ما كان أغبانى حين هرعت اليك سعيد النفس مفتوح القلب! ثم اذا أنت تشتبه فى كل كلمة من كلماتى . أؤكد لك أننى لن ألامس اليوم أى موضوع حساس حرج . لك علىّ عهد الشرف أن لا أفعل ، واننى أذعن سلفا لجميع شروطك .

ظل نيقولاى فسيفولودوفتش ملتزما الصمت فى عناد .

ـ هيه ؟ ماذا ؟ هل قلتَ شيئا ؟ أرى اننى ارتكبت غلطة من جديد : انك لم تفرض عليَّ أيَّ شرط . أصدِّقك ! اطمئن بالاً أنا نفسى أعرف أنه لا حاجة الى فرض شروط . أليس كذلك ؟ هأنت ذا ترى اننى أجيب عن كل أسئلتى نيابةً عنك . وأنا أتصرف هذا التصرف لأننى غير ذى موهبة طبعا . ان الموهبة تعوزنى تماما ... أتضحك ؟ كيف ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش أخيرا وهو يبتسم :

ـ لا قيمة لهذا ! لقد تذكرت اننى وصفتك فعلاً فى ذات يوم بأنك غير ذى موهبة . لكن ذلك كان فى غيابك . أنقلوا اليك اذن هذا الكلام ؟ ... أرجوك أن تنتقل الى الموضوع بأقصى سرعة .

ـ ولكننى فى قلب الموضوع . اننى أتكلم عما حدث يوم الاحد ...

هكذا استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه بمزيد من النشاط . وتابع كلامه فقال :

ـ كيف كان تصرفى يوم الاحد فى رأيك ؟ لا شك أنه كان تصرف شخص رجل غبى عاجز ، وذلك ما أتاح لى أن أستولى على الحديث . لكنهم غفروا لى كل شىء ، أولاً لأننى هابط من القمر ، فهذا شىء يجمع الناس عليه هنا فيما أعتقد . وثانيا لأننى رويت قصة صغيرة جميلة ، فأخرجتكم جميعا من الارتباك والحرج . أليس هذا ما حدث ؟

ـ نعم ، لكنك رويتها على نحو يدع لبعض الشكوك أن تبقى ، ويوهم بأن ثمة اتفاقا وتواطؤا بيننا ، مع أنه لم يكن بيننا أى اتفاق أو تواطؤ ، وأننى لم أكلفك بأن تتدخل أبدا .

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول مفتتنا كل الافتتان :

ـ تماماً ، تماماً . لقد تصرفت على نحو يمكّنكم من أن تروا جميع الخيوط . ومن أجلك أنت خاصة انما أخذت أمثّل ، لأننى أردت أن

أضبطك وأن أربكك . وأردت على وجه الخصوص ن أدرك مدى ما كان يعتمل فى نفسك من خوف .

ـ وددت لو أعرف أسباب صراحتك الآن !

ـ لا تغضب ، لا تغضب ، لا تنظر الىَّ بعينين ساطعتين (على أنهما لا تسطعان) ! تود لو تعرف لماذا أصبحت صريحا هذه الصراحة كلها ؟ ألا فاعلم اذن اننى انما أصبحت كذلك لأن كل شىء قد تغير الآن ، فالماضى قد انتهى ، الماضى قد دُفن . اننى غيَّرت رأيى فيك فجأة . قطعت الصلة بمناهجى القديمة . لن أعرِّضك للارتباك بعد اليوم بطرائقى القديمة . اننى أسير فى طريق جديدة .

ـ هل غيرت أسلوبك ؟

ـ ليس الامر أمر أسلوب . أنت الآن حر فى أن تتصرف التصرف الذى يروق لك ، أن تقول « نعم » أو أن تقول «لا» . ذلك هو أسلوبى الجديد . أما « قضيتنا » ، فاننى لن أتكلم عنها الا حين تأمرنى بذلك . أتضحك ؟ على رسْلك ! أنا أيضاً أضحك . لكننى أتكلم الآن جاداً ، جادا ، جادا ، وان يكن الرجل الذى يتسرع يوصف دائما بأنه خال من كل موهبة ! ولكن ليس يعنينى أن أكون ذا موهبة أو أن لا أكون ذا موهبة . اننى أتكلم جاداً ، جاداً كل الجد .

ولقد كان يتكلم جادا بالفعل ، كان يتكلم بلهجة مختلفة كل الاختلاف ، وكان يبدو فريسةً لانفعال غريب عجيب ، حتى ان نيقولاى فسيفولودوفتش ألقى عليه نظرة فيها كثير من الاستطلاع والدهشة .

ـ تقول انك غيَّرت رأيك فىَّ ؟

ـ نعم لقد تغيرت آرائى لحظةَ عقدتَ يديك وراء ظهرك بعد صفعة شاتوف . ولكن كفى كفى ، أرجوك . لا تسألنى ، فلن أقول شيئاً .

ونهض وهو يحرّك ذراعيه كأنما ليدفع عنه أسئلة محدّثه ، ولكن لما يُلق عليه محدّثه أي سؤال ، ولما كان بطرس ستيفانوفتش لا يريد الانصراف بعد ، فقد عاد يتهالك على مقعده هادئا بعض الهدوء .

وسرعان ما عاد يتكلم فقال :

ـ بالمناسبة : يزعم بعضهم أنك سوف تقتله . حتى لقد قامت مراهنات حول هذا الموضوع . فخطر ببال السيدة لمبكه أن تبلغ الشرطة للتدخل في الامر ، غير أن جوليا ميخائيلوفنا منعتها من ذلك ... ولكن كفى ، كفى كلاما عن هذا ! ... ان ما قلتُه الآن ليس الا من باب المعلومات . هناك في هذه المناسبة شيء آخر : لقد رحّلت ليبادكين وأخته في ذلك اليوم نفسه . هل تعلم ذلك ؟ هل تلقيت رسالتي مع عنوانها الجديد ؟

ـ نعم .

ـ وذلك شيء لم أفعله الا من باب « الحماقة » . غير انني فعلته لأمرك ، أقول هذا صادقاً كل الصدق . فلئن ارتكبت حماقة ، لقد كانت نيتي مخلصة صادقة .

قال نيقولاي فسيفولودوفتش شارد الذهن :

ـ لعل ذلك كان ضروريا ... ولكن لا تبعث اليّ بعد الآن رسائل ، أرجوك .

ـ كان يستحيل أن لا أفعل ما فعلت . وهذه آخر مرة .

ـ هل ليبوتين على علمٍ بالأمر اذن ؟

ـ كان لا بد أن أطلعه. ولكنك تعلم أنت نفسك حق العلم أن ليبوتين لا يجرؤ ... بالمناسبة : يجب أن نذهب الى « جماعتنا » ، أقصد «اليهم» لا الى «جماعتنا» ، فلو قلتُ الى «جماعتنا» لعدت تشاكسني وتناكدني . ولكن اطمئن بالاً . لا اليوم . بل فيما بعد . في يوم من الايام . السماء

تمطر الآن . سوف أنبئهم ، فيجتمعون فنمضي نراهم في ذات مساء . انهم هناك ينتظروننا فاتحين مناقيرهم كأفراخ غربان في أعشاشها ، ليروا ما عسى نجيئهم به أو نحمله اليهم من عجائب المفاجآت . ما أشد حماستهم ! انهم يهيئون كتبهم ، ويستعدون للمناقشة . ان فرجنسكي من أشياع المذهب الانساني . وان ليبوتين من أنصار فوريبه مع ميـــــل قوي الى الاساليب البوليسية . يجب أن أقول انه رجل ثمين من بعض النواحي ، ولكن يجب أن يراقب . ثم هنالك الرجل الطويل الأذنين : ان هذا يُعدُّ نفسه لأن يشرح لنا مذهبه الخاص . وهم متضايقون من انني أعاملهم معاملة طلقـة بغير تحرج ، وأنني أصب على حماستهم ماءً باردا . هيء هيء ! ولـــكن سيكون علينا أن نذهب اليهم قطعا .

قال نيقولاي فسيفولودوفتش باهمال وقلة اكتراث :

ـ لا شك أنك حدثتهم عني حديثك عن زعيم !

فألقى عليه بطرس ستيفانوفتش نظرة سريعة ، ثم قال متظاهرا بأنه لم يسمع السؤال ، منتقلاً الى موضوع آخر على الفور :

ـ بالمناسبة ، لعلك تعلم انني ذهبت ألقى فرفارا بتروفنا مرتين أو ثلاث مرات ، وانني اضطررت أن أحكي لها أمورا كثيرة .

ـ أتخيل هذا .

ـ لا ، لا تتخيل شيئا . كل ما قلته هو أنك لن تقتل شاتوف ، وقلت لها أشياء أخرى من هذا النوع . ولكن هل تتصور أنها منذ الغداة كانت تعلم أنني أسكنت ماريا تيموفيئفنا وراء النهر . ألأنت الذي ذكرت لهـا هذا ؟

ـ لم يخطر ببالي أن أفعل .

ـ قدَّرت ذلك . ولكن من عساه قال لها هذا الامر ؟

ـ ليبوتين طبعا .

ـ لا ، ليس ليبوتين .

كذلك دمدم يقول بطرس ستيفانوفتش وقد ظهرت في وجهه علائم انشغال الفكر على حين فجأة . وتابع يقول :

ـ ولكنني سأعرف من الذي قال لها ذلك . لعله شاتوف ! ... على كل حال ، دعنا من هذه السخافات ... ولكن الامر خطير الى أبعد حدود الخطورة مع ذلك ! ... بالمناسبة : كنت أنتظر طول الوقت أن تلقى عليك أمك السؤال الرئيسي فجأة ... نعم !... لقد كانت تبدو في جميع هذه الأيام الأخيرة مهمومة البال مظلمة الوجه ، فماذا وجدت حين وصلت اليها اليوم ؟ رأيتها مشرقة المحيا منبسطة الأسارير . ما معنى هذا ؟

ـ مرد ذلك الى انني وعدتها اليوم بأن أخطب ليزافتا نيقولايفنا في بعد خمسة أيام .

هذا ما أفلت من لسان نيقولاى فسيفولودوفتش بصراحة لم تكن متوقعة .

تمتم بطرس ستيفانوفتش يقول متلعثما كالمرتبك :

ـ آ ... نعم ... في هذه الحالة ... حتما .. هل تعلم أن الناس يتحدثون اليوم عن خطوبتها ؟ ولكنك على حق . لسوف تترك الآخر عند أول نداء منك ، حتى ولو كانت في تلك اللحظة بالكنيسة أمام الكاهن الذي يعقد قرانها على الآخر . ألستَ مستاءً منى لأنني أقول هذا الكلام ؟

ـ لا .

ـ ألاحظ ان اغضابك اليوم أمر صعب جدا ؛ لقد بدأت أخاف منك. لشد ما يشوقني أن أعرف ما هو الوضع الذي ستتخذه غدا حين تظهر .

لا بد أنك هيأت منذ الآن حيلاً كثيرة . هل تزعل من كلامى بهـــذه الطريقة ؟

لم يجب نيقولاى فسيفولودوفتش ، فكان من شأن ذلك أن رفع حنق بطرس ستيفانوفتش الى ذروته . قال :

ـ بالمناسبة : هل جدٌّ ما قلته لأمك فى موضوع ليزافتا نيقولايفنا ؟

فحدّق اليه نيقولاى فسيفولودوفتش بنظرة باردة .

ـ آ ... فهمت . أنت لم تقل لها ذلك الا لتهدئها .

ـ فماذا لو كان ما قلته جداً لا هزلاً ؟

كذلك سأله نيقولاى فسيفولودوفتش بلهجة قاطعة .

قال بطرس :

ـ طيب . سأقول لك : كان الله فى عونك ، على حد التعبير الشائع . ان هذا لن يلحق ضررا بالقضية (هأنت ذا ترى أننى لا أقول «بقضيتنا» ، فأنت لا تحب هذا الضـــمير «نا») .. أما أنا .. فاننى .. فاننى .. فى خدمتك .. تحت أمرك .. كما تعلم ...

ـ أتظن ؟

ـ لا أظن شيئا ، لا أظن شيئا على الاطلاق ...

كذلك أسرع يقول بطرس ســـتيفانوفتش ضاحكا . وتابع كلامه يقول :

ـ لأننى أعلم أنك تتنبأ بجميع تفاصيل شئونك الشخصية ، وأن كل شىء عندك معيَّن محـدَّد . لكننى أريد أن أقول لك اننى تحت أمرك ، صادقا مخلصا ، فى كل وقت وفى كل مكان ، وفى جميـــع الظـــروف والمناسبات ، نعم ، جميع الظروف والمناسبات ، هل تفهم ؟

تثاءب نيقولاى فسيفولودوفتش .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض بغتةً :

ـ ضجرت منى .

وتناول قبعته المدوَّرة ، الجديدة كل الجدة ، كأنما لينصرف . لكنه لم ينصرف وظل يتكلم بغير توقف . وكان من حين الى حين يمشى فى الغرفة بضع خطوات ، لاطماً ركبته بقبعته .

وهتف يقول مرحاً :

ـ كنت أنوى أيضا أن أروى لك بعض النوادر المضحكة عن أسرة لبكه .

ـ لا ، أرجىء هذا الى مرة أخرى . ولكن بالمناسبة : كيف صحة جوليا ميخائيلوفنا ؟

ـ ما أغرب العادات الاجتماعية الراقية ؟ فيم تهمك صحة جوليا ميخائيلوفنا ؟ وهأنت ذا مع ذلك تسأل عنها . يعجبنى هذا . ان صحتها حسنة ؛ وهى تحمل لك احتراما يمضى الى حد الايمان بالخرافات . انها تنتظر منك أمورا عظيمة جليلة ! أما عمَّا حدث يوم الاحد ، فهى لا تقول كلمةً واحدة ، لاقتناعها بأنه يكفيك أن تظهر للناس حتى تنتصر على جميع أعدائك . يمينا انها لتتخيل قدرتك غير ذات حدود . ثم ان شخصيتك أصبحت الآن أكثر ايغالاً فى السر وأقرب الى عالم الخيال والروايات مما كانت فى الماضى أيضا . ظرف ملائم جدا . جميع الناس ينتظرون ظهورك وقد نفد صبرهم الى حد الجنون . كانت أذهانهم ملتهبة متأججة حين تركتُهم . وهى الآن أكثر التهابا وتأججا . بالمناسبة : شكرا على الرسالة ، مرةً أخرى . انهم جميعا يرهبون الكونت ك ... رهبة فظيعة . هل تعلم

أنهم ينظرون اليك ، فيما أظن ، نظرتهم الى جاسوس ؟ وأنا أشجعهم على هذا الظن • هل يسوءك هذا منى ؟

ـ لا •

ـ هذا هام جدا للمستقبل • ان لهم هنا أفكارهم• وأنا أشجعهم عليها طبعا • في طليعتهم جوليا ميخائيلوفنا • ثم جاجانوف ••• أتضحك ؟ ان لى خطتي وأسلوبى ، ان الى « تكتيكى » : أتكلم ، وأتكلم ، ثم أقذف بفكرة ذكية فجأة ، في اللحظة التي يتوقعونها جميعا • فيحتشدون حولى ، وأستأنف ثرثرتي وهذرى • لذلك لا يكرهنى أحد الآن • هم يقولون : « هذا شاب موهوب ، لكنه هابط من القمر » • لبكه يقترح علىّ أن أتوظف ، ليصلح حالى • ليتك تعلم كيف أعامله ! انني أعرّضه للمشاكل فيُشده شدهاً شديدا حتى ليصعق صعقا • أما جوليا ميخائيلوفنا فانها تشجعنى • بالمناسبة : جاجانوف حاقد عليك جدا • أمس ، في دوخوفو ، قال لى عنك كلاما سيئا جدا • فشرحت له الحقيقة كلها فورا ، أقصد : جزءا من الحقيقة طبعا • قضيت عنده يوما كاملا • أطيان رائعة ، منزل جميل !

ـ كيف ؟ أما يزال اذن في دوخوفو ؟

كذلك سأل نيقولاى فسيفولودوفتش وهو ينتصب على ديوانه فجأة بحركة قوية •

أجاب بطرس ستيفانوفتش باهمال ، متظاهرا بأنه لم يلاحظ الانفعال المفاجىء الذى اعترى ستافروجين :

ـ لا ، عاد بى هذا الصباح • رجعنا معا • هه • أسقطت كتابا •

وانحنى على الارض ليتناول الكتاب • وأردف :

ـ كتاب « النساء » ، تأليف بالزاك ، مع صور •

وفتح الكتاب قائلا :

ـ لم أقرأ هذا الكتاب • ان لبكه يكتب روايات أيضا •

سأله نيقوى فسيفولودوفتش كأن الامر يهمه :

ـ حقا ؟

ـ بالروسية ؛ وخفية طبعا • ثم ان جوليا ميخائيلوفنا تعرف ذلك وتسمح له به • يا للرجل العاجز ! غير أن له مظهرا قويا : انها عادة السلطة • ما أشد حرص هؤلاء الناس على مهابة التقاليد • ما أقوى تقيدهم بالقواعد ومراعاتهم للأشكال ! ذلك ما ينقصنا نحن •

ـ أتتغنى بمدح رجال الحكم ؟

ـ هذا هو الشيء الوحيد المتقن في روسيا •

وأسرع يهتف :

ـ لكنني لن أضيف كلمة أخرى ، لن أضيف كلمة أخرى ، لن أقول كلمة واحدة في هذه الامور الحرجة الشائكة ! ••• وأنا منصرف على كل حال • ما هذا التجهم في هيئتك ؟

ـ بي حمى •

ـ ظاهر هذا عليك • يجب أن ترقد • بالمناسبة : يوجد في المقاطعة أناس من « ملة الخصيان » * ان أمرهم لعجيب جداً• سوف أحدثك عنهم فيما بعد • ولكن هناك حكاية أخرى صغيرة • غير بعيد من هنا ، يوجد لواء مدفعية • ويوم الجمعة ، في ب ••• ، سكرنا مع الضباط ، ان بينهم ثلاثة من أصدقائنا ، هل تفهم ؟ تكلمنا في الالحاد ، فأجهزنا على الله طبعاً• بالمناسبة : يؤكد شاتوف أننا اذا أردنا أن تقوم ثورة في روسيا ، فيجب أن نبدأ حتما بالالحاد • ربما كان هذا صحيحا • كان هناك كابتن أشيب الشعر ، جندي قديم عجوز ، لم يكن يقول شيئا • فها هو ذا ينهض فجاة ،

ويقف في وسط الغرفة كممود ، ويأخذ يقول كمن يخاطب نفسه : « اذا كان الله غير موجود ، فما معنى رتبة الكابتن التى أحملها ؟ » • وها هو ذا بعد ذلك ياخذ قبعته ، ويرفع منكبيه متحيرا ، ويخرج •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يتثاءب للمرة الثالثة :

ـ لقد عبَّر بذلك عن فكرة صحيحة •

ـ حقا ؟ انني لم أفهم وقد أردت أن أسألك • ماذا أحكى لك أيضا ؟ آ ••• نعم ••• ان مصنع آل شبيجولين هام جدا • ان فيه كما تعلم خمسمائة عامل • هو بؤرة كوليرا • انه لم ينظف منذ خمسة عشر عاما ؛ وان أصحابه ، وهم من ذوى الملايين ، يسرقون من أجور العمال • أؤكد لك أن بعض هؤلاء العمال عندهم فكرة عن « الأممية » * • لماذا تبتسم ؟ سوف ترى • أمهلني بعض الوقت فقط ، بعض الوقت • سبق أن طلبت منك مهلة • واني لأطلب منك مهلة ثانية ، وعندئذ ••• معذرةً على كل حال • هاأناذا أصمت • هاأناذا أصمت ، لا تقطّب حاجبيك • وهاأناذا أنصرف أيضا • ولكن •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو يعود أدراجه ، وتابع كلامه :

ـ نسيت الشيء الأساسي : لقد أُبلغت منذ قليل أن صندوقنا وصل من بطرسبرج •

سأله نيقولاى فسيفولودوفتش مدهوشا :

ـ صندوقنا ؟

ـ أقصد صندوقك مع أمتعتك وثيابك وسراويلك وملابسك الداخلية •

ـ هل وصل ؟

ـ نعم ، قيل لى ذلك منذ قليل •

ـ ألا يمكننا والحالة هذه •••

ـ اسأل ألكسى .

ـ اذن في الغد ، أليس كذلك ؟ ان بين أمتعتك سترة ورداء وثلاثة بنطلونات صنعها لى شارموف وفقا لطلبك . هل تتذكر ذلك ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش مبتسما :

ـ سمعت أنك تتأنق هنا وتتبع الموضة . هل صحيح أنك تريد أن تأخذ دروسا في ركوب الخيل ؟

فتقلصت شفتا بطرس ستيفانوفتش بابتسامة . ودمدم يقول بصوت متقطع مختلج :

ـ اسمع يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، لا نصطنعن هنا أوضاع شخصيات . لنتفق على هذا مرةً واحدة الى الأبد ، هه ؟ في وسعك أن تحتقرني ما شئت أن تحتقرني ما ظل ذلك يسرك ويسلّيك ، ولكن من الأفضل أن ندع هنا أدوار الشخصيات ، ولو الى حين على الأقل ، أليس كذلك ؟

أجابه نيقولاى فسيفولودوفتش بقوله :

ـ طيب . لن أفعل هذا بعد الآن .

فابتسم بطرس ستيفانوفتش ابتسامة صغيرة . ولطم ركبته بقبعته ، ومشى بضع خطوات ، واسترد هيئته المعهودة .

ـ يذهب بعضهم حتى الى اعتبارى منافسا لك على ليزافتا نيقولايفنا . فكيف تريد مني أن لا أعنى بحسن هندامي ؟

كذلك قال بطرس ضاحكا ثم أضاف يسأل :

ـ ولكن من ذا الذي يأتيك بهذه الاخبار ؟ هم ... ان الساعة قد بلغت الثامنة تماما . هيّا ! أنا ذاهب . لقد وعدت فرفارا بتروفنا بأن ألقاها. ولكنني أعدل الآن عن ذلك . وأنت ، يجب عليك أن ترقد . ستتحسن

صحتك غدا . الجو مظلم فى الخارج ، والسماء تمطر . ولكن عندى عربة . الطرقات فى الليل غير مأمونة . آ ... بالمناسبة : يحوم ههنا حول المدينة رجل يقال له فدكا ، هو سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، هرب من سيبيريا . انه أحد أقنانى القدماء . تصوَّر أن أبى احتاج يوما الى مال فباعه جنديا منذ خمس عشرة سنة . شخص نادر حقا .

سأل نيقولاى فسيفولودوفتش زائره وهو يرفع نحو عينيه :

ـ هل ... هل كلمته ؟

ـ نعم . انه لا يختبىء عنى . وهو مستعد لكل شىء ، لكل شىء ، فى سبيل المال طبعا . غير أن له اقتناعاته كذلك ، على طريقته الخاصة بطبيعة الحال ! ... آ ... نعم ... بالمناسبة : اذا كان ما قلته منذ قليل عن مشاريعك المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا جداً لا هزلاً ، فاننى أذكّرك مرةً أخرى بأننى أيضا مستعد لكل شىء فى سبيلك ، فى جميع الظروف والمناسبات ، على النحو الذى تتصوره وتريده . أنا فى خدمتك ... ماذا بك ؟ أتبحث عن عصاك ؟ آ ... لا ... تصوَّر اننى ظننت أنك تبحث عن عصاك .

لم يكن نيقولاى فسيفولودوفتش يبحث عن شىء ولا كان يقول كلمة واحدة ، لكنه قد انتصب فجأة ، وظهر فى وجهه تعبير غريب .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يشير بغير تحرج الى الرسالة والظرف اللذين كانا تحت مكبس الورق :

ـ واذا احتجت أيضا الى مساعدتى فى مسألة جاجانوف ، فأنا أنبئك بأننى أستطيع أن أرتب الأمور ؛ وفى تقديرى أنك ستستعين بى .

قال هذه الكلمات وخرج دون أن ينتظر جواب ستافروجين ، ولكنه لم يلبث أطل برأسه من الباب المشقوق وصرخ يقول متعجلاً :

ـ أقول لك هذا لأن شاتوف لم يكن من حقه كذلك أن يجـــازف بحياته يوم الاحد حين اقترب منك ، أليس كذلك ؟ أحب أن تحفظ هذا جيدا .

وغاب .

٤

لعل فرخوفنسكى كان يتخيل حين خرج أن نيقولاى فسيفولودوفتش متى خلا الى نفسه ، سيدمر كل شىء من حوله . ولعله تمنى أن يشهد نوبة الحنق المسعور هذه . لكن ظنه قد خاب : فان نيقولاى فسيفولودوفتش ظل هادئا . وقد لبث واقفا قرب المائدة دقيقة أو دقيقتين ، على وضعه نفسه لم يغيِّره ، شارد اللب ذاهل الهيئة . ثم تقلصت شفتاه بابتسامة جهمة باردة . وجلس على الديوان بهدوء ، فى ذلك المكان نفسه من ركن الغرفة وأغمض عينيه كأنه يشعر بتعب . وكانت الرسالة ما تزال تظهر من تحت مكبس الورق ، لكنه لم يقم بأية حركة لاخفائها .

ولم يلبث أن غفا .

لم تستطع فرفارا بتروفنا التى كان يرهقها القلق منذ عدة أيام ، لم تستطع أن تقاوم الرغبة فى رؤية ابنها ، فلما علمت أن بطرس ستيفانوفتش قد انصرف رغم الوعد الذى قطعه لها بأن يجىء ، قررت أن تأتى لرؤية ابنها ، رغم أن الوقت غير مناسب ، فلعله يكلمها أخيراً بوضوح وحسم . نقرت على بابه وجلى ، كما فعلت من قبل ، فلما تفز بجواب ، دخلت ، فرأت ابنها جامداً جموداً غريباً ، فاقتربت منه واجفة القلب بخطى خفيفة. ان الشىء الذى أدهشها هو أنه نام بمثل هذه السرعة بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش ، وأنه استطاع أن ينام على وضع غير مريح ، منتصب الجذع، ساكناً سكوناً تاماً ؛ ان انفاسه لا تكاد تُسمع ، وان وجهه شاحب قاس كأنه متجمِّد ، وان حاجبيه مقطبان تقطيباً خفيفاً . لقد كان فى تلك اللحظة يشبه وجهاً من الشمع لا حياة فيه حقاً .

لبثت الأم مائلة على ابنها هكذا بضع لحظات ، حابسةً أنفاسها ، ثم

اذا هي تشعر فجأة بخوف . فابتعدت سائرةً على رءوس الأصابع ، لكنها توقفت عند العتبة ، والتفتت صوبه ، ورسمت على النائم اشارة الصليب بسرعة ، وتركت الغرفة مثقلة القلب بغمٍ جديد .

ظل نيقولاى فسيفولودوفتش غارقاً في هذا الغفو أكثر من ساعة . ما من عضلة في وجهه ارتجفت ، مامن خلجة في جسمه ظهرت. وحافظ وجهه على عبوسه وقسوته . فلو بقيت فرفارا بتروفنا بضع دقائق أخرى لما استطاعت حتماً أن تحتمل هذا الشعور الساحق بأن ابنها جامد جمودَ الاغماء ، ولأيقظته حتماً .

وها هو ذا يفتح عينيه من تلقاء نفسه ، ولكنه يظل جامداً نحو عشر دقائق أخرى ، محدقاً بصره ، في عناد واصرار ، الى ركن من الغرفة كأنه يتبين فيه شيئاً غريباً ما ، مع أنه ليس في ذلك المكان أي شيء يلفت النظر .

وأخيراً انطلقت ساعة الحائط الضخمة تدق بصوتها الرفيق العميق. فلفت نيقولاى فسيفولودوفتش رأسه اليها بشيء من القلق ، ولكن الباب الذي يفضي الى الدهليز انفتح في تلك اللحظة نفسها ودخل منه رئيس الخدم ألكسى ايجورتش . كان يحمل على ذراعه اليسرى معطفاً وشالاً وقبعة ، ويمسك باليد اليمنى صينية من الفضة عليها رسالة .

قال ألكسى ايجورتش بصوت خافت وهو يضع الملابس على كرسي:

ـ الساعة هي التاسعة والنصف .

وقدَّم لمولاه رسالة غير مغلَّفة ، لا تضم الا سطرين مكتوبين بالقلم الرصاص .

فلما قرأ نيقولاى فسيفولودوفتش الرسالة ، تناول من على المائدة قلم

رصاص ، وخطّ بضع كلمات في أسفل الرسالة ووضع الرسالة على الصينية ، وقال لخادمه وهو ينهض عن ديوانه :

ـ سلّمها بعد خروجي فوراً • والآن ساعدني في ارتداء ملابسي•

واذ لاحظ أنه يرتدي سترة خفيفة من مخمل ، فكّر لحظة ، ثم أمر أن يؤتى بردنجوت من جوخ كان يرتديه ليخرج الى المدينة في المساء • حتى اذا انتهى من العناية بزينته وهندامه ، وضع على رأسه قبعته ، وأغلق بالمفتاح الباب الذي كانت قد دخلت منه أمه ، واستلّ الرسالة التي كان قد خبأها تحت مكبس الورق ، وخرج الى الدهليز صامتاً ، يتبعه ألكسي ايجورتش • وعن طريق سلّم حجري ضيق ، وصلا الى مخرج يفضي رأساً الى الحديقة وقد أُعدّ فيه مصباح ومظلة كبيرة •

قال الكسي ايجورتش محاولاً بذلك ، مرةً أخيرة ، أن يثني عزم مولاه عن القيام بالرحلة التي كان يزمع القيام بها :

ـ لقد هطلت الأمطار غزيرة حتى ليكاد يستحيل المرور في الشوارع•

ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش نشر مظلته دون أن يجيب ، ومشى في الحديقة العتيقة المظلمة كأنها كهف • وكانت الريح تصفر ، وتهز رءوس الأشجار التي كادت تعرى من أوراقها منذ ذلك الحين• والممرات الضيقة المفروشة بالرمل متزلقة لزجة •

وتبع الكسي ايجورتش مولاه ينير له الطريق ، سائراً وراءه بثلاث خطوات ، لابساً رداء الفراك ، عاري الرأس ، كما دخل عليه منذ برهة•

قال نيقولاي فسيفولودوفتش يسأل :

ـ لا يمكن أن نُرى ؟

ـ يستحيل أن يُرى من النوافذ شيء • ثم ان جميع الاحتياطات قد اتخذت •

كذلك أجاب الخادم بصوت هادىء ولهجة موزونة •

قال نيقولاى :

ـ هل نامت أمي ؟

فأجاب الخادم :

ـ اعتصمت بغرفتها في الساعة التاسعة تماماً ، على عادتها منذ بضعة أيام •

ثم أضاف يسأل مولاه متجرئاً :

ـ في أي ساعة يجب أن انتظر عودتك ؟

ـ الواحدة ، الواحدة والنصف ، الثانية في أكثر تقدير •••

ـ أمرك مطاع •

فبعد أن قطعا الحديقة كلها تقريباً بطرق متصرجة يعرفانها كلاهما معرفة جيدة ، وصلا الى السور الحجرى ، ووجدا الباب الذى يفضى الى شارع صغير مظلم ضيق ، وهو باب يظل مقفلاً بالمفتاح في جميع الأحيان، ولكن هذا المفتاح موجود الآن في يدى ألكسى ايجورتش •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش :

ـ آمل أن لا يُسمع للباب صرير •

فأجابه ألكسى ايجورتش بأنه قد زيّته أمس ، و« زيّته اليوم أيضاً » ، فهو مبتل بالزيت ابتلالاً تاماً ، فلا يمكن أن يكون له صريف• حتى اذا فتح الكسى الباب ، مدّه الى نيقولاى فسيفولودوفتش الذى أخذه منه •

ـ اذا كان مولاى ينتوى الذهاب الى مكان بعيد ، فانني أسمح لنفسي بأن ألفت نظر مولاى الى الناس هنا لا يؤمَن شرهم كثيراً ، ولاسيما أولئك

الذين يحومون في الشوارع الصغيرة النائية ، وعلى الشاطيء الآخر من النهر خاصة .

كذلك قال الخادم وقد عجز عن الامتناع عن ابداء هذه الملاحظة . انه خادم عجوز كان قد حمل نيقولاي فسيفولودوفتش على ذراعيه ، وهو انسان كثير الجد ، بل هو أميل الى الصرامة ، ولا ينفك يقرأ الكتب المقدسة .

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش قائلاً :

ـ لا تقلق يا ألكسي ايجورتش !

ـ باركك الله يا سيدي ، على شرط أن تفعل خيراً .

ـ كيف ؟

كذلك قال نيقولاي فسيفولودوفتش متوقفاً على حين فجأة بعد أن اجتاز العتبة .

فكرر ألكسي ايجورتش كلامه بصوت ثابت ، متمنياً له أن يباركه الله على شرط أن يفعل خيراً . لم يجرؤ ألكسي ايجورتش في يوم من الأيام قبل الآن أن يتمنى لمولاه أن يباركه الله ، بعبارة كهذه العبارة .

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش الباب ، ودسّ المفتاح في جيبه ، وسار متعثراً بالوحل في شارع صغير أفضى به الى شارع طويل خال مقفر لكنه مرصوف . كان ستافروجين يعرف المدينة معرفة جيدة ، غير أن شارع ابيفانيا بعيد عن منزله كثيراً ، لذلك كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وقف أخيراً أمام بوابة منزل فيليبوف ، المغلقة في تلك الساعة من الوقت . ان الطابق الأرضي غير مسكون منذ رحيل ليبادكين وأخته ، ولقد سُدّت نوافذه بألواح من خشب . غير أن المسكن الذي يقع تحت السقف ، وهو المسكن الذي يقيم فيه شاتوف ، كان مضاءً . واذ لم يكن

ثمة جرس فقد قرع نيقولاى فسيفولودوفتش البـاب بقبضـة يده عـدة قرعات ، ففتحت طاقة صغيرة أطل منها شاتوف محاولاً أن يتعرف الزائر • ولكن الظلمات كانت اكثف من أن يستطيع شاتوف رؤية شيء • فقال بعد دقيقة يسأل :

ـ أهذا أنت ؟

فأجابه الزائر غير المنتظر :

ـ نعم ، أنا !

فأغلق شاتوف الطاقة ، ونزل ، وفتح الباب •

اجتاز نيقولاى فسيفولودوفتش العتبة ، ومرّ صامتاً أمام شاتوف ، واتجه رأساً نحو الجناح الصغير الذى كان يشغله كيريلوف •

٥

كل الأبواب هنا مفتوحة على آخر مداها . حجرة المدخل والغرفتان الأوليان مظلمتان ، لكن الغـرفة الأخيرة التي يسـكنها كيريلوف ، والتي يحتسى فيها الشاى الآن ، كانت مضاءة الآن ، وكانت تخرج منها ضحكات وصيحات عجيبة . مضى نيقـولاى فسيفولودوفتش نحـو النـور ، ولكنه توقف على العتبة . كان الشاى مصبوباً في الفناجين . وفي وسـط الغرفة كانت تقف امرأة عجوز هي قريبة فيليبوف . انها حاسرة الرأس ، عارية القدمين في حذاءيها ، لا ترتدى الا تنورة وصـديرة من جلد الأرنب ، وعلى ذراعيها طفل في نحو الشهر الثامن عشر من عمره ، يلبس قميصـاً لكنه عارى الساقين . خداه حمراوان قرمزيان ، وشـعره الأشقر منفوش مشـعث فكأنه رُفع الآن من مهـده . لا بد أنه بكى كثيراً ، فان دموعـاً صغيرة ما تزال تتلألأ على أهدابه . ولكنه في هذه اللحظة يحـرّك يديه الصغيرتين ويضحك ضـحك الأطفال الصغار حتى ليـكاد يختنق من شدة الضحك . ذلك أن كيريلوف كان واقفاً أمام الطفل يرمى على أرض الغرفة كرة كبيرة حمراء ، فتنط الكرة الى السـقف ، وتعود فتسقط على الأرض ، فيصيح الطفل « بَهْ .. بَه ! » . فيلتقط كيريلوف الـ « بَه » ، ويناولها الطفل فيرميها الطفـل بيديه الصغيرتين الخـرقاوين ، فيركض كيريلوف وراءها ، ويلتقطها ، حتى اذا تسللت الكرة مرةّ تحت الخزانة ، أخذ الطفـل يصيح « بَهْ ... بَه » ، فانبطح كيريلوف على بطنه ومطّ جسمه محاولاً التقاط الكرة ؛ وعندئذ دخل نيقولاى فسيفولودوفتش الى الغرفة ، فاذا الطفل يطفق منتحباً حين رآه ، واذا هـو يلطو على صدر العجوز التى أسرعت تنصرف به .

قال كيريلوف وهو ينهض عن الأرض والكرة بيده ، دون أن يبدو عليه أى دهش لهذه الزيارة غير المتوقعة :

ـ ستافروجين ؟ هل تريد شاياً ؟•

ـ لا أرفض ، ولا سيما اذا لم يكن بارداً • اننى مبتل بالماء كل الابتلال •

قال كيريلوف بسعادة واضحة لا تخفى على الناظر :

ـ الشاى ساخن ، بل هو محرق • اجلس • لقد حملت الينا وحلاً • ولكن لا ضير • سأنظفه غداً بخرقة مبلولة •

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش • وشرب الشاى الذى صبَّه له كيريلوف ، شربه جرعةً واحدة تقريباً •

سأله كيريلوف :

ـ هل لك بمزيد ؟

ـ شكراً •

كان كيريلوف قد ظل حتى ذلك الحين واقفاً ، فجلس عندئذ أمام الزائر وسأله :

ـ ماذا جاء بك ؟

ـ جئت لشأن • اقرأ هذه الرسالة • لقد بعثها الىَّ جاجانوف • هل تتذكر ؟ لقد سبق أن حدثتك عن هذا فى بطرسبرج •

تناول كيريلوف الرسالة وقرأها ثم وضعها على المائدة ونظر الى ستافروجين نظرة استفهام •

بدأ نيقولاى فسيفولودوفتش يتكلم فقال :

ـ تعلم أننى رأيت هذا الرجل أول مرة فى بطرسبرج منذ شهر تقريباً • ثم التقينا فى المجتمع مرتين أو ثلاث مرات • ولم نتعارف ، ولم

يوجه الي كلمة واحدة في يوم من الأيام ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون وقحاً معي . ذكرتُ لك هذا في حينه . لكنك لا تعرف التتمة . فحين بارح بطرسبرج قبل بمدة قصيرة بعث الي رسالة ان كانت أقل فظاظة من هذه فانها شرسة جداً على كل حال ، وقد أدهشتني كثيراً ، لا سيما وأنني حاولت أن أعثر فيها على الأسباب التي دفعته الى كتابتها الى فلم أظفر بطائل . وسرعان ما أجبته فأكّدت له صادقاً كل الصدق أنه اذا كان الأمر أمر ذلك الحادث الذي وقع بيني وبين أبيه في النادي منذ أربع سنين ، كما افترض ذلك ، فانني مستعد لأن أقدم اليه جميع اعتذاراتي ، خاصة وأن فعلي لم يكن مقصوداً وأنني كنت في ذلك العهد مريضاً ؛ وطلبت منه أن يُدخل في حسابه هذه الظروف . ولم يجبني وسافر. ثم هأنا ذا أجده الآن هنا وقد جُنّ جنونه حقداً علي وكرهاً لي . وقد نُقل الي أنه قذفني مراراً بشتائم مقذعة على مسمع من الناس ، واتهمني بأمور لا يصدقها العقل . وأخيراً حملت الي اليوم هذه الرسالة . ما أظن أن أحداً تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة . انها رسالة ملأى بالشتائم والاهانات ، كقوله مثلاً : « يا صاحب البوز الذي لا يصلح لغير الصفع واللكم » . وقد جئت اليك آملاً أن لا ترفض أن تكون شاهدي في المبارزة التي سأطلبه اليها .

قال كيريلوف :

ـ تقول انه ما من أحد تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة ؟ أنت مخطىء . ذلك يحدث في نوبة من نوبات غضب شديد . ذلك يحدث كثيراً . ان بوشكين قد كتب الى هكرن *. طيب . سأذهب اليه. ماذا يجب أن أقول له ؟

طلب نيقولاي فسيفولودوفتش من كيريلوف أن يمضي غداً الى

جاجانوف ، فيبدأ كلامه معه بأن يكرر اعتذارات ستافروجين ، وأن يقول له ان ستافروجين مستعد حتى لأن يكتب اليه رسالة ثانية زاخرة بالاعتذارات ، ولكن على شرط أن يقطع جاجانوف على نفسه عهداً من جهته بأن لا يبعث اليه بعد الآن رسائل سب وشتم • أما الرسالة الأخيرة التي بعثها جاجانوف فتعتبر في هذه الحالة كأنها لم تكن ، وتعد ملغاة •

قال كيريلوف :

ـ هذه تنازلات كثيرة • لن يقبل •

ـ أريد أن أعرف أولاً أأنت مستعد لأن تنقل اليه هذه الشروط ؟

ـ سأنقلها اليه • هذا شأنك أنت • لكنه لن يقبل •

ـ أعرف •

ـ انه يريد أن ينتهي كل شيء غداً • هذا هو الأمر الأساسي • ستكون عنده في الساعة التاسعة • وسيصغي الى كلامك ، وسيرفض اقتراحاتك ، ولكنه سيجعلك على صلة بشاهده ، في الساعة الحادية عشرة مثلاً • فتتفق مع شاهده على أن نكون جميعاً في مكان المبارزة في نحو الساعة الواحدة أو الثانية • حاولْ ، أرجوك ، أن ترتب الأمور على النحو الذي أطلبه منك • سيكون السلاح هو المسدس (الفَرْد) طبعاً • وأنا أحرص على الشروط التالية : تكون المسافة بين الحاجزين عشر أقدام ، وتتوليان أنتما وقف كل منا على مسافة عشر أقدام من حاجزه • فاذا انطلقت الاشارة المتفق عليها ، مضى كل منا نحو الآخر ؛ وكان عليه أن يسير الى الحاجز ، ولكن يحق له أن يطلق النار قبل أن يبلغه مشياً • ذلك كل شيء فيما أظن •

قال كيريلوف :

ـ عشر أقدام بين الحاجزين ؟ هذا قليل •

ـ فلتكن المسافة بين الحاجزين اثنتي عشر قدماً ، ولكن لا أكثر . أنت تدرك أنه يريدها مبارزة جد لا هزل . هل تعرف كيف تحشو المسدسات .

ـ نعم . عندي مسدسات . وسوف أحلف يمين الشرف على أنك لم تستعملها في يوم من الأيام . وسيحلف شاهده هذه اليمين أيضاً بالنسبة الى مسدساته . سيكون هناك أربعة مسدسات ، اثنان لكل واحد . وسيُعيَّن مسدسا كل متقاتل بالقرعة .

ـ عظيم .

ـ هل تريد أن ترى مسدساتي ؟

ـ أتمنى .

جثا كيريلوف أمام حقيبته التي لم يكن قد فضَّها بعد ، وانما كان يُخرج منها ماهو في حاجة اليه ، متاعاً بعد متاع . فما هي الا برهة حتى أخرج منها علبة من خشب النخيل مزدانة في الداخل بنسيج من المخمل . كانت العلبة تضم مسدسين (فردين) ممتازين لا بد أنهما غاليا الثمن .

ـ عندي كل ما يجب : بارود ، رصاصات ، خرطوشات . ثم ان عندي كذلك مسدساً يحمل عدة رصاصات . انتظر ! وأخذ ينبش في حقيبته من جديد ، الى أن أخرج منها مسدساً أمريكياً ذا ستّ طلقات في ظرفه .

ـ عندك أسلحة كثيرة ، أسلحة غالية الثمن .

ـ نعم ، غالية الثمن جداً ، باهظة الثمن كثيراً .

كان واضحاً أن كيريلوف الفقير ، المعدم ، الذي كان لا يلاحظ فقره على كل حال ، يعتز اعتزازاً كبيراً بأسلحته الجميلة التي لا شك أنه اشتراها بتضحيات ثقيلة .

سأله ستافروجين بعد صمت قصير ، وبشيء من تردد :

ـ ألا تزال على رأيك ؟

ـ نعم .

كذلك أجاب كيريلوف وقد أدرك فوراً ، من لهجة الزائر ، ماذا كان يقصد . وجعل يرتب أسلحته .

فسأله ستافروجين بعد صمت آخر بمزيد من التردد والحذر :

ـ ومتى ؟...

كان كيريلوف قد أرجع العلبة والصندوق الى الحقيبة ، وعاد الى مكانه . فقال :

ـ ذلك لا يتعلق بي أنا كما تعلم . عندما يُطلب مني .

كذلك تمتم يقول كأن السؤال يحرجه قليلاً وكان واضحاً مع هذا أنه مستعد للاجابة عن جميع الأسئلة التي قد تتلو ذلك السؤال . وحدّق الى ستافروجين بعينيه السوداوين اللتين ليس فيهما بريق ، وكانت نظرته هادئة ، ولكنها رقيقة لطيفة بشوش .

وساد صمت طويل ، ثم استأنف ستافروجين كلامه فقال حالمَ الهيئة :

ـ انني أفهم هذا جيداً ... الانتحار ...

كان وجهه قد تجهم واكفهر ، وتابع كلامه يقول :

ـ كثيراً ما فكرت في هذا الأمر . ولكن كانت توافيني عندئذ فكرة جديدة : لو ارتكب المرء جريمة أو قل عملاً مشيناً أو دناءة حقيرة أو سفالة جبانة سخيفة ، أي شيئاً يظل الناس يذكرونه خلال قرون ويظل يثير اشمئزازهم ألف عام ... حتى اذا فرغ من ارتكاب ذلك العمل

« أطلق رصاصة على رأسه ، فزال كل شيء ولم يبق شيء » . ما قيمة أقوال البشر عندئذ وما قيمة بصقاتهم ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

ـ وأنت تسمي هذا فكرة جديدة ؟

كذلك سأله كيريلوف بعد لحظة تأمل وتفكير .

ـ أنا ... أنا لا أقول انها فكرة جديدة ، ولكنني أحسستها جديدة حين بدت لي .

ألحّ كيريلوف يسأله :

ـ « أحسست » الفكرة ؟ طيب . ما أكثر الأفكار التي وُجدت دائماً ، ثم اذا هي تبدو جديدة على حين فجأة ! ذلك صحيح . أشياء كثيرة أراها الآن كما لو كنت أراها أول مرة .

قال ستافروجين دون أن يصغي اليه ، مستمراً في شرح فكرته :

ـ لنفرض أنك عشت في القمر ، فارتكبت هنالك عملاً من تلك الأعمال الحقيرة الخسيسة المضحكة . انك وأنت تعيش الآن هنا تعلم حق العلم أن الناس سيضحكون عليك هنالك وأنهم سيلطخونك بالوحل خلال قرون ، الى الأبد ، ما بقي القمر . ولكنك على الأرض ، ومن الأرض انما تنظر الى القمر : فهل تعنيك عندئذ جميع القذارات التي اقترفتها هناك على القمر وهل يهمك أن يبصق عليك سكان القمر خلال قرون ؟ أليس ما أقوله صحيحاً ؟

أجاب كيريلوف :

ـ لا أدري .

ثم أضاف يقول دون أية نية ساخرة ، بل لاثبات واقع لا أكثر :

ـ أنا لم أعش في القمر .

ـ لمن هذا الطفل ؟

ـ لحماة العجوز ... بل أقصد لامرأة ابنها ... سيّان ! لقد وصلت أمه منذ ثلاثة أيام . وهي مريضة . في السرير . الطفل يصرخ كثيراً في الليل . آلام في البطن . أمه نائمة . جاءتني به العجوز. أخذت أرمي أمامه الكرة . انها كرة من هامبورج . اشتريتها من هامبورج لأرميها وأتلقفها : هذا يقوى الظهر . والطفل بنت لا صبي .

سأل ستافروجين :

ـ هل تحب الأطفال ؟

فأجاب كيريلوف ، ولكن بلهجة ليس فيها اكتراث كثير :

ـ نعم .

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين :

ـ فأنت اذن تحب الحياة أيضاً ؟

ـ نعم . أحب الحياة .. لماذا ؟

ـ ولكنك عازم على الانتحار .

ـ وما العلاقة بين الأمرين ؟ الحياة شيء ، والموت شيء آخر . الحياة موجودة والموت غير موجود .

ـ أأنت تؤمن اذن بالحياة الآخرة الأبدية ؟

ـ لا ، لا بالحياة الآخرة الأبدية ، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه الأرض . هناك لحظات ... ان المرء يصل الى لحظات يتوقف فيها الزمان فجأة ، فيصبح الحاضر أبدية .

ـ هل تأمل أن تتوصل الى هذه اللحظة ؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ، بدون سخرية من جهته هو أيضاً :

ـ لا أظن أن هذا ممكن في زماننا . في رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن الزمان لن يوجد بعدئذ* .

كان يتكلم ببطء ، مستغرق الفكر .

قال كيريلوف :

ـ أعلم ذلك . وهـذا صحيح . قيل بوضـوح ودقة . حين يكون الانسان بكامله قد بلغ السـعادة ، فان الزمان لن يوجـد بعدئذ ، لأنه لن يكون ضرورياً بعد ذلك .

ـ أين عساه يختفي ؟

ـ لن يختفي في أي مكان ، ليس الزمان شـيئاً له حيِّز ، بل هـو فكرة ستنطفىء .

ـ ما هذه الا أقوال فلسفية مبتذلة معادة مكرورة ، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون .

كذلك دمدم يقول ستافروجين بنوع من أسف يمازجه ازدراء .

فهتف كيريلوف يقول وقد التمعت عيناه فجأة ، كأن هـــذه الفكرة وحدها ضمانة للنصر :

ـ نعم ، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون ، ولكن لن يكون هنـاك غيرها ...

ـ انك تبدو سعيدا جدا يا كيريلوف ، هه ؟

أجاب كيريلوف ، وكأنه ينطق بكلمات عادية جدا :

ـ نعم ، سعيد جداً .

ـ لكنك كنت معتكر المزاج منذ قليل ، وكنت حانقا على ليبوتين .

ـ همْ ... الآن لست كذلك . لم أكن أعرف عندئذ أنني سعيد . هل رأيت ورقة ، ورقة شجرة ؟

ـ طبعا .

ـ رأيت ورقة شجرة في الآونة الأخيرة ، ورقة مصفرَّة ، ما يزال

فيها شيء من اخضرار ، وكانت حواشيها قد تفسخت . وكانت الريح تطردها . في العاشرة من عمري ، أثناء الشتاء ، كنت أغمض عينيّ عامدا، وأتخيل ورقة خضراء ، متألقة بعروقها الملتمعة تحت أشعة الشمس . حتى اذا فتحت عيني لم أصدق الواقع . ان ما رأيته كان جميلا جدا . وكنت أعود أغمض عينيّ ...

ـ أهذا رمز ؟

ـ لا ... لماذا ؟ ليس هذا رمزاً . انها ورقة لا أكثر . ورقة. شيء حسن . كل شيء حسن .

ـ كل شيء ؟

ـ كل شيء . الانسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد . لا لشيء غير هذا . ذلك سر الأمر كله ، كله على الاطلاق . فمن عرفه لم يلبث أن يصبح سعيدا ، على الفور . امرأة الابن ستموت . والطفلة ستعيش . كل شيء حسن . كل شيء بديع . اكتشفت هذه الحقيقة فجأة .

ـ واذا مات المرء من الجوع ، واذا أوذيت بنت صغيرة ، اذا لطخ شرفها بالعار ، فهل هذا حسن أيضا ، هل هذا بديع أيضا ؟

ـ نعم . واذا كسر أحدٌ جمجمةَ الشخص الذى ألحق أذى بالبنت الصغيرة فهذا حسن أيضا . واذا لم يكسر أحد جمجمته ، فهذا حسن كذلك . كل شيء حسن ، كل شيء بديع ، كل شيء . وهم سعداء أولئك الذين يعرفون أن كل‌شيء‌حسن بديع . فاذا عرفوا أنهم سعداء ، كانوا سعداء . لكنهم لا يكونون سعداء ما ظلوا يجهلون انهم سعداء . تلك هي الفكرة كلها ، الفكرة كاملةً ، وليس هناك فكرة غيرها .

ـ متى اكتشفت أنك سعيد ؟

ـ فى هذا الأسبوع ، يومَ الثلاثاء ، لا بل يوم الأربعاء ، لأن الوقت كان فى الهزيع الاخير من الليل •

ـ بأية مناسبة ؟

ـ لا أذكر • كنت أمشى فى الغرفة طولاً وعرضا ••• لا قيمة لهذا ••• المهم اننى وقفت ساعتى • كانت تشير الى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة •

ـ فعلت هذا اشارةً الى أن الزمان سيتوقف •

لم يجب كيريلوف •

ثم استأنف كلامه فجأة فقال :

ـ هم ليسوا طيبين لأنهم لا يعرفون أنهم طيبون • فمتى عرفوا ذلك فى المستقبل ، فسيصبحون طيبين ، ولن يغتصبوا عفاف البنت الصغيرة • يجب أن يعرفوا أنهم طيبون ، فاذا هم يصبحون طيبين على الفور ، جميعا، الى آخر واحد منهم •

ـ طيب • أنت الآن تعرف أنك طيب ، فهل أنت اذن طيب ؟

ـ نعم أنا طيب •

فدمدم ستافروجين يقول مكفهر الوجه :

ـ على هذا أوافقك •

قال كيريلوف :

ـ والذى سيعلِّم الناس أنهم جميعا طيبون أخيار ، فذلك سوف يختم تاريخ العالم •

ـ ان الذى علَّم الناس ذلك قد صُلب •

ـ سوف يجىء ، وسيكون اسمه الاله الانسان •

ـ الانسان الاله ؟

ـ بل الاله الانسان • ذلك هو الفرق كله •

ـ أتُراك أنت الذى أشعلت السراج أمام الايقونة ؟

ـ نعم ، أنا •

ـ أتؤمن الآن ؟

ـ العجوز تحب السراج ••• ولم يتسع وقتها اليوم •

كذلك دمدم كيريلوف •

ـ أنت ، ألا تصلى بعد ؟

ـ أصلّي دائما • انظر الى هذا العنكبوت الذى يتسلق الجدار ! اننى أنظر اليه فأشكر له أنه هنا •

وسقطت عيناه من جديد ، وحدّق الى ستافروجين بنظرة فيها عزة وشمم ، نظرة لا تنصاع أو تنثنى • فكان ستافروجين يتـأمله بنوع من الاشمئزاز ، ولكن دون أية سخرية •

ثم قال وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ أراهن على أنك ستكون قد آمنت بالله حين أجيئك زائرا فى مرة قادمة •

سأله كيريلوف :

ـ لمـاذا ؟

فأجاب ستافروجين وهو يضحك ساخرا :

ـ اذا كنت تعرف أنك مؤمن بالله ، فسـوف تؤمن به • ولكنك لا تؤمن الآن لأنك لمّا تعرف بعدُ أنك مؤمن •

أجاب كيريلوف بعد لحظة تفكير :

ـ ليس هذا هو الامر البتة • أنت قلبتَ فكرتى • ما كلامك هـذا الا مزاح رجل من المجتمع الراقى • تذكر ، يا ستافروجين ، المنزلة التى

لك في نفسي ، تذكَّر ماذا كنتَ لي ٠

ـ استودعك الله يا كيريلوف ٠

ـ ارجع اليَّ ليلا ٠ متى ؟

ـ أتُراك نسيت قضيتنا غدا ؟

ـ آ ٠٠٠ نعم ٠٠٠ نسيت ٠ اطمئن بالاً ، لن أتأخر عن الموعد ٠ في الساعة التاسعة ٠ انني أستطيع أن أستيقظ في الوقت الذي أشاء ٠ أنام قائلا لنفسي : سوف أستيقظ في الساعة السابعة ، فاذا أنا استيقظ في الساعة السابعة ٠ واذا قلت انني سأستيقظ في الساعة العاشرة ، استيقظت في الساعة العاشرة ٠

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافـــــــروجين وهو ينظر الى وجه كيريلوف الشاحب :

ـ تلك موهبة ثمينة جدا ٠

ـ سأفتح لك البوابة ٠

ـ لا تزعج نفسك ٠ سوف يفتحها لي شاتوف ٠

ـ آ ٠٠٠ شاتوف ٠٠٠ طيب ٠٠٠ استودعك الله ٠

٦

ان المنزل المقفر الذى يسكنه شاتوف لم يكن مغلقـــا • ولكن حين دخل ستافروجين ، وجد نفسه فى ظلام حالك ، واضطر أن يتلمس السلم الذى يفضى الى مسكن شاتوف تلمساً • وفجأة فُتح باب هذا المسكن الذى يقع تحت سطح المنزل ، فُتح على مصراعيـــه ، وأُضىء السلّم • ولكن شاتوف لم يخرج من غرفته • فلما بلغ ستافروجين الفسحة الاخيرة من فسحات السلّم رأى شاتوف واقفا فى ركن من الغرفة قربَ المـــائدة ينتظره •

فسأله وهو يقف على عتبة الباب :

ـ هل ترضى أن تستقبلنى لعمل ؟

فاجابه شاتوف :

ـ ادخل واجلس • اغلق الباب • لا بل انتظر • سأغلقه أنا •

وأقفل شاتوف الباب بالمفتاح وجلس قبالة نيقولاى فسيفولودوفتش ، وراء المائدة • كان قد نحل خلال هذا الاسبوع ، وكان يبدو أنه يعانى من حمى •

قال بصوت أجش وهو يخفض عينيه :

ـ لشد ما عذبتنى ! لماذا لم تجىء الىّ ؟

ـ أكنت واثقا هذه الثقة كلها بأننا سأجىء ؟

ـ انتظر ••• لقد أصابتنى حمى فكنت أهذى ••• ولعلنى ما زلت أهذى ••• انتظر •

ونهض ، وتناول شيئاً كان موجودا على حافة الرف الثالث من خزانة كتبه • انه مسدس •

قال :

ـ حلمت ذات ليلة أنك ستجيء تقتلني ، حتى اذا استيقظت في الغد أعطيت ذلك الوغد ليامشين آخر ما كنت أملك من قروش ، ثمنا لهـــذا المسدس • لقد أردت أن أدافع عن نفسي • وبقي المسدس على هذا الرف منذ ذلك الحين •

وفتح طاقة النافذة •

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش :

ـ لا ترمه • علام ترميه ؟ انه باهظ الثمن ، وغدا يقول الناس انهم وجدوا مسدسات تحت نوافذ شاتوف • أعده الى مكانه • نعم ، هكذا • اجلس الآن • قل لي : لماذا يبدو عليك أنك تعتذر عن أنه خطر ببالك أنني سأجيء أقتلك ؟لا يذهبن بك الظن الى أنني جئت أصالحك • ولكن قل لي أولا : أليست علاقتي بزوجتك هي التي دفعتك الى صفعي ؟

أجاب شاتوف وهو يخفض عينيه من جديد :

ـ أنت تعلم حق العلم أن السبب ليس هذا !

ـ ولا كانت الشائعات الغبيـــة التي راجت عن داريا ايفانوفنا هي السبب ؟

ـ لا ، لا ، حتما لا ••• يا لها من شائعات سخيفة ! لقد قالت لي أختي فورا •••

كذلك صاح شاتوف بلهجة جافية تدل على نفاد الصبر ، حتى لقـــد ضرب الارض بقدمه •

فتابع ستافروجين كلامه يقول بلهجة هادئة :

ـ اذن حزرتُ أنا وحزرت أنت : نعم ، ان ماريا تيموفيئفنـــا هى زوجتى الشرعية . لقد تزوجنا ببطرسبرج منذ أربع سنين . وبسببها قمت تضربنى ، أليس كذلك ؟

فدمدم شاتوف يقول أخيرا وهو يتأمل ستافروجين بهيئة غريبة :

ـ كنت قد حزرت ذلك ، ولكننى كنت لا أريد أن أصدِّق الامر .

ـ ومع هذا ضربتنى ...

احمر وجه شاتوف ، وغمغم يقول متلعثما بصوت متقطع :

ـ بسبب ... صغارك وتدنّيك ... بسبب كـــذبك . ثم اننى لم أقترب منك لأعاقبك ... حين اتجهت اليك ... ولم أكن أعـرف أننى سأضربك ... ولئن ضربتك ، فلأنك لعبت دورا كبيرا جدا فى حياتى .

ـ فهمت ، فهمت . يكفى هـــذا . من المؤسـف أن بك حمى . ان هناك أمورا هامة يجب أن أُبلغك اياها .

فهتف شاتوف وهو ينهض عن مكانه مرتعشا كل الارتعاش من نفاد الصبر :

ـ اننى انتظرك منذ مدة طويلة . قل قضيتك ... وسوف أتكلم أنا أيضا ... بعدك ...

وعاد يجلس .

بدأ نيقوى فسيفولودوفتش يتكلم فقال وهو يتوسّمه مستطلعا :

ـ هذه القضية من نوع آخر تماما . لقد اضـــطررت بسبب بعض الظروف أن أجيئك هذه الساعة لأُبلغك أن من الممكن أن تُقتل .

نظر اليه شاتوف بوحشية . ثم قال ببطء :

ـ أنا أعلم أن حياتى ربما كانت فى خطر ، ولكن كيف تستطيع أنت أن تعرف هذا ؟

ـ لأنني واحد من الجماعة ، مثلك تماما ؟ لانني عضو في جمعيتهم ، مثلك تماما .

ـ أنت ... أنت عضو في جمعيتهم ؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ أرى من عينيك أنك كنت تتوقع مني كل شيء الا هذا . ولكن اسمح لي : أأنت تعرف اذن أنهم ضاقوا بك وأنهم يعتزمون قتلك ؟

ـ لم يخطر ببالي هذا في يوم من الأيام ، لا ولا أطيق أن أصدّقه حتى في هذه اللحظة بعد أقوالك ... رغم أن المرء لا يمكن أن يكون واثقا بشيء أو متأكدا من شيء في تعامله مع هؤلاء الأغبياء ! ...

كذلك صاح شاتوف في سورة مفاجئة من غضب شديد وهو يضرب المائدة بقبضة يده . وتابع كلامه يقول :

ـ لقد قطعت الصلة بهم . وجاءني واحد منهم أربع مرات فقال ان في امكاني أن ...

لكن شاتوف أمسك عن الكلام فجأة ونظر الى ستافروجين وسأله :

ـ ولكن ما الذي تعلمه أنت على وجه الدقة ؟

استأنف ستافروجين كلامه فقال ببرود كبرود امرىء يكتفي بالقيام بواجب :

ـ اطمئن . لاتخف . انني لا أخدعك . هل تريد أن تعرف ماذا أعلم ؟ انني أعلم أنك دخلت في هذه الجمعية في الخارج منذ سنتين ، حتى قبل اعادة تنظيمها ، وذلك قبل سفرك الى أمريكا ، وبُعيد حديثنا الذي كتبت اليّ فيه من أمريكا بافاضة واسهاب ، فيما أظن . بالمناسبة : اغفر لي انني لم أجبك برسالة ، واقتصرت على ...

ـ ... ان ترسل اليّ المال . انتظر ...

قال شاتوف ذلك ، وأسرع يفتح دُرْجاً في مائدته ، فاستلّ من تحت أوراق فيه ، ورقةً نقدية بمائة روبل • وقال لستافروجين :

ـ اليك المال الذي أرسلته اليّ حينذاك • خذه • لولاك لهلكت هناك• وما كان لي أن أستطيع رده اليك الا بعد مدة طويلة لولا تدخل أمك : فمنذ تسعة أشهر ، بعد مرضي ، علمت بما أنا فيه من شقاء وعوز وبؤس ، فأهدت اليّ هذه المائة روبل • ولكن أكمل كلامك ، أرجوك •

كان شاتوف كمن يختنق •

ـ وفي أمريكا تغيرت آراؤك ، حتى اذا عدت الى سويسرا أردت أن تترك الجمعية • ولم يجيبوك ، ولكنهم كلفوك بأن تستلم في روسيا آلة طابعة وأن تحتفظ بها هنا الى أن يأتيك شخص موفد منهم فيطلب منك أخذها • لست على علم بجميع التفاصيل ، ولكنني أظن أن الامر كان كذلك على وجه الاجمال • أهذا صحيح ؟ أما أنت ، فقد قبلت هذا مؤمّلا أو مشترطا أن تكون هذه المهمة آخر مطلب لهم عندك ، وأن يدعوك بعد ذلك وشأنك • هذا كله لم أعرفه منهم هم ، وانما عرفته بمصادفة محض • هناك شيء لا أظن أنك تعرفه بعد : هو أن هؤلاء السادة لاينتوون الانفصال عنك أبدا •

أعول شاتوف يقول :

ـ مستحيل • لقد أعلنت لهم صادقا أننا مختلفون من جميع النواحي؟ وهذا حقي • هذا حق ضميري وفكري ! ••• لن أقبل ••• ما من قوة سوف تستطيع أن •••

قاطعه ستافروجين يقول بهيئة رصينة :

ـ لا تصرخ • من الممكن أن يكون فرخوفنسكي ذاك متجسسا علينا الآن في الممر بنفسه أو بموفدٍ منه • حتى ذلك السكير ليبادكين قد كلفوه

بمراقبتك كما كلفوك أنت بمراقبته ، أليس صحيحا ما أقول ؟ قل لى أولاً هل سلَّم فرخوفنسكى بأدلتك وحججك أم هو لم يسلِّم بها ؟

ـ سلَّم بها . وقال لى ان فى وسعى أن أتركهم ، فهذا من حقى ...

ـ فاعلم اذن انه يخدعك ويضللُك . انى أعلم أن كيريلوف نفسه ، وهو الذى لا يكاد يجمع بينهم وبينه أى شبه ، قد أمدَّهم بمعلومات عنك . ان لهم عملاء كثيرين . حتى ان بعض هؤلاء العملاء يجهلون أنهم يعملون للجمعية . انهم لم يكفوا عن مراقبتك فى يوم من الأيام . ولقد جاء بطرس فرخوفنسكى الى هنا بقصد البت فى أمور كثيرة منها تقرير مصيرك تقريراً حاسماً . لقد خُوِّل سلطات تامة لازالتك فى اللحظة التى يراها مناسبة ، لأنك تعرف أشياء كثيرة ، فمن الممكن أن تشى بالجمعية . أكرر لك أن هذه هى الحقيقة . واسمح لى أن أضيف أنهم مقتنعون اقتناعا مطلقاً ـ لا أدرى لماذا ـ بأنك جاسوس ، وبأنك ان لم تكن قد خنتهم حتى الآن فسوف تخونهم فى المستقبل . أليس هذا صحيحاً ؟

فحين سمع شاتوف هذا السؤال يطرحه نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بهذه اللهجة العادية ، ابتسم ابتسامة مصنوعة ، وقال غاضباً دون أن يجيب اجابة مباشرة :

ـ هبنى جاسوساً ، فلمن أشى بهم ؟

ثم صاح عائداً الى جملة من الجمل التى قالها محدِّثه فشدهته شدهاً أكبر كثيراً من شدهه النبأ القائل بأن حياته معرَّضة للخطر ، صاح يقول :

ـ ولكن دعنا من الكلام عنى أنا . فلأذهب أنا الى جهنم . وانما أريد ان أعرف : كيف أمكنك أنت ، أنت ستافروجين ، أن تحشر نفسك فى هذه الزمرة من الخدم الأغبياء الحقيرين ؟ أأنت تدخل عضواً فى جمعيتهم؟ أهذا عمل لامع يليق بنيقولاى ستافروجين ؟

كذلك هتف شاتوف وقد استولى عليه كمد شديد وحزن هائل .

حتى لقد صفق يديه احداهما بالأخـــرى ، كأنه ليس هنـاك شيء أدعى الى المرارة وأبعث على الأسف من هذا الاكتشاف .

قال ستافروجين بدهشة غير مفتعلة :

ـ معذرة . ولكن يخيل الىّ أنك تعدنى كوكباً متألقاً ما أنت بجانبه الا حشرة مسكينة . لقد سبق أن لاحظت ذلك عند قراءتى الرسالة التى بعثتها الىّ من أمريكا .

ـ انك ... انك تعلم ... ولكن كفى حديثاً عنى ... كفى !

كذلك قال شاتوف يقطع كلامه حاسماً . وأضاف :

ـ اذا كنت تستطيع أن تمدنى بايضاحات ... عن سؤالى ، فافعل .

ـ بسرور . تســألنى كيف أمكننى أن أزج نفسى فى مثل هـذه القضيـة الوسخة ؟ اننى بعد أن أبلغتك ما أبلغتك أجد نفسى مضطراً أن أكون صريحاً معك ، الى حد من الحدود . الحق أننى لا أنتمى الى هذه الجمعيــة ، ولا انتميت اليهــا فى يوم من الأيام . فأنا اذن أحق منك بأن أتركها لأننى لم أدخل فيها على وجه الاجمال . حتى لقد أعلنت لهم منذ البداية اننى لا أعمل معهم فى قضيـة مشتركة ، ولئن اتفق أن ســاعدتهم فى بعض المناسبات ، فان ذلك لم يكن منى الا هواية ، اذ لم أجد هواية أفضــل . ومع ذلك فقد شــاركت فى اعادة تنظيم الجمعيــة على أسس جديدة . ذلك كل شيء . لكنهم غيّروا رأيهم الآن ، وقرروا فيما بينهم أن من الخطر أن يتركونى : وأعتقد أنهم حكموا علىّ بالاعدام أنا أيضاً .

ـ أوه ! انهم لا يعرفون الا هذا : عقوبة الاعدام ... مع حكم مطابق للأصول ، على ورق ممهور بأختام رسمية وثلاثة تواقيع . وهل تظن أنهم قادرون على أن ينفذوا ؟

تابع ستافروجين كلامه يقول بتلك اللهجة نفسها التى تشتمل على قلة الاكترات ولا يكاد يكون فيها انفعال :

ـ انك على بعض الحق ، ولكن على بعض الحق فقط . مما لا شك فيه أن هذا كله يتضمن اسرافاً في الخيال : انهم يضخمون قوتهم وخطورة شأنهم . واذا أردت أن تعرف رأيي ، فان الزمرة كلها تتجمع في شخص بطرس فرخوفنسكي ، وبطرس فرخوفنسكي هذا يكون متواضعاً جداً حين لا يعد نفسه الا عميلا للجمعية . على أن مبدأ تنظيمهم ليس أسخف من مبدأ تنظيمات أخرى من هذا النوع . انهم على صلات بـ « الأممية » . ان لهم عملاء في روسيا . حتى لقد ابتدعوا أساليب جديدة أصيلة ... على الصعيد النظري طبعاً . أما عن نياتهم هنا ، فان عمل التنظيمات الروسية التي من هذا النوع تبلغ من الغموض وتبلغ من البعد عن التوقع أن كل شيء ممكن عندنا . لاحظ أن فرخوفنسكي يملك ارادة .

ـ هذه القملة ، هذا الجاهل ، هذا الحيوان الذي لا يفهم من روسيا شيئاً ؟

كذلك صرخ شاتوف حانقاً أشد الحنق . فقال له نيقولاي فسيفولودوفتش :

ـ انك لا تعرفه حق معرفته . صحيح أنهم لا يفهمون من روسيا شيئاً كثيراً على وجه العموم ، ولكنهم ليسوا أجهل منا بها الا قليلاً . ثم ان فرخوفنسكي ذو حماسة .

ـ فرخوفنسكي ذو حماسة ؟

ـ نعم ، انه فيما وراء بعض الحدود يكف عن التمثيل والتهريج ... ويصبح نصف مجنون . تذكّر أحد تعابيرك نفسها : « هل تعلم مدى ما يمكن أن يملكه انسان وحيد من قوة ؟ » لا تضحك ، أرجوك . انك قادر كل القدرة على اطلاق رصاصة . وهم مقتنعون بأنني أنا أيضاً جاسوس . انهم اذ يعجزون عن تعريف قضيتهم مستعدون لأن يتهموا الآخرين بالجاسوسية .

ـ ومع ذلك فلست خائفاً أنت منهم ، أليس صحيحاً ؟

ـ لا ، لست خائفاً كثيراً . ولـكن وضعك مختلف تماماً . وانمـا نبهتك من أجل أن تحتاط . في رأيي أنه ليس أمراً مزعجاً مثيراً أن يهدِّدَ المرءَ أناسٌ سخفاء أغبياء . ولكن الأمر ليس أمر ذكائهم ، وقد اتفق أن رفعوا أيديهم على آخرين غيري وغيرك . ولكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة والربع ...

قال ستافروجين ذلك وهو ينظر في ساعته . ونهض . ثم قال :

ـأريد أن ألقي عليك سؤلاً عن موضوع غير هذا تماماً .

فصاح شاتوف يقول وهو ينهض فجأة :

ـ ناشدتك الله !

فسأله ستافروجين مدهوشاً :

ـ ماذا تعني ؟

ـ اسأل ! الق سؤالك ، ناشدتك الله !

كذلك كرر شاتوف وهو فريسة انفعال لا سبيل الى مغالبته . وتابع يقـول :

ـ ولكن على شرط أن أستطيع أنا أيضاً أن ألقي عليك سـؤلاً . أتوســل اليك ... اذا ســمحت ... أصبحت لا أطيق صـبراً ... اســأل ...

انتظر ستافروجين لحظة . ثم بدأ يتكلم فقال :

ـ سمعت أن لك بعض التأثير في ماريا تيموفيئفنا ، وأنها تحب أن تراك ، وأن تسمع كلامك . هل هذا صحيح ؟

ـ نعم ..... انها تصغي الىَّ أحياناً ...

وظهر الاضطراب على شاتوف .

قال ستافرجين :

ـ أنوى أن أعلن زواجنا على الناس فى الأيام القليلة القادمة .

فدمدم شاتوف يقول مرتاعاً :

ـ ولكن ... مستحيل !

ـ بأى معنى هو مستحيل ؟ لا يمكن أن يكون هناك أية صعوبة . شهود الزواج هنا . لقد تمّ كل شيء فى بطرسبرج ، على نحو شرعى جداً ، بهدوء كامل وسلام تام . ولئن ظل الأمر سراً مكتوماً حتى هذا اليوم ، فلأن شهود الزواج ، وهم كيريلوف وبطرس فرخوفنسكى وكذلك ليادكين (الذى يسرنى أن يكون الآن قريبى) قد قطعوا على أنفسهم عهداً ، هم الثلاثة ، بأن يصمتوا .

ـ لست أقصد هذا ... انك تتكلم بهدوء ... ولكن أكمل حديثك . قل لى : لم يجبرك أحد على هذا الزواج فيما تقول ، هه ؟

أجاب نيقولا فسيفولودوفتش يقول مبتسماً من حرارة شاتوف المندفعة النافدة الصبر :

ـ لا ، لم يجبرنى أحد .

فتابع شاتوف كلامه يقول بما يشبه الحمى :

ـ وما ذلك الطفل الذى تتكلم هى عنه ؟

ـ الطفل ؟ أى طفل ؟ عجيب ! هذه أول مرة أسمع فيها كلاما عن طفل ! انها لم تلد أبدا ، ولم يكن ممكنا أن تلد : ان ماريا تيموفيئفنا قد ظلت عذراء .

ـ آ ... ذلك ما كنت أقدّره ... اسمع !

ـ ما بك يا شاتوف ؟

لقد غطى شاتوف وجهه بيديه وأشاح رأسه ثم أمسك ستافروجين من كتفيه فجأة ، وقال له صارخا :

ـ هل تعرف على الأقل ، نعم ، هل تعرف على الأقل لماذا فعلت هذا الأمر ، ولماذا ترتضى هذا القصاص الآن ؟

ـ هذا سؤال ذكي بل وغادر . لكني سوف أُدهشك : نعم ، انني أعلم تقريبا لماذا تزوجت ، ولماذا قررت الآن أن أرتضي هذا « القصاص » على حد تعبيرك .

ـ لنترك هذا ... سنتكلم عنه فيما بعد . انتظر ! لننتقل الى الشيء الجوهري ، الى الشيء الجوهري : انني أنتظرك منذ سنتين !

ـ حقا ؟

ـ أنتظرك منذ مدة طويلة جدا . لم أنقطع عن التفكير فيك يوما . انك الانسان الذي تستطيع أن ... لقد سبق أن كتبت اليك فى هذا الموضوع من أمريكا .

ـ أتذكر رسالتك الطويلة تذكراً كاملاً .

ـ لعلها كانت أطول من أن تُقرأ ، هه ؟ صحيح ! ست صفحات كاملة . اسكت . اسكت . قل لي : هل تستطيع أن تهب لى من وقتك عشر دقائق أخرى ، الآن ، فورا ؟ ... انني انتظرك منذ مدة طويلة ...

ـ أهب لك نصف ساعة ، ولكن لا أكثر من ذلك . آمل أن يكفيك هذا .

قال شاتوف خارجاً عن طوره :

ـ ولكن على شرط ... أن تغير لهجتك . هل سمعت ؟ انني أطالبك مطالبةً بأن تغيِّر لهجتك ، بينما كان يجب عليَّ أن أضرع اليك ... هل

تعرف ما معنى أن يطالب المـــرء مطالبة ، بينما كان ينبغي له أن يتوســـل ويتضرع ؟ ...

ـ أفهم أنك بهذه الطريقة تتحلل من القواعد والأصول ، وتضـــع نفسك في خارجها ، في سبيل هدف أعلى وغاية أسمى .

بهذا اجابة ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة . وأردف :

ـ لكنني ألاحظ متألماً أن بك حمى .

ـ انني أطلب الاحترام ، بل أقتضيه ، لا لشخصي ـ فليس لشخصي من قيمة ـ ليذهب شخصي الى الشيطان ـ ولكنني أقتضي الاحترام باســم شيء آخر ، وفي هذه اللحظة فقط ، لهذه الكلمات القليلة . نحن هنــا شخصان يلتقيان وجهاً لوجه في اللانهاية ... ربما لآخـــر مرة . اترك لهجتك ، تكلم بلهجة انسانية . تكلم انسانيا ، ولو مرةً واحدة في حياتك. لا أقول هذا من أجل نفسي ، بل من أجلك . هل تدرك أن عليك أن تغفر لي تلك الصفعة التي هويت بها عليك لا لشيء الا لأنني هيأت لك فرصـــة معرفة قوتك الكبيرة ؟ ... هأنت ذا تبتسم مرة أخرى ابتسامة الازدراء تلك التي تعودتها ، ابتسامة الازدراء تلك التي يبتســـمها أبناء المجتمع الراقي . آه ... متى تستطيع أن تفهمني أخيرا ؟ تباً لمالك الأطيان العظيم! تباً للسيد الكبير ! افهم انني أطالب بالاحترام ، نعم ، أطالب به وأقتضيه ، والا فلن أتكلم بحال من الاحوال !

كاد اندفاعه أن يبلغ حد الهذيان . فقطب نيقولاي فسيفولودوفتش حاجبيه ، وأصبح أكثر تحفظاً . ثم قال بلهجة رصينة وهو يزن كل كلمة من كلماته :

ـ اذا بقيت نصف ساعة أيضا مع أن وقتي ثمين جدا ، فثق انني انما

أفعل ذلك لأننى أنتوى أن أصغى الى كلامك باهتمام على الاقل • وأنا واثق بأنك ستعلّمنى أشياء كثيرة جديدة علىّ •

صاح شاتوف يقول :

ـ اجلس •

وتهالك هو على كرسيه •

واستأنف ستافروجين كلامه فقال :

ـ اسمح لى أن أذكرك مع ذلك بأننى بدأت أكلمك عن ماريا تيموفيئفنا واننى كنت أريد أن أتوجه اليك برجاء هام جدا فى شأنها ، من أجلها هى على الاقل •••

ـ هيه ؟

كذلك قال شاتوف نافد الصبر كأنسان قاطعتّه فى منتصف حديثه ، ولم يدرك السؤال الذى ألقيته عليه مع استمراره فى النظر اليك •

أضاف نيقولاى فسيفولودوفتش يقول مبتسما :

ـ ولكنك لم تدع لى فرصة اتمام الكلام الذى شرعت فيه •••

فصاح شاتوف يقول وهو يهز منكبيه بعد أن فهم المقصود :

ـ هذه سخافات • سنتكلم عنها فيما بعد •

وسرعان ما رجع الى فكرته •

٧

قال بلهجة تكاد تكون تهديدا وهو يميل على ستافروجين ملتمع العينين رافعا سبابة يده (انه لم يلاحظ ذلك حتما) ، قال :

ـ هل تعرف من هو الآن على وجه الارض الشعب « الحامل للرب » الوحيد ، الشعب الذى سيجدد العالم وينقذه باسم اله جديد ، الشعب الوحيد الذى بيده مفاتيح الحياة والكلمة الجديدة ...؟ هل تعرف من هو هذا الشعب وما اسمه ؟

استنتج من وضعك ، بغير تأخر ، أنه هو الشعب الروسى ...

هتف شاتوف يقول وهو يضطرب فى كرسيه :

ـ هأنت ذا تضحك منذ الآن ! آه من هذا الصنف من البشر !

ـ هدىء نفسك ، أرجوك . لقد كنت أتوقع شيئا من هذا القبيل .

ـ كنت تتوقع شيئاً من هذا القبيل ؟ ولكن ألا تذكّرك هذه الأقوال بشىء ؟

ـ بلى . وانى لأرى رؤية واضحة ما الذى تقصده ، والى أين تريد أن تصل من هذا . ان عبارتك الطويلة ، وحتى هذا التعبير : الشعب « الحامل للرب » ، ليسا الا النتيجة التى تُستخرج من الحديث الذى جرى بيننا منذ أكثر من سنتين فى الخارج قبل سفرك الى أمريكا ... على الأقل اذا صدقت ذاكرتى الآن .

ـ ان تلك الجملة هى لك ، لك أنت . أنت الذى قلتها . هذه أقوالك ذاتها ، وليست النتيجة التى تستخرج من « الحديث » الذى جرى

بيننا : كان هناك معلم ينادي بأفكار كبيرة ، وكان هناك تلميذ ينبعث من بين الموتى • فأما التلميذ فأنا ، وأما المعلم فأنت •

ـ ولكن اذا صدقت ذاكرتي ، فانك بعد أقوالى تلك انما دخلت في جمعيتهم ثم سافرت الى أمريكا •

ـ نعم ، وقد كتبت اليك عن هذا من أمريكا • لقد حدثتك في تلك الرسالة عن كل شيء • نعم ، لم أستطع أن أنتزع نفسى دفعةً واحدة من كل ما كان قوام حياتى منذ طفولتى ، من كل ما كان معقد وآمالى وموضوع حماساتى ، من كل ماجعلنى أسكب دموعا تفيض بالكره والبغض ••• انه لمن الصعب على المرء أن يغير آلهته • لم أصدّق أقوالك حينذاك ، لأننى كنت لا أريد أن أصدّقها ، فرميت نفسى فى تلك الهوة الملأى بالقذارات• غير أن البذرة في نفسى بقيت ثم نبتت • قل لى ، ولكن بصدق : هل قرأت رسالتى التى بعثتها اليك من أمريكا ، الى نهايتها ؟ لعلك لم تقرأها البتة ؟

ـ قرأت منها ثلاث صفحات ، الصفحتين الأوليين والصفحة الأخيرة، وتصفحت الباقى تصفحا ••• ولكننى كنت أنوى دائما أن •••

قال شاتوف يقاطعه وهو يجرى يده باشارة ازدراء :

ـ غير مهم ، غير مهم ! ولكن اذا كنت تعدل عن أقوالك التى قلتها في الماضي عن الشعب الروسى ، فكيف أمكنك أن تقولها حينذاك ؟ ذلك ما يعذبنى اليوم ويسحقنى سحقاً •

قال ستافروجين :

ـ لم أكن مازحاً يومئذ • وحين حاولت أن أقنعك فى ذلك الأوان فلعلنى كنت أفكّر فى نفسى أكثر مما أفكر فيك •

كلام يشبه أن يكون لغزاً أو أحجية •

فأجابه شاتوف :

ـ لم تكن مازحاً ؟ لقد بقيت في أمريكا ثلاثة أشهر راقداً على القش بجانب انسان شقي ، فعلمت منه أنك بينما كنتَ تغرس في نفسي فكرة الله والوطن ، كنتَ في الوقت نفسه تسمِّم قلب ذلك الشقي ، ذلك المهووس كيريلوف ... لقد سكبت فيه الكذب والنفي ، وألقيت بعقله الى الجنون سريعا . انظر اليه الآن ، تأمل ماذا صنعت به ! لقد رأيته على كل حال .

ـ أحب أن ألفت نظرك أولا الى أن كيريلوف قد قال لي هو نفسه منذ برهة انه سعيد وانه طيب الحال تماما . ان افتراضك أن الأحاديث التي أجريتها معه قد تمت في ذلك الوقت نفسه الذي قام فيه الحديث بيني وبينك ، هذا الافتراض صحيح تقريبا . ولكن على أي شيء يدل ذلك ؟ أعود فأقول لك : انني لم أخدعكما ، لا أنت ولا هو .

ـ أنت الآن ملحد ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ وفي ذلك الوقت ؟

ـ كما أنا الآن تماما .

دمدم شاتوف يقول مستاءً :

ـ لئن طالبتك بالاحترام في بداية محادثتنا هذه ، فانني لم أفعل ذلك من أجل نفسي . ولقد كان ينبغي لك ، وأنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ، أن تدرك ذلك .

ـ انني لم أنهض حين بدأتَ تتكلم ، ولا قطعت حديثنا ، ولا انصرفت ، بل بقيت جالساً أمامك أجيب عن أسئلتك وعن صرخاتك وزعقاتك طيِّعا ... فمعنى ذلك انني لم أغضض من قدرك ولا قصَّرت في احترامك ...

قاطعه شاتوف بحركة من يده . وقال يسأله :

ـ هل تتذكر أقوالك : « ما من ملحدٍ يمكن أن يكون روسياً » ؟ هل تتذكر هذا ؟

قال ستافروجين بلهجة فيها شيء من الشك :

ـ قلتُ هذا ؟

ـ أتسألني هل قلتَ هذا ؟ أنسيت أنك قلته ؟ ألا انك مع ذلك قد أدركت عندئذ سمةً من سمات الفكر الروسي والروح الروسية . يستحيل أن تكون قد نسيت أنك قلتَ هذا . حتى لقد أضفت يومئذ قولك : «مامن أحد غير أرثوذكسي يمكن أن يكون روسياً . » .

ـ افترض أن هذه الفكرة هي من أفكار دعاة السلافية .

ـ لا ، ان دعاة السلافية المعاصرين ينبذونها . لقد أصبحوا أذكى . ولكنك مضيت الى أبعد من ذلك ، فقلت ان الكاثوليكية الرومانية لم تعد هي الديانة المسيحية . لقد أكدت أن المسيح الذي تنادي به روما قد وقع في الغواية الثالثة من غوايات ابليس * ، وان الكاثوليكية اذ أعلنت للعالم كله أن المسيح لا يمكن أن ينتصر في هذه الأرض ما لم يملك مملكة الارض انما نادت بما يخالف روح المسيح ؛ وهي بذلك تقود العالم الغربي كله الى الهلاك . وقد أشرت الى أن فرنسا اذا كانت تتألم وتتعذب ، فانما مردُّ ذلك الى الكاثوليكية ، لأنها اذ كفرت بالاله الروماني المتعفن ، لم تظفر بالاهتداء الى اله آخر . ذلك ما كنت لا تتحرج من قوله حينذاك . انني أتذكر أحاديثنا تذكراً كاملاً .

قال ستافروجين جاداً كل الجد :

ـ لو كنت أملك الايمان لكررت هذه الاقوال نفسها حتما . انني لم أكن أكذب حينذاك حين تكلمت كما يتكلم مؤمن . ولكنني أؤكد لك

أنه يزعجني جدا أن أسمع ترديد أفكاري القديمة . ألا تطيق أن تمسك عن الكلام ؟

صاح شاتوف يسأله دون أن ينتبه أي انتباه الى ما طُلب منه :

ـ لو كنت تملك الايمان ؟ ولكن ألست أنت الذي قلتَ لي انك اذا برهنوا لك برهاناً رياضيا على أن المسيح ضلال وأن الحقيقة شيء والمسيح شيء آخر ، لآثرت المسيح على الحقيقة ؟ * ألم تقل لي ذلك ؟ أجب !

قال ستافروجين رافعا صوته :

ـ ولكن اسمح لي أن أسألك بدوري : ما الداعي الى هذا الامتحان الكاره المبغض ، والى ماذا يؤدي هذا الاستجواب الغاضب الخبيث ؟

ـ سينتهي هذا الامتحان ، وسينقضي الى الأبد ، فلن تُذكَّر به بعد الآن .

ـ أما زلت عند رأيك من أننا في خارج المكان والزمان ؟ ...

قال شاتوف غاضبا على حين فجأة .

ـ اسكت . انني غبي أخرق . ولكن فيم يهمني أن يصبح اسمي مثاراً للضحك والسخرية ! هل تسمَح لي أن أذكِّرك بفكرتك الأساسية ؟ ... أوه ... عشرة أسطر فقط ! النتيجة وحدها لا أكثر ...

ـ أتمنى أن تقتصر على النتيجة .

قال ستافروجين ذلك ، وهمَّ أن ينظر في ساعته ، ولكنه أمسك في الوقت المناسب .

ومال شاتوف الى أمام مرةً أخرى ، ورفع سبَّابة يده ، ولكن لحظةً قصيرة فحسب ، وقال كمن يقرأ في كتاب وهو يحدِّق الى ستافروجين بنظرة تهديد :

ـ ما من شعب ، ما من شعب استطاع يوما أن ينظم نفسه في الارض

على أسس علمية وعقلية ؟ ما من شعب أفلح في ذلك ، أو لعل شعبا من الشعوب قد أفلح في ذلك مدةً قصيرة عن حماقة . ان الاشتراكية في جوهرها نفسه ملحدة ، لأنها نادت منذ البداية بأنها تستهدف بناء المجتمع على أساس العلم والعقل فحسب . في كل مكان وفي كل زمان ، منذ بدء الأعصر ، لم يمثل العلم والعقل في حياة الشعوب الا دورا ثانويا لخدمة الحياة . وسيظل الامر كذلك الى نهاية العصور . فانما تتكون الشعوب وتنمو بدافع قوة مختلفة عن هذا كل الاختلاف ، بدافع قوة عليا مسيطرة يظل أصلها مجهولا ولا يمكن تفسيره . هذه القوة هي الرغبة المتأججة في الوصول الى نهاية ، وانكار هذه النهاية في الوقت نفسه ؛ هي تأكيد الحياة تأكيدا مستمرا لا يتعب ، وانكار الموت . هي روح الحياة ، كما يقول الكتاب المقدس ، هي « ينابيع المياه الدافقة » التي تهددنا رؤيا القديس يوحنا بأنها ستنفيض ذات يوم * ؛ هي مبدأ الجمال ، على حد تعبير الفلاسفة ، أو هي مبدأ الاخلاق على حد تعبيرهم أيضا . أما أنا فأسميها ببساطة أكبر : البحث عن الله . ان هدف كل شعب ، في كل حقبة من تاريخه ، هي البحث عن الله فقط ، عن الهه ، عن الهه هو الذي يؤمن به على أنه هو الاله الوحيد الحق . ان الاله هو الحقيقة المركبة من الشعب كله ، منذ وجوده الى نهايته . في كل زمان وفي كل مكان ، كان لكل شعب الهه الخاص ، ولم يحدث حتى الآن أبدا أن كان لجميع الشعوب أو لعدة شعوب اله واحد ، مشترك بينها جميعا . وحين تأخذ الشعوب بأن يصبح لها آلهة مشتركة ، فذلك علامة موتٍ لهذه الشعوب . وحين تصبح الآلهة مشتركة بين عدة شعوب ، فان الآلهة تموت ، كما تموت الشعوب ويموت ايمانها . ولم يحدث حتى الآن أبدا أن وُجد شعب بغير دين ، أي بغير فكرة عن الخير والشر . ان لكل شعب تصوره الخاص للخير

والشر ، ان لكل شعب خيره الخاص به ، وشرّه الخاص به . حتى اذا تشاركت عدة شعوب في تصوراتها للخير والشر ، فان هذه الشعوب تنحدر عندئذ ، حتى ان التفريق بين الخير والشر يمّحي حينذاك ويزول . لم يقدر العقل يوما ، ولن يقدر العقل يوما على أن يحدد الخير والشر ، بل ولا على أن يفصل الشر عن الخير ولو فصلاً تقريبيا . بالعكس : كان العقل على الدوام مشوشا تشويشا مخجلاً يدعو الى الاسف . أما العلم فانه لم يُمدّنا الا بحلول مبنية على القوة الوحشية ؛ ولا سيما « نصف العلم » الذى كان أفظع الأوبئة التيأصابت الانسانية ، وكان أسوأ من الطاعون والمجاعات والحروب ، والذى لم يظهر الا في هذا القرن من الزمان . ان « نصف العلم » طاغية لم نرَ له مثيلاً من أقدم العصور الى هذه الايام ؛ طاغيةٌ له كهنته وعبيده ، يسجد أمامه الناس بحب غامر وايمان خرافي ، ويرتجف أمامه العلم نفسه ، ولكنه يُهين هو العلمَ اهانةً مخجلة . هذا الكلام كله هو أقوالك ياستافروجين ، الا جملتي الاخيرة عن « نصف العلم » : فهذه الجملة لى أنا ، لأنني من أهل «نصف العلم » ، ولذلك أكرهه كرهاً خاصا . أما أفكارك أنت ، أما تعابيرك أنت ، فانني لم أغيّر فيها شيئاً ، لم أبدّل منها حرفاً .

قال ستافروجين متروياً :

ـ ما أظن أنك لم تغير شيئا . لقد التقطت أفكارى بهوى مشتعل فشوّهها هذا الهوى المتأجج ، دون أن تشعر أنت بذلك . يكفى للبرهان على هذا التشويه أنك أنزلت الله الى حيث جعلته صفةً للشعب لا أكثر .

ان ستافروجين يتابع الآن شاتوف بانتباه خاص ، ولكنه لا يتابع أقواله بقدر ما يتابع وضعه وحركاته واشاراته .

صاح شاتوف يقول :

ـ أأنا أُنزل الله الى حيث أجعله صفةً للشعب ، لا بل انني ارفع الشعب الى حيث أصل به الى الله . وهل كان الامر غير هذا في يوم من الايام على كل حال ؟ ان الشعب هو جسم الله . كل شعب لا يكون شعبا ما لم يكن له الهه الخاص ، الهه الخاص به هو ، وما لم يكفر دون أى استعداد للتنازل أو التشويه ، بجميع الآلهة الاخرى ، وما لم يؤمن أنه بفضل الهه سينتصر على جميع الآلهة الاخرى وسيطردها. ذلك كان ايمان جميع الشعوب الكبيرة ، أو على الاقل جميع الشعوب التي كان لها دور في التاريخ ، والتي سارت في طليعة الانسانية . يستحيل على المــــرء أن يغالب الوقائع . ان اليهود لم يعيشوا الا لينتظروا الاله الحق ولقد أورثوا العالم فكرة الاله الحق . والاغريق قد ألّهوا الطبيعة ، وأورثوا العالم ديانتهم ، أى الفلسفة والعلم . وروما ألّهت الشعب متجسدا في «الدولة»، وأورثت الانسانية فكرة « الدولة » . وفرنسا ، التي تجسد الاله الروماني، لم تزد طوال تاريخها على أن تنمّي فكرة الاله الروماني ، واذا كانت قد أسقطته أخيرا وانحدرت هي نفسها الى هوة الالحاد الذي يطلق عليــــه هناك ، موقتاً ، اسم الاشتراكية ، فما ذلك الا لأن الالحاد هو رغم كل شيء أسلم من الكاثوليكية الرومانية . ومتى انقطع شعب كبير عن الاعتقاد بأنه الوحيد الذي يقدر بفضل حقيقته أن يجدد الانسانية وأن ينقذ الشـعوب الاخرى ، فانه سرعان ما ينقطع عن أن يكون شعبا كبيرا ، ثم اذا هــــو يصبح مادة بشرية لا أكثر . ان الشعب ، اذا كان عظيما بالفعل، لن يقتصر أبدا على أن يقوم بدور ثانوى في حياة الانسانية ، ولا بد أن يقوم بدور من الطبقة الاولى ، فانما هو يريد أن يكون له المكان الاول تماما ، وأن يقوم بالدور الوحيد . ان الشعب الذي يفقد هذا الايمان لا يبقى شعبا . ومع ذلك فان الحقيقة واحدة ، ومعنى هذا أن شعبا واحدا بين جميــــع

الشعوب هو صاحب الاله الحق ، مهما تكن آلهة الشعوب الاخرى قوية . ان الشعب الوحيد « الحامل للرب » انما هو الشعب الروسي ...

وأعول شاتوف يقول محموما على حين فجأة :

ـ و ... و ... هل يمكن يا ستافروجين أن تعدني غيا لا أدرك هل هذه الآراء هي ثرثرات نساء عجائز عجنتها في موسكو ، خلال سنين، معاجن دعاة السلافية ، أم هي أقوال جديدة كل الجدة ، أقوال فريدة ، أقوال هي كلمة الخلاص والبعث الوحيدة ؟ ... و ... فيم يهمني ضحكك الآن ! ... فيم يهمني أن لا تفهم شيئاً مما قلت ، أن لا تفهم كلمة واحدة ، أن لا تفهم حرفا واحدا ! ... آه ... لشد ما أكره ضحكك المتغطرس ونظرتك في هذه اللحظة .

قال شاتوف ذلك ونهض بوثبة واحدة ، حتى لقد كان فمه مزبداً .

قال ستافروجين بجد غريب ، دون أن يتحرك من مكانه :

ـ بالعكس ياشاتوف ، بالعكس . ان أقوالك الحارة أيقظت في نفسي ذكريات كثيرة . انني أعثر في أقوالك هذه على الحالة الروحية التي كنت أنا فيها منذ سنتين . وفي هذه المرة ، لن أقول كما قلت منذ قليل انك قد ضخّمت الأفكار التي عبّرت أنا عنها في الماضي . حتى ليبدو لي أن أفكاري تلك كانت تتصف بقطع أكبر وجزم أشد واندفاع أعظم . واني لأؤكد لك مرة ثالثة أنني أتمنى كثيرا لو أكرر اليوم ما قلته أنت كلمة كلمة ولكن ...

ـ ولكن يعوزك الأرنب ؟

ـ ماذا ؟

قال شاتوف وهو يضحك ضحكا خبيثا

ـ هذا التعبير المنحط هو من تعابيرك أنت . « من أجل أن يطبخ المرء

طاجن أرنب ، يحتاج الى وجود أرنب ؛ ومن أجل أن يؤمن باله يحتاج الى وجود اله ...» يقال انك أنت الذى كررت هذه الجملة في بطرسبرج، كما فعل نوزدريوف الذى أراد أن يقبض على الارنب من خلف .

ـ كان نوزدريوف ، على خلاف ذلك ، يتباهى بأنه قبض على الأرنب. بالمناسبة : اسمح لى أن ألقى عليك سؤالاً ، لا سيما وأن هذا من حقى الآن فيما يبدو لى . قل لى : هل أرنبك صار فى قبضة يدك أم هو ما يزال يجرى .

فأعول شاتوف يقول :

ـ أمنعك من القاء هذا السؤال بهذه الألفاظ . اسألنى بأسلوب آخر، بأسلوب آخر !

فقال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين وهو ينظـــر اليه مربدّ الهيئة :

ـ مستعد . كل ما أردته هو أن أعرف أأنت مؤمن بالله أم لا ؟

ـ أنا مؤمن بروسيا ، أنا مؤمن بالارثوذكسية ... مؤمن بجســـم المسيح ... مؤمن بأن ظهور المسيح ثانيةً سيتم فى روسيا ... مؤمن .. بذلك تمتم شاتوف خارجا عن طوره .

قال ستافروجين ملحاً :

ـ وبالله ؟ بالله ؟

ـ بالله ... سوف ... سوف أؤمن .

لم تختلج عضلة واحدة فى وجه ستافروجين . وكان شاتوف يتحداه بنظرته الحارة المنيفة . وهتف أخيرا يقول :

ـ أنا لم أزعم لك على كل حال أننى لا أؤمن بالله . ولكننى أريد أن أُفهمك اننى لست الا كاتبا حزينا مملاً ، لا أكثر من ذلك ، ولـكن

مؤقتا فقط ، مؤقتا ! على كل حال ، فليهلك اسمي ! انما الامر أمرك أنت لا أمري أنا . أنا لا أملك أية موهبة ، ولا أستطيع أن أقدِّم الا دمي ، لا شيء غير ذلك ، كأي شـــخص عادي تافه . أنا أهب دمي . غير أنني أتكلم عنك أنت . لقد انتظرتك سنتين . ومن أجلك انما أرقص هنا منذ نصف ساعة عاريا كل العري . انك الانسان الوحيد ، نعم ، الوحيد الذي يستطيع أن يرفع هذه الراية ...

وانقطع عن الكلام ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأخفى رأســـه في يديه كمن اعتراه يأس شديد .

ـ انني ألاحظ ، وهذا أمر عجيب حقا ، أن الجمـــيع يريدون أن يضعوا بين يديَّ لا أدري أية راية . بطرس فرخوفنسكي ، هو أيضا ، مقتنع بأنني أستطيع أن « أرفع رايتهم » . هذا ما نُمي اليَّ على الاقل . في ذهنه أنني أستطيع أن أقوم بدور كدور ستجنكا رازين * ، بفضـــل ما أتمتع به من « قدرة خارقة على الجريمة » . تلك أقواله بنصها .

ـ كيف ؟ بفضل قدرتك الخارقة على الجريمة ؟

ـ نعم .

ـ همْ ...

كذلك همهم شاتوف . ثم سأل وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـ هل صحيح أنك انتسبت في بطرسبرج الى جمعية سرية كانت تسترسل في دعارة حيوانية ؟ هل صحيح أنك ربما كنت تتفوق على المركيز دي ساد ؟ هل صحيح أنك كنت تجتذب الى بيتك الاطفـــال لتدنِّسهم ؟ تكلم ! لا تكذب !

كذلك صاح شاتوف مهتاجا . وأردف يقول :

ـ ان نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين لا يمكن أن يكذب أمام

شاتوف الذى صفعه على وجهه، قل كل شيء ، فاذا صدق هذا كله ، قتلتك على الفور ، فى الحال •

نطق ستافروجين بعد صمت طويل فقال :

ـ تكلمت عن هذه الاشياء • لكننى لم أدنِّس أطفالاً •

واصفر وجهه ، والتمعت عيناه •

فتابع شاتوف كلامه ولكن دون أن يحوِّل عنه نظرته المشتعلة :

ـ لكنك تكلمت عن هذا ، أليس كذلك ؟ أفصحيح أنك زعمت أنك لا ترى أى فرق بين دناءة شهوانية حيوانية وبين عمل عظيم كتضحية المرء بنفسه فى سبيل الانسانية ؟ أصحيح أنك تجد فى هذين الضدين لذة واحدة وأنك تكتشف فيهما جمالا واحدا ؟

دمدم ستافروجين يقول ، وكان يمكنه أن ينهض وينصرف ، لكنه ظل جالسا ولم يمض ، دمدم يقول :

ـ تستحيل الاجابة عن أسئلة كهذه الاسئلة ••• لا أريد أن أجيب•

تابع شاتوف كلامه يقول مرتعشاً ارتعاشا شديدا •

ـ أنا أيضا لا أدرى لماذا أرى الشر دميما ، ولماذا أرى الخير جميلا، ولكننى أعلم كيف يمَّحى الاحساس بهذا الفرق ويزول لدى أمثـــال ستافروجين • هل تعرف لماذا تزوجت هذا الزواج السخيف الحقير ؟ انك انما فعلت ذلك لان العار والسخافة تمضيان هنا الى حد العبقرية ! لا ، انك لا تحوم حول ضفاف الهوة ، بل تلقى نفسك فيها بجسارة منكَّس الرأس • انك قد تزوجت حباً بالألم ، وميلاً الى عذاب الضمير ، واحتياجا الى مباهج روحية • ان فى عملك هذا نوعا من الغيظ العصبى • ان تحديك هذا للحس العام قد أغراك اغراءً لم تستطع مغالبته ومقاومته • ستافروجين والمتسولة العرجاء المسكينة التى هى نصـــف بلهاء ! حين عضضت أُذن

الحاكم ، ألم تشعر باحساس لذيذ ؟ ألم تعان ذلك الاحساس ، أيها الارستقراطى العاطل الخالى ؟

قال ستافروجين وقد ازداد اصفرار وجهه شيئاً بعد شيء :

ـ انك عالم بالنفس الانسانية . ومع ذلك فقد أخطأت قليلا فى شرح أسباب زواجى ...

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة يُكره عليها نفسه اكراها :

ـ ولكن من ذا أمدّك بهذه المعلومات ؟ أتُراه كيريلوف ؟ ... غير أنه لم يشارك ...

قال شاتوف :

ـ أيصفر لونك ؟

فاذا بستافروجين يرفع صوته فجأة فيقول :

ـ ولكن ماذا تريد أخيرا ؟ اننى هنا احتمل ضربات سوطك منذ نصف ساعة ... ان فى وسعك على الاقل أن تدعنى أنصرف ، بلطف وأدب ، اللهم الا أن يكون هناك دافع معقول يحضك على أن تمعن الى هذا الاسلوب فى المعاملة .

ـ دافع معقول ؟

ـ حتما . ان من واجبك أن تشرح لى هدفك على الاقل . لقد انتظرت أن تشرح لى هذا الهدف . لكننى لم أجد فيك الا غيظا مسعورا وكرها شديدا . أرجوك ، افتح لى بوابة المنزل .

ونهض . فهجم عليه شاتوف بوحشية ، وصاح يقول له وهو يمسكه من كتفه :

ـ قبّل الأرض * . روّها بدموعك . استغفرها .

قال ستافروجين خافض العينين ، بلهجة توشك أن يخالطها ألم :

ـ أنا لم أقتلك مع هذا ، في ذلك اليوم ... بل عقدت ذراعيَّ وراء ظهري .

ـ أكمل كلامك ، قل ما يجول في خاطرك ويعتمل في نفسك . لقد جئت تنبهني الى خطر يحدق بي ، وتركتني أتكلم ... وغدا تعلن زواجك ! ... ألا أرى في وجهك أنك فريسة فكرة جديدة ، فكرة رهيبة تقاومها ! ستافروجين ، لماذا حكم عليَّ أن أؤمن بك دائما ؟ هل كان يمكنني أن أتكلم بهذه الطريقة مع انسان آخر ؟ انني أشعر بحياء من عواطفي ، ومع ذلك لم أخجل من عريي أمامك ، لأنني كنت أكلم ستافروجين . لم أخشَ أن أحيل فكرة عظيمة الى فكرة سخيفة بلمسها ، وذلك لأن ستافروجين هو الذي كان يصغي اليَّ ! ... ألن أقبل موطىء أقدامك حين ستخرج ؟ انني لا أستطيع أن أنتزعك من قلبي يا نيقولاي ستافروجين !

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ببرود :

ـ أما أنا فيؤسفني أنني لا أستطيع أن أحبك يا شاتوف .

ـ أعلم ذلك . أعلم أنك لا تكذب في هذا الذي تقوله . اسمع : ما يزال في وسعي أن أدبِّر كل شيء : سأمدك بالارنب .

لزم ستافروجين الصمت .

قال شاتوف :

ـ أنت ملحد ، لأنك ارستقراطي ، لأنك سيد . لقد أصبحت لا تستطيع أن تميز الخير من الشر ، لأنك أصبحت لا تفهم شعبك ... لكن جيلا جديدا يسير ، يخرج من قلب الشعب ، ولن تتعرفه أبدا ، لا أنت ولا أمثال فرخوفنسكي ، الأب أو ابنه ، ولا أنا ، لأنني أنا أيضا سيد ، نعم أنا ، ابن قنَّك ، ابن خادمك باشكا * . اسمع ! توصل الى الله

بالعمل : هذا سر الامر كله • فان لم تفعل زلت كما تزول الطفيليات • توصل الى الله بالعمل • احصل على الله بالعمل !

ـ بالعمل ؟ أى عمل ؟

ـ بعمل الفلاح • امض • اترك ثرواتك••• آه ••• انك تضحك ، انك تخشى أن يستسخفك الناس ؟

ولكن ستافروجين لم يكن يضحك • وعاد يقول بعد لحظة تفكير كأنما هو قد سمع قولاً جديدا هاما يستحق الدرس :

ـ أتعتقد أن الحصول على الله ممكن بعمل الفلاح ؟

ثم أضاف يقول منتقلا الى موضوع آخر على حين فجأة :

ـ بالمناسبة : هل تعلم اننى لم أعد غنيا ، وأننى لا أملك ثروة كبيرة فأهجرها ؟ اننى لا أكاد أملك ما يمكننى من تأمين مستقبل ماريا تيموفيئفنا ••• ولكن هأناذا أوشكت أن أنسى ما جئت اليك من أجله : لقـــد جئت اليك لأغراض منها أن أوصيك خيرا بماريا تيموفيئفنا وأن أسألك الاستمرار فى العناية بها واليقظة عليها اذا أمكنك ذلك ، لأنك الشخص الوحيد الذى له شىء من تأثير فى عقلها المسكين ••• أقول هذا احتياطا لكل طارىء •

قال شاتوف بلهجة من نفد صبره ، وهو ممسك شمعة :

ـ طيب طيب • سأفعل • طبعا • اسمع • حاول أن تزور تيخون •

ـ من ؟

ـ تيخون • أسقف قديم أحيل الى التقاعد بسبب اعتلال صحته • انه يقيم هنا فى دير القديس أوتيم •

ـ وعلام أزوره ؟

ـ هكذا • انه يستقبل كثيرا من الناس • اذهب اليه • ماذا يكلفك الذهاب اليه ؟ اذهب اليه •

ـ لم أسمع عنه أبدا ، ولا رأيت فى حياتى شخصا من هذا النوع من الناس • أشكرك • سأذهب •

قال شاتوف وهو يضيء السلّم :

ـ من هنا •

حتى اذا وصل الى تحت ، فتح بوابة المنزل •

دمدم ستافروجين يقول وهو يجتاز العتبة :

ـ لن أجيء اليك بعد الآن ياشاتوف •

وكان الليل ما يزال حالكا ، وكانت السماء ما تزال ممطرة •

الفصل الثاني

الليل

تتمة

١

سلك شارع ابيفانيا كله ، ثم هبط منحدراً قوياً ، فكانت قدماه تغوصان فى الوحل . وفجأة لمح أمامه مكاناً فسيحاً خالياً لونه أشهب : انه النهر . هنا لا عمارات بل أكواخ حقيرة تتعرج بينها شوارع صغيرة وطرق مسدودة .

سار نيقولاى فسيفولودوفتش بمحاذاة الأسيجة ولكن دون أن يبتعد عن الضفة . كان يبدو واثقاً من الطريق ، بل كان لا يلوح عليه أنه ينتبه اليه أى انتباه . ان أفكاراً أخرى وهموماً أخرى تملأ رأسه وتشغل باله . فما كان أشد دهشته حين نظر حواليه فرأى ، وقد خرج من تأمله فجأة ، أنه فى وسط جسرنا الطويل المبتل المكوّن من مراكب . ما من انسان فى ذلك المكان . ولذلك شُده أكبر الشده حين سمع صوتاً يناديه من قرب ، صوتاً أليفاً لطيفاً من تلك الأصوات المتعاذبة المترققة التى يصطنعها الشبان الذين يعملون فى محالّ تجارية وقد جمّلوا شعرهم بتجعيده .

ــ ألا تسمح لى يا سيدى أن أنتفع بمظلتك ؟

قال الشخص ذلك واندس فعلاً أو همّ أن يندس تحت المظلة ، وسار الى جانبه ملاصقاً بكوعه كوعَه تقريباً. فأبطأ نيقولاي فسيفولودوفتش في خطوه ومال على الرجل لينعم النظر اليه والتفرس فيه ، بقدر ما يسمح له الظلام بذلك . انه متوسط طول القامة ، رث الثياب فيما يبدو ، أشبه بعامل ثمل قليلاً . ان قبعة من الجوخ ، منزوعة الحافة الى النصف تقريباً ، تغطي شعره القصير الأجعد الذي لا بد أنه أكحل اللون . وهو نحيل أسمر الوجه ، ولا شك أن عينيه سوداوان جداً ، ساطعتان جداً ، مصطبغتان بصفرة كأعين الفجر . ان المرء يحزر ذلك رغم الظلام الدامس. ولعله في الأربعين من العمر . ولم يكن سكران .

سأله نيقولاي فسيفولودوفتش :

ـ أتعرفني ؟

فأجاب الرجل :

ـ السيد ستافروجين ، نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين . لقد دُللت عليك ، يوم الأحد الأخير ، منذ وقف القطار . ثم اننا قد سبق أن سمعنا عنك .

ـ دلّك عليّ بطرس ستيفانوفتش ؟ أأنت ... أأنت فدكا السجين ؟

ـ اسمنا الذي سمُّونا به في التعميد هو فيدور فيدوروفتش*. وما تزال أمنا حية ، تقيم في هذه المنطقة . عجوز طيبة من خلق الله ، لن تلبث أن توارى التراب ، وهي ما تنفك تصلي لله من أجلنا في الليل والنهار ، حتى تكون شيخوختها نافعة .

ـ وقد فررت من السجن ؟

ـ أي ... غيرت مهنتي في الحياة ... فتخلصت من اثقالهم كلها.. ذلك انني كنت محكوماً عليّ بالسجن الى آخر الحياة . رأيت المدة طويلة مسرفة في الطول .

ـ ماذا تصنع هنا ؟

ـ لا شيء يستحق الذكر . الأيام تنقضى سريعة . مات عمنا هنا فى الأسبوع الأخير بالسجن . للأمر علاقة بتزييف نقـود . فأحييت ذكراه بأن رميت الكلاب ببضع عشرات من الحجـارة . ذلك كل ما فعلناه حتى الآن . لكن بطرس ستيفانوفتش قد وعدني بأن أحصل على جواز سفر ، بل على جواز سفر تاجر ، كيما أستطيع أن أتجول فى روسيا كلها . فأنا انتظر أن يمنّ علىّ بتحقيق وعده . هو يقول : « ان أبى قد ضاع منك ثلاثة روبلات أثناء لعبك بالورق بالنادى الانجليزى ، وأنا أرى هذا عملاً ظالماً ، عملاً غير انسانى » * هلاّ تفضلت يا سيدى فأعطيتنى ثلاثة روبلات فأشرب كأساً فأتدفأ .

ـ اذن كنت ترقب مرورى ! أنا لا أحب هذا ... مَنْ أمرك به؟

ـ لم يأمرنى أحد . لكننى أعرف عواطفك الطيبة . جميع الناس يتكلمون عن ذلك . أنت نفسك تعرف ما مواردنا نحن : حزمة علف أو ضربة شوكة فى الكليتين . يوم الجمعة أكلت فطائر حتى أُتخمت ، وبعد ذلك بقيت يوماً بغير طعام ، وفى اليوم التـالى انتظرت ، وفى اليوم الثالث شددت على بطنى الحزام . غير أن النهر فيه ماء كثير ، لذلك أربّى أسـماكاً ... هذا كل شيء ! أملى كله معقود اذن عليك . عرّابتى تنتظرنى هنا . ولكن لا فائدة من المثول أمامها بغير شيء من المال .

ـ بماذا وعدك بطرس ستيفانوفتش منى ؟

ـ الحق أنه لم يعدنى بشيء ، لكنه قال لى مصادفة اننى قد أستطيع أن أنفع سـيادتك ، اذا واتت الظروف . أما عن هـذه الظروف فانه لم يتحدث حديثاً واضحاً . ان بطرس ستيفانوفتش يريد أن يمتحن صبرى. انه لا يولينى أية ثقة .



فدكا (السجين الهارب)

ـ لماذا ؟

ـ بطرس ستيفانوفتش منجِّم . يعـرف جميع كواكب ربنا . ومع ذلك فانه هو أيضاً غير خالٍ من العيوب . أنا هنا أمامك كأنني أمام العلى الأعلى ، لأن سمعتك تجرى فى الشـوارع . ان بطرس ستيفانوفتش هو بطرس ستيفانوفتش ، أما أنت يا سيدى ففى رأيى أنك شىء آخر . هو ، اذا قال عن شخص انه وغـد ، فقد قال كل شىء ، ولا يجب أن يعـرف شيئاً آخر عنه . واذا قال عن شخص انه أبله فقد انتهى الأمر ، فليس هذا الشخص فى نظره الا أبله . على حين ان من الممكن ، فيما يتعلق بى أنا ، أن أكون فى أيام الثلاثاء وأيام الأربعـاء أبله ، ثم أكون فى أيام الخميس ذكياً ، بل أن أكون أذكى منه . هو يعلم الآن اننى أحترق رغبـــةً فى الحصول على جواز سفر ـ لأن المرء فى روسيا لا يستطيع أن يسير خطوة بغير جواز سفر ـ لذلك فهو يتخيل أنه وضع يده على روحى . أقول لك يا سيدى انه من السهل عليه جداً أن يعيش فى هذا العـالم ، لأنه يرى الناس على نحو ما يتخيلهم ، فبين أولئك الناس الذين تخيلهم تخيلاً انما يعيش . ثم انه بخيل بخلاً فاحشاً. هو يتصور أننى لن أجرؤ أن أتعرض لك فأزعجك هذا الازعاج الا باذن منـــه . ولكننى أقول لك صادقاً كمن يقول لله نفسه : هذه هى الليلة الرابعة التى انتظرك فيها على هذا الجسر ، لأبرهن على أننى أستطيع الاستغناء عنه ، وأن أجد طريقى وحدى . قلت لنفسى : لأن أنحنى أمام الحذاء الجديد خـــير من أن أنحنى أمام الخف المهترىء .

ـ فمن قال لك اننى سأعبر الجسر ليلاً ؟

ـ اعترف اننى عرفت هذا مصـــادفةً ، أو قل بفضل غبـاوة الكابتن لبيادكين ، ذلك أنه عاجز اطلاقاً عن كتمان سر .. والروبلات الثلاثة التى أطلبها انما هى أجـر انتظارى هنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، انما هى ثواب

ما تحملت من عناء . أما ثيابي المبتلة فلن نتكلم عنها حتى لا أسيء اليك .

ـ أتجه أنا يسرةً ، وتتجه أنت يمنة . هنا نحن قد بلغنا آخر الجسر . اسمع يا فيدور ، انني أحب أن أُفهم منذ الكلمة الأولى مرةً الى الأبد : لن تنال مني كوبكاً واحداً . ولست في حاجة اليك ، ولن أكون في حاجة اليك يوماً ؟ ولا تعترض طريقي ، لا على هذا الجسر ولا في أي مكان آخر . فاذا عصيت أمري هذا أوثقتك ، وقدتك الى الشرطة .

ـ ولكن عليك أن تعطيني شيئاً ، على الأقل لأنني رافقتك . ان صحبة الطريق أمتع رغم كل شيء ...

ـ امض !

ـ ولكن هل تعرف الطريق ؟ هنا شوارع صغيرة !... في وسعي أن أكون دليلاً لك . ذلك أن هذه المدينة تشبه أن يكون الشيطان قد حملها في سلة مثقوبة ، فتناثرت على الدرب تناثراً هنا وهناك ...

ـ حذار !

ـ لاحظ يا سيدي انني يتيم لا يملك ما يدافع به عن نفسه .

ـ بل أنت واثق بنفسك ثقة كبيرة .

ـ لا ياسيدي ، لست واثقاً بنفسي الى هذه الدرجة . انما أنا واثق بك أنت .

ـ قلت لك انني لست في حاجة اليك .

ـ ولكنني أنا في حاجة اليك . هذه هي المسألة . سأنتظرك في عودتك ، مهما يحدث !...

ـ يميناً لأوثقنك اذا وجدتك هنا .

ـ اذن سأمضي أهيء لك حبلا توثقني به . أتمنى لك رحلة موفقة يا سيدي ، فقد ارتضيتَ على الأقل أن تحمي من المطر بمظلتك يتيماً

مسكيناً . وحسبي هذا حتى أظل شاكراً لك صنيعك الى أن أوارى في القبر .

قال الرجل هذا وغاب في الظلام . وتابع نيقولاى فسيفولودوفتش طريقه مهموماً أشد الهم . ان هذا المخلوق الذى هبط عليه من السماء مقتنع اقتناعاً تاماً بأن نيقولاى محتاج اليه ، وأنه لن يستطيع الاستغناء عنه ، حتى لقد أعلن له ذلك بغير حياء . ولكن من الجائز أيضاً أن يكون هذا المتشرد كاذب ، وأنه عرض عليه خدماته بمبادرة منه هو ، بدون علم بطرس ستيفانوفتش . فاذا صحّ هذا فان وضعه يكون أدعى الى مزيد من الاستغراب .

٢

ان البيت الذى كان نيقولاى فسيفولودوفتش ذاهباً اليه يقع فى آخر طرف المدينة ، فى طريق مسدودة مقفرة بين سياجين تمتد وراءهما بساتين خضار . انه بيت صغير منعزل خشبى قد بُنى منذ برهة وجيزة ، فجدرانه المكوّنة من حطبات مدوّرة لم تُكسَ بعدُ بألواح .

لقد تُرك مصراعا احدى النوافذ مفتوحاً عن عمد ، وأُشعلت فى الداخل شمعة قُصد منها أن تكون منارة يستهديها الزائر المتأخر المنتظَر قدومه فى تلك الليلة .

وكان ستافروجين ما يزال على مسافة نحو ثلاثين خطوة من المسكن الصغير حين لاح له على درجات المدخل رجل طويل القامة ، لعله رب البيت يرتقب وصول الزائر .

قال الرجل بصوت يدل على نفاد الصبر وعلى الخشية معاً :

ـ أهذا أنت ؟

فأجابه نيقولاى فسيفولودوفتش حين وصل الى درجات المدخل وطوى مظلته :

ـ نعم ، أنا !

فقال الكابتن ليادكين (فهو الذى كان ينتظر على الباب) :

ـ أخيراً !

ثم أضاف يقول بصوت فرح متعجل :

ـ هات المظلة ، من فضلك ! يا له من جو فظيع ! سأفتح المظله هنا في ركن . ادخل ، أرجوك ، ادخل !...

وكان باب الغرفة التي تضيئها شمعتان مفتوحاً على مداه كله .

قال لبيادكين :

ـ لولا أنك وعدتني وعداً قاطعاً بأن تزورنا اليوم لكففت عن انتظارك .

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر في ساعته :

ـ هي الساعة الواحدة الا ربعاً .

ودخل الغرفة . قال لبيادكين :

ـ وفوق ذلك ، هذا المطر الغزير ! والمسافة بعيدة جداً . ليس عندي ساعة . ولسنا نرى من نوافذنا الا مزارع الخضار هذه ... فلا نعلم بما يحدث ولا نعرف ماذا يجري . لا أقول هذا من باب التشكي ، فأنا لا أبيح لنفسي ، لا أبيح لنفسي ... ولكنني أقوله لسبب واحد هو أن نفاد الصبر يأكلني أكلاً منذ أسبوع كامل ... أريد أخيراً أن أعرف ...

ـ ماذا تريد أن تعرف ؟

ـ أريد أن أعرف مصيري يا نيقولاي فسيفولودوفتش ، اجلس ، أرجوك .

قال لبيادكين ذلك وانحنى أمام زائره مشيراً له الى مكان على الديوان وراء المائدة .

نظر نيقولاي فسيفولودوفتش حواليه . الغرفة صغيرة واطىء سقفها ، لا تضم من الأثاث الا ما لاغنى عنه : ديواناً وكراسي من خشب عارٍ بغير وسائد ، ومائدتين من خشب الزيزفون قد وُضعت احداهما أمام الكنبة ووُضعت الأخرى في ركن . وهذه المائدة الأخيرة تتراكم فوقها

أشياء شتى قد غُطّيت بمنشفة نظيفة . ثم ان الغرفة كلها تبدو معتنى بها. ان الكابتن لبيادكين لم يسكر منذ ثمانية أيام . وقد اصطبغ وجهه المحتقن بلون ضارب الى الصفرة . وهو يلقي على ستافروجين نظرات مستطلعة قلقة حيرى ، وكان واضحاً أنه لا يدرى بأىّ لهجة يتكلم ولا يعرف ما هو الوضع الذى يمكن أن يفيده أكثر من غيره .

قال وهو يشير الى الأشياء التى تحيط به :

ـ هكذا أعيش كما يعيش زوسيما* . زهد ، وعزلة ، وفقر ، وفق الأمنيات الثلاث التى كان يتغنى بها الفرسان القدامى .

ـ هل تعتقد أن الفرسان القدامى كانوا يتغنون بأمنيات من هذا النوع ؟

ـ لعل الأمور قد اختلطت علىّ . واحزناه ! انني امرؤ تعوزه الثقافة . لقد أفسدت على نفسى كل شىء . هل تصدق يا نيقولاى فسيفولودوفتش ؟ هنا انما تخلصت لأول مرة من أهوائى المشينة وعيوبى المخجلة ! لا كأس ، بل ولا قطرة ! أخيراً صار لى ركن ، وأصبحت منذ ستة أيام أحس بالأفراح والمباهج التىيحس بها قلب نقى طاهر. الجدران نفسها يفوح منها شذى أشجار الصنوبر وتذكرنى بالطبيعة . ماذا كنتُ حتى الآن ؟ ماذا كان وضعى ؟

فى الليل بلا مأوى أعدو
ولسانى متدل طول النهار*

على حد التعبير العبقرى الذى جرى به لسان الشاعر .. ولكن .. ولكنك مبتل تماماً ... ألا تريد فنجاناً من الشاى ؟

ـ لا تزعج نفسك .

ـ كان السماور يغلى ماؤه منذ ثمانى ساعات ... ولكنه انطفأ ...

كجميع الأشياء في هذا العالم • يقال ان الشمس ستنطفيء هي أيضاً ذات يوم •• على كل حال ، سأدبّر الأمر اذا لزم • ان آجافيا لم تنم •

ـ قل لي : هل ماريا تيموفيئفنا •••

فأسرع ليبادكين يجيبه بصوت خافت :

ـ هي هنا • هي هنا • هل تريد أن تلقى نظرة ؟

وأشار الى الباب المغلق الذي يؤدى الى الغرفة المجاورة •

ـ أهي نائمة ؟

ـ لا ، لا ، ما هذا الذي تقول ؟ انها تنتظرك منذ غروب الشمس • وهي منذ علمت بالنبأ عُنيت بزينتها واهتمت بمظهرها •

وهمّ ليبادكين أن يبتسم ، ولكنه أمسك •

سأله ستافروجين مقطباً حاجبيه :

ـ كيف حالها على وجه الاجمال ؟

ـ على وجه الاجمال ؟ تعرف أنت نفسك •••

ورفع منكبيه واصطنع مظهر من اعترته شفقة ، وأضاف :

ـ هي الآن تسحب أوراقاً من أوراق اللعب •••

ـ طيب• سوف نرى هذا فيما بعد• يجب أولاً أن نفرغ منك أنت•

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ذلك وجلس على كرسي •

ولم يجرؤ الكابتن أن يجلس على الديوان فجلس على كرسي آخر وانحنى الى أمام ليحسن الاصغاء ، قلقاً مهتماً أشد الاهتمام بما سيقوله به نيقولاى فسيفولودوفتش ••

قال نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يلقى نظرة على المائدة :

ـ ماذا يوجد هناك تحت المنشفة ؟

فالتفت ليبادكين الى وراء بحركة قوية وقال :

ـ هذا ؟ هذا كله من خيراتك وهباتك . للاحتفال باقامتنا هنا . ثم انني قدّرت أن الطريق طويل وأنك ستصل منهك القوة حتماً ...

قال ذلك وهو يبتسم متحنناً مترفقاً . ثم نهض واتجـه نحو المائدة سائراً على رءوس الأصابع ورفع المنشفة باحترام واحتياط. كان على المائدة عشاء بارد كامل : شرائح من لحم الخنزير ، ومن لحم العجل ، وأسـماك سردين ، وجبن ، وابريق أخضر ، وقنينة طويلة العنق لا شك أنها من خمرة بوردو . وكان ذلك كله حسن التنسيق يدل على أن يداً صناعاً خبيرة قد أعدّته .

ـ أأنت الذي هيأت هذا كله ؟

ـ بنفسي . كان كل شيء جاهزاً منذ أمس . أردت أن أحتفي بك. أنت تعلم أن ماريا تيموفيئفنا لا تكترث بهذه الأمور . ولكن الشيء الرئيسي هو أنني نلت ذلك كله من فضلك وكرمك . ذلك كله منك أنت . أنت هنا رب الدار ، أما أنا فلست على وجه الاجمال الا أجيراً لك بمعنى من المعاني ، ذلك أنني نيقولاي فسيفولودوفتش احتفظ باسـتقلالي الروحي رغم كل شيء ، رغم كل شيء . فلا تحرمني من هذه النعمة الأخيرة !

كذلك ختم الكابتن لبادكين كلامه متحمساً .

قال ستافروجين :

ـ همْ ... ولكن هلاّ عدت تجلس !..

ـ انني أحمل لك أعظم الامتنان ، ولكنني احتفظ باستقلالي !

وعاد يجلس متابعاً كلامه بقوله :

ـ آه يا نيقولاي فسيفولودوفتش ! ما أكثر الأشياء التي تراكمت في هذا القلب !... لقد أُرهقت من انتظارك . سوف تقرر الآن مصيري ومصير ... هذه المسكينة الشقية ، ثم بعد ذلك ... بعد ذلك ... كما

كنت أفعل في الماضي ، سأسكب أمامك كل ما يفيض به قلبي ، كما كنت أفعـــل منذ أربع سنين • ذلك أنني كنت تتنازل فترضى أن تصغى الىّ حينـذاك ، وكنت تقـرأ أشـــعاري ••• ماذا يهمني أنني لُقِّبت بلقب فالستاف ! لقد لعبت في حياتي دوراً كبيراً !••• وأنا أشعر اليوم بمخاوف كبيرة ، ومنك وحدك انما أنتظر الغوث والنجدة ، لأنك أنت ضيائي • ان بطرس ستيفانوفتش يعاملني بقسوة بالغة •

كان نيقولاى فسيفولودوفتش يصغي اليه باهتمام ، محدقاً اليه بنظرة ثابتة منتبهة ••• ورغم أن الكابتن كان قد انقطع عن السكر ، فانه لم يكن قد استـرد انسجامه النفسي وتوازنه الروحي • ان المـدمنين على الشراب ينتهي بهم الأمر في العادة الى أن يصبحوا لا يستطيعون الخروج من حالة الاضطراب والتشوش التي تتاخم الجنون ، ولكنها لا تمنعهم من أن يخدعوا ويغشوا ويضللوا ويمكروا كغيرهم سواء بسواء ، اذا اقتضى الحال •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش بلهجة أصبحت أرق :

ـ أرى يا كابتن أنك لم تتغير أي تغير منذ أربع سنين • صدق الذين زعموا اذن أن النصف الثاني من عمر الانسان انما تحدّده العادات التي يكون قد اكتسبها خلال النصف الأول •

هتف الكابتن يقـول بحماسـة كلها تظاهر ، لأنه كان من المولعين بالعبارات الجميلة :

ـ أقوال رائعة ! حلّ لغزُ الحياة ! من أحاديثك كلهـا يا نيقولاى فسيفولودوفتش ما أزال أحتفظ خاصـةً بتلك الجملة التي نطقت بهـا في بطرسبرج : « لا بد أن يكون الانسان عظيماً كل العظمة حقاً حتى يستطيع أن يقاوم العقل » •

ـ أو أن يكون أحمق كل الحماقة •

ـ ممكن ، اذا شئت . انك لم تنقطع يوماً عن نثر مثل هذه الومضات الفكرية الحلوة ، أما هم ... فليحاول ليوتين أو بطرس ستيفانوفتش معي !

ـ ولكن كيف كان سلوكك أنت يا كابتن ؟

ـ كان الذنب في ذلك ذنب السكر وكثرة الأعداء . أما الآن فقد انتهى هذا كله ، وسوف أغيّر نفسي كما تغير الحية جلدها . هل تعلم يا نيقولاى فسيفولودوفتش أنني أكتب وصيتي ، بل انني كتبتها ؟

ـ هذا شائق جداً . ماذا تورث ، ومَنْ تورث ؟

ـ أورث وطني ، أورث الانسانية ، أورث الطلبة . نيقولاى فسيفولودوفتش ، لقد قرأت في الصحف قصة حياة أمريكي . لقد أوصى بثروته لطلبة الأكاديمية بالمنطقة ، وأوصى بأن يُجعل جلده طبلاً يُقرع عليه النشيد الأمريكي ليلاً نهاراً . وا أسفاه ! ما نحن الا أقزام معتوهون بالقياس الى الأمريكيين ، وبالقياس الى جسارة تفكيرهم . ان روسيا طبيعة لا فكر . فلو حاولت أن أوصى بجلدي ليُصنع منه طبلٌ يُهدى الى جيش أخمولنسك*الذى شرفت بالخدمة فيه أول أمرى، من أجل أن يُعزف عليه النشيد الوطني الروسي أمام الجنود مجتمعين ، لاتُّهمت بالليبرالية ، ولصودر جلدي ... لذلك اكتفيت بأن أورث الطلبة . أريد أن أوصى بعظامي لاكاديمية العلوم ، ولكن على شرط أن يلصق فوق جمجمتي وريقة تكتب عليها هذه العبارة : « جمجمة ملحد تاب وأناب » .

كان الكابتن قد انتعش وتحمس . ان فكرة المليونير الأمريكي قد بث فيه حماسة صادقة . ولكن لما كان من جهة أخرى ماكراً فقد أراد كذلك أن يُضحك ستافروجين الذى طالما قام لديه بدور المهرّج . غير أن

نيقولاى فسيفولودوفتش لم يبتسم . بالعكس : ها هو ذا يسأل مشتبهاً مرتاباً :

ـ أتنوى اذن أن تنشر وصيتك أثناء حياتك فتنال مكافأة ؟

ـ هب هذا يا نيقولاى فسيفولودوفتش ! ماذا لو كانت هذه هى نيتى فعلاً ؟

كذلك سأل ليبادكين متروياً محاذراً ، وأضاف يقول :

ـ انظر الى أين وصلت الآن ! لقد انقطعت حتى عن نظم الشعر . وكنتَ أنت مع ذلك تجد متعة فى قراءة قصائدى الصغيرة يا نيقولاى فسيفولودوفتش بينما أنت تُفرغ زجاجة من خمرة طيبة ... هل تتذكر ؟ لكننى هجرت قلمى . لم أكتب بعد ذلك الا قصيدة واحدة ، شيئاً من نوع « القصة الأخيرة » التى كتبها جوجول وفيها يعلن لروسيا أنه قد انتزع هذا العمل من صدره* أنا أيضاً نظمت أغنيتى الأخيرة . انتهى !

ـ ما هذه القصيدة ؟

ـ عنوانها : « اذا كُسرت ساقها » .

ـ كيف ؟

لم يكن الكابتن ينتظر الا أن يلقى عليه هذا السؤال . كان يقدر أشعاره قدراً كبيراً . لكنه بحكم ازدواج نفسه كان يسعده كذلك أن يُضحك ستافروجين الذى كان فى الماضى يضحك الى حد التلوى والتعقف اثناء الاستماع اليه . فبذلك كان الشاعر والمهرّج يجدان كلاهما ضالتهما . على أن الكابتن كان فى هذه المرة يرمى الى هدف آخر أيضاً ، هدفٍ دقيق حرج : كان يريد من انشاد أشعاره أن يبرىء نفسه فى أمر كان يخشاه كثيراً ، وكان يشعر فيه بأنه مذنب آثم .

ـ « اذا كُسرت ساقها » ، أى أثناء ركوبها الخيل. ما هذا الا نزوة

خيال يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، ما هو الا حلم ، لكنه حلم شاعر : فى ذات يوم ، صادفت فى الشارع سيدة تلبس ثوب الآمازون الذى تلبسه الفارسات ، فخطف منظرها بصرى ، فألقيت على نفسى عندئذ هذا السؤال: « ماذا يحدث اذا ... » أى اذا ... ان الجواب واضح . سيتراجع جميع المعجبين ، جميع المولّهين بها ، الطامحين اليها ... صباح الخير ، مساء الخير . ولا يبقى الا الشاعر المحطم قلبه » . يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، ان الحب مباح ، حتى لأحقر حقير ، حتى لقمل ... ما من قانون يستطيع أن يمنع ذكَر القمل أن يحب . ومع ذلك انزعجت السيدة من رسالتى وأشعارى ؟ ويظهر أنك أنت أيضا قد غضبت . فاذا صدق هذا فهو أمر مؤسف جدا . حتى لقد رفضتُ أن أصدّقه . من ذا الذى يمكن أن تُلحق به أخيلتى أذى ؟ ثم اننى أحلف لك أن الذنب فى هذا ذنب ليبوتين : لقد ظل يلح علىّ قائلاً : « أكتب اليها ، اكتب اليها ؟ كل انسان يحق له أن يكتب رسائل . » . وهكذا أرسلت اليها أشعارى .

ـ بل أعتقد أنك طمحت الى تزوجها ، أليس هذا صحيحا ؟

ـ هذه تخرصات أعدائى . اننى محاط بأعداء لا حصر لهم .

قاطعه ستافروجين قائلاً بخشونة :

ـ اقرأ أشعارك .

فقال لبيادكين :

ـ ما هى الا حلم ، الا نزوة خيال ، لا أكثر من ذلك ...

ومع ذلك نصب جذعه ، ورفع يده ، وأخذ ينشد :

حلوة الحلوات فقدت ساقا
فاذا هى أحلى مرتين
واذا الذى كان يحبها كثيرا
اصبح مولها بها ضعفين .

قال ستافروجين وهو يحرك يده باشارة نفاد الصبر :

ـ كفى !

فاذا بالكابتن لبيادكين يقفز فوراً الى موضوع آخر ، كأن الحديث لم يكن عن أشعاره أبداً ، فيقول :

ـ اننى لا أنقطع عن الحلم ببطرسبرج . اننى أتطلع الى بعث نفسى. أيها المحسن الىّ ، هل يمكننى أن أؤمل أن لا تضن علىّ بما أحتاج اليه للقيام بهذه الرحلة الى بطرسبرج ؟ لقد انتظرتك طوال هذا الاسبوع ، كما تُنتظر الشمس .

ـ لا ، لا ، لا تعوّل على هذا . لم يكد يبقى معى شىء من مال ؟ ثم علام أعطيك مالاً ؟

كذلك قال ستافروجين وقد ثار حنقه فجأة .

وأخذ يعدّد جميع الأخطاء التى ارتكبها الكابتن : أكاذيبه ، ادمانه على السكر ، تبديده المال الموقوف على ماريا تيموفيئفنا التى أُخرجت من الدير ، الرسائل الوقحة ، التهديدات بالكشف عن أمر الزواج ، الشائعات الكاذبة عن داريا بافلوفنا ، الخ . فكان الكابتن يضطرب على كرسيه ، ويُجرى حركات واشارات عريضة ، ويحاول أن يحتج ، ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين كان يوقفه بشدة وصرامة . وقال له أخيراً :

ـ انك تتكلم طول الوقت عن « عار لحق بأسرتك » . فأى عار يلحق بك اذا كانت أختك هي زوجة ستافروجين الشرعية ؟

قال لبيادكين :

ـ ولكن الزواج بقى مكتوماً يا نيقولاى فسيفولودوفتش ، بقى مكتوماً . هذا سر محتوم . اننى أتلقى منك مالاً فأُسأل : « لماذا يبعث اليك هذا المال ؟ » . وأنا متقيد بما عاهدت عليه ، فلا أستطيع أن أجيب ، وبذلك أسىء الى أختى ، وأسىء الى شرف الأسرة .

كان الكابتن قد أعلى صوته . ذلك موضوع كان يؤثر فيـــه تأثيرا خاصا ، وكان هو يعوّل على استغلاله لتحقيق مصـــلحته . لم يوجس المسكين ما كان ينتظره . وها هو ذا نيقولاى فسيفولودوفتش ينبئه بلهجـة هادئة ، كأنه يسوّى مسألة منزلية ، بأنه سوف يذيع على الملأ فى خـلال الايام القليلة القادمة ، وربما غداً أو بعد غد ، نبأ زواجه ، وأنه « سيُعلم به الشرطة والمجتمع » ، وأن قصة « العار الذى لحق بالأسرة » ستسوّى حينذاك ، وكذلك مسألة المساعدات .

حملق الكابتن بعينيه . حتى انه لم يفهم ، فاضطر ستافروجين أن يمده بايضاحات دقيقة .

قال ليبادكين :

ـ ولكنها ... نصف مجنونة ...

ـ سأدبر أمورى وأتخذ اجراءاتى .

ـ ولكن ... ما عسى تقول أمك ؟

ـ تقول ما تشاء !

ـ ولكن سيكون عليك أن تدخل زوجتك الى منزلك ...

ـ ربما . على كل حال ، هذا ليس شأنك ، ولا علاقة لك به البتة !

صاح الكابتن يقول :

ـ كيف ؟ وأنا ماذا أصير فى هذه الحالة ؟

ـ لن تدخل بيتى طبعا .

ـ لكننى أخوها .

ـ الاخوة الذين يكونون مثلك يُبعَـــدون . اقض فى الامر أنت نفسك : لماذا ينبغى لى أن أعطيك مالاً اذا أذعت زواجى فى الملأ ؟

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ، نيقولاى فسيفولودوفتش ! هذا غـير

ممكن ! فكر مزيدا من التفكير ! انك لن تريد أن تضيّع نفسك ... ما عسى يظن الناس فيك ؟ ما عسى يقولون عنك ؟

ـ يستوى عندى كل شيء . لقد تزوجت حين استبدت بى هذه النزوة من نزوات الخيال بعد عشاء كثرت خموره ، من أجل أن أربح بضع زجاجات من الخمرة راهنوا عليها ضدى ... والآن سوف أعلن هذا الزواج اذا كان ذلك يسليني ويضحكنى .

قذف ستافروجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة حانقة حنقاً شديدا روّع الكابتن فجعل يأخذ كلامه مأخذ الجد .

ـ ولكن أنا ؟ ماذا أصير أنا فى هذه الحالة ؟ ... ذلك هو السؤال الأساسى ! ... أتراك تمزح يا نيقولاى فسيفولودوفتش ؟

ـ لا ، لا أمزح .

ـ قل ما تشاء يا نيقولاى فسيفولودوفتش . اننى لا أصدقك ... سأتجه الى المحاكم .

قال ستافروجين :

ـ أنت غبى غباءً خارقاً يا كابتن .

فدمدم ليبادكين يقول :

ـ جائز . ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذى بقى لى أن أفعله . فى الماضى ، حين كانت تعمل للناس ببطرسبرج ، كنت ما أزال أستطيع أن أجد لى مأوى هنا أو هناك . ولكن ما الذى أصير اليه اذا أنت تركتنى ؟

ـ كنت أظن أنك ذاهب الى بطرسبرج لتغير طراز حياتك . بالمناسبة : لقد سمعت أنك تستعد للوشاية بجميع الآخرين ، أملاً فى الحصول على عفوٍ عنك . هل هذا صحيح ؟

لبث الكابتن فاغر الفم محملق العينين ٠

فبدأ ستافروجين يتكلم بجد ورصانة ووقار ، مائلاً على ضيفه ، قائلاً له :

ـ اسمعني يا كابتن ٠٠٠

كان ستافروجين قد تكلم حتى ذلك الحين بطريقة ملتبسة بحيث أن ليادكين الذى اعتاد أن يمثّل دور المهرج كان ما يزال يراوده شيء قليل من شك ، فكان يتساءل : ترى هل مولاه غاضب منه حقا أم هو يضحك عليه ؟ أهو يفكر في اذاعة نبأ زواجه على الملأ فعلاً أم أنه يسخر منه ويتسلى به ؟ غير أن ما اتخذه وجه نيقولاى فسيفولودوفتش من قسوة وجهامة قد ذهب بآخر شك عند ليادكين فيما يظهر ، فسرت في ظهر الكابتن قشعريرة باردة ٠

تابع ستافروجين كلامه يقول :

ـ اسمعني يا كابتن جيدا وقل لى الحقيقة كلها : هل وشيت بالآخرين أم أنت لم تش بهم ؟ أشرعت في شيء أم لا ؟ ألم ترتكب حماقة فترسل رسالة ما ؟

ـ لا ، لم أفعل بعد ٠٠٠ بل انني لم يخطر هذا ببالى أبدا ٠

بذلك أجاب ليادكين ثابتَ النظرة ٠

قال له ستافروجين :

ـ أنت تكذب ٠ ان ذلك يخطر ببالك ٠ انك تفكر فيه ٠ بل ان الغاية الوحيدة التى تستهدفها من السفر الى بطرسبرج هى هذا الامر ٠ اذا كنت لم تكتب بعد ، أفلم تثرثر على الاقل ؟ قل الحقيقة : لقد سمعت أشياء عن هذا !

تمتم الكابتن المسكين يقول :

ـ قلت بضع كلمات لليبوتين وأنا سكران • ان ليبوتين خائن • لقد فتحت له قلبى •

ـ ليست المسألة مسألة قلبك ، وانما المسألة أن لا يكون المرء غبياً أحمق • اذا كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالك فلقد كان ينبغى لك على الاقل أن تحتفظ بها لنفسك سراً مكتوما لا تفضى به الى أحد • الأذكياء يعلمون اليوم أن الصمت خير من الكلام •

صاح الكابتن يقول مرتعشاً :

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ، ولكنك أنت لم تشارك في شيء ، ولست أنت من وشيت به •••

ـ طبعا ، لم يخطر ببالك في يوم من الأيام أن تشى ببقرتك الحلوب!

ـ نيقولا فسيفولودوفتش ، أترك لك أن تقضى فى الأمر بنفسك ، أن تقضى في الامر بنفسك ! •••

قال ليادكين ذلك وهو يبكى يائساً ، وطفق يروى بصـــوت لاهث قصة حياته خلال هذه السنين الاربع الاخيرة • انها قصـــة بلهاء لرجل أحمق ، أقحم نفسه فى قضية لا شأن له بها البتة ، وظل الى آخر لحظـــة لا يفهم خطورة هذه القضية ، لانشغاله بالسكر والقصف واللهو •

روى ليادكين أنه حين كان لا يزال ببطرسبرج قد انجرف في بداية الامر من باب الصداقة ، « من حيث هو طالب مع أنه لم يكن طالبـــا » ، فأخذ ـ وهو لايدرى ماذا يفعل ـ يرمى نشرات تحريضية فى سلالم المنازل ، ويدس منها عشرات تحت الابواب وفي صناديق البريد ، ويحمل منها الى المسرح فيضعها فى قبعات المشاهدين وجيوبهم • وصار فى النهاية يقبل أن يتقاضى مالاً « فأنت تعرف مواردى ، تعرفها ، أليس كذلك ؟ » • ثم وزّع أنواعا شتى من المنشـــورات في ولايتين • « آه يا نيقـــولاى

فسيفولودوفتش ، ان ما كان يثيرني أكثر من كل ما عـــداه هو أن ذلك جميعه كان مخالفا للقوانين المدنية مخالفة مطلقـــة ، ولا سيما لقوانين الوطن ! » كذلك صاح يقول الكابتن ، وأضاف شارحا : « من ذلك مثلاً قولهم ان على الفلاحين أن يتسلحوا بفئوسهم ، فاذا الذين يخرجون في الصباح فقراء ، يعودون في المساء أغنياء . فكّر في هذا الكلام ! لقـــد كنت أرتعش هولاً ، ومع ذلك استمررت في توزيع هذه الاوراق ! أو ربما كان المنشور* نداءً يتألف من خمسة أســطر أو ستة ، موجهاً الى روسيا كلها : « أغلقوا الكنائس بأقصى سرعة ، أعدموا الله ، الغوا الزواج، أزيلوا الارث ، تسلحوا بسكاكين ! » وأشياء من هذا النوع لا يعلم بها الا الشيطان ! ... وحين كنت أوزّع هذه الورقة انما أوشكت ذات مرة أن أُعتقل. ولكن ضربني الضباط في الثكنة ضربا مبرحا ، ثم أطلقوا سراحي ... بارك الله في كرمهم وسماحتهم ! ثم ، في السنة الاخيرة ، كدت أن يُقبض عليّ حين أعطيت كارافايف ورقة بخمسين روبلاً من صنع فرنسا. ولكن أحمد الله على أن كارافايف الذى كان سكران قد غرق في غدير فخرجت أنا من المأزق . وهنا ، عند فرجنسكي ، ناديت بحق المرأة في الحب . وفي شهر حزيران (يونيه) طفقت أوزع نشرات في مقاطعة س ... من جديد . ويبدو أنهم يريدون اجباري على الاستمرار في القيام بهذ العمل . لقد أبلغني بطــرس ستيفانوفتش أن عليّ أن أطيع : انه يهددني منذ مدة طويلة . آه ... ليتك تعلم كيف عاملني يوم الاحـــد الماضي ! نيقولاي فسيفولودوفتش ، انني عبد ، انني دودة من دود الارض، ولكنني لست الهاً ، وبهذا انما أختلف عن دريافين* . غير أنك تعــرف مواردي !

كان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي اليه باهتمام . فقال :

ـ علمت أشياء لم أكن أعرفها البتة • طبعا لا شىء مستحيل على رجل مثلك •

ثم أضاف بعد لحظة تفكير يقول :

ـ اسمع ، ان شئت قل له ، قل للذى تعرفه منهـــــم ان ليبوتين قد كذب ، وانك لم تشأ الا أن تخيفنى مهددا بالوشاية بى ، لافتراضك أننى أنا أيضاً معرَّض للخطر ، وذلك بغية أن تطلب منى مزيدا من المال ••• هل فهمت ؟

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ، هل تعتقد حقا أننى مهدد بخطر ؟ لقد انتظرتك مدة طويلة لأسألك النصح •

ابتسم نيقولاى فسيفولودوفتش ابتسامة ساخرة • وقال له :

ـ هبنى أعطيتك مالاً فانهم لن يدعوك تسافر ••• ولكن آن لى أن أذهب الى ماريا تيموفيئفنا •

ونهض •

قال ليادكين :

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ؟ وما مصير ماريا تيموفيئفنا ؟

ـ قلت لك •

ـ هل يُعقل أنك كنت تتكلم جاداً ؟

ـ أما زلت لا تصدقنى ؟

ـ هل يُعقل أن ترمينى كما يُرمى حذاء مهترىء ؟

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ضاحكا :

ـ سوف أرى • هيَّا • دع لى أن أمرّ !

ـ ألا تريد أن أبقى على درجات المدخـــــل حتى لا أتعرَّض لأن

أسمع ، رغم ارادتي ؟ ... ان الغرف صغيرة جدا .

ـ فكرة حسنة . اخرج الى درجات الباب . ولكن خذ مظلتي .

ـ مظلة ... مظلتك ؟ أأنا أستحق هذا الشرف ؟

بذلك تمتم الكابتن وهو يبالغ في المذلة .

قال ستافروجين :

ـ كل انسان جدير بمظلة .

فأجاب لبيادكين :

ـ بهذه الجملة عيَّنت « الحد الأدنى » للحقوق الانسانية دفعة واحدة ...

لكن لبيادكين كان يتكلم آلياً . لقد صعقته الانباء التي سمعها فهو لا يستطيع أن يثوب الى رشده وأن يسيطر على نفسه .

ومع ذلك فانه ما ان أصبح على درجات المدخل ونشر المظلة ، حتى أخذت ترتسم في ذهنه الطائش الماكر فكرة مهدئة ومألوفة . قال لنفسه : لا شك أنه قد أُريدَ خداعُه ، وتخويفه ، فليس عليه هو أن يخاف .

وقال يحدث نفسه : « اذا كان يمكر ويكذب ، فذلك دليل على أن ثمة شيئاً يريد اخفاءه . » . لم يستطع لبيادكين أن يصدّق ما قاله له ستافروجين من أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ : هذا مستحيل . « صحيح أن في وسع المرء أن يتوقع من مثل هذا الرجل كل شيء . فهو لا يحيا الا ليسيء الى البشر . ولكن لعله خائف مني منذ فضيحة يوم الاحد ، لعله خائف مني الآن أكثر مما كان خائفا في أي يوم من الأيام ... لعله انما أسرع يؤكد لي أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ خشية أن أسبقه أنا الى ذلك . دعك من السخافات يا لبيادكين ! اذا لم يكن خائفا من رأي الناس فلماذا جاء في الليل ، مختبئاً كاختباء لص ؟ واذا كان خائفا ، فهو اذن

خائف مما سيحدث الآن ، فى غضون الايام التالية ... كن على حـــذر يا لبيادكين ! كن يقظا ! ...

« انه يريد أن يخيفنى ببطرس ستيفانوفتش . وهذا مخيف حقا ... ما كان أغبانى حين تحدثت الى ليبوتين . الشيطان وحده يعرف ماذا يهيء هؤلاء الأبالسة . اننى لم أفهم من أمرهم شيئاً فى يوم الايام . ها هم أولاء يتحركون ويسعون هنا وهناك كما كانوا يفعلون منذ خمسة أعوام . ولكن لمن كان يمكن أن أشى بهم ؟ « ألم ترتكب حماقة فتكتب الى أحد ؟ » . هم ... معنى هذا أن من الممـــكن أن يكتب المرء متظـــاهرا بالحماقة والبلاهة . . « من أجل هـــذا انما تريد أن تســـافر الى بطرسبرج » . يا للوغد ! أنا انما راودنى هذا حلما من الاحلام ، فكيف أمكنه يضبطنى متلبسا بالحلم نفسه . لكأنه يريد أن يدفعنى هو نفسه الى القيام بهـــذه الرحلة . هناك حالتان يجب النظر فيهما . حالتان لا ثالثة لهما . فاما انه خائف لأنه ارتكب عملاً طائشا ما ، واما انه ليس خائفا من شيء فهو يريد أن يدفعنى الى الوشاية بالآخرين ! ... آه ... لبيادكين ... اياك أن تقع فى الفخ ! ... » .

وبلغ لبيادكين من الاسترسال فى خواطره هـــذه أنه نسى حتى أن يصيخ بسمعه الى ما كان يجرى فى الغرفة الثانية . ولـكن كان يصعب أن يسمع شيئاً ما ، فالباب سميك ، والحديث يجرى بصوت خافت .

واذ لم يستطع الكابتن لبيادكين ان يسمع الا بضعة أصوات غـــير متميزة ، بصق من شدة الغضب ، وعاد يصفر على درجات المدخل شارد الذهن .

٣

ان غرفة ماريا تيموفيئفنا ، المزدانة بسجادة رائعة ، أوسع من غرفة الكابتن مرتين . ولكن الأثاث الذى فيها أثاث بسيط كل البساطة أيضا ، مصنوع صناعةً غليظة كذلك . على أن غطاءً زاهى الألوان كان يغطى المائدة الموضوعة أمام الديوان وفوقها مصباح مُشعل . وهناك ستارة منشورة على طول الغرفة ، تخفى السرير عن الأنظار . وعلى مقربة من المائدة يوجد أيضا مقعد منجدٌ ظهره ، غير أن ماريا تيموفيئفنا لا تجلس عليه أبدا . وثمة قنديل صغير كان يشتعل أمام أيقونة فى أحد الأركان . وعلى مائدة ماريا تيموفيئفنا قد صُفَّت جميع الاشياء التى هى فى حاجة اليها : ورق لعب ، مرآة صغيرة ، كتاب أغان ، ورغيف خبز باللبن ، وكذلك كتابان مصوَّران أحدهما يضم قصص رحلات مما يقرؤه الشباب، والثانى يضم أساطير من القرون الوسطى .

كانت ماريا تيموفيئفنا تنتظر الزائر ، كما قال الكابتن . ولكن حين دخل نيقولاى فسيفولودوفتش وجدها نائمةً وقد اضطجعت نصف اضطجاع على الديوان مسندةً رأسها الى وسادة . فأغلق ستافروجين الباب بغير ضوضاء وأخذ يتأمل النائمة دون أن يتحرك من مكانه .

كذب ليادكين : لم تكن ماريا تيموفيئفنا قد أبدلت هندامها وعُنيت بزينتها . انها ترتدى ذلك الثوب القاتم نفسه الذى كانت ترتديه يوم الاحد الماضى عند فرفارا بتروفنا . وما يزال شعرها معقودا عند قفا عنقها كبةً صغيرة . وكانت عنقها الطويلة الجافة عارية . أما الشال الاسود الذى كانت فرفارا بتروفنا قد أهدته اليها فقد كان الى جانبها مطوياً بعناية

كبيرة على الديوان • وكان وجهها مثقلاً بالمساحيق والأصـــباغ عـلى عادتها •

وما كادت تنقضي على دخول نيقولاى فسيفولودوفتش دقيقة واحدة حتى استيقظت ماريا تيموفيئفنا بغتةً ، كأنما هي قد أحسّت نظرته ، ففتحت عينيها وانتصب جذعها بحركة قوية • ولكن كأن شيئاً غريبا كان يجرى في ذهن الزائر : فظل جامدا قرب الباب يحدّق الى وجه المرجاء تحديقا عنيداً بنظرة نافذة • ولعل هذه النظرة قد بدت للمرأة قاسية ، أو لعل المرأة قرأت فيها الاشمئزاز ، أو لعل المرأة توهمت توهماً لا أكثر ، ولكن مهما يكن من أمر ، فان تعبيرا عن الارتياع الشديد والذعر القوى يشنّج وجه الفتاة المسكينة بعد انتظار بضع لحظات ، ثم اذا هي ترفع ذراعيـــها فجأةً كأنما لتحمي نفسها ، واذا هي تجهش باكية منتحبة ، تماما كما يفعل طفل خاف • فلو انقضت لحظة أخرى ، لأخذت تصرخ مستغيثة • ولكن الزائر صحا من شروده وثاب الى نفسه ، فتبدلت هيئته حالاً ، واقترب من المائدة وهو يبتسم ابتسامة لطيفة ودودا • وقال للفتاة وهو يمد اليها يده :

ـ سامحيني يا ماريا تيموفيئفنا ! لقد روّعتك اذ دخلت عليك فجأة بغير استئذان •

فسرعان ما فعلت هذه الكلمات اللطيفة فعلها في نفس الفتاة • فزال رعبها ، لكنها ما برحت تتفرس في ستافروجين بشيء من القلق ، وكان واضحا أنها تبذل جهدا من أجل أن تفهم ما يحدث • ومدّت اليه يدها خجلى وجلى ، ثم ظهرت على شفتيها في آخر الأمر ابتسامة •

دمدمت تقول وهي تلقي عليه نظرة غريبة :

ـ نعمت صباحا يا أمير •

فقال الامير مبتسما بمزيد من المودة والبشاشة :

ـ أغلب الظن أنك كنت ترين حلماً ثقيلا .

ـ ولكن كيف عرفت أنني حلمت « بهذا » .

ثم عادت ترتجف فجأةً ، وارتدت الى وراء ، رافعةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها ؛ وبدا عليها أنها توشك أن تعـــود الى البكاء . فقال لهـا ستافروجين ملحاً :

ـ هلاَّ رجعت الى رشدك ! ممَّ أنت خائفة ؟ هل يُعقل أن لا تكوني قد عرفتني ؟

ولكنها لم تهدأ في هذه المرة الا بعد برهة طويلة . كانت تنظر اليه صامتة ، وقد استبد بها قلق أليم . كان واضحا انها تحاول أن تســـتجلي فكرةً تعذِّبها فلا تستطيع الى ذلك سبيلا . فهي تارة تخفض عينيها وتارةً تلقي على ستافروجين نظرة سريعة . وفجأةً بدا عليها أنها اتخذت قرارا رغم أنها لمَّا تستردَّ هدوءها بعدُ كاملاً .

قالت له بصوت ثابت جازم :

ـ اجلس الى جانبي ، أرجوك ، حتى أستطيع أن أراك من قـــرب فيما بعد .

واضح أنها اهتدت الآن الى الفكرة التي كانت تبحث عنها .

وتابعت كلامها تقول :

ـ لن أنظر اليك حالاً ، بل سأخفض عينيَّ . وأنت أيضا لا تنظر اليَّ ، الى أن أرجوك أن تفعل .

ثم ألحت قائلة بشيء من التململ :

ـ ما بالك لا تجلس ! هلاَّ جلست !

كان واضحا أن هناك فكرة جديدة تتضح لها شيئاً بعد شيء .

فجلس ستافروجين وانتظر . وساد صمت طويل . ثم دمدمت تقول أخيرا بما يشبه الاشمئزاز :

ـ همْ ... ذلك كله يبدو لى غريبا جدا . ان أحلاما سيئة تطاردنى، ولكن لماذا رأيتك انت فى الحلم منذ هنيهة ، كما أنت الآن تماما ؟

قال ستافروجين متذمرا وهو يلتفت اليها رغم حظرها عليه ذلك :

ـ لنترك الأحلام .

وظهر فى وجهه ذلك التعبير نفسه الذى ألمّ بقسماته سريعا منذ قليل . وكان يرى أن ماريا تيموفيئفنا ترغب رغبة قوية فى أن ترفع بصرها نحوه ، ولكنها تحجم عن ذلك ، مستمرةً على النظر الى أرض الغرفة بعناد .

قالت وهى ترفع صوتها فجأة :

ـ اسمع يا أمير ، اسمع يا أمير ...

فهتف ستافروجين يسألها فاقداً صبره :

ـ لماذا تشيحين ؟ لماذا لا تنظرين الىَّ ؟ ما هذه المسرحية ؟

ولكن بدا كأنها لم تسمعه . وكررت تقول للمرة الثالثة بلهجة جازمة وقد اتخذ وجهها تعبيرا عن الهمّ والعداء :

ـ اسمع يا أمير . حين قلت لى فى العربة انك ستذيع نبأ الزواج على الملأ أخافنى أن أعلم أن السر سينكشف . لا أدرى ماذا أصنع ! لقد فكّرت طويلاً ، وانى لأرى الآن رؤية واضحةً أننى لا أناسبك البتة . صحيح أننى سأعرف كيف أتزين ، وقد أحسن أيضا استقبال الناس : ان تقديم فنجان من الشاى ليس بالامر الصعب كثيرا ، لا سيما حين يكون للمرء خدم . ولكن ، رغم كل شىء ، ما عسى يقول الغرباء ؟ ... لقد أدركت يومَ الأحد كثيرا من الأمور فى ذلك المنزل . كانت الآنسة الجميلة

لا تنفك تنظر الىَّ ، ولا سيما بعد دخولك . أنت الذى دخلت عندئذ ؟ ألست أنت الذى دخلت ؟ أما أمها فما هى الا امرأة مضحكة من نساء المجتمع . وكذلك كان ليبادكين مضحكا . حتى لقد أخذتُ أنظر الى السقف طول الوقت من أجل أن لا أضحك . كان دهانه جميلا ، ذلك السقف . وأما أمه « هو » ، فقد خُلقت لتكون رئيسة دير . اننى أخاف منها . لقد أعطتنى مع ذلك شالاً أسود . لا شك أنهم جميعا قد قالوا فى حقى سوءا . ولكننى لا أحقد عليهم . قلت لنفسى فى ذلك اليوم : أنا لا أصلح أن أكون قريبةً لهؤلاء الناس . صحيح أن الكونتيسة لا تطلب منها الا مزايا نفسية ، لأن لديها خدماً كثيرين يقومون بأعمال المنزل . وانما ينبغى لها فى أكثر تقدير أن تكون على شىء من « الغندرة » ، حتى تستطيع أن تحسن وفادة المسافرين الاجانب . ومع ذلك فانهن جميعا كن ينظرن الىَّ يومَ الاحد ذاك وقد لاح فى وجوههن كرب ويأس . داشا وحدها ملاك . اننى أخشى كثيرا أن يؤلموه « هو » بابداء ملاحظة متسرعة فى حقى .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش غاضبا :

ـ لا تخشى شيئاً ، ولا تقلقى !

ـ وهبه أحس بشىء من العار ، فلن يغضبنى ذلك ، لأن الشعور بالشفقة يغلب على الشعور بالعار ، وان كان ذلك يختلف باختلاف الناس طبعا . وانى لأعلم أنهم أحق بشفقتى منى بشفقتهم .

ـ أظن أنهم جرحوك جرحاً عميقا يا ماريا ، أليس كذلك ؟

قالت وهى تبتسم ابتسامة بريئة :

ـ جرحونى ؟ أنا ؟ لا . أبدا ! كنت أنظر اليكم جميعا : فأراكم تغضبون وتشتجرون . انكم لا تعرفون حتى كيف تضحكون ضحكا

صادرا عن القلب حين تجتمعون . ثروات كبيرة ، وفرح ضئيل ! ... ذلك كله يبعث على الاشمئزاز . مهما يكن من أمر ، فانني الآن لا أحس بشفقة على أحد . وانما أنا أشعر بشفقة على نفسي .

ـ سمعت أن أخاك قد جعل حياتك قاسية في غيبتي ، فهل هـــذا صحيح ؟

ـ من قال لك ذلك ؟ ترّهات ! بالعكس : الامر الآن أسوأ . الآن أرى أحلاما سيئة ، أرى أحلاما سيئة لأنك جئت . انى أتساءل : لـــماذا جئت ؟ لماذا ؟ قل لى : لماذا جئت ؟

ـ ألا تريدين أن تعودى الى الدير ؟

ـ تنبأت بهذا ! هاهم أولاء يعرضون عليّ أن أرجع الى الدير ! لقد شبعت من رؤيته ، ديرك هذا ! ما عساني فاعلةً هناك ؟ أنا الآن وحيـــدة وحدة تامة . فات أوان استئناف حياة ثالثة .

ـ يبدو عليك الغيظ والحنق . أتُراك خائفةً أن يكون حبى لك قد زال ؟

ضحكت ماريا تيموفيئفنا ضحكة احتقار وقالت :

ـ أنا لا أهتم بك البتة . وانما انا خائفة على نفسى ، خائفة أن يزول حبى لشخصٍ ما فى يوم قريب . لعلنى قد أذنبت فى حقه بارتكاب خطيئة كبيرة جدا .

أضافت ماريا هذه الجملة الاخيرة فجأة كأنها تكلم نفسها . وتابعت تقول :

ـ ... لكننى أجهل الذنب الذى اقترفته . وهذا هو شقائى كله . دائما ، دائما ، فى الليل وفى النهار ، منذ خمس سنين ، لم تنقطع هـــذه الفكرة عن تعذيبى ، وهى اننى مذنبة فى حقه ... ما هو ذنبى ؟ انني

أصلي لله ، وأفكّر بغير انقطاع في الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها والآن يتضح أن ذلك كان صحيحا .

ـ ما الذي كان صحيحا ؟

كذلك سألها ستافروجين ، غير انها تابعت كلامها تقول دون أن تجيب عن سؤاله وربما دون أن تسمع سؤاله :

ـ واني لأتساءل مع ذلك ألم يكن له «هو» دخل في الامر . ولكن كيف أمكنه أن يرتبط بمثل هؤلاء الأشرار ؟ ان الكونتيسة يطيب لها طبعا أن تلتهمني كوحش كاسر ، وان تكن قد أركبتني عربتها . الجميع اشتركوا في المؤامرة ؟ هل يُعقل أن يكون قد اشترك فيها هو أيضا ؟ هل يُعقل أن يكون قد خانني ؟ (هنا أخذت ذقنها وشفتاها ترتعش) . اسمع ، انت : هل تعرف قصة جريشكا أوتريبيف الذي أعلنت الكنيسة طرده ؟ *

لم يجب نيقولاي فسيفولودوفتش .

قالت وقد عزمت أمرها فجأة :

ـ على كل حال ، سألتفت الآن وأنظر اليك . فالتفت أنت الى جهتي وانظر اليّ ، ولكن أنعم النظر بانتباه . أريد أن أراك لآخر مرة ...

انني أنظر اليك منذ مدة طويلة .

قالت ماريا تيموفيئنا وهي تتأمله منتبهة :

ـ همْ ... لقد سمنتَ كثيراً .

وأرادت أن تضيف شيئا آخر ، ولكن الرعب شنّج وجهها فجأة من جديد ، وارتدت الى وراء رافعة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها .

فصاح نيقولاي فسيفولودوفتش يسألها بما يشبه الحنق :

ـ ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟

لكن رعبها لم يدم الا لحظة واحدة ، وها هي ذي ابتسامة غريبة تعقف وجهها ، ابتسامة ريابة شكاكة ، منفّرة مزعجة . وقالت فجأة بصوت جازم ملح :

ـ أرجوك يا أمير ، انهض وادخل !

ـ أدخل ؟ أدخل الى أين ؟

ـ لبثتُ خمس سنين أتخيل دائما كيف سيدخل عليّ . انهض ، واذهب الى الغرفة الاخرى . وسأبقى أنا جالسةً هنا كأنني أنتظر أحدا ، وسأتناول كتابا . ثم تدخل أنت كأنك عائد بعد غيبة خمس سنين . أريد أن أرى كيف سيتم هذا .

صرف نيقولاي فسيفولودوفتش بأسنانه ، وجمجم ببضعة أقوال غير مفهومة ، ثم ضرب المائدة براحة يده صائحا :

ـ كفى ! أرجوك أن تسمعيني يا ماريا تيموفيئفنا . أرجوك أن تستجمعي كل انتباهك اذا استطعت . ما أنت مجنونة تماما على كل حال .

كذلك أفلتت من لسانه هذه الجملة . ولكنه تابع كلامه فقال :

ـ غدا سوف أذيع زواجنا في الملأ . لن تسكني قصرا منيفا في يوم من الايام . اطردي هذه الفكرة من ذهنك . هل تريدين أن تقضي حياتك كلها معي ، ولكن في مكان بعيد عن هنا ؟ في الجبال ، بسويسرا ... انني أعرف مكانا هناك ... لا تقلقي : لن أهجرك ولن أضعك في مستشفى للمجانين . عندي من المال ما يكفي لأن نعيش دون أن نسأل أحدا شيئاً . سيكون لك خادمة ، فلن تُضطري الى القيام بأي عمل في البيت . وكل ما تشتهينه سأهيئه لك وأزودك به في حدود الامكان . سيكون في امكانك أن تصلي ، وأن تذهبي الى حيث تريدين ، وأن تفعلي ما تشائين . ولن ألمسك . وأنا أيضا لن أتحرك من ذلك المكان . واذا شئت ، فلن أخاطبك

بكلمة واحدة ؟ واذا أردت ، فسوف تقصيِّن عليَّ حكاياتك الصغيرة كما كنت تفعلين في الماضي ببطرسبرج . وسوف أقرأ لك اذا كان ذلك يسرك. ولكننا ، في مقابل هذا ، سنقضي حياتنا كلها في ذلك المكان . وذلك المكان جهم مقفر . هل تريدين ؟ أتعزمين أمرك على هـــذا ؟ ألا تندمين في المستقبل ؟ ألن ترهقيني بدموعك ولعناتك ؟

أصغت اليه باستطلاع شديد . فلما أنهى كلامه ، فكرت ملياً ، ثم قالت أخيرا بلهجة فيها سخرية واحتقار :

ـ ذلك كله يبدو غير ممكن . فلربما وجب عليَّ أن أعيش هكذا أربعين سنة في الجبال .

وانفجرت تضحك مقهقهة .

أجاب نيقولاى ستافروجين :

ـ نعم ، سنعيش هنالك أربعين سنة اذا وجب الامر .

وقطب حاجبيه .

ـ هم ... لن أقبل هذا بحال من الاحوال .

ـ ولكن معي أنا ؟

ـ ومن أنت حتى أسافر معك هكذا ؟ انظـروا يا ناس ! يريد أن أبقى أربعين سنة معلقة في جبل ! ان أهل هذا الزمان أصبحوا على جانب عظيم من الصبر ! لا ، لن يستطيع بوم أن يكون صقراً ! ان أميرى ليس هكذا .

هكذا صاحت بلهجة الانتصار وهي ترفع رأسها معتزة مفتخرة . فرأى ستافروجين الامر بوضوح فجأةً . فأسرع يسألها :

ـ لماذا تلقبينني أميرا ... و ... من تظنينني ؟

ـ كيف ؟ ألست أميراً اذن ؟

ـ لم أكن أميرا فى يوم من الايام •

ـ كيف ؟ أأنت نفسك تعترف لى بهذا وجها لوجه ؟

ـ أكرر أننى لم أكن أميرا فى يوم من الايام •

فصاحت وهى تضم يديها احداهما الى الاخرى :

ـ يا الهى ! كنت أتوقع من أعدائه كل شىء ، الا هذه الوقاحة ••• هذه الوقاحة لم أتوقعها منهم يوما !

ثم صرخت تقول خارجة عن طورها وهى تهرع نحو ستافروجين :

ـ ولكن أهو حى على الاقل ؟ هل قتلته ؟ اعترف •••

قال وهو ينهض فجأة وقد انقلبت سحنته :

ـ من تظنيننى ؟

ولكنها أصبحت الآن غير خائفة ، بل مزهوة منتصرة ؛ قالت :

ـ من ذا الذى يعرف من أنت ، ومن أين خرجت ؟ لقد أوجس قلبى ذلك دائما منذ خمس سنين • لقد حزر قلبى كل مكيدتهم ! وتساءلت أنا : من ترى تكون هذه البومة العمياء التى دخلت الى غرفتى؟ لا ياصاحبى، أنت ممثل لا يجيد التمثيل ، أنت أسوأ حتى من ليبادكين • سلّم لى على الاميرة ، وقل لها ان تبعث الىّ بشخص أمهر منك قليلا • هل دفعت لك مالاً كثيرا فى سبيل قيامك بهذه المهمة ؟ أهل تعولك فى مطبخها من باب البر والاحسان ؟ لقد اكتشفت جميع أكاذيبكم • اننى أعرفكم جميعا ، من أولكم الى آخركم !

فأمسك ستافروجين ذراعيها بقوة ، فوق الكوع قليلا ، لكنها انفجرت تضحك فى وجهه ضحكا مجلجلا • ثم قالت له :

ـ أما أنك تشبهه كثيرا فهذا صحيح • لكن صاحبى أمير • انه صقر نبيل * • ولا كذلك أنت ، فما أنت الا بومة ، ما أنت الا بائع فى دكان !

صاحبى يسجد لله اذا شاء ، ولا يسجد اذا أرادت له نزوة من النزوات أن لا يسجد . وأنت قد صفعك شاتوشكا (عزيزى الطيب شاتوشكا) . لقد حكى لى ليبادكين ذلك . مم كنت خائفا حين دخلت ؟ من ذا الذى روّعك ؟ اننى منذ رأيت وجهك الكريه حين وقعت فأنهضتنى ، أحسست كأن دودة قد نفذت فى قلبى . وسرعان ما قلت لنفسى : لا ، ليس «هو» ، ما هذا «هو» ! ما كان لصقرى أبدا أن يشعر بالعار منى أمام آنسة من آنسات المجتمع الراقى ! يا الهى ! ان تلك الصورة التى كانت تملأ خيالى، وهى أن فارسى يطير محلقاً هناك ، وراء الجبال ، يتأمل الشمس ، كانت هذه الصورة كافية لتغمرنى بالسعادة خلال هذه السنين الخمس ! ... تكلم أيها الغشاش الدجّال . هل دُفع لك أجر كبير ؟ هل قبضت مبلغا ضخما من أجل أن تكذب ؟ أما أنا فما كان لى أن أعطيك قرشا واحدا ! ... هأ هأ هأ ! ...

دمدم نيقولاى فسيفولودوفتش يقول من بين أسنانه وهو ما يزال يمسكها من ذراعها فوق الكوع :

ـ آه ... معتوهة !

فصاحت تقول بكبرياء وزهو :

ـ أنزل يديك أيها الغشاش الدجال . أنا امرأة أميرى ، ولست أخشى سكينك !

ـ سكينى ؟

ـ نعم ، سكينك . انك تخفى سكيناً فى جيبك . كنت تظن اننى نائمة ، لكننى رأيت كل شىء : فحين دخلت كنت قد استللت سكينك .

ـ ما هذا الذى تقولين أيتها الشقية ؟ أية أحلام ترين ؟

هكذا قال نيقولاى فسيفولودوفتش ، ودفعها عنه بعنف بلغ من القوة

أنها صدمت الديوان برأسها وكتفيها • وأسرع يخرج من الغرفة • ولكنها لم تلبث أن قامت ، وطاردته متوائبة عارجة •

وعلى درجات المدخل قبض عليها ليادكين بكل ما أوتى من قوة ، ولكنها أعولت ترسل الى نيقولاى هذه الكلمات وهى تضحك ضحك امرأة معتوهة :

ـ جريشكا أوتريبيف ! مطرود من الكنيسة ! •••

٤

مشى ستافروجين فى برك الماء والوحل دون أن ينتبه الى الطريق ، وهو يردد : « سكين ... سكين ! » . صحيح أنه فى بعض اللحظات رغب رغبة رهيبة فى أن يضحك، أن يضحك ضحكا عاليا مدويا، كمجنون، لكنه أمسك عن الضحك وسيطر على نفسه دون أن يدرى هو نفسه لماذا . ولم يثب الى وعيه الا حين صار على الجسر ، فى ذلك المكان نفسه الذى لقى فيه فدكا . وكان فدكا هناك ينتظره مرة أخرى . فلما رأى فدكا صاحبنا نيقولاى فسيفولودوفتش خلع قبعته ، وابتسم ابتسامة فرحة كاشفا عن جميع أسنانه ، ثم سرعان ما أخذ يثرثر . مرّ ستافروجين أمامه دون أن يتوقف ، وحتى دون أن ينتبه أى انتباه الى أقوال هذا المتشرد الذى أخذ يتبعه من جديد . فما كان أشد دهشته حين لاحظ انه نسى وجود فدكا نسيانا تاما ، وان يكن قد ظل يردد فى سره بغير انقطاع : « سكين ... سكين ! » . والتفت فجأة ، فقبض على المتشرد من ياقته وجندله على الارض بكل القوة التى كانت قد تجمعت فى نفسه من شدة العنف . وخطر ببال فدكا لحظةً أن يدافع عن نفسه ، ولكنه أدرك فورا أنه أمام خصم كهذا الخصم لا تُعدُّ قوته شيئاً مذكورا، لذلك أذعن ولم يُبد أية مقاومة، وظل راكعا على ركبتيه متجها بوجهه الىالارض، ينتظر ختام هذه المغامرة، مقتنعا بأنه غير معرّضٍ لأى خطر .

ولم يخطىء ظنه . كان نيقولاى فسيفولودوفتش قد حل عن عنقه المنديل الذى كان يحيط به وأخذ يوثق به يدى سجينه ، ولكنه سرعان ما عدل عن رأيه ودفع فدكا عنه فسرعان ما انتصب فدكا على قدميه ، واذا بسكين عريضة قصيرة تلتمع بيده ، لا يدرى أحد من أين أخرجها !...

فما كان من نيقولاى فسيفولودوفتش الا أن « أمره » بحركة تدل على نفاد الصبر :

ـ اخفض السكين ! واخفها !

فاذا بالسكين تختفى بسرعة مثلما ظهرت بسرعة .

واستأنف نيقولاى فسيفولودوفتش سيره صامتا دون أن يلتفت بعد ذلك الى وراء . ولكن الشخص العنيد ظل يتبعه ، ولكنه يتبعه الآن باحترام ، على مسافة خطوة منه ، دون أن يكلمه البتة . وهكذا عبرا الجسر ، ثم نزلا الى ضفة النهر المنحدرة ، ولكنهما دارا فى هذه المرة يسرة ، وسارا فى شارع ضيق طويل مقفر أفضى بهما الى وسط المدينة بسرعة ، فلو أنهما سلكا شارع ابيفانيا الذى سلكه ستافروجين فى الذهاب لما وصلا الى وسط المدينة بمثل هذه السرعة .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش يسأل فدكا :

ـ يقال انك سطوت فى هذه الأيام الأخيرة على كنيسة بمقاطعتنا . فهل هذا صحيح ؟

فأجابه المتشرد برصانة وأدب وتهذيب ، كأن شيئا لم يحدث ، بل أجابه لا برصانة فحسب ، وانما بوقار أيضا :

ـ الحق اننى دخلت الكنيسة أولا لأصلّى ...

لم يبد فدكا شيئا من رفع الكلفة واصطناع « الصداقة » كما فعل من قبل ، وانما هو يتكلم الآن كلام انسان جاد ، انسان عملى ان كان قد أسىء اليه فانه سرعان ما ينسى الاساءات . وتابع كلامه يقول :

ـ ... فحين دخلت قلت لنفسى : ان نعمة الله هى التى قادت خطاى الى هنا ... وقد فعلت فعلتى ياسيدى لأننا فى مثل وضعنا ندبّر أمرنا كما

نستطيع ... اننا لا نطيق الاستغناء عن معونة الآخرين . ولـكن صدّق يا سيدى اننى لم أجن من ذلك أى فائدة . لقد عاقبنى الله على آثامى . فالمبخرة وحلة الشماس لم أستطع أن أبيعهما بأكثر من اثنى عشر روبلا . أما طوق القديس نيقولا وهو من فضة فقد زعموا أنه ليس من فضة فلم أقبض ثمنه الا مبلغا زهيدا لا يُذكر .

ـ وذبحت الحارس ؟

ـ لقد نظفنا الكنيسة مشتركين ، ولكننا تشاجرنا فى الصباح قرب النهر ، لأننا اختلفنا حول هذه المسألة : من الذى يحمل الكيس ؟ وعندئذ ارتكبت ذلك الذنب ، اذ أرحت رفيقى !

ـ استمر فى القتل ، استمر فى السرقة .

ـ ذلك ما يقوله لى أيضا بطرس ستيفانوفتش ، كلمةً كلمةً ، تماما ! ذلك أنه فيما يتعلق باغاثة الناس ومساعدتهم رجل قاسى القلب بخيل . وهو لا يكتفى بأن لا يؤمن بالخالق الذى أخرجنا من طين الارض وبأن يقول ان الطبيعة صنعت كل شىء ، بل هو أيضا لا يريد أن يدرك أننا معشر الفقراء لا يمكننا أن نعيش دون أن يكون لنا أحد يحسن الينا وينعم علينا وينجدنا . فاذا أخذت تشرح له هذا نظر اليك نظرة خروف ، فلا تملك الا أن تُشده . هل تصدّق يا سيدى ؟ فى مسكن ذلك الكابتن ليبادكين الذى زرته أنت هذه الليلة ، فى مسكنه أيامَ كان يقيم بعمارة فيليوف ، كان الباب يظل طوال الليل مفتوحا على سعته كلها . وكان هو، عدا ذلك ، ينام نوم الموتى من فرط السكر ، وكان المال يخرج من جميع جيوبه . رأيت ذلك بعينى رأسى . ذلك أننا فى وضعنا يستحيل علينا اطلاقا أن نستغنى عن مساعدة الآخرين ...

ـ رأيته بعينى رأسك ؟ اذن دخلت عليه ليلا ؟

ـ ربما ، لكن أحدا لا يعرف ذلك .

ـ فلماذا لم تذبحه ؟

ـ وزنت ما للأمر وما عليه فرأيت أن أعدل عن ذبحه . كنت أعلم أن في امكاني دائما أن أجني منـــه مائة وخمسين روبلا ، ولكن علام التسرُّع ما دمت أستطيع أن أجنى ألفا وخمسمائة روبل على الاقل ، اذا أنا انتظرت قليلا ؟ ذلك أن الكابتن ليبادكين يعتمد عليك أعظم الاعتمـاد دائما في حالة السكر (سمعته بأذنيّ) ؛ ما من حانة هنا ولا من خمارة الا ســمع فيها يتكلم عن هذا الامر أثناء سكره . فلما سمعت هذا من جهات مختلفة ، عقدت أنا أيضا كل آمالي على « معاليك » يا سيدي . فأنا أتوجه اليك يا سيدي كما يتوجه ابن الى أبيه أو أخ الى أخيه . ولن يعـــرف بطرس ستيفانوفتش عن ذلك شيئا ، ولن يعرف أحد شيئا . هـــل يريد صاحب السعادة أن يعطيني ثلاثة روبلات . انني أريد أن أعرف الحقيقة ، وأن أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله ، ذلك أننا في وضعنا ياسيدي ، يستحيل علينا أن نعيش مستغنين عن مساعدة الآخرين .

انفجر نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكا ، واستل من جيبه محفظة نقوده التي تضم خمسين روبلا ، أوراقا صغيرة ، فرمى اليه من هــــذه الاوراق واحدة فثانية فثالثة فرابعة . فكانت الاوراق تسقط في الوحل . وكان فدكا يركض وراءها ويحاول امساكها طائرةً وهو يطلق صرخات قصيرة : « أه ... أه ... » . وأخيرا رمى اليه نيقولاي فسيفولودوفتش حزمة الاوراق كلها ، وهو ما يزال يضحك ضحكا مجلجلا ، واستأنف سيره ، ولكنه استأنفه في هذه المرة وحيدا . كان المتشرد جاثيا على ركبتيه في الوحل ، ما يزال يبحث عن الاوراق التي بعثرتها الرياح فسقطت في البرك . وظلت صرخاته الصغيرة : « أه ... أه ... » ترجع في الظلمات مدة طويلة .

الفصل الثالث

المبارزة

١

تمت المبارزة في الغد ، في الساعة الثانية بعد الظهر . ان رغبة القتال العنيفة التى كانت تتأجج نارها فى قلب آرتمى بافلوفتش وتدفعه الى المبارزة مهما كلف الامر قد عجّلت الاحداث . وهو لم يستطع أن يفهم سلوك خصمه فكان خارجا عن طوره وكان الغضب يستعر في كل نفسه . انه يهين خصمه بغير داعٍ منذ شهر ، ثم لا يتوصل الى افقاده صبره . فكان لا بد له حتما من أن يطلبه نيقولاى فسيفولودوفتش الى المبارزة ، لأنه كان لا يملك أى حجة أو ذريعة لأن يطلبه هو الى المبارزة . وكان من جهة أخرى يستحى أن يعترف بالبواعث الخفية التى تحضه على هذا السلوك ، أعنى الكره الفظيع الرهيب الذى كان يحمله لستافروجين بسبب ما ألحقه ستافروجين بشرف الأسرة من اهانة . كان يدرك هو نفسه أنه لا يستطيع أن يذكر هذا الباعث ، لا سيما منذ أن قدّم اليه ستافروجين اعتذارات بلغت غاية المذلة ، مرتين . وكان جاجانوف قد اعتقد في قرارة نفسه أن نيقولاى فسيفولودوفتش ليس الا جبانا . انه لم يستطع أن يدرك لماذا لم يثأر نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين للصفعة

التي تلقاها من شاتوف . وفي ذلك الحين انما عزم أمره أخيرا على أن يكتب اليه تلك الرسالة التي اشتملت على فظاظة لا مثيل لها ، فاضطـــر ستافروجين عندئذ أن يطلبه الى المبارزة . كان جاجانوف ، بعد أن بعث رسالته ، ينتظر الجواب محموما من شدة نفاد صبره ، معدّدا احتمالات النجاح كالمريض ، منتقلا من الامل الى اليأس ومن اليأس الى الامل بغير انقطاع . ومن أجل أن يتهيأ لكل احتمال رجا مافريكي نيقولايفتش سلفاً أن يكون شاهده : ان مافريكي رفيق طفولته ، وهو يقدره قدرا عظيما . وهكذا ، فان كيريلوف حين ذهب في صباح الغد الى جاجانوف ، وجد الارض ممهدة ان صح التعبير .

رفض جاجانوف جميع الاعتذارات والتنازلات الكثيرة التي حملها اليه كيريلوف من عند ستافروجين ، رفضها منذ أول كلمة ، رفضا قويا قاطعا . وقد شُده مافريكي نيقولايفتش الذي لم يكن يعرف تفاصيـــل الامر الا أمس ، شُده كثيرا حين سمع تلك العروض التي يعرضـــها ستافروجين وأراد أن يلحّ من أجل حلّ المسألة حلاّ ودياً ، لكنه لم يسعه الا أن يصمت حين رأى وضع جاجانوف الذي حزر ما كان ينتويه مافريكي فكان يضطرب على كرسيه اضطرابا عصبيا قويا . لولا أن مافريكي كان قد وعد جاجانوف بمساعدته في هذا الامر ، لانصرف فورا ، لكنـــه بقي آملاً أن يتدخل فيما بعد ، بطـــريقة أو بأخرى ، لتحاشي وقـــوع كارثة .

نقل كيريلوف الشروط التي يعرضها ستافروجين للمبارزة ، فقبلها جاجانوف جميعها دون أي اعتراض ؛ ولكن اتُّفق على اضافة بند آخـــر اليها ، بندٍ قاسٍ من جهة أخرى ، وهو أنه اذا انطلقت الرصـــاصتان الأوليان فلم تقع اصابة حاسمة ، كان على المتبارزين أن يطلقا مرة ثانية ،

فاذا لم تفلح المرة الثانية ، أُطلقت النار مرة ثالثة . والحق أن كيريلوف قد استاء من هذه المرة الثالثة ، وأصرَّ في أول الأمر على أن تعدَّ المبارزة منتهية بعد الاطلاق الثاني لكنه اضطر أن يرضخ أخيرا ، ملحاً مع ذلك « على أنه لا مجال لاطلاق رابع حتما » . فتم الاتفاق على هذه النقطة .

هكذا أمكن أن تتم المبارزة في الساعة الثانية بعد الظهـــر من ذلك اليوم نفسه ، في قرية بريكوفو ، عند غابة تقع بين أملاك سكفورشنيكي ومصنع شبيجولين . كان المطر قد انقطع عن الهطول تماما ، ولكن الجو رطب ، والارض مبتلة ، وكانت ريح قوية تطرد السحب الواطئة الشهباء المتقطعة التي تتلاحق سريعة في السماء الباردة . وكانت الاشجار تحني هاماتها للريح وكان لأوراقها حفيف قوي وصريف صاخب . انه نهـــار حزين كئيب .

وصل جاجانوف ومافريكي نيقولايفتش الى المكان في عربة أنيقـــة ذات مقاعد طويلة ، وكانت العربة يجرها حصانان يقـــودهما جاجانوف بنفسه. وكان يصحب الرجلين خادم . ولحق بهما ستافروجين وكيريلوف على مسافة قريبة ، ممتطيين صهوتي حصانين ، وكان يصحبهما خادم هما أيضا . ولم يكن كيريلوف قد ركب حصانا قبل الآن ، فكان جالسا على السرج كأنه الوتد جمودا وتصلبا ، ولكن على جسارة وشـــجاعة . انه يمسك بيده اليمنى الصندوق الثقيل الذي يضم المسدسين ولم يشأ أن يعهد به الى الخادم ؛ ويشد بيده اليسرى على لجام الحصان من قلة الخبرة، لذلك كان حصانه يهز رأسه ، ويهم أن يشبَّ في كل لحظة ، لكن ذلك لم يكن يروِّع الفارس فيما يظهر .

ان جاجانوف رجل سريع التأذي حاد المزاج عارم الغضب ، لذلك عدَّ ركوب الحصان للوصول الى مكان المبارزة اهانة جديدة له : فكأن

خصمه واثق اذن من انتصاره ثقة تامة ما دام لم ير ضرورة لاعداد عربة تنقله اذا جرح . فنزل جاجانوف من عربته أصفر اللون من شدة الحنق . وكانت يداه ترتعشان ، وسرعان ما أطلع مافريكي نيقولايفتش على ذلك . وحياه ستافروجين من بعيد فأشاح وجهه ولم يرد على التحية. وتولى الشاهدان سحب القرعة لتوزيع المسدسات ، فكان مسدسا كيريلوف من نصيب ستافروجين . وعدت الخطوات ، وحدد الموضعان اللذان يجب أن يقف فيهما الخصمان .

يؤسفني أن ضرورات القصة تضطرني أن أغفل كثيرا من التفاصيل مع أن بعضها خليق بأن يذكر . كان مافريكي نيقولايفتش يبدو حزينا مهموماً . ولا كذلك كيريلوف ، فقد كان يبدو هادئا كل الهدوء ، غير مكترث البتة . انه ينفذ الواجبات التي أخذها على عاتقه تنفيذا دقيقا ، ولكن دون أي اضطراب ، حتى لكأنه لا يبالي كثيرا بالنتيجة التي سيسفر عنها هذا اللقاء . وكان نيقولاي فسيفولودوفتش أكثر شحوبا مما يكون شاحبا في العادة . وهو يرتدي معطفا خفيفا ويضع على رأسه قبعة بيضاء من قماش الكستور . كان يبدو عليه التعب والارهاق ، وكان يقطب حاجبيه بين الفينة والفينة لأنه لا يرى أن من الضروري أن يخفي اعتكار مزاجه . غير أن منظر آرتمي بافلوفتش كان هو المنظر الغريب في تلك اللحظة . هل يعقل أن لا أقول بضع كلمات عن هذا الشخص ؟

٢

لم تتح لى حتى الآن فرصة وصف مظهره الخارجى . انه رجل طويل القامة ، بدين ، قد أُحسنت تغذيته ، على حد التعبير الشعبى ، أبيض اللون ، أشقر الشعر قليله ، أميل الى ملاحة الوجه ، فى نحو الثالثة والثلاثين من العمر . كان هذا الرجل قد طلب احالته على التقاعد وهو برتبة كولونيل ، فلو أنه بلغ رتبة جنرال لاكتست هيئته مزيدا من المهابة أيضا . ولعله يكون عندئذ جنرالا ممتازا .

وتجدر الاشارة هنا ، من أجل ابراز الصفات التى تميِّز آرتمى بلوفتش ، الى أن السبب الأساسى الذى حضَّه على الاستقالة انما هو تلك الفكرة الأليمة ، الماثلة فى ذهنه دائما ، وهى فكرة العار الذى لحق باسمه فى أعقاب الاهانة التى أنزلها ستافروجين بأبيه . فلقد اعتقد صادقا أنه ليس من الشرف فى شىء أن يستمر فى عمله بالجيش ، وأعتقد أن وجوده يلوِّث شرف فرقته ورفاقه ، مع أن أحدا من هؤلاء لم يكن قد سمع شيئا عن ذلك الحادث الذى وقع لأبيه . على أن آرتمى بافلوفتش كان قد أوشك أن يستقيل حتى قبل الاهانة التى ألحقها ستافروجين بأبيه ، قبلها بمدة طويلة ، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر لحظة . ومهما يبدُ لكم الامر غريبا ، فالواقع أن بيان ١٩ شباط (فبراير) القاضى بالغاء الرق هو الذى حضه يومئذ على ترك الجيش . ان آرتمى بافلوفتش ، وهو من أثرى أثرياء السادة فى مقاطعتنا ، لا يدمِّر بيان ١٩ شباط ثراءه ؟ حتى ان آرتمى بافلوفتش قادر على أن يقدِّر الطابع الانسانى الذى يتسم به ذلك الاجراء ، وعلى أن يفهم منافعه الاقتصادية تقريبا ، ولكن آرتمى بافلوفتش أحسَّ فجأةً بأن صدور هذا القرار يكاد يكون شتماً له هو . لم يكن هذا

الا نوعا من عاطفة لا شعورية ، ولكن كون العاطفة لاشعورية هو الذى يهب لها القوة والشدة . ولم يعـزم أمره ولا خطا خطوة حاسـمة ما ظل أبوه حياً . لكن « نبالة » آرائه قد احترمها وقدّرها عدد من الشخصيات ذات الشأن ، التى كانت له بها علاقات وثيقة . كان رجلاً منطوياً على نفسه منغلقاً . يجب أن نذكر أيضاً هذا : لقد كان ينتمى الى ذلك الصنف من السادة الذين ما نزال نلقاهم فى روسيا ، والذين يقيمون وزناً كبيراً لعراقة محتدهم ونقاء سلالتهم ، ويهتمون بذلك اهتماماً فيه غلو . وكان فى الوقت نفسه يكره التاريخ الروسى ، ويرى العادات الروسية على وجـه العمـوم مثيرة للاشـمئزاز بعض الشىء . وهو منذ طفولتـه ، فى تلك المدرسـة العسكرية الخاصة* الموقوفة على التلاميذ النبلاء الأثرياء ، التى شرُف ببدء وانهاء دراسته فيها ، قد تعلق ببعض الأفكار التى كانت تبدو له شعرية : فكان يحب القلاع والقصور وحياة القرون الوسطى ، وجانبها الزخرفى ، والفروسية . كان منذ ذلك الحين يكاد يبكى من شدة الشعور بالعار حين يتصور أن القياصرة الموسكوبيين القدماء كانوا ينزلون فى النبـلاء الروس عقوبات جسدية ؟ وكانت المقارنات التى تفرض نفسها عليه بهذه الصـدد تجعله يحمـر خجلاً وحيـاء . ان هذا الرجل الصلب القاسى الذى كان يعرف مهام وظيفته معرفة رائعة ، ويقوم بواجباته على أكمل نحو ، كانت نفسه نفس انسان حالم على وجه العموم . ويقال انه كان يمكنه ان يلعب دوراً فى المجالس ، لأنه كان يملك موهبة الخطابة ، ومع ذلك كان صموتاً طوال حياته ، وكان فى مظهره تكبر واستعلاء حتى فى المجتمع البطرسبرجى العالى الذى أخذ يتردد عليه فى هذه السنين الأخيرة . ولقد كاد التقاؤه ، فى بطرسبرج ، بنيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ، أن يجعله مجنوناً . وهو الآن ، اذ يجد نفسه فى مواجهتـه على الجانب الآخـر من الحاجز ،

يشعر بقلق فظيع . كان يخيَّل اليه طوال الوقت أن حادثاً سيحدث فيحول دون قيام المبارزة ، فكان أيسر ابطاء يجعله يرتجف ارتجافاً من شدة نفاد صبره..لذلك تقبَّض وجهه تقبضاً أليماً حين أخذ كيريلوف فجأةً يتكلم ، بدلاً من اطلاق اشارة بدء القتال ، فيقول من باب التقيد بالشكل، كما أعلن ذلك هو نفسه :

ـ الآن وقد تسلحتما ولم يبق عليَّ الا أن أطلق اشارة القتال ، فانني أعرض عليكما لآخر مرة أن تتصالحا . انني لا أتكلم الا من باب التقيد بالشكل . فهذا واجبي بصفتي شاهداً .

وهذا هو مافريكي نيقولايفتش الذي لزم الصمت حتى ذلك الحين ، ولكنه لم يكتف عن لوم نفسه على ضعفه منذ أمس ، يتدخل فوراً ، بمصادفة تشبه العمد ، فيقول مؤيداً اقتراح كيريلوف :

ـ انني أثنِّي على أقوال السيد كيريلوف ، وأضم صوتي الى صوته . وليست الفكرة القائلة بأن المصالحة لا تتم على أرض القتال الا وهماً من الأوهام الاجتماعية الباطلة التي تصلح للفرنسيين في أكثر تقدير !.. على كل حال ، لكما ما تشاءان ، غير انني لا أرى أن هناك اساءة قد وقعت ، أو أن هناك اهانةً قد لحقت أحداً !... لقد وددت لو أقول هذا الكلام منذ مدة طويلة ... ما دام ثمة استعداد لتقديم كل الاعتذارات الممكنة .. أليس هذا صحيحاً ؟

قال مافريكي ذلك واحمر احمراراً شديداً . انه قلما اتفق له أن قال كلاماً طويلاً هذا الطول كله ، وبمثل الاندفاع كله !

وهنا أسرع نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين يتدخل قائلاً :

ـ انني أؤكد مرةً أخرى ما سبق أن عرضته من تقديم كل الاعتذارات الممكنة .

فصاح جاجانوف يقول خارجاً عن طوره ، ملتفتاً نحو مافريكي نيقولايفتش ، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه من شدة غضبه :

ـ مستحيل ! قل لهذا السيد يا مافريكي نيقولايفتش ، ما دمت شاهدي لا عدوّي ، قل لهذا السيد (وأومأ بطرف مسدسه الى ستافروجين) أن ما يعرضه من تنازلات لا يزيد على أن يفاقم الاهانة . فهو يرى ان الاهانات التي تصدر عني أنا لا تناله هو بأذى ولا تلحق به خزياً ! انه يرى أنه لا عار عليه اذا هو تهرّب مني ! ... فماذا يظنني اذن ؟ ثم انه قد قال كلامه أمامك ، فلم تغضب لكرامتي التي تهان ، فكيف تكون شاهدي ؟ انك لا تزيد على أن تثير غيظي حتى لا أصيبه .

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه مرة أخرى ، وكان الزبد يخرج من فمه .

صرخ كيريلوف قائلاً بكل ما أوتي من قوة :

ـ انتهى التفاوض . واحد ! اثنين ! ثلاثة !

فلما قال « ثلاثة » ، اتجه الخصمان أحدهما نحو الآخر . وسرعان ما رفع جاجانوف مسدسه بعد خمس أو ست خطوات ، وأطلق . ووقف لحظةً ، فلما لاحظ أنه لم يصب ستافروجين أسرع نحو الحاجز . فسار ستافروجين الى لقائه ورفع مسدسه ، لكنه تعمد أن يرفعه أكثر مما يجب ، بحيث لا تصيب الرصاصة هدفها ، وأطلق دون يصوّب تقريباً . فعل ذلك ثم أخرج منديله ولفّ به اصبع يده اليمنى . وعندئذ فقط انما رأى آرتمي بافلوفتش أنه لم يخطىء خصمه تماماً ، ولكن رصاصته انزلقت على طول اصبعه دون أن تبلغ منها العظم ، فلم تزد الاصابة على أن تكون خدشاً . وأسرع كيريلوف يقول ان المبارزة ستستمر اذا لم يكتف الخصمان بهذا اللقاء الأول .

قال جاجانوف بصوت مختنق (وكان حلقه جافاً) ، قال وهو يلتفت نحو مافريكى نيقولايفتش من جديد :

ـ اننى أعلن أن هذا الرجل (وأومأ الى ستافروجين مرةً أخرى) قد تعمد ان يطلق رصاصة في الهواء ... نعم ، تعمد ذلك بارادته . فهذه اهانة جديدة ، هذه مسبة أخرى يوجهها اليَّ ... انه يريد أن يجعل المبارزة مستحيلة .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش جازماً :

ـ من حقى أن أطلق كما أريد ، شريطة أن لا أ خلّ بالقواعد المقررة .

فأجاب جاجانوف صارخاً :

ـ لا ، ليس من حقه . قل له هذا ! ما بالك لا تقول له !

تدخل كيريلوف فقال :

ـ اننى أشارك نيقولاى فسيفولودوفتش رأيه كل المشاركة .

وتابع جاجانوف صراخه يقول دون أن يصغى الى أحد :

ـ لماذا يتجنب أن يصيبنى . اننى أحتقر سماحته هذه ... اننى أبصق على ... اننى ...

فأجابه ستافروجين وقد نفد صبره :

ـ أقسم لك بشرفي اننى لم أشأ اهانتك البتة . وانما انا أطلقت فى الهواء لأننى أصبحت لا أريد أن أقتل أحداً ، لا أنت ولا شخصاً آخر . الأمر لا يتناولك . صحيح اننى لا أرى أننى أهان ، ويؤسفنى كثيراً أن هذا قد أغضبك. ولكننى لن أسمح لأحد بأن يحرمنى من استعمال حقى.

أعول جاجانوف يقول متوجهاً بكلامه الى مافريكى نيقولايفتش أيضاً:

ـ اذا كان يخشى سفح الدم الى هذه الدرجة من الخشية ، فاسأله لماذا طلبنى الى المبارزة ؟

قال كيريلوف :

ـ كيف كان يمكنه أن لا يطلبك الى المبارزة ؟ انك لم تشأ أن تسمع شيئاً . فلم يكن هناك وسيلة للتخلص منك غير هذه الوسيلة !

قال مافريكى نيقولايفتش بجهد ظاهر ، وقد آلمه مجرى هذه القضية كثيراً :

ـ أحب أن ألفت النظر الى أن المبارزة لا يمكن أن تستمر بالفعل اذا أعلن أحد الخصمين أنه سيطلق فى الهواء ... وذلك لأسباب دقيقة.. وواضحة ...

فصاح ستافروجين يقول وقد ذهب عنه كل صبره :

ـ أنا لم أعلن بتاتاً اننى سأطلق فى الهواء كل مرة . انك لا تعرف ما هى نياتى التى أضمرها ، ولا تعرف كيف سأطلق النار فى المرة التالية ... اننى لا أضع أى عائق يحول دون اتمام المبارزة .

قال مافريكى نيقولايفتش لجاجانوف :

ـ اذا كان الأمر كذلك فالمبارزة تستمر .

وهتف كيريلوف آمراً :

ـ ليقف كل منكما فى مكانه أيها السيدان !

وعاد الخصمان يتجه كل منهما نحو الآخر من جديد. ومرة أخرى أخطأ جاجانوف خصمه نيقولاى فسيفولودوفتش الذى أطلق النار فى الهواء هذه المرة . غير أن طلقتى نيقولاى فسيفولودوفتش يمكن أن تكونا محل مناقشة ؟ ولولا أنه اعترف هو نفسه بأنه أطلق فى الهواء عامداً لكان فى

امكانه أن يدّعي أنه صوّب فأحسن التصويب ، لأنه في الواقع لم يكن يسدّد سلاحه نحو السماء أو نحو قمة شجرة ، وانما كان يسدّده الى ما فوق قبعة خصمه قليلاً . حتى أن تسديده في المرة الثانية كان أخفض من تسديده المرة الأولى ، كأنما ليبرهن على صدق ارادته . ولكن تهدئة جاجانوف أصبحت الآن مستحيلة .

قال جاجانوف وقد كزّت أسنانه :

ـ أيضاً . ولكن لا فرق عندي ! لقد دُعيت الى المبارزة فلي أن استعمل حقي . أريد أن أطلق مرةً ثالثة ... مهما كلف الأمر !

قال كيريلوف موافقاً على كلامه بلهجة جافة :

ـ هذا حقك .

ولزم مافريكي نيقولايفتش الصمت . وعاد الخصمان الى موقعيهما مرة ثالثة أخيرة ، وسارا أحدهما نحو الآخر بأمرٍ من كيريلوف . فتقدم جاجانوف حتى وصل الى الحاجز ، فلما صار هناك ، على مسافة اثنتي عشرة خطوة ، صوّب الى ستافروجين . ولكن يديه كانتا ترتعشان ارتعاشاً يبلغ من القوة أنه كان يستحيل عليه أن يحسن التسديد . ووقف نيقولاي فسيفولودوفتش جامداً خافضاً مسدسه ينتظر طلقة عدوه .

صرخ كيريلوف بصرامة وعنف :

ـ أطلت ... أطلت التسديد كثيراً ! أطلق ، أطلق بسرعة !

وانطلقت الرصاصة ، فاذا بقبعة الكستور الأبيض التي كانت على رأس نيقولاي فسيفولودوفتش ، تتدحرج على الأرض . لقد ثُقبت القبعة في موضع منخفض ، فلو جاءت الطلقة أخفض بمقدار سنتمتر واحد ، لانتهى كل شيء .

تنـــاول كيريلوف القبعـــة من الأرض ، ومـدّها الى نيقـــولاى فسيفولودوفتش .

صرخ مافريكى نيقولايفتش يقول وقد رأى ستافروجين كمن نسى جاجانوف ، وأخـذ يدقق النظر فى القبعـة مع كيريلوف ، صرخ يقـول ستافروجين بانفعال شديد :

ـ أطلق ! لا تجعل خصمك ينتظر طويلاً !

فارتعش ستافروجين ، ونظر الى جاجانوف ، ثم أشاح بوجهه عنه. ودون أن يكلف نفسه هذه المرة حتى عناء التظاهر ، أفرغ مســدسه فى اتجاه الغابة . وانتهت المبارزة .

لبث جاجانوف واقفاً كالمتجمد . واقترب منه مافريكى نيقولايفتش ، فقال له بضع كلمــات . ولكن لم يبد على جاجانوف أنه ســمعها . وحين انصرف كيريلوف رفع قبعته محيياً مافريكى نيقولايفتش . أما ستافروجين، المهذّب فى العادة ، فانه لم يلتفت نحو خصمه بعد أن أطلق رصاصته فى اتجاه الغابة ، وانما مد مسدسه الى كيريلوف بحـركة مفاجئـة ، واتجـه مسرعاً الى المكان الذى رُبطت فيه الخيول . كان وجهه قد اكتسى تعبيراً خبيثاً . وكان صامتاً . وكان كيريلوف صامتاً كذلك . وركبا حصانيهما ، ومضيا خبباً .

٣

صاح ستافروجين يسأل كيريلوف نافد الصبر :

ـ ما بالك تصمت ولا تتكلم ؟

وكانا قد أصبحا غير بعيدين عن البيت • فأجابه كيريلوف :

ـ ماذا تريد أن أقول لك ؟

وشبّ حصان كيريلوف فأوشك كيريلوف أن يسقط •

سيطر ستافروجين على نفسه • وقال بصوت خافت :

ـ كنت لا أريد أن أهين ذلك •• الغبى ، ومع ذلك أرانى قد أهنته مرة أخرى •

فقال كيريلوف بلهجة قاطعة :

ـ نعم أهنته مرةً أخرى • ثم انه ليس غبياً •

ـ فعلت مع ذلك كل ما استطعت أن أفعله •

ـ لا •

ـ ماذا كان يجب عليّ أن أفعل ؟

ـ كان يجب أن لا تدعوه الى المبارزة •

ـ أأسمح أذن بأن أُصفع مرةً أخرى ؟

ـ نعم •

ـ أصبحت لا أفهم شيئاً •

كذلك قال ستافروجين غاضباً واستطرد يقول :

ـ لماذا ينتظر منى جميع الناس مالا ينتظرونه من أحد غيرى ؟ لماذا

يجب عليّ أن أحتمل ما لا يحتمله أحد ، وأن أقبل من الأثقال ما لا يطيق أحد حمله ؟

ـ كنت أظن أنك أنت نفسك تبحث عن هذه الأثقال .

ـ أنا ؟ أبحث عن أثقال ؟

ـ نعم .

ـ أهو ظاهر ملحوظ الى هذا الحد ؟

ـ نعم .

ولبثا صامتين بضع لحظات . كان ستافروجين يبـــدو مهموماً ، بل مضطرباً أشد الاضطراب . واستأنف كلامه فقال قلقاً ، كأنما هو يحاول أن يبرر سلوكه :

ـ لم أسدّد اليه لأنني لم أشأ أن أقتل أحداً . هذا هو السبب الوحيد . أؤكد لك .

ـ ما كان ينبغي لك أن تهينه .

ـ فماذا كان يجب أن أفعل اذن ؟

ـ كان يجب أن تقتله .

ـ أيؤسفك أنني لم أقتله ؟

ـ لست آسفاً على شيء . لقد ظننت أنك كنت تريد حقاً أن تقتله . انك لا تعرف أنت نفسك ما الذى تسعى اليه وتبحث عنه .

قال ستافروجين ضاحكاً :

ـ أبحث عن أثقال .

فسأله كيريلوف :

ـ اذا كنت لا تريد سفح الدم ، فلماذا أتحت له فرصة القتل ؟

ـ لو لم أطلبه للمبارزة ، لقتلني بغير مبارزة .

ـ هذا ليس شأنك • لعله ما كان يقتلك •

ـ كان يمكن أن يكتفي بصفعي مثلاً ؟

ـ هذا ليس شأنك • احمل أثقــالك • والا فلا ميزة ولا فضل ، ولا جدارة ولا استحقاق !

ـ انني أبصق على هذا كله ، ولا أسعى الى الحصول على أي ميزة أو فضل أو جدارة أو استحقاق •

ـ كنت أظن أنك تبحث عن ذلك وتسعى اليه •

هكذا ختم كيريلوف الحديث بهدوء يثير الغيظ •

واقترح عليه ستافروجين أن يدخل معه ، قائلاً له :

ـ هل لك أن تجيء معي الى البيت ؟

فردّ عليه كيريلوف :

ـ بل أنا عائد الى مسكني • استودعك الله •

ونزل عن الحصان ، وتأبط صندوق المسدسات •

سأله ستافروجين وهو يمد اليه يده ليصافحه :

ـ ولكن أرجو أن تكون أنت على الأقل غير حاقد عليّ ، هه ؟

فأجابه كيريلوف عائداً اليه ليصافحه :

ـ لا ، بتاتاً ! ان أثقالي خفيفة ، لأن هذا من طبيعتي ، أما أثقالك أنت فهي أكبر ، وذلك يتعلق بطبيعتــك • ما يجب أن يستحي المرء من هذا كثيراً بل قليلاً •

ـ أنا أعلم أن لي طبيعة ضعيفة ، لذلك ليس لي أي مطمع في القوة •

ـ تحسن صنعاً • ما أنت بالقوي • تعال زرني ، فنشرب الشاي •

ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش بيته مضطرباً اضطراباً شديداً •

٦

وسرعان ما أبلغه ألكسى ايجورتش أن فرفارا بتروفنا ، وقد أسعدها كثيراً أن يخرج ابنها فى نزهة على الحصان ـ هذه أول نزهة له بعد ثمانية أيام قضاها مريضاً ـ قد أمرت باعداد عربتها وخرجت ، كما كانت تفعل فى الماضى ، لتستنشق قليلاً من الهواء الطرى ، لأنها بعد هذه الأيام الثمانية قد نسيت ما هواء الشارع » •

قاطعه ستافروجين فجأة يسأله :

ـ أخرجت وحدها أم مع داريا بافلوفنا ؟

واكفهر وجهه حين علم أن داريا بافلوفنا ، لشعورها بتوعك صحتها، قد رفضت أن تصحب فرفارا بتروفنا ، وأنها الآن فى شقتها •

قال له ستافروجين وكأنه اتخذ قراراً حاسماً على حين فجأة :

ـ اسمع • راقبها اليوم طول النهار ، فاذا لاحظت أنها آتية الى عندى ، فأوقفها فوراً وقل لها اننى لا أستطيع استقبالها ، على الأقل خلال بضعة ••• واننى أنا الذى أرجوها هذا الرجاء ••• واننى سأستدعيها متى آن الأوان • هل تسمع ؟

أجابه ايجورتش بصوت مضطرب وهو يخفض عينيه :

ـ سأقول لها ذلك •

ـ ولكن لا تقله لها الا اذا رأيت أنها تريد المجىء الىَّ •

ـ اطمئن بالاً ، لن يحدث خطأ • فبواسطتى أنا انما تمت المقابلات حتى الآن • انها تتجه دائماً الىَّ •

ـ أعلم • ومع هذا ، لا تتدخَّل أنت الا فى آخر لحظة •

ولكن ما كاد يخرج الخادم العجوز حتى فُتح البـاب الذى كان قد أغلقه ، فاذا داريا بافلوفنا تظهر فى العتبـة . كانت نظرتها هادئة ، ولكن وجهها كان أكثر شحوباً مما عُهد فيه من شحوب .

هتف ستافروجين يسألها :

ـ من أين جئت ؟

ـ كنت وراء الباب انتظر أن يخرج حتى أدخل . وسمعت ما قلتَـه له ، فلما خرج اختبأت فى زاوية على اليمين فلم يبصرنى .

ـ اننى أريد ، منذ مدة طويلة ، يا داشا ، أن أقطع علاقاتنا ... الى حين . لم أستطع أن استقبلك هذه الليلة رغم رسـالتك . وقد أردت أن أكتب اليك أنا نفسى ، لكننى لا أعرف ماذا اكتب ...

أضاف هذه الجملة الأخيرة بغضب يكاد يمازجه اشمئزاز .

قالت داريا بافلوفنا :

ـ أنا أيضاً كنت أرى أن نقطع علاقاتنا . ان شبهات قوية تقوم فى نفس فرفارا بتروفنا .

ـ فلتظن ما يشاء لها هواها أن تظن .

ـ ما ينبغى لها أن تقلق . واذن لم يبق علينا الا أن ننتظر النهاية .

ـ أما تزالين واثقة بأن سيكون ثمة نهاية حتماً ؟

ـ نعم ، أنا واثقة .

ـ لا شيء ينتهى فى هذا العالم .

ـ ولكن فى هذا الأمر سيكون ثمة نهـاية . نادنى عندئذ فأجيء . والآن استودعك الله .

سألها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ وما عسى تكون تلك النهاية ؟

فسألته دون أن تجيب عن سؤاله :

ـ ألم تُجرح ؟ ••• و ••• ألم تسفح دماً ؟

ـ جرى كل شيء مجرى غبياً أحمق • لم أقتل أحداً ، لا تخافي • على كل حال ، ستعرفين التفاصيل في هذا اليوم نفسه • سيتكلم عنها جميع الناس • لا أشعر بأن صحتي حسنة •

ـ أنا ذاهبة •

ثم أضافت تسأله بتردد :

ـ هل اليوم تعلن الزواج ؟

ـ لا ، لا اليوم ، ولا غداً • بعد غد ••• لست أدرى • قد نموت جميعاً • وهذا أفضل • دعيني ، دعيني أخيراً !

ـ هل تكون سبباً في ضياع الأخرى ••• المتأتة العقل ؟

ـ لن أهلك المجنونات ••• لا هذه المجنونة ولا تلك ••• ولكنني أعتقد أنني سأضيِّع العاقلة الحكيمة : أنا أبلغ من الحقارة والدناءة والخسة يا داشا أنني ربما ناديتك أنت « في آخر الأمر » ، كما تقولين ، فاذا بك تهرعين ملبيةً النداء ، رغم كل ما تتصفين به من عقل وحكمة • لماذا تضيعين نفسك ؟

ـ أنا أعلم أنني في النهاية سأبقى وحدى معك • و ••• أنا انتظر تلك اللحظة !

ـ واذا لم أنادك في النهاية ، بل هربت ؟

ـ هذا لن يكون • ستناديني •

ـ ان ما تقولينه يشتمل على كثير من الاحتقار •

ـ أنت تعلم أن الأمر ليس أمر احتقار فحسب •

ـ معنى هذا أن فيه شيئاً من الاحتقار على كل حال ؟

ـ أسأتُ أنا التعبير • يشهد الله أنني أتمنى أن لا تحتاج الىَّ فى يوم من الأيام •

ـ أبدلت جملةً بجملة تعادلها • أنا أيضاً أتمنى أن لا أكون سبباً فى ضياعك •

ـ لن تستطيع يوماً ، بحال من الأحوال ، أن تضيِّعني• وانك لتعرف ذلك خيراً مما أعرفه •

كذلك أجابت داريا بافلوفنا بحرارة ولهجة قاطعة • واستطردت تقول :

ـ اذا لم أجىء الى قربك ، سأصير راهبةً من راهبات المحبة ، أُعتنى بالمرضى ، أو أصبح بائعة متجولة أبيع الأناجيل فى القرى • لقد عزمت أمرى واتخذت قرارى • لا أستطيع أن أتزوج ، ولا أستطيع أن أعيش فى منازل كهذه • ما أريده شىء آخر ••• انك تعرف كل شىء •

ـ لا ، لم أستطع فى يوم من الأيام أن أعرف ما تريدين • يبدو لى أنك تهتمين بى قليلاً كبعض الممرضات العجائز اللواتى يعتنين بواحدة من مريضاتهن أكثر من سائر المريضات ـ لا يدرى أحد لماذا ـ أو كبعض تلك العجائز اللواتى يحببن دفن الموتى ويرين أن هذه الجثة أجمل من تلك الأخرى • ما بالك تنظرين الىَّ بهيئة غريبة عجيبة الى هذا الحد ؟

سألته بلهجة فيها كثير من الشفقة وهى تنظر اليه بانتباه خاص :

ـ أأنت مريض جداً ؟ رباه كيف يريد هذا الرجل أن يستغنى عنى؟

ـ اسمعى يا داشا ، اننى الآن تظهر لى أشباح دائماً • فبالأمس مثلاً ظهر لى شيطان صغير على الجسر ، وعرض علىَّ أن يقطع عنق ليبادكين

وماريا تيموفيئفنا ، فأنتهي من زواجي الشرعي ، ولا يتحدث عنه أحد بعد ذلك أبداً . وسألني الشيطان الصغير أن أدفع له عربوناً قدره ثلاثة روبلات ، لكنه أفهمني بوضوح أن العملية كلها لن تكلفني أقل من ألف وخمسمائة روبل . هذا شيطان يجيد الحساب . انه حيسوب ! هأ هأ هأ !.

ـ أأنت واثق بأن ذلك لم يكن الا شبحاً ؟

ـ لا ، لم يكن شبحاً ، وانما هو فدكا قاطع الطريق ، الهارب من سجن الأشغال الشاقة . ولكن ليس الأمر هذا . هل تعرفين ماذا فعلت ؟ لقد أعطيته كل ما كان في محفظتي من مال ، وهو الآن مقتنع بأنني دفعت له عربوناً .

ـ لقيته ليلاً ، وعرض عليك ذلك العرض ؟ ولكن ألست ترى اذن أنك قد وقعت في شباكهم وانتهى الأمر ؟

ـ ليكن ما يكون !

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـ ولكنني أرى هناك على طرف لسانك سؤالاً تريدين أن تلقيه !

خافت داشا .

ـ أي سؤال ؟ ليس ثمة سؤال البتة . ليس عندي أيسر شك . اسكت .

كذلك صاحت مضطربة أشد الاضطراب ، كأنها أرادت أن تدفع عن نفسها ذلك السؤال .

ـ أأنت واثقة بأنني لن أستعين بفدكا ، ولن أذهب الى دكانه .

قالت داريا بافلوفنا وهي تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ رباه ! لماذا يعذبني هذا التعذيب ؟

ـ اغفرى لى هذه المزحة السخيفة ! لعلنى سَرَت الىَّ عدوى عاداتهم السيئة ! هل تعلمين أننى ، منذ الليلة البارحة ، تستبد بى رغبة رهيبة فى الضحك ، فى الضحك بلا توقف ، مدةً طويلة ، دائماً ... لكأننى مصاب بمرض الضحك . انتبهى ! هذه أمى تصل . عرفت ضجة مركبتها واقفةً أمام درجات المدخل .

أمسكت داشا يده .

ـ أسأل الله أن يحميك من شيطانك ! و ... نادنى ... نادنى بأقصى سرعة .

ـ شيطانى ؟ ما هو الا شيطان صغير مصدور ، مزكوم ، فاشل . ولكن هأنت ذى مرةً أخرى لا تجسرين أن تعبّرى عن فكرتك يا داشا !

ألقت عليه داشا نظرة مثقلة بالألم والعتب ، واتجهت نحو الباب .

فهتف يقول لها ، وهو يبتسم ابتسامة متشنجة ، ابتسامة خبيثة :

ـ اسمعى يا داشا ! اذا ... الخلاصة ... « اذا » ... هل فهمت ؟ « اذا » أنا استعنت بفدكا وذهبت الى دكانه ، ثم ناديتك بعد ذلك ، فهل تجيئين ، هل تجيئين حتى بعد ذهابى الى دكانه ؟

خرجت داريا بافلوفنا دون أن تلتفت ، ودون أن تجيب ، مخفيةً وجهها بين يديها .

ودمدم نيقولاى فسيفولودوفتش يقول بعد لحظة من تفكير ، وقد ألمَّ بوجهه تعبير عن احتقار واشمئزاز :

ـ نعم ، ستهرع الىَّ ، حتى بعد ذهابى الى دكان فدكا . ممرضة ! همْ !... على كل حال ، ربما كان هذا بعينه هو ما أنا فى حاجة اليه .

الفصل الرابع

الجميع ينتظرون

١

انتشرت حكاية المبارزة بسرعة ، وأحدثت في النفوس تأثيراً قوياً وأسرع جميع الناس ينحازون الى صف نيقولاي فسيفولودوفتش . ان عدداً كبيراً ممن كانوا أعداءه حتى ذلك الحين قد أصبحوا الآن أصدقاء له . وكان مردُّ هذا الانقلاب في الرأي العام ، هذا الانقلاب غير المتوقع ، كان مردُّه في جلّه الى تدخل شخصية ظلت متحفظة خلال مدة طويلة ، ولكنها قالت في الوقت المناسب كلمات محكمة اجتذبت اطباق رأي جميع الناس ، اذ أضفت على الحادث معنى جديداً شائقاً . اليكم كيف حدث هذا :

في غداة يوم المبارزة ، كان المجتمع كله محتشداً عند زوجة عميد النبالة التي كانت تحتفل بعيد ميلادها . وقد حضرت جوليا ميخائيلوفنا هذا الاجتماع ، بل قد ترأسته . وقد وصلت الى الحفلة مع ليزافتا نيقولايفنا التي كانت مشرقة الجمال مرحة المزاج خاصة ، وذلك أمر بدا لكثير من سيداتنا منذ الوهلة الأولى محل شبهة وريب . يجب أن أقول في هذه المناسبة ان خطوبتها مع مافريكي نيقولايفتش أصبحت لا تحتمل الشك .

فلقد قالت جوليا ميخائيلوفنا ، مجيبةً عن سؤال ألقاه عليها جنرال محال على التقاعد ، وهو شخص خطير الشأن سأتكلم عنه بعد قليـل ، قالت ان ليزافتا نيقولايفنا مخطوبة • ومع ذلك لم تقبل واحدة من هاته السيدات أن تصدّق النبأ • فهن جميعاً مصرات اصراراً عنيداً على تخيل لا أدرى أية قصة ، لا أدرى أية حكاية عجيبة ملغزة يقـال انها حدثت في سـويسرا ويقال ان جوليا ميخائيلوفنا داخلة فيهـا لا أدرى كيف ! انه ليصعب على المرء أن يقول كيف صدّق الناس هذه الشائعات بل هذه التخيلات الى هذا الحد من التصديق ، ولماذا يحرصون هذا الحرص المطلق على اقحام اسـم جوليا ميخائيلوفنا فيها • فما ان دخلت حتى التفت نحوها جميع النـاس بنظرات مثقلة استطلاعاً • ويحسن أن نشير الى أن الناس كانوا في تلك السهرة لا يتحدثون عن المبارزة الا محـاذرين ، بصـوت خافت ، وذلك بسبب حداثتها وبسبب ظروف خاصة صاحبتها • يُضـاف الى ذلك أنهم يجهلون ما عسى يكون موقف السـلطات • على أنهم كانوا يعـرفون أن الخصمين المتبارزين لم تتعـرض لهم الشرطة بأى اقلاق ، وأن جاجانوف قد استطاع أن يرجع صباحاً الى منزله في دوخوفو • وكان جميع الناس ينتظرون بفارغ الصبر طبعاً أن ينبرى أحد للكلام عن الحادث بصـوت عال ، فيفتح الباب بذلك لحب الاطلاع الذى كان يغلى في جميع الصدور• وكانت آمال الحشد معقودةً بخاصة على الجنرال الذى أشرت اليــه منذ برهة • ولم يخب ظنهم •

كان هذا الجنرال ، وهو واحد من أبرز أعضاء نادينا ، كان رجلاً من مالكى الأراضى ليس على جانب كبير من الغنى والثراء ، لكنه متوقد الذهن محكم الآراء ، يحب التودد الى الآنسات والتلطف معهن ، ويهوى خاصةً أن يتكلم في المجتمع جهاراً بكل ما تهبه له رتبة الجنرال من سلطة وسطوة ، أن يتكلم عن أمور لا يسمح الناس لأنفسهم أن يتكلموا فيها الا

همساً بعد ، في الأركان والزوايا النائية . وذلك كان دوره بيننا ان صح التعبير . ثم انه يتكلم بصوت يتصنع العذوبة ، ماطاً كلماته ؛ ولعله اكتسب هذه العادة من معاشرة الروس الذين يسافرون الى الخارج أو من معاشرة السراة القدامى الذين دمَّر ثرواتهم تحرير الفلاحين . حتى ان ستيفان تروفيموفتش قد ذكر ذات يوم أن المالك من مالكي الأراضي يكون صوته أقرب الى اصطناع العذوبة ويكون في كلامه أميل الى مط الألفاظ ، على قدر ما تكون قوانين الاصلاح الزراعي قد نالت ثراءه بأذى أكبر . على أن ستيفان تروفيموفتش كان هو نفسه يجعل صوته حلواً ممطوطاً ، ولكن دون أن يلاحظ ذلك بتاتاً .

ولقد تكلم الجنرال كلام رجل مختص خبير : انه وهو يمت الى جاجانوف بقربى بعيدة ، كانت علاقاته به سيئة ، بل لقد كان بينهما دعاوى تنظر فيها المحاكم . يضاف الى ذلك أنه قام في الماضي بمبارزتين حتى ان احدى هاتين المبارزتين قد كلفته ثمناً باهظاً ، هو أنه أُرسل الى القوقاز جندياً بسيطاً * .

أشار أحد الحضور الى فرفارا بتروفنا التي بدأت تخرج بعد مرضها، بل انه لم يشر الى فرفارا بتروفنا نفسها وانما أشار الى مركبتها الفخمة التي تجرها أربعة أفراس شهباء أُتي بها من حظيرة التهجين التي يملكها آل ستافروجين . فاذا بالجنرال يقول فجأة انه قد التقى هذا الصباح « بالفتى ستافروجين » راكباً حصاناً . فسرعان ما صمت الجميع . وحرَّك الجنرال شفتيه مغمغماً ، ثم قال وهو يقلِّب بين يديه علبة ذهبية للتبغ هي هدية امبراطورية :

ـ يؤسفني أنني لم أكن هنا ، منذ بضع سنين خلت . كنت أيامئذ في كارلسباد ... همْ ... ان هذا الشاب الذي يسري بين الناس كلام

كثير عنه يشوقني أمره جداً ... هم ... أصحيح أنه مجنون ؟ لقد قيل ذلك في الماضي . وهأناذا أعلم أنه وقد أهين أمام قريباته ذات يوم قد مضى يختبيء تحت مائدة . وأمس قال لي ستيفان فرخوفنسكي ان ستافروجين قد اقتتل في مبارزة مع ذلك ... الذي يسمى جاجانوف ، لا لشيء الا تحقيق غاية من غايات الفروسية هي أن يقدم جبينه هدفاً يرميه بالرصاص رجل حانق مسعور ، تخلصاً منه لا أكثر . هم ... ألا ان هذا هو نوع ضباط حرس سنة ١٨٢٠ . من ذا يعاشر هنا ؟

وصمت الجنرال كأنه ينتظر جواباً . وبذلك فتح الباب لما كان يضطرم في نفوس أفراد مجتمعنا من نفاد الصبر .

فاذا بصوت جوليا ميخائيلوفنا التي أحنقها أن تشعر فجأة أنها محل أنظار الجميع ، اذا بصوتها يعلو قائلا على حين بغتة :

– أي شيء أبسط من هذا ؟ لماذا يدهشنا أن يقتتل ستافروجين في مبارزة مع جاجانوف ، وأن يزدري اهانة طالب ؟ ما كان له على كل حال أن يقاتل رجلا كان في الماضي قناً من أقنانه !

كلمات من سحر ! ان هذه الفكرة البسيطة لم تكن قد دارت في خلد أحد بعد . وكان لهذه الجملة التي قالتها جوليا ميخائيلوفنا نتائج خارقة . زال جو الفضيحة . جميع التقولات والنمائم والأقاصيص التي كان يتناقلها الناس غابت في الظل . اكتسبت القضية كلها معنى جديدا . ان شخصية جديدة قد انكشفت لنا ، شخصية كنا قد أخطأنا في معرفتها ، شخصية هي شخصية بطل صلب يمثل أرفع التقاليد . انه وقد نالته اهانة قاتلة من طالب ، أي من شاب متعلم ليس الآن قناً ، قد ازدرى الاهانة لأن الشخص الذي أهانه كان في الماضي عبداً له . ويضطرب الناس وتجري النمائم والتخرصات في طريقها ، ويلطخ الناس بالوحل ذلك الرجل الذي

صُفع . ولكن الرجل لا يكترث برأى هؤلاء الناس الذين لم يرتفعوا بعد الى مستوى فهم الأمور فهماً صحيحاً صادقا ، ويخبطون فى آرائهم خبط عشواء .

هتف عضو عجوز من أعضاء النادى يخاطب جاره بحرارة نبيلة قائلاً :

ـ ما كان أغبانا ، أنا وأنت ، يا ايفان الكسندروفتش ، حين رحنا نتناقش فى المبادىء الصادقة الصحيحة !

فأجابه صاحبه موافقا فى فرح :

ـ نعم يا بطرس ميخائيلوفتش . ما رأيك فى جيل الشباب ؟

وتدخل ثالث فقال :

ـ ليس الامر أمر جيل الشباب يا ايفان الكسندروفتش . يجب أن لا تخلط بين الأمور : ان ستافروجين هذا نجم ، انه حالة فذة فريدة ، وليس يمثل جيل الشباب . هكذا يجب أن تنظر الى الأمور .

ـ والى رجال من هذا المعدن انما نحن فى حاجة . يعوزنا رجال من هذا النوع .

على أن الشيء الأساسى هو أن « الرجل الجديد » الذى انكشف « سيداً حقيقيا » قد كان عدا ذلك أغنى مالك فى مقاطعتنا ، فكان يمكن اذن أن يقوم بدور كبير فى الشئون العامة ، وأن يكون نافعا كل النفع . لقد سبق لى أن قلت كلمة عن الحالة النفسية التى كان عليها مالكو الأراضى عندنا .

وأخذت الرءوس تزداد حرارة وحماسة .

قال أحدهم :

ـ انه لم يحتقر اهانة الطالب فحسب ، بل عقد يديه وراء ظهره ، لاحظوا هذا ، انتبهوا الى هذه البادرة •

فأضاف آخر :

ـ ولم يجرّ الطالب الى المحاكم الجديدة •

وتدخل ثالث فقال :

ـ رغم أن هذه المحاكم الجديدة كان يمكن أن تحكم له بخمسة عشر روبلاً ، تعويضا عمّا نال شرفه من اهانة وهو سيد من السادة ! ••• هيء هيء هيء ! •••

وصرخ صوت غاضب يقول :

ـ بل سأكشف لكم أنا عن سر المحاكم الجديدة * • اذا كان أحد مقتنعاً بأنه ارتكب جريمة سرقة أو احتيال ، فان خير ما يفعله هو أن يركض الى بيته قبل فوات الأوان وأن يقتل أمه ، فبذلك يضمن لنفسه البراءة فورا ، وتأخذ سيدات المحاكم بتحريك مناديلها • هذه هي الحقيقة صافيةً •

ـ نعم ، هذا صحيح كل الصحة •

وجرت الأحاديث في طريقها • تذكر الناس العلاقات التي كانت قائمة بين نيقولاى فسيفولودوفتش والكونت « ك ••• » • لقد كان معروفا أن الكونت « ك ••• » مستقل الرأي وأنه يعادي الاصلاحات الأخيرة • وكان معروفا كذلك أن له نشاطا في الحياة العامة ، وان يكن هذا النشاط قد تباطأ قليلا في الآونة الأخيرة • وها هم أولاء يذكرون على حين فجأة نقلاً عن مصدر مطلع جدير بالثقة والتصديق ، رغم أنه ما من واقعة تؤكد هذه الشائعة ، أن نيقولاى فسيفولودوفتش قد خطب احدى بنات الكونت• أما ما لعله قد حدث في سويسرا بين ليزافتا نيقولايفنا وستافروجين ، فلم

يتحدث أحد عنه بعد ذلك . يجب أن نذكر في هـــذه المناسبة أن أسرة دروزدوف كانت قد فرغت من اتمام جولة زياراتها التي أهملتها حتى ذلك الحين . وأجمعت السيدات على أن ليزافتا نيقولايفنا فتاة كسائر الفتيات ، باستثناء أنها تتكلف الظهور بمظهر شخص مريض الاعصاب ، وتستمد من ذلك زهواً بنفسها . وقالوا ان الاغماء الذي أصابها يوم وصول نيقـولاى فسيفولودوفتش لم يكن له من سبب غير ذعرها من السلوك المشين الذي صدر عن الطالب . حتى لقد أصبحوا الآن يبالغون في التطفيف من قيمة الأمور التي كانوا يسبغون عليها من خيالهم قبل ذلك ألوانا هائلة فاذا هي أشبه بألغاز يحار في فهمها العقل . أما العرجاء فقد نُسيت تماما . حتى لقد أصبح الناس ينزعجون من الاتيان على ذكرها . « هَبْ أن قد كان في حياته مائة عرجاء ! من منا لم يكن شابا ؟ » . وأخذوا يشيدون بموقف الاحترام الذي يقفه نيقولاى فسيفولودوفتش من أمه ، ويبرعون في وصفه بأنواع الفضائل ، ويمتدحون ما حصَّل من معارف واسعة وثقافة غـزيرة خلال السنين الأربع التي قضاها طالبا في الجامعات الألمانية . أما ســلوك جاجانوف فقد أجمعوا على نعته بأنه قد أعوزته اللباقة والكياسة ، فما كان لجاجانوف أن يتهجم على رجل من طبقته . وأما جوليا ميخائيلوفنا فقـــد اعترفوا لها بنفاذ البصيرة وسداد الحكم وحصافة الرأى .

لذلك فان الناس ، حين ظهر نيقولاى فسيفولودوفتش أخيرا ، قـد استقبلوه استقبالا فيه جدٌ يبلغ غاية السذاجة ، محدِّقين اليه بنظــرات تفيض حبَّ استطلاع ونفادَ صبر . وسرعان ما حبس نفسه في صـمت كامل مطلق ، فأرضى صمته الناسَ أكثر مما كان يرضيهم أن يلقي خطباً طويلة . الخلاصة : أصبح كل شيء فيه محببا مناسبا ، وجــرى سلوكه مجرى « الموضة » . والمرء في الريف متى ظهر في المجتمع أصـــبح

يستحيل عليه أن يختبىء • وعاد نيقولاى فسيفولودوفتش يراعى جميع آداب الريف مراعاة دقيقة تمضى الى حد الاتقان المرهف • وكان الناس يرون أنه غير مرح فيقولون : « لقد تألم كثيراً • انه انسان غير عادي • من حقه أن يكون مهموما » • حتى زهوه وحتى تعاليه اللذان استاء منهما الناس استياءً كبيرا قبل أربع سنين ، أصبحا الآن يثيران الاحترام والاعجاب •

وكانت فرفارا بتروفنا هي المنتصرة أكثر من أى شخص آخر • لا أدرى هل أسفت كثيرا على انهيار آمالها المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا • لكنها على كل حال قد وجدت في زهوها قوةً تشد أزرها • والأمر الغريب أنها بين عشية وضحاها اقتنعت اقتناعا جازما بأن ابنها نيقولاى قد اختار عروساً لنفسه احدى بنات الكوت « ك ••• » • والأغرب من ذلك أن هذا الاقتناع كان لا يقوم ، عندها هي أيضا ، الا على شائعات تسرى في المدينة . ولقد كانت تتمنى أن تسأل ابنها عن هذا الامر ، ولكنها لم تجرؤ • ومع ذلك عجزت عن السيطرة على نفسها مرتين أو ثلاث مرات فلامت ابنها ، وهى تصطنع المرح ، على أنه أصبح لا يصارحها بشئونه كما كان يفعل من قبل• فكان نيقولاى فسيفولودوفتش يبتسم ، ولكنه يلتزم الصمت ، فكانت هي ترى في هذا علامة موافقة • ورغم ذلك ، رغم ذلك كله ، لم تفلح في نسيان العرجاء • كانت ذكرى العرجاء تثقل على قلبها كصخرة • انها كابوس رهيب يعذّبها ويوقظ في نفسها احساسات تنبؤ غريبة ، بينما كانت مؤمنة ايمانا قاطعا بأن ابنها خطب احدى بنات الكونت « ك ••• » • لكننا سنتكلم عن هذا كله مرة أخرى فيما بعد • وحسبنا أن نذكر الآن أن فرفارا بتروفنا قد وجدت نفسها طبعا ، من جديد ، محلّ احترام وتقدير ، وحفاوة وترحيب ، في المجتمع كله ؛ غير أنها لم تستفد من هذا كثيرا ، لانها لا تخرج الا نادرا •

ومع ذلك فقد زارت جوليا ميخائيلوفنا زيارة فخمة • يجب أن نشير الى أن أحدا لم تؤثر في نفسه الكلمات البليغة التي نطقت بها جوليـــا ميخائيلوفنا في حفلة عيد ميلاد عميدة النبالة كما أثرت في نفس فـرفارا بتروفنا : لقد أزاحت تلك الكلمات عن قلبها حملاً ثقيلاً ، وبدّدت من نفسها شيئا من الشكوك التي ظلت تعذبها منذ يوم الاحد ذاك • حتى لقد قالت صراحةً : « انني لم أكن أفهم تلك المرأة » • وباندفاعها المعهود فيها ، المألوف عندها ، قالت لجوليا ميخائيلوفنا حين زارتها : انني آتية «لأشكرك»• فسرّت زوجة الحاكم سرورا عظيما ، ولكنها حافظت على وضع الرصانة والاستقلال ، وأخذت ترى في خطورة شأنها وعلو قدرها رأياً عظيما ، حتى لقد غالت في هذا بعض المغالاة في أغلب الظن • من ذلك أنها أعلنت أثناء الحديث أنها لم تسمع أبدا عن الاعمال العلمية التي قام بها ستيفـــان تروفيموفتش •

ـ انني أستقبل طبعا الشاب فرخوفنسكي ، وأعامله معاملة لطيفة • صحيح أنه طائش ، ولكنه ما يزال فتى • ثم انه على جانب من الثقـافة • هو على كل حال ليس كناقد قديم فات أوانه وولّى زمانه •

فأسرعت فرفارا بتروفنا تعلن لجوليا ميخائيلوفنا أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن ناقدا في يوم من الايام ، وأنه قد عاش عندها دائما ، وانه اشتُهر « بأحداث يعرفها الناس كافة » وقعت له في بداية حياته العلمية ، كمـــا اشتهر في الآونة الاخيرة بأعماله التي تتناول تاريخ اسبانيا • وهو يهيء الآن كتابا عن وضع الجامعات الألمانية ، كما يهيء دراسةً عن « مادونا » درسدن فيما تعتقده الخلاصة : لقد رفضت فرفارا بتروفنا أن تترك صديقها للسان جوليا ميخائيلوفنا •

ـ عن « مادونا » درسدن ؟ عن مادونا سكستين ؟ * يا عـــزيزتي

فرفارا بتروفنا ، لقد وقفت ساعتين أتأمل هذه اللوحة ، ثم انصرفت عنها خائبة الأمل . ما كان أشد دهشتي حين لم أفهم منها شيئاً . كارمازينوف يقول هو أيضا ان فهمها عسير . ما من أحد يرى فيها اليوم شيئا خارقا ، لا الروس ولا الانجليز . ان الشيوخ هم الذين خلقوا مجدها .

ـ أهذه موضة جديدة ؟

ـ أنا من جهتي أرى أن لا ننظر الى شبابنا نظرة تعالٍ . الناس في كل مكان يصيحون قائلين : هؤلاء شيوعيون ؛ ولكن في رأيي أن علينا أن نجتذبهم وأن نحميهم من أنفسهم . انني أقرأ كل ما يُنشر الآن : المجلات ، المؤلفات التي تتكلم عن الشيوعية ، كتب العلوم الطبيعية . انني أتلقى جميع المطبوعات الجديدة ، لأن على المرء أن يعرف زمانه ، وأن يعرف الناس الذين يعيشون في عصره . لا يستطيع المرء على كل حال أن يقضي حياته كلها فوق ذرى الخيال . والنتيجة التي أخلص اليها هي أن علينا أن نستميل الشباب وأن نمنعهم من السقوط في الهوة . تلك قاعدتي في السلوك . وصدّقي يا فرفارا بتروفنا أننا وحدنا ، أبناء المجتمع ، نستطيع بتأثيرنا الحسن وموقفنا الودود خاصة أن نمسكهم على حافة الهوة التي يدفعهم اليها ما يتصف بهم جميع هؤلاء الشيوخ الطيبون من تعصب وتزمت وعدم تسامح . ثم اني سعيدة جدا بما قلته لي عن ستيفان تروفيموفتش . لقد أوحيت اليّ بفكرة : انه قد يفيدنا كثيراً في الصبيحة الأدبية . تعلمين أنني أنظم حفلة كبرى لمعونة المعلمات الفقيرات اللواتي يرجع أصلهن الى اقليمنا . ان ستاً منهن قد وُلدن في مقاطعتنا ، وتبعثرن في أنحاء روسيا ؛ وبينهن اثنتان مستخدمتان في مصلحة التلغراف ، واثنتان طالبتان . ومنهن أيضا من يرون دخول الجامعة ، لكنهن لا يملكن من المال ما يمكنهن من ذلك . ان حظ المرأة الروسية فظيع يا فرفارا بتروفنا.

ان مسألة الدراسة العليا هي مشكلتهن الان . حتى لقد اضطر « مجلس الامبراطورية » * نفسه أن يعالج هذه المشكلة في الآونة الأخيرة . يستطيع المرء في بلادنا العجيبة هذه روسيا أن يفعل ما يريد . لكنني أعود فأكرر أن المجتمع لن يتوصل الى توجيه هذا العمل الجليل في الطريق القويم الا اذا التزم في معاملة الجيل الجديد موقفا يفيض بشاشة وترحيبا وحفاوة وتعاطفا نشيطا . ان الصفوة من الناس ليست كبيرة العدد وا أسفاه ! صحيح أن هناك أناسا يُعدُّون صفوة ، لكنهم مبعثرون . فلنتحد اذن ، فنكون أقوياء . الخلاصة : ستُقام عندي صبيحة أدبية ، يعقبها غداء خفيف ؛ ثم تتبع الغداءَ فترةُ استراحة ، وفي المساء تُقام حفلة راقصة . ولقد كنا ننتوي تدشين الحفلة بلوحات حية ، لكنني أعتقد أن النفقات تكون عندئذ باهظة ، لذلك سنكتفي بأن نقدم للجمهور رقصتين أو ثلاثا من رقصات الكادريل المقنعة التنكرية ، ممثلة الاتجاهات الادبية الرئيسية . ان هذه الفكرة التي تشتمل على فكاهة انما اقترحها كارمازينوف الذي يساعدني كثيرا من جهة أخرى . وسوف يقرأ علينا في الصبيحة الادبية آخر عمل أدبي له ، وهو عمل لم يطلع عليه أحد بعد . ان كارمازينوف يهجر القلم ، ولن يكتب بعد اليوم . وفي هذه الصفحات يودِّع الجمهور؛ عمل رائع عنوانه: « شكرا » . وقد جعل العنوان بالفرنسية . هو يرى أن ذلك أحلى وألطف وأرهف . وأنا أشاطره هذا الرأي . بل أنا الذي اقترحت عليه هذا الاقتراح . أظن أن ستيفان تروفيموفتش يستطيع ، هو أيضا ، أن يقرأ لنا شيئاً ، شريطة أن لا يكون طويلا ... وأن لا يكون فيه تعالم كثير ! ... أعتقد أن بطرس ستيفانوفتش سيجيء اليك ، ويطلعك على البرنامج ، أو اسمحي لي أن أحمله اليك بنفسي .

ــ واسمحي لي من جهتك بأن أضع اسمي في قائمة المتبرعين .

وسوف أنقل اقتراحك الى ستيفان تروفيموفتش ، وسوف ألحُ عليــه أن يقبــل .

عادت فرفارا بتروفنا مفتتنةً بجوليا ميخائيلوفنا أشــد الافتتان . وقد سندتها بعد ذلك ودعمتها بكل ما تملك من قوة . ولكن حنقها على ستيفان تروفيموفتش قد اشتد مزيدا من الاشتداد في الوقت نفســه ، لا ندرى لماذا ! وكان المسكين لا يخطر بباله شيء من ذلك بتاتا .

قالت فرفارا بتروفنا لنيقولاى فسيفولودوفتش وبطرس ستيفانوفتش وقد جاءا اليها في السهرة .

ـ انني هائمة بحبها حقا . ولست أدرى كيف أمكن أن أُخطىء في معرفة هذه المرأة .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ عليك مع ذلك أن تصالحي العجوز . انه يائس . انك تعاملينــه معاملة مسرفة في الشدة . أمس التقى بمركبتك فحيَّاك ، ولكنك أشحت وجهك عنه . نريد أن ندفعه الى أمام . ان لى أملاً فيــه . وما يزال في وسعه أن يفيدنا .

ـ آ ... أنا واثقة بأنه سيقرأ .

ـ ليس الامر هو هذا فحسب . كنت أريد أن أذهب اليه اليوم ، فهل أبلغه شيئاً من جهتك .

قالت فرفارا بتروفنا بشيء من التردد :

ـ اذا شئت . ولكنني لا أدرى كيف ستدبر الامر . كنت أنتــوى أن أتولى بنفسي شرح ما أريد شرحه ، فأحدد له موعدا ...

وقطَّبت حاجبيها . قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ موعدا ؟ لا يستحق الامر هذا • يكفي أن أنقل اليه ما تريدين أن أنقله اليه •••

فقالت فرفارا بتروفنا :

ـ ولكن قل له انني سأبلغه موعد لقائنا ، باليوم والساعة • لا تنس هذا •

خرج بطرس ستيفانوفتش وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة • يمكنني أن أقول ـ اذا صدقت ذاكرتي ـ انه كان في ذلك الأوان كثير الغضب ، وانه كان يعامل جميع الناس تقريبا معاملة فيها شيء من حدة المزاج • والغريب في الامر أن الناس كانوا يغفرون له هذا • لقد سلّموا بأن من حقه أن ينعم بحظوة خاصة • وينبغي أن أذكر أن مبارزة نيقولاي فسيفولودوفتش قد أثارت حنقه كثيرا • لقد فوجيء بنبأ الحادث • فحين رُويت له القصة اخضرّ لونه من شدة الغضب • هل جرح ذلك كبرياءه ؟ انه لم يعلم بالأمر الا في الغد ، أي بعد أن أصبحت المدينة كلها على علمٍ به •

فلما لقي ستافروجين مصادفة في النادي بعد ذلك بخمسة أيام ، قال له :

ـ لم يكن من حقك أن تبارز •

يجب أن نلاحظ أنهما لم يكونا قد التقيا بعد المبارزة، رغم أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتي الى فرفارا بتروفنا كل يوم •

نظر اليه نيقولاي فسيفولودوفتش صامتا ، ذاهل الهيئة ، حتى لكأنه لم يفهم ماذا كان يريد منه الآخر ، ومضى دون أن يتوقف ، واجتاز الصالة الكبرى متجهاً نحو البوفيه • فما كان من بطرس الا أن ركض وراءه ، حتى اذا وصل اليه أضاف يقول له :

ـ وقد ذهبت أيضا الى شاتوف ••• وتريد أن تعلن على الملأ زواجك بماريا تيموفيئفنا •••

وأمسكه من كتفه عن ذهول •

فانتزع نيقولاى فسيفولودوفتش نفسه منه بحركة مفاجئة ، والتفت اليه بوجه يعبِّر عن التهديد بغتة • فنظر اليه بطـــرس ستيـــفانوفتش ، وتقبضت شفتاه بابتسامة صفراء • ولم يدم ذلك كله الا لحظة • ومضى نيقولاى فسيفولودوفتش •

٢

ترك بطرس ستيفانوفتش بيت فرفارا بتروفنا وذهب الى عند أبيه رأساً . كان يغذ الخطو من شدة شوقه الى افراغ غضبه والى الثأر لنفسه من اهانة كنت ما أزال أجهلها . يجب أن أقول ان ستيفان تروفيموفتش ، أثناء آخر لقاء تم بينه وبين ابنه يومَ الخميس من الاسبوع الماضي ، قد انتهى الى طرد ابنه طرداً الى الباب مهدِّداً اياه بعصاه . وكان الأب هو الذي بادر الى المشاجرة في الواقع . وقد كتم عني وقوع هذا الحادث بينه وبين ابنه . ولكن حين وصل بطرس ستيفانوفتش راكضا وهو يبتسم ابتسامته المستمرة التي تتكلف تواضعا ساذجا ، وينظر نظرته المتفحصة المستكشفة التي تثير في النفس انزعاجا كريها ، فقد أسرع ستيفان يومىء مهيباً بي أن لا أترك الغرفة . فكذلك أمكنني أن أعرف علاقاتهما ، لأنني شهدت حديثهما كله في هذه المرة .

كان ستيفان تروفيموفتش مضطجعا على ديوانه . وكان قد نحل جسمه واصفر لونه بعد يوم الخميس الماضي .

جلس بطرس ستيفانوفتش الى جانبه بدون كلفة ، وجعل ساقيه تحته بغير أي تحرج ، فاحتل من الديوان مكانا أكبر مما يجيزه احترام الابن لأبيه . فابتعد ستيفان تروفيموفتش بوقار ، ملتزماً الصمت .

كان على المائدة كتاب مفتوح هو رواية عنوانها : « ما العمل ؟ » * . يؤسفني أن عليَّ أن أكشف الآن عن الضعف الغريب في صديقي : ان فكرة الخروج من العزلة وخوض معركة أخيرة كانت لا تنفك تتجسد في خياله الذي تفتنه الأحلام . فحزرت أنه كان « يدرس » هذه الرواية لا لشيء الا أن يهيء نفسه لتلك المعركة المحتومة مع أولئك «الزاعقين » :

يعرف أسلحتهم وأدلتهم وحججهم من عقيـــدتهم نفسها ، ثم يربكهم ويحرجهم ويفحمهم على مرأى منها « هي » ذاتها . ولكن لكم كان يعذّبه ذلك الكتاب ! كان في بعض الاحيان يرميه على الارض ، ويأخذ يسير في الغرفة كالخارج عن طوره .

وكان يقول لي بصوت محموم رهيب :

ـ انني أسلم بأن الفكرة الاساسية التي يقول بها الكاتب صحيحة صادقة . انها فكرتنا ، فكرتنا بعينها . نحن الذين زرعناها ، ونحن الذين تعهدناها بالشرح ! وما عساهم يقولون بعد الذي قلناه نحن على كل حال ؟ ولكن رباه ! لكم شوّهوها ، وبتروها ، وأساءوا التعبير عنها . أهـذه هي الاهداف التي سعينا الى بلوغها ؟ من ذا الذي يستطيع أن يتعرف هنا فكرتنا الاصلية نحن ؟

كذلك كان يقول هذه الجمل الاخيرة وهو ينقر على الكتـــاب باصبعه .

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قرأ عنوان الكتاب بعد أن تناوله من على المائدة ، سأله وهو يضحك ضحكا ساخراً :

ـ أتثقف نفسك ؟ آن الأوان حقا . ان شئت جئتك بما هو خير من هذا أيضا .

ظل ستيفان تروفيموفتش صامتاً وقورا لا يتكلم . وكنت جالسا على الديوان .

شرح بطرس ستيفانوفتش الغرض من زيارته بكلمات قليلة . فكان طبيعيا أن شُده ستيفان تروفيموفتش شدهاً كبيراً . وكان يصغي الى ابنه بقلق يمازجه استياء واستنكار .

ـ هكذا اذن . ان جوليا ميخائيلوفنا تأمل أن أجيء أقرأ عندها !

ـ ليس الدافع الى دعوتك أنها فى حاجة اليك حقا . لكنها أرادت من ذلك أن تسر فرفارا بتروفنا وأن تداريها لا أكثر . وطبيعى أنك لن تجرؤ أن ترفض .

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ وأنا واثق من جهة أخرى بأنك تتمنى أن تقرأ ... انكم جميعا ، معشر العجائز ، مغرورون بأنفسكم ، محبُّون للظهور . ولكن اسمع : يجب أن لا يكون ما ستقرؤه مملاً املالاً شديداً . ماذا تكتب فى هذه الأيام ؟ أما زلت مشغولاً بكتابة تاريخ اسبانيا ؟ أعطنى ورقتك قبل موعد الصبيحة الادبية بثلاثة أيام ، لألقى عليها نظرة ، لأن من الجائز أن تنيمنا جميعا من فرط الضجر .

كان واضحا أن الفظاظة الصريحة فى هذه الأقوال المهينة ، بل وكذلك تعجل بطرس ستيفانوفتش فى كلامه ، انما كانا مقصودين متعمدين ؛ حتى ليفهم المرء من طريقة حديثه أن مخاطبة ستيفان تروفيموفتش بلغة ألطف ، أمر مستحيل فى رأى بطرس ستيفانوفتش . ومع ذلك أصرَّ صديقى على تجاهل الاهانات . لكن الأنباء التى سمعها قد بثت فى نفسه اضطرابا شديدا .

سأله وقد اصفر لونه :

ـ ولكن هل « هى » ، هى نفسها ، تبلغنى هذا الكلام بواسطتك « أنت » ؟

ـ أقصد ... انها تريد أن تضرب لك موعدا لتتمكنا من التصارح : ذلك أثرٌ أخير من آثار تكلفكما العاطفى . لقد تغنجت عليها خلال عشرين عاما ، فعوَّدتها على هذه الاساليب المضحكة السخيفة . ولكن لا تقلق :

انتهى الامر الآن . هى نفسها لا تنفك تكرر أنها الآن فقط انما أخذت « ترى رؤية واضحة » . لقد قلت لها بصراحة تامة ان صداقتكما تقوم عند كل منكما على أن يفرغ أحدكما أمام الآخر مياهه الوسخة . ما أكثر ما قالته لى يا صاحبى ! هه ! ما كان أحلاه من دور ، ذلك الدور الذى قمت به تجاهها خلال هذا الوقت كله ، وهو دور خادم ! لقد احمر وجهى خجلاً وحياءً عنك ! ...

ـ أنا قمت بدور خادم ، أنا ؟

كذلك صاح يقول ستيفان تروفيموفتش ، عاجزاً عن السيطرة على نفسه . فأجابه ابنه قائلاً :

ـ بل كنت أسوأ من ذلك ، كنت طفيليا ، أى خادما لا يعمل . نحن أكسل من أن نعمل ، لكن لنا أسنانا طويلة . هى نفسها تدرك هذا الآن. ولكن ما أفظع ما روته لى عنك ! لشد ما ضحكت يا صاحبى من الرسائل التى كنت تكتبها وتبعثها اليها ! هذا مخجل ، هذا مقزِّز . ألا انك لمنحط انحطاطا عميقا ! ان فى البر والاحسان شيئا يفسد الشخص الذى يقبلهما افسادا يبقى الى الأبد ولا يزول : انك مثال على ذلك واضح .

ـ أطلعتك على رسائلى ؟

ـ كلها . يستحيل على المرء طبعا أن يقرأ هذا كله ! ما أكثر الصفحات التى سوَّدت ! يخيَّل الىَّ أن هناك أكثر من ألفى رسالة . ولكن هل تعلم يا صاحبى أنها فى لحظة من اللحظات كانت مستعدةً لأن تتزوجك فيما أظن ؟ لقد ضيَّعت على نفسك بالغباء فرصة عظيمة ! أنا أتكلم هنا من وجهة نظرك أنت طبعا ! ومهما يكن من أمر ، فلو تزوجتها لكان ذلك أفضل من أن تقبل الزواج « لتغطية آثام الغير طمعا فى المال » فتكون مهر جاً تضحك عليك المدينة كلها .

ـ طمعا في المال ؟ أهي التي قالت هذا ؟

كذلك هتف يقول ستيفان تروفيموفتش متألماً . فأجابه ابنه قائلاً :

ـ ما عسى يكون الباعث اذن ؟ لماذا تتخبط هذا التخبط ؟ لقد دافعت أنا عنك بهذه الحجة نفسها . وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تملكها لتبرر سلوكك . هي نفسها أدركت أنك كنت في حاجة الى مال ، كسائر الناس، وأنك من هذه الناحية ربما كنت على حق . لقد برهنت لها برهاناً رياضياً على أن كلاً منكما يستفيد من هذه العلاقات التي بينكما : هي رأسمالية ، وأنت مهرِّج عاطفي ! ثم انها لا تأخذ عليك شيئا من ناحية المال هذه ، وان تكن قد اتخذتها بقرةً حلوباً . ولكن ما يحنقها هو أنها وثقت بك خلال عشرين عاماً ، وأنها خُدعت بعواطفك الجميلة التي كانت تضطرها الى الكذب بمعنى من المعاني . انها لن ترضى أن تعترف بأكاذيبها هي طبعا، ولكنها ستجعلك تدفع ثمن أكاذيبك أنت غالياً . لا أدري حقا كيف لم تتنبأ بأنك ستدفع الثمن باهظاً في يوم من الايام ، مع أنك تملك شيئاً من الحس السليم . لقد نصحتها بأن تضعك في ملجأ ، في ملجأ مناسب ، فاطمئن . لن يكون في هذا اذلال لك . وهذا ما ستفعله فيما أظن . هل تذكر آخر رسالة بعثتها اليَّ وأنا في س ... ، منذ ثلاثة أسابيع ؟

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل ابنه :

ـ هل يُعقل أن تكون قد أطلعتها على تلك الرسالة ؟

فأجابه ابنه :

ـ كيف لا ؟ فورا ! انها تلك الرسالة التي ذكرتَ لي فيها أنها تستغلك وأنها غيورة من مواهبك . ثم حدثتني فيها عن « خطايا الغير » . بالمناسبة يا صاحبي ، ان لك غرورا وأنانية لا مثيل لهما ! لشد ما ضحكت! ان رسائلك مزعجة مرهقة على وجه العموم ، فأسلوبك فظيع كريه. كان يتفق لي أحيانا أن لا أقرأ الرسائل التي تصلني منك . منها واحدة ملقاة

فى مكان ، لم أفضضها قط • فى امكانى أن أردّها اليك غدا اذا شئت • ولكن تلك الرسالة الاخيرة كانت هى الذروة • لشدما ضحكت• يا الهى ! لشدما ضحكت !

قال ستيفان تروفيموفتش :

ـ ما انت بانسان ، ما انت بانسان ! أنت وحش ، أنت غول !

ـ لا سبيل الى التحدث معك • هأنت ذا تغضب من جديد ، مثلما غضبت يوم الخميس الاخير •

نهض ستيفان تروفيموفتش مهدِّدا يسأل ابنه :

ـ كيف تسمح لنفسك بأن تكلمنى هكذا ؟

ـ ماذا ؟ اننى أكلمك بوضوح وبساطة •

ـ أأنت ابنى أم لا ، أيها الوحش ؟

ـ لا بد أنك تعرف هذا خيرا مما أعرفه أنا • والآباء ميَّالون طبعا الى تصديق الاوهام فى هذا الشأن •••

ـ اسكت ، اسكت !

كذلك قاطعه ستيفان تروفيموفش وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه !

قال الابن :

ـ انك تصرخ وتشتمنى ، كما فعلت فى المرة الاخيرة حين أردت أن تضربنى • فاعلم اننى وضعت يدى على الوثيقة بعد أن قضيت الليل كله فى نبش صندوقى • ولكن دع العزاء سبيلا الى نفسك • لا شىء واضح دقيق • ما هى الا رسالة صغيرة أرسلتها أمى الى ذلك البولندى الصغير • فاذا حكمنا على الامر من خلال اللهجة •••

ـ اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فلأصفعنَّك !

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت الىَّ فجأة :

ـ كذلك هم الناس . ان الامر مستمر بيننا على هذا النحو منذ يوم الخميس الماضي . يسعدني أنك اليوم هنا ، ففي امكانك أن تكون قاضيا لنا . أحب قبل كل شيء أن أسجل هذه الواقعة : هو يأخذ علىَّ أنني أقول عن أمي هذا الكلام ، ولكن أليس هو الذي دفعني الى ذلك دفعاً ؟ حين كنت طفلا في بطرسبرج ، ألم يكن يوقظني مرتين في الليل ليقبِّلني ويبكي فوقي كما تبكي امرأة عجوز ؟ وهل تعلم ماذا كان يروي لي في ذلك الحين ؟ لقد كان يقصُّ علىَّ هذه الحكايات نفسها عن أمي . فمنه هو انما عرفت هذه الحكايات .

ـ أوه ! لقد كان لأقوالي معنى آخر تماما ، معنى رفيع ! انك لم تفهم . انك لم تفهم شيئا ، لم تفهم شيئا البتة !

ـ اعترف مع ذلك أن هذه الحكايات كانت في فمك أدنأ وأحط . على كل حال ، هذا كله لا أكترث به ! وانما أضع نفسي في الموضع الذي تنظر منه أنت الى الأشياء . أما عن الموضع الذي أنظر أنا منه الى الأمور ، فلا تقلق . انني لا ألوم أمي . فيم يهمني أن تكون أبي أو أن لا تكون ؟ سيَّان عندي . أنا لست مسئولا عما جرى بينكما في برلين . وهل كان في وسعكما أن تتصرفا تصرفاً يتصف بالتعقل والحكمة ؟ ألا تدرك الى أي حد كنتما سخيفين مضحكين ؟ ومهما يكن من أمر ، فيم يهمك أن أكون ابنك أو ابن ذلك البولندي ؟

والتفت بطرس ستيفانوفتش نحوي من جديد وقال :

ـ اسمع ! انه لم ينفق علىَّ قرشا واحدا في يوم من الايام ، ولم يرني الا حين بلغت السادسة عشرة من عمري . وبعد ذلك ، أثناء وجوده

هنا ، نهبني نهباً . ثم ها هو ذا الآن يصرخ قائلا انه ظل طوال حياته يتألم في سبيلي ، وها هو ذا يمثل أمامي تمثيلاً لا يخفى كذبه . أنا لست فرفارا بتروفنا ، فاعفني من هذا التمثيل ! ...

ونهض وتناول قبعته .

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة وجه الأموات ، ومدّ يده نحو ابنه :

ـ انني ألعنك ، ألعنك !

قال بطرس ستيفانوفتش مدهوشا :

ـ هل يُعقل أن ينطق امرؤ بسخافات كهـذه السخافات . هيا . استودعك الله يا صاحبي . لن أعود بعد اليوم . لا تنس أن ترسل اليّ مقالتك ، وأن لا تكثر فيها من الحماقات اذا أمكن ، هه ؟ وقائع ، ووقائع ، ووقائع ، لا أكثر . وعليك بالايجاز خاصة .

٣

كان هناك أسباب تدعو بطرس ستيفانوفتش الى أن يتصرف مع أبيه كما تصرّف : في رأيي أنه يريد أن يغرق العجوز في اليأس ويضطره بذلك الى ارتكاب عمل من الاعمال الفاضحة الصاخبة التي ستفيد الابن في تحقيق أهداف بعيدة سوف نتكلم عنها فيما بعـــد . ان طائفة كبيرة من المشاريع والخطط ، وهي كلها تقريبا مشاريع رهيبة ، كانت تشغل في ذلك الأوان ذهن الشاب الذي كان يستهدف كذلك ضحايا أخرى غير ستيفان تروفيموفتش . غير أن هناك واحدة من هذه الضحايا كان يعوّل عليهـا تعويلاً خاصا : هي السيد فون لمبكه نفسه .

ان آندره أنطونوفتش فون لمبكه ينتمي الى ذلك الشعب الذي أنعم عليه الحظ * ، ويُعدُّ ممثّلوه في روسـيا ببضعة مئـات من الآلاف ، ويؤلفون ـ ربما على غير علم منهم ـ عصبةً منظمةً أكمل تنظيم . ليست هذه العصبة مخلوقا اصطناعيا . وانما هي نشأت من تلقاء نفسها على نحو طبيعي ، فهي لم تقم على عقد مبرم ، بل على التزام أدبي . ان هدف هذه العصبة هو دعم ومساعدة جميع ممثلي هذا الشعب ، في كل وقت ، وفي كل مكان ، وفي جميع الظروف وقـد نال آندره أنطونوفتش شرف الدراسة في واحدة من تلك المدارس العليا التي لا يتردد اليها الا أولاد أسرٍ غنية أو ذات نفوذ . حتى اذا أتمّ تلاميذ هذه المدارس دراستهم ، أسندت اليهم على الفور تقريبا وظائف هامة في ادارات الدولة . لقـد كان أحد عمّي آندره أنطونوفتش ليوتنان كولونيل في سلاح الهندسة ، وكان عمه الآخر صاحب مخبز . غير أن آندره أنطونوفتش ، اذ ظفـر بدخول تلك المدرسة الارستقراطية ، قد وجد هنالك عددا كبيرا من ممثلي

الشعب الذي يرجع أصله اليه . وكان مرح الطبع خفيف الظل فكان رفاقه يحبونه كثيرا ؛ ولكنه لم يكن مجتهداً في دراسته. وبينما كان أكثر الشبان في الصفوف العليا ، ولا سيما الروس ، يناقشون منذ ذلك الحين مشكلات كبرى من مشكلات الساعة ، حتى لكأن حلَّ هذه المشكلات لا يُنتظر الا منهم ، كان فون لمبكه ما يزال يسترسل في أمازيحه البريئة كما يفعل تلميذ صغير . وكانت تهريجاته البسيطة ، الساخرة أحيانا ، تضحك الجميع ، وذلك ما كان يريده . فتارة يلقي عليه الاستاذ سؤالاً في الصف فاذا هو يتمخط تمخطا يبلغ من الغلظة أن الجميع ينفجرون ضاحكين ومعهم الاستاذ نفسه ؛ وتارةً يمثّل في المهجع لوحة حية ذات طابع مستهتر ، فيصفق له رفاقه فرحين ؛ وتارةً يعزف بمجرد قَرْص أنفه افتتاحية « فرا ديافولو » * . وكان يتميز كذلك بنوع من الاهمال المقصود كان يعده فكهاً باعثاً على الضحك . وفي أواخر أيام اقامته بالمدرسة ، أخذ ينظم شعراً باللغة الروسية ، ذلك أنه ، على غرار كثير من أبناء جنسه ، كان لا يعرف لغته الأم الا معرفة ناقصة جدا . فكان أن قرَّبه هذا الميل الى الشعر من رفيق له هو ابن جنرال روسي ألمت به مصائب . ان هذا الفتى المكتئب النفس الحادَّ المزاج كان رفاقه في المدرسة يرون أنه سيكون في المستقبل أحد أمجاد أدبنا . وقد أنعم هذا الفتى على آندره أنطونوفتش بحمايته . وبعد ثلاث سنين كان ذلك الفتى المكتئب قد ترك الوظيفة وفرغ للأدب ، فكان اذن ينتعل حذاء مهترئاً ، وكان يرتجف من شدة البرد تحت معطف صيف . وانه كذلك في ذات يوم من أيام الخريف اذ هو يرى على جسر آنتشكوف رفيقه القديم الذي كان قد شمله هو بحمايته ، « لمبكا » ، كما كانوا يسمونه في المدرسة ؛ فلم يتعرفه في أول وهلة ، ووقف مبهوتا . لقد وجد نفسه أمام شاب يرتدي أحسن حلة ، له في

العارضين لحيتان أحسن قصهما ، ضاربة شقرتهما الى حمرة ، وعلى احدى عينيه نظارة . حذاءاه ملمَّعان ، قفازاه زاهيان نضران ، معطفه على آخر موضة ، يمسك تحت ذراعه محفظة أوراق .

أظهر لبكه كثيرا من اللطف والمودَّة ، وذكر لصاحبه عنوانه ، ودعاه أن يزوره . ان اسمه الآن ليس « لبكه» فقط ، بل فون لبكه . ومع ذلك زاره رفيقه القديم ،ربما لا يدفعه الى هذا الا الغيظ والا الحرص على أن يسخر منه ويضحك عليه . استقبله على السلَّم ـ وما هو بالسلَّم الفخم بتاتا لكنه مفروش بسجادة حمراء ـ استقبله سويسرى شد حبل جرس يدق فى الطابق الأعلى . وكان الزائر ينتظر أن يدخل شقة رائعة ، فاذا هو يرى صاحبه « لبكه » مقيما فى غرفة صغيرة مظلمة مخرَّبة ، مشطورة شطرين بستارة لونها أخضر قاتم . والأثاث مريح مناسب بعض الشيء ، لكنه عتيق جدا . والنوافذ العالية الضيقة مزوَّدة بستائر خضر داكنة . ان فون لبكه يقطن عند شخص يمت اليه بقرابة بعيدة ، هو جنرال شمله برعايته ومنَّ عليه بحمايته .

استقبل فون لبكه الزائر بمودة ، مع احتفاظه بمظهر وقور . وتحدث عن الادب فيما تحدث ، ولكن دون أن يتعرض لأية مشكلة حادة . وجاء خادم له رباط عنق أبيض ، فقدَّم للضيف شاياً أصفر وبسكويتا جافا . ولكن الرفيق سارع يطلب كأسا من ماء سلتس لا لشيء الا أن يزعج صاحب البيت . فجيء اليه بالماء بعد شيء من الانتظار ، وبدا على فون لبكه شيء من الارتباك لازعاج الخادم مرةً أخرى . ومع ذلك اقترح على الزائر أن يبقى للعشاء ، فما كان أوضح سروره حين رفض الزائر هذا الاقتراح وانصرف .

فى ذلك الأوان كان آندره أنطونوفتش مولَّها بحب البنت الخامسة

من بنات الجنرال ، ويبدو أنها كانت تبادله عاطفة بعاطفة . لكن ذلك لم يمنع أن تزوجت آماليا ، بعد ذلك بمدة قصيرة ، ألمانيا من رجال الصناعة كان رفيق الجنرال العجوز فى الماضى .

لم يشعر آندره أنطونوفتش من ذلك بحزن مسرف فى الشـــدة ، وأخذ يعمل فى صنع مسرح من الكرتون : تُرفع الستارة ، فيخـــرج الممثلون الى المسرح يلوّحون بأيديهم ويُجرون اشارات شتى ؛ والشرفات ملأى بالمشاهدين ؛ وموسيقيو الأوركسترا يحركهم جهاز فيزلقون أقواس آلات الكمان على أوتارها ، بينما قائد الأوركسترا يضبط الايقاع بحركات عصاه بين تصفيق الضباط والشبان الأنيقين الذين يجلســـون على كراسى أرض الصالة . ان هذا كله ، حتى أدق تفاصيله ، قد صنعـــه فون لمبكه نفسه ، واقفا على انجاز هذا العمل ستة أشهر كاملة . حتى اذا فرغ منه أقام الجنرال العجوز حفلة ضمت خاصته : البنات الخمس وبينهن العروس وزوجها ، وسيدات وآنسات كثيرات يصحبهن أزواجهن وآباؤهن . رأى المشاهدون المسرح وأنعموا النظر فيه فأعجبوا به أيما اعجاب . ثم قاموا الى الرقص . وكان لمبكه راضيا أعظم الرضى ، فسرعان ما تعزى .

السنون تنقضى وفون لمبكه ينجح فى عمله : ينال مناصب مرموقة على الدوام ، مع رؤساء أصلهم ألمانى فى جميع الأحيان . فكذلك وصـــل الى رتبة تعد عالية جدا بالقياس الى سنه . وكان منذ مدة طـــويلة يتمنى أن يتزوج ، فهو يترصد فرصة مواتية مناسبة . وعلى غير علمٍ من رؤسائه ، أرسل الى تحرير احدى الصحف قصةً كتبها فلم يقيَّض لها أن تُنشر . لكنه ، فى مقابل ذلك ، أخذ يصنع بالكرتون محطة سكة حديدية ، فكان هذا العمل الذى أنجزه عملاً ناجحا كل النجاح مرة أخرى : المسافرون يخرجون الى رصيف المحطة مثقلين بحقائبهم وأكياسهم ومعهم كلابهـــم

وأولادهم ، فيركبون عربات القطار التي يضطرب من حولها سائقون وحمّالون ؛ ثم تُقرع اشارة فيتحرك القطار . لقد اقتضاه انجاز هذا العمل البارع سنةً من شغل دائب . ومع ذلك كان ينبغي له أن يتزوج . ان حلقة معارفه واسعة . وهو يخالط أبناء جنسه خاصةً . ولكنه يتردد الى الأوساط الروسية أيضا بطبيعة الحال . وأخيرا بينا هو يدخل السنة التاسعة والثلاثين من عمره ، نزل عليه ميراث : ان عمه صاحب المخبز قد أوصى له في وصيته بمبلغ قدره ثلاثة عشر ألف روبل . فلم يبق عليه الا أن ينال منصبا ممتازا . ان السيد فون لمبكه ، رغم رتبته الكبيرة ، كان رجلاً متواضعا . كان يمكن أن يرضيه كل الارضاء أن يحظى بمركز مستقل مريح يضمن له بعض الموارد الاضافية ؛ كان هذا يمكن أن يكفيه الى آخر أيام حياته . لكنه بدلا من مينا أو ارنستين التي كان ينتظر أن يتزوجها ، وقع على جوليا ميخائيلوفنا . فاذا بحياته في العمل تبلغ على الفور مدى آخر وتتسع اتساعا ليس في الحسبان . لقد أحس فون لمبكه المتواضع الذي يتقيد بالمواعيد ويواظب على العمل أن من حقه هو أيضا أن يكون طموحا .

كانت جوليا ميخائيلوفنا تملك أرضا تُقدَّر في المقاييس القديمة بمائتي نفس ؛ وعدا ذلك جاءت الى آندره أنطونوفتش بصلات لها نفوذ وسلطان . ومن جهة أخرى كان لمبكه فتى جميلا ، بينما تجاوزت هي الأربعين من العمر . شيء غريب : كان لمبكه يزداد ولهاً بها كلما ازداد شعورا بوضعه كخطيب لها . حتى لقد أرسل اليها في صباح يوم الزواج أشعارا . وذلك كله ، مع الأشعار ، كان يعجب جوليا ميخائيلوفنا كثيرا . أربعون عاما ! ما هذا بقليل ! ... وبعد الزواج بمدة قصيرة ، مُنح الرجل وساما ونال رتبة أعلى ، ثم سُمِّي حاكماً لاقليمنا .

وقد عنيت جوليا ميخائيلوفنا منذ البداية بترويض زوجهـــا أشـد العناية : هو في رأيها رجل لا تعوزه الكفاءات . فهو يحسن تمثيل وظيفته، يعرف كيف يجلس وكيف يصغي مهيأ ، وكيف يلتزم الصمت اذا وجب الصمت ، ولكنه قادر أيضا على أن يلقي خطابا ، حتى انه يملك شزرات أفكار ، وقد اكتسب طلاء من الليبرالية لا غنى عنه في هذا الزمان . غير أن الشيء الذي كان يقلق جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك هو أن زوجها بعد أن قضى عمره كله ساعيا وراء الوظائف يبدو الآن قليل الطموح ، ويميل الى الراحة . انه ، بينما كانت تحاول أن تبث فيه نشاطها ، قد شرع في صنع معبد بروتستانتي : القس يصعد الى المنبر ويلقي موعظة ؛ المؤمنون يصغون اليه بتقى وخشوع ضامين أيديهم ؛ سيدة تجفف دموعها بمنديلها ، رجل عجوز يتمخط ؛ ثم يُسمع صوت أرغن صغير طلبه فون لمبكه من سويسرا خصيصا رغم أنه كلف ثمناً غالياً . رُوِّعت جوليا ميخائيلوفنا ، فما كان منها الا أن صادرت هذا العمل الجميل منذ علمت بوجوده ، وسجنته فيخزانة من أثاث المنزل . ومن أجل أن يتعزى عن ذلك ، استأذن فون لمبكه امرأته في أن يكتب رواية ، فأذنت له بذلك ، ولكن على غير علمٍ من أحد . ومنذ ذلك الحين أصبحت جوليا ميخائيلوفنا لا تعتمد الا على نفسها . ومن سوء الحظ أنها امرأة يعوزها القصد والاعتدال ، وأنها تنقاد كثيرا للخيـــال . فليس من باب الصدفة أنها ظلت عانساً خلال مدة طويلة ذلك الطول كله. ان الأفكار يطارد بعضها بعضا في ذهنها الطموح ، المهتـــاج . واذ كانت تغذي في نفسها بعض الاهداف وتريد أن تحكم الاقليم ، فقد اختـــارت نوعا من اتجاه سياسي ، مقتنعةً بأنها ستفلح في الجمع بين الناس وقيـادة العقول . حتى لقد قلق فون لمبكه من ذلك بعض القلق في أول الامر ، ولكنه بما يملك من حس الموظف سرعان ما أدرك أن وظيفة حاكمٍ في

اقليم ليست بالامر الرهيب على وجه الاجمال . وفعلا ، سارت الامور فى الشهرين الأولين أو فى الاشهر الثلاثة الاولى سيرا مرضيا جدا . ولكن بطرس ستيفانوفتش خرج له من جوف الارض بعد ذلك ، فجـــرت الاحوال مجرى غريبا .

يجب أن نقول ان الشاب فرخـــوفنسكي قد أخذ يعـــامل آندره أنطونوفتش ، منذ أول لحظة ، معاملة خالية من أى تحرج ، ووهب لنفسه حقوقا عليه خاصة . ولم تشأ جوليا ميخائيلوفنا ، رغم حرصها الشديد على مهابة زوجها ، أن تلاحظ وضع بطرس ستيفانوفتش ، أو قل على الاقل انها لم توله أى اهتمام ولم تقم له أي وزن . لقد جعلت من الشاب صديقها الأثير . فكان يتناول وجبات طعامه عندها ، حتى ليكاد ينام فى منزلها . وقد حاول فون لمبكه أن يدافع عن نفسه ، فكان يخاطبه أمام الناس بقوله : « يا فتى » ، وكان يربت على كتفه مصطنعاً وضع من يرعاه ويحميه ، ولكنه لم يظفر بشيء : فان بطرس ستيفانوفتش ما يزال يبدو عليه أنه يتـواقح معه ، حتى حين كان يخاطبه بلهجة فيها كثير من الجد ، وكان يوجه اليه أمام الناس أقوالاً غريبة بحضور آخرين . وفى ذات يوم دخل فـــون لمبكه حجرة عمله فوجد بطرس ستيفانوفتش بسبيل أن ينام على الديوان. فقال الفتى للحاكم انه لم يجد فى البيت أحدا ، فانتهز الفرصة ليغفـــو « غفوة قصيرة » . فشعر الحاكم بأنه أهين اهانة كبيرة ، وشكا أمره الى امرأته مرة أخرى ، لكن امرأته سخرت من فرط تأذيه ، وأخذت عليه أنه لا يعرف كيف يجعل الناس على مسافة منه : فان « هذا الفتى » لايسمح لنفسه بأن يرفع الكلفة بينه وبينها على هذا النحو ، « ثم انه ساذج بسيط ، وانما تعوزه الخبرة فى مخالطة المجتمع » . فزعل فون لمبكه قليلاً ، ثم أذعن لالحاح زوجته فانتهى الى مصالحة بطرس ستيفانوفتش . ولم يعتذر

بطرس عن فعلته مع ذلك ، حتى لقد تخلص من الموقف بمزحة ثقيلة أخرى كان يمكن أن تعد اهانة جديدة ، ولكنها قبلت على أنها علامة ندم • ومن سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه كان قد كشف للشاب عن نقطة ضعفه ، وأطلعه على أنه يكتب رواية • واذ ظن فيه طبيعة حارة شعرية ، واذ كان يبحث منذ مدة عن مستمع يقرأ له ما يكتب ، فقد قرأ له فصلين من مخطوطة الرواية في ذات مساء ، فكان بطرس ستيفانوفتش يصغي اليه دون أن يخفي ضجره ، حتى لقد تثاءب صراحة ، ولم يثن على المؤلف أي ثناء • ولكنه حين هم بالانصراف طلب منه المخطوطة ليعيد قراءتها في البيت ، كما قال ، فيرى فيها رأيا أوضح ، ويحكم عليها حكما أصح ، فأعطاه آندره أنطونوفتش المخطوطة • ومنذ ذلك اليوم لم يفلح آندره انطونوفتش في استردادها • كان بطرس ستيفانوفتش يجيء كل يوم ، ولكنه كلما طلبت منه المخطوطة اكتفى بأن يضحك ، ثم أعلن أخيرا أنه أضاعها في ذلك المساء نفسه الذي حملها فيه • فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالنبأ ، وجهت الى زوجها لوماً شديدا ، وهتفت تقول له قلقة أشد القلق :

ـ آمل على الأقل أن لا تكون قد كلمته عن المعبد البروتستانتي الذي أخذت تصنعه من الكرتون !

أصبح آندره أنطونوفتش مهموم البال ، وذلك أمر رأى الأطباء أنه يسيء كثيرا الى صحته• فالى جانب الهموم التي تسببها له المصاعب الادارية، والتي سنعود الى الكلام عنها فيما بعد ، أصبح يشعر بعذاب في قلبه، لا من حيث هو حاكم ، بل حيث هو فرد فحسب • ان آندره أنطونوفتش لم يتصور حين تزوج ان الشقاق يمكن أن يحدث في بيته • حتى ان هذه الفكرة لم تكن تدور في خلده لحظة حين كان يحلم أن يتزوج مينا أو

ارنستين . لقد أدرك أنه عاجز عجزاً مطلقا عن مغالبة الزوابع المنزلية . وأخيرا صارحته جوليا ميخائيلوفنا فقالت له :

ـ لا يجوز لك أن تزعل لأمر تافه هذه التفاهة ، أولا لأنك أعقل منه كثيرا ، وثانيا لأنك أعلى منه مقاما في السلّم الاجتماعي . ان هذا الفتى لم يتخلص بعد تخلصا تاما من عقليته الثورية . وفي رأيي أن تصرفاته لا تعدو أن تكون تصرفات صبيان . لكننا لا نملك أن نبدّله دفعةً واحدة ، وانما ينبغي أن نسير الى هذا الهدف خطوة خطوة . ان علينا أن نفهم الجيل الجديد . أنا مثلاً أؤثر فيهم باللين والرفق وأعاملهم بالحسنى ، فأمسكهم على حافة الهاوية قبل أن يتردوا فيها .

أجابها فون لمبكه قائلا :

ـ لكنه يقول أشياء فظيعة . انني لا أطيق أن يزعم بحضوري على مسمع من الناس ان الحكومة تشجّع الادمان على السكر لتخبّل الشعب وتمنع من التمرد . تخيَّل موقفي حين يكون على أن اسمع أقوالا كهذه الأقوال !

قال الحاكم هذا الكلام متأثرا بالحديث الذي جرى في الآونة الأخيرة بينه وبين بطرس ستيفانوفتش . انه وقد أراد أن يفلّ سلاح خصمه بميله اللبرالي قد أطلعه على مجموعته من المنشورات الثورية التي ظهرت في روسيا وفي الخارج منذ سنة ١٨٥٩ ، والتي كان قد جمعها لا بدافع حب الاطلاع وحده ، بل بدافع المنفعة أيضا . واذ أدرك الشاب نيته أعلن له بفظاظة أن سطراً واحدا من بعض هذه المنشورات أزخر بالمعاني من جميع قراطيس أي دائرة من دوائر الحكومة ، « بما في ذلك دائرتك حتما » .

فصعَّر لبكه وجهه ، ثم قال بصوت يكاد يكون ضارعا وهو يشير الى المنشورات :

ـ ولكن هذا سابق لأوانه •

فأجابه بطرس ستيفانوفتش :

ـ لا ، ليس سابقا لأوانه • انكم تخافون منه وهذا دليل على أنه ليس سابقا لأوانه •

ـ ولكنهم يدعون الشعب الى تهديم الكنائس •••

ـ ولمَ لا ؟ أنت رجل ذكي ، وأنت اذن غير مؤمن ، وأنت تدرك حق الادراك أن الدين انما يفيدكم في تخبيل عقول الشعب • ان الحقيقة أشرف من الكذب •

ـ طيب طيب ، لنسلِّم بأن ما تقوله صحيح • ولكن هذا سـابق لأوانه •

كذلك قال فون لبكه ملحاً • فأجابه الشاب :

ـ اذا كنت موافقا على تدمير الكنائس ، وعلى الزحف الى بطرسبرج بهراوات ، اذا كانت المسألة في نظرك مسألة توقيت ، فكيف يمكنك أن تكون موظفا في الدولة ؟

هتف فون لبكه يقول بلهجة حانقة ، منزعجا أشد الانزعاج من أنه انقاد للوقوع في فخ يبلغ هذا المبلغ من الفلظة :

ـ ليس الامر هذا ، ليس الامر هذا بتاتا • أنت مخطيء لأنك ماتزال شابا تجهل أهدافك ومراميك • تقول اننا موظفون في الحكومة ؟ موظفون مستقلون ؟ هذا صحيح • ولكن اسمح لي : ما هو عملنا الذي نقوم به ؟ ان علينا مسئوليات ، ولكننا في الحساب الاخير انما نخدم القضية العـامة

مثلكم . نحن لا نزيد عن أن نُبقي ما تزعزعونه أنتم ، وهو ما سينهار في يوم من الايام . نحن لسنا أعداءكم ، أبدا . نحن نقول لكم : « امضوا الى أمام ، تقدموا ، بل وزعزعوا ؟ أعني زعزعوا كل ما هو عتيق بال ، كلّ ما يجب أن يتغيَّر . ولكننا سنبقيكم في الحدود المعقولة متى لزم ذلك ، فنحميكم بهذا من أنفسكم ، لأنكم اذا لم نوجد نحن ، لن تزيدوا على أن تقلبوا روسيا عاليها سافلها ، فلا يبقى لها وجه انساني . ان هدفنا انما هو هو الابقاء على هذا الوجه الانساني . الا فافهموا أنكم في حاجة الينا ، كما أننا في حاجة اليكم . في انجلترا أيضا ، لا غنى لحزب الاحرار عن حزب المحافظين ، ولا غنى لحزب المحافظين عن حزب الاحرار فنحن المحافظون وأنتم الاحرار . هكذا أرى أنا الوضع .

أصبح آندره أنطونوفتش فصيحاً بليغاً . انه منذ كان في بطرسبرج ، كان يجب أن يعبِّر عن أفكار ذات طابع لبرالي . وهو في هذه المرة قد استرسل مزيدا من الاسترسال في هذا لأن أحداً لا يتجسس عليه . وكان بطرس ستيفانوس صامتاً ، وكان يلتزم موقفا أقرب الى الجد مما عُهد فيه ، فكان ذلك يحرّض الخطيب مزيدا من التحريض على الكلام .

استأنف كلامه قائلاً وهو يمشي في حجرة مكتبه طولاً وعرضا :

ـ هل تعلم أنني وأنا « رئيس » هذا الاقليم ان صح التعبير تقع على عاتقي واجبات تبلغ من الكثرة أنني أعجز عن أداء واحد منها ، ولكنني من جهة أخرى أستطيع أن أقول أيضا انني ليس لي عمل أقوم به . والسر في هذا هو أن كل شيء مرهون في حقيقة الأمر بما تستهدفه الحكومة . لنفرض أن الحكومة ، في سبيل تهدئة الخواطر والنفوس ، أو لأسباب سياسية معينة ، أقامت نظاما جمهوريا ، ولكنها في الوقت نفسه عززت سلطات حكام الأقاليم . أؤكد أننا معشر حكام الأقاليم سنرتضي الجمهورية

عندئذ ، بل سنرتضي ماشئت ؟ أنا شخصيا ، على كل حال ، أشعر بأنني أستطيع ذلك ... الخلاصة : لنفرض أن الحكومة أرسلت البرقية التالية: « عليكم بنشاط جبار » ، انني سأندفع عندئذ في القيام « بنشاط جبار » . أعلنت ذلك هنا أمام جميع الناس : « أيها السادة ، من أجل تحقيق التوازن والازدهار للمؤسسات الاقليمية ، لا بد حتما من تعزيز سلطات حاكم الاقليم » . يجب على هذه المؤسسات أن تعيش حياة مزدوجة ان صح التعبير ، فهي من جهة أولى ينبغي أن تبقى وتستمر (أنا أسلّم بأن هذا ضروري لا غنى عنه) ، ولكن يجب أن من جهة أخرى أن لا توجد ، وذلك وفقا لما تستهدفه الحكومة . فاذا بدا لها فجأة أن هذه المؤسسات ضرورية ، كانت هذه المؤسسات تحت تصرفي . واذا أصبحت غير ضرورية لم يعثر أحد على أثر لها . هكذا أفهم « النشاط الجبار » ، ولكن يستحيل تحقيق ذلك بدون تعزيز سلطات حاكم الاقليم . نحن نتكلم هنا أنا وأنت على انفراد . ولقد أبلغت بطرسبرج أن من الواجب حتما أن يوضع على باب الحاكم خفير . وما زلت انتظر الجواب .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ بل أنت تحتاج الى خفيرين اثنين .

سأله فون لمبكه متحيراً :

ـ لماذا احتاج الى اثنين ؟

ـ قد لا يكفيك واحد ليفرض الاحترام . انك تحتاج الى اثنين .

ـ آه منك يا بطرس ستيفانوفتش ! انك تجيز لنفسك معي ما لا يعلم الا الله ! ... تستغل طيبتي فتلكزني لكزات قوية !

جمجم بطرس ستيفانوفتش قائلاً :

ـ لك ما تشاء ! مهما يكن من أمر ، فانك تشق لنا الطريق ، وتهىء لنا النجاح .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ أى نجاح تقصد ؟ من أنتم الذين أشق « لكم » الطريق ؟

حين علمت جوليا ميخائيلوفنا بأمر هذه المحادثة ، استاءت استياء شديدا .

فقال آندره أنطونوفتش محاولا تبرير سلوكه :

ـ ما كان لى على كل حال أن أعامل أ ّثيرك كما أعامل شخصا هو دونى مقاماً ، ولا سيما حين نتحدث على انفراد . لقد انقدت للرغبة فى الكلام ... وهذا ذنب قلبى الطيب .

ـ بل قل قلبك الطيب أكثر مما يجب . ما كنت أعرف أنك تجمع منشورات . أرنى هذه المنشورات ، من فضلك !

ـ لكنه ... طلب أن يستعيرها يوما واحدا .

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله :

ـ وأعطيته اياها ؟ ما أقلّ براعتك .

ـ سوف أطالبه بردّها الىّ حالاً .

ـ لن يردّها .

ـ سأصر على استردادها . من هو حتى نخشاه ، ومن انا حتى لا أجرؤ أن أفعل شيئاً ؟

كذلك صاح فون لمبكه غاضبا ونهض . فقالت له جوليا ميخائيلوفنا وهى توقفه باشارة :

ـ بل اجلس وهدىء نفسك . سوف أجيبك الآن عن سؤالك الأول: هذا شاب زُكِّى لى تزكية حارة ، وأوصيت به خيرا ؟ ان له مواهب طبيعية، وكثيرا ما يقول أشياء تبلغ غاية الذكاء . ويؤكد لى كارمازينوف أن له صلات بجميع الأوساط ، وان له تأثيرا كبيرا ونفوذا قويا على الشبيبة بالعاصمة . فاذا استطعت أن أجتذب هؤلاء الشبان ، وأن أجمعهم حولى ، أمكننى أن أجنِّبهم الكارثة بتحديد هدف لطموحهم . انه مخلص لى اخلاصا صادرا من كل نفسه ، وهو يطيعنى فى كل شىء .

ـ ولكن ... بينما نحن نتملقهم ... يستطيعون هم أن يفعلوا ما الله به أعلم ! ... هذه فكرة طبعا .

ـ لكن ... لكن سمعت منذ برهة أن هناك منشورات توزَّع فى اقليم « ف ... » .

كذلك تمتم فون لمبكه وهو ما يزال يحاول الدفاع عن نفسه بغموض . ثم أردف :

ـ سبق أن سرت هذه الشائعات فى الصيف الماضى ، فتحدث الناس عن نداءات وأوراق نقدية مزيفة ، وأشياء من هذا القبيل . ومع ذلك لم يُعثر على شىء حتى الآن . من قال لك هذا ؟

ـ فون بلومر .

ـ ناشدتك الله دعنى من صاحبك فون بلومر هذا ، ولا تكلمنى عنه قط !

واضطرت جوليا ميخائيلوفنا أن تصمت لحظة لتسترد هدوءها . لقد كانت تكره فون بلومر ، الموظف فى ديوان الحاكم . وسنعود الى هذا الامر فيما بعد .

ـ أرجوك أن لا تصدّع رأسك بمسألة فرخوفنسكى • فلو كان يشارك فى أعمال صبيانية كهذه ، لما تكلم كما يتكلم معك ومع غيرك • ان الذين يكثرون من الكلام لا يكونون خطرين • بل اننى لأقول لك : اذا حدث شىء من ذلك فسأكون أول من يطلع عليه منـــه • انه مخلص لى اخلاصا متعصبا ، نعم متعصبا •••

يجب أن أذكر فى هذه المناسبة ، مستبقاً الأحداث ، أنه لولا طموح جوليا ميخائيلوفنا وثقتها بنفسها ، لكان من الممكن أن لا يستطيع أولئـــك الاشخاص الأدنياء الصغار أن يفعلوا عندنا من الشر ما فعلوا ، وهكذا يقع على عاتق جوليا ميخائيلوفنا جزء كبير من تبعة هذا الشر •

الفصل الخامس

قبل الحفلة

١

إنَّ الحفلة التي كانت تُعدُّها جوليا ميخائيلوفنا لصالح معلمات اقليمنا ، قد أُرجئت عدة مرات ، فمن بين الذين كانوا يسعون ويتحركون حول امرأة الحاكم ويساعدونها فيما تهيئه وتحضّره نستطيع أن نذكر ، عدا بطرس ستيفانوفتش ، هؤلاء الأشخاص : ليامشين، الموظف الصغير الذي كان في الماضي يتردد على ستيفان تروفيموفتش ثم استطاع الآن بموهبته في العزف على البيانو أن ينال حظوةً لدى جوليا ميخائيلوفنا ؛ وليبوتين الذي كانت جوليا ميخائيلوفنا تنوي أن تجعله رئيسا للجريدة المستقلة التي أرادت أن تنشئها في اقليمنا ، وأخيرا كارمازينوف نفسه الذي لم يكن شديد التحمس كالآخرين ، ولكنه أعلن مع ذلك راضيا مرتاحا أنه يهيء مفاجأة ممتعة ، وأن « رقصة الأدب » ستكون مشهداً خلابا . وقد تكاثرت التبرعات والهبات . فان جميع أفراد الصفوة المختارة في مجتمعنا أرادت أن تشارك في الحفلة . هذا عدا أن أشخاصا من عامة الناس قد قُبلوا أيضا على شرط أن تكون مساهماتهم كبيرة . لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا أن التقريب بين الطبقات وخلط بعضها ببعض من الامور

اللازمة أحيانا : « اذا لم نقم نحن بتثقيف هؤلاء المساكين وتنوير عقولهم ، فمن ذا الذي يجب أن يفعل ذلك ؟ » . وقد شكلت جوليا ميخائيلوفنا من خلصائها نوعا من لجنة ادارية قررت أن تتخذ الحفلة طابعا ديموقراطيا . وكانت ضخامة التبرعات تحض على الانفاق : لقد أُريد أن تكون الحفلة شيئا خارقا لا عهد بمثله من قبل . فذلك هو السبب في أن موعد الحفلة قد أرجىء مرارا . وكانوا لا يعرفون بعد أين تقام حفلة الرقص : أتقام في منزل عميدة النبالة وهو منزل واسع ، أم تقام عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكى ؟ ان سكفورشنيكى بعيدة قليلا ، غير أن عددا من أعضاء اللجنة قالوا ان المرء يحس هناك « بحرية أكبر » . وكانت فرفارا بتروفنا نفسها تود أن تُقام الحفلة عندها . انه ليصعب علينا أن نفهم لماذا كانت هذه المرأة تسعى ذلك السعي كله الى نيل الحظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا ! لعلها قد سرّها أن ترى أن جوليا ميخائيلوفنا كانت من جهتها تقف من نيقولاى فسيفولودوفتش موقف العبادة ، وتعامله كما لا تعامل أحدا قط . أعود فأكرر مرة أخرى : ان بطرس ستيفانوفتش كان لا ينفك يهمس في أذنها أن لنيقولاى فسيفولودوفتش صلات قوية بجهة سرية ، وأنه مكلف بمهمة خاصة حتما .

وما كان أغرب حالة النفوس في ذلك الأوان ! كانت حالة غريبة عجيبة حقا ! بين السيدات خاصةً كان يسيطر نوع من قلة المبالاة ، ومن الخفة ، لا يدرى المرء من أين انبجستا فجأة . ان أشدّ الأفكار أصبحت تُقبل بحماسة . لكأن ريحاً من جنون ومرح قد عصفت بالناس جميعا . غير أن مشهد هذا المرح لم يكن بالمشهد الممتع دائما . أصبحت الفوضى هى الموضة ...

فيما بعد ، حين انتهى كل شىء ، أُلقيت تبعة ذلك على جوليا

ميخائيلوفنا ، والمحيطين بها ، وتأثيرها • ولكن لا شك أن جوليا ميخائيلوفنا لم تكن المسئول الوحيد • لقد كان كثير من الناس في البداية يتفنون بمدح امرأة الحاكم الجديد التي استطاعت أن تجمع الناس وأن تجعل الحياة في الريف أمتع • حتى لقد وقعت حوادث فاضحة لا يمكن أن تُعدّ جوليا ميخائيلوفنا مسئولة عنها بحال من الاحوال ، حوادث لم يزد الناس على أن ضحكوا منها ، ولم يوجد من يضع لها حداً ، ويضع الامور في نصابها • على أن بعض الناس قد قاوموا هذا التيار ، وظلوا مبتعدين ، محتفظين برأيهم • لكنهم لم يحتجوا واكتفوا بالتبسم •

أذكر أن قد تكونت في تلك الايام جماعة يجب أن نعترف بأنها اتخذت صالون جوليا ميخائيلوفنا مركزا لها • فكان من المسلّم به في داخل هذه الحلقة أن الشبان يحق لهم بل ويجب عليهم أن يسترسلوا في مهازل شتى منها ما كان يبلغ حداً كبيرا من الجرأة والمجون • وكانت هذه الحلقة تضم بين أعضائها عدة سيدات منهن من كن بارعات الجمال • كان هؤلاء الشباب يقومون برحلات ، وينظمون سهرات ، حتى لقد كانوا في بعض الاحيان يتجولون على ظهور الخيل أو في العربات موكباً في الشوارع ، ويبحثون عن المغامرات ويسعون اليها ، أو يستثيرونها أو يلفقونها عند اللزوم ، لا لشيء الا أن يستطيعوا بعد ذلك قصّ حكايات مضحكة ونوادر مسلية • فكانت مدينتنا تُعامَل معاملة مدينة محتلة تقريبا• كان هؤلاء « الهازلون » ، كما سمّاهم الناس عندنا ، لا يتحرجون من شيء ولا يصدهم شيء •

من ذلك أن امرأة ضابط برتبة ملازم ، وهي امرأة سمراء ما تزال شابة لكن حياتها الصعبة مع زوجها قد أهرمتها قبل الأوان ، قد ارتكبت حماقة الجلوس الى مائدة القمار في سهرة من السهرات آملة أن تربح

ما تشتري به لنفسها خمارا ، ولكنها بدلا من أن تربح ثمن الخمار خسرت خمسة عشر روبلا • واذ لم تكن تملك ما يمكنها من دفع هذه الخسارة ، واذ خافت أن يلومها زوجها ، فقد استجمعت كل شجاعتها وقـــررت أن تقترض المبلغ من ابن عمدتنا ، وهــو صبي داعـــر لم يكتف بأن رفض اقراضها المال ، بل أسرع يحكي القصة لزوجها وهو يضحك في قهقهـة مجلجلة • وكان الملازم المسكين لا يملك لمعيشته الا راتبه الضئيل ، فما ان عاد بامرأته الى البيت حتى انهال عليها يضربهـــا ضربا موجعا رغـــم صرخاتها ودموعها ورغم أنها جثت على ركبتيها تستغفره عن ذنبها • ان هذه القصة الأليمة لم تثر عندنا الا الضحك والمزاح • ولم تكن المـــرأة الشقية تنتمي الى مجتمع جوليا ميخائيلوفنا ، لكن احدى سيدات هذه الحلقة وهي امرأة شاذة الأطوار جريئة وقحة ، كانت تعـــــرف امرأة الملازم ، فمرّت بها وأخذتها الى بيتها ، فسرعان ما اجتمع عليها فتياننـــا المتحللون الفاسدون ، فدللوها وأغرقوها بالهدايا وتسلوا بها أربعة أيام قضتها كلها عند السيدة الجريئة ، فكانت تنزل معها الى المدينة ، وتشارك في المسرات وتشهد حفلات الرقص•وكانوا يحضونها على ملاحقة زوجها أمام المحاكم، فتثير بذلك فضيحة ، باذلين لها الوعود بمساعدتها والشهادة لها على زوجها• ولبث الزوج ساكناً صامتا ، يخشى دخول المعركة • وارتأت المرأة الشابة أخيرا أنها قد أخطأت الطريق ، فلما جاء مساء اليوم الرابع تركت حاميتها ورجعت الى بيتها شبهَ ميتة من شدة الخوف • لا يدري أحد ماذا جـرى بين الزوجين • ولكن نوافذ الجناح الخشبي الصغير الذى يسكنه المـلازم قد ظلت مغلقةً مدة خمسة عشر يوما لم تُفتح مرةً واحدة • فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالامر أظهرت استياءً شديدا من تدخل السيدة الشاذة الأطوار التى كانت مع ذلك قد عرّفتها بامرأة الملازم منذ الايام الاولى • ومهما يكن من أمر ، فان هذا كله سرعان ما طواه النسيان •

وبعد ذلك بزمن قصير وقعت فضيحة أخرى . ان موظفا صغيرا يتمتع بسمعة حسنة كانت له ابنةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عاما مشتهرةٌ في المدينة كلها بأنها بارعة الحسن فاتنة الجمال ، فزوّجها شاباً هو موظف صغير أيضا.وما لبث الناس أن علموا أن الزوج الشاب قد تصرف مع عروسه تصرفاً سيئاً جدا في ليلة الزفاف نفسها ، انتقاما لشرفه الملطخ . وقد شهد ليامشين الحادث تقريبا ، ذلك لانه وقد سكر في الوليمة قد قضى الليلة في بيت العروسين . لذلك ما ان طلع النهار حتى ركض ينشر القصة الطريفة في كل مكان . فسرعان ما تكونت جماعة من نحو عشرة أشخاص انضم اليها بطرس ستيفانوفتش وليبوتين الذي كان رغم شعره الأشيب يشارك في جميع المهازل التي ينظمها فتياننا المتحللون هؤلاء . ركب الجميع أفراساً ، حتى اذا مضى العروسان في عربة يقومان بجولة الزيارات التي توجبها التقاليد على العروسين غداة زفافهما ، أحاط فرساننا بالعربة يضحكون ضحكا مرحا، وظلوا يرافقون الزوجين طوال النهار في المدينة. وكانوا لا يدخلون البيوت في اثرهما بل ينتظرون على الباب في كل مرة ممتطين صهوات خيولهم . يجب أن نقول أيضا انهم قد امتنعوا عن اهانة الزوجين صراحةً ، لكن هذا لا ينفي أنهم أثاروا جرسة تحدثت عنها المدينة كلها . غير أن فون لمبكه غضب في هذه المرة ، وقامت بينه وبين امرأته مناقشة حامية . وقد استاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديدا كذلك، فقررت أن توصد باب منزلها في وجه هؤلاء الفاسدين . ولكنها لم تلبث أن غفرت لهم منذ الغد استجابةً لالحاح بطرس ستيفانوفتش الذي دعمه وأيده كارمازينوف . لقد رأى كارمازينوف أن « المزحة » فكهة لطيفة . قال :

ـ هذا من تقاليد البلاد . ومهما يكن من أمر فللقصة لون جميل..

وفيها جرأة محببة • ثم ان جميع الناس يضحكون منها ويتفكهون بهـــا وأنت وحدك غاضبة •

غير أن هناك مهازل أخرى ، مهازل لا تطاق فعلاً ، مهازل لها طابع خاص جدا •

وفدت الى مدينتنا بائعة متجولة تبيع الاناجيل • انها امرأة فقــيرة الحال ، لكنها في الوقت نفسه محترمة جدا • وقد اهتم الناس بها لأن الجرائد كانت في تلك الآونة قد خصَّت البــائعين المتجولين بعـــدد من المقالات • فهذا هو الوغد ليامشين يتظاهر بأنه يريد شراء كتب من المرأة الطيبة ، فيدسُّ لها ، بمساعدة طالب عاطل كان يضرب في الشـــوارع بانتظار أن يُعيَّن معلماً ، يدس لها في رزمة كتبها حزمة صور خليعة كان قد زوَّده بها (كما علمنا ذلك فيما بعد) رجل عجوز محترم كان يحمل وساما (لكنني سأكتم اسمه) ، وكان يحب « الضحك البريء والمــزاح الطيب » • فلما وصلت بائعة الكتب الى السوق وأخذت تفك رزمتها تبعثرت الصور الفوتوغرافية الخليعة على الارض ، فأخذ الناس يضحكون ، ثم أخذوا يدمدمون ويهمهمون ، ثم تحلق حول المرأة المسكينة حشد راح يكيل لها الشتائم جزافا ، وكان يمكن أن يلحقوا بها أذى لولا أن تدخلت الشرطة فاقتادت بائعة الكتب الى القسم ، ثم لم تفرج عنها الا في المســاء بفضل الحاج مافريكي نيقولايفتش الذي علم بتفاصيل هذه القصة الدنيئة كلها فاستاء أشد الاستياء • وقد غضبت جوليا ميخائيلوفنا غضـــبا شديدا وقررت أن تطرد ليامشين • ولكن أصحابنا « الهازلين » أخذوه اليها في ذلك المساء نفسه فما زالوا يضرعون اليها أن تسمع مرةً واحدة ، لا أكثر، المزحة الموسيقية الجديدة التي فرغ ليامشين من تأليفها منذ قليل ، حتى أذعنت وخضعت • واتفق أن كانت هذه الفانتازيا الموسيقية التي عنوانهـا : « الحرب الفرنسية الألمانية » * ، مضحكة بالفعل •

تبدأ القطعة الموسيقية بنوع من نشيد « المارسييز » البطولي الذي يضم قول الشاعر :

بدم الأعداء الفاسد فلنسق اخاديد ارضنا

ان المطلع كله زاخر بالكبرياء ونشوة الانتصارات المقبلة . ولكن ها نحن أولاء على حين فجأة ، أثناء توسع لحن النشيد المجيد ، ها نحن أولاء نسمع في موضع ما ، في ركن ما يزال غير متميز ، لكنه قريب غير بعيد ، اللازمة الصغيرة البذيئة من أغنية « حبيبي أوغسطين » (الألمانية). ان نشيد المارسييز لا يحفل بهذه اللازمة ، وانما يسترسل في الحماسة لانتصاره المقبل . ولكن أغنية « أوغسطين » تكبر ، وتقوى ، وما تنفك تغدو أكثر جرأة ووقاحة ، وها هو ذا لحنها يدخل في نشيد المارسييز نفسه دخولاً ليس بالمتوقع . ويأخذ نشيد المارسييز بالغضب ، ويلاحظ أخيرا تسلل أغنية أوغسطين ، فيريد أن يتخلص منها وأن يطردها كما تُطرد ذبابة مزعجة ، ولكن أغنية « حبيبي أوغسطين » تقاوم وتثبت . انها مرحة ملأى بالثقة ، زاخرة بالوقاحة . ويطيش صواب نشيد المارسييز : فلا يُخفي بعدئذ حنقه وسخطه . وها هي ذي صرخات الاستياء والاستنكار ، وها هي ذي الدموع الغزار ، وها هي ذي الأيمان المغلظة ترقى مع الأذرع المرفوعة الى السماء منادية :

لا شبر من ارضنا ، لا حجر من قلاعنا

ولكن نشيد المارسييز كان قد اضطر أن يساير أغنية « حبيبي أوغسطين » ، وأن يجاري ايقاعها ، حتى ليختلط لحنه بلحنها اختلاطا أبله، ثم اذا هو يرضخ وينطفىء . ومع ذلك نظل نسمع من هنا ومن هناك : « بدم الأعداء الفاسد ... بدم الأعداء الفاسد ... » ، ولكن الجملة سرعان ما تنثني لتساير أغنية الفالس البذيئة الخليعة . لقد خضع نشيد

المارسييز : انه جول فافر يبكي في صديرة بسمارك ، ويترك كل شيء ، كل شيء ... ولكن أغنية أوغسطين تنتفخ عندئذ وتصبح حانقة معربدة : انها براميل البيرة التي شُربت ، انه النصر يزدهي بنفسه متغطرسا ، انها المطالبة بتعويضات تبلغ مليارات ، انها الاوامر باحضار فاخـــــر السيجار ومعتق النبيذ ، انه أخذ الرهائن . لسنا الآن أمام أغنية « حبيبي أوغسطين » بل نحن ازاء زئير ينطلق وحشياً . انتهت الحرب الفرنسية الألمانيـــة . صفق المستمعون . وقالت جوليا ميخائيلوفنا مبتسمةً : «يستحيل طرده!»* وتمَّ الصلح . لقد كان الوغد ينعم بشيء من الموهبة حقا . لقد أكَّد لى ستيفان تروفيموفتش ذات يوم أن أكبر الفنانين يمكن أن يكونوا أوغادا فظيعين ، فهذا لا ينفي ذاك . وسرت اشاعة بعد ذلك بقليل تقول ان ليامشين انما سرق هذه الفانتازيا الموسيقية من فتى موهوب لكنه متواضع ، عـرفه مصادفةً ولم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك . أقول ذلك عابراً . وانمـــا يجب الآن أن أذكر أن ليامشين الذى كان فى الماضى يسعى حول ستيفان تروفيموفتش فيمثل، متى طُلب منه ذلك، يهوديين يتشاجران* أو اعتراف امرأة صماء ، أو صرخات أمٍ تلد ، أصبح الآن عند جوليا ميخائيلوفنا يقلد ستيفان تروفيموفتش نفسه فى بعض الأحيان تقليدا كاريكاتوريا ، تحت عنوان : « لبرالى من سنوات الاربعينات » . لقد بلغ من النجاح أن أحداً لا يخطر بباله أن يطرده : لقد عرف كيف يجعل من نفسه انسانا لا غنى عنه . ثم انه بما يجيده من التملق قد نال حظوةً لدى بطرس ستيفانوفتش الذى كان قد أصبح له فى ذلك الأوان سلطان كبير على جوليا ميخائيلوفنا .

ما كان لى أن أفيض فى الكلام على هذا الشقى الذى لا يستحق أن أتكلم عنه لولا أن وقع حادث مثير يؤكد الناس أنه قد شارك فيه ولا يمكننى أن أصمت عنه .

في ذات صباح ، انتشر في المدينة كلها نبأ حدوث حادث يخـــرق المقدسات .

عند مدخل الميدان الواسع الذى يقوم فيه السوق ، ترتفع الكنيسة القديمة ، كنيسة « ولادة العذراء » ، وهي من أجمل المبانى التاريخية فى مدينتنا العريقة . وتحت الباب الذى فى جدار صحن الكنيسة توجد منذ زمان قديم أيقونة موضوعة في واجهة مصنوعة من قضبان حديدية وزجاج، هي أيقونة كبيرة تمثل العذراء . ففى ذات صباح من الأصباح وُجـدت الأيقونة منهوبة : فالزجاج قد حُطِّم ، والقضبان الحديدية قد فُكَّت ، ولآلىء كثيرة وأحجار كريمة (لا أعرف قيمتها) قد انتُزعت من الأكليل والاطار . غير أن الأخطر من ذلك ، أن الجناة لم يكتفوا بارتكاب فعـــل السرقة بل زادوا عليه فاقترفوا عملاً ينافي الشعور الدينى ، عملاً حقيراً دنيئاً : فوراء الزجاج المحطَّم وُجدت فأرة حية فيما يقال .

اليوم ، بعد انقضاء أربعة أشهر على وقوع هذا الحادث ، لا يشـــك أحد من الناس فى أن هذه الجريمة انما ارتكبها فدكا الهارب من سجن الأشغال الشاقة ، ولكن الناس يضيفون الى ذلك أن ليامشين ساعـــده فى ارتكابها . لم يتكلم أحد عن ليامشين حينذاك ، ولم يشتبه فيه أحد . لكن الجميع يؤكدون اليوم أنه هو الذى أدخل الفأرة وراء الزجاج . أذكر أن السلطات فقدت صوابها قليلاً يومذاك . ومنذ الصباح أصبح الوقوف أمام مكان الجريمة لا ينقطع . على أن الجمهور لم يكن ضخما . لعـله نحو مائة شخص . فبعض يأتى وبعض ينصرف . والآتون يرسمون على أنفسهم اشارة الصليب ويقبِّلون الأيقونة . وظهر راهب يحمل صينيـــة وجعل يجمع العطايا . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ارتأت الســـلطات أخيرا أن تمنع التجمع وأصدرت أمرا الى الذين انتهوا من تقبيل الايقونة

ووضع عطاياهم بأن ينصرفوا • ويظهر أن هذا الحادث المؤسف قد أحدث في نفس فون لمبكه أثراً سيئاً ، وجعله في حالة اكتئاب شديد • حتى لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا ، اذا صدق ما سمعته عنها ، أنها في ذلك اليوم بعينه انما أخذت تلاحظ على زوجها ذلك الانهيار الغريب الذى لم يبارحه الى حين مغادرته مدينتنا ، والذى ما يزال يلازمه ، فيما يقال ، حتى الآن ، بسويسرا ، حيث يرتاح بعد اقامته القصيرة في اقليمنا •

أذكر أنني مررت بميدان السوق في نحو الساعة الواحدة • كان الجمهور صامتا ، وكانت الوجوه مكفهرة مظلمة • رأيت عربة من عربات الدرويكي يصل عليها تاجر بدين أصفر ، فيسجد أمام الأيقونة ، ويقبّلها ويضع روبلاً في الصينية ، ثم يركب عربة ثانية وهو يزفر زفرات قوية ، وينصرف•ثم وصلت مركبة بسيدتين يصحبهما اثنان من شبابنا المستهترين• نزل الشابان من المركبة (وكان أحدهما قد تقدم في السن قليلا على كل حال) واقتربا من الأيقونة وهما يشقان لهما طريقا بين الجمهور بقسوة ووحشية • لم ينزع أحد منهما قبعته احتراما ، حتى ان أحدهما وضع على عينيه نظارة • وانطلقت من الناس دمدمات وهمهمات ان تكن خافتة فقد كان واضحا أنها مستنكرة ساخطة • وهذا هو الذى يضع على عينيه نظارة، هذا هو يخرج محفظة نقود محشوة بالاوراق المالية ، فيتناول منها كوبكاً ويلقيه في الصينية • ثم يضحك الاثنان كلاهما ، ويتكلمان بصوت عال ، ويعودان الى السيدتين • وفي تلك البرهة ظهرت ليزافتا نيقولايفنا على صهوة حصانها ، يخفرها مافريكي نيقولايفتش كما جرت بذلك العادة دائما • قفزت الفتاة عن فرسها ، ورمت اللجام الى رفيقها الذى بقي على حصانه تنفيذا لأمرها ، واقتربت من الأيقونة لحظةَ كان الشاب يلقي الكوبك في الصينية • احمر خدا الفتاة استياءً • ونزعت قبعتها المدوَّرة ،

وخلعت قفازيها وانحنت على الارض ثلاث مرات فى تقى وخشوع ، ثم أخرجت محفظة نقودها ، ولكنها حين لم تجد فى المحفظة الا نقودا فضية صغيرة ، أسرعت تنتزع قرطى أذنيها المزدانين بالماس ووضعتهما فى الصينية سائلة الراهب وهى منفعلة أشد الانفعال :

ـ هل يمكنني ؟ يمكنني ، أليس كذلك ؟ هذا لزينة الأيقونة .

فأجابها الراهب قائلا :

ـ نعم ، هذا مباح . كل هبة فهى حسنة .

وكان الناس صامتين لا يظهرون لا لوماً ولا تحبيذا . وعادت ليزافتا نيقولايفنا تركب حصانها ملطخة بالوحل ، وانصرفت عدواً .

٢

بعد ذلك الحادث بيومين ، لقيتها مع صحب كثير يركب ثلاث عربات محاطة بعدد من الفرسان . فدعتني باشارة من يديها ، وأوقفت العـــربات وألحّت أن أنضم اليهم . فوجدوا لى مكانا صغيرا فى مركبتها ؛ وقدمتنى ، ضاحكةً ، الى السيدات الأنيقات جدا اللواتى كن يصحبنها ، وذكرت لى أنهم ماضون في رحلة شائقة جدا . كانت تضحك طول الوقت ، حتى لقد كانت تبدو مرحةً مرحا عجيبا . ان فيض نشاطها يكاد يتجـــاوز حدود القصد والاعتدال في هذه الآونة الأخيرة . وكانت الرحلة التى يقومون بها شائقة بالفعل : انهم ذاهبون الى الجهة الاخرى من النهر ، الى منزل التاجر سيفاستيانوف . ان هذا الرجل يؤوى عنده منذ عشر سنين ، في جنـــاح خشبي بصحن الدار، رجلاً يقال له سيميون ياكوفلفتش*، وهو «مجذوب» يحكى عنه أنه أوتى القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، فهو يعيش عند صـــاحب البيت حياة فراغ وهدوء وبحبوحة . كانت شهرة هذا الشخص القديس قد انتشرت وذاعت حتى فى الأقاليم المجاورة ، بل لقد وصلت هـــــذه الشهرة الى العاصمتين . فكان الناس يؤمونه من أقاصى البـــلاد ، يرونه ويسمعونه ، ويحمل اليه كل منهم عطية . وكانت هذه العطايا أو الهبات ، وهى ضخمة فى بعض الأحيان ، تُنقل الى الكنائس المحلية (الا أن يأمر سيميون ياكوفلفتش بغير ذلك) أو تُرسل خاصة الى دير «ولادة العذراء» الذى أوفد الى « المجذوب » مندوبا مقيما يستلم العطايا والهبات .

كانت الجماعة كلها تتوقع من هذه الرحلة تسلية كثيرة ؛ لا سيما وأن أحداً منا لم يكن قد رأى ، بعدُ ، سيميون ياكوفلفتش ، باستثناء ليامشين الذى كان قد جاء اليه مرةً والذى كان يؤكد لنا الآن أن الرجل

القديس قد أمر بطرده بضربات مكنسة وأنه رماه هـــو نفسه ببطاطستين ضخمتين مسلوقتين ساخنتين . وبين الفرسان الذى يحيطون بالعـــربات ، رأيت بطرس ستبفانوفتش الذى استأجر لهذه المناسبة حصانا قوزاقياً كان لا يحسن ركوبه ، ورأيت نيقولاى فسيفولودوفتش الذى كان يشـــارك دائما فى أمثال هذه الرحلات المرحة ، مع بقائه قليل الكلام . ولقد كان وجهه ينم يومئذ عن ابتهاج وانتعاش .

فلما عبرنا الجسر فأصبحنا أمام فندق من أهم فنـــادق المدينة قال أحدهم فجأة انه قد عُثر فى هذا الفندق منذ برهة على جثة مسافر أطلق على نفسه رصاص مسدس ، فهل لكم فى رؤية المنتحر ؟ فاستحسن الجميع هذه الفكرة وحبذوها : فانه لم يسبق لسيداتنا أن رأين منتحرا قبل اليوم. وأذكر أن احداهن قالت بصوت عالٍ : « لقد سئمنا من التسليات العادية فلا داعى لأن نزعج أنفسنا بهذه التسلية الجديدة ، اللهـــم الا أن تكون شائقة » . ولم يمتنع عن الدخول الا بضعة أشخاص ظلوا ينتظرون عند مدخل الفندق . أما الآخرون ومنهم ليزافتا نيقولايفنا ـ وهذا ما أدهشنى كثيرا ـ فقد أسرعوا يلجون الدهليز القذر المعتم . كانت غرفة المنتحـــر مفتوحة : كان يُنتظر وصول الشرطة ، ولكن لم يجرؤ أحد أن يمنعنا من الدخول طبعا . انه فتى يبلغ التاسعة عشرة من عمـــره فى أكثر تقدير ، جميل الوجه ، أشقر الشعر غزيره كثيفه ، حلو القسمات ، صافى الجبين جدا . كان الجسم قد تجمد . ان الوجه الشاحب يبدو كأنه من مرمر . لقد ترك الفتى على المائدة بطاقة مكتوبة بخط يده يعلن فيها انه أطلق على نفسه الرصاص لأنه « التهم » أربعمائة روبل . وكانت كلمة «التهم» بارزة فى الرسالة القصيرة التى ضمّت ثلاثة أخطاء املائية فى أربعة أسطر .

كان واقفا أمام الجثة رجل ضخم يزفر زفرات عميقة هو واحد من

مالكي الاراضي ينزل في الفندق نفسه . فعلمنا منه أن الفتى قد أوفدته أمه الأرملة وخالاته ليتولى ، باشراف قريبة لهن ، شراء جهاز أختٍ له أكبر منه ستتزوج قريبا ؛ ومن أجل شراء هذا الجهاز عهد اليـه بأربعمائة روبل جُمعت خلال عشرات السنين بفضل أنواع من الحرمان القاسي . وقد سافر الفتى مودّعاً بالدموع ومشيّعاً باشارات الصليب ، وبتوصيات ملحة ونصائح كثيرة وأدعية متصلة . وكان سلوك الفتى الى ذلك الحين سلوكا ممتازا والحق يقال . فلما وصل الى المدينة منذ ثلاثة أيام لم يذهب الى قريبته ، بل استأجر غرفةً في الفندق ، ثم مضى الى النادي تواً ، على أمل أن يربح مبلغا ضخما من المال في ركن ناءٍ من مقامر عابر . لكنه لم يجد أحداً من هذا النوع . فلما عاد الى الفندق في منتصف الليل أمر لنفسه بشمبانيا وسيجار فاخر وعشاء يتألف من ستة أطباق أو سبعة . لكن الشمبانيا أدارت رأسه ، والسيجار أورثه غثيانا ، فلم يستطع أن يمس أي طبق من أطباق الطعام ونام كالمغشي عليه . ثم استيقظ في صباح اليوم التالي نضراً كتفاحة ، وذهب فورا الى نوع من كاباريه يقوم على ادارته غجر ، ويقع على الضفة الاخرى من النهر ، كان الفتى قد سمع عنه في الليلة البارحة بالنادي . ولم يرجع الى الفندق الا في اليوم الثالث ، في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ؛ وقد رجع سكران كل السكر ، فرقد فورا ، ولبث نائما حتى الساعة العاشرة من المساء . حتى اذا أفاق أمر بشريحة لحم ، وزجاجة خمر ، وعنب وورق وحبر ، وطلب فاتورة الحساب . لم يلاحظ أحد في وضعه شيئاً خاصا يلفت النظر : فلقد كان يبدو هادئا لطيفا . ولعله قد انتحر في نحو منتصف الليل . لكن الشيء الغريب هو أن أحداً لم يسمع صوت طلقة المسدس ، لا من الجيران ولا من العاملين بالفندق . وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر فقط انما قرع

بابه الخادم ، فلما لم يسمع جوابا اقتحم الغرفة . كانت قنينة الخمر فارغاً نصفها ، وكان قد بقي من العنب بضعة عناقيد. وكانت الرصاصة قد أُطلقت على القلب رأساً ؛ وكان المسدس ، ذي الطلقات الثلاث ، الصغير الحجم ، قد سقط من يدى الفتى على السجادة . وكان الجسم الذى لم ينزف منه الا قليل جدا من الدم موجودا الآن على ديوان فى ركن من الغرفة . لابد أن الموت قد تمَّ فورا . فالوجه ليس فيه أثر من آثار ألم : انه يعبر عن الهدوء بل وعما يشبه السعادة . حتى لكأنه يوشك أن يُبعث حياً .

شاهد أصحابنا المنظر بفضول شره . ان كل مصيبة تنزل بأحد من البشر تشتمل دائما على شيء يفرحنا . وقد نظرت سيداتنا الى الشاب المنتحر صامتات . أما الرجال وقد حافظوا على حضور بديهتهم فقد كانوا يحاولون أن يلمعوا بملاحظة لطيفة أو قولة فكهة . فقال أحدهم ان الفتى ما كان فى وسعه أن يتخيَّل حلاً أفضل ، وانه تصرف تصرفاً فيه كثير من الذكاء. وقال آخر : لئن كانت حياته قصيرة ، فقد كانت ملأى زاخرة . وتساءل ثالث على حين فجأة : لماذا تكثر حوادث الانتحار ببلادنا هذه الكثرة كلها فى الآونة الأخيرة ، كأن الناس يحسون بأنهم لا جذور لهم تشدهم الى الحياة ، ولا أقدام لهم تقف على أرض . فلم يتلق المتسائل أى جواب غير نظرات خالية من اللطافة . وفى مقابل ذلك رأيت ليامشين ، الذى يحرص على أن يكون له شرف تمثيل دور المهرِّج ، رأيته يأخذ من الطبق عنقود عنب ، فيقلده فى ذلك شخص آخر . حتى اذا مدَّ ثالث يده الى قنينة الخمرة دخل مفوض الشرطة الى الغرفة ، وأخرج منها الجميع . واذ كانوا قد رأوا ما أرادوا أن يروه ، فقد انسحبوا دون أى اعتراض ، الا ليامشين الذى شاء أن يحتج ، فما كان من هذه الفكاهة الا أن زادت مرح الجماعة وأنعشت نشاطها ؛ وتابع الركب الفرح طريقه وسط سيلٍ من الضحك والكلام .

وصلنا الى عند سيميون ياكوفلفتش فى الساعة الواحدة تماما . كانت بوابة منزل التاجر الكبير مفتوحة على سعتها . وكان كل من يريد الدخول الى جناح « المجنوب » يستطيع أن يدخل . وعلمنا أن سيميون ياكوفلفتش يتغدى ، ولكنه مع ذلك يستقبل . فدخلنا جميعنا دفعةً واحدة . ان للغرفة التي يأكل فيها « المجنوب » ويستقبل ، لها ثلاث نوافذ ، وهي واسعة سعةً كافية ، وثمة حاجز من قضبان خشبية ، علوُّه متر تقريبا ، يقسمها الى جزأين يمتد من جدار الى آخر ، ويقسم الغرفة قسمين متساوين . فأما الزوار العاديون فانهم يقبعون وراء الحاجز ، وأما الزوار الذين يخصهم الرجل القديس بامتياز خاص فانه يأمر بادخالهم الى الجهة التي هو فيها ، من باب فى السور خاص به ؛ ويجلسهم ، اذا بدا له ذلك ، على مقاعد عتيقة من جلد ، أو على ديوان . وأما هو فانه متربع فوق مقعد كبير ذي مسند عال ، وهو مقعد مهترىء كل الاهتراء . الرجل فى نحو الخمسين من العمر ، طويل القامة ، أصفر اللون ، متورم الوجه ، حليق اللحية تماما ، قليل شعر الرأس . ان خده اليمنى منتفخة ، وان فمه موارب قليلا ؛ وله ثؤلول ضخم بقرب منخره الأيسر ، وله عينان صغيرتان هادئتان . وهو يرتدى ثيابا على الزى الأوروبى ، ولكن لا صديرة ولا ربطة عنق تحت ردنجوته الاسود . قميصه من قماش خشن ، لكنه ناصع البياض . وقدماه ، المريضتان فيما أظن ، ينتعلان خفَّين مما يُنتعل فى البيت . يقال انه كان فى الماضى موظفا وكانت له رتبة . لقد فرغ الآن من تناول حساء خفيف بالسمك ، وشرع فى أكل الطبق الثانى وهو بطاطس مسلوقة بغير تقشير ومرشوشة بملح . انه لا يأكل فى حياته شيئاً آخر قط ، ولكنه يكثر من شرب الشاى ، فهو يهوى الشاى كثيرا . ان خدماً ثلاثة يقفون حوله ، والتاجر هو الذى يدفع لهم أجورهم . فأحدهم يرتدى

بزة رسمية ، والثاني يشبه أن يكون مستخدما في محل تجاري ، والثالث شبيه بخادم كنيسة . وهناك عدا هؤلاء فتى في السادسة عشرة من عمره ، كثير الحيوية والنشاط ، وراهب شائب الشعر ، مهيب المظهر ، وان يكن سمينا بعض السمنة ، يحمل بيده علبةً مغلقة للعطايا والهبات . وعلى مائدة يغلي سماور توجد الى جانبه صينية عليها نحو دستين من الكئوس . وعلى مائدة أخرى مقابلة قد صُفّت الهدايا : أرغفة خبـــز ، وصرر سكر ، ورطلان من الشاي ، وخفّان مطرّزان ، ومنديل تلف به العنق ، وقطعة جوخ لصنع رداء ، وقطعة نسيج مما تخاط منه القمصان ... أما العطـايا المالية فيذهب بها الراهب الى الكنيسة في العلبة المغلقة ، دائما على وجـه التقريب . وكان عدد الزائرين نحو اثني عشر زائرا ، اثنان منهما كانا جالسين قرب سيميون ياكوفلفتش : فأما أحدهما فهـــو حاج من « عامة الناس » ، وأما الثاني فهو راهب قصير نحيل كان ماراً بمدينتنا ، وقد جلس متواضعا خافض العينين . وكان باقي الزوار وراء الحاجز . ان أكثـرهم أناس من الشعب ، باستثناء تاجر سمين ذي لحية وصل الى المـــدينة من القرية المجاورة ، وهو يرتدي لباسا على الزي الروسي ، لكنه معروف بأنه عظيم الثراء ؛ وباستثناء رجل آخر من مالكي الأراضي ، وامرأة عجـــوز نبيلة فقيرة .

كان الجميع ينتظرون ، لا يجسرون أن ينطقوا بكلمة واحدة قبل أن يتجه اليهم الرجل القديس بالكلام . ان أربعة منهم راكعون . ومالك الارض ، الرجل السمين ، الذي يبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاما، هو الذي يلفت الانتباه خاصة : كان راكعا أمام الحاجز ، يراه كل من بالغرفة ، ينتظر بكثير من الخشوع أن يمن عليه سيميون ياكوفلفتش بنظرة أو كلمة طيبة . انه هنا منذ ساعة ، ولكن الرجل القديس لا يوليه أيّ انتباه .

تكدست سيداتنا على الحاجز وهن يُطلقن ضحكات صغيرة ويتبادلن همسات فرحة ، فيدفعن الزوار الآخرين ويحجبنهم ، الا المـالك الذى حافظ على مكانه فى عناد ، متشبثاً بقضبان الحاجز بكلتا يديه . وسرعان ما أصبح سيميون ياكوفلفتش محط هذه الأنظار الضاحكة المستطلعة . وتسلح عدد منا بنظارات تُمسك باليد ، أو توضع على الأنف ، حتى أن ليامشين أخذ يتأمل القديس مستعملاً نظارتين مقربتين من النظارات التى يُستعان بها فى المسرح . وألقى علينا سيميون ياكوفلفتش نظـرة هادئة كسولة من نظرات عينيه الصغيرتين .

ثم قال بصوت خفيض أبحّ قليلاً :

ـ نظرات لطيفة !

فانفجرت جماعتنا كلها ضاحكة : مامعنى هذا القول: «نظرات لطيفة»؟ ولكن سيميون ياكوفلفتش عاد الى صمته الكامل. وأتى على طبق البطاطس الذى كان يأكله ، ومسح شفتيه بمنشفة ، ثم حُمل اليه الشاى . انه فى العادة لا يشرب الشاى وحيدا ، وانما يقدّم منه الى زواره ، أو قل الى عدد من زواره يصطفيهم فيعينهم . وكان هذا الاصطفاء من بين الزوار يفجأ الناس دائما بما فيه من أمور غير متوقعة . فهو تارةً يهمل الأغنياء والشخصيات الهامة فيأمر بالشاى لفلاح أو لامرأة عجوز من الشعب ، وهو تارةً أخرى يحتقر الفقراء فيأمر بالشاى لتاجر سمين من التجـار ملء الجيب بالمال . هذا عدا أنه لا يعامل جميع الذين يختارهم معاملة واحدة : فواحد يأمر له بشاى محلى بالسكر ، وآخر يأمر له بشاى مع قطعة من السكر عليه أن يمصها مصاً أثناء احتساء الشاى ، وثالث لا يأمر له مـع الشاى بسكر بتاتا . ففى هذه المرة وقع اختيار سيميون ياكوفلفتش عـلى الراهب الغريب القصير ، فأمر له بشاى محلّى ؛ وعلى الحاج العجوز فأمر

له بشاى من غير سكر • أما الراهب السمين الآتى من ديرنا فانه لم يأمر له بشىء ، رغم أنه كان ينال كأسه دائما •

ـ سيمون ياكوفلفتش ، قل لى شيئا ما ! اننى منذ زمن طويل أحب أن أعرفك •

بذلك صدح صوت مغرّد مغناج هو صوت تلك السيدة الأنيقـــة التى قالت منذ برهة ان على المرء أن لا يكون متشددا فى شئون التسليات شريطة أن يكون الامر شائقا •

فلم يرض سيمون ياكوفلفتش حتى أن ينظر اليها • وزفر مالك الأراضى ، الراكع أمام الحاجز ، زفرة صاخبة ، كأن أحداً قد نفخ فى صفّارة قوية •

قال « الرجل التقى » ، وهو يشير باصبعه الى التاجر الغنى :

ـ هاتوه بشاى محلّى بسكر •

فاقترب التاجر الغنى وركع الى جانب المالك •

وقال سيمون ياكوفلفتش حين صُبّ الشاى :

ـ مزيدا من السكر •

فضاعفوا له مقدار السكر • فقال :

ـ مزيدا ، مزيدا !

فضاعف الخادم السكر مرة ثانية ، ثم ضاعفه مرة ثالثة ، فكان مقدار السكر الذى وُضع فى الشاى أربعة أضعاف المقدار العادى • فأخذ التاجر يشرب شرابه طيّعاً خاضعا • وهمس الناس وهم يرسمون على أنفســـهم اشارة الصليب :

ـ يا رب !

وزفر المالك من جديد .

وارتفع صوتُ سيدة فقيرة كانت جماعتنا قد دفعتها الى الحائط ، ارتفع على حين فجأة أليماً موجعاً ، لكنه يبلغ من الحدة أن جميع الحضور دُهشوا ، ارتفع يقول :

ـ سيميون ياكوفلفتش ، أبتاه ! انني هنا منذ ساعة أرتقب أن تلقى على نظرتك الحنون . كلّمني . قل لى : ماذا يجب أن أفعل ، أنا اليتيمة المسكينة !

فقال سيميون ياكوفلفتش للخادم الذى يشبه خادم كنيسة :

ـ اسألها !

فدنا الخادم من الحاجز ، وسأل الأرملة بصوت رقيق بطىء :

ـ هل فعلت ما أمرك به سيميون ياكوفلفتش آخر مرة ؟

ـ أنّى لى أن أستطيع فعل ما أمرنى به أيها الأب العزيز ! هؤلاء أناس من أكلة لحوم البشر حقا ! لقد شكونى الى المحاكم ، وهم يهددوننى بأن يجرونى الى أمام مجلس الشيوخ ، أنا أمهم !

قال سيميون ياكوفلفتش للخادم وهو يشير الى كتلة سكر :

ـ أعطها هذا !

فأسرع الفتى نحو المائدة ، وتناول الكتلة ، ومدّها الى الأرملة .

فهتفت الأرملة تقول :

ـ أوه ! أبتاه ! عظيمة طيبتك ! ما عسانى فاعلة بهذا كله ؟

فأردف سيميون ياكوفلفتش يقول متابعا كلامه :

ـ مزيدا ! مزيدا !

فجيئت المرأة بكتلة أخرى . فألح سيميون ياكوفلفتش مكررا :

ـ مزيدا !

فجيئت بثالثة ، فرابعة ، فرأت نفسها محاطة بسكر من كل جهة .

ـ زفر الراهب السمين : ان هذا كله كان ينبغى أن يُرسل الى الدير كالعادة .

وتنهدت الأرملة قائلة بمذلة :

ـ ولكن ما عسانى صانعة بهذا كله ؟ انه يكاد يثير الغثيان ... أم ترُى هذا نبوءة ؟

دمدم أحد فى الجمهور يقول :

ـ هو نبوءة طبعا .

ـ اعطوها رطلا آخر .

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش .

كانت قد بقيت على المائدة حزمة كاملة . ولكن الرجل المقدس أمر بأن تعطى رطلا واحدا فأطيع .

قال الناس متنهدين وهم يرسمون على أنفسهم اشارة الصليب :

ـ يارب ! يا رب ! واضح أنها نبوءة .

وتصدّى الراهب السمين الذى أغضبه أن يرى أنه نُسى ، وأن عليه أن يستغنى عن كأس الشاى الذى اعتاد أن يؤمر له به ، تصدّى للتعليق على هذا فقال للمرأة برصانة :

ـ عليك أولا أن تجعلى قلبك حلواً بالطيبة والغفران، فربما كان ذلك هو معنى هذا الرمز !

فهتفت المرأة تقول وقد غضبت فجأة :

ـ ما هذا الذى تقول يا أبت ! لقد أرادوا أن يلقونى فى النار حين شب حريق في منزل أسرة فرخيشيف • ووقد رموا في صندوقى قطـة فاطسة ، انهم لا يتورعون عن شيء •••

صاح سيميون ياكوفلفتش يقول محركاً ذراعيه :

ـ اطردوها ! اطردوها !

فوثب خادم الكنيسة والخادم الشاب الى الجهة الاخرى من الحاجز، فأمسك خادم الكنيسة بالأرملة تحت ذراعه ، فسرعان ما عادت ذليـــلة متواضعة وانقادت سائرة نحو الباب ، دون أن يفوتها أن تلقى نظرة على كتل السكّر التى حملها الصبى وراءها •

قال سيميون ياكوفلفتش يأمر الخادم الذى يشبه أن يكون مستخدما في محل تجارى والذى كان يقف بقرب مقعده :

ـ استرد منها كتلة من السكر •

فركض الخادم وراء الأرملة ، فما هى الا لحظة حتى رجع الخدم الثلاثة بكتلة السكر التى أُعطيت للأرملة ثم استُردت منها ، لكن المـرأة انصرفت بثلاث كتل •

قال صوت قريب جدا من الباب :

ـ سيميون ياكوفلفتش ، رأيتُ فى الحلم طائراً • انه زاغ صعد من الماء ومضى يرتمى فى النار • فما معنى هذا الحلم ؟

قال الرجل « التقى » :

ـ نذير برد •

وعادت السيدة الأنيقة تسأله :

ـ سيميون ياكوفلفتش ، لماذا لا تجيئني ؟ انني منذ مدة طويلة أهتم بك ويشوقني أمرك •

ـ اسأله •

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش لراهب ديرنا مشيراً الى مالك الأرض الذي ما يزا لراكعا ، دون أن ينتبه الى السيدة الأنيقة التي وجّهت اليه ذلك السؤال •

ـ ماذا كان ذنبك ؟ هل سبق أن أُمرت بشيء ؟

فأجاب الرجل بصوت أجش :

ـ أمرت بأن لا أقتتل مع الناس ، أُمرت بأن أسيطر على نفسي •

ـ فهل أطعت الأوامر ؟

ـ لا أستطيع ، يستحيل عليّ أن أتحكم بسلوكي وأسيطر على نفسي •

ـ اطرده ! اطرده ! بالمكنسة !

كذلك صاح سيميون ياكوفلفتش محركاً ذراعيه من جديد • فاذا بالمالك يلوذ بالفرار قبل أن يُنفَّذ فيه هذا التهديد •

قال الراهب وهو يلتقط من الارض قطعة ذهبية بعشرة روبلات :

ـ ترك قطعة ذهبية •

فقال سيميون ياكوفلفتش وهو يشير الى التاجر الثرى :

ـ أعطها هذا •

فلم يجرؤ التاجر الثرى أن يرفضها • ولم يملك الراهب الا أن يعلق على ذلك بقوله :

ـ الذهب يجذب الذهب !

ـ وأعط هذا شاياً بالسكر .

قال سيميون ياكوفلفتش ذلك وهو يشير الى مافريكى نيقولايفتش . فملأ خادم كأسا ، ولكنه أخطأ فقدمه الى الشاب الأنيق ذى النظارة. فصحح سيميون ياكوفلفتش خطأه قائلاً :

ـ بل لهذا ! الطويل ، الطويل !

فتناول مافريكى نيقولايفتش الكأس ، وقام بتحية عسكرية سريعة وأخذ يشرب الشاى . فلا أدرى لماذا أخذ جميع صحبنا يضحكون !

وقالت ليزا فجأة :

ـ مافريكى نيقولايفتش ، ان السيد الذى كان راكعاً قد انصرف ، فاركع أنت فى مكانه .

فنظر اليها مافريكى نيقولايفتش مبهوتا .

ـ أرجوك . ستسرنى بهذا سرورا عظيما .

ثم تابعت تقول مسرعةً بلهجة ضاغطة مندفعة :

ـ اسمع يا مافريكى نيقولايفتش ! يجب ، يجب حتمـــا أن أراك راكعا . فاذا لم تركع فلن تجيئنى بعد اليوم . أريد ... أريد ...

لا أدرى ماذا كان معنى هذا . لكنها أصرّت على رأيهـــا اصرارا عنيدا ، وتكلمت بلهجة حاسمة قاطعة ، وكأنها تعانى نوبة عصبية . ولقد كان مافريكى نيقولايفتش ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، يعزو هذه النزوات الغريبة التى تزداد يوما بعد يوم ، الى البغض الأعمى الذى تحمـــله له الفتاة . ولكنها كانت تضمر له مع ذلك اعتبارا واحتراما وعاطفة ، وكان هو يعرف ذلك. على أن هذا لا ينفى أنها كانت تحمل له عداوة لا شعورية لم تفلح الفتاة فى أن تنتصر عليها .



ليزا دروزدوف (في لباس الفارسات)

لم يقل مافريكي نيقولايفتش كلمة واحدة ، وانما التفت الى عجوز كانت وراءه فأعطاها الكأس ، وفتح باب الحاجز ودخل دون استئذان الى الجزء الموقوف على سيميون ياكوفلفتش من الغرفة ، وركع في وسطه . أظن أن رقة احساسه وبساطة قلبه قد روّعتهما هذه الاهانة الفظة التي أنزلتها فيه ليزا بحضور المجتمع كله . لعله قال لنفسه انها لا بد أن تخجل من سلوكها حين ترى هذا الذل الذي أكرهته عليه . نعم ، لا بد أن يكون مافريكي نيقولايفتش رجلاً من نوع مافريكي نيقولايفتش حتى يحاول أن يؤثر في امرأة بوسائل تبلغ هذا المبلغ من السذاجة ، وتبلغ هذا المبلغ من قلة التبصر . وكان منظر هذا الرجل الطويل المتخلع الراكع الذي ظل وجهه رصينا لم يضطرب ، كان منظرا مضحكا كل الاضحاك . غير أن أحداً لم يضحك حينذاك : ان هذا المشهد الغريب قد أثار شعورا بالضيق والانزعاج . واتجهت الأنظار كلها الى ليزا .

غمغم سيميون ياكوفلفتش قائلاً :

ـ منتهى الرقة ! منتهى الرقة !

فاصفرت ليزا فجأة ، وأطلقت صرخة ، واندفعت الى الجهة الأخرى من الحاجز ، وأخذت تشد مافريكي نيقولايفتش لتنهضه وكأنها خرجت عن طورها ، وتصرخ زائغة الهيئة قائلة :

ـ قم ! قم فورا ! كيف جرؤت على أن تفعل هذا ؟

فقال مافريكي نيقولايفتش . وأمسكت بذراعيه تحت كوعيها ، وحدّقت الى عينيه بنظرة مرتاعة .

وكرر سيميون ياكوفلفتش :

ـ نظرات لطيفة ، نظرات لطيفة ! ...

ورجعت الينا بمافريكى نيقولايفتش أخيرا . كانت جماعتنا كلهـا مضطربة أشد الاضطراب . وأرادت السيدة الأنيقة أن تسرّى عنا فى أغلب الظن ، فاتجهت تخاطب سيميون ياكوفلفتش مرة ثالثة ، قائلة له بصوتها الحاد وهى تبتسم ابتسامة غنج ودلال :

ـ هيه ... سيميون ياكوفلفتش ، هلا تنازلت فقلت لى شيئاً ؟ لطالما عوّلت عليك ! ...

ـ ابحثى لنفسك عمن ... ابحثى لنفسك عمن ... ! ...

كذلك صاح « ولىُّ الله » غاضبا وهو يلتفت اليها . وقـد نطق « القديس » بهذه العبارة البذيئة بوضوح مروّع . فما ان سمعته سيداتنا يقول هذا الكلام حتى لذن بالفرار وهنّ يطلقن صرخات صغيرة مرتاعة ، بينما انفجر مرافقوهن الفرسان يضحكون ضحكاً هوميرياً . هكذا انتهت زيارتنا لسيميون ياكوفلفتش .

غير أن حادثا غريبا قد وقع أيضا فيما قيل ؛ وانى لأعترف لكم بأننى من أجل الوصول الى هذا الحادث خاصةً انما سردت تلك التفاصيل كلها عن رحلتنا .

قيل ان ليزا التى كان يسندها مافريكى نيقولايفتش قـد اصطدمت فجأة ، أثناء هروب الجميع الى خارج غرفة سيميون ياكوفلفتش ، قـد اصطدمت قرب الباب بنيقولاى فسيفولودوفتش . يجب أن أقول انهما ، منذ مشهد يوم الاحد واغماء ليزا ، لم يتعرض أحد منهما لصاحبه ، ولا كلّمه ، رغم أنهما يلتقيان فى المجتمع . لقد رأيتهما قريبين أحدهما من الآخر عند الباب ، وبدا لى خلال لحظة انهما توقفـا كلاهما وألقى كل منهما على الآخر نظرة غريبة . لكن الازدحام كان شديدا فمن الجائز أننى أخطأت . غير أن ما أكده الآخرون هو أن ليزا رفعت يدها الى مستوى

وجه نيقولاى فسيفولودوفتش ، وأنها كانت ستصفعه حتما لولا أنه تنحى في الوقت المناسب . فلعل ليزا أحست ، ولا سيما بعد المشهد الذى وقع مع مافريكى نيقولايفتش ، أن نظرة ستافروجين أو ابتسامته تجــرحان شعورها . اعترف بأننى من جهتى لم ألاحظ شيئاً . لكن الجميع قـــد أكدوا أنهم رأوا هذه الحركة . ومهما يكن من أمر ، فاذا كان قد حدث شيء فان الذين استطاعوا من بيننا أن يروه قليل ، وذلك بسبب الازدحام والفــوضى . ولقد رفضت في ذلك الوقت أن أصــدق ما قالوه . ولكننى أذكر أن وجه نيقولاى فسيفولودوفتش كان يبدو أثناء العودة شاحباً بعض الشحوب .

٣

في ذلك اليوم نفسه ، وفي تلك الساعة نفسها تقـــريبا ، تمّ اللقاء الذي كانت فرفارا بتروفنا قد قررت منذ مدة طويلة أن تحدده لستيفان تروفيموفتش ، ولكنها أرجأته حتى ذلك الحين ، لا أدري لماذا ! ولقد تمّ هذا اللقاء في سكفورشنيكي .

وصلت فرفارا بتروفنا الى منزلها الريفي مشغولةً جدا : كان قـــد تقرر في الليلة البارحة نهائيا أن تقام الحفلة في منزل عميدة النبالة . ولكن فرفارا بتروفنا ، بما تتميز به من تعجل ، سرعان ما قررت أن لا يمنعهـا شيء بعد تلك الحفلة من اقامة حفلة أخرى بمنزلها في سكفورشنيكي ، تدعو اليها المدينة كلها . فسوف يرى الناس حينذاك أن منزلها هو المنزل الأجمل ، وسوف يرون أن الاســتقبال فيه أليق ، وان الحفلة فيه ستمتاز بذوق ألطف . نستطيع أن نقول على وجه العموم ان فرفارا بتروفنا قـد تغيرت حتى أصبحت لا تكاد تُعرف . لقد طرأ عليهـــــا تحول كامل ، فصـــارت « السـيدةُ العظيمةُ » ذات الكبرياء (كما كان يلقبها ســتيفان تروفيمــوفتش) امرأةً عادية من نســـاء المجتمع التافه ، خفيفــةً ذات نزوات .

ما ان وصلت فرفارا بتروفنا الى منزلها الريفي الخـــالي حتى قامت بجولة سريعة فيه ، يصحبها العجوز الأمين ألكسي ايجورتش فاموشكا * الاختصاصي الواسع الخبرة في شئون تزيين المنازل . ودارت المناقشة : ما هي الاشياء وما هي اللوحات التي يجب احضارها من المنزل الذي تقيم فيه فرفارا بتروفنا بالمدينة ؟ أين يجب وضع هذه الأشياء واللوحات هنا؟ كيف تُرتّب الأزهار ؟ كيف يمكن الاستفادة من بيت أشجار البرتقال ؟

أين توضع مجموعة الطنافس الجديدة ؟ والبوفيه ، أين يكون ؟ وهل يقام بوفيه واحد أم اثنان ؟ الخ الخ ...

وبينما كانت فرفارا بتروفنا مشغولةً بمناقشة هذه الأمور ، اذ خطر ببالها فجأة أن ترسل عربتها لتجيئها بستيفان تروفيموفتش .

وكان ستيفان تروفيموفتش متهيئاً . لقد أُبلغ منذ مدة طويلة أن فرفارا بتروفنا ستحدد له موعدا ، وكان ينتظر فعلا أن تدعوه دعوة مفاجئة من هذا النوع . فحين ركب العربة رسم على نفسه اشارة الصليب : لأنه كان يحس أن مصيره سيتقرر أخيراً .

وجد صديقته في الصالة الكبرى . انها جالسة على كنبة صغيرة أمام منضدة من مرمر تكتب : كان فاموشكا ، وهو يحمل بيده مترا ، يقيس علوّ المنصات والنوافذ ، ويملي الأرقام على فرفارا بتروفنا فتسجلها .
لم تقطع فرفارا بتروفنا عملها حين وصل ستيفان تروفيموفتش وانما أومأت له بحركة من رأسها ، حتى اذا عبَّر لها عن تحياته واحتراماته متمتما ، مدت اليه يدها بسرعة تصافحه دون أن تنظر اليه ، وعينت له مكانا الى جانبها يجلس عليه .

وقد حكى لي ما جرى ، فيما بعد ، فقال : « جلست وانتظرت خمس دقائق أو ست دقائق كاملة ، ضاغطا قلبي . ان المرأة التي أراها أمامي ليست هي تلك التي أعرفها منذ عشرين عاما . فكان من شأن اقتناعي المطلق بأن كل شيء بيننا قد انتهى أن ملأني بقوة دُهشت منها هي نفسها. أحلف لك أنها بُهتت من ثبات جناني وصلابة ارادتي في تلك الساعة الاخيرة . » .

وفجأة وضعت فرفارا بتروفنا قلمها على المنضدة والتفتت الى ستيفان تروفيموفتش بحركة مفاجئة وقالت له :

ـ يا ستيفان تروفيموفتش ، هناك أمور يجب أن نصفها . أنا واثقة بأنك قد هيأت عبارات جميلة وألفاظا عاطفية وصيحات مؤثرة ، ولكن أليس الأفضل أن نمضي الى الوقائع رأساً ؟

انتفض ستيفان تروفيموفتش . قال لنفسه : اذا أسرعتْ الى اتخاذ هذه اللهجة منذ البداية فما عسى تكون التتمة والنهاية .

ـ انتظر ! اسكت ! دعني أتكلم ! ستتكلم أنت بعد ذلك ، رغم انني لا أعرف حقا بماذا يمكن أن تجيبني !

كانت تتدفق في الكلام تدفقا غزيرا ، وتابعت كلامها تقول :

ـ فيما يتعلق براتبك الذي يبلغ ألفاً ومائتي روبل ، فاني أرى أنه واجب مقدس عليّ أن أستمر في تقديمه اليك حتى آخر حياتك . ولكن علام الكلام عن « واجب مقدس » ؟ هذا اتفاق لا أكثر ولا أقل . بذلك نكون أقرب الى الواقع ، أليس كذلك ؟ واذا شئت سجّلناه كتابةً . واذا اتفق أن متُّ قبلك، فقد اتخذتُ اجراءات خاصة لهذه الحالة. وبالاضافة الى ذلك تقع على عاتقي أجرة المسكن ونفقات الخـــدمة والمعيشة . فاذا ترجمنا هذه المصاريف الى مال ، كان المبلغ اللازم ألفاً وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟ واني لأضيف الى هذا ثلاثمائة روبل للنفقات الخارقة ، فيكون المجموع كله ثلاثة آلاف روبل في السنة . ألا يكفيك هذا المبلغ؟ أظن أنه ليس بالمبلغ الضئيل . والآن خذ المال ، وردَّ اليَّ خدمي ، وعش كما يحلو لك أن تعيش ، في المكان الذي تريد : بطرسبرج ، أو موسكو، أو الخارج ، أو حتى هنا ؟ ولكن ليس عندي ، هل تفهم ؟

قال ستيفان تروفيموفتش ببطء وكآبة وأسى :

ـ منذ مدة غير طويلة سمعت من هذا الفم نفسه مطلباً آخر يبلغ هذا المبلغ نفسه من القطع والجزم والالحاح . وخضعت للمطلب ... رقصت

الرقصة القوزاقية لأسرك ... « نعم ، هذا التشبيه مباح . لقد كنت مثل قوزاقي صغير من الدون يرقص على قبره ... والآن ... » (بالفرنسية).

ـ قف ياستيفان تروفيموفتش . انت ثرثار الى درجة فظيعة . انك لم ترقص ، وانما جئت الي متزيناً بربطة عنق جديدة ، لابساً قميصاً نضراً ناصع البياض ، داساً يديك في قفازين جميلين ، متدهناً متعطرا . أؤكد لك أنك كنت راغبا في الزواج أشد الرغبة . كان ذلك يُقرأ في وجهك . وصدقني اذا قلت لك انه لم يكن جميلا منك . ولئن لم أبد لك هذه الملاحظة حينذاك ، فلقد كان ذلك من جانبي ذوقاً وأدباً ولطفاً . لكنك كنت راغبا ، نعم كنت راغبا في أن تتزوج ، رغم كل الأشياء الدنيئة التي كتبتها عني وعن خطيبتك خفية . والأمر الآن يختلف عن ذلك تماما . ما شأن « قوزاقي الدون والقبر » هنا ؟ ... انني لا أفهم هذا التشبيه . بالعكس : لا تمت ، بل عش أطول عمرٍ ممكن ، وسيسعدني هذا كثيرا .

ـ أعيش في ملجأ ؟

ـ في ملجأ ؟ لا يذهب المرء الى ملجأ حين يكون له دخل قدره ثلاثة آلاف روبل . آ ... نعم ... تذكرت الآن . ان بطرس ستيفانوفتش قد قال ، فعلاً ، في ذات مرة ، على سبيل المزاح ، انه سيضعك في ملجأ. على أن الملجأ الذي كان يعنيه ملجأ من نوع خاص جدا . ينبغي أن نفكر في هذا حقا . انه ملجأ لا يُستقبل فيه الا أشخاص محترمون جدا ، رجال برتبة كولونيل مثلاً ، حتى ان بين المرشحين لدخوله شخصا برتبة جنرال.فاذا دخلته بما تملك من مال وجدت فيه الراحة والرخاء وخدمة ممتازة . فتستطيع أن تنصرف فيه الى العلم وأن تلعب لعبة الورق التي تلعبها كل يوم ...

ـ « طيب ... دعينا من هذا الكلام » (بالفرنسية) .

ـ « دعينا من هذا الكلام » ؟ (بالفرنسية) .

قالت فرفارا بتروفنا ذلك وهي تحرك يدها باشارة تنم عن التململ ونفاد الصبر . وأضافت :

ـ اذا كان الامر كذلك فهذا كل شيء . هأناذا قد أبلغتك ما عقدت عليه نيتي . بعد الآن ، سيعيش كل منا مستقلاً عن الآخر ؛ سيسير كل منا في طريقه ...

ـ هذا كل شيء ؟ هذا كل ما بقي لنا من السنين العشرين التي انفقناها معا ؟ أهذا وداعنا الأخير ؟

ـ ان لك ولعاً شديدا بالصيحات العاطفية المؤثرة يا ستيفان تروفميوفتش ! لقد انقضت هذه الموضة وأصبحت بالية ! الناس يتكلمون الآن بخشونة ولكن ببساطة . انك ما تنفك تتكلم عن هذه السنين العشرين . نعم ، انها عشرون سنة من الأنانية ! الرسائل التي بعثتها الى انما كتبت للأجيال القادمة ، لا لي أنا . ما أنت بصديق . وانما أنت منشىء ينمّق أسلوبه ويزوّق كتابته . والصداقة على كل حال كلمة ضخمة لا تعني على وجه الاجمال الا أن يتساكب اثنان مياهاً وسخة ...

ـ رباه ! هذه كلها كلمات ليست لك ! انك تكررين درساً حفظته على ظهر القلب . هل ألبسوك أنت أيضا زيّهم ؟ « عزيزتي ، عزيزتي » (بالفرنسية) ... بأي طبق من عدس بعتهم حريتك ؟

قالت فرفارا بتروفنا غاضبة :

ـ لست ببغاء أكرر أقوال الآخرين . ثق أن قلبي مثقل بأشياء تكفيني من أجل أن أجد الكلمات التي تناسبني . ماذا فعلت في سبيلي

أثناء هذه السنين العشرين ؟ منعتَ عني حتى الكتب التي كنت استقدمها لك والتي ما كان لها أن تُقصّ لولا أنني كنت آمر بتجليدها . ماذا كنت تعطيني للقراءة حين كنتُ في السنين الأولى أطلب منك توجيه مطالعاتي ؟ كابفيج * ، ولا شيء الا كابفيج * ! كنت تغار من تطور فكري ونمو ثقافتي ، فكنت تتخذ اجراءاتك للحيلولة دونهما . ومع ذلك فمنك أنت انما يضحك الآن جميع الناس . اعترف بأنني لم أكن أرى فيك على الدوام الا ناقداً أدبيا لا أكثر . انك ناقد أدبي لا أكثر . وحين سافرت الى بطرسبرج وقلت لك ان في نيتي أن أنشيء مجلةً وأن أقف عليها حياتي كلها أسرعت تنظر اليَّ ساخراً وتتخذ مني موقف استعلاء وغطرسة .

ـ لم يكن الامر هذا ... لم يكن هذا بتاتا ... وانما كنا يومئذ نخشى الملاحقات ...

ـ لا ، لم يكن الامر كذلك . أما عن الملاحقات فلم يكن لك أن تخشاها في بطرسبرج . وبعد ذلك ، في شهر شباط (فبراير) حين سرت بعض الشائعات ، هرعت اليَّ مذعورا ، وطلبت مني أن أعطيك شهادة في صورة رسالة تثبت أن المجلة المزمع اصدارها لا شأن لك بها بتاتا ، وأن الشبان يترددون عليَّ أنا لا عليك أنت ، وأنك لست الا مربياً يعيش عندي لأنني ما أزال مدينةً له بمال . هل تتذكر ؟ لقد كان لك طوال حياتك موقف خاص يا ستيفان تروفيموفتش !

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول مكروباً يائسا :

ـ لم يكن ذلك الا لحظة ضعف ، لم يكن الا كلاما جرى بيني وبينك على انفراد . ولكن هل يُعقل ، هل يُعقل قطع كل صلة بسبب حوادث طارئة صغيرة من هذا النوع ؟ هل يعقل أن لا يبقى بيننا شيء بعد هذه السنين كلها ؟

ـ انك حيسوب الى درجة رهيبة : تصرُّ بكل ما أوتيت من قوة على أن أبقى مدينةً لك . حين عدتَ من الخارج ، كنت تنظر اليَّ من علٍ ، ولا تدعنى أقول كلمة واحدة . وحين سـافرت أنا بدورى وأردت أن أقصَّ عليك انطباعاتى عن « مادونا سكستين » لم تتنازل حتى أن تستمع لحديثى الى نهايته ، واكتفيت بالتبسم متعاليا متكبرا كأننى عاجزة حتى عن الشعور بأى شىء .

ـ لم يكن الامر كذلك ... لعل الامر كان يتعلق بشىء آخر ... « نسيت » (بالفرنسية) .

ـ بل كان الامر كما وصـفت . ولم يكن مع ذلك ثمة داع الى اصطناع الاستعلاء والتكبر . كل ما كنت تحكيه لى عن تلك اللوحة لم يكن الا سخفاً وحماقة ومحض خيـال من جهتك . ما من أحـد يشعر الآن بنشوة تجاه هذه المادونا ، أو يضيِّع وقته فى تأملها ، باستثناء شيوخ سذَّج بسطاء . وذلك أمر مؤكد مبرهن عليه .

ـ مبرهن عليه ؟

ـ انها لا تفيد فى شىء على الاطلاق . هذه الجرة مفيدة لأننا نستطيع أن نملأها ماءً ، وهذا القلم نافع لأنه يتيح لى أن أسجل ما أريد تسجيله. أما تلك اللوحة فما هى الا وجه امرأة أسوأ من الوجوه التى نلقاها فى الشارع . اذا رسمتُ تفاحةً ووضعت الى جانبها تفاحة حقيقية ، فأيَّهـا تختار ؟ * انك لن تخطىء الاختيار. أنا موقنة من هذا. ذلك ما يبقى اليوم من جميع نظرياتك متى سلَّطنا عليها أول شعاع من حرية النظر .

ـ طيب ... طيب ...

ـ انك تبتسم ساخرا . ماذا كنت تقول لى عن الصدقة ؟ والحقيقة أن اللذة التى يهيئها لنا التصدق لذة أنانية لا أخلاقيـة . انها تتيح للغنى

أن يبتهج بغناه وسلطانه اذ يقارنهما بضعف الفقير • والصدقة تفسد المعطى والآخذ كليهما • وهى فوق ذلك لا تبلغ غايتها ولا تحقق هدفها ، لأنها تكاثر البؤس • فالكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا يتزاحمون حول أولئك الذين يعطون ، كالمقامرين الذين يتحلقون حول المائدة الخضراء أملاً فى أن يربحوا • والدريهمات القليلة التى يرمونها اليهم لا تخفف جزءاً من مائة جزء من آلامهم • كم من المال وزّعت طوال حياتك ؟ ثمانين كوبكا فى أكثر تقدير • تذكر هذا • حاول أن تتذكر متى تصدّقت آخر مرة • ربما منذ سنتين أو حتى منذ أربع سنين • انك لا تزيد على أن تتكلم فتعرقل عمل الآخرين • ان من الواجب ، حتى فى المجتمع الحالى ، اصدار قانون يحظر الصدقة • أما المجتمع الجديد فلن يكون فيه فقراء قط •

ـ أوه ! سيل من الاقوال العجيبة ! المجتمع الجديد ! اذن قد وصلت الى هنا ؟ مسكينة ! كان الله فى عونك !

ـ نعم ، وصلت الى هنا يا ستيفان تروفيموفتش • كنت تحرص على أن تخفى عنى جميع الأفكار الجديدة التى يعرفها الناس كافةً منذ الآن • ولم تفعل ذلك الا بدافع الغيرة ، فقد كنت تريد أن تحتفظ بسلطانك علىّ • والآن أرى امرأة يقال لها جوليا تسبقنى مائة فرسخ ! لكننى أصبحت أرى بوضوح أخيرا • لقد دافعت عنك ما وسعنى أن أدافع يا ستيفان تروفيموفتش • ولكن جميع الناس يدينونك •

قال وهو ينهض فجأة :

ـ كفى ! لا أملك الا أن أتمنى لك الندامة وأدعو لك بالتوبة !

ـ عد الى الجلوس دقيقة أخرى يا ستيفان تروفيموفتش • لم أختم

كلامي بعد . لقد طُلب منك أن تقرأ شيئاً في الصبيحة الأدبية . أنا رتبت ذلك . فماذا تنوى أن تقرأ ؟

ـ لأقرأنّ بضع صفحات عن ملكة الملكات تلك ، عن المثل الأعلى للانسانية ، عن تلك « المادونا» التي لا تساوى في رأيك كأسا أو قلماً !

صاحت فرفارا بتروفنا تسأله خائبة الآمال :

ـ اذن لن تقرأ قصةً تاريخية ! لن يصغي اليك أحد . أتصرُ على هذه « المادونا » ؟ انني لا أرى ما هي اللذة التي تجنيها من انامة المستمعين. ثق يا ستيفان تروفيموفتش أنني لا أقول هذا الكلام الا في سبيل مصلحتك . خير لك كثيرا أن تختار قصة قصيرة أو حكاية خفيفة عن حياة البلاط باسبانيا في القرون مضيفاً اليها بضع تأملات فكهة من ابتكارك . فخامة البلاط ، السيدات الجميلات ، حوادث القتل بالسم ، ذلك كله شائق ! كارمازينوف يقول انه ليكون أمراً غريبا جدا أن لا تجد في تاريخ اسبانيا موضوعا شائقا تتكلم عنه .

ـ كارمازينوف ، هذا الأحمق الأجوف ، يبحث عن موضوعات لي أنا ؟

ـ ان كارمازينوف يكاد يملك ذكاء رجل دولة . لسانك وقح سليط جدا يا ستيفان تروفيموفتش .

ـ صاحبك كارمازينوف أشبه بعجوز نمامة شريرة غبية ! عزيزتي ، عزيزتي ! انك خاضعة لتأثيره كل الخضوع ! رباه !

ـ انني أكره فيه اصطناعه علوّ الشأن ، ولكنني أنصف ذكاءه . أعود فأقول انني دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة ، ما وسعني أن أدافع. علام يظهر المرء بمظهر سخيف مضحك مضجر ؟ بالعكس : اصعد الى

المنصة مبتسما ، كرجـــــل يمثل عصراً مضى وانقضى ، واقصص عليهم حكايتين أو ثلاثاً مما لا يستطيع أن يضارعك فيه أحيانا خفةً ظل وروح فكاهة . هل يضيرك أن تكون شيخاً ، أن تمثل عصراً آخر ، وأن تبـقى متخلفا في وراء ! اعترف أنت نفسك بهذا ، مبتسما في مستهل خطابك ، فيرى الجميع عندئذ أنك بقية باقية من عصر تصرَّم حقا ، ولكنك بقيـــة لطيفة محببة حلوة فكهة ... رجل من الزمان القديم فعلا ، ولكنه يملك من الذكاء ما يمكّنه من ادراك سخافة الآراء التي ظـــل متعلقا بها حتى الآن . هيَّا ، حقق لي هذه المسرَّة ، أرجوك !

ـ « عزيزتي » (بالفرنسية) ! كفى ! لا تلحّي ! يستحيل عليّ هذا . سوف أتكلم عن « المادونا » وسوف أثير زوبعة تسحقهم أو لا تنال أحداً غيري .

ـ ستكون أنت الضحية حتما يا ستيفان تروفيموفتش .

ـ ذلك قدري . سأتكلم عن ذلك العبد الحقير الجبان ، عن ذلك الخادم الشرير العفن الذي سيصعد أول الصاعدين على سلَّم ، ممسكاً بيديه مقصاً ، ويأخذ يمزق ذلك الوجه الالهي ، ذلك المثل الأعلى ، باسم المساواة ، والحسد ... والهضم ! فلتترجع أصداء لعنتي أولاً ، ثم ، ثم ...

ـ ثم مستشفى المجانين ؟

ـ ربما . ولكن سواء أخرجت غالباً أم خرجت مغلوباً ، فلأحملنّ في ذلك المساء نفسه كيس متسوِّل ، تاركاً جميع أشيائي وأمتعتي ، جميع عطاياك وهباتك ، جميع مرتباتك ووعودك ، ماضياً على قدميَّ أختم حياتي عند تاجر من التجار كمربٍ لأولاده ، أو أموت جـــوعاً تحت سياج . « تقرر المصير فليكن ما يكون » (باللاتينية) .

ونهض من جديد ٠

ونهضت فرفارا بتروفنا أيضا ، مشتعلة العينين من الغضب ! وصاحت تقول :

ـ كنت من هذا على يقين ! كنت أعلم منذ سنين أنك لا تنتظر الا اللحظة التي تلطخني فيها بالعار ، أنا وبيتي ، بما ستذيعه من افتراءات وتنشره من تخرصات ! ما حكاية أن تصبح مربياً أو تموت تحت سياج ؟ ليس هذا الا شراً ونيةً اساءة وعزماً على النميمة !

ـ لقد احتقرتني دائما ، لكنني سأنهي حياتي كفارس ظل وفياً لسيدته ٠ اذ لا شيء كان أغلى عندي من رأيك في يوم من الايام ٠ منذ هذه اللحظة ، لن أقبل منك أية عطية ، بل أمجدك تمجيداً مبراً من كل منفعة !

ـ سخف !

ـ لم تحترميني يوما ٠ لعلني أتصف بأنواع كثيرة من الضعف ٠ نعم ، لقد كنت طفيليا عليك ٠ انني أتكلم الآن لغة المذهب العدمي ٠ ولكن حياة الطفيلي لم تكن المبدأ الأعلى الذي أستمد منه أفعالي في يوم من الأيام٠ وانما حدث ذلك عرضاً من تلقاء نفسه ، لا أدري كيف ٠٠٠ كنت أظن دائما أن بيننا شيئا يفوق الشراب والطعام ، ولم أكن حقيرا في يوم أبدا ، أبدا ٠٠٠ والآن ، سرْ يا ستيفان تروفيموفتش في طريقك لتصلح أخطاءك ! الوقت متأخر ، الخريف قد تقدم ، البرية غارقة في الضباب ، قطرات الماء المتجلدة تملأ طريق شيخوختي ، وفي زئير الرياح أسمع نداء الموت ٠٠٠ ولكن هيًا سر في الدرب ٠٠٠ ان سكة جديدة تنفتح أمامي

ملأى بحب نقي
وفية للأحلام * ٠

أوه ! وداعاً يا أحلامي ! يا عشرين عاماً ! « تقرر المصير ، فليكن ما يكون » (باللاتينية) .

كذلك ختم ستيفان تروفيموفتش كلامه ، وابتل وجهه بالدموع .

وتناول قبعته .

قالت فرفارا بتروفنا مغالبةً انفعالها :

ـ لا أفهم اللغة اللاتينية !

من يدري ؟ لعلها أرادت هي أيضا أن تبكي . ولكن الغضب والكبرياء غلبتاها مرةً أخرى . قالت :

ـ لا أعرف الا شيئاً واحداً ، هو أن هذا كله أمور صبيانية منك . لن تكون في يوم من الأيام قادراً قدرة كافية على تنفيذ تهديداتك الأنانية. لن تمضي الى مكان . لن تذهب الى أي تاجر من التجار ، وستظل بين ذراعيَّ ، مستمراً على قبض مرتبك وعلى استقبال أصدقائك الذين لا يُطاقون ، كلَّ ثلاثاء . استودعك الله يا ستيفان تروفيموفتش .

ـ « تقرر المصير ، فليكن ما يكون » (باللاتينية) .

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك ، وحيَّاها بانحناءة شديدة ، وعاد الى داره وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة .

الفصل السادس

بطرس ستيفانوفتش يسعى

١

عُيِّن موعد الحفلة نهائياً ، ولكن فون لمبكه كان يزداد اكتئاباً وهماً. انه يوجس تنبؤات غريبة مشئومة، فكان ذلك يقلق جوليا ميخائيلوفنا كثيراً . والحق أن الأمور كانت لا تجري على ما يُرام . ان الحاكم القديم ، وهو رجل حليم مفرط في الحلم ، قد أدخل في الادارة شيئاً من الفوضى . ومن جهة أخرى كانت الكوليرا تهدّد اقليمنا الذي كانت بعض مناطقه قد اجتاحتها أوبئة ذهبت بماشيتها عدا ذلك . وطوال الصيف كله عانت المدينة والأرياف كثيراً من حرائق قالت شائعةٌ سخيفة لكنها شائعة كانت تزداد انتشاراً في الشعب يوماً بعد يوم انها من صنع يدٍ مجرمة . وقد تضاعف عدد السرقات في الآونة الأخيرة . وكان ذلك كله يمكن أن لا يُعتبر خطيراً شديد الخطورة لولا أن هموماً ومشاغل أخرى قد أُضيفت اليه فعكرت هدوء آندره أنطونوفتش الذي حالفه الحظ والتوفيق الى ذلك الحين .

ان الشيء الذي فجأ جوليا ميخائيلوفنا أكثر من كل ما عداه هو أن زوجها قد ازداد صمته وتكتمه شيئاً بعد شيء . ذلك أمر غريب . هل هناك ما يوجب التكتم حقاً ؟ صحيح أنه لا يناقشها ولا يعارضها الا نادراً ، وأنه في أكثر الأحيان يطيعها طاعةً مطلقة، وقد اتخذ فون لمبكه ، خضوعاً

لالحاح زوجته ، اجراءين أو ثلاثة اجراءات تشتمل على مجازفة وتكاد تكون غير شرعية ، بغية تعزيز سلطة الحاكم. ولهذا الغرض نفسه ارتكبت مظالم صارخة : من ذلك أن أناساً يستحقون أن يُحالوا الى القضاء وأن يُنفوا الى سيبيريا قد أُعطوا جوائز لا لسبب غير تدخل جوليا ميخائيلوفنا وشفاعتها ؛ ومن ذلك أن شكاوى ومطالب كثيرة قد تقرر أن لا يجاب عنها . هذا كله لم يظهر الا فيما بعد . ولم يكن فون لمبكه يوقّع على كل شيء فحسب ، بل كان لا يدهشه أيضاً تدخل امرأته في واجبات عمله وشئون وظيفته . وفي مقابل ذلك كان يتفق له أن يغتاظ ويحتد فجأةً لأمور « تافهة » ، فكان هذا يدهش جوليا ميخائيلوفنا أشد الدهشة. واضح أنه كان يشعر بالحاجة الى تدارك أيام الطاعة بدقائق تمرد . غير أن من المؤسف أن جوليا ميخائيلوفنا رغم كل ما تتمتع به من ذكاء لم تستطع أن تدرك هذه الرهافة عند رجل مرهف بطبيعته . لقد كان لها ، وا أسفاه ، هموم أخرى تملأ رأسها ! فنشأ عن ذلك كثير من سوء التفاهم !

على أن هذه الأمور ليست من شأني ، وليس في وسعي أن أجيد الحديث عنها ، ولو أردت ذلك . لست أنا من يجب أن يحكم على الأخطاء التي لعلها أرتكبت في الادارة . فلأدع الشئون الادارية اذن في جانب. لقد كان هدفي حين شرعت في سرد هذه الأحداث غيرَ هذا الهدف تماماً . يُضاف الى ذلك أن التحقيق الذي يُجرى الآن في اقليمنا سيكشف عن وقائع أخرى أيضاً . يكفي أن ننتظر قليلاً . ومع ذلك يستحيل عليَّ أن أتجنب بعض الايضاحات .

فهأنا ذا أستمر في الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا . لقد كان في وسع هذه السيدة المسكينة (انني أرثي لحالها كثيراً) أن تحصل على كل ماكانت ترغب في الحصول عليه وعلى كل ما كان يجتذبها (من مجد وغيره) دون

أن تلجأ الى تلك المكائد المجازفة الغريبة التى عمدت اليها منذ خطواتها الأولى عندنا . غير أنها ، سواء أكان ذلك راجعاً الى فرط خيالها أم كان راجعاً الى ما لقيت فى شبابها من خيبة الآمال ، ما ان ابتسم لها الحظ حتى اعتقدت أنها مدعوة الى تحقيق أمور عظيمة ، وحتى شعرت أنها هى السيدة « المختارة المصطفاة » بين جميع السيدات . وطبيعى أن أولئك الذين تملقوا أوهامها ــ وما أكثرهم ! ــ كانوا ينالون منها كل ما يريدون فاذا المرأة المسكينة التى كانت تظن فى نفسها استقلال الرأى وأصالة الفكر ألعوبة تتقاذفها شتى المكائد والمؤامرات . ان كثيراً من الناس البارعين قد استطاعوا باستغلال سذاجتها أن يدبِّروا أمورهم الصغيرة فى أيام حكمها القصير . ولقد كانت أفكارٌ متعارضةٌ أكبر التعارض متناقضة أشد التناقض تضطرب فى رأسها فوضى ، مصطبغةً بصبغة الحرية . كانت تبدو ، فى آن واحد ، من أشياع الملكية الكبيرة ، والمبادىء الارستقراطية ، وتعزيز السلطات الادارية ، والمثل العليا الديموقراطية ، والمؤسسات الجديدة ، والنظام ، وحرية التفكير ، والاشتراكية ، وشدة التقيد بآداب الصالونات الارستقراطية وفرط الاهمال العامى الذى يلاحَظ فى الشباب المحيطين بها . كانت تحلم بتحقيق سعادة الجميع ، والمصالحة بين من لا سبيل الى المصالحة بينهم ، أو قل كانت تحلم بأن تجمع الناس كافةً على حب شخصها . وكان لها أثيرون تفضِّلهم على غيرهم ؛ وكان بطرس ستيفانوس الذى يؤثر فيها ويتسلط عليها بالتملق المفضوح والمصانعة الكاذبة وغير ذلك من أساليب ، يحظى باعجابها كثيراً . ولكنها كانت تحرص عليه لسبب آخر أيضاً ، سببٍ مضحك ، يبرز ملامح شخصية هذه المرأة المسكينة : لقد كان يلازمها أمل قوى هو أن هذا الشاب سيكشف لها عن مؤامرة هامة تدبَّر للدولة . كذلك كانت تتصور ، مهما

يبدُ لكم هذا غريبا . انها تتخيل ، لا أدرى لماذا ، أن ثمة مؤامرة لا بد أنها تحاك ضد الدولة في اقليمنا ؟ وكان بطرس ستيفانوفتش يساهم في ترسيخ هذه الفكرة الغريبة في ذهنها ، تارةً بصمته الملىء بالسر ، وتارة بتلميحات متحفظة متكتمة . كانت تصور أن له علاقات بجميع الثوريين ، ولكنه من جهة أخرى مخلص لها اخلاصاً يبلغ حدَّ العبادة . فاكتشاف المؤامرة ، وامتنان دوائر بطرسبرج العليا ، والمناصب العظيمة التي سيتسلمها زوجها ، وما سوف تحدثه هي نفسها من تأثير في الشبيبة لوقفها عند حافة الهاوية ، ذلك كله كان راسخ الجذور في رأسها المشوش المضطرب . فما دامت قد أفلحت في انقاذ بطرس ستيفانوفتش واخضاعه (لقد كانت مقتنعة بهذا اقتناعاً مطلقاً) ، فلتفلحنَّ أيضاً في انقاذ الآخرين . لن يهلك أحد منهم . لسوف تعرف كيف تعرض الأمور ببطرسبرج عرضاً من شأنه أن ينقذ الجميع . لن تنقاد الا للشعور السامى بالعدالة . وعندئذ سيبارك التاريخ اسمها أخيراً ، وقد تباركه اللبرالية الروسية نفسها . وتكون المؤامرة مع ذلك قد كُشفت . فتتحقق جميع الفوائد وتُجنى جميع المنافع في آن واحد .

ولكن ينبغي حتماً ، في الحفلة على الأقل ، أن يبدى آندره أنطونوفتش وجهاً هادئاً مطمئناً . فلا بد اذن من تهدئته وتسليته . ومن أجل ذلك أسرعت ترسل اليه بطرس ستيفانوفتش آملةً أن يُذهب عنه ما يحسه من ارهاق ، وذلك بأن يروى له ، على سبيل المثال ، أنباء جديدة عن المؤامرة . واعتمدت في هذا على الشاب اعتماداً كاملاً .

كان بطرس ستيفانوفتش قد كفَّ منذ مدة طويلة عن دخول مكتب فون لمبكه . وها هو ذا يدخل الآن على « المريض » وهو في أسوأ حالات اعتكار المزاج .

٢

كانت قد وقعت أحداث لم يتوصل السـيد فون لمبكه الى توضيحها لنفسه . من ذلك أن ملازماً ثانياً (فى تلك الناحية نفسها التى أقام فيهـا بطرس ستيفانوفتش حفلة منذ مدة قصيرة جداً) قد وجَّه اليه رئيسـه نوعاً من اللوم بحضـور جنود . والملازم شاب صغير نُقل من بطرسبرج الى هنا منذ فترة وجيزة ، وهو صموت عابس متعاظم رغم أنه قصـير سـمين أحمر الخدَّين . فما كان منه حين لامه رئيسـه الا أن استشاط غيظاً فهجم على رئيسـه خافض الرأس وهـو يصرخ صرخةً حادة ذُهل لها جميع أفراد الفصيلة ، ثم صفع الرئيس وعضَّه في كتفه عضةً بلغت من القوة أنه لم يمكن تخليص كتف الرئيس من بين أسـنانه الا بعـد عناء كبير . لقد فقد عقله : فذلك أمر لا سبيل الى الشك فيه . وكانت قد لوحظت عليه فى الآونة الأخيرة أمور شاذة كثيرة فى الواقع ؛ من ذلك أنه رمى من بيته أيقونتين تملكهما صاحبة الدار ، حتى لقد هشَّم احداهما بفأس . ومن ذلك أنه رتَّب على بعض المناضد مؤلفات فوجت ومولشوف وبوشنر*، فكان فى كل مساء يوقد شموعاً أمام هذه الأنواع من مناضد الكنائس التى توضـع عليها كتب الصـلوات . ولا بد أنه كان رجلاً مثقفاً اذا قضينا فى ذلك برأى على أسـاس عدد الـكتب التى وُجدت عنده . ولو ملك خمسين ألف فرنك اذن لربما أبحر مسافراً الى جزر ماركيز ، كما فعل ذلك الفتى الذي يحدثنا عنه هرتسن فى أحد كتبه بكثير من الفكاهة* . وحين اعتقل عُثر فى جيوبه وفى مسكنه على منشورات تدعو الى التمرد والعصيان والثورة .

الحق أن هذه المنشورات ليس لها في ذاتها شأن ، وهي في رأيي لا تستحق أن نتوقف عندها وأن نتلبث عليها . فما أكثر ما رأينا من منشورات تشبهها ! ثم ان المنشورات لم تكن جديدة . فهي نفسها ، كما علمنا فيما بعد ، كانت قد انتشرت في اقليم س ... في الآونة الأخيرة . وقد أكد ليبوتين الذي كان قد سافر الى الاقليم المجاور قبل ذلك بستة أسابيع ، أن هذه الوريقات يتناقلها الناس هنالك . غير أن ما فجأ آندره أنطونوفتش خاصةً هو أن مدير مصنع شبيجولين كان منذ برهة حمل الى الشرطة حزمتين أو ثلاث حزم من هذه المنشورات ، ضُبطت في المصنع وهي مماثلة مطلقة للمنشورات التي عُثر عليها عند الملازم الثاني . وكانت الحزم ما تزال مربوطةً لم تفضً ، وما من أحد من العمال كان قد اتسع وقته للاطلاع على هذه الوريقات . والأمر ليس خطيرا على وجه الاجمال. غير أن آندره أنطونيوفتش غرق في تأملات أليمة : لقد بدت له المسألة معقدة تعقيدا مزعجاً .

ذلك أن مصنع شبيجولين * كان منذ برهة قصيرة مسرحا لما أُسمي « فضيحة شبيجولين » التي أحدثت في اقليمنا ضجة كبيرة ، وأثارت صحف العاصمة جلبةً شديدة حولها كذلك . فمنذ ثلاثة أسابيع مات أحد عمال المصنع بالكوليرا ، ثم أعقبت وفاتَه عدةُ وفيات أخرى . فانتشر الرعب بين الناس لا سيما وأن الكوليرا قد ظهرت في الولايا تالمجاورة . يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن السلطات كانت قد سارعت الى اتخاذ الاجراءات الصحية اللازمة . ومع ذلك فان مصنع آل شبيجولين ، وهم أناس أغنياء لهم علاقات كبيرة ، لم يكن قد زاره أحد المفتشين . لهذا أسرع الناس في المدينة يصيحون أن المصنع موبوء ، وأن الأماكن التي يسكنها العمال خاصةً تسودها منذ سنين قذارة تبلغ من الشدة أن الكوليرا حتى اذا لم

تكن قد وفدت من الأقاليم المجاورة فمن الجائز جدا أن تكون قد انطلقت من تلقاء ذاتها من مصنع شبيجولين • وقد اتخذت السلطات طبعا الاجراءات اللازمة ، وأشرف آندره انطونوفتش بنفسه على تنفيذها فورا • ونُظِّف المصنع في غضون ثلاثة أسابيع • ولكن آل شبيجولين لم يلبثوا أن أغلقوه لا ندرى لماذا ! كان أحد الأخوين شبيجولين يعيش دائمـا ببطرسبرج ، وسافر الأخ الثانى الى موسكو فوراً صدور الامر بتنظيف المصنع وتطهيره• وقام مدير المصنع بدفع أجور العمال ، ولكنه بلغ من قلة الأمانة وكثرة الغش في سداد حقوقهم أن العمال أخذوا يدمدمون متذمرين ، مطالبين بأن يحاسَبوا حساباً أعدل • وقد ارتكبوا هذه الخرافة : وهى أنهم ذهبوا الى الشرطة متجمهرين ، دون صخب على كل حال ، لأنهم لم يكونوا فى حالة اهتياج • وفى تلك الآونة انما نقل المـــدير الى آندره أنطونوفتش المنشورات التى عُثر عليها فى المصنع •

دخل بطرس ستيفانوفتش الى حجرة عمل الحاكم دون استئذان ، بصفته صديقا للمنزل ، ولأن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد حمَّلته عدا ذلك رسالةً الى زوجها • فلما رأى فون لمبكه صاحبنا الشاب قطَّب حاجبيـــه ووقف أمام مكتبه عابس الوجه • انه حتى تلك اللحظـــة لم يزد على أن يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، متناقشا مع سكرتيره فون بلومر وهـــو ألمانى أخرق متجهم ، كان فون لمبكه قد أتى به من بطرسبرج رغم ما أبدته جوليا ميخائيلوفنا من معارضة شديدة •

ـ آ•••هأنا أقع عليك مع ذلك ، يارئيس المدينة الذى لا يراه أحد•

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش ضاحكا ، وهو يضـــع يده على منشور مبسوط فوق المائدة • وأضاف يقول :

ـ هذا سيثرى المجموعة التى تملكها ، هه ؟

احمر آندره أنطونوفتش ، وتقلص وجهه فجأة ، وصاح يقــول وهو يرتجف غضبا :

ـ اترك ! اترك هذا كله فورا ، ولا تحسبنْ ياسيد ...

ـ ماذا دهاك ؟ أرى أنك غاضب ، هه ؟

ـ اسمح لى أن ألفت نظرك ، يا سيد ، اننى بعد الآن لن أتسامح بتاتا فى هذا الذى تبيحه لنفسك من « رفع الكلفة » (بالفرنسية) ، وأرجوك أن تتذكر ...

ـ ياسلام ! انه يتكلم جاداً !

ـ اسكت ، اسكت ! ولا تحسبنْ ...

كذلك صرخ فون لمبكه وهو يقرع الارض بقدمه .

لا يدرى الا الله الى أين كان يمكن أن يمضى هذا ! من المؤسف أن هناك ، عدا كل ما مرّ ذكره ، أمراً كان بطرس ستيفانوفتش يجهــله كل الجهل ، وكانت تجهله حتى جوليا ميخائيلوفنا . كان آندره أنطونوفتش المسكين قد بلغ من الاضطراب والبلبلة أنه فى الآونة الأخيرة قد تسرَّب الى نفسه ، خفيةً ، شىء من الغيرة على امرأته من بطرس ستيفانوفتش . فكان فى وحدته ، ولا سيما ليلاً ، يقضى ساعات شاقة الى أبعد الحدود .

قال بطرس ستيفانوفتش بشىء من الوقار والرصانة :

ـ ما كان أغبانى حين ظننت أن رجلاً يقرأ لى روايته فى خلوة ، خلال يومين متتاليين ، الى ما بعد منتصف الليل ، ويسألنى رأيى ، انمــا يكون قد تنازل عن « الرسميات » معى ! ... ثم ان جوليا ميخــائيلوفنا تستقبلنى كما يُستقبل صديق حميم ... فكيف تريد منى أن لا أحتار ؟

ثم أضاف يقول وهو يضع على المائدة دفتراً كبيرا ثقيلا ملفوفا على شكل اسطوانة ، ومغلفا تغليفا كاملاً بورق أزرق :

ـ بالمناسبة ، اليك روايتك ...

احمر وجه فون لمبكه . وسأله متدأ ، بفيض من فرح كان عاجزا عن كظمه ولكنه حاول كظمه بكل ما أوتى من قوة :

ـ أين وجدته ؟

ـ تصور !... وجدته ملفوفاً كما هو وقد انزلق وراء منضدة . لا بد أننى حين وصلت الى البيت قد ألقيته على المنضدة بحركة خرقاء . ولم نجده الا أمس الأول ، أثناء غسل أرض الغرفة . وما أكثر ما شُغلت به ...

خفض فون لمبكه عينيه قاسى الهيئة . وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه فقال :

ـ لم يغمض لى جفن خلال ليلتين بسببك . لقد عثروا عليه أمس الأول ، لكننى لم أجئك به ، وذلك لأتمكن من قراءته كله . واذ اننى مشغول فى النهار ، فقد كنت أقرأ ليلاً . فهل تريد أن تعرف رأيى ؟ اننى غير راض عن الفكرة . على أن ذلك لا يهمنى ، فأنا لم أكن ناقداً فى يوم من الأيام . المهم اننى لم أستطع انتزاع نفسى من الكتاب ، رغم استيائى منه ! ... الفصل الرابع والفصل الخامس هما .. هما .. هما ... لا أدرى بماذا أصفهما ! شىء مدهش ... وما أكثر ما دسست فيهما من روح الفكاهة والسخرية ... لقد ضحكت ضحكاً مجلجلا . ما أبرعك فى التهكم ، « دون أن يظهر ذلك » (بالفرنسية) !... أما الفصل التاسع والفصل العاشر ، فليس فيهما الا غرام ... وهذا لا شأن لى به ... غير

أن الكتابة مؤثرة ... فرسالة اجرنيف كادت تبكيني ، رغم أنها صغتها بأسلوب مرهف غاية الرهافة !.. مؤثرة ... مؤثرة حقاً ! وكأنك مع ذلك قد أردت أن تظهرها بمظهر الزيف ، أليس كذلك ؟ أحزرت أم لا ؟ أما عن النهاية فلا أملك الا أن أقول انك تستحق عليها أن أضربك. فما الذي تنادي به وتدعو اليه في الواقع ؟ انها لا تزيد على أن تكون ذلك التمجيد القديم للسعادة العائلية ، وكثرة العيال ، وسعة الرزق . انهم يعيشون سعداء ويجمعون أموالاً . سوف تسحر القارىء بهذا الكلام ، فأنا نفسي أستطع أن أبرأ من التأثر به ، ولم أستطع أن أنتزع نفسي من قراءته ، فكيف بغيري !... ذلك خطير ! ان القراء بسطاء أغبياء . وعلى الأذكياء أن يخرجوهم من حذرهم ... أما أنت ... ولكن دعنا من هذا الموضوع الآن . الى اللقاء . أكرر قولي : لا تغضب . لقد جئت لأقول لك كلمتين قد تهمانك ، ولكنك الآن مهتاج حانق ...

كان آندره أنطونوفتش ، في أثناء ذلك ، قد أخذ روايته ، ووضعها في مكتبة من خشب السنديان أحكم اغلاقها بالمفتاح ، وأشار لسكرتيره بلومر أن يخرج . فترك بلومر الغرفة حزين الهيئة مستطيل الوجه .

قال فون لمبكه مدمدماً مظلم الوجه :

ـ لست حانقاً. غير أن هناك مزعجات تنصب عليّ من كل جهة ..

ولكن غضبه كان قد هبط .

وجلس أمام مكتبه . وأضاف يقول :

ـ اجلس ، وقل لي ما تريد أن تقوله لي . انني لم أرك منذ مدة طويلة يا بطرس ستيفانوفتش . ولكن يجب عليك بعد الآن أن لا تدخل

الى هنا بهذه الطريقة ... تقتحم الغرفة اقتحاماً وتدخلها كهبوب الريح.
حين يكون المرء بسبيل القيام بعمل من الأعمال ، فانه أحياناً ...

ـ هذه آدابى لم تتغير ، وليس لى آداب غيرها ...

ـ أعرف . وأنا على يقين من أنك لا تفعل هذا بسوء نية ، ولكن حين يكون للمرء هموم كثيرة ... اجلس ، اجلس .

تهالك بطرس ستيفانوفتش على الديوان ، وتربَّع فوراً .

٣

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يومىء الى المنشور بحركة من رأسه :

ـ ما تلك الهموم ؟ ألعلها هذه السفاسف ؟ انني قادر على أن أحمل اليك من هذه الوريقات ما شئت . وقد اطلعت عليها أيضاً في اقليم س...

ـ أي أثناء اقامتك في ذلك الاقليم ؟

ـ طبعا . أأطلع عليها اذن أثناء غيابي ؟ هناك منشور رُسمت في أعلاه كرمة وفأس . اسمع لي (وتناول المنشور) . نعم ، توجد هنا فأس أيضاً . هو ذلك المنشور نفسه ، تماماً .

ـ فماذا ؟ لماذا الفأس تخيفك ؟

ـ ليست هي الفأس . ولست خائفاً . ولكن هذه القضية ... ان لهذه القضية شأناً ... هناك ظروف ...

ـ ما هي تلك الظروف ؟ ألأن المناشير قد جيء بها من المصنع ؟ هيء هيء !... ولكن هل تعلم أن العمال في هذا المصنع لن يلبثوا أن يكتبوا بأنفسهم منشورات ؟

سأله فون لمبكه وهو يلقي عليه نظرة قاسية :

ـ كيف هذا ؟

ـ هكذا ! ما عليك الا أن تراقبهم . انك مسرف في اللين يا آندره أنطونوفتش. أنت تكتب روايات ، بينما يوجب الأمر أن تعمد الى الطريقة القديمة .

ـ ما هي الطريقة القديمة ؟ ما هذه النصائح ؟ لقد نظفنا المصنع . أمرت بتنظيف المصنع فتمّ تنظيفه .

ـ والعمال يتحركون ويعصون • يجب جلدهم بالسوط فينتهى كل شيء •

ـ يتحركون ويعصون ؟ مستحيل : لقد أمرت بتنظيف المصنع فتمّ تنظيفه وتطهيره •

ـ هيه يا آندره أنطونوفتش • انك رجل ليّن !

قال فون لمبكه حانقاً من جديد :

ـ أولاً لست باللين الى الحد الذى تتصور ، وثانياً •••

كان فون لمبكه يتحدث الى الشاب في عناء ، مستطلعاً ، لعل الشاب أن يقول له شيئاً جديداً •

قاطعه بطرس ستيفانوفتش وهو يصوّب نظره الى ورقة أخرى تحت كباسة الورق ، وهى نوع من منشور أيضاً ، كان من الواضح أنه طُبع فى الخارج ، لكنه صيغ شعراً لا نثراً •

ـ ها ••• هذا منشور آخر مما سبق لى أن اطلعت عليه بل حفظته على ظهر القلب : « بطل يثير الحمية » * • أرنى قليلاً • أليس هو ذلك المنشور نفسه « بطل يثير الحمية » ؟ اننى أعرف هذا المنشور مذ كنت فى الخارج • أين عثرت عليه ؟

سأله فون لمبكه مصيخاً بسمعه :

ـ تقول انك اطلعت عليه فى الخارج ؟

ـ طبعاً • منذ أربعة أشهر بل خمسة •

قال فون لمبكه وهو ينظر اليه نظرة مرهفة :

ـ ما أكثر الأشياء التى رأيتها فى الخارج !

لم يُصغ بطرس ستيفانوفتش الى كلام فون لمبكه ، بل فضَّ الورقة وأخذ ينشد هذه الأبيات بصوت عال :

لم يكن نبيلا ولا غنيا
بل كان ابنا من ابناء الشعب
طارده انتقام القيصر
واضطهاد اعوانه
لم يخش أن يتعرض للسجن والموت ،
ومضى ينادي في الشعب :
حرية ، مساواة ، أخوة .

بذلك هيأ الثورة
ثم فر الى الخارج
مفلتا من زنزانات القيصر
هاربا من سياط الجلاد
واستعد الشعب للثورة
لتحطيم القيد القاتل
من سمولنسك الى طشقند
وأخذ ينتظر عودة الطالب ، نابضا بالحماسة .

انتظره نافد الصبر
ليمضي بعد ذلك بغير تردد
يحطم أعوان السلطان
ويدمر الامبراطورية الروسية كلها
فيجعل الرزق مشاعا
ويلغي الى الأبد
الكنائس والزواج
وسائر هذه الشرور المعطلة .

سأل بطرس ستيفانوفتش :

ـ لا شك أنهم وقعوا على هذا عند الضابط ، هه ؟

ـ غريب ! أتعرف أيضاً ذلك الضابط ؟

ـ أظن . لقد قصفنا ولهونا معاً خلال يومين . كان نصف مجنون منذ ذلك الحين .

ـ من يدري ؟ قد لا يكون مجنوناً البتة !

ـ أتقول هذا لأنه يعضُّ الناس ؟

ـ ولكن اسمح لى : اذا كنت قد رأيت أبيات الشعر هذه فى الخارج، ثم اذا بنا نكتشفها هنا عند ذلك الضابط ...

ـ ماذا ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ أهذا استجواب يا آندره انطونوفتش ؟

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه قائلاً بلهجة وفورة على فجأة :

ـ اسمع يا آندره أنطونوفتش : اننى منذ عودتى من الخارج قد قدّمت ايضاحاتى الى من يجب تقديمها اليه ؛ وقد عُدّت تلك الايضاحات كافية بطبيعة الحال ، ما دامت هذه المدينة قد سعدت بأن تعدّنى بين سكانها . فأنا أرى اذن أن تلك الفترة من حياتى قد ختمت ، وأن أحداً لا يملك أن يحاسبنى بعد اليوم . واذا كنت قد أنهيت ذلك كله ، فلأننى لم يكن فى وسعى أن أفعل غير ذلك . ولكننى لست خائناً . ان الذين زوّدنى برسائل تزكية الى جوليا ميخائيلوفنا يعرفون ماضىَّ . وقد شهدوا لى بأننى رجل شريف . على كل حال ، فليذهب هذا كله الى الشيطان ! فأنا انما جئت لأحدثك فى أمرٍ هام ، ولقد أحسنتَ صنعاً اذ صرفت صاحبك بلومر . هو أمر على جانب كبير من الخطورة عندى يا آندره أنطونوفتش : لى مطلب عندك ، ورجاء لديك .

ـ مطلب عندى ، ورجاء الىَّ ؟ تكلم . اننى أصغى اليك ، بل ثق أننى أصغى اليك باهتمام . وعلى وجه العموم ، يجب أن أقول لك يا بطرس ستيفانوفتش انك تدهشنى كثيراً .

ظهر على فون لمبكه شيء من الانفعال . واعتدل بطرس ستيفانوفتش في جلسته ، منزلاً ساقيه من تحته ، وبدأ يتكلم فقال :

ـ في بطرسبرج تكلمت بصراحة عن أشـــياء كثيرة . لكنني كتمت بعض الأمور . ومن الأمور التي كتمتهـا هذه القصـــيدة (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى قصيدة « البطل ») . كتمت أمر هذه القصيدة أولاً لأنها لا تستحق الاهتمام بها والكلام عليها ، وثانيـاً لأنني اكتفيت بالاجابة عن الأسئلة التي أُلقيت عليَّ . انني أكره فرط اظهار التحمس في مثل هذه الحالة : وذلك هو في رأيي الفرق بين الخائن وبين الانسان الشريف الذي تجبره الظروف . على كل حال ، دعنا من هذا ... المهم أنني الآن ... الآن وقد افتضح أمر هؤلاء الأغبياء ، وأصبح كل شيء واضحاً ، وصاروا بين يديك ، وبتُّ أرى أنه لا يمكن اخفاء أمر من الأمور عنك ـ لأنك رجل ذكي نافذ البصـــيرة رغم ما يبدو عليك من ذهـــول ـ وما داموا مستترين في .. فانني .. فانني .. الخلاصـــة ... انني جئت لأتوسل اليك أن تنقذ واحداً منهم ... غبياً مثلهم ... وربما كان مجنوناً .. أن تنقذه رحمةً بشبابه الغض ، ورأفةً بما لقي من صنوف الشقاء ، واستلهاماً لأفكارك الانســـانية ... انني آمل أن لا تكون انســـانياً في رواياتك فحسب ...

بهذه الجملة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه بلهجة أصبحت ساخرة على حين فجأة ، وكأنه يتعجل الانتهاء من حديثه لفرط نفاد صبره .

كانت هيئته هيئة انسان صادق لكنه أخرق محروم من الحس العملي، انسان طيب مسرف في الطيبة ، مرهف مسرف في الرهافة ، انسان يمكن أن يوصف خاصةً بأنه غير ذكي ، كما أسرع فون لمبكه يقول لنفسه ذلك بما عُهد فيه من نفاذ البصر وسداد الرأي ، وكما سبق له أن قدَّر هذا

منذ مدة طويلة ولا سيما فى الأسبوع الأخير، حين خلا الى نفسه فى الليل فأخذ يكيل للشاب أنواع الشتائم متحيراً من ذلك النجاح الذى أصابه الشاب مع زوجته جوليا ميخائيلوفنا .

سأله بفخامة وهو يحاول اخفاء استطلاعه :

ـ من الذى تتشفع له ، وما معنى هذا كله ؟

ـ هو ... هو ... أوه !.. أهى خطيئتى اذا كنت أثق بك ؟ أهى خطيئتى اذا كنت أعدك انساناً نبيلاً أكمل النبل ، واذا كنت أعدُّك على وجه الخصوص ذكياً ... قادراً ... قادراً على أن .. تفهم ! أوه !.

كان واضحاً أن الشاب المسكين مرتبك لا يعرف كيف يخرج من المأزق الذى تورّط فيه !

ـ انى اذا سميته لك فقد فضحته وخنته ، أليس كذلك ؟ هه ؟

ـ ولكن كيف يمكننى أن أعرفه اذا لم تذكر لى اسمه ؟

ـ صحيح ، صحيح . انك بمنطقك تفحم كل مجادل ، وترد دائماً على كل سؤال . هوه ! طيب ... ان ذلك « البطل » ، ذلك « الطالب » ، هو شاتوف . ها قد عرفت الآن كل شىء !

ـ شاتوف ؟ ماذا تقصد ؟

ـ ان الطالب الذى جاءت القصيدة على ذكره هو شاتوف . انه يقيم هنا . انه قن قديم . هو ذلك الذى صفع ستافروجين .

قال لمبكه :

ـ أعرف ، أعرف . ولكن اسمح لى : ما تهمته ، وما هو رجاؤك بشانه ؟

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول خارجاً عن طوره :

ـ أريد انقاذه ، ألا تفهم ؟ انني أعرفه منذ ثماني سنين .. ولعلني كنت صديقه !

وأضاف يقول :

ـ ليس عليّ أن أقدم اليك تقريرا عن حياتي الماضية . كل ذلك لا قيمة له ، ولا شأن له ولا خطر له . كانوا ثلاثة لا أكثر . واذا حسبت شركاءهم في الخارج لم يتجاوز عددهم العشرة . ليس الامر هذا . وانما المهم أنني أثق بعواطفك الطيبة ، وأثق بذكائك المتوقد . فافهم الموقف كما هو ، وانقله الى من ينبغي نقله اليه على حقيقته ، ولا تخلق منه قصة ضخمة ، ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلم فتى فاقد صوابه ... فتى شقي لاحقه سوء الحظ ، وحالفه الشقاء . ليست القضية قضية مؤامرة على أمن الدولة ! ...

كان بطرس ستيفانوفتش كمن يختنق .

قال فون لمبكه بلهجة يكاد يكون فيها فخامة وجلال :

ـ همْ ... أرى أن له علاقة بقضية المنشورات التحريضية ! ولكن اسمح لي : لو كان يعمل وحيدا لما استطاع أن ينشرها هنا ، وفي الضواحي وحتى في اقليم س ... ! ... ثم ، وهذا هو الأمر الأساسي ، من أين أخذ هذه المنشورات ؟

ـ لكنني قلت لك ان عددهم لا يتجاوز خمسة أفراد أو ستة ، أو عشرة في أكثر تقدير ... أين لي أن أعرف ؟ ...

ـ أحقا لا تعرف ؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف ؟

ـ أنت تعرف مع ذلك أن شاتوف واحد من أفراد العصابة .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يُجرى بيده حركة تعبّر عن نفاد الصبر كأنه يحاول الافلات مما يتصف به محدثه من براعة وذكاء :

ـ هوه ! طيب ... اسمع ... سأقول لك الحقيقة كلها . اننى لا أعرف شيئاً عن المناشير التحريضية ، لا أعرف شيئاً البتة ... شيطان يأخذنى ... هل تفهم معنى هذه الجملة : لا أعرف شيئاً البتة ؟ طبعا ... هناك ذلك الملازم الثانى ، وربما كان هناك شخص آخر ... ثم شخص ثالث هنا ... وهناك أخيراً شاتوف ، ربما ... وذلك كله غبار ... ذلك كله عدم ... لكننى جئت متشفعاً لشاتوف . يجب انقاذه . لأن تلك الأشعار هو التى نظمها ، وبعنايته انما طُبعت فى الخارج . ذلك ما أنا موقن منه واثق به . أما المنشورات التحريضية ، فاننى أجهل كل شىء عنها .

ـ اذا كانت الأشعار له ، فالمنشورات له أيضا . ولكن ما هى الاسباب التى تدعوك الى الاشتباه فى السيد شاتوف ؟

ما ان سمع بطرس ستيفانوفتش هذا السؤال حتى ظهر عليه مايظهر على المرء من فقدان الصبر فقدانا كاملاً ، ثم اذا هو يخرج محفظة أوراقه من جيبه ، ويخرج من المحفظة ورقة مكتوبة ، ويصرخ قائلاً وهو يرمى الورقة على المائدة :

ـ اليك الأسباب !

فضّ فون لمبكه الورقة المكتوبة منذ ستة أشهر ، والمرسلة الى الخارج ، فلم تكن تضم الا سطرين :

« لا أستطيع أن أطبع هنا لا قصيدة « البطل » ولا أى شىء آخر . فاطبعوا فى الخارج . » .

رفع فون لمبكه عينيه الى بطرس ستيفانوفتش وحدّق اليه بنظـــرة ثابتة . صدقت فرفارا بتروفنا : ان آندره أنطونوفتش له في بعض الأحيان نظرة كنظرة خروف .

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال :

ـ سأشرح لك . لقد نظم هذه الأبيات هنا منذ ستة أشهر ، ولكنه لم يستطع أن يطبعها سراً . فأرسل يطلب طبعها في الخارج . هذا واضح فيما أظن ، هه ؟

ـ كل الوضوح . ولكن الى من كتب رسالته القصيرة هذه ؟ ذلك ما ليس بواضح بعد .

كذلك سأل فون لمبكه بملاحظة مرهفة . فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ الى كيريلوف طبعا . الرسالة بُعثت الى كيريلوف ، في الخارج . ألم تكن تعلم ذلك ؟ المزعج في حقيقة الأمر أنك تعبث بي الآن عبثاً . فأنت مطلع على هذه القصيدة منذ مدة ، وأنت عارف اذن بسائر الأمور الأخرى . ماذا جاء بها هنا الى مكتبك ؟ لقد استطعت اذن أن تضع يدك عليها . فاذا كان الامر كذلك ، فلماذا تعذبني هذا التعذيب ؟

قال ذلك وجعل يجفف بمنديله عرق جبينه بحركة عصبية .

فقال له فون لمبكه موافقا ، متحاشيا أن يجيب عن السؤال الذي ألقاه عليه بطرس ستيفانوفتش :

ـ فعلا ... أعرف بعض الاشياء ... ولكن من هو كيريلوف هذا ؟

ـ هو ذلك المهندس الذي وصل الى هنا في الآونة الأخيرة ، وكان شاهد ستافروجين في المبارزة . شخص مهووس ، مجنون ! لعل صاحبك الملازم الثاني انما أصابته نوبة حمى حارة لا أكثر ، أما الآخر ، كيريلوف،

فهو مجنون حقا ، مجنون تماما • ذلك أمر أضمنه لك • آه يا آندره أنطونوفتش ، لو عرفت الحكومة ما هؤلاء الناس فى الواقع لما رفعت يدها عليهم • انهم جميعا مؤهبون لدخول دار المجانين • لقد استطعت ، فى سويسرا ، أثناء انعقاد مؤتمرهم أن ألاحظهم على مهل •

ـ هل هناك يختبىء قادة الحركة ؟

ـ قادة الحركة ؟ ثلاثة أشخاص فى أكثر تقدير • منظر يهلك المرء منه ضجراً وسأماً • وما هذه الحركة ؟ وما تلك المناشير التحريضية ؟ ومن الشركاء ؟ لنتكلم عنهم ! ملازمون أولون ، وطلاب ! اننى أسألك وأنت رجل ذكى : كيف لم يستطيعوا أن يضموا ولو شخصية هامة واحدة ؟ لماذا يضطرون دائما الى الاكتفاء بطلاب وفتيان فى العشرين من أعمارهم ؟ ثم هل هم كثيرون ؟ لقد أرسلوا فى ملاحقتهم ألوف الكلاب ، فما عدد الذين تم اكتشافهم ؟ سبعة أشخاص فقط ! قلت لك : منظر يهلك الانسان منه ضجراً وسأماً !

كان لمبكه يصغى اليه بانتباه • ولكن هيئته كانت كأنها تقول : « لا يمكنك أن تغذى بلبلاً بأقاصيص » * •

قال آندره أنطونوفتش :

ـ اسمح لى : انك تزعم ان الرسالة قد بُعثت الى الخارج • ولكننى أرى أنها لا تحمل أى اسم • فكيف أمكنك أن تعرف أنها أُرسلت الى كيريلوف فى الخارج ، و ••• و ••• أن شاتوف هو كاتبها فعلاً ؟

ـ الأمر سهل • احصل على بضعة أسطر من شاتوف ، وقارن بين ذلك الخط وخط هذه الرسالة • لا بد أن مكاتبك تضم توقيع شاتوف فى ذيل ورقة ما • أما سؤالك عن كيريلوف ، فان كيريلوف هو الذى أطلعنى على الرسالة بنفسه •

ـ واذن فأنت نفسك ...

ـ نعم ، أنا نفسي ، أنا نفسي ... كنت أطلع على أشـياء كثيرة في الخارج . أما تلك الأشعار ، فيظهر أن المرحوم هرتسن* هو الذى نظمها لشاتوف ، بينما كان شاتوف يطوف في الخارج ؛ نظمها ذكرى للقائهما ، أو تكريما لشاتوف ، أو نوعا من التزكية له والتوصية به ... أين لى أن أعرف ! ... على كل حال ، فان شاتوف هو الذى نشرها في الناس كأنما ليقول : « انظروا الى رأى هرتسن فيّ » .

قال لمبكه وقد تخيَّل أخيرا أنه أخذ يرى الامر رؤية واضحة :

ـ هاه ! قلت لنفسي : المناشير ، يفهم المرء أمرها ... ولكن هـذه الأشعار ، ما معناها ؟

ـ كيف يمكن أن لا تدرك هذا ؟ لا أدرى لماذا ثرثرت هذه الثرثرة كلها . اسمع . اترك لى شاتوف ، وليأخذ الشيطان سائر الآخرين ، ومنهم كيريلوف الذى يختبىء عند فيليبوف حيث يختفى شاتوف أيضا . انهـم غاضبون عليّ ، لأننى رجعت ... ولكن اترك لى شاتوف ، وسأقدمهـم اليك جميعا على طبق واحـد . ان في وسـعى أن أفيـدك يا آندره أنطونوفتش . رأيى أن عصبتهم التعيسة الصغيرة لا يزيد عددها على تسعة أفراد أو عشرة . اننى أطاردهم لمصلحتى الشخصية . نحن نعرف منهم حتى الآن ثلاثة : شاتوف ، وكيريلوف ، وذلك الملازم الثانى . أما الباقون فاننى « أفحصهم » من قرب . ولست حسير البصر تماما . الامر كما في اقليم س ... لقد قبضوا هنالك أثناء توزيع المناشير على طالبين ، وتلميـذ في مدرسة ثانوية ، وولدين لأسرة من الأسر ، ومعلم مدرسة ، وميجر محال على التقاعد كان الادمان على السكر قد أصابه بخبال في عقله . ذلك كل شيء . صدِّقنى . حتى لقد دُهشوا هنالك كثيرا . ولكننى أحتاج الى

ستة أيام . لقد أجريت حساباتي ، فانتهيت الى انني محتاج الى ستة أيام ، لا تقل يوما واحدا . فاذا أردت أن تحصل على نتيجة فلا تمسسهم قبل ستة أيام ، ولسوف أُسلمك اياهم في كيس واحد . أما اذا تدخلت قبل ذلك ، طارت العصافير فوجدت العش خاليا . ولكن اترك لي شاتوف . أنا أدافع عن شاتوف . ولعل الأفضل أن يُستدعى الى هنا سراً فيُستقبل في هذه الحجرة كما يُستقبل صديق ، ويستجوب ببراعة وحذق ، فترفع أمام عينيه جميع الحجب ، فاذا هو يهوى على قدميك باكياً . أنا من هذا على يقين . انه رجل عصبي ، بائس . امرأته تلهو مع ستافروجين . استقبله استقبالا حسنا ، أكرم وفادته ، فيكشف لك عن كل شيء . ولكن يجب عليك أن تنتظر ستة أيام . واياك خاصةً أن تقول كلمة واحدة لجوليا ميخائيلوفنا . التزم الكتمان الكامل . احفظ السر حفظاً تاماً . هل تستطيع أن تكتم سراً ؟

ـ ماذا ؟ ألم تقل أنت شيئا لجوليا ميخائيلوفنا ؟

كذلك صاح لمبكه متعجبا محملقا . فأجابه بطرس ستيفانوفتش :

ـ لها هي ؟ وقاني الله شرَّ هذا ! آه يا آندره أنطونوفتش ! انني أحرص كثيرا على صداقتها وأضمر لها احتراما عظيما ... وما شئت... ولكنني سأعرف دائما كيف أصون نفسي من ارتكاب هذه الغلطة . انني لا أعارضها ، وأنت نفسك تعلم أن معارضتها خطر كبير . لعلني قد دسست في حديثي لها اشارةً ما ، لأنها تحب ذلك كثيرا . أما أن أسمّي لها أشخاصا بأعينهم ، كما أفعل معك أنت ، أو أن أنقاد لشيء من هذا القبيل ، فاللهم لا ! ... لماذا اتجه اليك أنت الآن ؟ لأنك رجل رغم كل شيء ، رجل جاد يملك خبرة واسعة أكسبته اياها المهنة . انك قد رأيت في حياتك كثيرا ! وأحسب أنك في هذه الأنواع من الأمور تستطيع أن

تتنبأ بكل خطوة من خطواتك على غرار الأمثلة التى وقعت تحت بصرك في بطرسبرج . أما اذا ذكرت هذين الاسمين لها هى ، أسرعت تذيعهما في كل مكان قبل كل شيء ! ذلك أنها من هنا انما تريد أن تثير دهشة بطرسبرج . لا ، لا ، انها مسرفة فى الانقياد لحرارة الحماسة !

دمدم آندره أنطونوفتش يقول بشيء من الرضى ، على استيائه من أن يتجرأ هذا الشاب الطائش فيقول مثل هذا الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا:

ــ نعم ، انها تتصف بشيء من هذا الاندفاع العارم ...

ولكن لعل بطرس ستيفانوفتش قد أحسّ أنه لم يقل ما فيه الكفاية فأراد أن يزيد فى تملق لمبكه ليستولى عليه استيلاء أكمل ، فقال :

ــ نعم ، تماما ، انها تتصف بكثير من هذا الاندفاع العارم . قد تكون امرأة عبقرية ، وامرأة مثقفة ، لكنها اذا تدخلت فى الامر أطارت العصافير من عشها . لن تستطيع أن تصمد لاغراء الكلام ستة أيام ولا ست ساعات . آ ... يا آندره أنطونوفتش ، لا تفرض على امرأة من النساء أن تنتظر ستة أيام . آمل أن تعترف بأن لى شيئاً من الخبرة ، فى مثل هذه الأمور على الأقل . اننى أعرف بعض الاشياء ، وأنت لا تجهل أننى قادر على أن أعرف بعض الأشياء . واذا كنت استمهلك ستة أيام ، فليس ذلك نزوة منى ، بل اجراء يقتضيه الموقف وتوجبه الظروف .

بدأ فون لمبكه يتكلم فقال بغير تردد :

ــ سمعت أنك حين عدت من الخارج قد أعربت لمن يجب أن تعرب له عن ذلك ، أقول أعربت له عن ... ندمك وتوبتك ان صح التعبير .

ــ ما شأن التصريحات التى أدليت بها حينذاك ؟

ــ أنا لا أحب التدخل طبعا . ولكن كان يبدو لى دائما أنك تتكلم

هنا بلهجة أخرى مختلفة كل الاختلاف ، عن الدين مثلاً ، وعن المؤسسات الاجتماعية ، وعن الحكومة أخيرا ...

ـ أي ضير في هذا ؟ انني ما زلت أفكر هذا التفكير نفسه . غير أن هذه الآراء يجب تطبيقها على غير النحو الذي يتصوره أصحابنا الأغبياء هؤلاء . تلك هي المسألة كلها . ما قيمة أن أعض رجلاً رجلاً في كتفه ؟ أنت نفسك قد وافقتني على آرائي ، ولكنك قلت ان الأوان لم يجيء بعد .

ـ كان الموضوع عندئذ غير هذا تماما .

قال بطرس ستيفانوفتش ضاحكا :

ـ هيء هيء ! ... أرى أنك رجل حذر متروٍ يزن كل كلمة من كلماته . اسمع يا عزيزي . لقد كان عليَّ أن أعرفك معرفة أدق وأكمل، ومن أجل ذلك كنت أكلمك بتلك اللهجة . ولستُ الانسان الوحيد الذي تعلمت كيف أعرفه بهذه الطريقة . لعلني أردت أن أعرف طبعك !

ـ ما حاجتك الى معرفة طبعي ؟

ـ أين لي أن أعرف !! ...

وعاد بطرس ستيفانوفتش يضحك . واستطرد يقول :

ـ اسمع يا عزيزي المحترم جدا آندره أنطونوفتش . انك رجل ماكر ، ولكن ليس هذا موضوع اهتمامي بعد ، وقد لا أصل اليه يوما . هل تفهم ؟ لعلك قد فهمت عني ! صحيح أنني حين عدت الى بطرسبرج قد قدمت معلومات وايضاحات الى الجهة التي يجب أن تُقدَّم اليها تلك المعلومات والايضاحات. ولست أدري حقا لماذا لا يجوز لانسان له اقتناعات صادقة أن يفعل ما فعلت ، خدمةً لاقتناعاته هذه . ومع ذلك فما من أحد « هناك » قد كلفني بأن أدرس طبعك ؛ وأنا على وجه العموم لم أكلف

نفسي حتى الآن بمهام من هذا النوع . انظر في الأمر بنفسك : ان هذين الاسمين اللذين كشفت لك عنهما ، كان في وسعي أن لا أذكرهما لك أنت أولاً ، وانما أبعث بهما الى « هناك » رأساً ، أي الى الجهة التي قدمت اليها المعلومات والايضاحات الأولى . ولو كنت أسعى الى نيل مكافأة أو جنى نفع مادي لعمدت الى ذلك حتما ، أما الآن فان بطرسبرج ستوجه شكرها وامتنانها اليك أنت . ولكنني انما أتدخل من أجل شاتوف (كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بنبل) ، من أجل وحده ، وفاءً لذكرى صداقتنا القديمة ... على أنك اذا أمسكت بالقلم لتكتب الى « هناك » فلك أن تكيل لى المديح ان شئت ، فلا اعتراض لى على هذا . هيء هيء ! ... استودعك الله ! لقد استهلكت من وقتك مدة طويلة . ما كان ينبغي لى أن أثرثر هذه الثرثرة كلها ...

بذلك ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه وهو يبتسم ابتسامة رضى ، وينهض عن الكنبة . فأجابه فون لمبكه بمودة ، ناهضا هو أيضا :

ـ بالعكس . لقد سرني كثيرا أن الأمور اتضحت .

كان واضحا أن الكلمات الاخيرة التى قالها محدثه قد أحدثت فى نفسه أثرا حسناً . وأردف يقول :

ـ اننى أقبل خدماتك شاكرا ممتنا . وثق أن كل ما يقع على عاتقى من اشارة الى همتك ونشاطك وحماستك سوف ...

ـ ستة أيام فقط . أمهلنى ستة أيام . وحذار أن تتحرك فى أثناء هذه المدة . ذلك كل ما يجب .

ـ حسن جدا .

ـ اننى لا أكبّل يديك طبعا ، وما كان لى أن أسمح لنفسي بهذا .

انك لا تستطيع العدول عن القيام بما تقوم به من بحث وتقص . ولكن كل ما أطلبه منك هو أن لا تروِّعهم قبل الموعد المناسب . انني أعتمد في هذا على ذكائك وخبرتك . آه ... لا بد أن عندك كلاباً من كل نوع ! هيء هيء ! ...

هكذا أنهى بطرس ستيفانوفتش كلامه بمرح ظاهر ولهجة هي لهجة شاب قليل المبالاة . فأجابه فون لمبكه متحفظاً ولكن على لطف ومودة :

ـ ليس الأمر كذلك تماما . ان للشبيبة آراء مغالية في هذا الموضوع ... ولكن بالمناسبة ، هناك أمر آخر : اذا كان ستافروجين قد استعان بكيريلوف شاهداً في المبارزة ، فمعنى ذلك أن ستافروجين ، هو أيضا ...

ـ ماذا ؟

ـ مادامـا صديقين حميمين ؟

ـ أوه ! لا ، لا ، لا ! هنا ترتكب خطأً جسيما ، رغم كل ما تتصف به من حذق ومكر ؛ بل انك لتدهشني . كنت أظن أنك مطلع على مايتعلق بهذا الامر ... همْ ... ان ستافروجين هو النقيض ، تماما . « تنبيه للقارىء » (بالفرنسية) .

قال لمبكه غيرَ مصدِّق :

ـ أهذا ممكن ؟ أهذا ممكن ؟ لقد قالت لي جوليا ميخائيلوفنا ان المعلومات التي وصلت اليها من بطرسبرج تفيد أن ستافروجين قد يكون مكلفاً بنوع من مهمة ...

ـ لا أعرف شيئاً ! لا أعرف شيئاً البتة ! لا أعرف شيئاً على الاطلاق! أستودعك الله ! « تنبيه للقارىء » (بالفرنسية) .

كذلك قطع بطرس ستيفانوفتش الحديث على حين فجأة ، راغباً رغبةً واضحة في الاكتفاء بهذا الحد . وركض نحو الباب .

فصرخ الحاكم يناديه قائلاً :

ـ لحظة يا بطرس ستيفانوفتش ، لحظة أخرى ! هناك مسألة صغيرة، ثم أدعك تنصرف .

فتح فون لمبكه درجاً ، وأخرج منه ظرفا . ومدّ الظرف الى بطرس ستيفانوفتش قائلا له :

ـ اليك عيّنةً من هذا النوع نفسه . انني اذ أطلعك على ذلك أبرهن لك على ثقتي بك . خذ . قل لى رأيك .

كان الظرف يضم رسالةً ، غريبة جدا ، غير مذيلة بتوقيع ، موجهة الى فون لمبكه الذى استلمها أمس .

فقرأ بطرس ستيفانوفتش الأسطر التالية ممتعضاً أشد الامتعاض :

« صاحب المعالى ،

« مادام هذا لقبك . أنهى الى علمك فى رسالتى هذه أنه يتهيأ الآن تآمر على حياة شخصيات كبيرة وعلى الوطن . كل شىء يتجه الى هذه الغاية . أنا نفسى وزعت منشورات تحرّض على الثورة خلال سنين ، وتحض على الزندقة . هنا كفتنة تُحضَّر . ألوف المنشورات التحريضية يكفى كل واحد منها لاثارة مئات من الأفراد الذين سيركضون لاهثين متدليةً ألسنتهم اذا لم تتدخل السلطات سلفاً . ذلك أن هناك مكافآت ضخمة موعودا بها . والشعب غبى . وهناك الخمرة أيضا . ولخوفى من هؤلاء وأولئك على السواء ، فاننى نادم على أخطاء لست مسئولاً عنها فى الواقع ، لأن الذنب ذنب الظروف . فاذا كنت تريد أن أشى لك بالأمور حفاظا على الوطن ، وعلى الكنائس والأيقونات أيضا ، فاننى الشخص الوحيد القادر على ذلك، بشرط أن ترسل الىّ الشعبة الثالثة* برقية سريعة

تبلغني فيها العفو عني ، ولكن عني وحدي . أما الآخـــــرون فيجب أن يحالوا الى المحاكم . فاذا كنت موافقا على هذا فلتكن الاشارة المتفق عليها بيننا هي التالية : ضع في الساعة السابعة من كل مساء شمعة مشتعلة على نافذة البواب . فمتى اطمأنت نفسي لرؤيتها جئت أقبل اليد الرحيمة التي ستمدها اليَّ بطرسبرج . ولكن على شرط أن يُخصَّص لي راتب ، والا فكيف أعيش ؟ ولن تندم على هذا ، لأنك ستنال وساما . ولكن عليـــك بالصمت والا دقوا عنقي ! انني أرتمي على قدمي معاليك .

« الزنديق اليائس التائب : مجهول »

وذكر فون لمبكه أن الرسالة وُجدت في شرفة البواب ، وكانت قد وضعت فيها أثناء غيابه .

فقال بطرس ستيفانوفتش يسأله بغلظة :

ـ فما رأيك ؟

ـ يخيَّل اليَّ أن كاتب الرسالة رجل أراد أن يسخر مني .

ـ قد يكون الامر كذلك . أنت رجل لا تُخدع !

ـ ومما يقوي ظني هذا أن في الأمر غباء شديدا بالفعل .

ـ هل سبق أن تلقيت رسائل من هذا النوع ؟

ـ واحدة أو اثنتين ، بدون اسم المرسل أيضا .

ـ طبعا . لا يذكر المرسل اسمه . وهل الأسلوب والخط واحدان في هذه الرسائل جميعا !

ـ لا . انها تختلف أسلوباً وخطاً .

ـ وهل هي سخيفة كهذه ؟

ـ نعم ، سخيفة ... وحقيرة .

ـ اذا كانت من نوع واحد ، فمن الجائز أن تكون الاخيرة صادرة عن نفس المصدر •

ـ لا سيما وان فيها غباءً مفرطاً • أولئك رجال أذكياء لا يمكن أن يكتبوا ترهات كهذه حتما •

ـ طبعا •

ـ ولكن ماذا لو كان الامر أمر وشاية فعلا ؟

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة خشنة :

ـ هذا بعيد عن الاحتمال • والا فما تلك البرقية المطلوبة من الشعبة الثالثة ؟ وما ذلك الراتب ؟ واضح أن الامر تهريج ! •••

قال لمبكه وهو يشعر بالخجل من هذه الشبهات التى راودته :

ـ انك على حق •

ـ اسمع • اعطنى الرسالة فاكتشف لك كاتبها حتى قبل أن أسلّمك الآخرين •

قال فون لمبكه موافقا بشيء من تردد :

ـ خذها •

ـ هل أطلعت عليها أحداً ؟

ـ لا ، لا ، اطلاقا !

ـ أقصد هل أطلعت عليها جوليا ميخائيلوفنا ؟

ـ وقانى الله شر هذا ! ثم اننى استحلفك أن لا تطلع عليها أحدا •

كذلك صاح الحاكم يقول مرتاعا • وأردف :

ـ لو أطلعتها عليها لاضطربت اضطرابا شديدا ، ولغضبت منى غضبا رهيبا ...

ـ نعم ، لو اطلعت عليها لآخذتك أنت أولاً ، ولقالت ان الذنب ذنبك حين يتجرأ أحد فيسمح لنفسه أن يكتب اليك بهذه الطريقة . منطق النساء معروف . طيب . استودعك الله . قد أُعلمك اسم كاتب هـــذه الرسالة في غضون ثلاثة أيام . تذكر ما اتفقنا عليه .

٤

قد لا يكون بطرس ستيفانوفتش غبياً أحمـــق ، ولكن صَدَقَ السجين فدكا حين قال عنه « انه يرى الناس في الصورة التي يرسمهـا عنهم خياله ، ومع هؤلاء الناس انما يعيش » •

ولقد ترك الآن فون لمبكه وهو مقتنع اقتناعا جازما بأن فون لمبكه قد هدأ الى ستة أيام على الأقل ، وهي المهلة التي كان في حاجة اليهـا • والحق أن هذه الفكرة خطأ ، ولا تقوم الا على الصورة التي رسمها خيال الشاب عن آندره أنطونوفتش والتي تصوّره بأنه رجل أهبل •

الواقع أن آندره أنطونوفتش ، كسائر الرجال الوجلين الريّابين ، قد امتلأ في أول الامر ثقةً بهذا الذي أخرجه من الشك ، وفرح فرحاً كبيرا ؛ وبدا له الموقف ، بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش ، في صـورة مُطَمْئنة رغم التعقيدات والمتاعب التي قد تنشأ عنه فيما بعد • مهما يكن من أمر ، فقد تبدّد ما كان يراوده من شكوك وما كان يساوره من أنواع القلق والتردد • والى الراحة انما كانت تتوق نفسه خاصةً ، لأنه يشعر منذ بضعة أيام بأنه متعب مرهق منهك القوى • ولكن طمأنينته لم تطل وا أسفاه ! ان اقامته الطويلة ببطرسـبرج قد تركت في نفسـه آثاراً لا تمّحي • لقد كان يعرف التاريخ الرسمي بل والسري « للجيـل الجديد » ، لأنه كان رجلاً طُلعةً ، وكان يجمع المناشير التحريضية ، غير أنه لم يفهم منها شيئا في يوم من الايام • وهو يحس الآن أنه ضائع تماما • ان غريزته توحي اليه أن ايضاحات بطرس ستيفانوفتش تشتمل على شيء بعيد عن الاحتمال ، شيء مناقضٍ لجميع الاشكال والأعراف • وكان يحدث نفسه قائلاً في حيرة وارتباك : « مع ذلك فان الشيطان وحده

يعرف ما يمكن أن يحدث في هذا « الجيل الجديد » ، والشيطان وحده يعرف كيف تجرى الأمور ! » .

وانه لغارق فى هذه التأملات والأحلام اذ أطل عليه رأس بلومر من شق الباب . ان بلومر لم يترك الغرفة المجـــاورة طوال مدة زيارة بطرس ستيفانوفتش . يجب أن نذكر أن بلومر هذا يمت بقـــرابة الى آندره أنطونوفتش ، قرابة بعيدة طبعا حرص فون لمبكه طوال حياته على أن يكتم أمرها ويسكت عنها وجلاً . وانى لأستميح القارىء عذراً اذا أنا قلت كلمات عن هذه الشخصية التافهة . ان بلومر واحد من تلك الفئـة الغريبة من الألمان « العاثرى الحظ » ، لا بسبب عجزه الخارق ، بل بدون سبب ظاهر على وجه الاجمال .

ان الألمان « العاثرى الحظ » ليسوا خرافة : انهم يوجدون فعـلاً حتى في روسيا ، ويؤلفون جنساً على حدة . ولقد عطف فون لمبكه دائما على بلومر عطفا كبيرا ، وكان يشد أزره ويدعمـــه ما استطاع الى ذلك سبيلا أثناء ارتقائه على سلّم المجتمع ، محاولاً أن يجد له وظيفة صـغيرة في مكتب من مكاتبه . ولكن بلومر كان قليل الحظ . فتارةً تلغى وظيفته فجأة ، وتارةً يتغير رؤساؤه ، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يحـــال الى القضاء مع موظفين آخرين . وهو موظف مخلص لعمله دءوب مجتهد ، غير أن وجهه المتجهم دائما كان يسىء اليه أكبر الاساءة . انه طويل القامة محدودب الظهر أحمر اللون ، حزين النفس بل وعاطفى الطبع ؛ وهــو رغم مذلته عنيدٌ عنادَ بغل ، معارض دائما . وكان هو وامرأته وذريتـه الغفيرة يحملون لآندره أنطونوفتش شعورا بالشكر يبلغ حدَّ العبـــادة . وما من أحد أحبه في يوم من الأيام الا فون لمبكه . وقد كرهته جوليـــا ميخائيلوفنا منذ اللحظة الأولى ، لكنها لم تستطع أن تحطم مقاومة زوجها .

كانت تلك أول مشاجرة بين الزوجين . حدث هذا بعد الزواج على الفور تقريبا ، أثناء الأيام الأولى من شهر العسل . لقد اكتشفت جوليا ميخائيلوفنا وجود بلومر فجأةً ، وكان مختفيا حتى ذلك الحين ، واكتشفت في الوقت نفسه ذلك السر المخجل وهو أن بينه وبين زوجها صلة قرابة . وقد استغفرها آندره أنطونوفتش متوسلاً ضارعاً ضاماً يديه احداهما الى الاخرى ، وقصّ عليها بطريقة عاطفية مؤثرة قصة بلومر كلها وقصة صداقتهما التي ترجع الى عهد الطفولة ، لكن جوليا ميخائيلوفنا رأت أن شرفها قد تلطخ بالعار الى الأبد ، حتى عمدت الى الاغماء مرةً بعد مرة . ومع ذلك ثبت فون لمبكه ولم يتزحزح عن موقفه ، وأعلن لزوجته أن لا شيء يمكن أن يحمله على هجر بلومر ، فلم تملك الزوجة رغم دهشتها الشديدة واستغرابها القوى الا أن ترضخ للأمر الواقع وأن تقبل بلومر . ولكن تم الاتفاق بين الزوجين على أن تظل القرابة سراً مكتوما وأن تُخفى اخفاءً أشد من اخفائها في أي وقت مضى ، وأن يُكتفى من اسمه باسم بلومر ، وهو اسم أسرته ، أما اسمه واسم نسبته الى أبيه فلا يجيء أحد عليهما بذكر ، اذ شاءت المصادفة أن يكون اسمه واسم نسبته الى أبيه هما آندره أنطونوفتش أيضا . وحين وصل بلومر الى مدينتنا لم يزر أحداً ، ولم يعاشر الا صديقا ألمانيا ، وعاش حياة ضيقة منزوية . وكان منذ مدة طويلة على علمٍ بعيوب لمبكه المتعلقة بميله الى الأدب ، حتى لقد أصغى اليه وهو يقرأ عليه روايته في خلوة ، فكان بلومر أثناء تلك الجلسات التي ربما دامت في بعض الأحيان ست ساعات متتالية ، كان يبقى جالسا جامدا متصلبا كأنه وتد مغروز في الارض ، يتصبب عرقه قطرات كبيرة ، ويبذل جهودا مستميتة في سبيل أن لاينام ، وفي سبيل أن يحافظ على هيئة اللطف والمودة . حتى اذا رجع الى البيت

أخذ يبكي مع زوجته ، وهي امرأة طويلة يابسة ، تألماً على هذا الانسان المحسن اليهما كيف يُشغف بالأدب الروسي هذا الشغف المشئوم .

ألقى آندره أنطونوفتش على بلومر نظرة تفيض بالألم ، وقال له متعجلاً رافضاً رفضاً واضحاً أن يستأنف الحديث الذي قطعه عليهما وصول بطرس ستيفانوفتش منذ حين :

ـ دعني هادئاً يا بلومر ، دعني وشأني ، أرجوك .

فقال بلومر مصراً بعناد فيه احترام :

ـ ان الأمر يمكن أن يتم على نحو خفي مرهف . ألست تتمتع بسلطات كاملة ؟

ـ انك تبلغ من الاخلاص لي والاستعداد لخدمتي انني لا يسعني الا أن أخاف منك كلما نظرت اليك .

ـ أنت دائماً تقول أشياء ذكية ثم تنام بعد ذلك هادىء البال راضياً عن أقوالك ، ولكن هذا بعينه ما يلحق بك الضرر ويسيء اليك .

ـ لقد أدركت منذ هنيهة أن الأمر ليس ذاك ، ليس ذاك قط .

ـ أتكون شكوكك قد نشأت عن تصديقك هذا الشاب الكاذب المنحط ؟ لقد استولى عليك بامتداح موهبتك الأدبية .

ـ انك لا تفهم شيئاً . مشروعك سخيف . أقول لك ان مشروعك سخيف . لن نعثر على شيء ، ولكن الفضيحة ستكون رهيبة . سيسخر منا الناس وسيضحكون علينا . ثم ان جوليا ميخائيلوفنا ...

ـ سنعثر حتماً على كل ما نبحث عنه وسنجد كل ما نسعى اليه .

كذلك أجاب بلومر وهو يضع يده اليمنى على قلبه ، ويقترب من فون لمبكه مزيداً من الاقتراب . واستطرد يقول :

ـ سوف نقوم بالتفتيش فجأة ، في ساعة مبكرة من الصباح ، ملتزمين أكبر لطف ورقة في معاملة الشخص الذى أعنيه ، ولكننا نطبق القانون أيضاً أصرم تطبيق . ان هناك شباباً ـ مثل ليامشين وتلياتنيكوف ـ يؤكدون أننا سنضع أيدينا على كل ما نحن باحثون عنه . لقد ذهبوا الى السيد فرخوفنسكي مراراً كثيرة . ما من أحد يقيم للسيد فرخوفنسكي أى وزن . ان السيدة ستافروجين قد حجبت عنه حمايتها ، وحرمته من أية حظوة لديها ؛ وان كل انسان شريف ، اذا كان بين سكان هذه المدينة الأفظاظ الغلاظ انسان شريف ، مقتنع اقتناعاً تاماً بأن الزندقة والاشتراكية انما منبعهما هناك . ان السيد فرخوفنسكي يحتفظ في بيته بجميع الكتب المحظورة ، مثل « أفكار » ريلاييف * ، وهو يملك مؤلفات هرتسن الكاملة ... وقعت مصادفة على قائمة كاملة تقريباً ...

ـ هه ! هذه الكتب موجودة لدى جميع الناس ! ما أشد سذاجتك يا عزيزى المسكين بلومر !

تابع بلومر كلامه دون أن ينتبه أى انتباه الى هذه الملاحظة فقال :

ـ وعدداً كبيراً من المنشورات التحريضية . سوف نهتدى في آخر الأمر حتماً الى المصدر الذى تصدر عنه هذه المنشورات المتداولة هنا . ان اشتباهي في هذا الشاب فرخوفنسكي قد قوى واشتد !

ـ أنت تخلط بين الأب والابن . انهما على غير وفاق . العلاقات بينهما سيئة . الابن يتهكم على أبيه ويسخر منه علانية .

ـ ما هذا الا تمثيل !

ـ أتراك آليت على نفسك أن تميتني ! هلاّ فكرت قليلاً . ان فرخوفنسكي شخصية هامة هنا . ولقد كان أستاذاً . هو رجل معروف . سوف نثيرها فضيحة . سنكون بين الناس جرسة . ستهزأ بنا المدينة كلها .

وسوف يُفلت منا الآخرون جميعاً ••• ثم ، هلاّ فكرت فيما سوف تقوله جوليا ميخائيلوفنا !

غير أن بلومر ظل يصر في عناد ، ولا يريد أن يسمع شيئاً وأن يفهم شيئاً • قال وهو يلطم صدره بيده :

ـ لم يكن أستاذاً ، وانما كان مكلفاً بالقاء دروس • لم يكن الا فى رتبة معيد • ولم يظفر بأى لقب فخرى • وقد طُرد من الوظيفة لأن السلطات اشتبهت فيه واتهمته بالتحريض على الثورة • وهو منذ ذلك الحين تراقبه الشرطة سراً • ولما كانت تُهيأ هنا اضطرابات فان من واجبك أن تدخل • ولكنك تفوِّت الفرصة السانحة فتحرم نفسك من التميز باكتشاف المجرم الحق •

ـ هذه جوليا ميخائيلوفنا آتية ! امض يا بلومر ، امض !

كذلك صاح آندره أنطونوفتش حين سمع صوت امرأته في الغرفة المجاورة على حين فجأة •

ارتعش بلومر ، ولكنه لم يستسلم • قال ملحاً وهو يضغط على صدره بكلتا يديه مزيداً من الضغط :

ـ دع لى أن أتصرف • دع لى أن أتصرف •

ـ امض ! امض ! افعل ما شئت ••• فيما بعد ! هوه !

كذلك كرر فون لمبكه بصوت صافر •

وفُتح الباب وظهرت جوليا ميخائيلوفنا فى العتبة • فلما رأت بلومر توقفت فى فخامة وجلال ، ورشقته بنظرة فيها احتقار وفيها غضب ، كأن مجرد وجود هذا الشخص اهانة لها • فحيَّاها بلومر بصمت ، منحنياً

انحناء شديداً حتى كاد ينثني نصفين من شدة الاحترام ، ثم اتجه نحو الباب سائراً على رءوس الأصابع مباعداً ذراعيه قليلاً .

سواء أكان بلومر قد فهم من صيحة آندره أنطونوفتش الحانقة أنه أجاز له أن يتصرف كما يشاء ، أم كان قد قرر أن لا يحفل برأى صاحب هذا المحسن اليه ، وذلك فى سبيل مصلحة صاحبه نفسها ولاقتناعه بأن النجاح سوف يبرر الجرأة ، فالمهم أن هذه المحادثة بين الحاكم ومرءوسه قد كانت لها ، كما سنرى فيما بعد ، نتيجةٌ لم تدر فى خلد أحد ولا توقعها أحد ، نتيجة سلَّت كثيراً من الناس ، وأحدثت ضجة كبيرة ، وأحنقت جوليا ميخائيلوفنا ، وبلبلت أفكار آندره أنطونوفتش اذ هوت به فى أحرج لحظة الى شلل فى الارادة يرثى له .

٥

كان ذلك اليوم من أيام بطرس ستيفانوفتش حافلاً بأعمال كثيرة يجب عليه أن يقوم بها . انه حين خرج من عند فون لمبكه أسرع يسير الى شارع ابيفانيا راكضاً ، ولكنه حين مرّ أمام المنزل الذى يقيم فيه كارمازينوف بشارع « الأبقار » ، توقف فجأة ، وابتسم ودخل ، فقال له الخادم ان « مولاه ينتظره » ، فدُهش من ذلك دهشةً كبيرة ، لأنه لم يكن قد أنبأ كارمازينوف بأنه سيزوره .

ولكن الكاتب الكبير كان ينتظره فعلاً منذ أمس ، بل منذ أمس الأول . لقد أعطى بطرس ستيفانوفتش ، قبل ثلاثة أيام ، مخطوطة قصيدته « شكراً » (التى كان يتأهب لالقائها فى الصبيحة الأدبية التى تحضّرها جوليا ميخائيلوفنا) . وهو اذ اعطاه اياها قد اعتقد انه يتلطف معه ، لاقتناعه بأنه اذ يتيح لهذا الشاب أن يطلع قبل سائر الناس على عمل أدبى يبلغ هذا المبلغ من علو الشأن انما يرضى غرور الشاب . وكان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذه الشخصية الكبيرة المعجبة بنفسها ، المحبة للظهور ، التى أغرقها الناس بمدح وتعظيم لا يحلم بمثلهما بشر عاديون ، أقول كان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ أن هذه الشخصية الكبيرة أو هذا « الفكر الجبار » انما كان يتودد اليه لا أكثر ، بل ويتودد اليه بكثير من الشراهة . وقد حزر الشاب أخيراً ، فيما يخيّل اليّ ، أن كارمازينوف كان يتصور أن هذا الشاب ان لم يكن هو رئيس الحركة الثورية الروسية كلها ، فهو على الأقل واحد من أحسن الناس اطلاعاً على هذه الحركة ، وله على الشبيبة سلطان كبير ونفوذ لا سبيل الى جحوده .

ان الحالة النفسية والفكرية التى كان عليها هذا الكاتب الكبير الذى هو « أذكى رجل فى روسيا » كانت تهم بطرس ستيفانوفتش كثيراً ، ولكنه لبعض الأسباب كان قد تحاشى حتى ذلك الحين أن يلتمس لها ايضاحاً .

كان الكاتب الكبير يقيم عند أخته المتزوجة ضابطاً فى البلاط ، يملك أرضاً فى اقليمنا . وكانت الأخت وزوجها يشعران نحو قريبهما الشهير بحب يبلغ درجة العبادة . ولكنهما الآن ـ وما كان أشد أسفهما لهذا ! ـ قد اضطرا الى البقاء بموسكو ، فوقع شرف استقبال الضيف العظيم على سيدة عجوز فقيرة تمت الى ضابط البلاط بقرابة بعيدة ، وهى تعيش فى منزله منذ مدة طويلة ، وتتولى خدمة البيت . ان الجميع فى هذا المنزل يمشون الآن على رءوس الأصابع منذ وصول السيد كارمازينوف . وكانت السيدة العجوز تكتب الى موسكو كل يوم تقريباً لتقول لاصحاب المنزل كيف نام الضيف الشهير وماذا تنازل فأكل . حتى انها فى احدى المرات قد أرسلت برقية لتذكر أنه بعد عشاء راقص فى منزل رئيس البلدية قد اضطر أن يتجرع ملعقة دواء . وكانت لا تجرؤ أن تدخل عليه الا لماماً . ولكنه كان كيِّساً فى معاملتها ، وان كان لا يكلمها الا عند الضرورة القصوى ، واذا كلمها فانه يكلمها بلهجة باردة .

حين دخل عليه بطرس ستيفانوفتش وجده يأكل ضلع اللحم الذى اعتاد أن يأكله ، ومعه نصف كأس من نبيذ أحمر . لقد سبق لبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى أن جاءه مراراً ، فكان فى كل مرة يجده جالساً الى ضلع اللحم هذا يأكله ، ويستمر فى أكله بحضوره دون أن يقدِّم له أى شىء فى مرة من المرات ، حتى اذا فرغ من ضلع اللحم أتبعه بفنجان صغير من القهوة . وكان الخادم الذى يخدمه يلُبس يديه قفازين دائماً ، ويرتدى رداء « فراك » ، وينتعل حذاءين مرنين ليس لوقعهما على الأرض صوت .

قال كارمازينوف وهو ينهض عن الكنبة :

ـ ها ...

ومسح فمه بمنشفته ، وتقدم نحو زائره مشرق الهيئة ليقبّله وفقاً لعادة الروس الذين أصبحت لهم شهرة كبيرة . ولكن بطرس ستيفانوفتش كان يعلم بالتجربة أن كارمازينوف يتظاهر بتقبيل الناس مع أنه لا يزيد على أن يمد اليهم خدّه . وهذا ما فعله في هذه المرة فالتقت الخدان . وعاد كارمازينوف يجلس على الكنبة دون أن يُظهر أنه لاحظ ذلك . وبحركة ودود أومأ للشاب الى مقعد قبالته ليجلس عليه . فجلس بطرس ستيفانوفتش على المقعد جلسة مريحة .

سأله الكاتب مغيّراً عاداته في هذه المرة :

ـ لا شك أنك .. ألا تريد أن تتغدى ؟

وكان واضحاً في هيئته أنه يطلب جواباً سلبياً . ولكن بطرس ستيفانوفتش أسرع يقول انه يسره أن يتغدى . فاذا بالدهش والاستياء يلقيان ظلهما على كارمازينوف ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ثم قرع الجرس ينادي الخادم بعصبية ، فلما جاء الخادم أمره بغداء ثان ، فكان في صوته رغم حسن أدبه ولطف كياسته ، حنق لا يخفى . وقال يسأل ضيفه :

ـ ماذا تريد ؟ أضلع لحم أم شيئاً من قهوة ؟

ـ ضلعاً وقهوة . وأمر لي أيضاً بنبيذ . فأنا جائع .

كذلك أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يتأمل رداء الكاتب العظيم بانتباه شديد . كان السيد كارمازينوف يرتدي نوعاً من سترة مبطنة بقطن ، لها أزرار لامعة كالصدف ، تشبه أن تكون جاكيتة ، ولكنها قصيرة

قليلاً ، فلا تناسب كرشه الناتىء ولا تناسب ذلك التدور السمين فى ذلك الجزء من الجسم الذى تبدأ عنده الفخذان . غير أن لكل انسان ذوقه الخاص به . ورغم أن جو الغرفة كان حاراً ، فقد غطى ركبتيه بغطاء صوفى ذى مربعات يتدلى على الأرض .

سأله بطرس ستيفانوفتش :

ـ أنت مريض ؟

فأجاب الكاتب الروائى بصوته الحاد ، مقطعاً كلماته برهافة ورقة ، منغماً لهجته على الطريقة الارستقراطية :

ـ لا ، ولكننى أخشى أن أصبح مريضاً فى هذا الجو . لقد انتظرتك أمس .

ـ لماذا انتظرتنى ؟ أنا لم أبلغك أننى آتٍ .

ـ صحيح ... ولكن مخطوطتى عندك .. هل قرأتها ؟

ـ مخطوطتك ؟ أية مخطوطة ؟

قال له كارمازينوف مشدوهاً :

ـ آمل أن تكون المخطوطة معك !

وبلغ من القلق أنه أهمل قهوته ونظر الى بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً مذعوراً .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ آ ... تقصد « مرحباً » .

ـ بل « شكراً » .

ـ سيان . لقد نسيتها نسياناً تاماً ، ولم أقرأها . ليس فى الوقت

متسع . لا أدرى حقاً ماذا صنعت بها . ليست فى جيوبى ... لا بد اننى تركتها على مائدتى . لا تقلق . سوف أجدها .

ــ بل أفضِّل أن نبعث أحداً يبحث عنها فى الحال . قد تضيع . قد تُسرق .

ــ ما عسى يصنع بها من يخطر بباله أن يسرقها ؟ ثم ، ما بالك تقلق؟ ان جوليا ميخائيلوفنا تؤكد أنك تستنسخ دائماً عدة نسخ : نسخةً تودعها عند الكاتب بالعدل فى الخارج ، وثانية تدعها فى بطرسبرج ، وثالثة تتركها بموسكو ، ويظهر أنك ترسل نسخةً رابعة الى صاحب البنك الذى تودع عنده أموالك .

ــ لكن موسكو قد تُحــرق ، فتحرق معها مخطوطتى . لا . اننى أفضل أن نرسل أحداً يبحث عنها فى الحال .

ــ انتظر . هى ذى مخطوطتك .

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يخــرج من احــدى جيوبه الخلفية حزمة من أوراق الرسائل . انها مجعَّدة مهترئة قليلاً . واستطرد يقول :

ــ تصــور اننى ، حين أعطيتنى اياها ، قد دسستُها فى هــذا الجيب الخلفى مع منديلى ، ثم بقيت فيه . نسيتها تماماً .

استولى كارمازينوف على مخطوطته بشراهة ، وفحصها بعناية ، وعدَّ أوراقها ، ثم وضعها بكثير من الاحترام على منضدة صغيرة فى جانب ، بحيث لا تغيب عن بصره .

قال بصوت صافر ، عاجزاً عن كبح غيظه :

ــ لعلك لا تقرأ كثيراً .

ــ نعم ، لا أقرأ كثيراً .

ـ ومن الأدب الروسى ، ألا تقرأ شيئاً ؟

ـ من الأدب الروسى ، لحظة ... لقد قرأت شـــيئاً ما ... « على الطـريق » ... أو « فى الطريق » .. أو « عند تقـاطع الطرق » ... لا أدرى على وجـه الدقة . قرأت ذلك منذ مدة طويلة ... منذ خمس سنين تقريباً ... ليس فى وقتى متسع .

وخيَّم صمت .

قال كارمازينوف :

ـ حين وصلتُ الى هنا أكدت لجميع الناس أنك رجل تحظى بذكاء نادر ، ويخيَّل الىَّ أنهم مفتونون بك الآن .

أجاب بطرس ستيفانوفتش ببساطة يقول :

ـ شكراً .

وجىء بالغداء . فهجم الشاب على ضلع اللحم هجمة نهمة ، وأتى عليه فى لحظة ، وشرب كأساً من نبيذ ، وابتلع قهوته .

حدَّث كارمازينوف نفسه قائلاً وهو يتفحص الشاب بطرف عينيه اثناء ابتلاعه آخر جـرعة : « لعل هذا القليـل الأدب قد لاحظ سخرية جملتى الأخـيرة ... انى لعلى ثقـة بأنه ما من شىء كان أشـدَّ لجاجةً والحاحاً عليه من قراءة مخطوطتى بسرعة . هو يكذب . انه يبيِّت فكرة. لعله لا يكذب مع ذلك ، وانما هو غبى لا أكثر ! اننى أحب لعبقرى أن يكون على شىء من غباء . ألن يكون عبقرياً بينهم ؟ على كل حال ، فليذهب الى الشيطان !... » .

ونهض وأخذ يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وذلك ما كان يفعله بعد كل وجبة تنشيطاً لجسمه .

قال بطرس ستيفانوفتش يسأله جالساً وهو يشعل سيجارة :

ـ أأنت مسافر قريباً ؟

ـ لقد جئت لأبيع أرضي ؛ وسفري مرهون بوكيلي .

ـ يظهر أنك عدت الى روسيا لأنك خشيت الأوبئة التى تهدد بالانتشار في أعقاب الحرب ، هه ؟

ـ لـ ... لا ! ليس الأمر هذا تماماً !

كذلك أجاب السيد كارمازينوف مقطعاً كلامه . وكان كلما وقف واستدار ليستأنف مشيه في الغرفة يحرك ساقه اليمنى قليلاً . واستطرد يقول وهو يبتسم بشيء من السخرية :

ـ لكننى أنتوى فعلاً أن أحيا أطول مدة ممكنة . ان النبالة الروسية تنحل بسرعة خارقة من جميع النواحي . ومن جهتى أحب أن أؤخر انحلالى أطول تأخير ممكن . لذلك أريد أن أستقر في الخارج الى الأبد: المناخ هنالك أصح ، والبنيان الاجتماعى أقوى ، وكل شيء متين مبنى بحجر . ما رأيك ؟

ـ همْ ... اذا انهارت بابل أوروبا فستكون تلك كارثة كبرى فعلاً (أنا أوافقك على رأيك في هذه النقطة ، وان كنت أقدّر أنها باقية ما بقيت) أما عندنا في روسيا فلا يرى المرء ما الذى يمكن أن ينهار على وجه الاجمال . لن نشهد حجارة تتساقط ، وانما سيتداعى كل شيء وحلاً . ان روسيا المقدسة عاجزة عجزاً مطلقاً عن ابداء أية مقاومة لأى شيء . وبفضل الاله الروسى ما يزال الشعب الروسى هادئاً بعض الهدوء . ولكن المعلومات الأخيرة تدل أن الاله الروسى لم يبق له كثير من قوة ، وأن الغاء الرق قد أوشك أن يُسقطه ، وهو قد هزّه هزاً قوياً على كل

حال . نم ، هناك السكك الحديدية ، وهناك أنتم ... انني ، فيما يتعلق بالاله الروسى ، أصبحت لا أؤمن به بتاتاً .

ـ والاله الأوروبى !

ـ انني لا أؤمن بأى اله . لقد افتروا عليّ عند الشبيبة الروسية . ان قلبي كان دائماً معها . وقد اطلعت على المنشورات التحريضية التي تنتشر هنا . انها تدع الناس مبلبلين حيارى ، لأن لهجتها تروّع عقولهم ، ولكن الجميع مقتنعون ، حتى دون أن يدركوا ذلك ، بأن لها تأثيراً قوياً . ان كل شيء يتدحرج الى الهوة منذ مدة طويلة ، والناس يعلمون منذ مدة طويلة أيضاً أنهم لا يستطيعون أن يتشبثوا بشيء . ومما يزيد يقيني بنجاح هذه الدعاية السرية أن روسيا هى الآن بين سائر بلاد العالم البلد الذى يمكن أن يحدث فيه كل شيء دون أن تعترضه أية مقاومة مهما تكن يسيرة . انني أفهم كل الفهم لماذا كان الروس الذين يملكون ثروة ما ، يجتازون الحدود متزايدين سنةً بعد سنة . ان الغريزة هى التى توجههم وتقود خطاهم . حين توشك سفينة على الغرق فان الفئران أول من يتركها . ان روسيا المقدسة بلد البيوت الخشبية ؟ انها بلد بائس شقى و ... خطر ؟ انها بلد شحاذين ، مغرورين فى الطبقات العليا ، لكن سوادهم الأعظم يعيش فى أكواخ مترنحة الجدران . فهم يسعدهم أن يجدوا أى مخرج ، ويكفى أن يدلهم أحد على أى مخرج . الحكومة وحدها ما تزال تريد أن تقاوم ، ولكنها تلوّح بهراوتها فى الظلام وتهوى بها هنا وهناك خبط عشواء ، وتصيب الموالين . هنا كل شيء محكوم عليه ، مقضى عليه . روسيا ليس لها مستقبل . أنا أصبحت ألمانياً ، وانى لأعتز بهذا .

ـ لقد بدأت كلامك بالحديث عن المنشورات التحريضية . فما رأيك فيها ؟



الكاتب كارمازنيوف

- جميع الناس خائفون منها، معنى هذا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً قوياً. انها تفضح الكذب فضحاً صريحاً، وتبيّن أن لا شيء عندنا يمكن التعلق به والاستناد اليه والاعتماد عليه. انها ترفع صـــوتها عالياً بينما يصمت الجميع. أمجد شيء فيها رغم شكلها انما هو الجرأة الخارقة في النظر الى الحقيقة وجهاً لوجه. ان هذه القدرة على النظر الى الحقيقة وجهاً لوجه لا يتصف بها الا الجيل الروسي الحالي. لا، الناس في أوروبا ليس لهم هذه الجسارة بعد: البنيان الأوروبي من حجر، وما يزال المرء هناك يجد ما يتعلق به ويستند اليه. اذا صدقت رؤيتي واذا صدق حكمي، فان الفكرة الثورية الروسية تقوم أساساً على نفي الشرف. يعجبني أن أرى هذا معبَّراً عنه بمثل هذه الشجاعة ومثل هذه الجسارة. لا، في أوروبا مايزال الناس لا يفهمون هذه الفكرة؛ ولا كذلك عندنا، فالى هذه الفكرة بعينها انما سيهرع النـاس. ليس الشرف في نظر الروسي الا حملاً لا فائدة منه؛ والأمر على هذا النحو في جميع الأزمان على امتداد تاريخ الروس كله. لذلك سيكون من اليسير اغراؤه وجرُّه بالمناداة «بحق التخلي عن الشرف» صراحةً. انني أنتمي الى الجيل القديم، واعترف أنني ما أزال أعتنق فكرة الشرف. ولكن ذلك ليس الا عادة. ما زلت متمسكاً بالأشكال القديمة. لنسلّم بأن هذا ضعف مني. انه لجدير بالمرء أن يموت مع المبادىء التي تعلق بها طوال حياته...

قطع كارمازينوف كلامه فجأة. وحدث نفسه يقول: «انني أتكلم وأتكلم. ويبقى هو صامتاً يراقبني. لقد جاء لألقي عليه سؤالاً محدَّداً. فلسوف ألقي عليه ذلك السؤال».

سأله بطرس ستيفانوفتش فجأة:

- لقد رجتني جوليا ميخائيلوفنا أن أسألك ببراعة عن موضوع المفاجأة التي تهيئها للحفلة الراقصة بعد غد، فما هي هذه المفاجأة؟

ـ نعم ، ستكون مفاجأة حقاً • وسأُدهش جميع الناس ••• لكنني لن أكشف لك عن سري •

بذلك أجاب كارمازينوف متعاظماً •

فلم يلح بطرس ستيفانوفتش كثيراً •

قال الكاتب العظيم :

ـ يوجد هنا رجل اسمه شاتوف • هل تتصور انني لم أره بعد ؟

ـ هو شخص ممتاز • وبعد ؟

ـ لا شيء خاصاً • لكن الناس يتكلمون عنه كثيراً • أليس هو الذي صفع ستافروجين ؟

ـ نعم هو الذي صفع ستافروجين •

ـ ما رأيك في ستافروجين ؟

ـ الحق انني لا أدري ما هو بين أصناف الرجال • أحسب انه نوع من دون جوان •

كان كارمازينوف يكره ستافروجين ، لأن ستافروجين اعتاد أن لا يلتفت اليه وأن لا يكترث به •

قال وهو يضحك ساخراً :

ـ اذا تحقق عندنا ما تنادي به المنشورات التحريضية ، في يوم من الأيام ، فسوف يكون زير النساء هذا أول من يجب شنقه •

فقال بطرس ستيفانوفتش :

ـ قد يُشنق قبل ذلك •

فقال كارمازينوف محبذاً مؤيداً ، دون أن يضحك في هذه المرة ، وكانت لهجته جادة :

ـ لعل ذلك أن يكون خيراً •

ـ سبق أن قلت هذا • واعلمْ انني نقلت كلامك اليه •

ـ حقاً ؟ فعلت هذا ؟

كذلك سأل كارمازينوف وانفجر ضاحكاً • فقال بطرس ستيفانوفتش :

ـ وقد أجاب بأنه اذا شُنق هو ، فيكفيك أنت أن تُجلد جلداً ، لا على سبيل المزاح ، بل جلداً صارماً ، كما يُجلد الفلاحون •

وتناول بطرس ستيفانوفتش قبعته ونهض • فمدّ اليه كارمازينوف كلتا يديه • وقال يسأله بصوته المتلطف المرائي الذى اصطنع نبرة جديدة على حين فجأة ، مع استمرار الكاتب العظيم فى امساك يدى الشاب بيديه :

ـ قل لى : اذا كانت مشروعاتكم ستحقق ••• فمتى ••• متى يمكن أن يحدث هذا ؟

فأجابه بطرس ستيفانوفتش بفظاظة :

ـ ما يدرينى !

ونظر كل من الرجلين فى عينى صاحبه •

فألح كارمازينوف سائلاً بصوت فيه مزيد من العذوبة واللطف •

ـ تقريباً ؟ على وجه التقريب ؟

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يقول بمزيد من الفظاظة :

ـ لديك متسع من الوقت لبيع أرضك ، ولديك متسع من الوقت لتفر بجلدك •

وكان الرجلان ما يزال كل منهما ينظر فى عينى الآخر •

وساد الصمت دقيقة من الوقت .

وقال بطرس ستيفانوفتش أخيراً :

ـ سيبدأ الأمر في شهر أيار (مايو) ، فلا يأتي عيد « الشفاعة » الا ويكون كل شيء قد انتهى .

قال كارمازينوف بلهجة مؤثرة وهو يشد على يدي زائره :

ـ أشكرك أصدق الشكر .

وحدث الشاب نفسه قائلاً بعد أن ترك كارمازينوف : « لديك متسع من الوقت ، يا أيها الفأر ، لترك السفينة قبل غرقها . ولكن اذا كان هذا الذي يشبه أن يكون رجل دولة يسألني بهذا الجد كله عن تاريخ البدء يوماً وساعة ، ويشكرني بهذه الحرارة على المعلومات التي زودته بها ، فلا يجوز أن نشك في أنفسنا بعد هذا (قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ساخراً) . هم ... حقاً انه ليس غبياً ، و ... ما هو الا فأر يهاجر . مثله لا يشي » .

وأسرع الى منزل فيليبوف ، شارع ابيفانيا .

٦

دخل بطرس ستيفانوفتش أولاً الى مسكن كيريلوف. كان كيريلوف وحيداً على عادته ، وكان يقوم ببعض التمارين الرياضية وسط الغرفة . لقد باعد ساقيه وجعل يُدير ذراعيه فوق رأسه . وكانت كرة من الكاوتشوك ملقاة على أرض الغرفة . ولم يكن شاي الصباح قد رُفع عن المائدة بعد أن أصبح باردا .

وقف بطرس ستيفانوفتش على العتبة لحظة . ثم قال مرحاً بصوت رنان وهو يلج الغرفة :

ـ أرى أنك تعنى بصحتك عناية كبيرة رغم كل شيء . يا لها من كرة جميلة ! ما أحلى تواثبها ! أهي أيضا للقيام بتمارين رياضية ؟

ارتدى كيريلوف ردنجوته . وقال بخشونة :

ـ نعم ، انني أعتني بصحتي . اجلس .

ـ لقد جئت لأمكث لحظة قصيرة . على كل حال ، هأناذا أجلس . الصحة شيء ممتاز ، ولكنني أتيت لأذكّرك بما تمّ عليه الاتفاق بيننا . ان الأوان يقترب « بعض الاقتراب » .

بهذه الجملة الأخيرة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه مازحاً .

ـ أي اتفاق ؟

ـ تسألني أي اتفاق ؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وانتفض مرتاعاً .

فقال كيريلوف :

ـ ليس بيننا اتفاق ولا التزام • أنا لا أشعر بأنني مرتبط • انك مخطىء •

فصاح بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو ينهض على حين فجأة :

ـ ما هذا الذي تقول ؟

ـ انني أنفذ مشيئتي • انني أحقق رغبتي •

ـ أية رغبة ؟

ـ رغبتي تلك نفسها •

ـ كيف يجب أن أفهم هذا الكلام ؟ هل معناه أنك ما تزال مصمماً على ما عقدت النية عليه ؟

ـ نعم ، ولكن الأمر ليس أمر اتفاق ، فما كان ثمة اتفاق قط ، ولست بمرتبط • وانما هي مشيئتي وحدها ، كانت وما تزال مشيئتي وحدها •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعود الى الجلوس راضياً مرتاحاً :

ـ طيب ، طيب ، أسلّم بأنها مشيئتك الحرة ، وانما المهم أن لا تكون مشيئتك هذه قد تغيرت • انك تندفع وتتحمس من أجل كلمة • لقد أصبحت سريع الاهتياج في هذه الآونة الأخيرة • لذلك صرت لا أزورك• على انني كنت أعرف أنك لن تخون •

ـ انني لا أحبك البتة • ولكن في وسعك أن تعتمد عليّ ، رغم انني لا أقبل تعبير الخيانة هنا •

قال بطرس ستيفانوفتش وقد عاد اليه قلقه :

ـ ان علينا مع ذلك أن نتكلم بوضوح حتى لا نتعرض للبلبلة • ان

هذه القضية تتطلب دقة ووضوحاً . وأقوالك هـــذه تقلقنى كثيرا . هل تعدنى بأن تتكلم ؟

قال كيريلوف بخشونة وهو يحدق الى زاوية من الغرفة :

ـ تكلم !

ـ لقد قررت منذ مدة طويلة أن تنتحر ... أقصد أن هذه الفكرة قد قامت في نفسك . هل وُفقت فى التعبير ؟ ألم أرتكب خطأً ما ؟

ـ وهذه الفكرة ما زالت قائمة في نفسى .

ـ عظيم . لاحظ أن أحداً لم يجبرك عليها اجبارا .

ـ نعم . ما أغبى تعبيرك عن فكرك !

ـ طيب ، طيب . لقد عبَّرت عن فكرى بغباء وحماقة . لا شك أبدا في أن الكلام على الاجبار هنا حماقة . والآن أتابع : انك كنتَ عضواً فى الجمعية منذ انشائها ولقد كاشفت أحد أعضائها بمشاريعك .

ـ لم أكاشف أحداً بشيء ، وانما قلت ببساطة ما أريد أن أفعله .

ـ طيب . صحيح . الكلام على « المكاشفة » هنا سخف . لم يكن ذلك منك اعترافا . وانما أنت قلت ما قلته ببساطة . كلام عظيم .

ـ لا ، ليس هذا كلاما عظيما . انك تتردد وتلتوى فى أقوالك ولا تلتزم الصراحة . لستُ مضطراً الى أن أشرح لك كل شيء ، وما أنت بقادر على أن تفهم أفكارى . لقد قررت أن أنهى حياتى لأن هذه فكرتى ، لأننى أريد أن أنتصر على الرعب من الموت ... لأن ... ولكن ليس عليك أن تعرف لماذا . ماذا تريد ؟ شاياً ؟ الشاى بارد . انتظـــر سآتيك بكأس أخرى .

كان بطرس ستيفانوفتش قد أمسك ابريق الشاى فعلاً ، وكان يبحث ببصره عن كأس فارغة . فمضى كيريلوف الى الخزانة ، وتناول منها كأساً نظيفة .

قال الزائر :

ـ لقد تغديت عند كارمازينوف ، وأصغيت الى حديثه ، فعـــرقت ، ثم ركضت لأجيء الى هنا فتصبب عرقي مزيدا من التصبب ، فأنا الآن ميت ظمأً !

ـ اشرب ! الشاى بارد ! ذلك ممتاز .

عاد كيريلوف يجلس ، وحدّق بعينيه مرةً أخرى الى زاويةٍ من الغرفة . واستطرد يقول بتلك اللهجة نفسها :

ـ لقد قدّروا ، في الجمعية ، انني بانتحارى أستطيع أن أخدمهم : فاذا قمتم هنا بعمل شيء ما ، فأخذت السلطات تبحث عن الفاعلين ، أطلقت أنا على رأسي رصاصة تاركاً رسالةً أذكـــر فيها أنني أنا الذى فعلت كل شيء . فبذلك تفلتون من الشبهات خلال سنة بكاملها .

ـ بل تكفينا بضعة أيام ، بل قد يفيدنا يوم واحد أكبر الفائدة .

ـ حسن . فطلبوا مني أن أنتظر . فأجبت بأنني سأنتظـــر الى أن تنبئني الجمعية بأن أفعل ، فأفعل ، لأن الأمور عندى سواء .

ـ نعم ، ولكن تذكّر أنك تعهدت بتحرير هذه الرسالة معي ، وبأن تصبح متى وصلت الى روسيا ... أن تصبح رهن اشارتي ، لهـذا الأمر وحده طبعا ، أما في كل ما عدا ذلك فأنت حر .

كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بلهجة تشبه أن تشتمل على تودد وتحبب .

ـ لم أتعهد بشيء . وانما أنا قبلت لأن الأمور عندي سواء ...

ـ طيب ... طيب ... ليس في نيتي قط أن أجـرح كرامتك ، ولكن ...

ـ ليست المسألة مسألة كرامة .

ـ تذكَّر مع ذلك أنك أُعطيت مائة وعشرين دينـــاراً لتتمكن من السفر . فقد تقاضيت اذن مالاً .

صرخ كيريلوف يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

ـ هذا خطأ ! أنا لا أعمل من أجل مال .

ـ بلى ، أحيانا .

ـ أنت تكذب . لقد كتبت من بطرسبرج عارضاً جميع الايضاحات اللازمة ، وقد رددت في بطرسبرج مبلغ المائة وعشرين ديناراً ، رددته بنفسي ... فالمال رُدَّ اذن ، اللهم الا أن تكون قد احتفظت به لنفسك .

ـ طيب طيب . موافق . لقد رُدَّ المال . وانما المهم أن تكون ماتزال مستعداً لما كنت مستعداً له من قبل .

ـ نعم ، ما أزال مستعداً . فمتى أتيت فقلت لي : « آن الأوان » ، فعلت ما وعدت به . هل الموعد قريب ؟

ـ بعد بضعة أيام ... ولكن لا تنس أن علينا أن نحرِّر الرســـالة معاً في تلك الليلة .

ـ وحتى قبلها بليلة ان شئت . لقد قلتَ ان عليَّ أن أضع على عاتقي تبعة المنشورات التحريضية .

ـ نعم ، وأشياء أخرى أيضا .

ـ لن أحمل نفسي كل شيء .

سأله بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً من جديد :

ـ ما الذى ترفض أن تحمّله نفسك ؟

ـ ما لا أريد ، وكفى هذا ! أصبحت لا أطيق الكلام فى هذا الموضوع !

سيطر بطرس ستيفانوفتش على نفسه وغيّر مجرى الحديث ، قال :

ـ هناك الآن شىء آخر : هل تجىء الليلة الى عند أصحابنا ؟ اليوم عيد فرجنسكى ، وسوف نجتمع متعللين بهذه الحجة ،

ـ لا أريد ،

ـ بل تعال ، أرجوك ، يجب أن تجىء ، يجب أن نفرض عليهم مهابتنا بعددنا ومظهرنا ... ان لك وجهاً ... وجهاً لا تُقاوم له جاذبية ،

قال كيريلوف ضاحكاً :

ـ أهذا رأيك ؟ طيب ، سأجىء ، ولكننى لن أجىء من أجل أن تفرض عليهم مهابتنا بوجهى ، فى أية ساعة يكون الاجتماع ؟

ـ فى وقت غير متأخر ، فى الساعة السادسة والنصف ، وتستطيع أن تدخل فتجلس ولا تكلم أحداً ، مهما يكن العدد كبيراً ، ولكن لا تنس أن تحمل قلماً وبضعة أوراق ،

ـ لماذا القلم والأوراق ؟

ـ بالنسبة اليك لا قيمة لهذا ، أما بالنسبة الىّ فان له قيمةً كبيرة ، ستمكث هناك جالساً لا تقول كلمة ، بل تصغى وتتظاهر من حين الى حين بأنك تدوّن شيئاً ، لك أن ترسم اذا كان يحلو لك ذلك ،

ـ ما هذه السخافات ؟ ما الغرض من هذا كله ؟

ـ أليست الأمور عندك سواء . انك ما تنفك تردد بأن جميع الأشياء عندك سواء .

ـ بل قل لي لماذا !

ـ طيب . اسمع : ان العضو الذي ننتظره ، وهو المفتش ، كما تعلم، لم يستطع أن يغادر موسكو . وأنا قد أبلغت عدداً من الأعضاء أن مفتشنا سيحضر الاجتماع . فسوف يظنون اذن أنك أنت المفتش ، وسيُدهشون دهشة كبيرة لا سيما وأنك هنا منذ ثلاثة أسابيع .

ـ هذه كلها ترهات ! ليس لكم مفتش بموسكو .

ـ طيب . لنسلّم بذلك . لنا مفتش . سحقاً للمفتش . ولكن هل يزعجك ما أطلبه منك ؟ هل يؤذيك أو يسيء اليك ؟ أنت أيضا عضو في الجمعية .

ـ قل لهم انني مفتش . سأبقى جالساً لا أنطـق بكلمة . ولكنني لا أريد قلماً ولا ورقاً .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لا أريد !

صار وجه بطرس ستيفانوفتش ضارباً الى الخضرة من شدة الغضب، ولكنه كظم غيظه وسيطر على نفسه من جديد ، ونهض وتناول قبعتـه . وقال يسأل بصوت خافت :

ـ هل « الآخر » عندك ؟

ـ نعم .

ـ طيب سأخلّصك منه قريباً . اطمئن بالاً ولا تقلق .

ـ لست قلقاً البتة . انه لا يجيء الا في الليل . المرأة العجوز في

المستشفى ، وامرأة ابنها ماتت ، وأنا وحيد منذ يومين . وقــد دللته على اللوح الخشبي الذي يمكن تحريكه بسهولة في الحاجز ، فيستطيــع أن يدخل دون أن يُرى .

ـ سأخلّصك منه قريبا .

ـ هو يقول انه لا تعوزه أمكنة يسكن فيها .

ـ هو يكذب . انه ملاحق مطارد . وهم الى الآن لا يشتبهون في وجوده هنا . هل تتحدث معه مصادفةً ؟

ـ نعم ، طول الليل . انه لا يكف عن شتمك . قرأت عليــه رؤيا يوحنا في الليلة الماضية ، وشربنا شاياً . أصغى بانتباه شديد ، بل شــديد جدا ، طول الليل .

ـ لسوف تهديه الى الايمان بالمسيحية !

ـ انه مســـيحي . ولكن اطمئن : سوف يقتــل . من تريد أن يقتله لك ؟

ـ لا ، لست في حاجة اليه من أجل أن يقتل ، بل من أجـل شيء آخر ... هل شاتوف على علم بأمر فدكا ؟

ـ نحن لا نتخاطب أبدا . أنا وشاتوف لا يرى أحد منا الآخر .

ـ أأنتما متخاصمان ؟

ـ لا ، لسنا متخاصــمين ، ولكن كلاً منا يتحاشى الآخر . لقـــد اضطجعنا في أمريكا جنباً الى جنب مدة مسرفة في الطول .

ـ سأصعد اليه .

ـ افعل ما تشاء .

ـ قد نجيئك أنا وستافروجين بعد الخروج من السهرة في نحو الساعة العاشرة •

ـ تعالا •

ـ هناك أشياء هامة يجب أن أكلمه فيها • اسمع : اعطني كرتك ، هل أنت في حاجة اليها الآن ؟ أنا أيضا سأقوم بتمارين رياضية • سأدفع لك ثمنها ان شئت •

ـ خذها • انني أهبها لك •

وضع بطرس ستيفانوفتش الكرة في الجيب الخلفي من ردنجوته •

دمدم كيريلوف يقول فجأة وهو يشيِّع زائره الى الباب :

ـ لن أعينك على ستافروجين في شيء •

فنظر اليه الزائر مدهوشاً ، ولكنه لم يجب •

ان هذه الكلمات الأخيرة التي قالها كيريلوف قد بثت في نفس بطرس ستيفانوفتش اضطرابا عميقا • ولكن وقته لم يتسع للتفكير في الأمر ، لأنه تذكر وهو يصعد سلَّم شاتوف أن عليه أن يسبغ على وجهه الحانق هيئة ألطف •

كان شاتوف في بيته ، راقداً على سريره وهو مرتدٍ كلَّ ثيابه : كان يشعر بأن حالته الصحية ليست حسنة تماما •

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو في العتبة :

ـ يا لسوء الحظ ! أأنت مريض حقا ؟

واختفى عن وجهه قناع اللطف فجأة ، ولمَ بعينيه لهيب خبيث •

قال شاتوف وهو ينهض :

ـ لا ، أبدا ، لست مريضا البتة • ولكن رأسي •••

كان زائغ الهيئة : ان ظهور بطرس ستيفانوفتش على هذا النحـــو المباغت قد روّعه حقاً .

بدأ بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال بلهجة فيها ايجاز ، وفيها مايشبه أن يكون أمراً :

أنا انما جئت لأحدثك في أمر يقتضي أن تكون في صحة جيدة . اسمح لى أن أجلس .

قال ذلك وجلس ثم أردف يقول :

ـ وأنت عُدْ فاجلس على سريرك . نعم . هكذا . في هذا المساء ، سيعقد بعض أصحابنا اجتماعا عند فرجنسكي ، متعللين بحجة عيد ميلاده. وسأجيء أنا مع ستافروجين . واذ انني عالم بما أنت عليه الآن من حالة نفسية خاصة ، فما كان لى أن أجرّك حتماً الى هذه السهرة ... تحاشياً لتعذيبك بطبيعة الحال ، لا خوفا من وشاية منك . ولكن الظرف يوجب أن تحضر الاجتماع قطعا . ستجد هناك أشخاصا نتفق معهم اتفاقا نهائيا على الطريقة التي يجب أن تخرج بها من الجمعية ، وتعطيهم الأشياء المختلفة المودعة عندك . سنرتب الأمر خفيةً : أقـــودك الى ركن من الأركان ، وهناك يتم كل شيء ، لأن عدد الحضور سيكون كبيرا ، ولا داعي لأن يطلع الجميع على المسألة . لا أكتمك أنني تعبت كثيرا في الدفاع عنك . ولكنهم الآن موافقون فيما يبدو لى . على شرط أن ترد المطبعة وجميع الأوراق طبعا . وبعد ذلك تكون حراً طليقا ، وتمضي الى حيث تشاء .

كان شاتوف يصغي اليه مغتاظ الهيئـة مقطب الحاجبين . ان خوفه العصبي الذى رأيناه فيه منذ قليل قد بارحه الآن تماما . قال شاتوف بلهجة قاطعة :

ـ أنا لا أعد نفسي ملزماً بتقديم حساب لأي شيطان ! لست في حاجة لأن تُردَّ الىَّ حريتي ، فأنا حر .

ـ لا كل الحرية . لقد عُهد اليك بأشياء كثيرة . وليس من حقك أن تترك دون أن تبلغ أحداً ما عزمت عليه . ثم انك لم تفصح عما بنفسك افصاحا واضحا حول هذا الموضوع في يوم من الايام ، فجعلتنا في حيرة من أمرنا .

ـ منذ وصولي بعثت رسالةً واضحة كل الوضوح .

أجابه بطرس ستيفانوفتش بهدوء :

ـ لا ، لم تكن رسالة واضحة البتة . مثال ذلك انني بعثت اليك قصيدة « البطل » لتطبعها هنا ، ولتحتفظ بالنسخ الى أن تُطلب منك ، وكذلك بعثت اليك نشرتين ثوريتين . فرددت هذا كله مع رسالة مشتبهة لا تعني شيئاً على وجه الاجمال .

ـ بل أعلنت صراحة انني أرفض أن أطبع .

ـ نعم ، ولكن جوابك لم يكن واضحا . لقد كتبت تقول : « لا أستطيع » وهذا لا يعني أبدا : « لا أريد » . لقد أمكننا أن نفترض أنك ترفض بسبب بعض الظروف المادية . هكذا فُهم جوابك ، واستُنتج منه أنك ما تزال عضواً في الجمعية . لقد عهدوا اليك بأشياء ، فأصبحوا بذلك معرَّضين للخطر . هم يقولون هنا انك انما أردت أن تخدعهم لتحصل على بعض المعلومات الهامة ثم تشي بهم . وقد دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة ، وأطلعتهم على جوابك الذي يتألف من سطرين ، كوثيقة تبرئك . ولكنني اذ أعدت قراءة هذه الرسالة اضطررت أن أعترف أنا نفسي بأنها لم تكن واضحة ، وبأنها يمكن أن توقع في الخطأ .

ـ هل حرصت اذن على الاحتفاظ برسالتي ؟

ـ فيم يضيرك هذا ؟ انها ما تزال معي •

صاح شاتوف يقول غاضبا :

ـ هنيئاً لكم بها ! ليكن ما يكون ! اذا كان أصحابك الأغبياء هـؤلاء يتصورون أنني وشيت بهم ، فليس يهمني ما يتخيلون ! وددت لو أعرف ما الذي يمكنكم أن تصنعوه بي !

ـ يمكن أن تُراقب ، وأن تشنق عند أول نجاح تحققه الثورة •

ـ أي حين تستولون على السلطة وتسيطرون على روسيا ؟

ـ لا تضحك • أعود فأقول لك انني دافعت عنك • مهما يكن من أمر ، فانني أنصحك بأن تأتي هذا المساء • علام هذه الأقوال التي لا طائل تحتها ، وفيم هذا الزهو الزائف والعجب الباطـــل ؟ أليس الأفضل أن ننفصل على مودة وصداقة ؟ ينبغي لك على كل حال أن تردّ اليهم المطبعة والأحرف ، وكذلك الأوراق القديمة • على هذا انما سنتفق •

جمجم شاتوف قائلاً :

ـ سأجيء •

كان خافض الرأس ، شارد الذهن ، حالم الهيئة • وكان بطـــرس ستيفانوفتش يتفحصه من مكانه خلسة •

وقال شاتوف فجأةً يسأل وهو يرفع رأسه :

ـ هل سيحضر ستافروجين ؟

ـ نعم ، قطعاً •

ـ هيه ، هيه ! •••

وصمت الرجلان من جديد . وابتسم شاتوف ابتسامة فيهـــا مرارة واشمئزاز .

ـ وهل طُبعت أخيرا قصيدتك الدنيئة « البطـل » التى رفضت أن أطبعها ؟

ـ نعم .

ـ وهل يؤكدون لطلاب المدارس الثانوية أن هرتسن نفسه هـــو الذى كتبها فى دفترك .

ـنعم ، هرتســن نفسه .

ساد صمت جديد دام ثلاث دقائق . ونهض شاتوف أخيراً وقال :

ـ أخرج من هنا . لا أريد أن أبقى معك .

فسرعان ما نهض بطرس ستيفانوفتش وقال بما يشبه المرح :

ـ هأناذا أنصرف . كلمة أخيرة : هل كيريلوف وحيـــد تماما فى جناحه الآن بغير خادمة ؟

ـ نعم ، وحيد تماما . هيَّا انصرف . اننى لا أطيق أن أبقى معك فى غرفة واحدة .

حدث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً حين أصـــبح فى الشارع : « هأنت ذا فى أحسن حالة . وفى هذا المساء ستكون على ما أحب لك أن تكون . ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا . نعم ، ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا . ان الاله الروسى نفسه قد أرسلك عوناً لى » .

٧

لا شك أنه تحرك كثيراً في ذلك اليوم ، ولا شك أن مساعيه لم تخل من نجاح اذا صدق ما كان يعبر عنه وجهه من بهجة منتشرة على أساريره حين وصل الى عند ستافروجين في الساعة السادسة تماما من المساء . الا أنهم لم يدخلوه على الشاب فورا ، فان ستافروجين كان منذ برهة قصيرة قد خلا الى مافريكي نيقولايفتش في حجرة عمله . ولقد سبَّب هذا النبأ لبطرس ستيفانوفتش شيئا من انشغال البال . وها هو ذا يجلس قرب باب الحجرة منتظراً خروج الزائر . كان يدرك لفظ الحديث، ولكنه لا يميز الأقوال . ولم تدم زيارة مافريكي نيقولايفتش مدة طويلة . فان فرخوفنسكي لم يلبث أن سمع صيحات قوية ، ثم سرعان ما فُتح الباب وخرج الضابط شاحب الوجه ممتقع اللون ، حتى انه لم يلاحظ بطرس ستيفانوفتش ، ومرّ مسرعاً . فهرع بطرس ستيفانوفتش الى حجرة ستافروجين فوراً .

لا أملك أن أعفي نفسي من أن أصف هنا ، على وجه التفصيل ، اللقاء الذي تم بين « الخصمين المتنافسين » ، وهو لقاء بدا أنه لا بد أن يكون مستحيلاً بسبب الظروف القائمة ، ولكنه تم مع ذلك .

اليكم كيف جرت الأمور : كان نيقولاي فسيفولودوفتش غافياً غفواً خفيفاً على ديوانه بعد الغداء ، حين جاء الكسي ايجورتش يعلن له زيارة مافريكي نيقولايفتش . فلما سمع ستافروجين هذا الاسم هب واقفا على حين فجأة ، وكأنه لم يصدّق أذنيه . غير ان ابتسامةً لم تلبث أن ظهرت على شفتيه ، ابتسامة فيها معنى الزهو بالانتصار ، ولكن فيها معنى الدهشة

المرتابة في آن واحد . ولا شك أن مافريكى نيقولايفتش الذى دخل فى تلك اللحظة ، قد خطفت تلك الابتسامة بصره ، لأنه توقف فى وسط الغرفة فجأة ، وكأنه كان يتساءل أليس الأفضل أن يرجع أدراجه. ولكن ستافروجين قد أسرع يبدّل تعبير وجهه أثناء ذلك ، وها هو ذا يتقدم بضع خطوات للقاء الزائر ويمد اليه يده ، وفى هيئته دهشة صادقة . غير أن مافريكى نيقولايفتش لم يتناول اليد الممدودة ، وأسرع يأخذ كرسياً بحركة خرقاء ، ويجلس أمام رب الدار دون أن يقول كلمة ، ودون أن ينتظر أن يدعوه رب الدار الى الجلوس .

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش على الديوان مواربا ، ونظر الى الزائر بانتباه ، وانتظر صامتاً .

قال مافريكى نيقولايفتش فجأة :

ــ تزوج ليزافتا نيقولايفنا اذا شئت .

وأغرب ما فى الأمر أنه كان يستحيل على المرء أن يدرك من لهجته هل عبارته تلك رجاء أم هى نصيحة ، أم هى تنازل ، أم هى أمر يأمره به .

لبث نيقولاى فسيفولودوفتش صامتاً . لكن الزائر وقد عبّر تعبيراً واضحاً عن الهدف من زيارته كان يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وينتظر جوابه.

قال ستافروجين أخيراً :

ــ اذا لم أخطىء ، وما أنا بمخطىء حتماً ، فان ليزافتا نيقولايفنا خطيبتك .

أجاب الزائر مؤيداً بصوت واضح ثابت :

ــ نعم ، نحن مخطوبان رسمياً .

ـ هل ... تشاجرتما ؟ معذرة يا مافريكي نيقولايفتش .

ـ لا ! انها « تحبني » ، وهي « تقدرني » . هذه أقوالها هي نفسها، وأقوالها أثمن شيء عندي .

ـ طبعاً .

ـ ألا فاعلم مع ذلك أنها اذا ناديتها أنت أثناء قيام الكاهن بمراسم زواجنا في الكنيسة أمام الهيكل وهي واضعة حجابها على وجهها ، فسوف تبادر الى تركي أنا والآخرين في سبيل أن تلبي نداءك وتتبع خطاك !

ـ حتى في لحظة الزواج ؟

ـ حتى في لحظة الزواج .

ـ ألست تخطيء الظن والتقدير ؟

ـ لا . انها تحت الكره المستمر الصادق العميق الذي تحمله لك ، يتفجر في قلبها الحب في كل لحظة ... وينفجر الجنون ... أصدق الحب وأوسعه ... والجنون ! وبالعكس : تحت الحب الذي تحمله لي يتفجر الكره ، يتفجر كره فظيع رهيب . ما كان لي أن أتخيل في يوم من الأيام قبل الآن حدوث تحولات كهذه التحولات ... أو انقلابات كهذه الانقلابات !...

ـ يدهشني مع ذلك أنك خطيب ليزافتا نيقولايفنا والحال ما وصفت ! هل لك حق في ذلك ؟ هل أجازته هي لك ؟

اكفهر وجه مافريكي نيقولايفتش وخفض رأسه .

وقال أخيراً :

ـ انك تنطق بأقوال لا داعي اليها ولا جدوى فيها . انك تنتقم وتنتصر . أنا على يقين من أنك تقرأ بين السطور . هل هنا مجال لزهو

كهذا الزهو ؟ ألست راضياً كل الرضى ، مرتاحاً كل الارتياح ؟ هل يُعقل أن أظل مضطراً الى وضع النقاط على الحروف ؟ أن أكون ما أزال محتاجاً الى توضيح الأمور ؟ طيب ! ليكن ! سوف أضع النقاط على الحروف اذا كنت في حاجة الى اذلالى . ليس لى أى حق ، ولم أحصل على أية اجازة . ان ليزافتا نيقولايفنا ليست على علم بشيء ، وقد فقد خطيبها كل شعاع من عقل وأصبح مهيأً لدخول مستشفى من مستشفيات المجانين . وأعجب ما فى الأمر أنه يجيئك هو نفسه ليعلن لك ذلك . انك الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يجعلها سعيدة ، فى هذا العالم ؟ وليس هناك الا رجل واحد يستطيع أن يجعلها شقية : وهذا الرجل الأخير هو أنا . انك تكافح فى سبيل الظفر بها ، وتعذبها وتضطهدها ، ولكنك ـ وهذا ما لا أدرى سببه ـ لا تتزوجها . اذا كان الأمر بينكما لا يعدو أن يكون أمر اختصام حبيبين قام بينهما فى الخارج ، واذا كان يجب علىَّ فى سبيل انهاء هذا الاختصام أن أضحى بنفسى فأنا مستعد للقيام بهذه التضحية . ليست أقوالى هذه اجازة ولا أمراً . فما ينبغى أن يُجرح من هذا شعورك ، ولا أن تُمسَّ كبرياؤك . اذا أردت أن تحل محلى أمام الهيكل فى الكنيسة ففى وسعك أن تفعل ذلك دون أن أجيزه له ، وما كانت بى حاجة طبعاً الى أن أعرض جنونى . لا سيما وأن زواجنا ، بعد هذه الخطوة التى قمت بها ، قد أصبح مستحيلاً . لا أستطيع الآن أن آخذها الى الكنيسة للزواج : فوجودى هنا ، وكونى جئتك متنازلاً لك عن خطيبتى ، جئتك أنت عدوَّها، هما فى نظرى دناءة لن أستطيع احتمالها طبعاً .

ـ هل تنتحر حين نُزوَّج ؟

ـ لا ! ولكن انتحر بعد مدة طويلة . لا أريد أن ألطخ بدمى ثوب زفافها . وقد لا انتحر لا الآن ولا فى المستقبل .

ـ اغلب الظن أنك تقول هذا الكلام لتهدئنى .

ـ لأحدثك ؟ وهل يعنيك قليل من الدم زيادة أو نقصاناً ؟

كان شاحب الوجه ، وكانت عيناه تسطعان . وران الصمت دقيقة .

استأنف ستافروجين كلامه فقال :

ـ اعذرني اذا أنا سألتك . ان هناك اسئلة لا يحق لي حتى أن ألقيها عليك . غير أن بين تلك الأسئلة سؤالاً يخيل الي أنه يجوز لي القاؤه . قل لي : ما الذي حضك على الاعتقاد بعواطفي نحو ليزافتا نيقولايفنا ؟ على أي أساس أقمت هذا اليقين الذي أتاح لك أن تجيء الي وتصارحني بما صارحتني به ... وأن تجازف فتعرض علي هذا العرض ؟

قال مافريكي نيقولايفتش وهو ينتفض دهشة :

ـ كيف ؟ ألم تحاول أن تخطبها ؟ ألا تطمع في زواجها ؟ ألا تفكر أنت نفسك في هذا ؟

ـ انني على وجه العموم لا أستطيع أن أكلم أي انسان عن عواطفي نحو امرأة . معذرة . هذه سمة شاذة من سمات طبيعتي . ولكنني في مقابل ذلك سأقول لك الحقيقة كلها فيما يتعلق بالباقي : انني متزوج ، ويستحيل علي اذن أن أتزوج امرأة أخرى ، أو أن أحاول « طلب يد امرأة أخرى » .

بلغ مافريكي نيقولايفتش من الذهول أنه ارتمى الى وراء ، وحدق الى وجه ستافروجين بنظرة متجمدة . ثم دمدم يقول بعد برهة :

ـ تصور أنني لم أكن أتوقع أي شيء من هذا القبيل بتاتاً . لقد قلت منذ حين انك لست متزوجاً ... فصدقت أنا أنك لست متزوجاً ...

واصفر وجهه اصفراراً رهيباً . وها هو ذا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية على حين فجأة ، ويقول :

ـ بعد اعتراف كهذا الاعتراف ، ان لم تدع ليزافتا نيقولايفنا وشأنها هادئة البال فانها تشقيها ، ولأضربنَّك عندئذ بالعصا كما يُضرب كلب .

قال ذلك ونهض واثباً وأسرع يخرج من الغرفة .

وهُرع بطرس ستيفانوفتش يدخل على رب الدار ، فوجده في حالة نفسية لم يكن يدور في خلده أن يجده عليها .

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً يبدو أن دخول بطرس ستيفانوفتش متعجلاً مستطلعاً عجيب الهيئة هو الذي أطلقه فيه :

ـ آ .. هذا أنت ! أكنت تتنصت على الباب ؟ انتظر ! لماذا كان عليك أن تجيء ؟ أظن أنني كنت قد وعــدتك بشيء ما ... آ ... نعم ... تذكرت : سنذهب الى « جماعتنا » ! أنا سـعيد بوصولك ! لا تستطيع أن تتخيل شيئاً جاء في محله كوصولك الآن .

وتناول قبعته ، وانصرفا فوراً .

قال بطرس ستيفانوفتش مرحاً :

ـ انك تضحك سلفاً من فكرة رؤية « جماعتنا » .

وكان بطرس ستيفانوفتش يحاول تارة أن يمشي الى جانب رفيقه على رصيف الآجر الضيق ، وتارة يركض على وحل أرض الشارع ، لأن ستافروجين لم يلاحظ البتة أنه كان يسير في وسط الرصيف فيملؤه كله.

أجاب ستافروجين يقول بصوت رنان فرح :

ـ أنا لا أضحك بتاتاً. بالعكس : انني مقتنع بأنهم جميعاً أناس جادون

ـ ما هم الا « أغبياء متجهمون » ، كما تفضلت فوصفتهم بهذا في يوم من الأيام .

ـ لا شيء أدعى الى التسلية أحياناً من رؤية « أغبياء متجهمين » !

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ آ ... لا شك أنك تفكر في مافريكي نيقولايفتش . أنا واثق بأنه جاء يعرض عليك أن يتنازل لك عن خطيبته ، هه ؟ تصور انني أنا الذي حضضته على هذا حضاً غير مباشر ! واذا رفض أن يتنازل عنها ، فسنأخذها منه أخذاً ، هه ؟

كان بطرس ستيفانوفتش يعرف حتماً ما يخاطر به حين يتكلم بهذه اللهجة . ولكنه حين يكون حالة من الاهتياج الشديد يؤثر أن يجازف بكل شيء على أن يظل في حالة بلبلة ليس فيها يقين .

اكتفى ستافروجين بأن ضحك . وسأله :

ـ أما تزال منتوياً أن تساعدني ؟

ـ نعم ، اذا ناديتني ، ولكن هل تعلم أن هناك وسيلة أخرى ، أفضل كثيراً ؟

ـ أعرف هذه الوسيلة .

ـ لا . ان الأمر ما يزال سراً . ولكن لا تنس أن هذا السر يكلف مالاً .

ـ أعرف مبلغ المال اللازم !

كذلك قال ستافروجين ، ولكنه سيطر على نفسه وصمت .

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قلق فجأة :

ـ كم ؟ ماذا قلت ؟

ـ قلت : اذهب الى الشيطان ، أنت وسرك ! الأفضل أن تقول لي الآن : من هم الذين سنلقاهم هناك ؟ أنا أعلم أن الأمر أمر احتفال بعيد فرجنسكي ، ولكن من هم المدعوون الى الحفلة ؟

ـ أنواع شتى ! وسيكون هناك كيريلوف أيضاً .

ـ جميع أعضاء فئتك ؟

ـ هوه ! أرى أنك متعجل كثيراً . اننا لم نكوّن هنا فئة واحدة حتى الآن !

ـ فماذا فعلت اذن حتى استطعت أن توزع ذلك العدد الكبير كله من النشرات التحريضية ؟

ـ في المكان الذي نذهب اليه لا يوجد الا أربعة أعضاء منتسبون . أما الآخرون فانهم ينتظرون متجسسين بعضهم على بعض ، وينقلون الىّ كل شيء . أناس مضمونون . تلك كلها مواد يجب تنظيمها ، ثم تجرى الأمور . ثم انك أنت الذي وضعت النظم التي يجب اتباعها ، فما حاجتي الى شرح هذا لك ؟

ـ والأمور لا تجرى ؟

ـ بل تجرى ! لا يمكن أن تجرى خيرا من ذلك ! سوف أضحكك : ان أحسن وسيلة للتأثير انما هي الزى الرسمي الموحد . لا شيء أقوى أثرا من الزى الرسمي الموحد . لذلك أوجدت طائفة كبيرة من الألقاب والوظائف : انني أنشيء سكرتيرين ، ومفوضين سريين ، وأمناء صندوق ، ورؤساء ، ومسجلين ، ومساعدين للمسجلين . ذلك كله يرضى كثيرا ، ويحدث في النفوس أثرا كبيرا . ثم هنالك العاطفية طبعا . ان الفضل في نجاح الاشتراكية يرجع أكثره الى العاطفية . وانما البلاء أن المرء يقع

احياناً على ضباط صغار حانقين مسعورين ما يلبثون أن يعضوا . وهناك أيضاً أناس ليسوا الا أوغاداً . هم رجال شجعان على وجه الاجمال ، رجال يمكن الانتفاع بهم كثيراً . غير أن المرء يضيع معهم وقتاً طويلاً ، لأن عليه أن يراقبهم عن كثب . والقوة الرئيسية أخيراً ، أو قل الاسمنت الذي يربط كل شيء ويشد بعضه الى بعض ، انما هو الخوف من رأي الآخرين . هذه قوة حقاً ! انني لأتساءل أحياناً عمن يجب أن نشكر له أنه برع تلك البراعة كلها في أنه جعل الناس لا يملك واحد منهم فكرة شخصية . لكأنهم يستحيون أن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم .

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تحمّل نفسك هذا العناء كله ؟

ـ كيف لا تستفيد من هذا الظرف ؟ كيف لا تستولى على من يمد اليك ذراعيه ؟ أأنت لا تؤمن حقاً بالنجاح ؟ الايمان موجود ، لكن ما نفتقر اليه انما هو ارادة العمل . ومع أمثال هؤلاء الناس انما يكون النجاح ممكناً . أقول لك : انهم مستعدون لأن يلقوا أنفسهم في النار اذا لزم الأمر . يكفيني من أجل ذلك أن آخذ عليهم فتور اعتقاداتهم . ان البلهاء يعيبون عليّ أنني خدعت جميع الناس حين تكلمت عن اللجنة المركزية ، و « تشعباتها التي لا نهاية لها » . أنت نفسك لمتنى على هذا في ذات يوم. والواقع انني لم أخدع أحداً : ان اللجنة المركزية هي أنت وأنا . وأما تشعباتها فسوف يكون لنا منها القدر الذي نشاء .

ـ ولا أحد غير الرعاع ؟

ـ هؤلاء مواد . سوف يكونون نافعين في شيء ما .

ـ وما تزال تعتمد عليّ ؟

ـ أنت زعيم . أنت قوة . أنا أقف في ظلك . أنا سكرتيرك .

انا نبحر على ظهر سفينة ، مجاديفها من قبقب ، وأشرعتها من حرير ، وفي مؤخرتها تتربع ليزافتا نيقولايفنا الجميلة *... أوه ! نسيت الأغنية !...

قال ستافروجين ضاحكاً :

ـ ها هو ذا ينسى بقية القصة . سأحكي لك حكاية أخرى . لقد أتيت منذ هنيهة على تعداد القوى التي تملكها وتتصرف فيها . صحيح أن الوظيفية والعاطفية هما اسمنت ممتاز حقاً . غير أن هناك ما هو خير من هذا : ادفع أربعة من أعضاء فئتك الى قتل خامسهم بحجة أنه يخونهم أو يتجسس عليهم أو يشي بهم ، فان هؤلاء الأربعة ما ان يشتركوا معاً في سفك دم حتى يرتبطوا ارتباطاً قوياً ، فيصبحوا عبيداً لك ، ولا يجسروا بعد ذلك أن يتمردوا ، أو أن يحاسبوا . هأ هأ هأ ! ...

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه : « أنت ... أنت ستدفع لي ثمن هذا . بل ستدفعه في هذا المساء نفسه . انك تجيز لنفسك أشياء كثيرة مسرفة في الكثرة !... » .

في هذا أو فيما يشبهه انما فكر بطرس ستيفانوفتش . وكانا قد اقتربا من دار فرجنسكي .

سأله ستافروجين قائلاً :

ـ أغلب الظن أنك قدمتني بصفتي عضواً في اللجنة المركزية آتياً من بطرسبرج ، أو مفتشاً على صلة بالأممية * ، أليس كذلك ؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش بقوله :

ـ لا ، لم أقدمك مفتشاً . لست أنت المفتش . وانما أنت أحد

الأعضاء المؤسسين ، وأنت على علم بأهم أسرار التنظيم . ذلك هو دورك . سوف تتحدث حتماً ، أليس كذلك ؟

ـ من زعم لك هذا ؟

ـ أنت الآن ملزم بالتحدث .

وقف ستافروجين مدهوشاً في وسط الشارع ، غير بعيد عن أحد المصابيح . ولبث بطرس ستيفانوفتش ينظر اليه وفي وجهه تحد . فبصق ستافروجين وتابع طريقه . ثم سأل صاحبه :

ـ وأنت هل سوف تتحدث ؟

ـ لا بل اكتفي بالاصغاء اليك .

ـ شيطان يأخذك ! ولكن اسمع ... انك توحي اليّ في الواقع بفكرة ...

أسرع بطرس ستيفانوفتش يسأله :

ـ ما هي هذه الفكرة ؟

ـ جائز جداً أن أتحدث هناك . ثم أهوى عليك بضرب مبرّح !

ـ بالمناسبة ، لقد نقلت الى كارمازينوف منذ قليل أنك قلت ان من الواجب أن يُجلد ... لا جلداً شكلياً فحسب ، بل جلداً حقيقياً كما يُجلد فلاح !

ـ لكنني لم أقل هذا الكلام في لحظة من اللحظات .

ـ سيان ... « اذا لم يكن هذا واقعاً ، فهو خيال جميل . » *. (باللاتينية) .

ـ طيب ... شكراً ! أنا ممتن أعظم الامتنان .

ـ هل تعرف ماذا يقول كارمازينوف ؟ يقــول ان عقيدتنا فى الواقع تنفى الشرف ، وان خير وسيلة لاغراء الروس وجرّهم انما هى الدعوة الصريحة الى حق المرء فى انكار الشرف •

صاح ستافروجين قائلاً :

ـ كلمات رائعة ! كلمات من ذهب ! لقد وضع اصبعه على الحقيقة ! الحق فى انكار الشرف ! جميــعالناس سيجيئون الينا • لن يشاء أحد أن يبقى فى الخلف ! ولكن ألا يمكن أن تكون فرداً من أفراد من الشرطة السرية يا فرخوفنسكى ؟

ـ حين يكون فى رأس المرء أفكار كهذه ، فانه يحاذر أن يعلنها ••

ـ صحيح • ولكننا نتكلم الآن على انفراد لا يسمعنا أحد •

ـ لا ، لست من الشرطة السرية بعد • ولكن كفى ! لقد وصلنا • اصطنع السحنة المناسبة للظروف يا ستافروجين • اننى دائماً افتعل هيئــة خاصة حين أدخل عليهم • يكفى أن تتخذ هيئة مظلمة • ذلك كل شيء ، ليس الأمر أصعب من هذا •

شخصيات الرواية

اركل

ضابط ، عضو فى الجمعية السرية الثورية

آرينا بروخوروفنا

راجع اسم فرجنسكى

الكسى ايجورتش او ايجوروفتش

خادم فرفارا بتروفنا ، ومحل ثقتها

الكسى نيليتش

راجع اسم كيريلوف

ليزافتا نيقولايفنا

راجع اسم لوشين

آندره انطونوفتش

راجع اسم لمبكه

ايفان اوسيبوفتش

حاكم المقاطعة السابق · قريب فرفارا بتروفنا ستافروجين ·

باشكا

تصغير اسم بافل فيدوروفتش

بتروشكا

تصغير اسم بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى

براسكوفيا ايفانوفنا

راجع اسم دروزدوف ·

بطرس ستيفانوفتش

ويرد اسمه مصغرا : بتروشكا
راجع اسم فرخوفنسكى

بلومر (فون بلومر)

سكرتير الحاكم آندره انطونوفتش فون لمبكه ، ومحل ثقته .

تلياتنيكوف (اليوشا تلياتنيكوف)

سكرتير الحاكم السابق ايفان أوسيبوفتش

توشين

هي اليزافتا أو ليزافتا نيقولايفنا توشين . ويرد اسمها مصغرا : ليزا ؛ ولدت لبراسكوفيا ايفانوفنا منزوجها الأول الكابتن لوشين. خطيبة مافريكى نيقولايفتش .

تولكاتشنكو

مستخدم في السكك الحديدية . عضو الجمعية السرية الثورية .

تيخون

أسقف معتزل فى دير . يتلقى اعتراف نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين .

جاجانوف (ارتيمى بافلوفتش جاجانوف) .

كابتن متقاعد . ابن بافل بافلوفتش جاجانوف ، رجل عجوز ممن يحيطون بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

ج ... ف (انطون لافرنتيفتش)

القاص . صديق ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

جوليا ميخائيلوفنا

راجع اسم لمبكه

داريا بافلوفنا

ويرد اسمها مصغرا : داشا ، داشكا
راجع اسم شاتوف .

داشا ، داشكا

تصغير اسم داريا بافلوفنا

دروزدوف (براسكوفيا ايفانوفنا دروزدوف)

أرملة الكابتن توشين ، ثم الجنرال ايفان ايفانوفتش دروزدوف ، صديقة آل ستافروجين · أم اليزافتا نيقولايفنا توشين ·

ستازيا

تصغير اسم ناستاسيا

ستافروجين (فرفارا بتروفنا ستافروجين)

مالـــكة أطيان ، غنية ؛ أرملة الجنرال ستافروجين · أم نيقولاى فسيفولودوفتش (نيقولنكا) ، الضابط سابقا ، المنتمى الى الجماعة الثورية · متزوج سرا من تيموفئيفنا لبيادكين ·

ستيفان تروفيموفتش

راجع اسم فرخوفنسكى

سيميون ايجوروفتش

راجع اسم كارمازينوف

سيميون ياكوفلفتش

« مجذوب » ينسبون اليه مواهب نبوءة ·

شاتوف (ايفان شاتوف)

طالب ، عضو سابق فى الجمعية السرية الثورية · ابن القن بافل فيدوروفتش (باشكا) الذى كان خادم آل ســــتافروجين · زوج ماريا اجناتيفنا ، وأخو داريا بافلوفنا (داشا ، داشكا) · ربيب فرفارا بتروفنا ستافروجين ·

شيجاليوف

أخو آرينا بروخوروفنا فرجنسكى · عضـــو فى الجمعية السرية الثورية ·

صوفيا ماتفيفنا اوليتينا

بائعة متجولة ، رفيقة سفر ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى

فرجنسكى

موظف . عضو فى الجمعية السرية الثورية . زوج آرينا بروخوروفنا ، القابلة ، أخت شيجالوف .

فرخوفنسكى (ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى)

أستاذ سابقا . أديب . صديق فرفارا بتروفنا ستافروجين التى ترعاه وتحميه . أبو بطرس ستيفانوفتش (بتروشكا) رئيس الجمعية السرية الثورية .

فرفارا بتروفنا

راجع اسم ستافروجين .

فومكا زافيالوف

عامل . قاتل . شريك فيدكا فى الجرم .

فدكا او فيدكا (لبت فيدور فيدوروفتش)

محكوم عليه بسجن الأشغال الشاقة . هارب وقاتل .

كارمازينوف

كاتب شهير . قريب جوليا ميخائيلوفنا فون لمبكه

كيريلوف (الكسى نيليتش كيريلوف)

مهندس . رفيق شاتوف بالمهجر . عضو الجمعية السرية الثورية .

لبيادكين (اجناس لبيادكين)

يزعم أنه كابتن متقاعد . عشيق آرينا بروخوروفنا فرجنسكى سابقا . أخو ماريا تيموفئيفنا المتزوجة نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين .

لمبكه (أندره انطونوفتش فون لمبكه)

حاكم الاقليم . زوج جوليا ميخائيلوفنا قريبة أسرة دروزدوف .

ليامشين

مستخدم بمصلحة البريد . يمثل دور المسلى فى بيئة ستيفان تروفيموفتش ثم فى بيئة جوليا ميخائيلوفنا . عضو الجمعية السرية الثورية .

ليزا

تصغير اسم ليزافتا نيقولايفنا توشين

ليبوتين (سرجي فاسيليفتش ليبوتين)

موظف . متعلق بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى . عضو الجمعية السرية الثورية .

ليزافتا نيقولايفنا

راجع اسم توشين

ماريا تيموفيئفنا

راجع اسم لبيادكين

ماريا اجناتفنا

امرأة ايفان شاتوف الذى تركته من أجل نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين .

ناستاسيا

ويرد اسمها مصغرا : ستازيا

خادمة ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى .

نافريكى نيقولايفتش

كابتن . ابن أخت الجنرال دروزدوف . خطيب ليزافتا نيقولايفتش توشين .

نيقولاى فسيفولودوفتش

ويرد اسمه مصغرا : نيقولنكا

راجع اسم ستافروجين .

نيقولنكا

تصغير اسم نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين

حواش

٩ ★ ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي : ان هـــذا الاسم العلم مشـــتق من الكلمة الروسية المجردة فرخوفنستفو ، ومعناها التفوق · وهو يمكن أن يدل على أن هــذه الشــخصية ، كأكثر الاساتذة الروس ، تنحدر من أرومة من رجال الدين · غير أن له معنى أعمق كما تبين ذلك ملاحظة وردت في احدى مسودات الرواية ، حيث يقول دوستويفسكي : « ان فرخوفنسكي يظل طوال الرواية ينافس ابنه على التفوق » (فرخوفنستفو) ·

١٠ ★ بطرس تشاديييف (١٧٩٣ ـ ١٨٥٧) : ضـابط سابق من ضباط فرسان الحرس ، وكاتب سياسي ، وفيلسوف اعتنق الكاثوليكية · ألف باللغة الفرنسية أربع «رسائل فلسفية» ، يظهر فيها تعصبه الشديد للغرب ، ويحكم حكما قاسيا على روسيا التي يرى أنها في أعقاب انقسام الكنيسة قـد انشقت عن الغرب » ثم لم تحمـــل الى التراث الانساني المشترك أي فكرة · والرسالة الاولى من تلك الرسائل الأربع قد ترجمت الى اللغة الروسية ونشرت دون علمه · فعل ذلك الأستاذ نادجدين اذ نشر الرسالة في مجلته «التلسكوب» سنة ١٨٣٦ ؛ فكانت فضيحة · وقد منعت مجلة التلسكوب ونفي محررها الى برم، كما أعلن رسميا أن كاتب الرسالة مجنون ، وصار يزوره طبيب في كل اسبوع ·· ولـــكن ذلك لم يمنعه من التألق بأحاديثه الكاوية في صالونات موســـكو ، حيث كان أنصـــار الغرب يقدسونه تقديسا ·

أما بيلنسكي الذي يورد المؤلف اسمه بعده فهو فساريون بيلنسكي (١٨١١ ــ ١٨٤٨) الناقد الادبي الشهير الذي كان في أول الأمر من أنصار النزعة الغربية اللبرالية ، ثم صار في أواخر سني حياته الى الاشتراكية ·

وأما جرانوفســكي الذي يرد اســمه بعد ذلك فهــو تيموتي

جرانوفسكي (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) أستاذ التاريخ العام بجامعة موسكو · وقد حصل علومه في ألمانيا ، وكان من أنصار النزعة الغربية المعتــدلين · وكان لمحاضراته عن تاريخ أوروبا في القرون الوسطى دوى كبير في الأربعينات من القرن التاسعءشر

وأما الكســندر هرتسن (٨١٢ ـ ١٨٧٠) فهــو الابن الشرعي والوريث للمليونير اسمه ايفان باكوفليف ، وهو كاتب لامع من دعاة النزعة الغربية · وقــد بدأ بالفيلسوف الالماني هيجل ، شأنه في ذلك شأن بيلنسكي ، ثم صار الى اشتراكية ثورية · وهاجر منــذ سنة ١٨٦٠ ، وأنشأ في لندن مجـلة معارضة اسمها « الناقوس » نفذت الى روسيا بل وصلت حتى الى مكتب الكسندر الثاني ، وكان لها في العقول تأثير كبير ·

١١ ★ « مدينة هاناو الألمانية الصغيرة) : تقع على نهر الماين ، وهي مدينة ليس لها أي شأن · وههنا في الواقع اشارة الى رسالة الدكتوراه التي كتبهـا جرانوفسكي عن مدن القرون الوسطى «فولن» ، و «يومسبورج» ، و «فينيتا» (١٨٤٠) ، والتي جرح فيها شعور أنصار السلافية · ويحسن أن نشير هنا عابرين الى أن الرسالة الاولى التي يقدمها صاحبها الى الجامعة في روسيا لا تخوله الا لقب «مرشح» · ولكي يصبح استاذا فوق العادة يجب أن يقدم رسالة «استاذية» · ولكي يصبح أستاذا عاديا يجب يقدم رسالة «دكتور» · وكانت المناقشة العلنية لهــذه الرسائل تعد في روسيا على الدوام حدثا هاما ·

ويظهر أن هذا الاستاذ جرانوفسكي نفسه قد نشر سنة ١٨٤٧ في مجلة «مكتبة القراءة» التي كان يصدرها سنكوفسكي دراسة عن الفارس بايار وفيها يمجد مزاياه الاخلاقية ·

١٢ ★ حين اعتقال أعضاء حلقة بتراشفسكي ، في الثـالث من شهر نيســان (أبريل) ســـنة ١٨٤٩ عثروا لدى سرجي دوروف رســالة من الشاعر آ· بلشتايف يتكلم فيها عن جرانوفسكي ممجدا معظما · وقد آمر الجنرال حاكم موســكو يومذاك بأن يراقب الاستاذ مراقبة سرية ·

١٢ ★ وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩ اتهم جرانوفسكي بانه يعـــادي الدين في محـــاضراته ، واضطر أن يقدم ايضاحات للسلطات المختصة بموسكو ·

والـــكلام على الجمعية التي يبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر انما هو اشـــارة دعابة الى حلقة بتراشفسكي التي كانت تدين بالاشتراكية ، والتي انتمي اليها دوستويفسكي من ١٨٤٦ الى ١٨٤٩ ·

أما ما يرد بعـــد ذلك من كـــلام عن قصـــيدة لستيفان تروفيموفتش فان دوستويفسـكي حين يشرح هـــذه القصيدة يجعل منها محاكاة للقصيدة الرومانسية التي نظمهـا فلاديمير بتشيرين بعنوان « انتصار الموت » ، ســـنة ١٨٣٤ ؛ ان كاتب القصيدة هو أســـتاذ في فقه اللغة (١٨٠٧ ـ ١٨٨٥) غربي النزعة ، درس ببرلين ، وترك كرسيه الجامعي بموسكو مهاجرا الى انجلترا حيث صار كاهنا كاثوليكيا · اننا نرى في هـــذه القصيدة أغاني رياح ونجوما ولهبا · والموت يظهر فيهـا فتى جميلا جمالا لا مثيل له ، ممتطيا صـــهوة جواد أبيض ، تهتف له الشـــعوب في مختلف الكواكب صائحة باللغـة الفرنسية «عاش الموت» ، «عاش الموت» · وهذه القصيدة المحتدمة الحارة قد ضمنها هرتسن سنة ١٨٦١ الديوان الذي أسماه « الادب السري الروسي في القرن التاسع عشر · واليكم مقطعا من تلك القصيدة :

ما اجمل ان يبغض المرء وطنه ،
أن ينظر دماره نهما ،
أن يتنبأ من خراب بلده
بحلول يوم التغير الكوني الشامل ·

٣١ ★ نستور كوكولنيك (١٨٠٩ ـ ١٨٦٨) : شاعر وكاتب خصب أصـــبح الآن منسيا ، وقـــد ألف تراجيديات تاريخية تناصر الاتجاه الملكي ·

٣٢ ★ توكفيل (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) : الصـــحفي الشهير والسياسي

الفرنسي ، مؤلف كتاب «النظام القديم» وكتاب «الثورة» ، وقد كان مقروءا في روسيا ·

أما روايات بول دوكوك فقد كانت رائجة في روسيا رواجا كبيرا ·

٣٤ ★ نيقولا رادشتشيف : مؤلف كتاب ثوري عنوانه « رحلة من سان بطرسبرج الى موسكو » · ظهر الكتاب سنة ١٧٩٠ ·

٣٨ ★ في سنة ١٨٦٢ كانت تعقد في بطرسبرج اجتماعات تناقش مشكلات تربوية ، منها تبسيط قواعد الاملاء · حتى لقد اقترح رجل يقال له كاوفسكي احلال الألفباء اللاتينية محل الألفباء الروسية · وقد نشرت مجلة دستويفسكي « الزمان » ، سنة ١٨٦٢ ، مقالة عن هذه المشاجرة حول الاملاء ·

٣٨ ★ نشرت مجلة « روسيا الفتاة » سنة ١٨٦٢ مقالة بقلم زايتنشنيفسكي نداء تطالب فيه باحالة روسيا الى اتحاد جمهوري فدرالي لمقاطعات ، وتطالب باحلال ميليشيا وطنية محل الجيش ، وباستقلال بولنده ، وبالغاء الحواجز وحق الارث ، وبالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء ، الخ ··

٣٩ ★ آندره كرايفسكي (١٨١٠ ـ ١٨٨٩) ، هو ناشر ورئيس تحرير مجلة « حوليات الوطن » ·

٤١ ★ « ليف كامبيك » : ناشر جريدة رسول بطرسبرج من ١٨٦١ الى ١٨٦٢ أما « فييك » (العصر) فهي جريدة يومية كانت تصدر في ذلك الأوان نفسه · وهنا يسخر دوستويفسكي سخرا قائما على التقفية كما كان ذلك رائجا أيامذاك ·

٤٤ ★ « سهرات أثينية » اشارة الى المناقشات الفلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء ، وهي السهرات التي تكلم عنها أفلاطون ·

٤٨ ★ ليبوتين : تدل مسودات رواية الشياطين على أن دوستويفسكي قد استخدم في تصوير هذه الشخصية شخصية صديقه الكسندر ميليوكوف (١٨١٧ ـ ١٨٩٧) وهو مؤرخ أدب وعالم

تربية عرفه في حلقة بتراشفسكي · لقد كان ميليوكوف من المعجبين باشتراكية فورييه وكان في الوقت نفسه طاغية في منزله ·

٤٨ ★ شاتوف : اسم لعـــل المؤلف اشتقه من كلمة شاتات بمعنى اهتزاز أو ترجح · فربما كان في هذا اشارة الى ما تتصف به آراء هذه الشخصية من عدم الاستقرار ·

٥٢ ★ فرجنسكي : اسم مشتق من الكلمة اللاتينية فيرجو/فيرجينيس (العذراء) ؛ ولا بد أن يدل على أن صاحب هذا الاسم ينتمي الى فئة أبناء رجال الدين ·

٥٤ ★ محاكاة لرأي من آراء تشـيرنشفسكي عن الحب الحـر ، وهي الآراء التي عرضها في كتابه « ما العمل ؟ » ·

٥٨ ★ « عن الاله الروسي خاصة » : اشارة الى قصيدة نقدية هجائية نظمها الامير بطرس فيازمسكي (١٧٩٢ ــ ١٨٧٨) وظهرت سنة ١٨٢٨ بعنوان « الاله الروسي » ·

٥٨ ★ بعد الحملة المهزومة التي قام بها غاريبالدي سنة ١٨٦٢ أكثر الكلام على تجريد البابا من سلطته الزمنية ·

٥٩ ★ هو يوم الغاء الرق أو القنانة (١٩ شباط فبراير ١٨٦١) ·

٦١ ★ « الكارامنسكايا » : رقصة روسية شعبية يصاحبها غناء فخر ·

٦١ ★ راشيل العظيمة : ايليزا راشيل (١٨٢١ ــ ١٨٥٨) الممثلة الدرامية الشهيرة المولودة بروسيا · ولقد قامت بجـــولة في روسيا ١٨٥٣ ــ ١٨٥٤ ولقيت نجاحا كبيرا ·

٦١ ★ « أزهار الامبراطورة » : عطر كان على الموضة ، وقـــد سمي كذلك تكريما للامبراطورة أوجينيا ·

٦١ ★ « أنطون جوريميكا » : قصة كتبهـــا ديمتري جريجوروفتش (١٨٢٢ ــ ١٨٩٩) ، صديق شباب دوستويفسكي كما نعلم · وقـــد نشرت القصة سنة ١٨٤٧ ، وفيها يصف المؤلف بطريقة واقعية عاطفية في آن واحد آلام قن فقير ·

٦١ ★ « أنطون بتروف » : فـــلاح من قرية بزدنا فى اقليم قازان ، زعيم عصـــيان قام به الفــــلاحون فى تلك القرية · لقد كان الفلاحون مستائين من أن اصلاح ١٨٦١ لم يعطهم كل آراضى المالك · وقد أعدم بتروف رميا بالرصاص سنة ١٨٦١ ·

٦٢ ★ هى المدرسة الألمانية التى تأسست ببطرسبرج فى القرن الثامن عشر ، وكانت ما تزال تقدر تقديرا عظيما حتى سنة ١٩١٨ ، وهو العام الذى ألغيت فيه ·

٦٢ ★ بلادنا المقدسة روسيا » : ان هذا القول : « بلادنا المقدســـة روسيا » نجده فى الأغانى الملحمية الروسية منذ عام ١٨٦١ · وكان رائجا فى الاوساط المنادية بالسلافية فى ذلك الأوان ·

٦٢ ★ كان دعاة الوحدة السلافية والوعى القومى يتكلمون فى ذلك الأوان كثيرا عن يقظة القوميات الســـلافية فى النمسا ـ المجر وفى تركيا ويحلمون بوحدة سلافية بقيادة روسيا المقدسة ·

٦٢ ★ « عهد الأمير ايجور : كان ايجور ، ابن روريك ، الأمير الأكبر لروسيا من سنة ٩١٢ الى سنة ٩٤٥

٦٤ ★ فى سنة ١٨٤٧ كان بيلنسكى فى الخـــارج فكتب الى جوجول رسالة حامية مضــــطربة سنة ١٨٤٧ بمناســـبة نشر جوجول لمراسلاته · وفى تلك الرسالة يهاجم الناقد مسيحية جوجول مؤكدا أن الشعب الروسى هو بين الشعوب أكثرها الحادا ·

أما الرواية التى بينت فيهـــا جورج صـــاند أن المسيحية لم تفهم الدين فلعلها رواية « ليلى » التى نشرت ســـنة ١٨٣٩ وعالجت فيها قضية المرأة ·

٦٥ ★ « المستطلع » : حكاية شهيرة من الحكايات التى كتبها كريلوف عن الحيوانات · فالمستطلع يتحدث عن زيارة قام بهـــا لمتحف التاريخ الطبيعى فاعجب بحشرات كثيرة ، لـــكنه لم يلتفت الى الفيل · أما قول دوستويفسكى « الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا » ، فلعله ينصرف الى أنبياء الاشتراكية الخيالية من امثال فورييه وكابيه وغيرهما ·

٧٠ ★ «يذكر بشباب الأمير هاري» : في مسرحية شكسبير التاريخية «هنري الرابع» ، نقرأ أن ابن الملك ، الامير هاري ، عاش حياة ماجنة في صحبة فالستاف · لكنه حين أصبح ملكا باسم هنري الخامس تكشف عن شخصية ملك عاقل حكيم نير ·

٧٩ ★ « واستطاع سنة ١٨٦٣ أن يتميز وأن يلمع » : (هو الأمير هاري أيضا) ، ولعل الاشارة هنا الى فترة قمع الثورة في بولنده ·

٨٣ ★ « الصوت » : هي الجريدة اللبرالية التي كان يصدرها كرايفسكي في بطرسبرج من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣

٨٨ ★ « كونسيدران » : هو فكتور كونسيدران (١٨٠٨ ـ ١٨٩٣) ، أحد مريدى فورييه ، فيلسوف واقتصادى فرنسي ·

٩٦ ★ هو الجنرال المتوفى ستافروجين ، والد نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ·

٩٧ ★ كان أوتو فون بسمارك الذى سيصبح مستشار ألمانيا ، كان سفيرا ببطرسبرج وباريس ، وكان يعد دبلوماسيا بارعا جدا ·

٩٨ ★ « كارمازينوف الكاتب ؟ » : هذه صورة كاريكاتورية للروائي الروسي الكبير تورجنيف · ان اسم كارمازينوف يذكر بالكاتب العاطفي كارامزين ، ولكن من الجائز أن دوستويفسكي قد أشتقه من كلمة بولندية تعني الارستقراطية · فيكون ذلك اشارة الى العادات الارستقراطية عند تورجنيف ·

١١٨ ★ « حملة ايجور » : ان القصيدة الروسية التي يرجع عهدها الى القرن الثاني عشر والتي تصور حملة الأمير ايجور دى سيفيريا على القومانيين سنة ١١٨٥ هي من أجمل القصائد الغنائية الوطنية الملحمية الروسية · وقد استخرج منها المؤلف الموسيقى بورودين موضوعا للأوبرا التي وضعها بعنوان «الأمير ايجور» · أما الجنرالة ستافروجين فكانت تعد هذا الأثر من آثار القرون الوسطى باعثا على الملل والضجر ·

١٢١ ★ هذه نقطة تقوى التشابه أو التوازى بين فرخوفنسكي وبين

الأستاذ جرانوفسكي الذي نشر سنة ١٨٥٤ بحثا بعنوان : « الملحمة الاسبانية » ٠

١٢٦ ★ « بتروشكا » : تصغير اسم بطرس تحببا وتدليلا ٠

١٣١ ★ « بانديجيه » : هو رجل حرفته البناء ، أعار ملابسه للأمير لويس نابوليون ليسهل له الهرب من سجن هآم سنة ١٨٤٦ ؛ يريد فرخوفنسكي أن يقول اذ يشبه نفسه ببانديجه انه ليس الا شخصا لا قيمة له ٠

١٤٠ ★ بين يوري نيكولسكي في كتيب أصدره بعنوان « تورجنيف ودوستويفسكي » في صوفيا سنة ١٩٢١ ، أن دوستويفسكي يحاكي في هذه الصفحة تورجنيف الذي يلح خاصة على مشاعره الخاصة ، والذي أشاح وجهه أثناء « تعذيب تروبمان » ، توقية لأعصابه ٠

١٤٥ ★ «لوحة تينييه» : كانت لوحات دانييل تينييه (١٦١٠ـ١٦٩٠)، مقدرة تقديرا عظيما في ذلك الأوان بروسيا ، كسائر آثار المدرسة الفلمنكية على كل حال ٠

١٤٦ ★ « الرجل الذي يضحك » : رواية فكتور هوجو التي ظهرت سنة ١٨٦٩ ٠ وكان دوستويفسكي يحب روايات فكتور هوجو كثيرا ٠

١٥٦ ★ « مؤتمر السلام ٠٠٠ » : هو مؤتمر « عصبة السلام والحرية » الذي عقد في جنيف سنة ١٨٦٧ وحضره دوستويفسكي، فسمع خطب غاريبالدي وفكتور هوجو وهرتسن وباكونين ٠ وان أفكار باكونين الفوضوية هي التي يقصدها المؤلف هنا حين يذكر أن المؤتمر قد خيب آماله ٠ لقد كتب دوستويفسكي الى س ٠ ايفانوفنا يقول لها في ١١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٦٧ :

«بدأوا بأن قالوا أنه لا بد من استئصال المسيحية للحصول على السلام في العالم٠ وفي رأيهم أنه متى انعدم كل شيء فان السلام يولد » ٠

١٦٧ ★ يظهر ان الاشارة هنا الى مثل روسي ترد فيه ألفاظ قاسية ٠٠

١٩٤ ★ الاشارة هنا الى حصار سيباستوبول سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٥ من قبل الجيش الانجليزى ـ الفرنسى ـ التركى ٠

١٩٨ ★ « كوروبوتشكا » شخصية من شخصيات كتاب « النفوس الميتة » لجوجول ، ومعنى الاسم «العلبة الصغيرة» ، والشخصية هى شخصية مالكة بخيلة محدودة تؤمن بالخرافات وتتسلط عليها الأوهام ٠

٢١١ ★ كان دوستويفسكى قد خطر بباله يوما أن يجمع فى كتاب طائفة من الوقائع المختلفة تصور الحياة الروسية وتستمد من الجرائد ٠

٢١٧ ★ تأسست جمعية لحماية الحيوانات سنة ١٨٧٥ ببطرسبرج ٠

٢١٧ ★ قبل اصلاح ١٨٦١ كانت قيمة الارض تقدر بعدد « النفوس » الأقنان ٠

٢٢٨ ★ الاشارة الى جملة لجوجول يقول فيها انه فى نقده يضحك من خلال الدموع ٠

٢٣٠ ★ بين آ ٠ دولينين فى تعليقه على رسالتين من دوستويفسكى أن قصة شاتوف عن سفره الى أمريكا تستمد بعض عناصرها من مقالة كتبها آ٠ أوجورودفيكوف وظهرت فى مجلة « الفجر » سنة ١٨٧٠ ، وفيها يتحدث الكاتب عن انطباعات رحلته الى أمريكا ٠

٢٣١ ★ « قانون لنتش » : من الاجراءات التى كانت معروفة فى أمريكا أن الجمهور حين يقبض على مجرم يستطيع أن يحكم عليه بالاعدام وأن ينفذ الحكم فورا ٠

٢٣٦ ★ « شاتوشكا » تصغير لاسم شاتوف من باب التودد والتدليل

٢٤٣ ★ هذه أغنية دينية شعبية ٠

٢٤٦ ★ هنا ينشد لبيادكين قصيدة جميلة (لكنه يشوهها) الشاعر الغنائى آتانازى فت شنشين ، نشرت سنة ١٨٤٣ ٠

٢٥٢ ★ « فانيا » تصغير اسم ايفان · وهو لقب يلقب به الحوذيون · وكانوا يلقبون أيضا بلقب فانكا ·

٢٥٤ ★ عرفت بعض مناطق روسيا بعض المجاعات أثناء ١٨٦٧

٢٨٩ ★ الكسي ايرمولوف (١٧٧٢ ــ ١٨٦١) : جنرال شهير برز أثناء حملة ١٨١٢ ، ثم أصبح بعد ذلك قائدا للجيش الروسي بالقوقاز ·

٢٩١ ★ بيت من الشعر مستمد من قصيدة كوكولنيك « الشك » ، وقد وضع ميشيل جلنكا موسيقى لهذه القصيدة ، فاشتهرت كثيرا·

٢٩٤ ★ « ··· ان كريلوف الشاعر الكبير الذى نظم حكايات عن الحيوانات ، قد أقام له وزير التعليم العام نصبا تذكاريا فى « حديقة الصيف » : ان هذا النصب الذى شاده المثال البارون كلودت قد أقيم سنة ١٨٥٦ ·

٢٩٦ ★ دينيس فاسيليفتش دافيدوف (١٧٨١ ــ ١٨٣٩) : ضابط من سلاح الفرسان ، قاد حرب أنصار سنة ١٨١٢ ، ونظم شعرا فى الحرب والخمرة ·

٣١٨ ★ « هوراسيو » هو الصديق المخلص لهاملت فى مسرحية شكسبير ·

٣٤٣ ★ هو ميشيل لونين (١٧٨٧ ــ ١٨٤٥) الضابط الذى كان أحد متمردي ديسمبر ١٨٢٥ · وقد نفى الى سيبريا ومات فيها · لقد قام ديسمبرى آخر هو سفستونوف بوصف طبع لونين . وذلك حين عاد من سيبريا سنة ١٨٥٦ ؛ ولا شك أن دوستويفسكى قد اطلع على مذكرات هذا الديسمبرى التى أودعت فى «الأرشيف الروسى» عام ١٨٧١ · يجب أن نشير هنا الى أن اسم الديسمبريين كان يطلق على أعضاء جمعيات سرية تشكلت فى روسيا فى نحو نهاية حكم الاسكندر الاول· فلما مات العاهل حاولوا فى ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ تحريك جيش سان بطرسبرج · ولكن نيقولا الاول الذى خلف الاسكندر الأول استطاع أن يسحق الثورة · وقد شنق خمسة ديسمبريين ، ونفى الباقون الى سيبيريا ·

٣٥٢ ★ « زمزتوف المقاطعة » أو هو مجلس للادارة المحلية فى الاقليم · وكثيرا ما كان هذه المجالس تبدى فى مناقشاتها آراء ليبرالية· وذلك ما لفت نظر وزارة الداخلية ·

٣٥٨ ★ « بازاروف » : نموذج عدمي وصفه تورجنيف في كتابه « الآباء والأبناء » ·

٣٥٨ ★ « نوزدريوف » : أحد شخوص كتاب جوجول «النفوس الميتة»· هو شخص كذاب مدع متبجح ·

٣٧٧ ★ « ملة الخصيان » : ملة صـــوفية يسمى أصحابها بالروسية « سكوبتزى » ، وهم يمارسون خصى أنفســهم نشدانا للكمال الأخلاقى ·

٣٧٨ ★ هل من حاجة الى التــذكير بأن « الرابطة الأممية للعمال » ، (« الأممية الأولى ») ، انما أسسها كارل ماركس بلندن سنة ١٨٦٤ ؟

٣٩٠ ★ ان البارون هكرن ، سفير هولانده فى روسيا ، قد تبنى شارل دانتيس الذى كان يغـــازل زوجة بوشكين · ففى ٢٦ كانون الثانى (يناير) ١٨٣٧ ، كتب الشاعر الى البارون رسالة مهينة تشتمل على سب وشتم ، وتتهم البارون بتهم بشعة عن علاقته بابنه المتبنى ؛ وفى تلك الرســالة طلب بوشكين البـارون الى المبارزة · وقد أناب السفير عنه فى المبارزة ابنه المتبنى دانتيس الذى أصاب بوشكين بجرح قاتل كما هو معلوم ·

٣٩٥ ★ من المعروف أن دوستويفسكى قـــد تأثر كثيرا بهذه العبارة الواردة فى رؤيا القديس يوحنا · وقد تحـدث عنها فى كتابه « الأبله » ·

٤١٧ ★ فى انجيل متي (الاصحاح الرابع ، ٩) أن الشيطان عرض على المسيح أن يكون له سلطان على مملكة هذا العالم · اشارة الى السلطة الزمنية للبابا الكاثوليكى بروما ·

٤١٨ ★ هذه العبارة نفسها وردت فى رسالة بعثهـا دوستويفسكي الى السيدة فونفيزينا من أومسك بعد خروجه من السجن فىشهر شباط (فبراير) ١٨٥٤

٤١٩ ★ راجع رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح الثاني والعشرين ، ١)٠

٤٢٤ ★ « ستنكا رازين » : زعيم عصبة قوقازية أثار الفلاحين في شرق روسيا وجنوبها من سنة ١٦٦٧ الى سنة ١٦٧١ ، وفي سنة ١٦٧١ خانه أنصاره فاعدم ٠

٤٢٦ ★ يعد الشعب الروسي الأرض أما ٠ وفي رواية «الجريمة والعقاب» نرى صوفيا تنصح راسكولنيكوف بتقبيل الارض تعبيرا عن التوبة والتكفير ٠

٤٢٧ ★ تصغير اسم بافل على سبيل التحقير ٠

٤٣١ ★ يتحدث أبناء الشعب عن أنفسهم أحيانا بصيغة الجمع من باب التأدب ٠

٤٣٢ ★ في عهد القنانة كان يجوز بيع الخـــدم عبيدا أو التنازل عن امتلاكهم سدادا لدين ٠

٤٣٩ ★ زوسيما هو اسم الراهب الذى أنشأ دير زولوفكي في الجزر المقفرة الخالية بالبحر الابيض في القرن الخامس عشر ٠

٤٣٩ ★ يروى لبيادكين هنا بيتين من قصيدة للأمير ب٠آ٠ فيازمسكي، وهما في ســـياقهما لهما معنى مختلف كل الاختلاف ، فالأمر هنالك أمر عربة ترويكا على الطرق الروسية ٠

٤٤٣ ★ أخمولنسك مدينة صغيرة في سيبريا الغربية ٠

٤٤٤ ★ يتحدث جوجول في وصيته (راجع الفصل الأول من «رسائله الى أصدقائه » ، ١٨٤٧) عن «قصة وداع» يصفها بانها أغنية نابعة من القلب ، ويجب أن لا تنشر الا بعد موته ٠ ولكن احدا لم ير هذه القصة يوما ، واغلب الظن أنها لم تكتب أبدا ٠

٤٥١ ★ المنشور المقصود هنا هو النداء المعروف الذى وزع سرا بعنوان « روسيا الفتاة » ٠

٤٥١ ★ هو جبريل دريافين (١٧٤٣ ـ ١٨١٦) : شاعر مشهور نظم قصيدة ذاع صيتها كثيرا عنوانها «رب» ، وفيها هذا البيت الذى اصبح كلاسيكيا :

انا ملك ، أنا عبد
أنا دود ، أنا رب

٤٦١ ★ جريشكا أوتريبيف : هو مغامر استطاع أن يقنع الناس بأنه دمتري ، آخر أبناء القيصر يوحنا الرابع الذى قتل سنة ١٥٩١، واستطاع أن يحظى بعرش روسيا سـنة ١٦٠٥ ؛ وحين قتله الشعب في السنة التالية استنكارا لميوله الكاثوليكية أعلنت الكنيسة طرده ، وكان هذا الطرد يتكرر كل سنة في الأحد الثالث من الصيام الكبير في جميع أنحاء روسيا •

٤٦٤ ★ فى الأغانى الروسية الشعبية ، كثيرا ما نقع على تشبيه الشاب بصقر نبيل •

٤٧٦ ★ « تلك المدرسة العسكرية الخاصة ••• » : هى مدرسة الحرس الامبراطورى ببطرسبرج التى كان لا يقبل فيهـا الا أبناء أو أحفاد جنرالات • أن تلاميذ هذه المدرسة يقومون بدور الحرس الغلمان فى احتفـالات البلاط الامبراطورى ، ويتخرجون من المدرسة ضباطا فى الحرس • وقد تحدث «الفوضوى ــ الأمير» عن هذه المدرسة فى « مذكراته » •

٤٩٤ ★ كانت المبـارزات شائعة جدا بروسيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، رغم أنهـا ممنوعة قانونا ، فكان الضباط الذين يقـومون بمبـارزات يجردون من رتبهم العسكرية ، ويرسلون الى القوقاز جنودا لا أكثر •

٤٩٧ ★ أنشئت المحـاكم الجـديدة سنة ١٨٦٤ فكانت محل هجوم الرجعيين عليها ، وتندرهم بها •

٥٠٠ ★ كان دوستويفسكي شديد الاعجـاب بمـارونا سيستين التى رسمها رافائيل والتى كانت فى معرض درسدن •

٥٠٢ ★ تشـكل « مجلس الامبراطورية » سـنة ١٨١١ كمجلس استشاري، وكان يناقش مشاريع القوانين مرتبطا بالامبراطور•

٥٠٦ ★ هى الرواية الاشتراكية التى كتبها تشيرنيتشفسكى ، ونشرت سنة ١٨٦٤ وحظيت بشهرة واسعة واعجاب كبير لدى الشبيبة

الراديكالية · وقد هاجمها دوستويفسكي مهاجمة شديدة في قصته « في قبوى » ·

٥١٤ ★ كان بين الألمان في روسيا عدد غفير من كبار العسكريين وكبار الموظفين ، لا سيما في عهد نيقولا الاول · « مولاى ، اجعلني بالترقية ألمانيا » كذلك قال الجنرال آ· ايرمولوف للقيصر نيقولا الاول الذى كان يريد أن يكافئه ·

٥١٥ ★ « فرا ديافولو » الاوبرا الكوميدية التى وضعها دانيل فرانسوا أوبير (١٧٨٢ ـ ١٨٧١) ، وكانت واسعة الشهرة والانتشار في ذلك الأوان ·

٥٣٤ ★ ان الحرب الفرنسية الالمانية التى قامت بين ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ تصورها هذه القطعة الموسيقية القصيرة في صورة صراع بين نشيد « المارسييز » وبين أغنية ألمانية عنوانها « حبيبى أوغسطين » · وقد سبق أن أشار دوستويفسكي الى هذه الأغنية في بداية روايته « مذلون مهانون » ، وهي تنتهي بهذه الجملة « أوغسطين راقد في الوحل » ·

٥٣٦ ★ كانت الموسيقى الواقعية رائجة في تلك السنين · وقد ألف موسجورسكي سنة ١٨٦٨ مجموعة قطع موسيقية بعنوان « لوحات من معرض » · وكانت احدى هذه القطع تمثل يهوديين يتشاجران ·

٥٤٠ ★ ان شخصية سيميون ياكوفلفتش هذه تذكر بشخصية واقعية هي ايفان ياكوفلفتش كوريشا (١٧٨٠ ـ ١٨٦١) ، وهو رجل متنبىء دجال كان له بموسكو معجبات ·

٥٥٧ ★ « فاموشكا » : تصغير اسم فوما تحببا ·

٥٦٢ ★ هو بنجامان كابفيج : مؤرخ فرنسى ملكى الاتجاه ·

٥٦٣ ★ يتهكم دوستويفسكى هنا على الرأى الذى ذهب اليه تشيرنيشفسكي القائل بأن « آثار الفن أقل قيمة من الجمال الواقعى » ، وهو الرأى الذى يدافع عنه تشيرنيشفسكي في كتابه « العلاقات الجمالية بين الفن والواقع » ·

٥٦٧ ★ بيتان من الشعر للشاعر بوشكين في قصيدته «الفارس الفقير»

٥٧٣ ★ هؤلاء هم المثلون الثلاثة » للمذهب المادى العامى » فى ذلك الأوان · فكتاب » رسائل فزيولوجية » (فوجت ١٨١٧ـ١٨٩٥) وكتاب » القوة والمادة » (لودفيج بوشنر ١٨٢٤ ـ ١٨٩٩) قد ساهما مساهمة كبيرة في نشر المادية والالحاد بروسيا بين ١٨٦٠ ـ ١٨٧٠ · وسوف يصف انجلز هؤلاء الكتاب بأنهم « باعة مادية رخيصة » ·

٥٧٣ ★ يحدثنا هرتسن في « مذكراته » أنه قد زاره في لندن سنة ١٨٥٨ فتى كان مسافرا الى جزر ماركيز وهو يحمل ثلاثين ألف فرنك لينشيء هنالك رابطة اشتراكية · والشاب انما هو في الواقع سيد اسمه بولس باخمتيف سافر فعلا الى نيوزيلانده ، ولم يعرف أحد ما صار اليه ·

٥٧٤ ★ هذه القصة مستوحاة من واقعة حدثت فعلا : وهى الاضراب الذى قام به عمال مصنع النسيج (ستيجلتس) في بطرسبرج سنة ١٨٧٠ ؛ ان نحو ثمانمائة عامل قد أعلنوا هنالك الاضراب لأن ادارة المصنع احتجزت جزءا من أجورهم بينما كانوا يطالبون هم بزيادة الاجور · وقد قدموا عريضة لرئيس الشرطة فزار المصنع ، فأحيل ثلاثة وستون عاملا الى المحاكمة في شهر حزيران (يونيه) · ان هذا « الاضراب الأول » الذى انطلق في روسيا قد أحدث أثرا عميقا ودويا كبيرا ·

٥٨١ ★ « بطل يثير الحمية » : معارضة لقصيدة نظمها مهاجر اسمه نيقولا أوجاريوف (صديق هرتسن) وأهداها الى الشاب نتشايف وطبعت بمدينة جنيف سنة ١٨٧٠ على ورقة مستقلة وأعاد نتشايف طبعها في العدد الثاني من جريدة « عدالة الشعب » الصادرة في جنيف أيضا ، وقد وزعت أثناء محاكمة ١٨٧١ بموسكو ·

٥٨٩ ★ مثل روسى معناه : كفى كلاما ولننتقل الى العمل ·

٥٩٠ ★ المرحوم هرتسن : معروف أن ألكسندر هرتسن قد مات بباريس فى ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٠ ·

٥٩٦ ★ « الشعبة الثالثة » من مكاتب الامبراطور هي الدائرة التي تهتم بالشئون السياسية وتلاحق الثوريين ٠

٦٠٤ ★ كان كوندراتي ريلايف شاعرا ذا موهبة كبيرة ٠ وقد نشر سنة ١٨٢٥ ديوانا من الشعر يضم قصائد تاريخية ، بعنوان «أفكار» ، وهي قصائد تستلهم روحا وطنية ليبرالية ٠ وبعد أعدام ريلايف سنة ١٨٢٦ ، بصفته أحد قادة ثورة ديسمبر ، انما منعت الرقابة آثاره ٠

٦٤٢ ★ هـذا تذكر لأغنية شعبية تصور زعيم ثورة ١٦٦٧ ، ستيفان رازين ، مبحرا في نهر الفولجا مع فتاة جميلة جالسة على حافة سفينته ٠

٦٤٢ ★ « الأممية » أو « الأنترناسيونال » : معروف أنه كان في ذلك الأوان أمميتان اثنتان احداهما هي « الرابطة الأممية للعمال » التي أسسها كارل ماركس في لندن سنة ١٨٦٤ ، والثانية هي « الرابطة الديموقراطية الاشتراكية » التي انشأها باكونين في جنيف ٠ ولقد كان نتشايف على صلة بالثانية ٠

٦٤٣ ★ « اذا لم يكن هذا واقعا فهو خيال جميل » : من الأمثال السائرة الايطالية

فهـــرس

الأعمال الأدبية الكاملة